الدكتور
صفوح خير

مدينة دمشق

دراسة في جغرافية المدن

الدكتور
صفوح خير

مدينة دمشق

دراسة في جغرافية المدن

منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي

دمشق - ١٩٦٩

المقدمة

كانت غوطة دمشق موضوع كتاب تفضلت بنشره وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي في عام ١٩٦٦ . ولم يكن إختياري لمنطقة الغوطة يهدف الى دراستها فحسب ، وإنما كنت أتطلع الى استكمال هذه الدراسة ببحث يتناول مدينة دمشق ، لما بين هاتين الظاهرتين البشريتين من صلات وثيقة وعلائق وشيجة ، فدمشق التي كانت وما زالت مركزاً اقتصادياً وسياسياً هاماً ، تدين بأهميتها الى غنى الواحة التي تحيط بها ، بل ان دمشق وليدة هذه الواحة ، ولا يمكن معرفة احداهما بدون الأخرى .

والواقع انه لو لم تكن الغوطة موضوع كتاب سابق ، لما اخترت بين المدن السورية سوى دمشق ، وذلك لأسباب عديدة ، فالمدن الساحلية تتصف بصفات خاصة من حيث انها موانىء بحرية ، ومن حيث موقعها في عالم البحر المتوسط ، ولا يخفى انها اكتسحت وخربت مرات عديدة ، حتى أصبح من الصعب على الباحث ان يتتبع مظاهر تطورها بشكل واضح . اما المدن الداخلية الصغيرة كحمص وحماه والمعرة وغيرها ، فكلها جديرة بالدراسة لعراقتها في القدم ، إلا انه ليس لدينا من المصادر القديمة مايسهل علينا تتبع نموها العمراني منذ نشأتها حتى الوقت الحاضر .

بقيت المدينتان الكبيرتان اللتان تتوافر بشأنهما المعلومات التاريخية وهما دمشق وحلب . وكان من الطبيعي ان يقع اختياري على دمشق ، فمدينة حلب قد وضعت عنها دراسة سابقة[1]، كما ان أهمية مدينة دمشق قد شجعتني على اختيارها موضوعاً للبحث ، فهي تفوق مدن الأرض الباقية كلها قدماً ، فقد كانت عامرة قبل ان تولد بغداد والقاهرة ، وبقيت مدينة عامرة بعد مازال اترابها واندثرت منهن الآثار . فعلى أرضها اصطرعت مختلف المدنيات ، وخلفت وراءها أوابد تحكي قصة الانسان الذي عاش في أرض دمشق قبل التاريخ وبعده . كما ان موقعها في نقطة التقاء الشرق والغرب جعلها تشهد ازدهار المعرفة وانطفاء الحضارات منذ فجر الحياة.

واذا كانت المعلومات التاريخية عن مدينة دمشق متوفرة نوعاً ما ، فان احصاءاتها تعاني نقصاً كبيراً ، يعتبر من اكبر العقبات التي يصادفها الباحث في دراسته ، فسجلات الأحوال المدنية لم يبدأ تنظيمها إلا منذ عام ١٩٢٢ ، كما ان الإهمال والفوضى قد قضيا على جزء كبير منها ، هذا فضلا عن ان الحصول على بياناتها يكلف وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً . ولم تشهد البلاد سوى تعدادين للسكان أحدهما في عام ١٩٤٧ ، والآخر في عام ١٩٦٠ ، ولكن نتائج التعداد الأول لم تنشر بسبب بعدها عن الواقع ، وبذلك أصبح التعداد الأخير معقد الأمل في إعطاء صورة صادقة عن سكان دمشق في وضعها الراهن .

وليست البيانات الاجتماعية والاقتصادية أحسن حظاً من الإحصاءات السكانية ، وقلما يعثر الباحث على دراسة علمية تعالج هذه الموضوعات معالجة موضوعية ، ولذلك يصبح اللجوء الى الاحصاءات التي أجرتها وزارة التخطيط بطريقة العيّنات - على قدمها أحسن وسيلة لإعطاء صورة تقريبية عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية السائدة في المدينة .

---

(١) رسالة تقدم بها الدكتور عبد الرحمن حميدة الى جامعة باريس لنيل درجة الدكتوراه (المتممة) في الآداب عام ١٩٥٩

وأخيراً ، يلاحظ ان الحدود الادارية لمدينة دمشق لاتتفق مع الحدود العمرانية للمدينة ، وهذا يعتبر - بلا شك - أبرز الصعوبات التي ستواجه أي باحث جغرافي يحاول دراسة مدينة دمشق ، إذ لايمكن إعتبار القمم الجبلية الجرداء في جبال قاسيون ، أو الأراضي الزراعية الخضراء في سهل الغوطة داخل نطاق دمشق من الوجهة العمرانية . والمعروف ان جميع البيانات والاحصاءات الحكومية التي تمثل مصدراً أساسياً من مصادر البحث لاتعترف إلا بالحدود الادارية .

* * *

يعالج هذا البحث دراسة مدينة دمشق في سبعة أبواب ، يشتمل كل منها على عدد من الفصول ، يدرس الباب الأول الخصائص الطبيعية لمدينة دمشق ، وينقسم هذا الباب الى ثلاثة فصول ، يعالج الأول منها المظاهر الجيومورفولوجية في مدينة دمشق ، وقد درس البنية ، ووجه إهتماماً خاصاً الى الزمن الرابع ، لأن رواسبه تمثل ميدان الدراسة ومسرحها الرئيسي . ثم تناول العوامل الباطنية والخارجية التي أثرت في سطح المدينة ، كما درس اشكال السطح والعوامل التي أثرت في تشكيله .

وتناول الفصل الثاني دراسة مناخ دمشق بعناصره المختلفة ، من حرارة ورياح ورطوبة وأمطار ، وأثر كل منها في انماط البناء وتطور العمران ، فضلاً عن أثرها في مظاهر الحياة البشرية في المدينة ، وتلا ذلك فصل ثالث درس التصريف المائي في مدينة دمشق ، فتناول نهر بردى وفروعه ، ودرس نظام جريان المياه خلال مواسم الجفاف والأمطار .

أما الباب الثاني ، فقد تناول دراسة النمو العمراني لمدينة دمشق منذ نشأتها حتى الوقت الحاضر . ولما كان تاريخ المدينة الحافل ، قد مر بثلاثة أدوار رئيسية ، لذا كان لزاماً ان يفرد فصل لكل دور من هذه الأدوار . وقد حلل

الفصل الأول العوامل التي دعت الى قيام مدينة دمشق في هذه المنطقة ، بما في ذلك اعتبارات الموقع والموضع الجغرافي ، واشتمل هـــذا الفصل على العهد الذي أصبحت فيه دمشق عاصمة المملكة الآرامية ، حتى نهاية العهد اليوناني الروماني الذي تخلت فيه عن مركز الصدارة الى مدينة انطاكية .

ومنذ أواخر العصر الروماني حتى مطلع العصر الحديث ، شهدت دمشق دوراً ثانياً من حياتها ، تناوبته فترات مختلفة من الازدهار والاضمحلال ، فقـــد عاشت عصرها الذهبي أيام الأمويين ، ثم انحطت الى مصاف المدن الثانوية في أيام العباسيين وملوك الطوائف، وعادت مرة أخرى عاصمة للحكم ومقراً للبلاط في عهد السلجوقيين والأيوبيين بعد أن فقدت هذا المركز قروناً طويلة ، ولكنها لم تلبث أن تحولت الى قصبة ولاية في عهد المماليك والعثمانيين الذي استمر حتى مطلـــع العصر الحديث . وقد كان هذا الدور من نصيب الفصل الثاني .

أما الفصل الثالث ، فقد عالج نمو المدينة في العصر الحديث ، وقد قسم الباحث هذا الدور الى فترتين ، تبتدىء الأولى بدخول ابراهيم باشا الى سوريا في عام ١٨٣٢ ، وتنتهي بانتهاء السيادة العثمانية في أواخر الحرب العالمية الأولى ، بينما تبتدىء الفترة الثانية في عام ١٩٢١ وتستمر حتى الوقت الحاضر . وقد تناولت هذه الدراسة نمو الأحياء المختلفة في المدينة وتطورها ، كما أبرزت العوامل المختلفة التي ساعدت على نمو المدينة في مختلف إتجاهاتها .

وتناول الباب الثالث دراسة سكان مدينة دمشق من الناحية الديموغرافية . وينقسم هذا الباب الى ثلاثة فصول ، استعرض أولها نمو سكان دمشق منذ أواخر القرن الماضي حتى الوقت الحاضر ، وحلل عوامل نمو السكان من زيادة طبيعيـــة وهجرة خارجية وداخلية .

ودرس الفصل الثاني تكوين السكان في دمشق من حيث الجنس وفئات

السن تمهيداً للتنبوء بالمستقبل العددي لسكان دمشق . كما تنـــاول التصنيف المهني والتكوين الديني والعرقي للسكان ، لما لهما من أثر واضح في توزيع السكان وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية .

ويأتي بعد ذلك ، فصل ثالث ، يعنى بالتوزيع العددي للسكان، وتوزيع كثافة السكان وكثافة المساكن ودرجة التزاحم . وينتهي الباب الثالث بدراسة المستقبل العددي لسكان دمشق .

واهتم الباب الرابع بدراسة مورفولوجية مدينـــة دمشق ، وذلك في اربعة فصول عالج الأول منها التركيب الوظيفي للمدينة ومدى ملاءمة المواضع التي تشغلها المنشآت والمرافق الحالية تبعاً للأصول الحديثة لتخطيط المدن . وقد تضمن هذا الفصل الأسواق التجارية والمراكز الصناعية والمناطق السكنية ،فضلاً عن الحدائق والمقابر والاراضي الزراعية الخضراء .

وعني الفصل الثاني ، بدراسة طبوغرافية المدينة بقسميها القديم والحديث ، وأبرز العوامل المختلفة التي اعطت شوارع المدينة وحاراتها ، وازقتها ومنعطفاتها، صورتها التي هي عليها في الوقت الحاضر ، ثم تلا ذلك الفصل الثـالث ، ليكمل هذه الصورة بدراسة المسكن وطرق بنائه، ويستعرض مختلف انماطه التي تمثـــل الاجيال المتعاقبة على المدينة ، كما تعكس الأثر القومي لمصادر السكان واختلاف مستواهم الاجتماعي .

وأفرد الفصل الرابع لدراسة المواصلات الداخلية وتطور وسائل النقل في المدينة ، ودرس مدى كفايتها في توفير الاتصال بين اقسام المدينة المختلفة ، كما اوضح اثر هذه المواصلات في نمو المدينة واتساعها .

وتناول الباب الخامس العلاقات المكانية لمدينة دمشق ، وقد اشتمل هذا الموضوع على فصلين ، عالج الأول دمشق في غوطتها ، لما بينهما من علاقة اجتماعية

واقتصادية مباشرة تتجاوز العلاقة التموينية ، وتختم دراسة التفاعل الديموغرافي والاقتصادي والعمراني ومدى تأثيره على تخطيط مدينة دمشق .

وعالج الثاني دمشق العاصمة للقطر السوري ، متوخياً استقصاء العلاقة بين التخطيط القومي وتخطيط المدينة ، محاولاً الكشف عن العوامل التي تؤثر على تنمية المدينة ، والتي تنبثق اساساً من خارج الموضع المحلي ، فتناول موقع العاصمة بالنسبة الى القطر السوري ، ثم الثقل الديموغرافي والتفوق الاقتصادي لمدينة دمشق ، واخيراً مكانة دمشق في الشرق الاوسط .

واختص الباب السادس بمشكلة تموين المدينة ، فدرس الفصل الأول ، تزويد المدينة بالمياه ، ومهد لذلك بدراسة موجزة لتوزيع مياه الانهار في دمشق وطرق تصريف فضلاتها ، كما درس المياه الجوفية فيها من عيون وآبار ، ثم انتقل الى دراسة نبع الفيجة ، ومراحل ايصال مياهه الى دمشق ، كما تناول شبكة توزيع المياه وخزاناتها ، وانتهى الى استعراض النتائج التي ترتبت على سحب مياه الفيجة الى دمشق . وألحقت بهذا الفصل دراسة سريعة عن تزويد المدينة بالكهرباء والغاز ، على اعتبارهما من الحاجات الضرورية في المدينة الحديثة ، كما انهما مقياسان صحيحان لرقي البلاد وتقدمها .

أما الفصل الثاني ، فقد عني بمعالجة مشكلة التموين بالمواد الغذائية الرئيسية ، ومدى كفايتها لاعداد السكان المتزايدة في المدينة ، فاشتملت هذه الدراسة على الخضراوات والفواكه بسبب صعوبة تموينها وسرعة تلفها وفسادها ، كما تضمنت اللحوم والالبان على اعتبارهما من المواد الغذائية الضرورية ، هذا بالاضافة الى بعض الغلات الغذائية الأخرى كالقمح والارز والسكر .

وقد استعرض فصل التموين ، معدلات الاستهلاك العامة للمواد الغذائية المختلفة لمدينة دمشق ، ودرس مدى كفاية الضواحي القريبة او ما يدعى بالتموين

القريب ، ومدى النقص الواجب توفيره من المناطق البعيدة ، أو ما يدعى بالتموين «البعيد» ، وهنا تعوزنا الاحصاءات فنلجأ الى التقديرات لاعطاء صورة تقريبية عن هذه المشكلة الحيوية .

ويهدف الباب السابع والاخير ، الى محاولة وضع تخطيط جديد لمدينة دمشق ، وقد تضمن تنظيم المدينة ومداخلها ومواصلاتها ، وتناول المشروعات الخاصة بمحطتها ومطارها ، وجامعتها وادارتها المختلفة ، كما استعرض المشروعات المقترحة لتوفير المياه اللازمة للمدينة خلال سنواتها المقبلة ، ولم يغفل الحديث عن تخطيط الغوطة على اعتبارها تمثل مع المدينة وحدة اقتصادية متكاملة لا يمكن تنظيم احداهما بدون الاخرى . وقد وضعت المظاهر الطبيعية في مدينة دمشق موضع الاعتبار ، كما حرص التخطيط التنظيمي الجديد على المحافظة على المنطقة الخضراء وركز التوسع على المنطقة الجرداء ، واهتم بصيانة الطابع التاريخي للمدينة كحفاظه على الغلالة الخضراء .

* * *

وختاماً ، أرى من واجبي ان أتقدم بخالص الشكر الى وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي ، التي تبنت طبع هذا الكتاب ونشره ، رغبة منها في التعريف بهذه المدينة الخالدة وتحقيق اشتراكية الثقافة .

ولا يفوتني ان اسجل شكري الجزيل لاستاذي الكبير الدكتور «ابراهيم احمد زرقانه» رئيس قسم الجغرافيا بجامعة القاهرة ، واستاذي القدير الدكتور «محمد صفي الدين» وزير الشباب في الجمهورية العربية المتحدة ، اللذين اشرفا على اعداد هذا البحث ، ولم يألوا جهداً في تقديم كل عون .

وكذلك أتقدم بالشكر الخالص الى استاذي الكبير الدكتور «محمد محمود

الصياد ، وكيل كلية البنات بجامعة عين شمس ، واستـــاذي الكريم الدكتور « محمد صبحي عبد الحكيم » المستشار الثقافي للجمهورية العربية المتحدة في موسكو ، اللذين زوداني بالكثير من آرائهما السديدة وتوجيهاتهما القيمة .

والشكر أخيراً ، الى الزميل العزيز المهندس القدير السيد « ممدوح زركلي » رئيس الدائرة الفنية في أمانـــة العاصمة ، الذي أمدني بالكثير من الدراسات والبيانات ، وسدد خطاي في الفصول الأخيرة من هذا الكتاب .

الباب الأول

الخصائص الطبيعية لمنطقة دمشق

الفصل الأول : المظاهر الجيومورفولوجية في منطقة دمشق
البنية ــ العوامل التي أثرت في سطح منطقة دمشق: العوامل الباطنية ــ العوامل الخارجية . أشكال السطح في منطقة دمشق .

الفصل الثاني : مناخ دمشق .
محطة الارصاد الجوية بدمشق ــ الحرارة ــ الضغط الجوي والرياح ــ الرطوبة ــ الأمطار ــ السحاب والضباب وسطوع الشمس ــ خاتمة .

الفصل الثالث : التصريف المائي في منطقة دمشق .
نهر بردى ــ المجموعة الأولى من اقنية بردى ــ المجموعة الثانية من اقنية بردى ــ تداخل شبكات المياه في منطقة دمشق ــ نظام جريان المياه في نهر بردى .

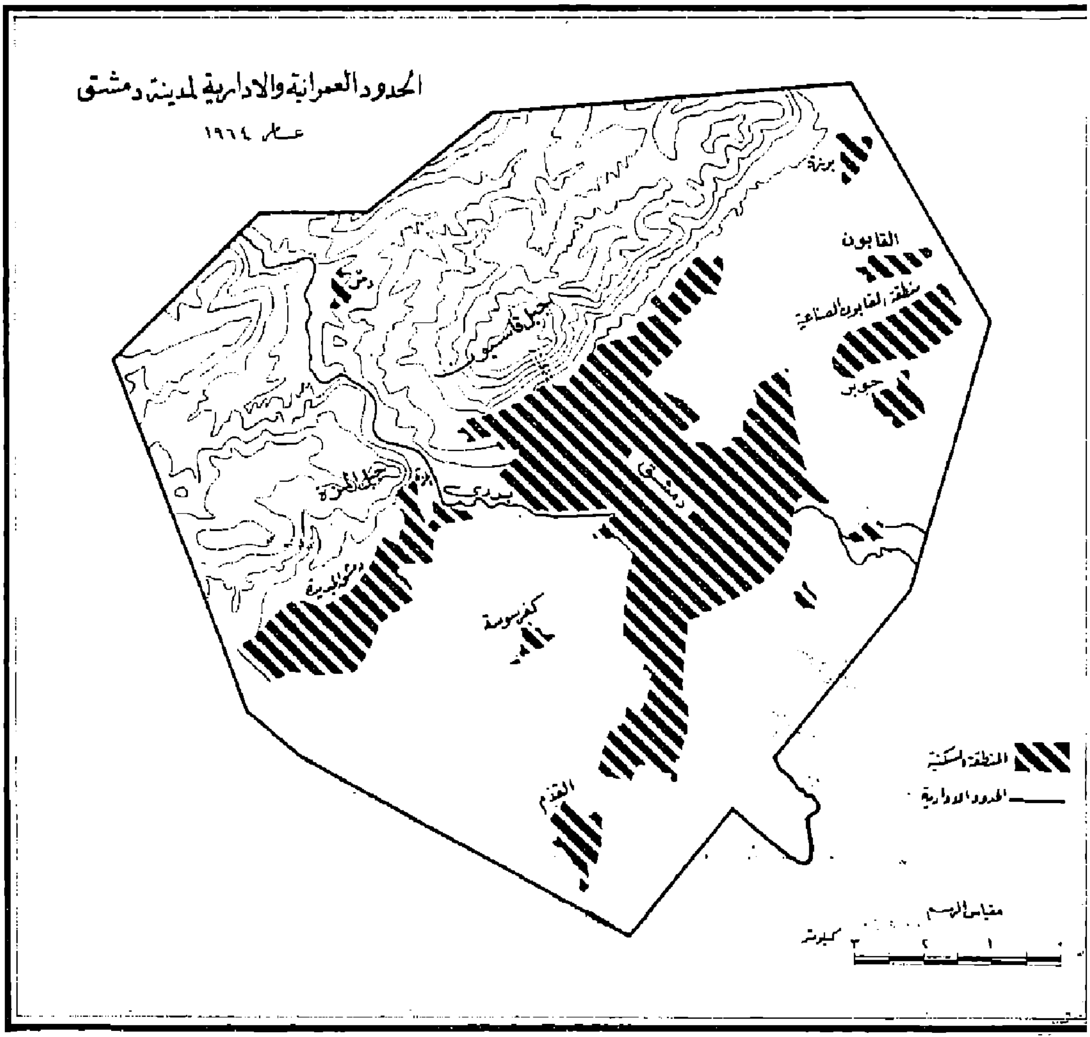
الفصل الأول

المظاهر الجيومورفولوجية في منطقة دمشق

على بعد عشرة كيلو مترات من خانق الربوة وعلى الضفة الجنوبية لنهر بردى ، تقوم مدينة دمشق القديمة خلف اسوارها الرومانية وحصونها القديمة ، التي ظلت تقبع وراءها حتى القرن الثاني عشر ، ضمن مضلع لا تزيد مساحته على بضعة هكتارات .

ويبدو من دراسة شكل المدينة ، ان نموها واتساعها لم يكن في جميع الاتجاهات على حد سواء،فامتداد دمشق من الجهة الشرقية يكاد يكون معدوما، وكأن السور في تلك الجهة ما يزال يحيطها من الشرق ويمنعها من الانطلاق الى خارجه . اما من الناحية الجنوبية ، فيأخذ الاتساع شكلاً شريطيا ، لا يكاد يشغل سوى طرفي الشارع العام الذي يصل بين قلب المدينة وحي الميدان .ونرى مثل هذا الامتداد في الجهة الشمالية الغربية ايضا حيث تكتنف الدور والمحلات التجارية اطراف شارع الصالحية الذي يصل بين دمشق القديمة جنوبا وسفح قاسيون شمالا،حيث تشغله احياءالصالحية والاكراد والمهاجرين (شكل ١) .

شكل (١)



الحدود العمرانية والادارية لمدينة دمشق
عام ١٩٦٤
برزة
القابون
منطقة القابون الصناعية
جوبر
دمشق
جبل قاسيون
جبل المزة
كفرسوسة
القدم
المنطقة السكنية
الحدود الادارية
مقياس الرسم
٠ ١ ٢ ٣ كيلومتر

غير ان امتداد مدينة دمشق واتساعها يأخذ شكله الواسع في الجهة الغربية والجنوبية الغربية في الوقت الحاضر ، حتى كادت اطراف المدينة تتصل بضواحيها ، بل ان هذا الاتجاه قد اصبح منطلق المدينة الذي يوفر لها المساحة اللازمة لنموها واتساعها ويحافظ على غلالها الخضراء ويبقيها .

اما الحدود الادارية لمدينة دمشق ، فهي تشمل مساحة اوسع ، تبلغ مائة كيلو متر مربع تقريبا ، او ما يعادل خمسة امثال المساحة المبنية من المدينة . وهي تضم ثلاث مناطق متميزة ، الاولى جبلية جرداء تشغل ما يقرب من ثلث المساحة العامة المدينة ضمن حدودها الادارية (٣٣كم٢) ،وتشتمل على جبلي قاسيون والمزة اللذين يطوقان المدينة من الشمال والغرب ويشرفان عليها، وتفصل بينهما خوانق بردى التي حفرها النهر من الغرب الى الشرق .

والثانية سهلية خضراء ، تشغل ما يقرب من نصف المساحة العامة للمدينة ضمن حدودها الادارية (٤٨ كم٢) . وهي تحتل الركن الشمالي الشرقي من غوطة دمشق وتعتبر جزءا منها ؛ تغطيها غابة كثيفة من الاشجار المثمرة ، تتداخل مع المنطقة السكنية فتكسبها السحر والجمال وتمنحها الرطوبة والظلال .

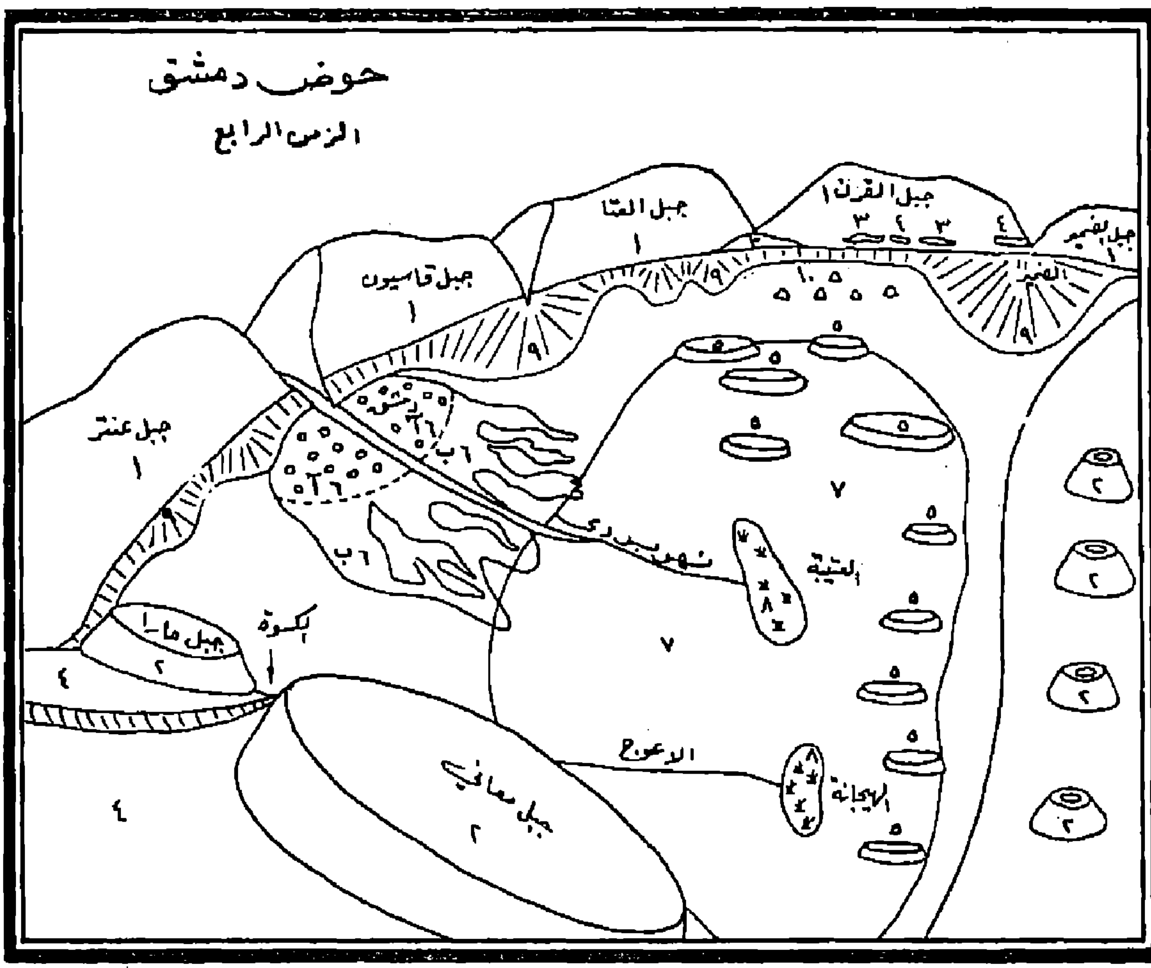
اما الثالثة فتتوسط سابقتيها ، وتضم الرقعة المبنية من دمشق بما فيها من مساكن ومصانع وشوارع وحدائق وغيرها ، وهي تشغل نحو عشرين كيلومتراً مربعا ، او ما يعادل خمس المساحة العامة ، يتوسد رأسها ركبتي قاسيون ويسبح جسمها بين امواج متلاحقة من الاشجار في منظر ساحر خلاب ، لا يجد الانسان له مثيلا في اية بقعة اخرى من الارض السورية .

نخلص مما تقدم ، الى ان هذه المنطقة تتميز بظاهرة التنوع الجغرافي ، فهي تضم جزءا من اراضي الغوطة الخضراء ، نشأت فوقه مدينة دمشق وترعرعت ، وجزءا من جبال القلمون الجرداء نمت على سفوحه المدينة واتسعت .

البنيـــة :

تقوم مدينة دمشق على الطرف الغربي من حوض واسع يقع الى الشمال من هضبة حوران يعرف بحوض دمشق ، تطوقه سلاسل القلمون من الشمال والغرب ، والطفوح البركانية من الجنوب والشرق (شكل ٢) .

الشكل رقم ٢



١ ـ جبال جيرية ٢ ـ بازلت ٣ ـ كثبان رملية ٤ ـ مارن كيري يرجع الى البحيرة الكبيرة

٥ ـ بقايا البحيرة الصغيرة (منسوب ١٥م) ٦ ـ مروحة بردى ٦ آ ـ حصى خشن ٦ ب رمل وحصى صغير

٧ ـ صلصال أسود ٨ ـ مستنقعات ٩ ـ رواسب سفحية حرثية ١٠ ـ تلال طينية

عن ڤان لير

ويعود تشكل هذا الحوض الى اواخر الزمن الثالث ، حينما ارتفعت السلاسل التدمرية[1] كرد فعل للالتواءات الالبية . وتحددت معالم هذا الحوض بواسطة الحمم البركانية التي تدفقت من الجنوب – من كتلة المانع – على دفعات عديدة ، في اواخر الزمن الثالث . ثم تابعت الحمم البركانية فيما بعد التفافها حول الحوض من جهة الشرق ، ففيما وراء بحيرة العتيبة تمتد منطقة ديرة التلول التي تفصل حوض دمشق عن بادية الشام .

وعلى أثر تشكل هذا الحوض وبروز الجبال حوله ، غمرته المياه ثم ردمته الرواسب التي كانت تلقى فيه من المناطق الجبلية المجاورة ، في وقت كان يشهد الاقليم خلاله عصراً مطيراً .

وتغطي أغلب مساحة حوض دمشق الآن ، رواسب ترجع الى الزمن الرابع ، منها ما هو على شكل دماليك Conglomerate ، ومنها ما هو على شكل طبقات من الطين الناعم ؛ وتكون هـذه الدماليك عادة بالقرب من السفوح الجبلية ، وعند مخارج السيول منها ، كما هي الحال على طرفي خانق الربوة .

واذا قصرنا ميدان الدراسة على منطقة عمران المدينة نفسها ، نجد أن دمشق لم تحظ بدراسة جيولوجية مفصلة ، توفر لمخططاتها التنظيمية أساساً يمكن الاعتماد عليه في تعيين المناطق الصلبة من الرخوة وتحديد أعماقها ودرجة مقاومتها . وقد شهدت دمشق أكثر من حادث انهيار أرضي في روابي المزة وسفوح قاسيون تؤكد أهمية هذه الدراسة .

اما اعمال المسح الجيولوجي ، الذي قام به الخبراء السوفييت اخيراً للأراضي السورية كافة ، فقد جرى بمقياس ١ : ٢٠٠٠٠٠ ، ولذلك فهو لا يؤدي

---

(١) وتدعى أيضاً بسلاسل القلمون .

الغرض المرجو منه كاملاً ، رغم ماأضـــافه من تفصيلات جديدة على الخرائط الجيولوجية التي وضعها الجيولوجي الفرنسي لويس دوبرتريه سابقاً . وهذا لن يثنينا عن إبراز الملامح الرئيسية لبنية هذه المنطقة ، في ضوء الخرائط المتوفرة .

ولا شك في أن جبل قاسيون ، يعتبر أصدق سجل للحوادث الجيولوجية التي تعاقبت على هذه المنطقة ، فاذا ألقينا نظرة على الخريطة الجيولوجيـــة لمنطقة دمشق ، نلاحظ فيها التكوينات الآتية : (شكل ٣) .

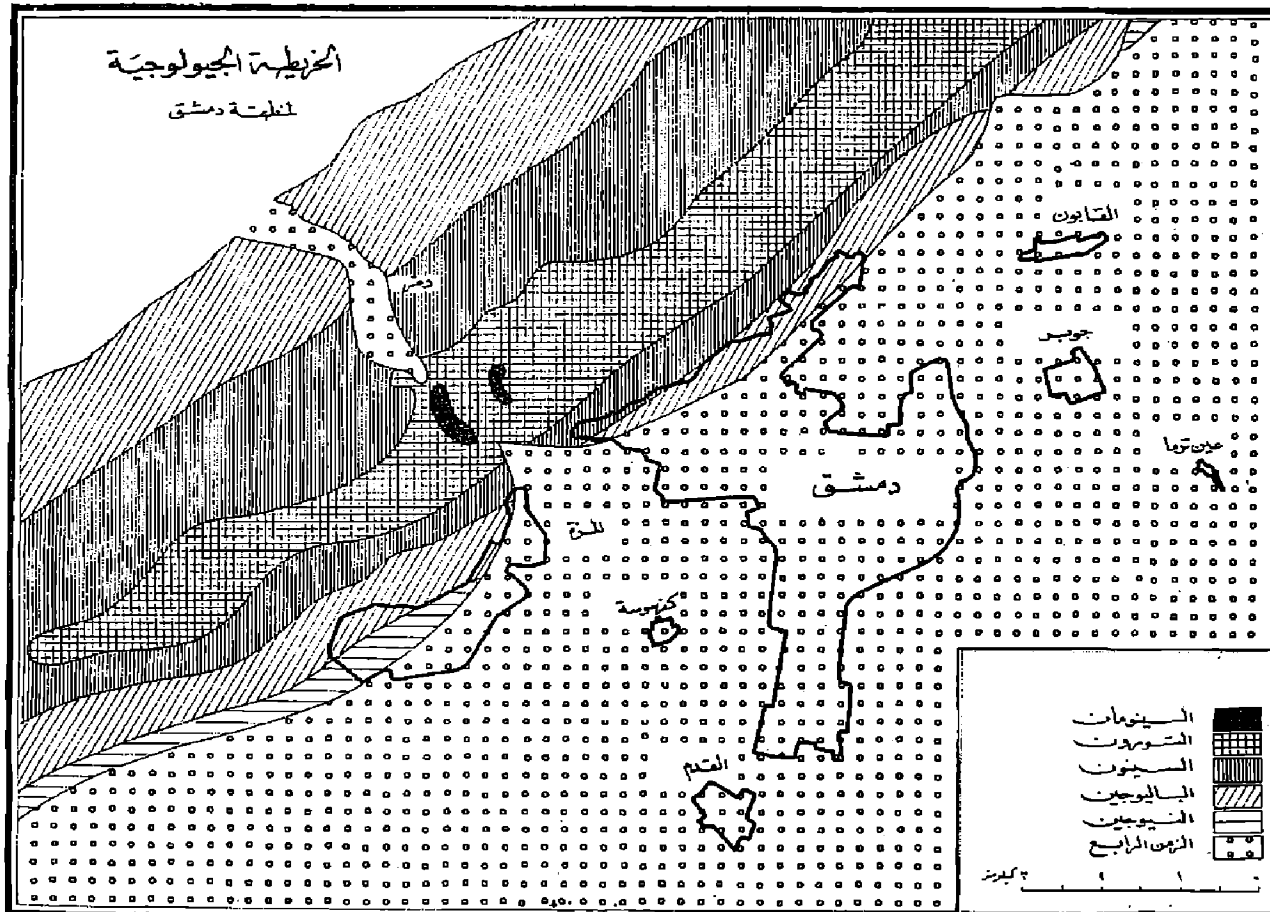
١ – تكوينات العصر الكريتاسي الأعلى :

وهي تمثل أقدم الصخور التي تظهر في منطقة دمشق ، وتشغل مساحات واسعة في جبل قاسيون . وتتألف من صخور جـــيرية دولوميتية ، تكثر فيها الصدوع بسبب الحركات التكتونية التي انتابت هـذه المنطقة . ويشتمل العصر الكريتاسي الأعلى – حسب التقسيم السوفييتي – على فترات السينوماني والتوروني والسينوني .

آ – **السينوماني** : تظهر صخوره على شكل طيّة صندوقية في نواة جبل قاسيون ، لايزيد طولها على الكيلو متر الواحد ، بينما يتراوح سمك القسم الظاهر منها بين ٢٠ – ٣٠ متراً. وقد استطاع النهر أن يكشف عنها اثناء تعميق مجراه ، في الطريق الواصل بين دمر والربوة ، وتتألف رواسبه من الحجر الجيري الكثيف[١].

(١) حسن زينو – دراسة جيولوجيه ميدانية عن منطقة دمشق (غير منشورة). ١٩٦٥ .

شكل (٣)



مكبرة أربع مرات عن الخريطة الجيولوجية لمنطقة دمشق ١/[illegible]

ب – التوروني : وهو يشغل مساحة واسعة ، تغطي الأقسام العلوية من جبل قاسيون ، بينما تختفي صخوره تحت الطبقات السينونية في منطقة السفوح الدنيا . وتظهر مقاطعه، بشكل واضح ، في وادي برزة وخانق الربوة على السواء.

أما صخوره فتتألف من الحجر الجيري والدولوميت ، ويغلب عليها اللون الرمادي الفاتح . وهي تستثمر في المقالع المتعددة التي تنتشر في أراضي برزة والمزة ، حيث تستخدم في أعمال البناء بعد تكسيرها ، ويقدر سمكها بحوالي ١١٧ متراً (١).

ج – السينوني : وهو يشكل حزاماً يحيط بالتكوينات التورونية ، ويتألف من الحجر الجيري الطباشيري والمارل والصوان . وقد أدت الحركات التكتونية الى حدوث كسر أصاب المنطقة الصوانية من السينوني (الكامباني)(٢) بسبب ملاءمتها للحركات التكتونية .

وقد انتشرت المقالع على طول منطقة التصدع ، وبدأ أبناء دمشق باستثمارها منذ زمن طويل . وهي تبدو بوضوح في المنطقة الممتدة بين نهاية حي الأكراد ووادي برزة في الشمال الشرقي ، كما تظهر أيضاً فوق السفوح المشرفة على خانق الربوة في الجنوب الغربي . ويبلغ سمك الطبقات السينونية نحو ٣٥٤ متراً (٣) . ومن الجدير بالذكر ، أن المدينة قد زحفت بعمرانها فوق سفوح قاسيون حتى بلغت النهايات العليا للتكوينات السينونية .

---

(١) Ponikarov, V. P., The geological map of Syria, scale 1 : 2000.000, sheet, 1-37-VII, Damascus, Explanatory notes (Text), Moscow, 1963, p. 70.

(٢) يتألف السينوني حسب التقسيم السوفييتي ، من الأقسام التالية : كونياسي ، سانتوني ، كامباني ، مايستريختي ، داني .

(٣) عن المهندس الجيولوجي حسن زينو .

٢ ـ التكوينات الباليوجينية :

يصعب التفريق بين الرواسب السينونية والباليوجينية نظراً لتماثل التركيب الصخري بينهما ، فالصخور الجيرية الطباشيرية مع المارل والصوان تسود هذه التكوينات .

يتمثل الباليوجين في منطقة دمشق بالباليوسين والقسم الأدنى من الآيوسين الأسفل فقط . وتظهر صخوره بفتراته المختلفة في مناطق محدودة جداً ، على شكل شريط ضيق يمتد على طول السفح الجنوبي لقاسيون ، يحيط بالتكوينات السينونية السابقة ، ثم لا يلبث أن يختفي تحت رواسب الزمن الرابع في الجنوب . ويتراوح سمك طبقاته بين ٣٦٠ – ٥٤٠ متراً [١] .

ويلاحظ من دراسة الخريطة الجيولوجية لمنطقة دمشق ، أنها لا تضم أية تكوينات نيوجينية ، وذلك بسبب ظهور رواسبها القارية بعيداً عن المنطقة التي نهتم بدراستها .

ومن الجدير بالذكر ، أن فترة النيوجين تميزت بكثرة الاندفاعات البركانية ، فقد تعرضت منطقة حوض دمشق أبان عصر الميوسين لنشاط بركاني واسع فتتابعت الطفوح البركانية خلال فترة النيوجين واستمرت حتى العصر الحديث ، وأدى هذا الى تغطية مساحات واسعة جنوبي وشرقي حوض دمشق بطفوح من البازلت ، ودلت نتائج السبر أن البازلت يمتد تحت طبقات الزمن الرابع في سهل دمشق [٢] .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) جان خوري – الثروة المائية الجوفية في حوض دمشق – من محفوظات مديرية الري في وزارة الأشغال العامة – ١٩٦١ – ص ٣ .

٣ - تكوينات الزمن الرابع :

تغطي رواسب الزمن الرابع معظم أنحاء منطقة دمشق ، وهي تتألف من رواسب سفحية Colluvial وأخرى نهرية Alluvial يرجع بعضها الى الزمن الرابع الأعلى والآخر الى العصر الحديث .

تشكل رواسب الزمن الرابع عـــدة مخاريط فيضية Alluvial cones تتصف كلها بقلة انحدار سفوحها (من ١ - ٢°) ، وتماثل تركيبها الذي يتألف من الطفل الرمادي المصفر ، تتخلله بعض أشرطة من الحصى الجيري . ولا شك أن الأدوات الحجرية التي عثر عليها بيرفز Perves الى الجنوب من قرية الضمير الواقعـــة الى الشمال الشرقي من مدينة دمشق ، فيما بين سنتي ١٩٤٦ - ١٩٤٨ والتي ترجع الى العهد الليفالوازي الأعلى ، مما يسوغ لنا ارجاع هذه المخاريط الى الزمن الرابع الأعلى (١) .

أما رواسب العصر الحديث ، فهي تشكل أيضاً عدة مخاريط فيضية حديثة ، استقرت رواسبها بين المخاريط التي سبقتها ، فتجاورت معها والتحمت بها لتؤلف منطقة السفوح التي تبدو على شكل تموجات خفيفة عمودية على اتجـــاه النطاق الجبلي .

وقد تأثر حوض دمشق بالتغيرات المناخية التي حدثت خلال البليستوسين ، فازداد معدل الأمطار السنوي ، مما أدى الى ظهور عدد من البحيرات ، أهمها تلك البحيرة التي بلغت مشارف دمشق غرباً وامتدت من الضمير وعدرا شمالاً الى الهيجانة والمسمية جنوباً . وقد وجدت رواسب بحيرية بيضاء تحتوي على قليل من المارل على ارتفاع ١٠٠ - ١٢٥ م فوق المستوى الحالي لمركز الحوض قرب

---

(١) Ponikarov, (1963) op. cit., p. 148

الكسوة والضمير ، تشكل بقايا مستوى البحيرة الكبيرة . أما عمر هذه البحيرة فيصعب تحديده بدقة ، انما يعتقد بأنه يرجع الى أوائل الزمن الرابع (١) .

ولاشك في أن تذبذب المساحة التي كانت تغطيها مياه البحيرة زيادة ونقصاً ، وصلة ذلك كله بالرواسب التي خلفتها ، قد ساعد على معرفة التغيرات المناخية الرئيسية التي تعرضت لها هذه المنطقة خلال عصر البليستوسين . وهكذا تحولت حفرة دمشق الى حوض بحيري امتلأ بالمارل البحيري شيئاً فشيئاً ، كما ألقيت في أطرافه الشمالية رواسب جلبها نهر بردى ، وحصى حملته مياه السيول الهابطة من جبال القلمون (٢) .

ويرى الدكتور فان لـير Van Liere أن البحيرتين الحاليتين ، العتيبة والهيجانة اللتين يصب فيها بردى والأعوج قد تخلفتا عن البحيرة القديمة (٣) . ويمكن أن نشهد الرواسب البحيرية ، في الوقت الحاضر ، في القسم الشرقي من حوض دمشق ، بينما تختفي في القسم الغربي منه تحت رواسب الزمن الرابع.

نخلص من هذا الى أن تتابع التكوينات التي بنيت منها منطقة دمشق من أعلى الى أسفل تكون على النحو التالي :

أولاً : رواسب نهرية وسفحية تشكل الطبقة العلوية من هذه المنطقة ، حملتها مياه السيول والأنهار من المناطق الجبلية المجاورة الى بحيرات هادئة ذات مياه عذبة (شكل ٤) .

---

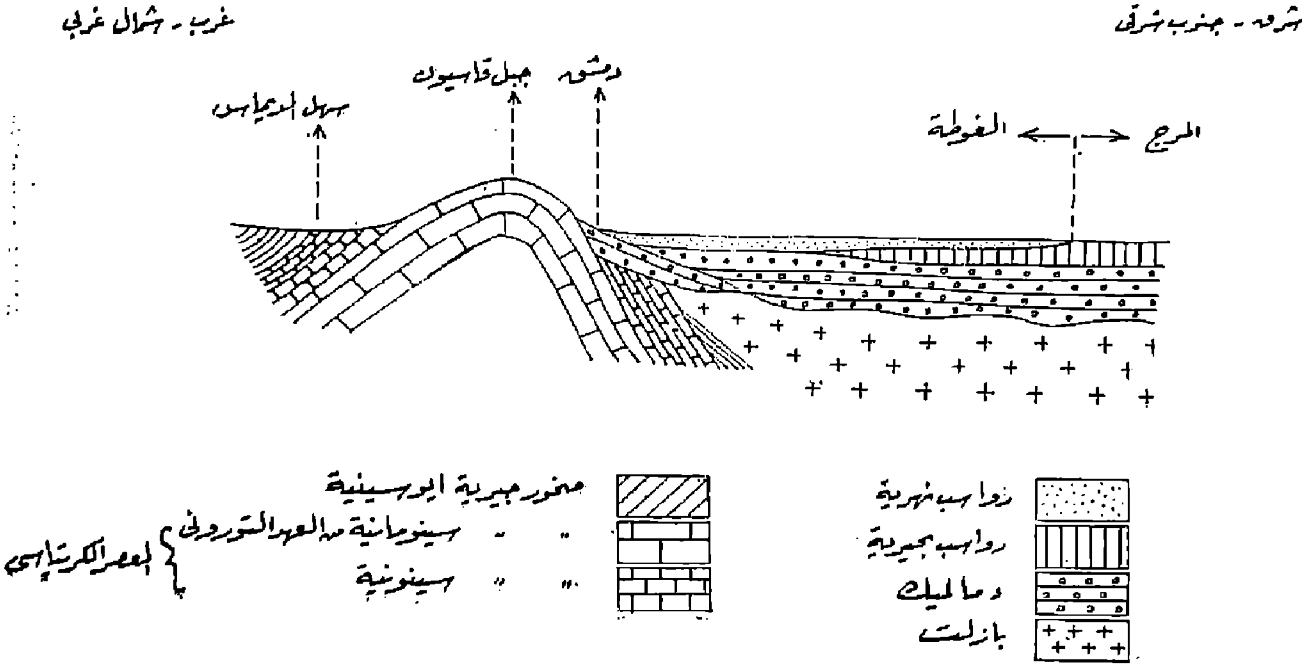
(١) Van Liere, W. J. Observations on the Quaternary of Syria. Publication of the general directorate of Antiquities and Museums in the Syrian Arab Republic, 1960 - 1961, p. 52 - 53.

(٢) Dubertret, L. Notes et Mémoires, T. IV, 1945 - 1948, P. 200

(٣) Van Liere, (1960 - 1961). Op. cit. p. 51 - 52.

شكل (٤)

مقطع تمثيلي يبين البنية الجيولوجية في منطقة دمشق



ثانياً : هذه الرواسب النهرية والسفحية ترتكز فوق رواسب بحيرية تتألف من مواد طينية جيرية يبلغ سمكها نحو ٨٠ متراً في منطقة داريا الواقعة على بعد بضعة كيلو مترات الى الجنوب الغربي من دمشق .

ثالثاً : طبقة من الدماليك ترجع الى البليوسين ، ترسبت في أعقاب حركات الالتواء التي حدثت في عصري البليوسين والبليستوسين ، ثم تلت هذه الحركات عمليات نحت شديد الأراضي التي ارتفعت حول دمشق ورسبت المواد المجروفة من الجبال على شكل دماليك .

رابعاً : يـلي طبقة الدماليك طبقة من البازلت ترتكز فوقها كل التكوينات السائبة السابق ذكرها . وقد جاء هذا البازلت الى حوض دمشق من تدفقات اللابة التي انساحت من الجنوب ، وذلك على أثر الثورات البركانية الحديثة التي حدثت في فترة النيوجين واستمرت حتى أوائل الزمن الرابع . ولا يعرف سمك هذه الطبقة ، فهي تحتاج الى سبر عميق ، إذ ترتكز فوق صخورها جميع الرواسب السابقة ، والتي يصل سمكها الى ٢٣٥ متراً في منطقة داريا .

خامساً : ترتكز الصخور البازلتية على طبقات جيرية تعود الى عصر الآيوسين ، وذلك في شتى أنحاء منطقة دمشق ، وعلى الميوني عند أطراف الاطار الجبلي .

* * *

العوامل التي أثرت في مدينة دمشق :

تأثرت منطقة دمشق [1] بعاملين رئيسيين ، يمكن أن نرجع اليهما الكثير من مظاهر السطح فيها وهما :

أولاً – العوامل الباطنية التي تعرضت لها المنطقة .

ثانياً – العوامل الخارجية ، ولاسيما التعرية النهرية .

هذا فضلاً عن عاملي الارساب السفحي والنهري اللذين يعدان مسؤولين عن تكوين المروحة الفيضية التي تقوم فوقها مدينة دمشق وضواحيها .

العوامل الباطنية :

تأثرت منطقة دمشق بعوامل باطنية شديدة ، يمكن أن نرجع اليها الكثير من مظاهر السطح فيها، وخاصة في مرتفعات قاسيون ، التي تمثل جزءاً من السلسلة التدمرية ، الممتدة نحو الشمال الشرقي حتى الفرات ، وهي تشكل ثنية محدبة Anticline تبدو على شكل طية صندوقية ؛ تظهر بوضوح في المقطع السينوماني بين الربوة ودمر على طرفي نهر بردى .

وتظهر الطبقات التورونية مائلة بشدة (حوالي ٨٠°) على طول السفوح المشرفة على مدينة دمشق ، بينما تتميز سفوحها الشمالية الغربية بقلة انحدارها (بين ٢٥ – ٣٠°) . ويرجع هذا الى ان السلسلة الجبلية تمثل التواء وحيد الجانب تغايرت قوة الدفع على كلا جانبيه .

والواقع ، ان جبال قاسيون والضمير ، تفصل بين منطقة غربية تعرضت لحركات باطنية عنيفة ، ومنطقة شرقية كانت أقل اضطراباً منها ؛ ولذا تميزت كتلة قاسيون بعدم تناظرها في الانحدار ، اذ تبدو سفوحها رأسية قائمة في الشرق .

---

(١) نقصد بمنطقة دمشق هنا ، بقعة المدينة ذاتها والنطاق المحيط بها حتى مشارف الريف ، بالاضافة الى الأراضي الجبلية الداخلة ضمن حدودها الادارية .

وترجع هذه الظاهرة الى اعتراض كتلة الجزيرة العربية لقوة الدفع المتجهة من الشمال الغربي ، مما حال دون استلقاء الطبقات الملتوية في هذا الاتجاه ، فاتخذت ميلًا قريباً من الرأسي ، يتسق مع صدع يمتد على طول هذه السلسلة الجبلية [١] ، يظهر مقطعه الرأسي على طرفي خانق الربوة مشكلا ما يسمى « بالمنشار » ، كما يشاهد على السفوح المشرفة على منطقة المزة على شكل جدر عريضة ، تغطي الرواسب السينونية والباليوجينية اقسامها السفلى .

ولا شك ان انحدار السفح الشديد ، يجعل منطقة التغذية بمياه الامطار ضيقة محدودة ، ولو قُدر للسفح أن يكون اقل ميلا من ذلك ، لأصبح البناء على السفح اكثر صعوبة وخطورة ، لأن منطقة التغذية بمياه الامطار تصبح أكثر اتساعاً ، ومياه السيول أكثر غزارة واندفاعاً .

ويبدو ان انحدار السفح الذي يزداد شدة ووعورة في المنطقة التورونية ، لن يسمح – في المستقبل – بامتداد العمران نحو الأعلى ، اكثر مما وصل اليه في الوقت الحاضر ، أما المساكن التي بناها اصحابها خلسة ، وارتفعوا بها الى ارتفاعات شاهقة ، لا تبعد اكثر من ٣٠٠ متر عن القمة ، فهي اشبه ماتكون باعشاش النسور ، ولن تعمر طويلا بعد صدور المخطط التنظيمي الجديد للمدينة ، لأنها تقع خارج مناطق التنظيم .

وينعكس أثر انحدار السفح الشديد على حالة المناخ في مدينة دمشق ، إذ يقوم هذا الجدار الجبلي القائم بعكس الاشعة الشمسية كاملة فوق مساكن المدينة ، فتلهب سطوحها بحرارتها الشديدة ، وخاصة في أيام الصيف ، وأثرها في البيوت الحديثة اكثر وضوحاً منه في البيوت العربية ، وذلك بسبب استخدام الحديد والاسمنت في الاولى ، والخشب والطين في الثانية .

---

(١) جان خوري - ص ٤ .

وقد ساعد تفاوت الصخور في صلابتها ومقاومتها على ابراز هذا التطابق بين البناء التكتونيكي والتركيب المورفولوجي ، فقد استطاعت عوامل التعرية ازالة الطبقات السينونية والباليوجينية الطباشيرية والمارلية ، في حين انها ضعفت أمام الصخور التوررونية الدولوميتية والجيرية بسبب صلابتها وشدة مقاومتها .

وترتب على الحركات التكتونية التي اصابت المنطقة ، حدوث كسر يفصل التكوينات التوررونية عن السينونية، يساير اتجاه قاسيون من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي، ويمتد من المزة الى برزة ، وتتميز منطقة الكسر بكثرة المرايا التكتونية Miroires de faille التي تظهر عليها شطوب تدل على جهة الحركات التي انتابتها ، مما يجعل منها منطقة ضعف تتعرض للاندفاعات البركانية والهزات الارضية ، كما تدل على ذلك القصبة البازلتية البركانية ، التي تظهر في احد المقالع الواقعة بين حي الاكراد وبرزة ، وكذلك بما يرويه التاريخ من اخبار الهزات الارضية الكثيرة التي اصابت هذه المنطقة ، في فترات مختلفة ، ومن اهمها تلك التي حدثت سنة ٢٣٣ هـ ، والتي مات فيها معظم اهل دمشق تحت الردم ، ثم هزتا سنة ٥٥٢ و ٥٦٥ هـ . أما الهزة التي وقعت في سنة ١١٧١ هـ فهي من أشدها ضرراً لكثرة ضحاياها وما اعقبها من وباء جارف ، ولم تمض سوى سنتين فقط على هذه الحادثة حتى تلتها هزة اخرى لم يسلم منها من بيوت دمشق ومناراتها وقبابها ومساجدها الا ما ندر [١] .

العوامل الخارجية :

الى جانب العوامل الباطنية ، كانت عوامل التعرية ذات أثر واضح في تشكيل مظاهر السطح في منطقة دمشق . وأهم العوامل التي لعبت دوراً هاماً في هذا السبيل ، هي التعرية النهرية التي يقوم بها نهر بردى وفروعه في هذه المنطقة .

---

(١) محمد كرد علي — غوطة دمشق (١٩٥٢) الطبعة الثانية — ص ٢٢٥ .

لقد وضع نهر بردى رواسبه في البحيرة التي كانت تشغل حوض دمشق ، وتمتد غرباً حتى مشارف المدينة ، ثم عاد يحفر مجراه في رواسبه نفسها ، فتكونت على جانبيه عدة مصاطب ، تبين لنا تطور عملية الحت المختلفة التي مرت بها هذه المنطقة.

ويلاحظ ان هذه المصاطب التي كونها نهر بردى بعد خروجه من خانق الربوة واضحة ومحددة ، ولكن سرعان ما تزول معالمها بعد خروج بردى من مدينة دمشق ، ولذلك لا يتجاوز امتداد اكثر من بضعة كيلو مترات على طرفي النهر .

ويمكن أن نرجع تتابع هذه المصاطب في وادي بردى ، الى عامل رئيسي هو التغيرات المناخية التي سادت هذه المنطقة في العصر الجليدي ، فهناك ارتباط واضح بين هذه المصاطب والفترات المطيرة التي ساعدت على تجديد النشاط النهري ، وبالتالي الى تقوية الحت الرأسي من جديد ، فهبط النهر بواديه ، وخلف على جانبيه بعض الاراضي التي يغمرها بمياهه مشكلا المصاطب النهرية .

ولاشك في ان الأعمال الزراعية التي مارسها الانسان في هذه الاراضي منذ اقدم العصور ، قد بدلت الكثير من معالمها ، وجعلت من العسير تمييزها بين عشرات المصاطب الاصطناعية التي انشأها الانسان لتسهيل سقايتها وحماية تربتها من الانجراف ، كما ان الحركة العمرانية الحديثة التهمت معظم هذه الاراضي وحولتها الى مناطق سكنية ، ورغم ذلك يمكن أن نميز بين اربع مصاطب اساسية فوق السهل الفيضي الحالي ، تتمثل كلها على الضفة اليسرى للنهر ، بينما لا يظهر منها على الضفة اليمنى سوى احدثها عهداً . وسوف نتناول هذه المصاطب بالدراسة ، حسب ترتيبها الزمني ، الأقدم فالأحدث ، اي من الأعلى الى الاسفل .

المصطبة الأولى : وهي اقدمها عهدا ، ولا تظهر الا في مساحات صغيرة ومتفرقة ، ويتراوح ارتفاعها بين ٦٠ – ٧٠ مترا فوق السهل الفيضي [١] . تمتد

(١) Ponikarov, V. P., Explanatory Notes to the geomorphological map of Syria , scale 1 : 500. 000 , moscow , 1962 . P. 100 .

هذه المصطبة الى الشمال من نهر يزيد ،وهي ترجع الى اوائل الزمن الرابع ،الذي يتميز بشدة حركات الرفع التكتونية في المناطق الجبلية ، بحيث ادت الى سيادة عمليات الحت وتنحي الارساب لعدم ملاءمة الظروف المناخية [1] .

المصطبة الثانية : ما زالت بعض اجزائها ماثلة حتى الان ، ويتراوح ارتفاعها بين ٢٥ – ٣٥ مترا ، فوق السهل الفيضي ، وتتميز بضآلة سمك رواسبها الفيضية وتموج سطحها . وهي تكون ضيقة في ارض النيربين بين نهري تورا ويزيد (في ارض الصالحية) ، وتصبح عريضة في جهات حي الاكرادو القابون .

ويرجع تكوين هذه المصطبة الى اواسط الزمن الرابع ، وذلك بدلالة الادوات الصوانية التي تحتوي عليها هذه المصطبة ، والتي تعود الى اواسط الفترة الآشولية [2] ، وفي تلك الفترة كانت الحركات التكتونية مصحوبة بفترة مطيرة دفيئة ترتبط بدور « رس° » الجليدي . وقد تميزت بتساقط الامطار الغزيرة التي سببت نشاط عوامل الحت في المناطق الجبلية بشكل عنيف ، وأدت الى حدوث تراكمات كبيرة عند سفوح الجبال ووديان الانهار .

ولا شك في ان عمق الرواسب التي خلفها اواسط الزمن الرابع ، وضخامة حجم مفتتاتها يدل على مبلغ سمك الطبقة التي تمكنت عوامل الحت من تعريتها ، كما ان وجود النباتات المحبة للدفء مثل Stromdus bubonius التي ترتبط بالشاطىء التيراني المتوسطي [3] ، يدل على سيادة مناخ رطب دفيء في ذلك الوقت [4] .

المصطبة الثالثة : وهي اكبر من سابقتها مساحة ، واكثر منها وضوحا ، ويتراوح ارتفاعها فوق السهل الفيضي بين ١٠ – ١٢ مترا ، ويشاهد فوقها حطام

---

(١) Ibid. , P. 144.

(٢) Ibid. , P. 93

(٣) احد الشواطىء المرتفعة القديمة في حوض البحر المتوسط .

(٤) Ponikarov, (1962) , Op. cit . , P. 154.

من الدماليك الطبقي المفكك مـــع حصى جيري مدور يفترش القاعدة ، وهي تمتد على شكل شريط ضيق يلازم نهرتورا على طول مجراه بعرض ٢٠–٣٠ مترا .

ويرجع تكوين المصطبة الثالثة الى اواخر الزمن الرابع ، وقد اسهمت الحركات الاوروجينية في هذه الفترة في تشكيل هذه المصطبة ، وان كانت هذه الحركات اقل اهمية من مثيلاتها التي حصلت في اوائل الزمن الرابع ، اذ لم تتجاوز بضع عشرات من الامتار .

وقد تميز اواخر الزمن الرابع بفترة مطيرة دفيئة ، ترتبط بدور «فُرم» الجليدي ، وسبّب التساقط الغزير نشاطا حتيا شديدا في المناطق الجبلية ، وتراكما عظيما للمواد المفتتة عند سفوح الجبال والمنخفضات ، ومع ذلك فان ارساب هذه المواد المفتتة كان اقل وفرة منه في الفترة السابقة (اواسط الزمن الرابع) ، ويتضح هذا من تكويناته التي تقل عنها مساحة وعمقا . ويستدل على سيادة المناخ الدفيء وقتئذ بوجود النباتات المحبة للدفء التي سبق ذكرها ، وكذلك من مخلفات العصر الحجري القديم الاعلى التي تنتشر على نطاق واسع [١] .

المصطبة الرابعة : وهي احدثها عهدا ، وتتشابه تكويناتها مع تكوينات السهل الفيضي ، ولكن حجم الحصى اكبر حجما ، ويتراوح ارتفاعها عنه بين ٣ – ٦ امتار . وهي تمتد على طرفي السهل الفيضي ، بعد خانق الربوة ، وتستمر واضحة حتى حي العقيبة بدمشق ، ثم يتضاءل ارتفاعها شرقي المدينة .

تشغل المصطبة الرابعة ما يسمى «بالشرفين» الاعلى والاسفل او الشمالي [٢] والجنوبي [٣] ، وهو ما يطلق عليه اليوم اسم « زقاق الصخر الشمالي » و « زقاق

(١) Ibid. , P. P. 154 - 156.

(٢) يمتد من قبة الطواويس الى النيرب .

(٣) يمتد من حكر السياق (شارع النصر اليوم حتى قبور البرامكة) الى القبور الصوفية .

الصخر الجنوبي » . ويرجع تكوين هـــذه المصطبة الى العصر الحديث ، وذلك بدلالة الادوات الصوانية والفخارية الـــتي عثر عليها في الرواسب الفيضية التي تشكلت عنها . (١)

وبين الشرفين الشمالي والجنوبي ، يمتد السهل الفيضي بسطحه المنبسط وتكويناته الحديثة ، التي تتألف من الطفل والطفل الرملي ، وتتخلله بقاع متفرقة من الحصى ، ويشغل المرج الاخضر الجزء الغربي من هـذا السهل ، وقد شبهوه « بصدر الباز » لان وادي بردى ينضم من رأسه ، ثم يعاوه جبلان هما كالرأس للباز ، ثم يتسع فيكون الشرفان كالجناحين له .

ويشتمل السهل الفيضي على مستويين يتراوح الفرق بينهما من مترين الى ثلاثة امتار ، وربما كان الفرق اكبر من ذلك في السابق ، الا ان الحواليل (٢) التي كانت تنتشر بالقرب من الطواحين المـــائية على طول النهر ، تسبب تجمع الرواسب في مجراه ، وبالتالي ترفع من قاعه شيئا فشيئا . ولا ادل على ذلك من المباني القديمة المجاورة للنهر ، كالتكية السليمانية التي لا ترتفع اساساتها عن المنسوب الصيفي لطبقة المياه الجوفية اكثر من بضعة سنتمترات ؛ وبذلك تكون اقبيتها عرضة للمياه المترشحة في زمن الفيضان ، ممـــا يدل على ان منسوب طبقة المياه الجوفية وعمق مجرى النهر ، في فترة انشاء هذه المباني ، كانا اخفض مما هما عليه في الوقت الحاضر ، وان المجرى قد ارتفع تدريجيا ، وخاصة بعد بناء مطحنة القلعة ، وهذا ما يتخذه بعض المهندسين مسوغا لتخفيض قاع النهر ، لان هذه العملية تعني

(١) Ponikarov , (1962) , OP. cit. , P. 88

(٢) الحواليل جمع حالول ، وهو يتألف من فتحـــة كبيرة واسعة في جدار النهر ذات باب حديدي يستخدم في اغلاقها حين اللزوم ، وهي بمثابـة نواظم للمياه في مجرى النهر تساعد على زيادة المياه او تقليلها .

اعادة بردى الى حالته الاولى ، وتسمح بصرف مياه اقبية المباني المجاورة كدار السرايا ومباني الشرطة والبريد والمتحف والتكية وغيرها .

ويبدو من دراسة القطاع الطولي للنهر داخل المدينة ،فيما بين الربوة وباب توما (الشكل ٥) ، ان بردى قد استطاع ان يحقق لنفسه قطاعا طوليا متوازنا في هذا الجزء من النهر ، فهو يأخذ شكل قوس مقعر الى اعلى تقعرا بسيطا ، ويقل انحداره ببطء وانتظام تقريبا كلما هبطنا مع النهر ، ولا غرابة في ذلك ، فهو يقع في القسم الاسفل من مجرى النهر . الا ان ذلك لا يعني ان النهر قد استطاع ان يصل الى أقل انحدار يمكن لمياهه ان تتدفق عليه ، وكل ما في الامر ، ان القطاع الطولي للنهر المتعادل اصبح في هذه الحالة بمثابة مستوى القاعدة المحلي .

وقد يعترض مجرى النهر بعض المساقط المائيه الصغيرة ، وخاصة بين ساحة الشهداء والاحدى عشرية في شرقي دمشق ، يبلغ عددها ١٤ مسقطا مائيا على مختلف فروعه ،ويتراوح ارتفاع كل منها بين ٨٠ – ١٧٥ سم ،تشكل بعضها عند التقاء النهر بروافد جانبية جلبت اليه حمولة جديدةمن الرواسب والفضلات ، بينما انشىء معظمها للاستفادة منها في ادارة المطاحن المائية .

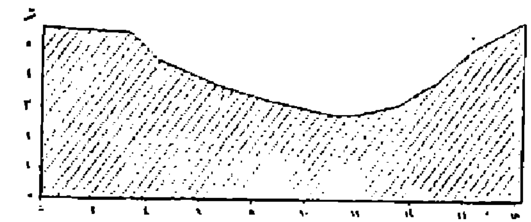
ولا شك في أن تحقيق مقطع التوازن الطولاني للنهر مرتبط مع تحقيق مقطع توازنه العرضاني ، وهذا ما يبدو واضحاً ، في المقطع العرضاني لنهر بردى عند الربوة ، فهو يرسم نصف دائرة تقريباً ، يبتعد جانباها ويتسع قاعها ، وتنخفض جدرانها ليجري الماء فيها حراً طليقاً (شكل ٦) .

وهذا لا يعني أن جميع القطاعات العرضية لنهر بردى ، في هذا الجزء من مجراه ، منتظمة في شكلها ، بحيث يميل كلا جانبي المجرى نحو قاعه بانحدار واحد ، فالواقع أننا نشهد مقاطع غير متناظرة ، يصبح فيها انحدار أحد الجانبين أشد من انحدار الجانب الآخر . وهذا يرجع الى اختلاف طبيعة الصخور في

شكل (٦)

المقطع العرضي لنهر بردى عند كيوان

المقياس الرأسي والأفقي ١ : ١٠٠

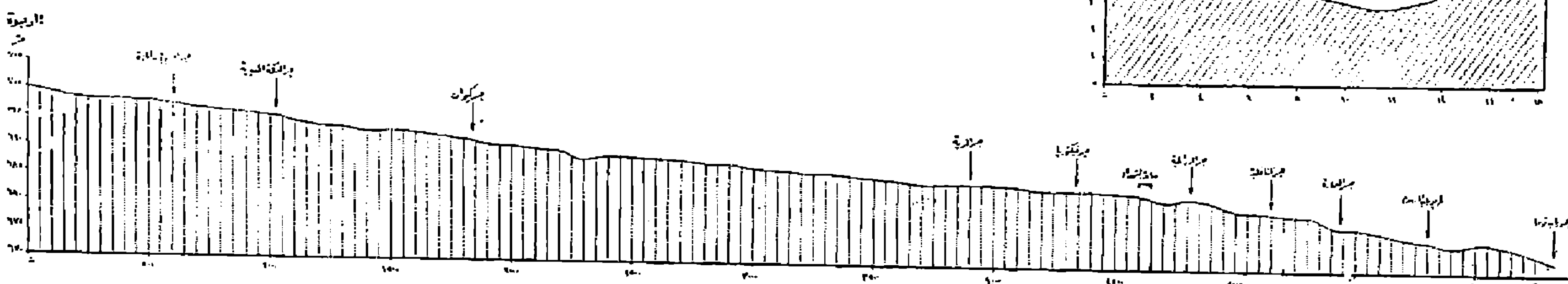


شكل (٥)

المقطع الطولي لنهر بردى بين الربوة وباب توما

المقياس الرأسي ١ : ٥٠٠٠

المقياس الأفقي ١ : ١٠٠٠٠٠



درجة صلابتها ، مما يجعل عملية النحت تعمل بنشاط وقوة على طول جانب واحد من جانبي النهر ، فيؤدي هذا الى عدم انتظامه . هذا فضلاً عن تآكل ثنيات النهر ونحتها في جوانبها المقعرة نحتاً سريعاً ، فيشتد إزاء هـذا انحدار هذه الجوانب بحيث تبدو على شكل جروف تشرف على مياه النهر ، بينما تتميز جوانب الثنيات المحدبة بارتفاعها تدريجياً من قاع النهر الى جوانبه .

وقد كان هـذا النهر ، وما زال ، يسهم في ارساب كميات كبيرة من المواد المنقولة الى منطقة دمشق ، إذ تقدر نسبة المواد العالقة بمياه النهر ، إبان فترة الجفاف ، بما يتراوح بين ٢ - ٣ غرام في الألف ، وتزداد هذه النسبة الى حدها الأقصى في فصل الأمطار . ولا يقتصر نهر بردى على حمل المواد الناعمة فقط ، بل يتعداها الى حمل الحصى الصغير والمتوسط الحجم ، فمنطقة « البحصـة » في مدينة دمشق ، ما هي إلا محط رحال جزء هام من الحصى الذي حمله بردى في الماضي ، أما المواد الناعمة فيحملها بردى الى مسافات أبعد من ذلك نحو الشرق ، وهذا يدل على حدوث عملية تصنيف الرواسب التي يجلبها النهر ، فيرسب ما كان غليظاً منها عند مخرج النهر من خانق الربوة ، ثم تزداد هذه الرواسب دقة ونعومة كلما اتجهنا شرقاً .

وهكذا تغطت أرض دمشق عموماً ، برواسب ترجع الى الزمن الرابع ، تتكون من الحصى والرمال الناعمة والطين . وهي رواسب تتسم بعظم درجة نفاذيتها للمياه ، تكسوها بعظمها تربـة سطحية سوداء ، بسبب غناها بالمواد العضوية ، نشأت من عمليات التسميد المستمرة لبساتين الخضر وأشجار الفاكهة ، خلال قرون عديدة ، يتراوح سمكها بين نصف المتر والمتر .

وفي بعض الأماكن ، ينكشف هذا الغطاء السطحي السميك ، وتبدو الأرض صلبة عارية ، تظهر فيها الدماليك على سطح الأرض ، كما هي الحال على

طول طريق الميدان . وقد أدى عدم صلاحية هذه الارض المزروعة الى رخص اسعارها وانتشار العمران فيها ، ونمو حي الميدان القديم فوق تكويناتها الصلبة .

وقد كشفت عمليات السَّبْر المتعددة ،التي جرت في مدينة دمشق،بسبب الاعمال العمرانية القائمة ، عن تنوع واضح في الرواسب التي تغطي سطح دمشق، يمكن تتبعها من ضفاف بردى الى سفوح قاسيون على النحو الآتي :

على طرفي نهر بردى ،في المنطقة المحصورة بين الشَّرَفين الشمالي والجنوبي ، تنتشر فوق السهل الفيضي للنهر رواسب حديثة تتألف من الطَّفل والطفل الرملي تتخلله بقاع متفرقة من الحصى ، وتزداد هذه الرواسب دقة كلما اتجهنــــا شرقا ، وخشونة كلما ازددنا عمقا .

وما بين الشرف الأعلى ونهر يزيد ، يتغطى السفح بتربة ناعمة تزداد سمكا باتجاه الشرق والجنوب ، ترتكز فوق تربة مروحية يكثر فيها الحصى والحجارة الصغيرة ، وترتفع فيها نسبة المواد الجيرية التي وصلت اليها مع الجروفات التي نقلتها مياه السيول والأنهار ، وهذه التكوينات تعود في نشأتها الى العهود المطيرة، وقد أصبحت على شكل قشرة متصلبة يزداد سمكها وتدق مفتتاتها كلما اتجهنا جنوبا . وقد لجأ الناس الى تسوية هذه الاراضي على شكل مصاطب لتسهيل عملية اروائها والاستفادة منها ، فأدى ذلك الى تحطيم القشرة المتصلبة وازالتها في مواضع كثيرة .

وعلى السفوح العالية ، فوق نهر يزيد ، تتغطى الارض ، بركامات حديثة متفككة ، يكثر فيها الحصى والحجارة الصغيرة ، وتزداد سمكاً ونعومة كلما اقتربنا من نهر يزيد . وهي تستند فوق صخور مارلية طباشيرية في السفح، تصبح جيرية صلبة كلما صعدنا نحو القمة .

أما روابي المزة ، في الطرف الآخر من الوادي ، فتغطي سفوحها الدنيا مجروفات حصوية وصوانية ، تليها مباشرة ، وعلى عمق قليل يتراوح بين ٢٠-٣٠

سنتيمتراً ، قشرة سميكة متصلبة . وهذه الرواسب تصبح أكثر دقة ونعومة باتجاه الشرق والجنوب الشرقي ، ولكنها لاتلبث أن تختفي تماماً تحت الطمي الذي يحمله نهرا المزاوي والداراني والأقنية المتفرعة عنهما .

نخلص مما تقدم، أنه اذا كان عاملا الارساب السفحي والنهري ، مسؤولين عن تكوين المروحة الفيضية التي تقوم فوقها مدينة دمشق ، فان عوامل التعرية ، ولا سيما التعرية المائية ، قد لعبت الدور الرئيسي في تشكيل مظاهر السطح في منطقة دمشق واعطائها صورتها الحالية .

أشكال السطح في منطقة دمشق

يشكل نهر بردى عند دخوله الى حوض دمشق مروحة حصوية واسعة تصل حتى مركز الحوض تقريباً ، وفوق هذه المروحة تقوم مدينة دمشق والبساتين الشهيرة المحيطة بها ، وهي مايطلق عليه اسم « الغوطة » . الا أن الانحدار العام للمروحة نحو الشرق قد دفع المزارعين الى تنظيمها على شكل مدرجات أفقية ، للحيلولة دون انجراف تربتها وتسهيل سقايتها .

ويكون الحصى غليظاً جداً قرب جبل قاسيون ، مع نسبة كبيرة من الرواسب السفحية الحادة ، وكلما اتجهنا شرقاً ، نحو مركز الحوض ، تصبح هذه العناصر أكثر دقة ونعومة ، بحيث يصبح معظمها من الرمل الاصفر أو الرمادي ، كما هو واضح في الشكل (٢) .

ولكن هذه الصورة عامة جداً ، اذ أن التغيرات تكون سريعة وعلى مسافات قصيرة ، فالمروحة قد تشكلت بنظام المجاري المتعددة الأقنية ، والتي كانت تغير مجاريها مرة أو أكثر في العام الواحد ، ولذلك يختلط فيها الحصى مع التكوينات الصلصالية والحصوية بصورة أفقية ورأسية ، وهذه التكوينات تغطي معظم أراضي دمشق وغوطتها . أما المارل البحيري الذي تخلف

عن بحيرة دمشق الكبيرة (التي كان منسوبها ٧٢٥ متراً فوق سطح البحر) ، فيمكننا أن نشاهده في مقاطع الآبار العميقة تحت الطبقة الحصوية التي كونتها المروحة الفضية[1] .

ولا شك في أن سمك الطبقة الحصوية يدل على تجمعها خلال مدة طويلة من الزمن ، ومع أننا نجهل العلاقة بينها وبين مانجده فيها من صوان العصر الحجري القديم ، فان الأدوات القديمة التي عثر عليها حول دمشق وداخلها ، في أماكن متعددة ، والتي ترجع الى الحضارة الآشولية والليفالوازية - الموستيرية ، مايجعل الجزء الأخير من الحصى يعود الى عصر البليستوسين الحديث بشكل أكيد[2] .

ويبدو أن جبال قاسيون العارية ، والمشرفة على مدينة دمشق ، كانت في وقت ما تغطيها تربة طينية جيرية بنية اللون ، وقد زحفت هذه التربة السطحية الى الأسفل في أواخر عصر البليستوسين أو مابعده ، وتراكمت هذه الرواسب السفحية فوق سطح مروحة بردى الحصوية ، وبفضل هذه التربة اكتسبت بساتين دمشق خصوبتها وغناها[3] .

وما زال ارساب التكوينات السفحية والنهرية مستمرا ، ولكن بمعدل أقل مما كان عليه ، وبشكل بطيء جداً ، كما تختلف عناصره كثيراً عن سابقتها ، فالوديان الصغيرة التي لم تتمكن بعد من حفر مراوحها البليستوسينية ، بسبب ضعف مقدرتها على الحت ، ماتزال مستمرة في ارساب التكوينات السفحية ، وهي تختلف كثيراً عن الرواسب السفحية البليستوسينية ، حيث تحتوي على نسبة

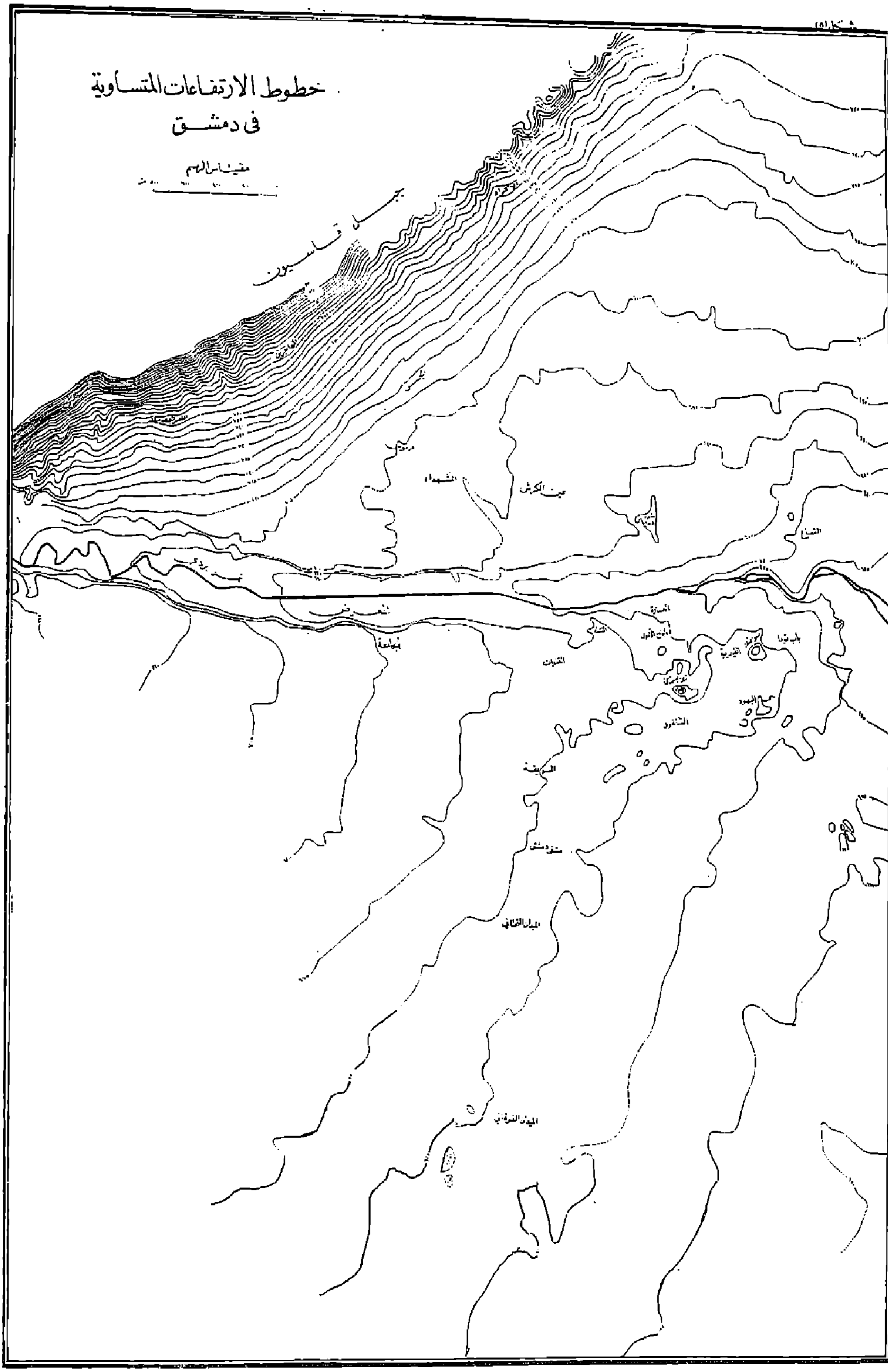
---

(١) Van Liere, (1960-1961). op. cit., P. 54.

(٢) Ibid. P., 54.

(٣) Ibib., P., 54.

الشكل (٧)



خطوط الارتفاعات المتساوية
في دمشق
جبل قاسيون
عين الكرش
باب توما
الميدان التحتاني
الميدان الفوقاني

أكبر من الجير والصلصال الاسمر والرمادي، بالاضافة الى قدر كبير من مفتتات الصخور الحادة الاطراف . وقد شكلت هذه التكوينات السفحية الحصوية الحديثة مخاريط فيضية عند مخارج الوديان على أطراف حوض دمشق ، وفي هذه التكوينات يمكننا أن نجد صوان العصر الحجري القديم الأعلى وما بعده على أعماق كبيرة[1] (شكل ٧) .

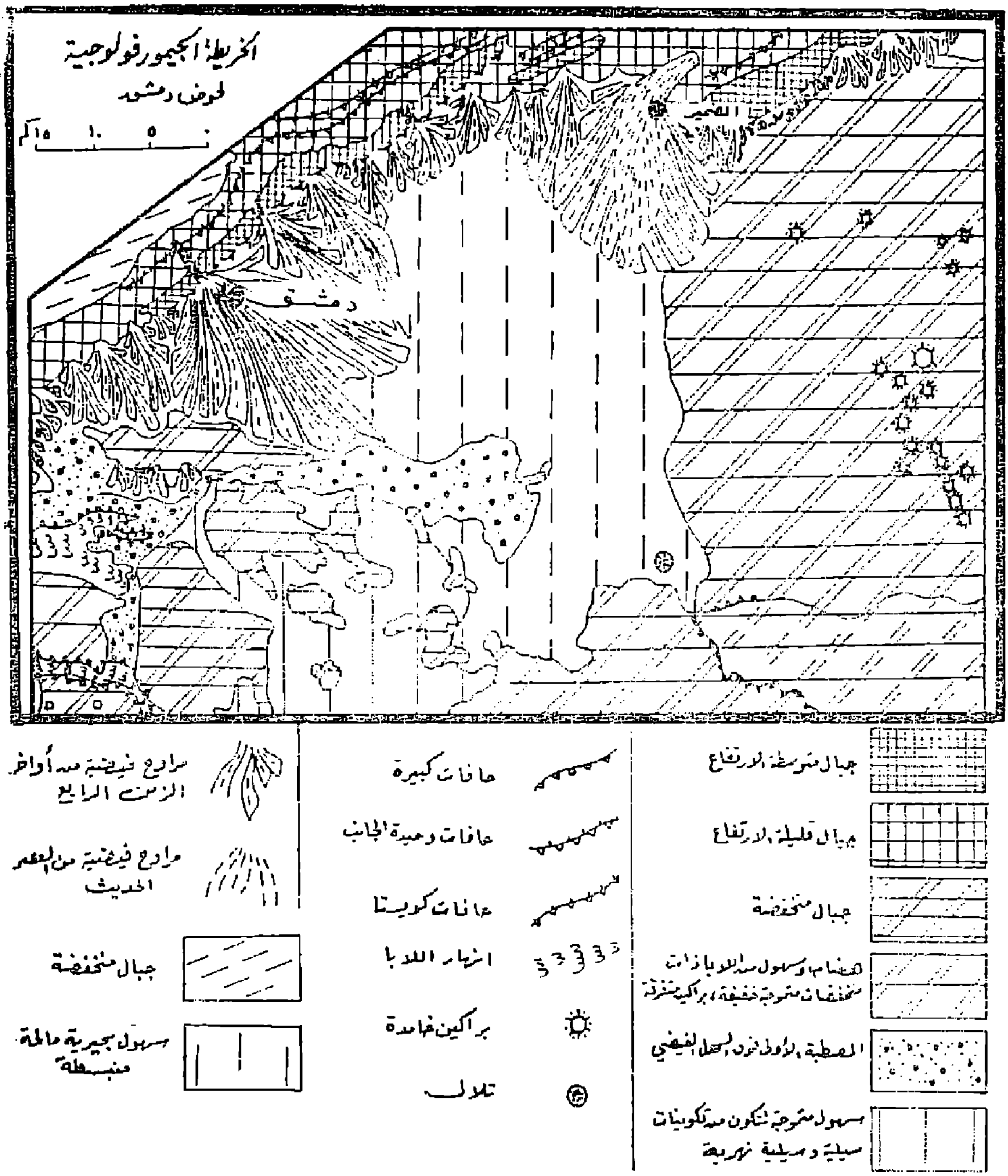
وعبر هذه التكوينات السفحية والنهرية شق النهر واديه في المروحة الحصوية ، يجري فوق سهله الفيضي المنبسط الذي يتراوح اتساعه بين ١٠٠- ٢٠٠ متر ، تشرف حافتاه من ارتفاع يقرب من ٣٠ متراً ، ولكنهما لاتلبثان أن تندمجا بعد ذلك بالاراضي المجاورة ، وهما لاتتعديان ٢ - ٣ أمتار عندما تصلان الى الاطراف الشرقية من مدينة دمشق ، وبعد ذلك ينفسح السهل ويتسع الوادي ويفقد مظهره - كوادٍ - كما كان يرى من الربوة حتى دمشق وترجع نشأة هذا الوادي الى العهد الليفالوازي - الموستيري أو الجزء الأعلى من دور « فرم » الجليدي[2] .

وعلى يسار النهر ، ترتفع الأرض تدريجياً باتجاه قاسيون ، وتشكل منحدراً واسعاً متموجاً نوعاً ما ، يتألف من مجموعة المراوح الفيضية التي تجاوزت والتحمت مكونة منطقة السفوح الواقعة بين خانق الربوة وضاحية برزة . وهذا مايفسر لنا مشهد هذه السفوح المتموجة .

وتنحدر هذه السفوح تدريجياً نحو الشرق والجنوب الشرقي ، الا أن هذا الانحدار يكون خفيفاً بالقرب من الوادي ، ثم يشتد كلما اتجهنا نحو القمة ، ويتجلى ذلك بوضوح في المدرجات التي تتسع وتتباعد كلما خف الانحدار ، وتضيق

(١) Ibid., . pp. 54 -55 .

(٢) Ibid.. . p.54 .


الخريطة الجيومرفولوجية
لحوض دمشق
٠ ٥ ١٠ ١٥ كم
دمشق
جبال متوسطة الارتفاع
جبال قليلة الارتفاع
جبال منخفضة
هضاب وسهول من اللابا ذات منخفضات متموجة خفيفة، براكين متفرقة
المصطبة الأولى من الحل الفيضي
سهول متموجة تتكون من تكوينات سيلية وسيلية نهرية
حافات كبيرة
حافات وحيدة الجانب
حافات كويستا
انهيار اللابا
براكين خامدة
تلال
مراوح فيضية من أواخر الزمن الرابع
مراوح فيضية من العصر الحديث
جبال منخفضة
سهول بحيرية مالحة منبسطة

الشكل رقم ٨

ويتقارب بعضها من بعض كلما اشتد الانحدار (شكل ٨) . وكذلك تأخذ نسبة الانحدار في التناقص باتجاه الشرق ، ففي الجهات الشرقية من منطقة دمشق تبلغ نسبة الانحدار ١ : ٥٠٠ فيما بين برزة والقابون ، بينما ترتفع هذه النسبة الى خمسة أمثالها في الجهات الغربية من منطقة دمشق ، اذ تبلغ ١ : ١٠٠ فيما بين ساحتي خورشيد والأموين ، الواقعتين في أرض الصالحية .

وفوق هذه السفوح ، ترتفع ذرى قاسيون الى أكثر من ٥٠٠ متر عن سهل دمشق،وهي جبال قاحلةجرداء تتجه من الجنوبالغربي ، الىالشمالالشرقي، يقطعها وادي بردى عند خانق الربوة في الغرب ، كما يخترقها وادي منين عند قرية برزة في الشرق .

وبين هذين الواديين الرئيسيين ، توجد عدة وديان سيلية صغيرة قليلة الأهمية تصب مياهها شتاء في نهر يزيد . وقد تمكنت هذه السيول الهابطة ، على قلتها وضعفها ، من تجزئة هذه السلسلة الجبلية الى ثلاث كتل صغيرة متميزة ، تحمل أسماء محلية مختلفة ، وهي من الغرب الى الشرق : جبل قاسيون(١١٤٩م)، ويليه جبل الصالحية (١٠٧٨ م) ويفصل بينهما وادي الشيّاح أو الكهف الذي يفصل أيضاً بين حي الأكراد وحي أبي جرش ، ثم جبل برزة (١٠٢٨ م) ، ويفصله عن سابقه وادي الصفيري ، الواقع في نهاية حي الأكراد[١] .

وعلى يمين النهر ، ترتفع الارض على شكل هضبة تمتد على طول النهر ، تتصل بجبل المزة في الغرب ، وتأخذ في الانخفاض تدريجياً نحو الشرق ، وهي تطل على الوادي بجرف واضح يصل الى بضعة امتار في الغرب ، ولكن لا يلبث ان يختفي وتزول معالمه تدريجياً في الشرق ، اما في الجنوب فتشكل منحدرات

---

(١) عبد الهادي السعيد – ارض الصالحية – بحث غير منشور (١٩٥٣ – ١٩٥٤) – ص ٥ .

واضحة تصلها بالسهل الممتد الى جنوبها (شكل ٩) . ويضم هذا المنحدر الجنوبي للنهر عدة تلال اصطناعية ، لا يتجاوز اعلاها ٢٠ متراً ، وهي تقع داخل السور الذي يطوق المدينة القديمة ، ويعتقد انها تمثل اقدم المواضع التي نشأت فوقها مدينة دمشق .

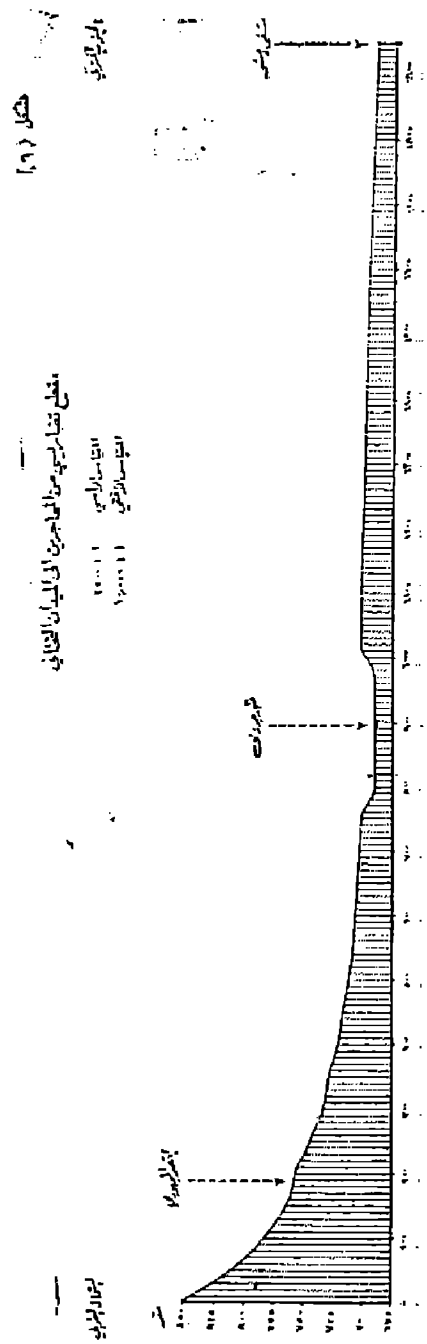
والى الغرب من خانق الربوة ، يرتفع جبل المزة الى اكثر من ٩٠٠ متر ، ويطل على وادي بردى بسفح عمودي تقريباً لا يقل ارتفاعه عن ٢٥٠ متراً ، بينما تتقدم سفوحه الشرقية مجموعة من التلال ، تمكنت السيول الهابطة من الكتلة الجبلية الخلفية من عزلها عما وراءها بواسطة عدة وديان ، اهمها وادي الحيز الموازي لمحور الالتواء . ويتراوح ارتفاع هذه التلال الامامية بين ٨٠٠ — ٨٥٠ متراً ، وهي من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي : تل الصبيان وتل السبع قاعات وتل البحص العريض . وعلى هذه التلال تقوم بعض المنشآت العسكرية كالمستشفى العسكري وسجن المزة وبعض القلاع [١] .

والى الشرق من هذه التلال تمتد روابي المزة الجرداء ، تشرف على الغوطة من علٍ بأفق واسع الامتداد ، وتتألف بمجموعها من ارض سهلية ذات سطح مستو مائل نحو الشرق ، يقطع استمراره بين مسافة واخرى درجة يتراوح ارتفاعها من متر الى مترين حتى يبلغ اراضي داريا .

ومما تقدم ، يتبين ان دمشق مدينة مفتوحة من معظم جهاتها ، باستثناء الغرب حيث يرتفع قاسيون والمزة ، اللذان يتحكمان في خانق الربوة الضيق من الشمال والجنوب ، ويحتلان أهمية استراتيجية كبيرة لاشرافهما على اهم الطرق المؤدية الى مدينة دمشق من جهة الغرب ، بينما تخلو الجهات الاخرى من اية عقبة طبيعية تضمن الحماية عن المدينة والدفاع عنها .

---

(١) محمد خير الحلو — منطقة المزة — بحث غير منشور (١٩٥٩) — ص ٦ .



الشكل رقم ٩

الفصل الثاني

مناخ دمشق [٧]

تقع دمشق على درجة العرض ٣٠ً ٣٣° شمالاً، وعلى ارتفاع نحو ٧٠٠ متر عن سطح البحر، عند المنحدرات الشرقية لجبال لبنان الشرقية، وفي بداية تلك السهول الواسعة الممتدة نحو الشمال الشرقي حتى الفرات، وجنوباً حتى قلب الجزيرة العربية.

وهي تقوم فوق بقعة قاسية جافية، لا تبدو، لاول وهلة، صالحة لنمو المدينة وازدهارها. ذلك انها على الرغم من قربها من البحر المتوسط الذي لا تبعد عنه اكثر من ٨٠ كيلو متراً، (مقيسة في خط مستقيم)، فانها تشارك صحاري بلاد العرب الشمالية في مناخها الجاف، لان جبال لبنان الغربية والشرقية الشاهقة، تؤلف حاجزاً مزدوجاً يمنع عنها المؤثرات البحرية، ويخفف كثيراً من كمية الامطار التي تسقط فيها، كما ان انكشافها في الشرق امام الصحراء، قد جعلها مسرحاً تمثل فيه الصحراء جميع ادوار القسوة والشدة في مختلف عناصر المناخ، فرياحها لافحة قارسة أو مضنية لاهبة، وهي في جميع الاحوال جافة لا تحمل سوى الغبار والرمال.

هذه الظروف الطبيعية، قد جعلت امطارها على غاية من الشذوذ، سواء

من حيث توزيعها على ايام السنة او من حيث كميتها ، وهي على اي حال لا يزيد معدلها السنوي على ٢١٥ ميليمتراً ، ولا تطول ايامها الى اكثر من الثلاثة اشهر تقريباً . اما الربيع والخريف فقصيران ينهش منهما الصيف القاسي ، الذي يمتد من نيسان (ابريل) الى تشرين الثاني (نوفمبر) ، ويتصف بجفاف تام ، تتجاوز فيه الحرارة في النهار ٣٥ درجة ، ويزيد في وطأته شدة تلك الرياح الغربية التي يستدعيها الانخفاض الجوي الكبير في الصحراء العربية .

محطة الارصاد الجوية بدمشق :

لم تكن محطة الارصاد الجوية بدمشق ، حتى وقت قريب ، سوى محطة صغيرة في مطار المزة ملحقة بوزارة الاشغال العامة ، ولا تملك سوى اجهزة بدائية قديمة . ولم تأخذ هذه المحطة شكلها الحالي الا في بداية عام ١٩٥٤ حين ألحقت بوزارة الدفاع الوطني ، وانتظمت مع المحطات الاخرى في ادارة يطلق عليها اسم « المديرية العامة للارصاد الجوية » .

ولا شك ان اختيار مطار المزة مركزاً لمحطة الارصاد الجوية ، كان خدمة لاغراض الطيران بالدرجة الاولى ، اذ ان موقع هذه المحطة عند نهاية الطرف الشرقي لمدينة دمشق ، فوق ارض جافة جرداء ، على مقربة من جبل الشيخ(١) ، الذي تغطيه الثلوج في أكثر شهور السنة ، لن يسمح باعطاء صورة صادقة عن مناخ دمشق التي تقوم بمعظمها فوق بساتين الغوطة الممتدة الى الشرق من المطار ، كما تقوم بعض اجزائها الاخرى فوق سفوح قاسيون المشرفة على غوطة دمشق .

وعلى الرغم من حداثة عهد هذه المحطة ، وضعف الثقة بالكثير من بياناتها

---

(١) يعرف في التوراة باسم جبل الحرمون ، وعند قدماء العرب بجبل الثلج .

القديمة ، فانها المحطة الوحيدة في دمشق ، وكثيراً ما تعطي صورة مشوهة عن واقع دمشق، لان المعدلات المناخية التي تنشرها تهمل كثيراً من التفاصيل المهمة، ولا تراعي الظروف الجغرافية المحلية التي يكون لها أثر واضح في تنوع المناخ واختلافه من بقعة الى اخرى في المدينة ، وهو ما يطلق عليه اسم «المناخ التفصيلي أو الميكروسكوبي» .

الحرارة :

تخضع دمشق لمؤثرات متعارضة ، تتلاقى فيها الصحراء والبحر ، في صراع بين المؤثرات الآتية من الشرق وتلك التي تأتي من الغرب . ويبلغ متوسط درجة الحرارة اليومية في دمشق ١٧،٧ م° ، ولكن هذا المتوسط السنوي للحرارة لا يمكن أن يعطي صورة واضحة عن حالة الحرارة في مثل هذه المنطقة التي تتفاوت فيها الحرارة الفصلية واليومية تفاوتاً كبيراً ، بسبب انحباس المؤثرات البحرية عنها خلف السلاسل الجبلية المرتفعة ، ووقوعها على عتبة البادية الشامية الواسعة .

ومن دراسة متوسط درجة الحرارة اليومية خلال شهور السنة ، يتضح أن أقل شهور السنة حرارة هو شهر كانون الثاني (يناير) ، اذ يبلغ معدل حرارته في دمشق ٧ م° ، ثم يأخذ معدل الحرارة في الارتفاع التدريجي ببطء في شهري شباط وآذار (فبراير ومارس) ثم يسرع ابتداء من شهر نيسان (ابريل) حتى تصل درجة الحرارة الى اقصاها في شهر آب (أغسطس) ، حيث تبلغ ٢٧،٥ م°. . وبعد ذلك يتجه معدل الحرارة نحو الانخفاض التدريجي ببطء في شهري أيلول وتشرين الأول (سبتمبر واكتوبر) ، ثم يسرع في شهري تشرين الثاني وكانون الاول (نوفمبر وديسمبر) ، وهذا ما يوضحه الجدول (١) .

جدول (١)

المعدلات الشهرية لدرجات الحرارة (مئويا) في دمشق[1]

الشهر	معدلات النهاية العظمى	معدلات النهاية الصغرى	معدلات المتوسط اليومي	الدرجات القياسية: أقصى درجة	الدرجات القياسية: التاريخ	الدرجات القياسية: أدنى درجة	الدرجات القياسية: التاريخ
كانون الثاني	١٢,٦	٢,٥	٧,٠	٢٢,٧	١٥—١٩٦٠	—٦,٥	٩ —١٩٥٧
شباط	١٤,٣	٣,٣	٨,٨	٢٢,٧	٢٨—١٩٥٨	—٥,٣	٦ —١٩٥٩
آذار	١٨,٠	٥,٣	١١,٨	٣١,٣	٣١ - ١٩٥٨	—٣,٠	٢٦—١٩٥٦
نيسان	٢٣,٠	٨,٧	١٦,١	٣٥,٣	٢٢ ١٩٥٩	—٣,٠	١ —١٩٥٦
أيار	٢٨,٧	١٢,٥	٢١,١	٣٧,٣	٣١—١٩٥٧	٤,٤	١ —١٩٥٩
حزيران	٣٣,٧	١٥,٩	٢٥,٢	٣٩,٨	٢٠ - ١٩٥٩	٩,٢	٤ - ١٩٦٠
تموز	٣٦,٠	١٧,١	٢٧,١	٤٣,٥	٣١—١٩٥٧	١١,٤	١٨ - ١٩٥٨
آب	٣٦,٣	١٧,٧	٢٧,٥	٤٤,٠	١ —١٩٥٧	١٢,٢	٢٥—١٩٥٧
أيلول	٣٢,٧	١٥,٣	٢٤,١	٣٨,٥	١١—١٩٦٠	٨,٧	٢٨ - ١٩٦١
تشرين الاول	٢٧,٨	١٢,٤	٢٠,٥	٣٦,٦	٧ —١٩٥٧	٦,٣	٢٩ ١٩٥٩
تشرين الثاني	١٩,٨	٧,٦	١٣,٨	٢٩,٦	١ —١٩٥٩	٢,٥	٢٤—١٩٥٨
كانون الاول	١٣,٩	٣,٩	٨,٨	٢٤,٤	٣١ - ١٩٥٦	—٣,٠	١٣—١٩٥٦
المتوسط السنوي	٢٤,٧	١٠,٢	١٧,٧				

(١) المديرية العامة للارصاد الجوية .

ومن دراسة الجدول السابق ، يتبين ان شهري كانون الثاني وآب (يناير واغسطس) لا يمثلان الحدين الادنى والاقصى لمتوسط درجة الحرارة اليومية فحسب ، بل يمثلان ايضاً الحدين الادنى والأقصى لمتوسط النهاية العظمى ومتوسط النهاية الصغرى لدرجات الحرارة اليومية .

ويبلغ الفرق بين المعدل السنوي لكل من النهايتين العظمى والصغرى لدرجات الحرارة ١٤٫٥°م ، بينما يبلغ المدى السنوي للحرارة ٢٠٫٥°م . ولاشك ان هذه الفروق الحرارية الواسعة ، بين اكثر الشهور حرارة وادناها حرارة ، جعلت مناخ دمشق يكتسب الصفة القارية .

وادنى درجات الحرارة التي سجلتها دمشق خلال ست سنوات (١٩٥٦—١٩٦١) هي —٥٫٦°، وذلك في يوم ٩ كانون الثاني ١٩٥٧ . ويترتب على هبوط درجة الحرارة الى ما دون الصفر ، حدوث الصقيع في الغالب ، ويكون هذا الصقيع شديداً اذا سبقه هطول الثلج ، اذ ان الثلج الذي يغطي الارض يعمل على تبريد سطحها . ويحدث الصقيع في الفترة ما بين شهر تشرين الثاني (نوفمبر) و آذار (مارس)، ولكن معظمه يتركز في شهرى كانون الثاني وشباط (يناير وفبراير) . ويبلغ المتوسط السنوي لعدد ايام الصقيع في دمشق ١٧ يوماً ، كما هو واضح في الجدول الآتي :

جدول (٢)

المعدلات الشهرية لعدد الايام التي تتطوف فيها درجات الحرارة في دمشق

الشهر	كانون الثاني	شباط	آذار	نيسان	أيار	حزيران	تموز	آب	أيلول	تشرين الأول	تشرين الثاني	كانون الأول	المتوسط السنوي
— ٥° م فأقل	١	-	—	—	—	—	—		—	—	—	—	١
أقل من الصفر	٥	٦	٣	—	—	—	—	—	—	—	١	٢	١٧
٣٥° م فأكثر	—	—	—	—	٣	١٢	١٩	٢٤	٤	—	—	—	٦٢

أما أعلى درجات الحرارة التي سجلتها دمشق في الفترة نفسها ، فهي ٤٤°م وذلك في اليوم الأول من تموز ١٩٥٧ . ويبلغ المتوسط السنوي لعدد الأيام التي ترتفع فيها درجة الحرارة عن ٣٥°م في دمشق ٦٢ يوماً ، يقع معظمها في اشهر حزيران وتموز وآب (يونيو ويوليو واغسطس) .

ولاشك في ان موقع دمشق خلف السلاسل الجبلية المرتفعة ، وارتفاعها عن سطح البحر أكثر من ٧٠٠ متر، هما ابرز العوامل المؤثرة في حرارة المدينة ، ويتضح لنا هذا من مقارنة متوسط درجات الحرارة في دمشق بمثيلاتها في بيروت الواقعة الى الغرب منها ، على ساحل البحر المتوسط .

جدول (٣)

مقارنة بين متوسطات الحرارة (مئويا) في دمشق وبيروت[١]

المدينة	كانون الثاني	شباط	آذار	نيسان	أيار	حزيران	تموز	آب	أيلول	تشرين الاول	تشرين الثاني	كانون الاول	المتوسط اليومي
دمشق	٧٫٠	٨٫٨	١١٫٨	١٦٫١	٢١٫١	٢٥٫٢	٢٧٫١	٢٧٫٥	٢٤٫١	٢٠٫٥	١٣٫٨	٨٫٨	١٧٫٧
بيروت	١٤٫١	١٣٫٩	١٥٫٤	١٨٫٢	٢١٫٢	٢٣٫٨	٢٥٫٨	٢٦٫٧	٢٥٫٦	٢٣٫٤	١٩٫٩	١٦٫٢	٢٠٫٣

ومن دراسة الجدول السابق يتضح لنا اثر البحر في حرارة بيروت وانعدامه في حرارة دمشق ، ويترتب على ذلك اربعة فروق هامة هي :

اولا : برودة فصل الشتاء في دمشق ودفؤه في بيروت ، فالملاحظ ان درجات الحرارة في بيروت اعلى منها في دمشق خلال فصل الشتاء ، حتى انها تبلغ ضعفها في شهر كانون الثاني (يناير) .

---

(١) دائرة الارصاد الجوية اللبنانية (معدل ٣٠ سنة) .

ثانيا : شدة الحرارة صيفاً في دمشق واعتدالها في بيروت ، فالملاحظ أن متوسط الحرارة يتساوى في كلا المدينتين في شهر ايار (مايو) تقريباً ، وفي الشهر التالي حزيران (يونيو) يبلغ الفرق في الحرارة اقصاه بينهما حيث يصل الى ٤و١١°م ثم يأخذ هذا الفرق في التناقص التدريجي حتى شهر آب (اغسطس) ، (٨و٠°م) ثم تنعكس الحالة فتقل الحرارة في دمشق عنهـــا في بيروت ابتداء من شهر ايلول (سبتمبر) .

ثالثا : عظم المدى السنوي للحرارة في دمشق وصغره في بيروت ، فهو يبلغ ٥و٢٠° م في دمشق ، بينما يبلغ ٨و١٢°م في بيروت ، وبذلك يبلغ الفرق بين المدى الحراري في المدينتين ٨و٧°م .

رابعا : يلاحظ ان شهر كانون الثاني (يناير)هو اقل شهور السنة حرارة في دمشق ، بينما نجد ان شهر شباط (فبراير) هو ابرد الشهور في بيروت . وهذا يرجع الى موقع بيروت على ساحل البحر المتوسط وتأثرها بمناخه ، والمعروف أن الماء ابطأ من اليابس في امتصاص الحرارة الشمسية وابطأ في فقدانها بالاشعاع ، وهذا يترتب عليه تخلف شهر الحرارة القصوى في بيروت عنه في دمشق .

ولا تقتصر الفروق الحرارية الواسعة على اشهر الصيف والشتاء في مدينة دمشق ، انما تتعداها الى ساعات الليل والنهار ، اذ يبلـــغ معدل المدى اليومي للحرارة في شهر كانون الثـــاني (ينـاير) ١و١٠°م في دمشق ، يرتفع في شهر آب (اغسطس) الى ٥و١٨°م ، وهذا يرجع الى كثرة السحب ووفرة الرطوبة النسبية التي تمتص كثيراً من الاشعاع خلال اشهر الشتاء .

ولهذا التفاوت الكبير بين حرارتي الليل والنهار في فصل الصيف فائدة كبيرة ، اذ ان حرارة النهار الشديدة التي تصل الى ٣و٣٦°م في شهر آب

(أغسطس) ، يخفف من شدتها حرارة الليل المعتدلة ، والتي تقل عن حرارة النهار بمقدار النصف تقريباً (١٨و٦°م) .

ويجدر بنا اخيراً ، ان نشير الى وجود اختلافات محلية في الحرارة داخل مدينة دمشق ، يتمثل هذا الاختلاف باعتدال الحرارة نسبياً في منطقتي الصالحية والمزة عنها في بقية انحاء دمشق التي تحدق بها الغوطة وتتداخل معها .

وعلى الرغم من عـــدم وجود محطات مناخية اخرى الى جانب محطة الارصاد الجوية في مطار المزة ، فانـه من السهل تعليل هذه الاختلافات المحلية بمجرد النظر الى خريطة طبوغرافية لمنطقة دمشق ، حيث نجد ان منطقة الصالحية قد حبتها الطبيعة حماية جيدة من الرياح الشمالية الباردة ، اذ ينتصب جبل قاسيون وراءها يحميها ويرد عنهـــا غائلة الرياح القارسة ، كما ان توجهها نحو الجنوب ، يعرضها جيداً لأشعة الشمس التي تسقط عليها بشكل رأسي تقريباً ، فتبدو دفيئة في اشهر الشتاء ، وهذا مما ساعد ايضـــاً على شهرتها بزراعة الازهار والحمضيات (الموالح) وغيرهامن الاشجار المثمرة منذ القديم ، بينما فشلت زراعتها في المناطق الأخرى المجاورة .

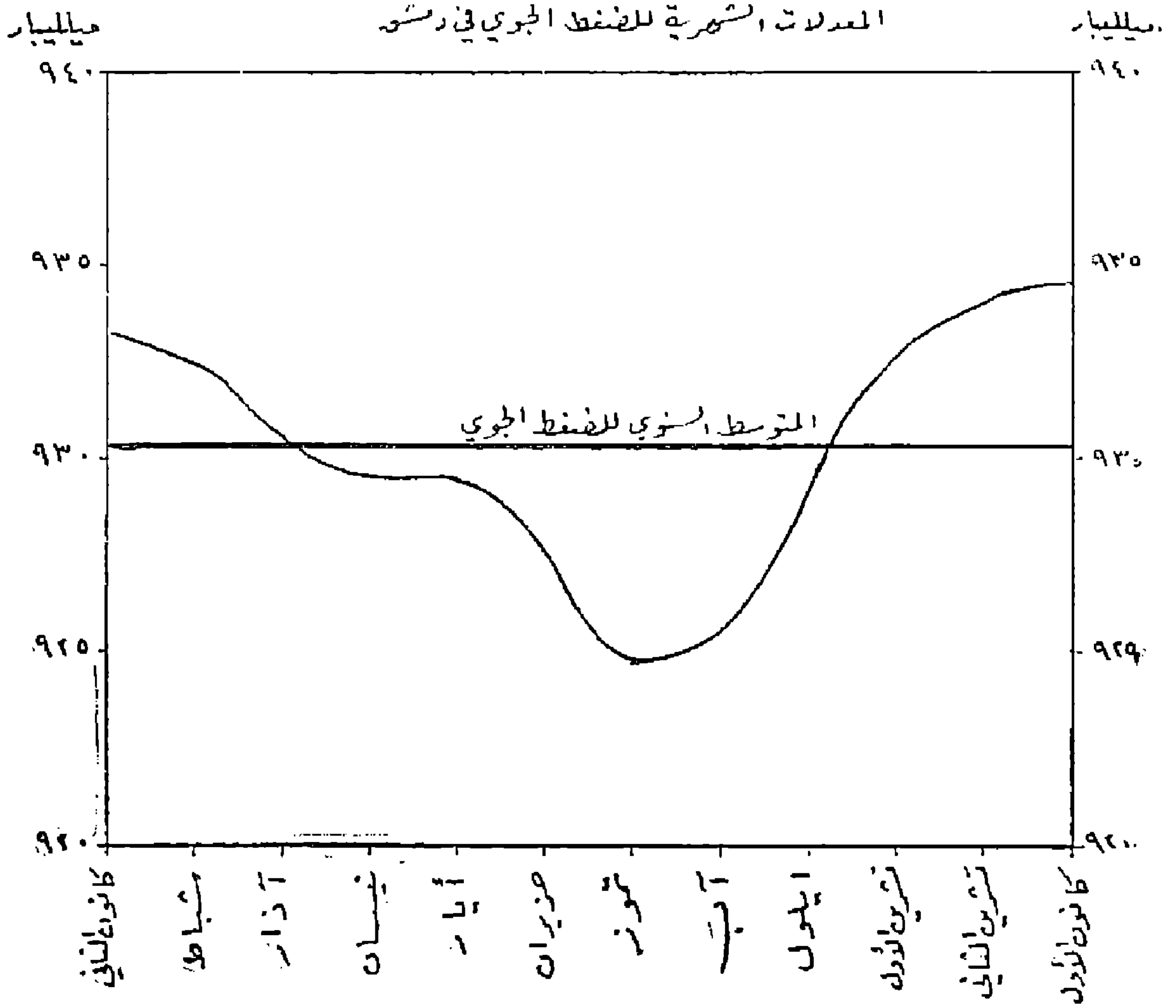
وفي الصيف ، تتضافر الشروط الطبيعية ايضاً ، لتجعل هذه المنطقة معتدلة الحرارة ، اذ ان ارتفاعها بما يقرب من ١٠٠ متر عن بقية انحاء دمشق ، يخفف من وطأة الحرارة الشديدة التي يرزح تحتها سكان الاقسام المنخفضة من المدينة ، كما تحظى بهبات من النسمات العليلة، قد لاينعم بها غيرها من المناطق الاخرى ، هذا بالاضافـــة الى انخفاض نسبة الرطوبة التي تساعد على تقبل الحرارة المرتفعة أيام الصيف .

وتأتي منطقة المزة ، في المقام الثـاني بعد منطقة الصالحية ، من حيث ميزاتها المناخية ولاسيما صفاتها الحرارية ، فهي تماثلها في ارتفاع سطحها وانخفاض نسبة الرطوبة فيها وبعد طبقة المياه الجوفية عن سطحها ، ولكنها تفتقد الى الحماية التي تتمتع بها منطقة الصالحية من الرياح الشمالية الباردة ، بل انها تقع تحت رحمة

اللفحات القارسة التي تهبط عليها من قمم جبال الشيخ المكللة بالثلوج ، خلال فصل الشتاء . هذا بالاضافة الى انعدام الغطاء النباتي في معظم اراضي المزة ، مما يساعد على زيادة سخونة الارض في النهار وسرعة فقدها للحرارة في الليل .

الضغط الجوي والرياح

يتبين من دراسة المتوسطات الشهرية للضغط الجوي في دمشق ، ان الضغط يبلغ اقصاه في شهر كانون الاول (ديسمبر) ٩٣٤٫٥ ملليبار ، ثم يأخذ في الانخفاض تدريجياً حتى يصل الى حده الادنى في شهر تموز ٩٢٤٫٨ مليبار كما هو واضح في الجدول (٤) .



الشكل (١٣)

جدول رقم (٤)

المعدلات الشهرية للضغط الجوي وسرعة الرياح واتجاهاتها في دمشق(١)

الشهر	الضغط الجوي: المتوسط عند مستوى ٧٠٠م فوق سطح البحر	سرعة الرياح: كيلو مترا في الساعة	اتجاهات الرياح ٪ – الاتجاه (٢٤ رصدة يوميا): شمال	شمال شرق	شرق	جنوب شرق	جنوب	جنوب غرب	غرب	شمال غرب	سكون
كانون الثاني	٩٣٣٫١	٩٫٧	٤٫١	٤٫٦	٥٫٧	١٫٥	٢٫٧	٨٫٤	١٣٫٨	٨٫٩	٥٠٫٣
شباط	٩٣٣٫٣	١٣٫٠	٦٫٢	٥٫٠	٥٫٠	١٫٩	٣٫٤	٧٫٦	١٧٫٦	١٥٫٠	٣٨٫٣
آذار	٩٣٠٫٦	١٧٫٣	٦٫٣	٥٫٥	٥٫٥	١٫٨	٣٫٦	٨٫١	١٧٫٦	١٩٫٣	٣٢٫٣
نيسان	٩٢٩٫٦	١٧٫٤	٦٫٢	٥٫٢	٥٫٧	٢٫٤	٤٫٤	٨٫٤	١٦٫٩	٢٠٫٩	٢٩٫٩
ايار	٩٢٩٫٦	١٦٫٥	٥٫٥	٤٫٥	٧٫٦	٣٫٥	٤٫٦	٨٫٠	١٥٫٠	٢٢٫١	٢٩٫٢
حزيران	٩٢٧٫٥	١٨٫٣	٤٫٣	٢٫٨	٧٫٢	٤٫٠	٥٫٣	٦٫٦	١٤٫٦	٢٦٫٨	٢٨٫٥
تموز	٩٢٤٫٨	١٨٫٦	٥٫١	٢٫٥	٦٫٤	٣٫٦	٦٫٤	٧٫١	١٤٫٤	٢٩٫٠	٢٥٫٥
آب	٩٢٥٫٦	١٥٫٠	٤٫٠	٣٫٠	٧٫٥	٤٫١	٦٫٢	٧٫٠	١٢٫٠	٢١٫٨	٣٣٫٩
ايلول	٩٢٩٫٢	١١٫٨	٤٫٦	٤٫٢	٧٫٩	٤٫٧	٦٫٠	٥٫٧	١٠٫٢	١٥٫٢	٤١٫٥
تشرين اول	٩٣٣٫٧	٨٫٩	٦٫٥	٦٫٩	٩٫٤	٣٫٣	٣٫٦	٣٫٩	٧٫١	١١٫٧	٤٧٫٥
تشرين ثاني	٩٣٤٫٠	٧٫٧	٥٫١	٧٫٢	٨٫٣	٢٫٣	٢٫٥	٣٫٧	٧٫٦	٨٫٠	٥٠٫٣
كانون أول	٩٣٤٫٥	٦٫٧	٣٫٨	٧٫٦	٧٫٣	١٫٥	٣٫١	٦٫٨	٩٫٩	٥٫٥	٥٤٫٥
المتوسط السنوي	٩٣٠٫٣	١٣٫٤	٥٫١	٥٫٠	٧٫٠	٢٫٩	٤٫٣	٦٫٧	١٣٫١	١٧٫٠	٣٨٫٩

(١) المديرية العامة للارصاد الجوية ، اما النسب المئوية لاتجاهات الرياح الثمانية فهي من حساب الباحث .

ويلاحظ ان المتوسط الشهري للضغط الجوي يتغير بـ ـعة بـين شهري آب (٩٢٥٫٦ مليبار) وتشرين الأول (٩٣٢٫٧ مليبار) ـيث يبلغ الفرق في الضغط بين هذين الشهرين اكثر من ٧ مليبارات . وهذا يعني ان الانتقال نحو نظام الضغط الشتوي في دمشق يكون اكثر سرعة ووضوحاً من الانتقال نحو نظام الضغط الصيفي (شكل ١٣) .

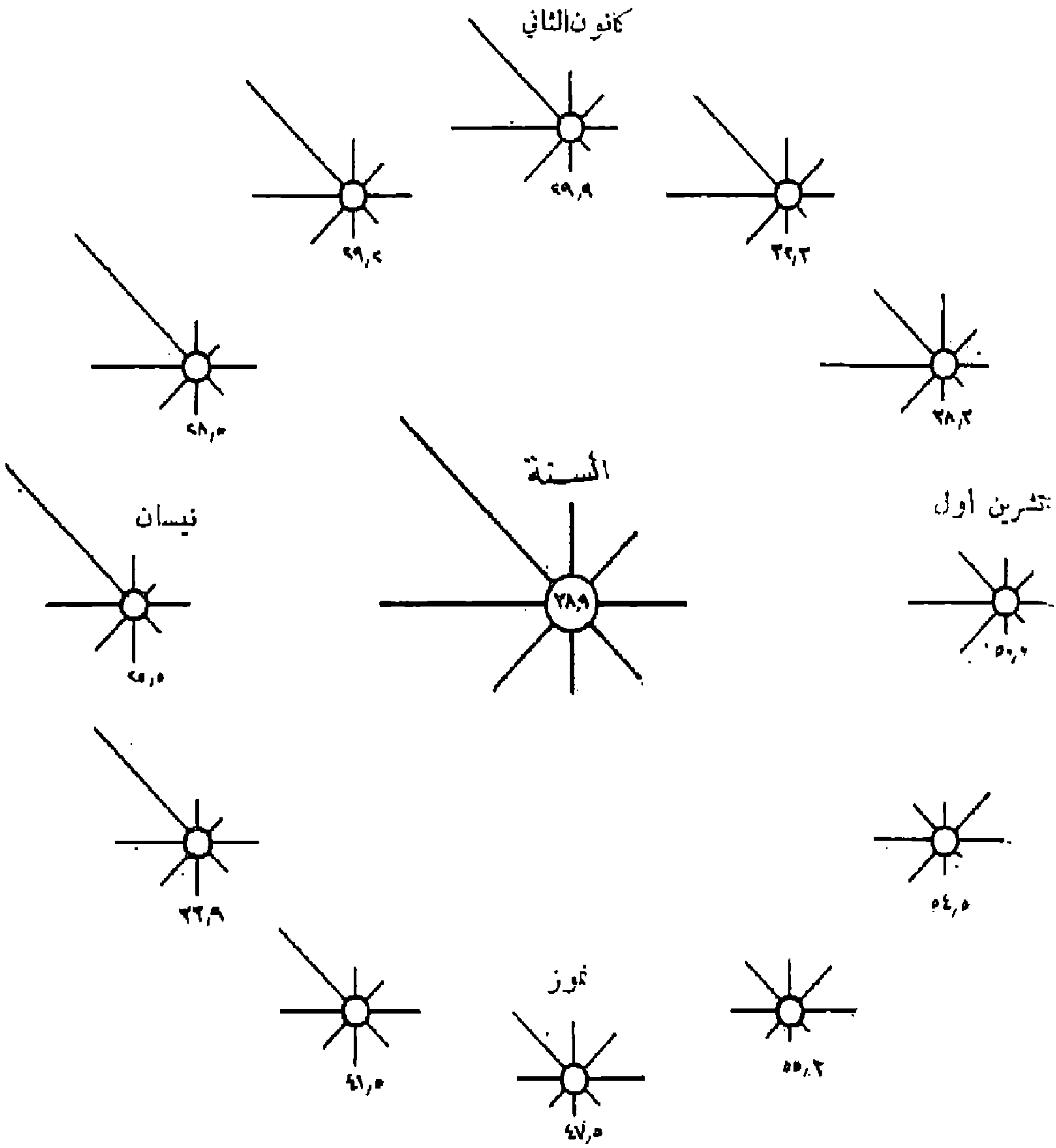
وتقع منطقة دمشق تحت تأثير الانخفاضات الجوية ، كما هي الحال في بقية انحاء القطر السوري ، ويبدأ موسم الانخفاضات الجوية في دمشق في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ويشعر الناس ببوادره من اضطراب الطقس وتقلباته بين آونة وأخرى . وكلما تقدمت الشهور ازدادت التقلبات شدة وعنفاً ، حتى تبلغ اقصاها في شهري شباط وآذار (فبراير ومارس) ، اذ يبلغ متوسط عـــدد الانخفاضات الجوية التي تمر بدمشق اربعة أو خمسة انخفاضـات في الشهر ، ثم يأخذ عددها في التناقص تدريجياً في فصل الربيع ، حتى اذا كان شهر حزيران (يونيو) خلا الطقس من هذه الظاهرة الجوية وساد الطقس الصيفي .

* * *

ومن دراسة النسب المئوية لاتجاهات الرياح التي تهب على دمشق في اشهر السنة المختلفة ، يتبين ان الاتجاهات الغالبة هي الشمالية الغربية والغربية ، وتبلغ النسب المئوية لهذين الاتجاهين على الترتيب : ١٧ ، ١٣٫١ من مجموع الرياح التي تهب على هذه المنطقة طول العام . ويمثل هذان الاتجاهان معاً ٣٠٫١ ٪ من مجموع الرياح التي تهب على دمشق ، وهذا يعني ان الرياح السائدة في دمشق يغلب عليها الاتجاه الغربي بصورة عامة (شكل ١٤) .

واذا درسنا اتجاهات الرياح في فصول السنة الاربعة ، نجد أنه يغلب عليها الاتجاه الشمالي الغربي والغربي في مختلف فصول السنة ، بينما تزيد نسبة الرياح

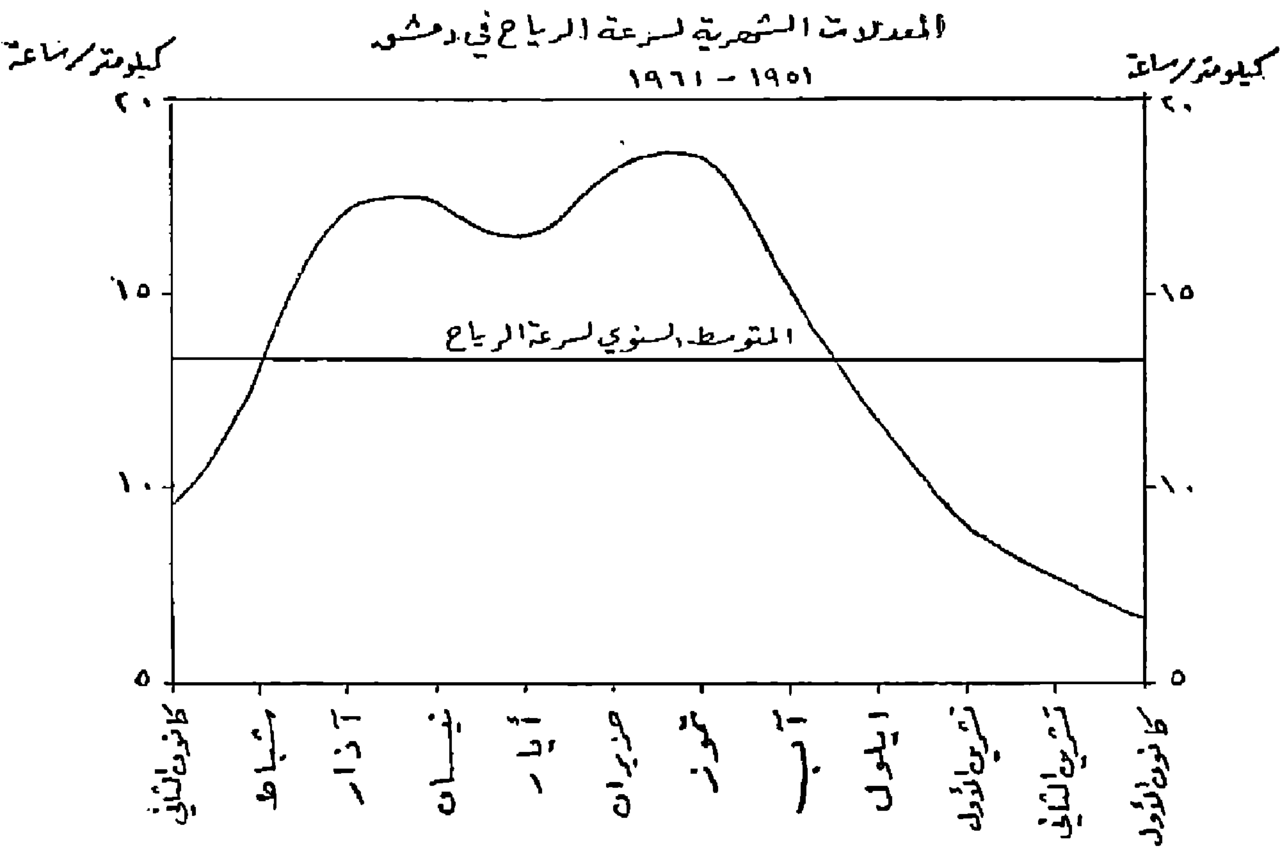
وردات الرياح في دمشق



الأرقام المكتوبة أسفل كل وردة تدل على النسبة المئوية لمرات السكون

الشكل (١٤)

الشرقية بشكل واضح خلال فصل الخريف . اما في فصل الشتاء فان تعرض دمشق للتقلبات الجوية والاعاصير يحول دون وضوح اتجاه سائد للرياح ، وان كان الاتجاه الغربي والشمالي الغربي والجنوبي الغربي هي الاتجاهات الغالبة خلال هذا الفصل .



الشكل (١٥)

أما سرعة الرياح فيوضحها الجدول (٤) والشكل (١٥) ، ومنها يظهر أن الرياح تبلغ اقصاها في أشهر الصيف ، وخاصة في شهري حزيران وتموز (يونيو ويوليو) ، إذ تصل سرعتها على التوالي إلى ١٨٫٢ ، ١٨٫٦ كيلو متراً في الساعة . أما أشهر الخريف والشتاء فتقل فيها سرعة الرياح حتى تبلغ حدهـا الادنى في شهر كانون الاول (ديسمبر) وهو ٦٫٧ كيلو متراً في الساعة ، ثم تأخذ السرعة في الارتفاع تدريجياً كلما اقتربت من أشهر الربيع والصيف .

ويبلغ المعدل السنوي لسرعة الرياح في دمشق ١٦٫٤ كيلو متراً في

الساعة ، وهي سرعة – كما تبدو – مناسبة ، لا تعرقل اي نشاط بشري . ويعتبر هذا المعدل من أكبر المعدلات التي سجلتها محطات الرصد الرئيسية في القطر السوري ، ولا يزيد عنه سوى معدل حلب وحماه ، كما هو واضح في الجدول التالي :

جدول (٥)

المعدل السنوي لسرعة الرياح في محطات الرصد الرئيسية في سورية (١)

(بالكيلو متر في الساعة)

دمشق	حلب	حماه	دير الزور	القامشلي	اللاذقية
١٦٫٤	١٩٫٠	١٦٫٩	١٢٫٢	١٣٫٧	١٦٫٠

أما العواصف الرملية ، فيندر حدوثها في دمشق ، وهي لا ترتبط بأوقات معينة لأنها قد تحدث في جميع فصول السنة ، ولكنها تكثر عادة في فصل الصيف حينما تشتد الرياح وتحمل معها الأتربة والرمال من الصحراء ، وتحدث عادة في النهار ، وخاصة بعد شروق الشمس أو قبل غروبها ، ويبلغ متوسط عدد العواصف الرملية التي تحدث في دمشق حوالي أربع مرات في السنة (٢) .

ويمكن أن نجمل حالة الضغط الجوي وحركة الرياح وتوزيعها بين فصل وآخر على النحو الآتي :

في الشتاء : من تشرين الأول (اكتوبر) الى نيسان (ابريل) ، تقع سورية بكاملها ، تحت تأثير امتداد الضغط المرتفع المتمركز في أواسط تركستان ، فتسودها رياح شمالية تتصف بجفافها وبرودتها ، ولذلك ينحصر عملها

(١) متوسط الفترة مابين ١٩٥٨ – ١٩٦٢ .

(٢) محاضرة غير منشورة لمدير المناخ في المديرية العامة للارصاد الجوية بدمشق .

في تكثيف الغيوم وتلبيد الجو وتهيئته لنزول المطر ، ولما كانت الرياح التي تهب حول منطقة الضغط المرتفع تسير باتجاه عقارب الساعة ، لذا فان هذه الرياح تهب غربية على منطقة البحر المتوسط التي تقع ضمنها دمشق .

إلا أن هذه الرياح تتأثر بالانخفاض الجوي المتمركز فوق قبرص شمالاً والانخفاض الجوي المتمركز فوق البحر الأحمر جنوباً ، ولذلك يكون اتجاه الرياح في الغالب غربياً الى جنوبي غربي فوق منطقة دمشق . وهذه الرياح هي نفسها تتحول الى رياح شرقية عند وصول الانخفاضات الجوية الى غرب سورية ، فتهب من الصحراء ، باتجاه الغرب ، وعلى حالها الأول من برودة وجفاف .

ولكن هذا الضغط الجوي المرتفع الممتد فوق سورية ، قد يتقلص أحياناً ، مما يسمح للانخفاضات الجوية القادمة من البحر المتوسط ، بالسيطرة على الطقس ، وهذه الانخفاضات هي السبب الرئيسي في حدوث الأمطار التي ترافقها العواصف الرعدية في بعض الأحيان ، فحين يقترب الاعصار يحصل الدفء ثم تهطل عند مروره الأمطار ، وعند ابتعاده يحل البرد الشديد . وهذه الانخفاضات تتتابع طوال فصل الشتاء ، والتتابع هو الذي يجعل الجو متقلباً رديئاً في هذا الفصل ، وتبلغ رداءة الطقس أقصاها في شهري كانون الثاني وشباط (يناير وفبراير) ، ولما كانت الرياح تدور حول الانخفاض بعكس اتجاه عقارب الساعة ، فان الرياح تأتي بنتيجة وصول هذه الانخفاضات من الغرب والجنوب الغربي .

وفي الصيف : من نيسان (ابريل) الى تشرين الأول (اكتوبر) تقع سورية تحت تأثير الضغط الآسيوي المنخفض المتمركز فوق أفغانستان ، والممتد غرباً حتى الخليج العربي وبلاد ما بين النهرين ، ولما كانت الرياح تتحرك حول مركز الانخفاض باتجاه مخالف لعقارب الساعة ، فان الاتجاه العام لهذه

الرياح يكون غربياً على وجه العموم ، ويكون هواؤها حاراً جافاً ، فيخيم على البلاد الصيف الذي لا يعكره مطر ولا تظهر في سمائه سحابة .

أما الرياح البحرية القادمة من المحيط الأطلسي ، فهي تفقد معظم رطوبتها لطول المسافة التي تقطعها أثناء مرورها عبر أوروبا ، وتصبح الى حد قريب مشابهة لتلك الرياح القارية المدارية ؛ وهي لا تسقط الأمطار رغم رطوبتها ، وذلك لأن حرارة اليابس أعلى من حرارتها ، فيقتصر عملها على تلطيف الحرارة فقط .

أما الفصلان الانتقاليان : فهما غير واضحين تماماً في سورية عموماً ، شأنها في ذلك شأن بقية بلدان جنوبي غرب آسيا ، فالربيع يعد امتداداً لفصل الشتاء والخريف استمراراً لفصل الصيف ، فلا يكاد أول انخفاض جوي يظهر حتى يطل معه الشتاء بكل برده ورياحه وأمطاره .

والربيع أشد اضطراباً من الخريف ، فحين يطل آذار ونيسان (مارس وابريل) وهما شهرا الربيع ، ترتفع الحرارة في المناطق الصحراوية الداخلية بالنسبة للمناطق الساحلية ، ويظهر أثرهما في ارتفاع معدلات النهاية العظمى للحرارة ، مما يجعل الانخفاضات الشتوية الأخيرة القادمة عن طريق مصر ، من الصحراء الافريقية في اغلب الأحوال ، تثير رياحاً شديدة وتسبب ارتفاع الحرارة وانخفاض الرطوبة النسبية ، وتدوم غالباً من يومين الى ثلاثة أيام ، ونادراً ما تستمر سبعة أيام . وهي تهب من الشرق والجنوب الشرقي نحو الغرب ، وتدعى هذه الرياح بالسموم ، وتعرف في مصر بالخماسين [١] . وترتبط هذه الرياح بمركز

---

(١) Combier, Ch . . La climatologie de la Syrie et du Liban. (Revue de géog. Phys . et de géolog. dyn. V. VI. f. 4. 1933) . pp. 319-327 .

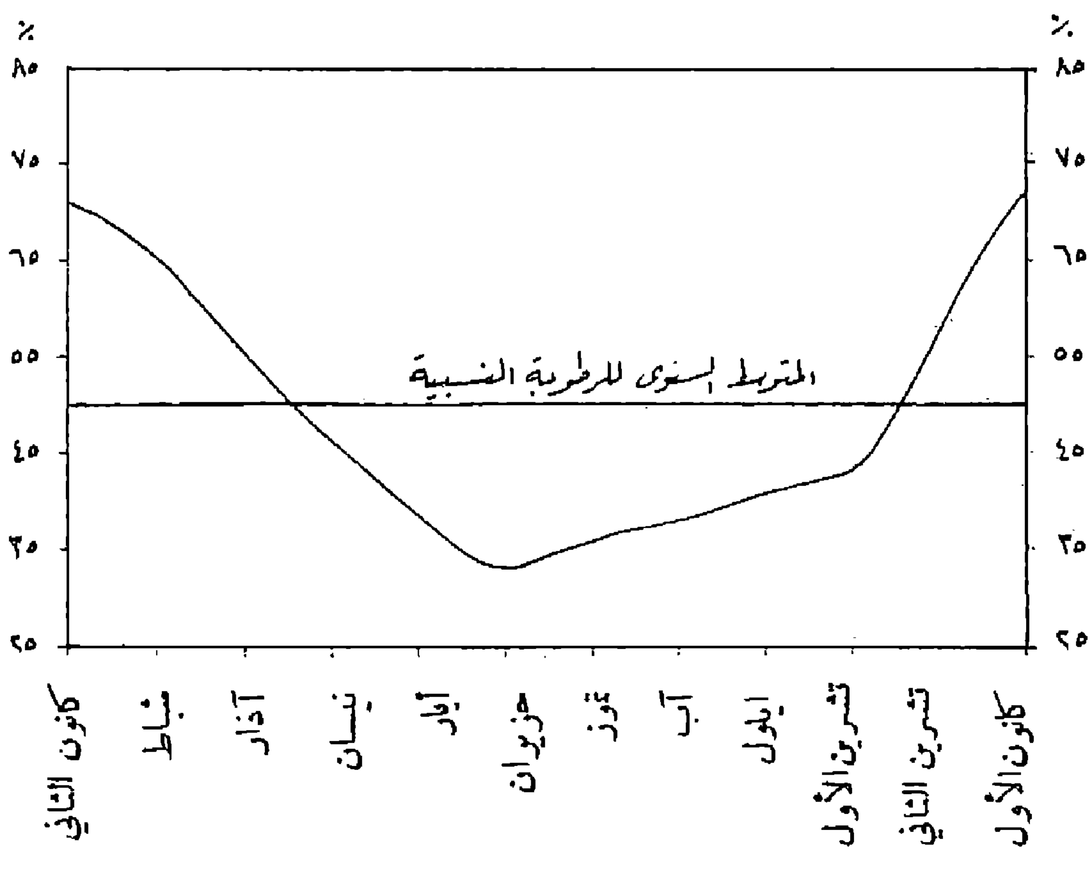
الانخفاض الموجود في السودان ، والذي يمتد منه ذراع نحو الشمال ، فيؤثر على المناخ السوري ويؤدي الى حدوث الخماسينات ، بينما يأتي دور الانخفاضات الغربية كعامل مساعد فقط .

الرطوبة :

يتضح من دراسة المعدلات الشهرية للرطوبة النسبية في مدينة دمشق ، ان الرطوبة النسبية تبلغ اقصاها في فصل الشتاء ، وخاصة في شهري كانون الاول والثاني (ديسمبر ويناير) ، وهما على الترتيب ٧٢ ، ٧١ . وتقل الرطوبة النسبية الى حدها الأدنى في فصل الصيف وخاصة في شهري حزيران وتموز (يونيو ويوليو) ، وهما على الترتيب ٣٣ ، ٣٦ ، كما هو واضح في الجدول (٦) والشكل (١٦) .

الشكل (١٦)

المعدلات الشهرية للرطوبة النسبية في دمشق[1]



ويرجع ارتفاع الرطوبة النسبية شتاء في دمشق الى ازدياد نسبة الرياح البحرية التي تحمل معها كميات كبيرة من بخار الماء ، واقترانها بانخفاض درجة الحرارة ، فترتفع تبعاً لذلك الرطوبة النسبية ؛ بينما تعود قلة الرطوبة النسبية صيفاً الى وصول الرياح القارية الجافة ، واقترانها بارتفاع درجة الحرارة . أما انخفاض الرطوبة النسبية في فصل الربيع ، فهو يرجع الى رياح السموم الحارة التي تصحب الانخفاضات الجوية ، والتي يؤدي هبوبها الى انخفاض الرطوبة النسبية بصورة مفاجئة ، بالاضافة الى ارتفاع درجة الحرارة النسبي في فصل الربيع .

ويبلغ متوسط الرطوبة النسبية في دمشق ٥٠٪ ، وهو يقل في روابي المزة وصفوح قاسيون بسبب ارتفاعها النسبي عن بقية اجزاء المدينة وبعد المياه الجوفية عن سطح الارض ، بينما يزداد متوسط الرطوبة النسبية في الاقسام الشرقية من المدينة ، لوقوعها فوق عدد كبير من الشرايين المائية التي تنساب تحت المنازل القديمة ، ووفرة المياه الجوفية التي تتغلغل في الرواسب النهرية فتجعلها دائمة الرطوبة .

وتتصف الرطوبة النسبية في دمشق باتساع الفرق بين اعلى نسبة للمعدلات الشهرية واقل نسبة لها ، حيث يبلغ المدى السنوي للرطوبة النسبية في دمشق ٣٩٪ ، ولكن هذه النسبة تنخفض الى ٢٠٪ فقط عندما ننتقل الى مدينة اللاذقية مثلا على شاطىء البحر المتوسط .

وتختلف الرطوبة النسبية اختلافاً كبيراً بين ساعات الصباح وما بعد الظهر ، وتتناسب الدورة اليومية للرطوبة النسبية تناسباً عكسياً مع الدورة اليومية لدرجة الحرارة ، اذ تبلغ الرطوبة النسبية نهايتها العظمى في الصباح الباكر ، ثم تتناقص حتى تبلغ ادناها وقت الظهيرة ، ثم تعود للارتفاع ثانية بعد الغروب وتستمر حتى وقت متأخر من الصباح ، ويكون هذا الفرق بين النهايتين العظمى والصغرى للرطوبة النسبية اقل ما يمكن في الشتاء والخريف .

جدول (٦)

المعدلات الشهرية للرطوبة النسبية والسحب وسطوع الشمس في دمشق(١)

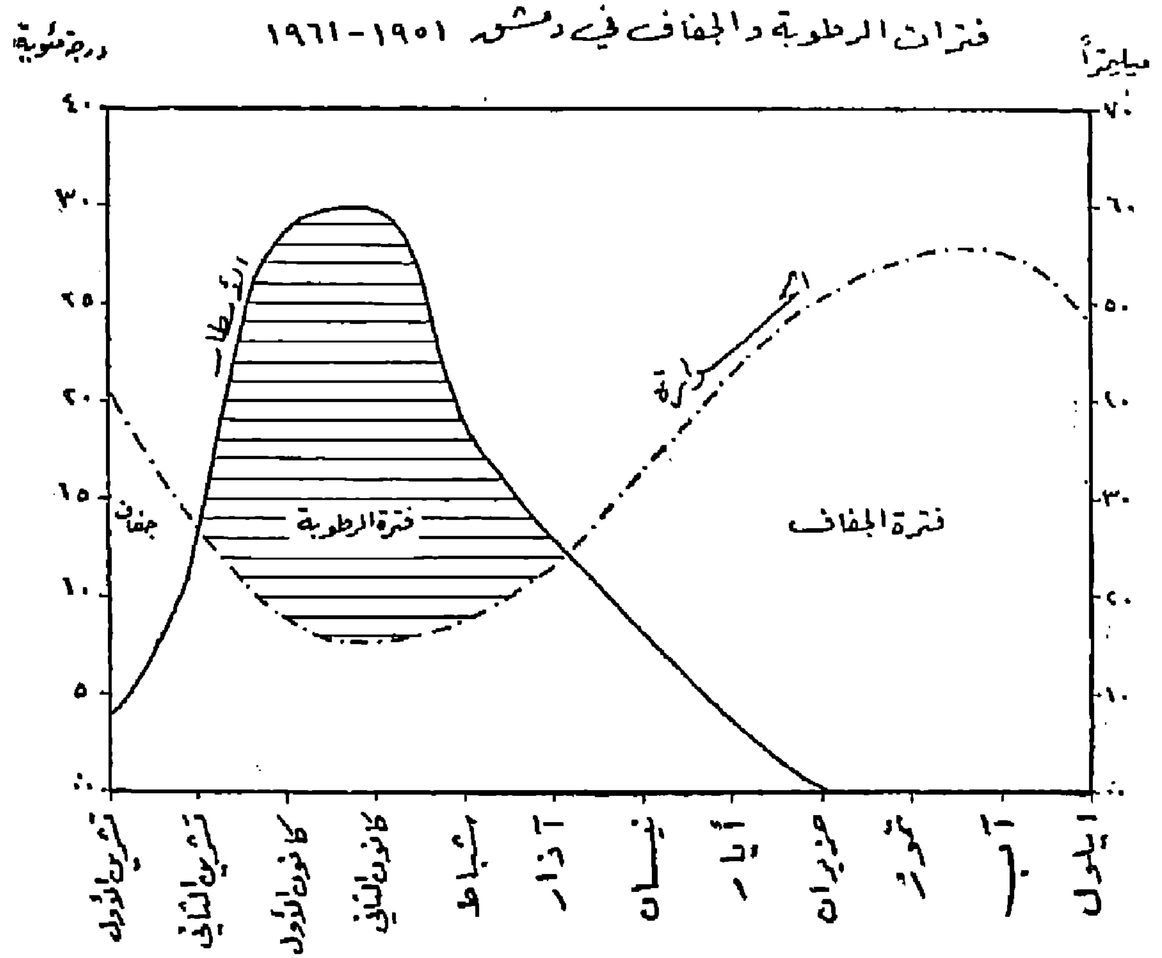
الشهر	الرطوبة النسبية ٪		كمية السحب	سطوع الشمس
	المتوسط اليومي	الساعة ٢ مساء	٠ – ٨	المدة بالساعات
كانون الثاني	٧١	٥٦	٤٫٢	١٨٦
شباط	٦٥	٤٥	٣٫٤	٢٠٠
آذار	٥٥	٣٩	٣٫١	٢٧٨
نيسان	٤٦	٣٠	٣٫٠	٢٩٠
أيار	٣٨	٢٤	٢٫٠	٣٤٨
حزيران	٣٣	١٨	٠٫٥	٣٨٠
تموز	٣٦	١٩	٠٫٧	٤٠٠
آب	٣٨	١٩	٠٫١	٣٧٩
ايلول	٤١	٢٣	٠٫٥	٣٣٢
تشرين الأول	٤٣	٢٩	١٫٣	٣٠٨
تشرين الثاني	٥٧	٤٢	٢٫٩	٢٣١
كانون الأول	٧٢	٥٧	٤٫٠	١٩٢
المتوسط الشهري	٥٠	٣٣٫٤	٢٫١	٢٩٤

(١) متوسط الفترة مابين ١٩٥١ – ١٩٦٤ .

ويلاحظ ان العلاقة بين المعدلات الشهرية للحرارة والمعدلات الشهرية للرطوبة النسبية في دمشق هي علاقـــة عكسية ، ففي اشهر الشتاء يبلغ متوسط درجة الحرارة ادناه وتبلغ الرطوبة النسبية اقصاها، وفي اشهر الصيف يبلغ متوسط درجة الحرارة اقصاه وتبلغ الرطوبة النسبية ادناها (شكل ١٧) ، وهذا ممـا يساعد على تحمل حرارة الصيف المرتفعة ، ولو كانت العلاقة طردية لأصبح تحمّل هذه الحرارة متعذراً .

الامطـار :

يخضع نظام الامطار في دمشق ، لنظام البحر المتوسط ، اي ان فصل



الشكل (١٧)

الامطار يتفق مع فصل الشتاء ، وقت مرور الاعاصير التي تجلب هذه الامطار ، بينما يتميز فصل الصيف بجفافه التام ، ولما كانت الفصول الانتقالية غير واضحة فالمطر يبدأ هطوله منذ اشهر الخريف حتى اشهر الربيع .

ويمكن ان نميز بين فصلين متميزين : فصل مطر وفصل جفاف ، فالمطر يسقط كله تقريباً بين تشرين الثاني ونيسان (نوفمبر وابريل) ، بينما ينقطع المطر من ايار (مايو) الى تشرين الاول (اكتوبر) ، وذلك ان متوسطات المطر في شهري تشرين الاول وايار (اكتوبر ومايو) ، لا تؤهل هذين الشهرين لاعتبارهما ضمن فصل المطر ، فشهر أيار ، على الرغم من انه قد تمر سنوات عديدة دون ان تسقط فيه اية كمية من المطر ، فان الارقام التي سجلت من ١٩١٨–١٩٦٤ تمكن من ايجاد متوسط عام للمطر في هذا الشهر يبلغ حوالي ٦ر٦ مم .

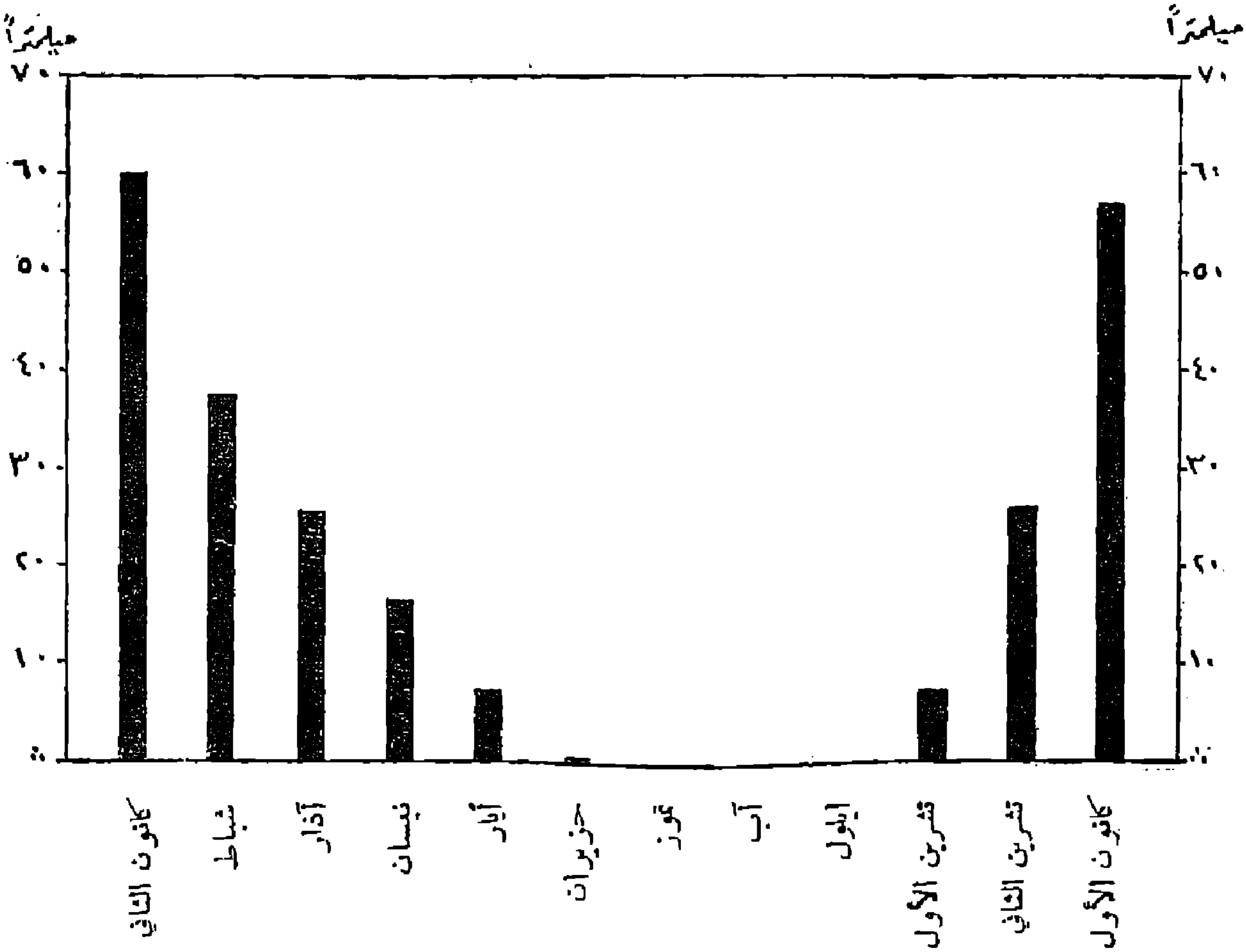
ولا يزيد متوسط شهر تشرين الاول (اكتوبر) كثيراً عن متوسط أيار (مايو) فالفرق بينهما لا يزيد على نصف المليمتر . واكبر كمية سجلت في شهر تشرين الاول (اكتوبر) ، سجلها المشتل الزراعي في دمشق ، كانت ٦٨مم في عام ١٩٤٢ ، وعلى ذلك يمكن اعتبار شهري تشرين الاول وايار (اكتوبر ومايو) شهرين انتقاليين بين فصلي المطر والجفاف .

اما شهر ايلول ، فقد تمر عليه سنوات عديدة دون ان تسقط فيه اية كمية من الامطار ، ومع ذلك فان هذه الكمية التي تسقط في اواخر ايلول (سبتمبر) لا تبلغ في متوسطها الشهري المليمتر الواحد .

ولا تسجل دمشق اية كمية من الامطار في اشهر حزيران وتموز وآب (يونيو ويوليو واغسطس) ، الا في بعض الحالات الشاذة ، كما حدث في سنة ١٩٣٦ ، حيث سقط حوالي ٥ر٥ مم في شهر آب (اغسطس) وكذلك حال شهر حزيران (يونيو) الذي لم تصل متوسط امطاره خلال السنوات العشر الاخيرة الى نصف المليمتر (شكل ١٨) .

شكل (١٨)

معدلات كمية المطر الشهري في دمشق (١٩٥١ - ١٩٦١)



يتضح لنا مما تقدم ان فصل المطر في دمشق يمتد خـــلال الشهور الستة المحصورة بين تشرين الثاني ونيسان (نوفمبر وابريل) ، وهي تتفق مع الفترة التي تصل فيها الانخفاضات الجوية القادمة من البحر المتوسط الى سوريا ، والتي يبتدىء قدومها في شهر تشرين الاول (اكتوبر) وينتهي في شهر نيسان (ابريل) ، ويبلغ نصيب هذه الشهور الستة ٩٢٪ من مجموع المطر السنوي .

ولكن هذه الامطار في الفصل الرطب ، ليست موزعة توزيعاً عادلاً ، حتى على أيام هذا الفصل ، فاحياناً تتقدم الامطار في اول الشتاء اوتصاب بفترة جفاف طويلة ، كما يمكن ان تحرم من الامطار في ايام الربيع ، ومع ذلك فان

معظم الامطار تسقط بشكل عام في شهر كانون الاول وكانون الثاني وشباط (ديسمبر ويناير وفبراير) ، حيث يسقط فيها حوالي ٦٥٪ من مجموع المطر السنوي ، وخاصة في الفترة الواقعة بين اواخر كانون الاول (ديسمبر) ومنتصف شباط (فبراير) ، اي في الفترة التي يطلق عليها اسم « اربعينية الشتاء » .

ويلاحظ كذلك ، ان امطار الفصول الانتقالية ، اي الخريف والربيع ، غير منتظمة ايضاً ، فهي لاتأتي بأوقاتها في جميع السنوات ، فقد تسقط الامطار في تشرين الاول (اكتوبر) وتنعدم في تشرين الثاني (نوفمبر) او العكس ، وكذلك قد تكثر الامطار في آذار (مارس) وتقل في نيسان (ابريل) او العكس .

واذا كانت الامطار الشتوية تنشأ عن مرور انخفاضات جوية هادئة ، بشكل عام ، تدوم يوماً أو يومين ، فان امطار الفصول الانتقالية تكون زوبعية في العادة ، من نوع (الوابل) ، تسقط بعد تشكل سحب سوداء وحدوث رعد وبرق . وغالباً ماتكون شديدة عنيفة يرافقها بعض البَرَد ايام الربيع ، وان كان سقوطه حادثاً نادراً ، وهذه الامطار الزوبعية هي التي تسبب الفيضانات .

أما امطار الخريف المبكرة وامطار الربيع المتأخرة التي تحدث بعد الظهر عادة ، فهي تنتمي الى نوع آخر من الامطار تدعى « امطار التصعيد » ، تنشأ من ارتفاع الحرارة حوالي منتصف النهار ، فتشكل تيارات هوائية صاعدة ، فتتكون السحب بعد الظهر ، ثم يعقبها سقوط المطر الذي يتصف بشدته وغزارته[1] .

---

(١) رأي غير منشور لمدير المناخ بالمديرية العامة للارصاد الجوية .

وهناك كثير من الاتفاق بين كمية المطر وعدد ايام المطر ، ولكن هذا الاتفاق ليس تاماً ، فكثيراً مايحدث ألا تكون أكثر السنين مطراً هي أكثرها في عدد الأيام الممطرة ، كما هي الحال في سنة ١٩٥٣ ، حيث سجلت فيها دمشق ٤٢٩،٢ ميليمتراً ، وهي أكبر كمية من المطر سقطت بين ١٩٥٠ - ١٩٦١ ، وبلغ عدد الأيام الممطرة في تلك السنة ٦٩ يوماً ، بينما لم تزد كمية المطر التي سقطت سنة ١٩٥٥ على ١٩٠،٢ ميليمتراً في المدة نفسها (٦٩ يوماً).

ومثل هذه الملاحظة تنطبق أيضاً على كل شهر على حده ، ففي محطة الارصاد الجوية بدمشق ، كان عدد الايام الممطرة في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٦٠ هو ٧ أيام ، وكمية المطر التي سقطت خلاله هي ٥٦،٦ ميليمتراً ، بينما سقط في شهر شباط (فبراير) من فصل المطر نفسه ٣٩،١ ميلمتراً في مــــدة ١١ يوماً .

وأكبر كمية من المطر شهدتها دمشق في شهر واحد هي ١٣٧ ميلمتراً ، وذلك في شهر شباط (فبراير) سنة ١٩٢٩ ، وهذه الكمية تعادل ٤٠ ٪ من مجموع ما سقط من امطار في تلك السنة . وأما أكبر كمية هطلت من المطر خلال يوم واحد ، فهي ٧٢،٣ ميلمتراً ، وكان ذلك في ٢١ آذار (مارس) ١٩٥٩ ، كما هو واضح في الجدول الآتي :

جدول (٧)

المعدلات الشهرية للمطر في دمشق[١] (بالمليمتر)

الشهر	الكمية بالمليمترات	اقصى كمية في يوم واحد	التاريخ
كانون الثاني	٥٢٫٩	٢٧٫٨	٣٠ – ١٩٥٧
شباط	٤١٫٤	٢٠٫١	١٨ – ١٩٥٩
آذار	٢٢٫٥	٧٢٫٣	٢١ – ١٩٥٩
نيسان	١٦٫٥	١٥٫٤	٢٧ - ١٩٥٧
أيار	٦٫٤	١٨٫٢	١٧ - ١٩٥٩
حزيران	٠٫٣	٢٫٣	٤ – ١٩٥٧
تموز	–	–	–
آب	–	أثر	١٠ - ١٩٥٦
أيلول	٠٫١	٠٫٤	٢١ - ١٩٥٩
تشرين الأول	٧٫٥	١٠٫٣	٢٨ – ١٩٦١
تشرين الثاني	٢٦٫١	٢٣٫٥	٣ – ١٩٦٠
كانون الأول	٥١٫٣	٢٤٫٥	٨ - ١٩٥٧
المتوسط الشهري	٢٢٥٫٠	–	–

(١) في الفترة مابين ١٩٥١ – ١٩٦١

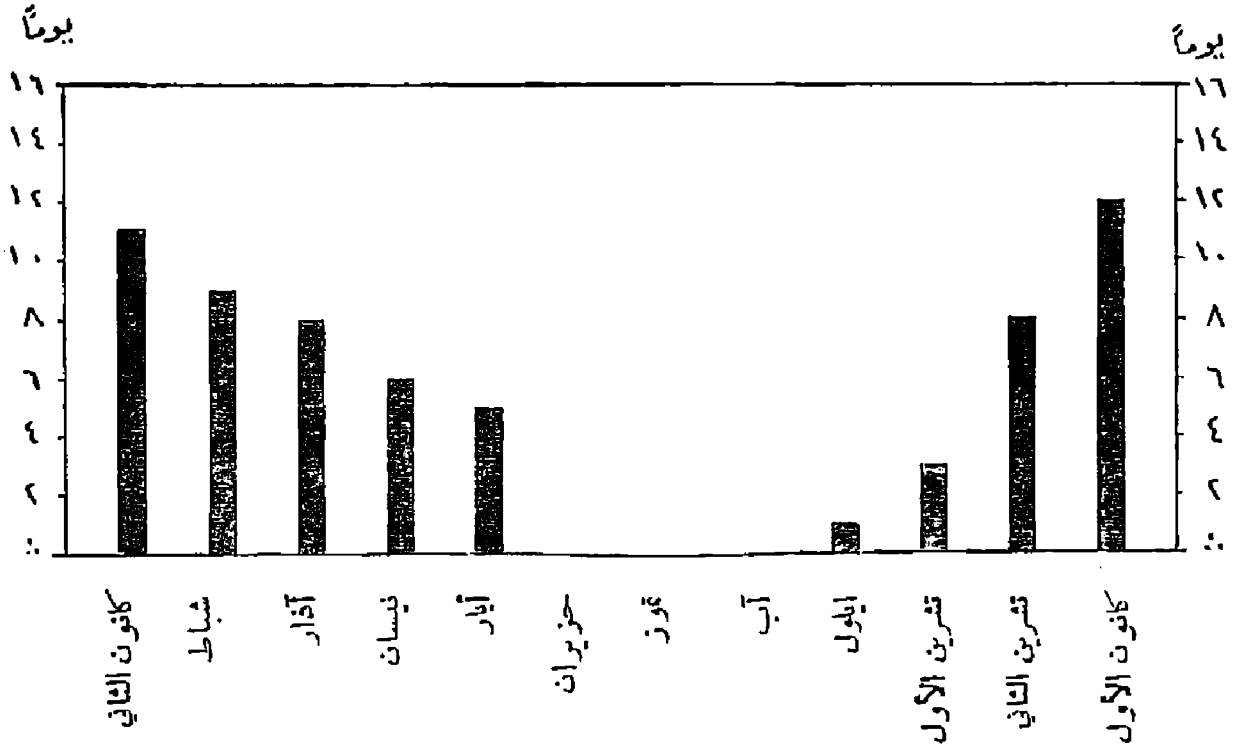
وترجع هذه الظاهرة إلى طبيعة الامطار في دمشق ، فهي تأتي في اعقاب الانخفاضات الجوية ، وما يصاحبها من عواصف رعدية في بعض الاحيان ،تحدث بسبب نشاط الجبهات التي ترافق الانخفاضات الجوية في البحر المتوسط . ويمكن ان نشهد هذه العواصف الرعدية في فصل الامطار ، ولكنها تكثر وتشتد في الفصول الانتقالية ؛ وغالباً ماتحدث في الليل وبعد الظهر ، إلا أن هذه العواصف الرعدية لاتزيد ايامها في السنة على بضعة أيام في مدينة دمشق .

ويبلغ متوسط عدد الايام الممطرة في دمشق ٦٦ يوماً ، ويصل هـــذا المتوسط اقصاه في شهر كانون الاول (ديسمبر)،اذ ينزل المطر بمعدل يومين كل خمسة أيام ، وذلك على الرغم من ان شهر كانون الثاني (يناير) ، هو اكثر الشهور مطراً من حيث الكمية (شكل ١٩) .

ويتبين من حساب المعدل السنوي للأمطار في دمشق ، خلال الفترة

شكل (١٩)

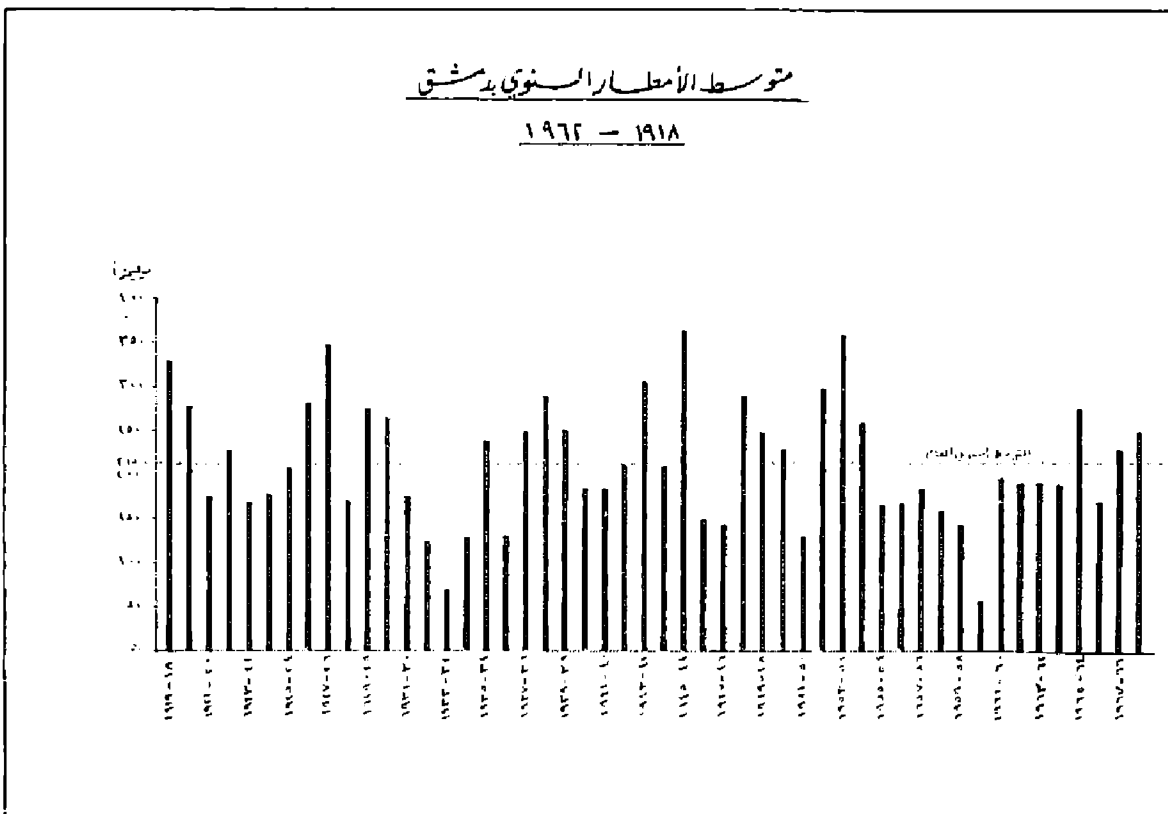
المعدلات الشهرية لعدد الأيام الممطرة في دمشق (١٩٥٠ – ١٩٦١)



الواقعة بين ١٩١٨ - ١٩٦٤ ، انه لايزيد على ٢١٥ مليمتراً . ولكن هذه الكمية تتفاوت تفاوتاً كبيراً بين سنة وأخرى ، وتصل نسبة هذا التفاوت الى ١ — ٤ ، ويظهر هذا في الخط البياني للأمطار السنوية في دمشق (شكل ٢٠)، ويتضح منه ان كمية الامطار السنوية قد هبطت الى اقل من ١٠٠ مليمتر في عام ١٩٣٢ — ١٩٣٣ وارتفعت الى ٤٠٠ مليمتر تقريباً في عام ١٩٤٤ — ١٩٤٥ .

وقد لاحظ احد الباحثين [١] ، ان هنالك مجموعات متناوبة من السنين الرطبة والسنين الجافة ؛ فقد تمر مجموعات طويلة رطبة كما هي الحال في الفترة الواقعة بين ١٩٣٦ — ١٩٣٩ ، والفترة مابين ١٩٤٧ — ١٩٥٤ (باستثناء سنة ١٩٥٠ - ١٩٥١ الجافة) ، كما يمكن ان تمر بضع سنوات متعاقبة من الشح ،

شكل (٢٠)



(١) الدكتور شفيق الصفدي ـ تقرير عن منسوب المياه الجوفية ـ من محفوظات مديرية الري في وزارة الاشغال العامة — كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٠ .

كما حدث في الفترة الواقعة مابين ١٩٣٠ - ١٩٣٤ ، والفترة مابين ١٩٥٤ - ١٩٦٠ ، ولكنه تبين ان هذه الدورات المطرية أو المناخية غير منتظمة .

وقد يسقط الثلج في بعض الاحيان عوضاً عن المطر ، فيغطي الأرض بغطاء ابيض لايدوم اكثر من يوم إلا نادراً . ويبلغ متوسط عدد الأيام التي يسقط فيها الثلج في دمشق بين ثلاثة الى أربعة ايام كل سنة ، يتركز معظمها في أشهر الشتاء ، وقد تمضي عدة سنوات دون ان تشهد المدينة سقوط الثلج ، ثم تأتي سنة ينزل فيها مايعادل ثلاثة امثال المتوسط السنوي ، كما حدث في عام ١٩٥٩ ، حيث بلغ عدد الايام التي سقط فيها الثلج عشرة أيام .

السحاب والضباب وسطوع الشمس :

تبدو سماء دمشق قليلة السحب بصورة عامة ، شأنها في ذلك شأن البلاد الواقعة على الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، وهي تتوزع بصورة غير متساوية على فصول السنة . ويتضح من الجدول (٦) والشكل (٢١) ان كمية السحب تبلغ اقصاها خلال فصل الشتاء ، وخاصة في شهري كانون الأول والثاني (يناير وديسمبر) ، اذ تبلغ نسبة التغطية على الترتيب : ٤، ٢و٤ (حسب مقياس ٠ - ٨) ، أي ان نسبة التغطية حوالي ٥٠٪ . وتأخذ هذه النسبة في التناقص التدريجي في بادىء الأمر ، ولكنها لا تلبث ان تزداد سرعة بعد نيسان (ابريل) حتى تصل كمية السحب الى حدها الأدنى في فصل الصيف ، وخاصة في شهري حزيران وآب (يونيو واغسطس) اذ تبلغ نسبة التغطية ، على الترتيب ٥و٠، ١و٠، ثم تأخذ في التزايد السريع بعد شهر تشرين الأول (اكتوبر) حتى فصل الشتاء .

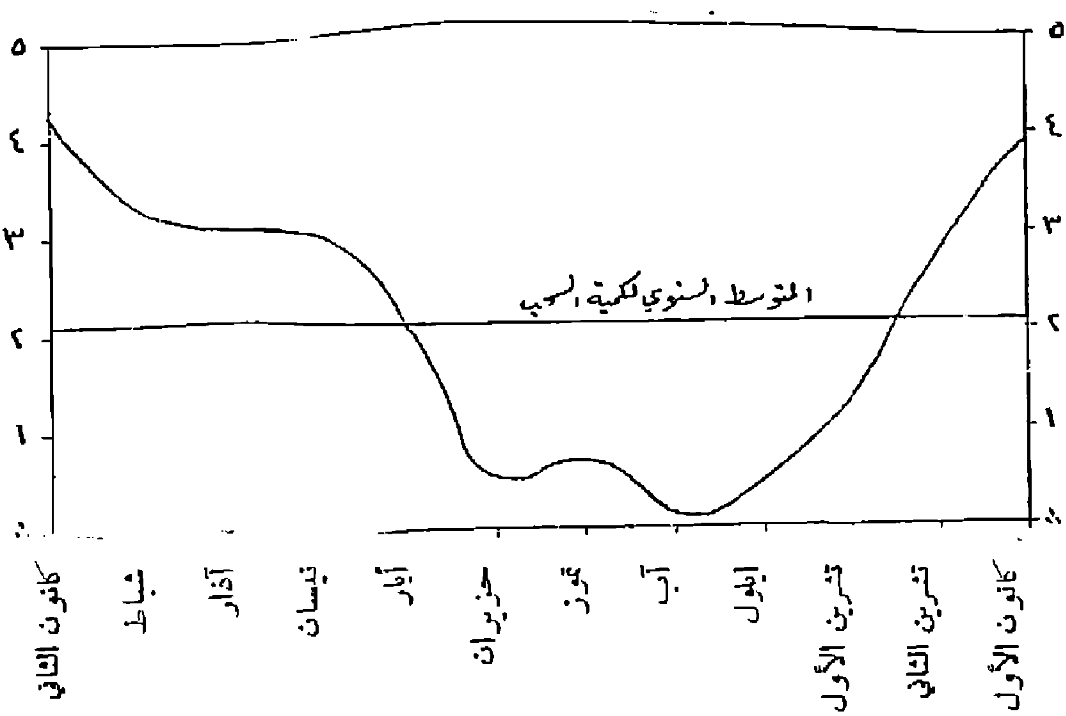
ومن هذا يتبين أن السحب لا ترى الا نادراً في الصيف ، فالسماء فيه صافية زرقاء ، ذات شمس ساطعة ، وفي الشتاء لا تسد السحب كل منافذ الأفق ،

وكثيراً ما تنقشع في جانب منه او تنقشع كلها في أيام عديدة من هذا الفصل . ويلاحظ ان كمية السحب في الساعات الاثنتي عشرة الاولى من اليوم هي اكثر منها في الساعات الاخيرة منه ، ويبلغ متوسط عدد الايام الصافية التي لا يظهر فيها اثر للسحب في دمشق ٦٧ يوماً [١] .

شكل (٢١)

المعدلات الشهرية لتغطية السماء بالسحب في دمشق (التغيم)

حسب مقاس (٠ — ٨)



* * *

أما الضباب فهو ظاهرة مألوفة، وكثيرة الحدوث ، ولكنها تكاد تتركز في فصل الشتاء وخاصة في شهري كانون الأول والثاني (ديسمبر ويناير) ، بينما

(١) تعتبر السماء صافية اذا كانت نسبة التغطية فيها اقل من $\frac{2}{8}$ ، وتعتبر غائمة اذا كانت نسبة التغطية فيها اكثر من $\frac{6}{8}$.

يقل ظهورها في الربيع والخريف ، ويندر في الصيف . ويبلغ متوسط عدد الأيام التي يحدث في الضباب حوالي ١٦ يوماً في السنة .

ويشاهد الضباب غالباً في ساعات الصباح المبكرة أيام الشتاء ، بينما تخلو السماء منه في المساء . ويمكن أن نميز في توزيع الضباب بين الأقسام المنخفضة من دمشق ، التي تكون غارقة في بحر من الضباب في أيام الشتاء، في الوقت الذي تكون فيه أراضي المزة والصالحية متمتعة برؤيا حسنة واشراق تام . أما المتوسط السنوي لعدد الايام التي تحدث فيها الشابورة في دمشق [1] فهي تبلغ ٣١ يوماً ، تتشكل غالباً في ايام الصيف بين منتصف الليل والصباح .

* * *

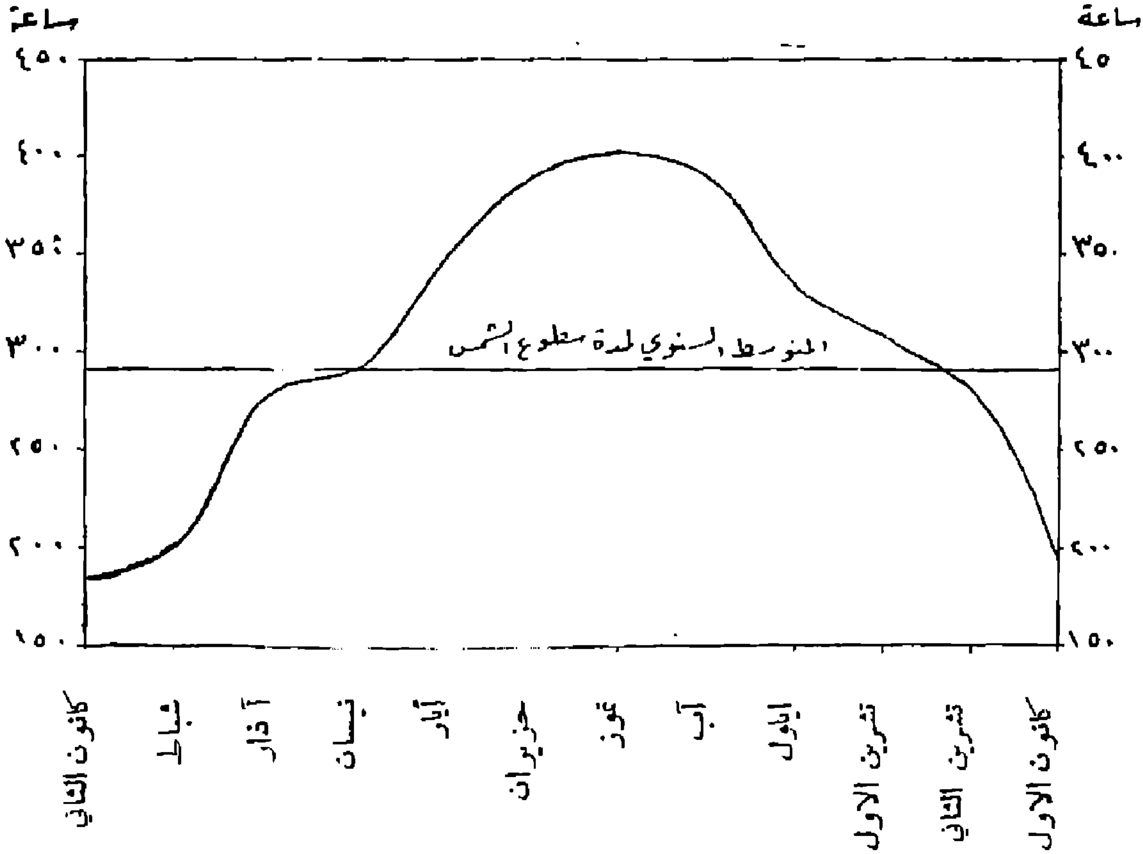
وتنعم دمشق بمدة كبيرة من سطوع الشمس، تبلغ حوالي ٣٥٠٠ ساعة في السنة ، او مايعادل ٩,٦ ساعة في اليوم وسطياً ، وتصل هذه المدة الى حدها الادنى في شهر كانون الثاني (١٨٦ ساعة) ، ثم تأخذ في الازدياد حتى تبلغ اقصاها في شهر تموز (٤٠٠ ساعة) ، وتزيد عن ضعف مثليتها في شهر كانون الثاني (شكل ٢٢) .

---

(١) اذا كانت الرؤيا الأفقية واضحة الى ١٠٠٠ متر فأكثر فهي شابورة ، واذا لم تكن واضحة الى اكثر من ذلك فهي ضباب .

شكل (٢٢)

المعدلات الشهرية لمدة سطوع الشمس في دمشق (التشمّس) بين ١٩٥٨ – ١٩٦١



الخاتمـــة :

ولمعرفة نوع المناخ الذي ينتمي اليه مناخ دمشق ، نجد أن تقسيم « كبن » في الواقع ، يعتبر أحسن التقسيمات المناخيـة وأكثرها انتشاراً في الوقت الحاضر [1] .

واذا حاولنا تطبيق المعادلات التي اعتمد عليها كبن في تقسيمه ، نجد أن كمية المطر بالسنتيمترات (٢١٫٥ سم) أكثر من متوسط درجة الحرارة

(١) الدكتور ابراهيم أحمد رزقانة وزملاؤه – أسس الجغرافيا الطبيعية – الجزء الثاني – القاهرة ١٩٥٤ – ص ١٥٦ .

السنوي (١٧،٧° م) ، ولكنها أقل من ضعف هذا المتوسط (٣٥،٤° م) . كما نجد أن متوسط درجة الحرارة السنوي أقل من (١٨° م)، ومعنى هذا أن مناخ دمشق ينتمي الى النوع شبه الجاف البارد او الاستبس البارد ، ويرمز اليه بالأحرف BS_k .

وقد أطلق « دومارتون » على هذه المنطقة شبه الصحراوية اسم « المناخ السوري » ووصفها بأنها منطقة انتقالية من المناخ المتوسطي الى المناخ الصحراوي، وهي نمط قاري متطرف ، ذو فروق حرارية واسعة وجفاف مطلق خلال ستة أشهر من السنة على الأقل، تتجاوز الفروق الحرارية السنوية فيها ٢٠°م ، والفروق الحرارية اليومية فيها ٢٠° م أيضاً .(٢)

والخلاصة ، أن مناخ دمشق يتميز بفصلين متميزين : فصل شتاء قصير قليل الأمطار ، وفصل جفاف طويل تختلف حرارته كثيراً بين الليل والنهار ، فهو مناخ الصحراء يلطفه بعض الشيء ارتفاع موقعه وقربه من البحر ، ومن ثم فلم يكن من المنتظر أن نرى في هذه المنطقة ، من النباتات ما يكفي بكميته وخصوصاً بدوامه ، للقيام بحياة الانسان والحيوان ، بيد أن الانسان قد نجح في انتزاع بقعة صغيرة من القفر جعلها من أغنى المناطق الزراعية في آسيا الغربية، مستغلاً في ذلك : أفضل ما يمكن من الاستغلال ، مواهب عقله وعزيمته، مستفيداً من النعمة الوحيدة التي منت بها الطبيعة على تلك المنطقة ، ألا وهي المياه .

★ ★ ★

(١) Combier, (1939), op . cit., P. 329 .

الفصل الثالث

التصريف المائي في منطقة دمشق [٧]

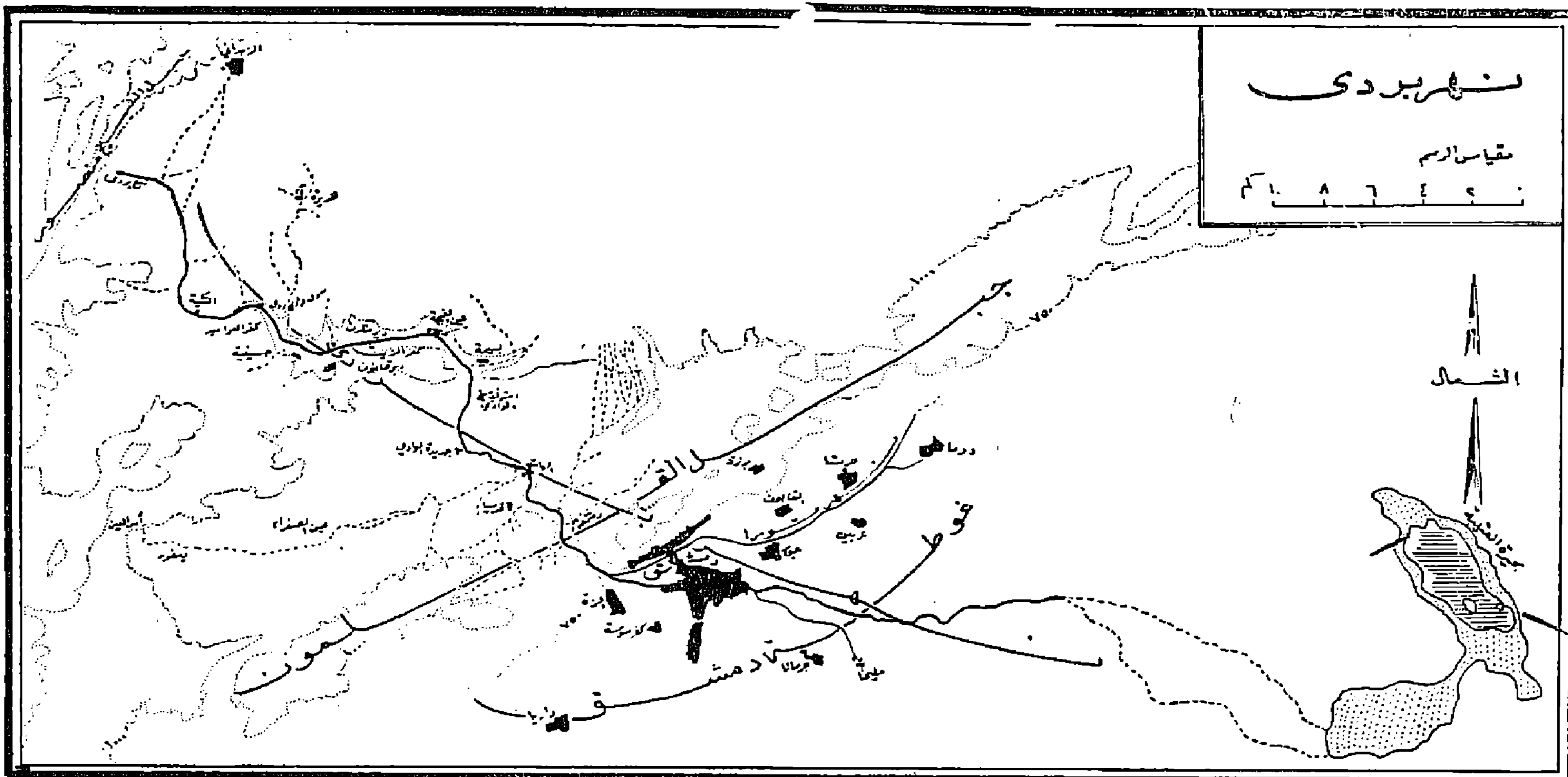
لقد استطاع الانسان منذ القديم ، ان يستفيد من مياه نهر بردى ، الذي كان يسمى أيام الرومانيين « بنهر الذهب » ، فحفر الانفـــاق وشق الاقنية في الصخور وجرّ المياه الى دمشق ووزعها على دورها وحماماتها ومساجدها وبساتين غوطتها ، وجعل منها جنة مخضوضرة بعد ان كانت صحراء جافة تلفحها الشمس المحرقة .

فهناك في سهل الزبداني ، يخرج نهر بردى من جبال لبنـــان الشرقية ، فيسير اولاً في واد ضيّق ، ثم يتسلل الى السهل حتى يتغلغل بعيداً في الصحراء ، فيغيب في الرمال في قعر منخفض رحيب يملؤه بالمستنقعات الفسيحة (شكل ٢٣) .

ولقد كان في علوّ مخرجه وانحدار واديه في القسم الأوسط من مجراه ما يجعل له صفة السيول المندفعة ايام الشتاء ، الجافة في اكثر ايام السنة ، لو لم يمده على نحو عشرين كيلو متراً قبل دمشق ، نبع فيّاض يغدق فيه ايام الشح نحو خمسة أمتار مكعبة في الثانية . وبفضل هذا الينبوع اصبحت الحياة ممكنة في تلك البقعة للنبات والحيوان ، وبالتالي للانسان ، على الرغم من قلة الأمطار واضطراب مواعيدها .

يبلغ بردى الفيجة ، فتصب فيـــه مياهها العذبة الصافية ، فيكثر ماؤه

شكل (٢٣)



وتشتد غزارته ، ويعدو قوياً عذباً زاخراً نحو ارض الغوطة الخضراء ، وهو يلين تارة فترى حصباءه من صفائه ويشتد اخرى فيرغي ويزبد ، حتى يبلغ الربوة ، وقد انقسم الى سبعة اقسام بين عدوتي الوادي .

ويقترب بردى من دمشق ينساب بين الأوحال والحشائش، ثم يخترقها في في وسطها فوق ارض منبسطة ، يرسم خلالها الكثير من المنعطفات والمنعرجات. واذا استقام النهر بين ساحتي الأمويين والشهداء (المرجة) ، فما ذلك الا لأن يد الانسان قد عملت على تنظيم مجراه وتحديد جوانبه .

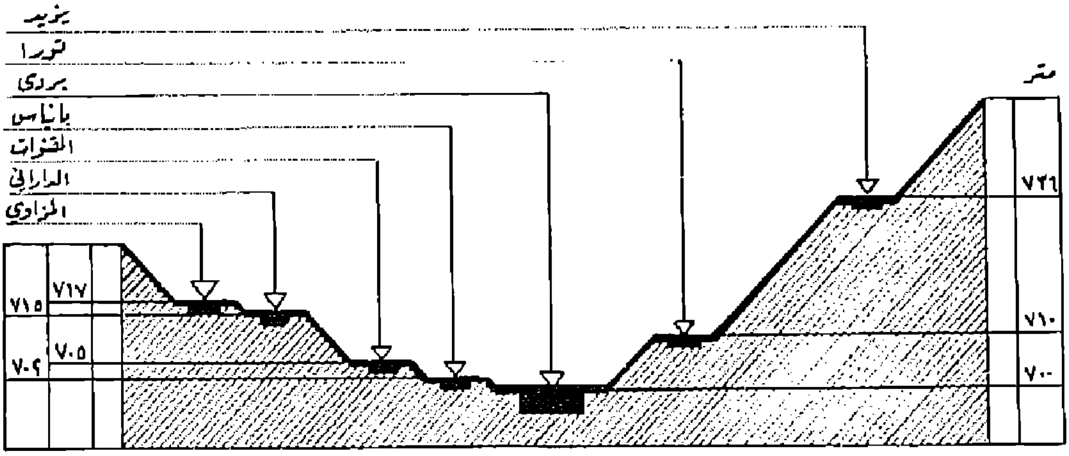
نهر بردى :

ما كان الوادي ليتجاوز مظهر الشريط الضيق من الخضرة ، وسط تلك الصحارى الجرداء المحرقة ، لولا أن عمل الانسان على حمل مياهه بعيداً عن مجرى النهر ، ليحيي تلك الأرض الظمأى فيجعلها أرضاً مروية ، فقد لجأ الى تفريع النهر في موضع مرتفع قبل خانق الربوة ، لبقائه على مستوى عال ، فيطوق الأراضي الممتدة على طرفي نهر بردى بأقنية دائمة الجريان ، ويتمكن من الانحدار من أعلى نقاط ممكنة، ويروي بالراحة اكبر مساحة من الأرض، سواء كان ذلك على سفح قاسيون أو هضاب المزة ، وبهذا تضاعفت المساحة المروية على يمين النهر ويساره وتيسرت أسباب اتساع مدينة دمشق هناك .

وقد حفرت هذه المجموعة من الأقنية منذ زمن بعيد ، ومُدت بشكل يتلاءم مع الوضع الطبوغرافي لخانق الربوة الذي يجري فيه نهر بردى ، وذلك على ارتفاع أكثر من ٧٠٠ متر فوق سطح البحر ، وعلى بعد ثماني كيلو مترات من مبدأ سهل دمشق . وقد حفرت قناتان على الضفة اليمنى لبردى ، وقناتان اخريان على ضفته اليسرى ، وهي أقنية معلقة على سفحي الجبلين اللذين يشرفان على نهر بردى عن يمينه وعن يساره وموازية للمجرى الأصلي (شكل ٢٤) .

شكل (٢٤)

مقطع عرضي في وادي بردى عند الربوة



فالقناتان الممتدتان على سفح الجبل الايسر (وهما يزيد وتورا) ، تجريان على ارتفاع يتراوح بين ٧٣٠ – ٧٢٠ متراً فوق سطح البحر ، وهاتان القناتان تسوقان المياه الى اقصى ارتفاع ممكن على طول جبل قاسيون ، وتتخليان عنه رويداً رويداً على طول سفحه .

أما القناتان الممتدتان على سفح الجبل الايمن (وهما المزاوي والداراني) فهما تجريان على ارتفاع يتراوح بين ٧٢٠ - ٧٠٠ متر فوق سطح البحر ، وتنقلان المياه الى روابي المزة وتمكنان من زراعة الأشجار المثمرة فيها .

وهناك قناتان خاصتان بمدينة دمشق نفسها (وهما بانياس والقنوات) تنفصلان عن بردى عند الربوة ؛ وقد حفرتا في السفح العمودي الشمالي لجبل المزة على ارتفاع عشرة امتار عن المجرى الرئيسي لنهر بردى .

ويعتبر حفر هذه الأقنية في الصخور ، في منطقة جبلية وعرة ، من الأعمال المدهشة التي تشهد على ما وصل اليه الانسان من حضارة ورقي ، كما أن الترتيب الذي اتُبع في سير هذه الأقنية مشى مشى على سفوح الجبال الشديدة الانحدار جدير بالتقدير والاعجاب .

وقد حفرت هـــذه الأقنية على عمق متر ونصف المتر ، بينما لم يتجاوز عرضها ثلاثة أرباع المتر . أما العقبات التي اعترضت سبيلها فقد اخترقتها بواسطة انفاق تمتد لبضع مئات من الأمتار في بعض الأحيان ، ومعظمها يقع في أماكن تهوي سفوحها على الوادي بشكل رأسي ، ولهذا تظهر هـــذه الأقنية تارة وتختفي أخرى .

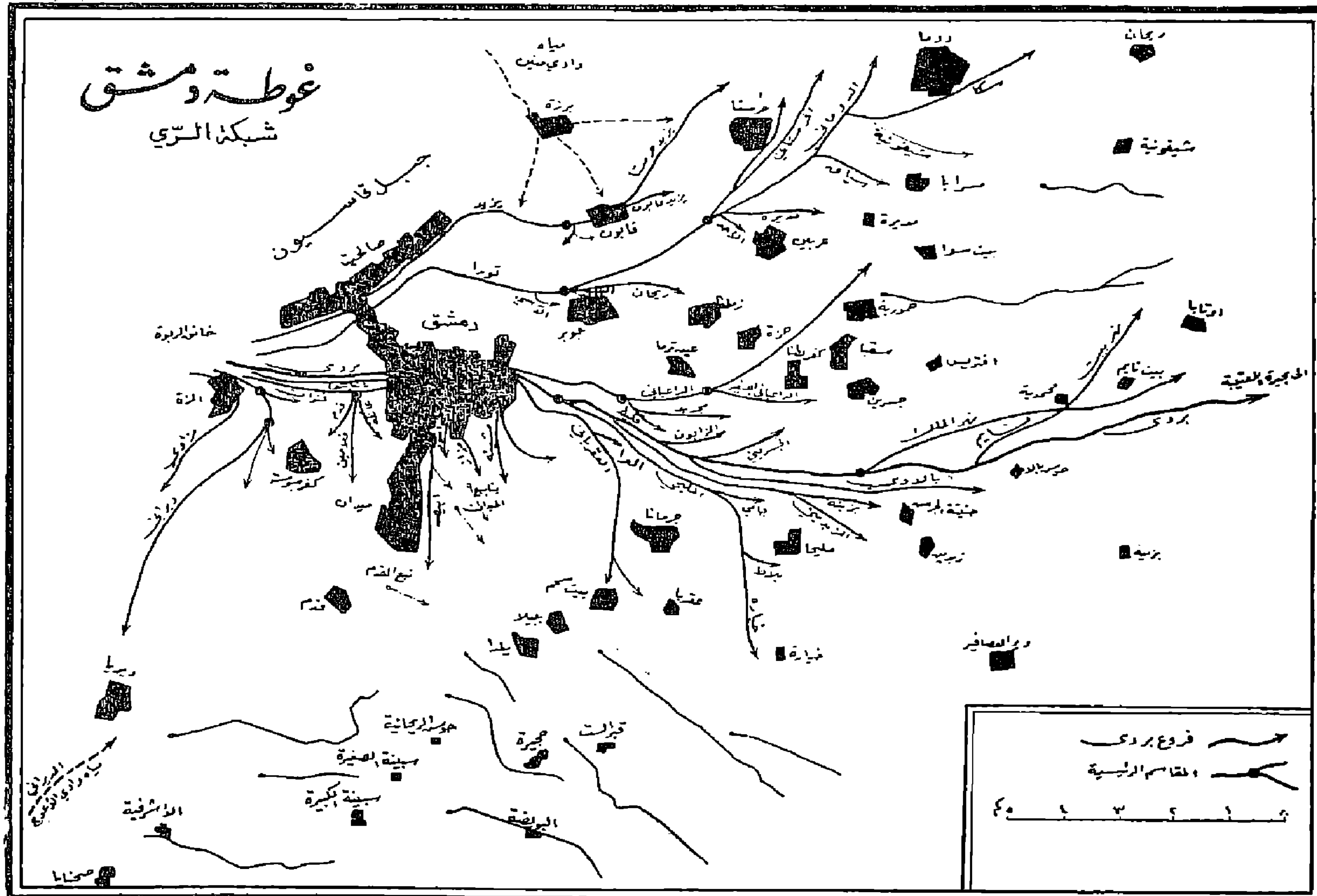
وتؤلف فروع بردى بعد خروجها من خانق الربوة شبكة مائيــة واسعة ، تنطلق في مدينة دمشق وبساتينها ، وتنفرج على شكل مروحة واسعة ، تلتقي في الشمال مع المياه الهابطة من وادي منين حتى برزة ، وتشكل معهـا جزيرة خضراء بين السهوب القفراء والجبال العارية الجرداء (شكل ٢٥) .

وعندما يدخل نهر بردى مدينة دمشق ، يعود اليه قسم من مياهه التي استنفدتها الفروع الستة قبل خروجه من خانق الربوة ، فيستعيد النهر حيويته ، ويشكل مجموعة أخرى من الأقنية داخل مدينة دمشق تضم العقرباني والداعياني والمليحي .

المجموعة الأولى من أقنية بردى :

ان معظم الآراء التي قيلت حول تحديد الفترة التي تمت فيها هذه الأعمال الانشائية الرائعة قد انتهت الى التخمينات والفرضيات ، ومع ذلك فمن المؤكد ان واحة دمشق كانت مستثمرة - كما يبدو - منذ اوائل عهد الخلفاء الامويين ، أي منذ اكثر من ألف سنة ، بشكل مماثل لما نراها عليه اليوم . وقبل ذلك

شكل (٢٥)



عن توماس (مع إضافات)

التاريخ يصبح من العسير أن نؤرخ لمعظم الفروع الكبيرة التي تشكل هيكل الواحة إلا على وجه التخمين والتقريب ، فاسماء هذه الفروع فلما ترشدنا الى وقت انشائها[1] ، وهي تحمل عموماً أسماء القرى الهامة أو البعيدة التي ترويها مثل المزاوي (من المزة) والداراني (من داريا) والعقرباني (من عقربا) والمليحي (من المليحة) .. الخ[2] .

ولكي تدخل مياه بردى في القناة ، يقام على نهر بردى سد يتألف من ركائز خشبية مغروزة في قاع النهر تسمى « الكباشات » يختلف عددها عند كل قناة . وهذه الكباشات الخشبية أو الركائز التي توضع في فتحة بردى تساعد على وضع الشوك والغضّا والبلان ، وهي النباتات والاشواك التي توضع أمام الركائز فتعترض سبيل المياه وتوجهها الى القناة . ولايجوز وضع غير هذه المواد وذلك لتسمح بتسرب المياه خلال الاشواك المذكورة ، وتنفذ خلالها الى مجرى بردى بمقدار معين .

وسنحاول في الصفحات التالية وصف شبكة المياه في دمشق وضواحيها ، وندرس نظام توزيع المياه عن طريق وصف مقاسمها ومجاريها ، ونقصر الدراسة التفصيلية على الاقسام الواقعة ضمن منطقة بحثنا .

نهر يزيد :

يتفرع من نهر بردى من الجهة اليسرى ، على بعد ٤٠٠ متر الى الجنوب من قرية الهامة ، وعلى ارتفاع ٧٥٠ متراً فوق سطح البحر ، وهو يأخذ $\frac{١٨}{٢٤}$.

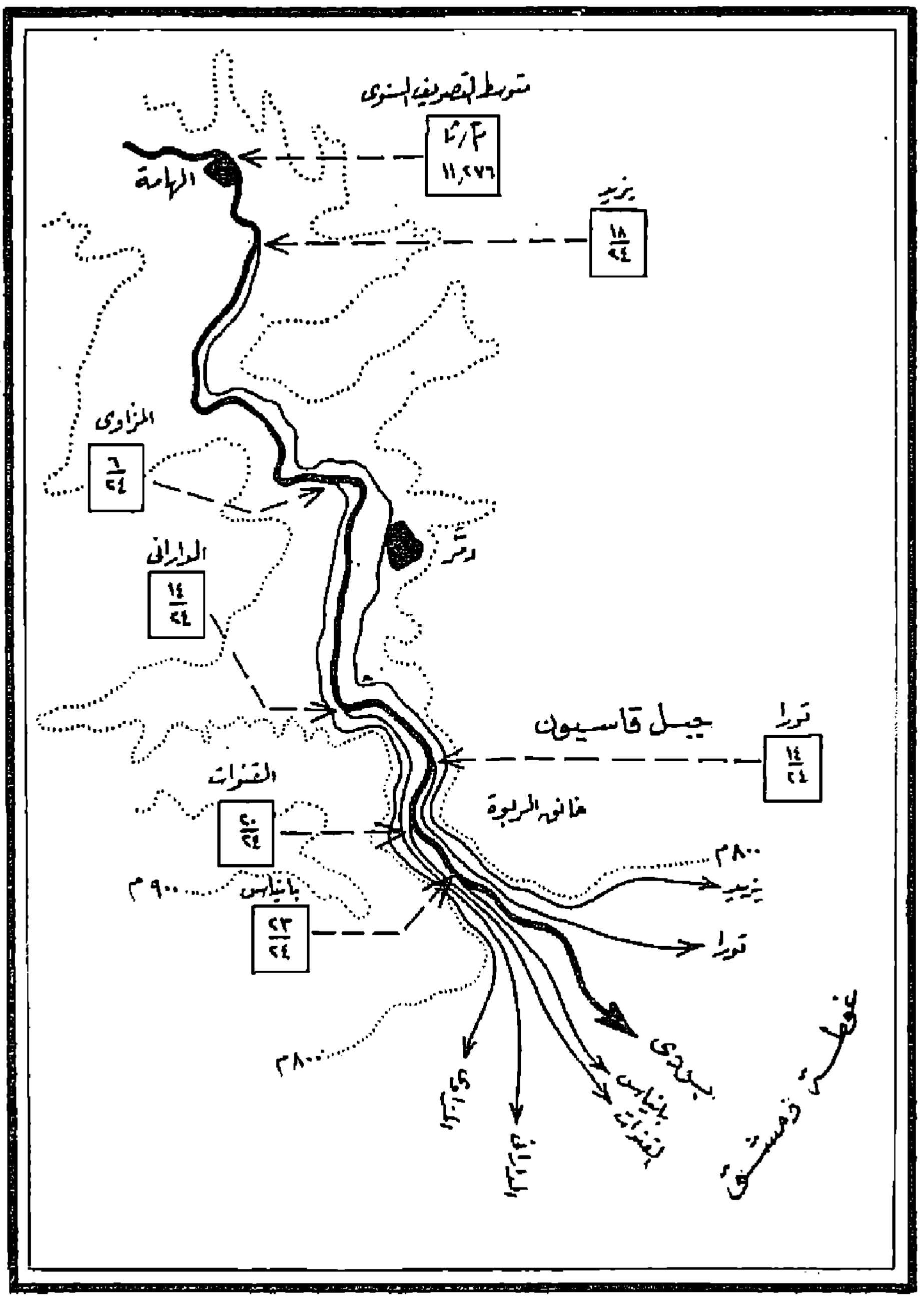
---

(١) باستثناء يزيد الذي يحمل اسم مشيده الخليفة الاموي الثاني (٦٨٠–٦٨٢م) .

(٢) Weulersse , j . , Paysans de Syrie et du proche-Orient , éd,8 1946 , P. 294 .

قيراطاً من تصريف النهر الكلي[1] (شكل ٢٦) .

الشكل (٢٦)



منشأ الفروع الرئيسية لنهر بردى قبل مدينة دمشق

(١) Thoumin. R. , Géographie humaine de la Syrie centrale, Tours 1936, p . 55 .

يبقى نهر يزيد من نقطة تفرعه حتى وصوله الى الربوة معلقـــاً على سفح الكتلة الجبلية حيث حفر مجراه داخل الصخر . وقد يختفي مجراه عن الانظار في بعض الأحيان أثناء مروره داخل الأنفاق ، كما هي الحال فوق ضاحية دمر ، وكذلك في المنشار عند الربوة ، ويمكن أن يستدل المرء على نهر يزيد بذلك الشريط من الخضرة الذي يواكب ضفته اليمنى على طول خانق الربوة .

وبعد خانق الربوة، يتبع نهر يزيد مجرى مرتفعاً في سفح قاسيون ليشمل اكبر رقعة من الاراضي تروى بمياهه ، فيجري في أرض الصالحيـــة ماراً شمال الدّوامة (اول بستان بعد خانق الربوة) وجنوب أراضي دير مُرّان ، يحدد مجراه حائط جبلي من الشمال ،وحاجز ترابي من الجنوب ، تقطعه الجداول العديدة التي تهبط لسقاية البساتين الواقعة الى جنوبه ، وتستمد هذه الجداول مياهها من فتحات محددة في ضفاف النهر وتنطلق عمودية عليه ، ولكنها لا تلبث أن تصادف جداول غيرها ، موازية لنهر يزيد ، تقوم بدورها بتغذية جداول اخرى،وبذلك ترسم هذه الجداول مربعات شبه منتظمة في منطقة يتراوح عرضها بين ٣٠٠ — ٥٠٠ متر (شكل ٢٧) .

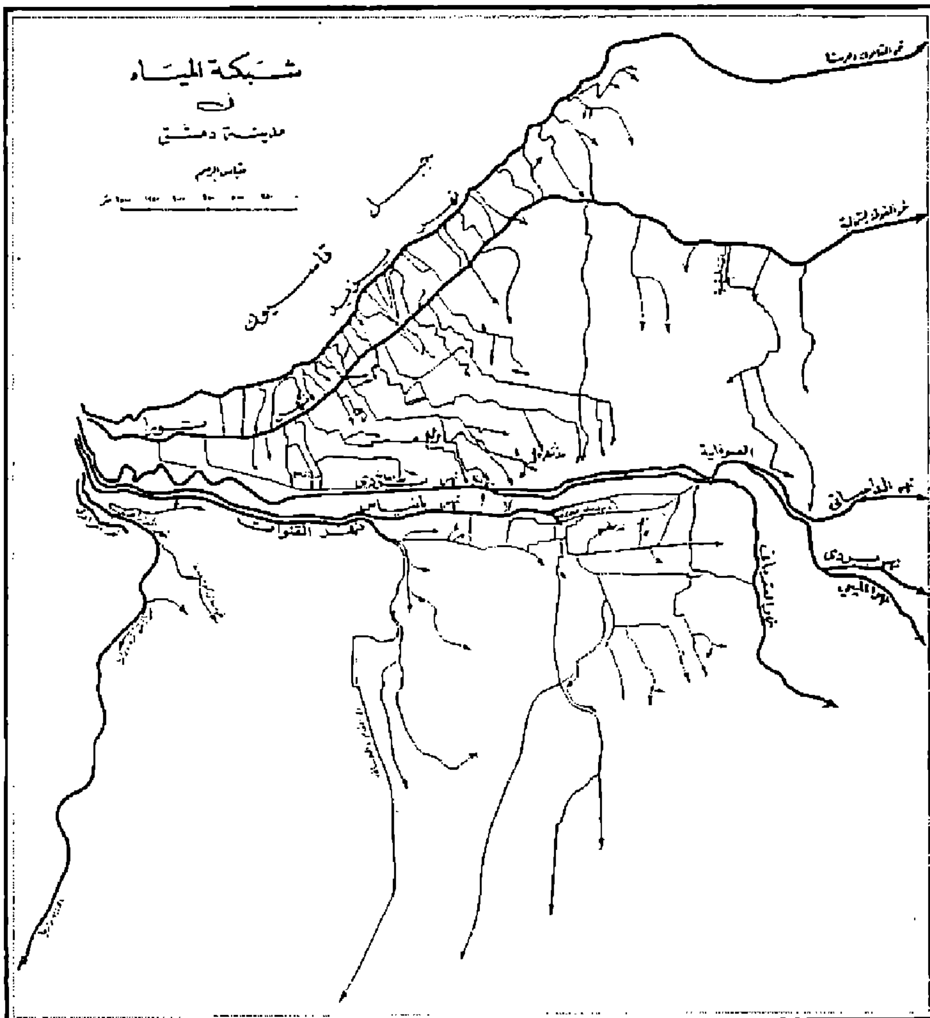
وبعد ذلك ، يخترق نهر يزيد الضواحي الشمالية لمدينة دمشق ماراً من المهاجرين والشركسية وحي الاكراد ، ثم يتابع طريقه الى القابون ، فيصلها منهك القوى قليل المياه بسبب العشرات من المواصي[1] والسبلان[2] التي تستنزف مياهه ، وذلك بعد رحلة يقطع فيها حوالي ١٦ كيلو مترا .

---

(١) المواصي : فتحات توجد على ضفة بردى ، تختلف في أشكالها وسعتها ، وتفتح في أوقات محددة .

(٢) السبلان : مواصي مفتوحة بشكل دائم ، تتراوح سعة فتحاتها بين ٥ — ٤٠ سنتمترا .

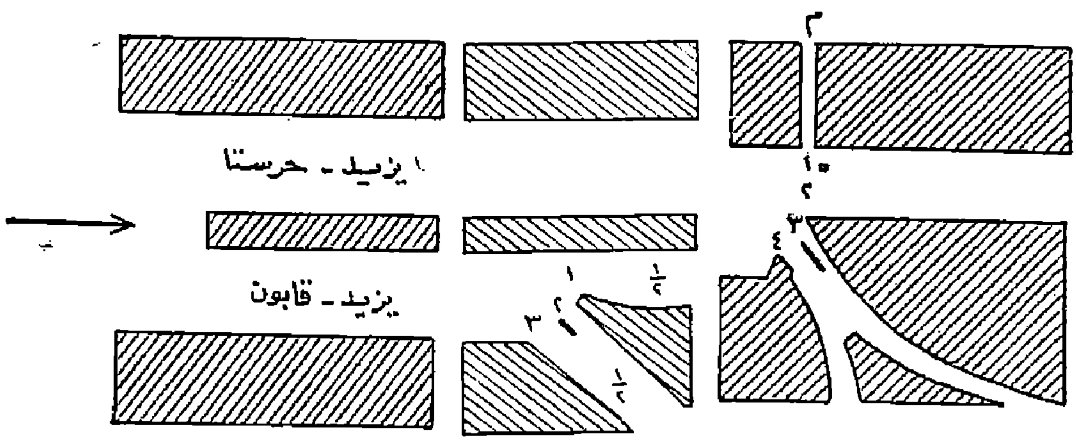
شكل (٢٧)



وأهم هذه المواصي التي تنطلق من الضفة اليمنى لنهر يزيد هي (ماصية الزغبي التي تمر في شارع عدنان المالكي ، و (ماصية ابي العلاء) التي تذهب الى جادة نوري باشا في الجسر الابيض ، و (ماصية الرشيد) التي توزع مياهها على البيوت القديمة في جادة عطا الايوبي وحمام المقدم .

وعندما يدخل نهر يزيد قرية القابون ، يعترضه حاجز طولي يقسم مجرى النهر الى قسمين ، يخص القسم الأيسر منهما قرية حرستا ، ويخص القسم الايمن ضاحية القابون ، ويتحدد نصيب كل من هذين الفرعين (يزيد — حرستا ، ويزيد — القابون) بواسطة فتحتين ابعادهما : ١٤١ سم لحرستا و ١٢٨ سم للقابون .

شكل (٢٨)



ويتابع نهر يزيد سيره نحو أراضي حرستا ، تعترضه المقاسم الكثيرة ، وتنطلق منه الجداول العديدة ، فيقل تصريفه تدريجيـــاً حتى يصبح عاجزاً عن كفاية الاراضي التي يرويهـا ، وينتهي اخيراً في مجرى سيلي جاف ، تتدفق فيـه المياه في اعقاب أمطار الشتاء الشديدة وتلقي فيه الحصى والرمال .

ويؤلف نهر يزيد الحد الفاصل تقريباً بين الأراضي المروية والأراضي الجافة أو الأراضي التي ترويها مياه منين ، تلك الصفة التي نشهدهـا مرة أخرى في نهر المزاوي الذي يتفرع عن عين بردى . وتمتد المنطقة التي يرويها يزيد الى الشمال من الأراضي التي يرويها تورا بعرض لا يزيد على ١٥٠٠ متر .

ويقدر عرض النهر بمترين أو يزيد قليلا ، ولكن هذا العرض يتسع احياناً حتى يصل الى بضعة امتار في بعض نقاط مجراه ، كما يعمق المجرى ايضاً حتى يصل الى اكثر من ثلاثة امتار . ومن الجدير بالذكر ، ان تعميق المجرى وتوسيعه انما هو عمل مقصود يراد به التخفيف من أخطار السيول الهابطـــة من المرتفعات المجاورة ، وذلك لاستقبال الجروفات التي تحملها السيول وتلقيها في النقاط المنخفضة[١].

وجدير بالذكر ، ان مياه يزيد تتوزع الى أربعة أقسام متساوية ، يروي الربع الأول أرض الشركسية ، التي تمتد حدودها من بستان الدواسة غربا حتى

(١) عبد الهادي السعيد - ص ٥

حمام المقدم شرقاً ، ويروى الربع الثاني اراضي أبي جرش التي تمتد من حمام المقدم غربا الى حدود بساتين القابون شرقاً ، ويروي الربع الثالث أراضي القابون ، بينما يتجه الربع الأخير الى أراضي حرستا ، حيث يسقي بساتينها وينتهي فيها .

نهر تورا

لئن كانت قناة يزيد حديثة العهد نسبياً ، اذ تعود إلى العهد الروماني أو اليوناني حسب التقديرات التاريخية ، فما لاشك فيه أن قناة تورا أقدم منها عهداً ، اذ تعود الى العهد الآرامي [1] .

يأخذ نهر تورا مياهه من بردى عند جسر الخشب الواقع الى الجنوب من ضاحية دمر ، بالقرب من الشادروان . أما نصيبه من المياه فهو قليل ، اذ يبلغ $\frac{١٤}{٢٤}$ من باقي تصريف بردى ، بعد أن أخذ يزيد $\frac{٨}{٢٤}$ قيراطاً ، والمزاوي $\frac{٦}{٢٤}$ قيراطاً من باقي التصريف ، والداراني $\frac{١٨}{٢٤}$ قيراطاً من باقي التصريف . ولذلك تبدو مياهه قليلة عند مقسمه ، ولكنها لا تلبث ان تزداد بسبب المياه التي تهبط اليه من مواصي نهر يزيد ،حتى ان مياه تورا تزداد الى الضعف عندما تبلغ خانق الربوة .

ويشترك نهر تورا مع يزيد في ري السفح الجنوبي لجبل قاسيون ، ويعود فائضها من الري الى نهر بردى . ولكن رحلة تورا تصل حتى اراضي دوما في فصل الجفاف ، ثم تبلغ عدرا والعتيبة في فصل الامطار ، بينما ينتهي مطاف يزيد في اراضي حرستا .

وكان نهر تورا لبضع سنوات خلت ، يزود العشرات من المواصي والسبلان التي تنتشر بين الربوة وجسر تورا ، يتوزع نصفها في القسم الغربي من هذه المنطقة بين الربوة والجسر الابيض (النيرب الاسفل) ، ونصفها الآخر في القسم الشرقي

(١) Ecochard , M. , et le Cœur , C. , les bains de Damas, Beyrouth , 1942 , P. 12 .

على طول منطقة أبي جرش ، فتهبط مياه القسم الغربي الى نهر بردى ، بينا تتجمع مياه القسم الشرقي على شكل نهيرات صغيرة .

وقد اخذت هذه المواصي في الزوال تدريجياً ، على اثر انتشار العمران الحديث في هذه المنطقة واستبدال مياه الفيجة النقية بها ، فلم يبق منها سوى بضع مواص اهمها « ماصية الانصاري أو العمري» ، وهي تتفرع من تورا عند ساحة ابي العلاء وتمر بشارع الجلاء ، ثم تتجه نحو الجوبي فطاحون الشعلان . وفي بيت العطار تنقسم الى قسمين ، يذهب الاول الى وزارة المواصلات ومنها الى حارة العبيد (بيت نوري الابيش) ، ويذهب الثاني الى شارع المجلس النيابي فنادي الضباط ، حيث يتفرع هناك الى فرعين صغيرين ،يتجه الاول الىحارةشرف ومنها الى شارع بورسعيد فحارة الوزير ، ومنها الى جامع البخاري فحارة المفتي وحارة القولي في حي سوق ساروجة . ويتجه الفرع الثاني الى جادة الصالحية حيث ينقسم هناك الى قسمين ثانويين ، احدهما يسقي جامع الورد(في سوق ساروجة)وجامع يلبُغا (في البحصة) والاخر يذهب الى حارة داور آغا (في سوق ساروجة) .

ومن المواصي الاخرى (ماصية الشباك) التي تمر عن طريق الاكراد وتنحدر نحو الديوانية ، (وماصية السبع قاعات) التي تذهب مياهها الى مصنع الكونسروة والقرازين ، و (ماصية الكزبري) التي تمر مياهها بالزينبية ومسجد الاقصاب وتنتهي في بردى[١] .

إن نهر تورا الذي حفرت قناته خلال الرواسب السفحية والنهرية قد تطلب وجود ضفاف ثابتة قوية ، ولذا نرى ان ضفتيه مبنيتان بالحجارة على طول مجراه ، كما يلاحظ ان قعره ايضاً مرصوف بالحجارة ؛ ولعل ذلك يعود الى خوف القدامى من تسرب المياه خلال مجرى النهر . وهو يشترك مع نهر يزيد في ري السفح الجنوبي لجبل قاسيون ، ويعود فائضها الى نهر بردى .

---

(١) ساوى دهمان - تموين مدينة دمشق بمياه الشرب - بحث غير منشور (١٩٥٨) - ص ١٥ .

ويتصف نظام توزيع المياه على نهر تورا ، في منطقة الصالحية بالبساطة النسبية ، ولايختلف كثيراً عما رأيناه في نهر يزيد . فمياهه تتوزع في بدايتها الى ثلاثة اقسام رئيسية متساوية(١) على النحو الآتي :

الثلث الاول : يخص الاراضي الواقعة ضمن حدود مدينة دمشق ، وينفصل عنه اربعة فروع رئيسية تغذي أحياء المدينة الشمالية .

الثلثان الآخران : يجري توزيعها عند مقدم (بَسْطْ) باب الثلث الواقع الى الشمال من جوبر ، ويعتبر هذا البسط أهم مقاسم الواحة واقدمها ، لانه يوزع المياه بين عشر قرى .

ويلاحظ ان مياه تورا تستمر قوية حتى جوبر ، ولكنها تضعف على بعد عشرة كيلومترات تقريباً عندما تصل الى اراضي دوما ، ولذا يجرى توزيع المياه حسب مناوبات تختلف في مدتها بين الشرق والغرب ، فقبل عربين يسقي الفلاحون اراضيهم مرة كل اسبوع ، بينما تصبح مناوبة الري بعد عربين مرة كل اسبوعين .

نهر الداراني

يدعى بالداراني نسبة الى قرية داريا ، الواقعة الى الجنوب الغربي من دمشق ، وهو يشترك مع المزاوي والقنوات في ري الاراضي الواقعة الى الغرب من طريق دمشق — درعا . ولايعرف التاريخ الصحيح لمد قنــــاة الداراني ، ولكن « تريس » يرجح انشاءها مع قناة المزة الى القرن الثالث الميلادي بدلالة وجود قريتي داريا والمزة في ذلك الوقت ، فليس من المعقول ان تكون القريتان موجودتين في ذلك الوقت بدون تمديدات مائية(٢) .

(١) Tresse, R., L'irrigation dans la Ghouta de Damas, (Revue des Etudes Islamiques, T. 111 , année, 1929) . p. 511

(٢) Tresse, op. cit. pp. 471 — 472

يتفرع الداراني من نهر بردى من الجهة اليمنى ، بين دمر والشادروان قبل تقاطع الطريق العام مع السكة الحديدية بما يقرب من ٣٠٠ متر ، حيث يأخذ $\frac{١٨}{٢٤}$ قيراطا من تصريف بردى عند تلك النقطة .

يجري الداراني في قناة عميقة محفورة في الصخر ، وتبقى معلقة على سفوح تقرب من الوضع الرأسي ، وتختفي في عدة مواضع داخل الانفاق حتى خانق الربوة . وهي تقترب اثناء سيرها كثيراً من قناة المزة ، وخاصة عند حافة المزة التي تحيط بمجرى بردى من الجنوب . ثم تنعطف بعد ذلك فجـأة نحو الجنوب بحيث تصبح عمودية على مجرى نهر بردى ، وتصبح آنذاك موازية لقناة المزة ، وتشكل الحدود بين الاراضي التي ترويها عن يسارها ، والاراضي التي يرويها المزاوي عن يمينها .

وعندمايبلغ الداراني مقسم « النـّفلة » في ارض المزة ينقسم الى اربعة اقسام ، يلتقي اثنان منها على بعد خمسين متراً من المقسم ،ويتجهان نحو مقسم « طاحونة التوتة » الذي يعطي نصف مياهه الى (بساتين الخليج) التابعة لداريا كما ينطلق منه فرع يتجه الى اراضي كفرسوسة ، يقتطع جزء منه لسقاية اراضي الفحّامة التابعة للمزة . اما الفرعان الآخران اللذان يخرجان من مقسم النّفـلة فيذهب احدهما الى بساتين باب سريجة والاخر يتجه الى كفرسوسة .

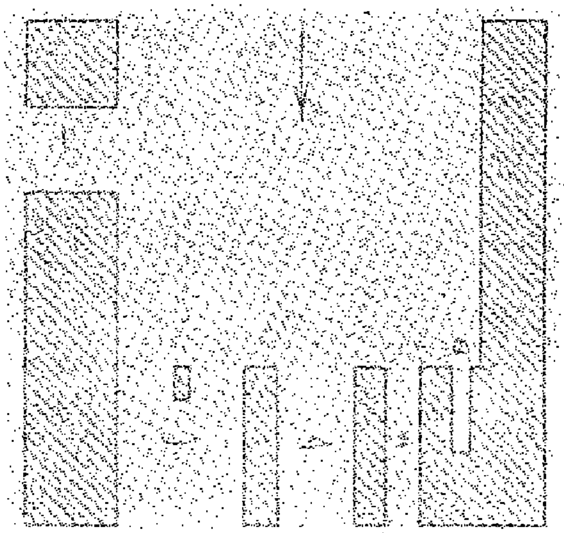
ويسهم هذا الفرع الاخير ، بارواء الاقسام الجنوبية من المدينة ، فيقتطع جزء من مياهه عند قبر عبد الرحمن المسجف ، ويرسل الى مقسم يقع الى الغرب من حي الميدان (شرقي بستان ماضي) .

وعندما يبلغ الداراني مقسم النفلة في أرض المزة ، يشكل أربعـة

فروع[1] : الفرعان آ و ب يلتقيان على بعد خمسين متراً من المقسم ويتجهان نحو طاحونة التوتة ، ويذهب الفرع جـ الى كفرسوسة ، بينما يتجه الفرع د نحو بساتين باب مريجة ، شكل (٢٩) .

شكل (٢٩)

مقسم النقلة



وهناك جزء من مياه الداراني يغذي حاووظ الميدان الذي يزود منازله بالمياه ، وتحدد الفتحة هـ المياه المخصصة لهذا الحاووظ ، ثم تمر هذه المياه تحت الفرع د لتصب في الفرع جـ الذي يتجه نحو الميدان . وتكون جميع فتحات المقسم أساساً مفتوحة باستمرار ، اما في حالة الاضطرار الى اغلاقها ، فان نظام الفتحة هـ يمكّن من اغلاق فرع الري جـ دون ان ينقص من كمية المياه المخصصة لحاجات الميدان المنزلية .

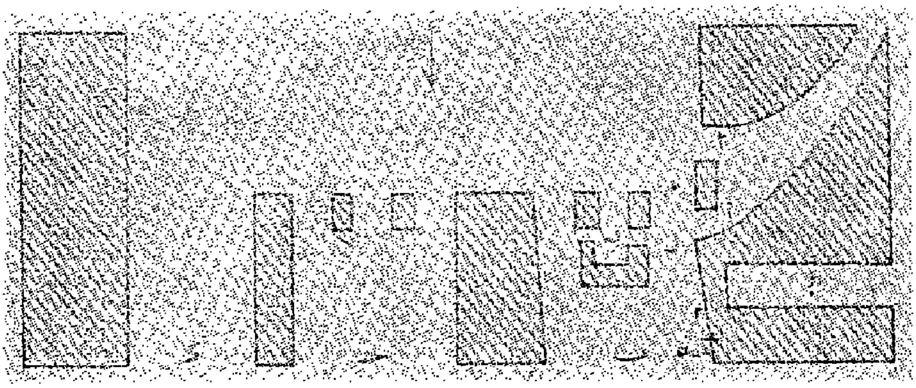
---

(١) Thoumin . R . . Notes sur L'aménagement et la distribution des eaux à Damas et dans Sa Ghouta . (Bulletin d' Etudes Orientales . T . IV , année 1934) , pp . 16 - 17 .

اما مقسم طاحونة التوتة ، فانه يعطي حوالي نصف مياهه لري بساتين « الخليج » التابعة لداريا ، وينطلق منه فرع يتجه نحو كفرسوسة يزوده المقسم بالمياه من ثلاث فتحات، وتجاه الفتحة الثانية في وسط هذا الفرع نفسه تنفتح فوهة على شكل قمع من الحجر ، تمر المياه التي تدخله تحت ب عن طريق ل لتظهر ثانية في و ، حيث تشكل قناة تروي اراضي الفحامة التابعة للمزة ،شكل(٣٠).

شكل (٣٠)

مقسم طاحونة التوتة



وتظهر فتحة الفرع التي تغذي حاووظ الميدان عمودية على صف الفتحات السابقة ، وهي تسمح بمرور كمية من المياه تساوي الكمية التي خرجت من الفرع هـ عند مقسم النفلة ، ولهذا السبب كان موضع ا على جانب المجرى وليس في وسطه ، واقتضت العدالة في التوزيع زيادة تصريف ا بواسطة فتحة اضافية آ تقتطع جزءاً من مياه كفرسوسة .

نهر المزاوي :

يدعى بهذا الاسم نسبة الى ضاحية المزة ، وهو ينشق من الضفة اليمنى

انهر بردى ، قبل قرية دمر بنحو ٣٥٠ متراً ، ويأخذ $\frac{٦}{٢٤}$ قيراطاً من تصريف بردى عند نقطة التفرع ، وهو يحافظ على مياهه تقريباً ، على خلاف الفروع الاخرى التي تستنزف مياهها أثناء طريقها بحق استخدام المياه بدون قيد .

تسير مياه المزاوي في قناة مكشوفة ، ثم تختفي بعد ذلك عن الانظار ، ولا يبدو منها سوى تلك النوافذ التي تطل على شكل فوهات يسمونها «بالضوايات» وهي تساعد على تطهير القناة وتنظيفها . ولا تظهر القناة من جديد الا عند مقهى (ام حسن) ، ثم تختفي مرة أخيرة لتعبر مجموعة من الانفاق تخترق بعدها حافة المزة . وبعد ذلك تظهر القناة نهائياً ، وتنساب على أراضي المزة لترسم الحد الفاصل بين الاراضي المروية على يسارها والاراضي الجافة على يمينها .

وأهم المقاسم التي تصادفنا هي على الترتيب :

أولاً : مقسم المرجانة : تخرج منه قناة تتجاوز نهر الداراني عند الجسر على الطريق العام ، وتسقي أراضي الهبل والزيتون ، وتصل مياهها الى الحميرية .

ثانياً : مقسم الشيخ قاسم : يقع خلف البلدية ، تنشق عنه قناة تحمل ثلث المياه ، وتروي أراضي القاطوع وجنينة البوابة والبرانس .

ثالثاً : مقسم الجندي : تنطلق منه قناة تروي أراضي الجندي خاصة .

رابعاً : مقسم الرحيبي : تخرج منه قناة تروي أراضي الحور .

نهر القنوات :

يتفرع من نهر بردى من الجهة اليمنى ، عند متنزه الشادروان ، على بعد ٢٠٠ م الى الشمال الشرقي من ممر الخط الحديدي ، وهو يأخذ $\frac{٢٠}{٢٤}$ قيراطاً من

باقي تصريف بردى . ويمثل نهر القنوات أهم الفروع التي تزود مدينة دمشق بالمياه ، إذ أن تخطيطه يسمح له بايصال المياه الى أكثر أقسام المدينة القديمة ارتفاعاً ، فمياهه تصل الى أعلى التل الواقع الى الجنوب من مجرى بردى بحوالي ٥٠٠ متر .

وقرب جامعة دمشق ، ينقسم نهر القنوات الى قسمين :

القسم الأول : يأخذ ١٠ قراريط ، ويتجه الى الجنوب ماراً تحت طريق دمشق – المزة ، ويدعى « مقسم الخلخال » حيث ينقسم بدوره الى خمسة فروع ثانوية : فرعان يرويان أراضي كفر سوسة والقدم ، وثلاثة فروع تسقي الأحياء الجنوبية من دمشق مثل باب سريجة وقبر عاتكة وباب المصلى والميدان .

القسم الثاني : يأخذ ١٤ قيراطاً ، ويجري شرقاً في الاتجاه الأصلي لنهر القنوات ، ويدخل المدينة في قناة جوفيـــة ، فيمر بحي الحلبوني ، حيث توجد ثلاثة مقاسم ، وهي مقسم الزين ومقسم زقاق الحلبوني ومقسم جامع الحلبوني . وتجتمع مياه هذه المقاسم في طوالع توزع المياه على الدور والحدائق والجوامع وغير ذلك [1] .

ويتابع نهر القنوات سيره ، فيتفرع عنه عند محطة الحجاز مقسم يسمى « باب حديد الحجاز » ، تتفرع منه المياه الى فرعين ثانويين ، يتجه الأول منهما نحو جامع تنكز والثاني نحو المولوية ، ثم يواصل نهر القنوات طريقه شرقاً حتى يبلغ حي القنوات الذي يحمل اسمه . وهناك تتوزع مياهه بواسطة مقاسم كبيرة تعرف بالطوالع ، وقد كان عددها يبلغ ٩١ طالعاً ، تؤمن المياه لهذا الحي ، فتزود دوره وحماماته ومساجده بالمياه ، ولكن انتشار مياه الفيجة في الربع الثاني من القرن الحالي قد قضى على معظم هذه الطوالع ولم يبق منها الا عدد قليل جداً، لا يزال ماثلاً في جادة القنوات حتى الوقت الحاضر .

---

(١) سلوى دهان – ص ١٨ .

ومع ان هذا النهر قديم، يعود الى العهد الروماني ، الا ان نظام توزيع مياهه لم يبق على حاله ، بل طرأت عليه تبدلات كثيرة وخاصة في عهدي المماليك والعثمانيين(١) ، كما ان هذا النهر كان مكشوفاً أثناء سيره في المدينة ، ولم يكن يختفي عن الانظار الا في وسط حي القنوات عند مدخل جادة الشابكلية حيث كان يتابع مجراه من هناك ماراً تحت أبنية دمشق القديمة .

ويبدو ان ارتفاع مستوى المياه في نهر القنوات ، قد دعا الرومان قديماً الى رفعه فوق قناطر ، كانت تمتد من مدخل القنوات حتى مدخل جادة التعديل تقريباً ، ولكن هذه القناطر هدمت من قبل تيمورلنك عندما غزا مدينة دمشق وضرب ديارها ، ولم يبق من هذه القناطر سوى واحدة ، وهي الأثر الوحيد الباقي من العهد الروماني في نهر القنوات .

نهر بانياس :

يتفرع من نهر بردى من الجهة اليمنى ، عند مخرج بردى من خانق الربوة ، وهو يأخذ $\frac{٢٣}{٢٤}$ قيراطاً من باقي تصريف بردى . وهو يساير الحافات الجبلية التي تطل عليه من جبل المزة ، ثم ينحدر الى أسفل جامعة دمشق .

وبعد ذلك يواصل نهر بانياس طريقه شرقاً ، فيرسل قسماً من مياهه الى تكية السلطان سليم ، ويمر أمام محطة الحجاز في قناة جوفية ، ثم تنشق عنه عدة فروع تسقي جامع المولوية وجامع تنكز ودار الحكومة . وفي أسفل زقاق رامي يجتمع قسم من مياهه في طالع تنطلق منه المياه الى حمام القرماني في سوق العتيق ، حيث تختلط مياهه بمياه تورا .

(١) Thoumin . (1936) . op . cit . , p . 80 .

ويتابع بانياس سيره شرقاً حتى السنجقدار حيث تتفرع مياهه عند منطقة « سيدي خليل » الى فرعين :

الاول : (فرع الطوير) ، وهو يختص بثلث مياه بانياس ، ويجري نحو الحميدية فالعصرونية ، وهناك تعترضه عدة مقاسم تمد بمياهها عدداً من الحمامات والجوامع ، وينتهي هذا النهر في باب توما .

الثاني : (فرع بانياس) ، وهو يحتفظ بثلثي المياه ، يخرج منه فرع في منطقة سيدي خليل نفسها ، لتزويد بعض الجوامع والمدارس بالمياه ، ثم يتابع سيره الى القلعة ، حيث ينقسم فيها الى قسمين :

الاول : يأخذ ثلث المياه ، ويتابع طريقه الى العصرونية وجامعها ، ثم يمر في باب البريد وسبع طوالع ودخلة النقاشات وحمام النوفرة. وهناك في النوفرة توجد اربعة مقاسم رئيسية توزع المياه الى القيمرية وتنتهي عند باب توما .

الثاني : يأخذ ثلثي مياه بانياس ، ويتجه نحو الشاغور . وعندما يصل الى الحريقة ، يتفرع بدوره الى فرعين ، الاول يتجه نحو باب الصغير والميدان والثاني يذهب الى بساتين الشاغور والباب الشرقي ، ثم ينطلق خارج المدينة حاملا معه قدرا كبيرا من اوساخ مدينة دمشق واقذارها ، ويسمى « بالنهر الابيض» بينما يسميه العامة (قُلَيْط) .

ويلاحظ ان مياه بانياس تجري على مستوى اخفض من مستوى القنوات بضعة امتار ، ولذلك يمكن التعرف على فروع كل منها من مواضع المقاسم ، اذ تشاهد مقاسم بانياس على جدران المنازل وعلى ارتفاع متر او اكثر فوق سطح الارض . (١)

---

(١) ساوى دهمان ـ ص ٢١ .

يتضح مما سبق ، ان نهر يزيد يحظى بنصيب الاسد من هذا التوزيع ، اذ يقتطع لنفسه ١٨/٢٤ من مجموع تصريف بردى ، ويأتي بعده المزاوي فيأخذ ٦/٢٤ من الباقي وهكذا .... واذا تابعنا هذه العملية الحسابية فلن يبقى في النهر الاصلي عندما يدخل الى دمشق سوى ٢٪ من تصريفه .

والواقع ان نهر بردى يستعيد قسما كبيرا من المياه التي فقدها بعد ٥٠٠ متر من اول فرع ينشق عنه ، ولولا ذلك لما استطاع النهر متابعة رحلته . اما عودة هذه المياه الى النهر الاصلي فتكون على ثلاثة اشكال :

الاول : يكون عودة المياه الزائدة عن حاجة القناة الى النهر الاصلي ، ولهذه الغاية ، تمنع تعلية ضفاف القناة المتفرعة عن ضفاف النهر الاصلي لئلا تحول دون عودة المياه الزائدة عن القناة الى النهر الاصلي فوق هذه الضفاف .

الثاني : يكون بعودة المياه الى نهر بردى ، نتيجة سقاية البساتين الواقعة قبل الربوة ، فهناك لا توجد مناوبات محددة لري الاراضي الواقعة داخل الوادي بسبب وفرة المياه .

الثالث : يكون تسرب المياه خلال الحاجز المقام في عرض النهر ، وعودتها الى النهر الاصلي ، ويساعد على ذلك تكوين الحاجز الترابي حول سياج نباتي محدد .

يترتب على هذه الامور السابقة ، عدم وجود ارتباط تام بين التقسيم النظري والتقسيم الفعلي ، فعندما يتفرع نهر يزيد ، تستخدم مياهه بسخاء في الوادي ، حتى انه يفقد اكثر من نصف مياهه قبل خروجه من خانق الربوة ؛ وكذلك المزاوي ، فهو يمثل صورة مصغرة عن نهر يزيد . وهكذا نرى ان مياه يزيد والمزاوي التي اخذت معظم مياه بردى تعيدها اليه ثانية قبل خانق الربوة . اما الفروع الاخرى ، فهي لا تروي الا بعد خانق الربوة ، لان عملها

الرئيسي هو ارواء الغوطة ، ولذا يظهر نهر تورا عند خانق الربوة اكثر هذه الفروع مياه ويأتي بعده القنوات ثم الداراني ثم بانياس ، بينما يأتي يزيد والمزاوي في آخر التصنيف .

المجموعة الثانية من اقنية بردى

تتشكل هذه المجموعة الثانية عند وصول بردى إلى دمشق ، وبعد ان يعود اليه قسم من مياهه التي استنفدتها الفروع الستة في المنطقة الجبلية ، فيستعيد النهر حيويته ويسمح بتشكيل المجموعة الثانية من الاقنية ، وهي تضم العقرباني والداعياني والمليحي .

نهر العقرباني

ينسب الى قرية عقربا ، ويتفرع من بردى في وسط دمشق ، تحت جسر الشهداء (المرجة) الذي يشتمل على ثلاث قناطر ، الشمالية منها تخص نهر بردى ، والقنطرتان الجنوبيتان تزودان العقرباني بحوالي ٧٥ ٪ من تصريف بردى عند نقطة التفرع ، كما يتلقى العقرباني ، بالاضافه الى ذلك ، مياه المجاري الوسخة الآتية من احياء المدينة الواقعة الى الشمال من سوق مدحت باشا .

تسير قناة العقرباني في مدينة دمشق بموازاة بردى باتجاه الشرق ، وبمحاذاة الحائط الشمالي للقلعة مكونة خندقا لها ، في باب الفرج بالمناخلية ؛ فاذا تركته مرت بين السورين فالعمارة وباب السلام ، ثم تماشي سور المدينة حتى تصل الى باب توما ومنه الى الشيخ رسلان . ثم ترسم القناة منعطفا واسعا حتى تلتقي بطريق دمشق - خرابو ، فتخترقه عند جسر المطير ، وتتابع سيرها جنوبا نحو اراضي الغوطة الجنوبية .

نهر الداعياني

ينسب الى قرية مندثرة اسمها « داعية »[1] ، وهو ينفصل عن نهر بردى في مدينة دمشق قرب باب السلام ، ويأخذ منه ربع تصريفه عند نقطة التفرع . وعند خروجه من المدينة ، عند الصفوانية (تعرف اليوم بالصوفانية) ، تنضم اليه نصف مياه بردي ايضا ، فيزداد تصريفه ويصبح في مقدمة انهار الغوطة . ولكنه لا يحافظ على غزارته الى امد طويل ، فعند سد طاحون العبد يعود قسم من مياهه الى نهر بردى ، بينما يتفرع القسم الآخر الى فرعين يتجهان شرقا نحو منطقة الزور في الغوطة .

نهر المليحي

ينسب الى قرية المليحة ، وهو ينفصل عن نهر بردي بالقرب من طاحون الاحدى عشرية ، على بعد ٤٠٠ متر من الباب الشرقي ، شرقي محلة القعاطلة . وهو يقابل الداعياني ، ويروي قسما من منطقة الزور ، ثم يتجه نحو الجنوب الشرقي لسقاية اراضي الغوطة الشرقية .

تداخل شبكات المياه في منطقة دمشق .

تبين لنا من دراسة الشبكة المائية ، ان الانسان قد استطاع ان يفرق ما كانت الطبيعة تريد ان تجمعه ، مخالفا بذلك الهيدرولوجية الطبيعية لهذه المنطقة ، فيندر أن تتجاوز ٢٠٠ متر خارج المنطقة السكنية دون أن تصادف جدولاً أو قناة ، حتى ان دمشق نفسها قد بنيت فوق عدد غير محدود من الشرايين المائية التي تنساب تحت المنازل القديمة ، فتسبب جواً من الرطوبة يشعر بـه المواطنون في ايام الشتاء بشكل خاص .

واذا كانت الدراسة الطبوغرافية لمنطقة دمشق قادرة على تفسير الاتجاهات

---

(١) تقع ضمن اراضي جوبرية حاليا .

العامة التي سلكتها الفروع الرئيسية لنهر بردى ، فذلك لاينطبق على الاقنية الثانوية التي رسمت مخططها المصالحُ الخاصة .

وقد تروى الارض بغير الماء الذي يمر منها ، اذ ان الماء الذي يمر بأرض قد يكون منخفضاً لايفيد الارض المجاورة ، واذا حالت الشروط الطبوغرافية او العرف الخاص بشراء الماء دون اختلاط مياه حوضين متجاورين ، يُلجأ ، عادة، الى نقل المياه بواسطة عبّارات صغيرة .

وعندما تسمح الظروف باختلاط مياه حوضين متجاورين ، تساق المياه عندئذ من الحوض الاعلى الى الحوض الادنى . ففي الشمال مثلاً تروي مياه منين الاراضي الواقعة على الجانب الأيسر من نهر يزيد في حي الاكراد والقابون ، حيث لاتستطيع مياه يزيد بلوغها لانخفاض منسوبها عن هذه الاراضي ، كما يرسل نهر منين ايضاً فروعاً تمتد الى ماوراء نهر يزيد ، وتمر فوق مجراه ، لتروي بعض الاراضي الواقعة الى جنوبه . وهذه الصورة تتكرر في الاراضي الواقعة الى جنوب دمشق ، حيث يتداخل العقرباني مع الاقنية التي تتزود من مجاري المدينة ، كما تتداخل مياه المزاوي مع حوض الداراني .

وهكذا نلاحظ ان تخطيط أقنية المياه كثير التعقيد ، وتداخل شبكات المياه المتجاورة لايقف عند حد ، ولا شك في ان انعدام العوارض التضاريسية في هذه المنطقة كان من اكبر العوامل في خلق هذه الصورة ، كما ان تخطيط هذه الشبكات المائية لم يكن يسير وفق خطة مدروسة ، وانما كان مديناً الى المصادفة وحدها في اغلب الاحوال .

ومع ان اختيار مواقع هذه المقاسم ، قلما كان عن سابق تصميم وتفكير فانها لم تغير مواقعها بعد أن تحددت مهما كانت الظروف ، كما انه لم تنشأ مقاسم جديدة ، فهم يفضلون عمل فتحات اضافية للمقسم اوتحويل مياه فرع

يبعد احياناً مئات الامتار عن الارض التي يراد ارواؤها ، عوضاً عن اقامة مقسم جديد ، ولا يهم بعد ذلك مرور هذه المياه من فوق الفروع الاخرى او من تحتها (١) .

ان تفسير مواقع هذه المقاسم ونظامها وتخطيط الأقنية واتجاهاتها ،يحتاج الى دراسة أحوال السكان الذين ملكوا بساتين دمشق وغوطتها خلال العهود المختلفة ، ومع ذلك فان هذه الجداول تمثل سجلاً يدل على ثراء عائلة أو فقرها وتفتت أملاكها ، اما نظام توزيع المياه فلا يمكن فهمه الا في ضوء النظام الاجتماعي السائد . الا ان هذه التغييرات التي حدثت بتأثير نفوذ بعض الوجهاء كانت تمس الفروع الثانوية غالباً ، اما الفروع الرئيسية فقد نجت من هذا التغيير وظل معظمها يخضع في سيره لعامل الانحدار .

نظام جريان المياه في نهر بردى :

يتغذى نهر بردى من مصادر مختلفة ، يقع معظمها في منطقة جبال لبنان الشرقية التي تضم القسم الأعلى والاوسط من مجراه . ففي منخفض الزبداني ووادي بردى تتجمع مياه الأمطار على شكل سيول عديدة تصب في نهر بردى الذي يجري في اخفض نقاط حوضه ؛ ولا تلبث الثلوج التي تغطي بعض المرتفعات ان تشارك في تزويد النهر ، اذ تذوب تدريجياً مع ارتفاع منسوب المياه وزيادة تصريفها الى حدها الأقصى في فصل الربيع ، وقد تؤدي أحياناً الى حدوث فيضانات شديدة .

واذا ما انتهت الأمطار وذابت الثلوج ، فان النهر لا يجف ، لأنه يعتمد في جريانه على ينابيع دائمة عديدة تحافظ على استمرار جريانه في فصل الجفاف . ومن هذه الينابيع ما هو قليل المياه ، ومنها ما هو غزير يلعب دوراً هاماً في استمرار جريان النهر أثناء فصل الجفاف .

---

(1) Thoumin . (1936) . op . cit ., . P . 69 .

فينابيع الزبداني وبلودان ومضايا وبقين وغيرها ، كلها ينابيع صغيرة لا تسهم في تغذية النهر اسهاماً فعّالاً ، بسبب استثمارها في ري البساتين المجاورة لها قبل وصولها الى نهر بردى ، ولذلك فان مياهها لا تصل الى النهر الا في فصل الأمطار. أما الينابيع التي تلعب الدور الأكبر في تغذية النهر ، فهي ينابيع بردى والفيجة فقط ، والبها يعود الفضل الأول في بقاء بردى واستمراره خلال فصل الجفاف .

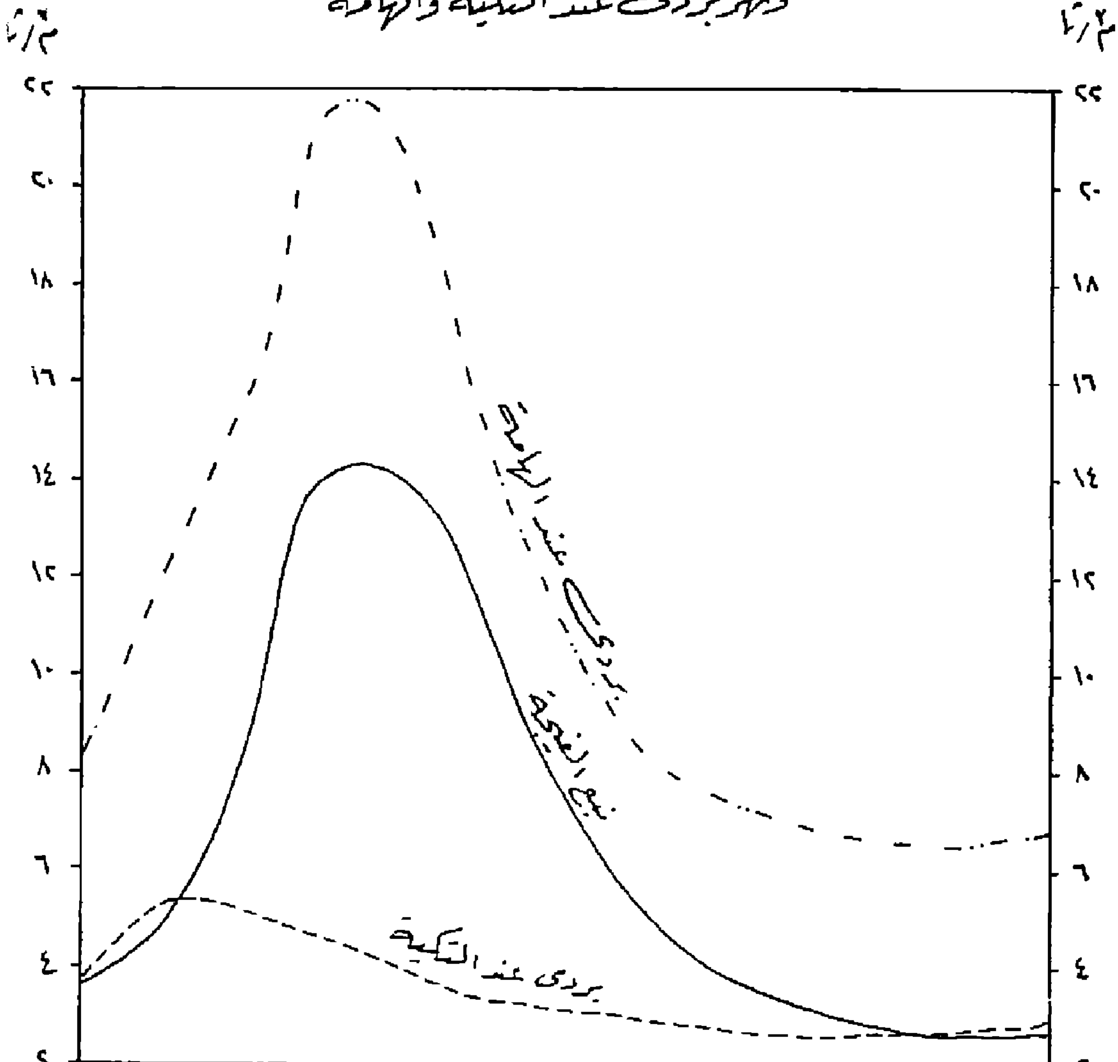
وهناك ما يقرب من عشرين وادياً تنفتح جميعها على نهر بردى ، فيما بين الربوة والزبداني ، وهذه الوديان ، على وجه العموم ، سيلية جافة ، الا انها خلال ساعات قليلة يمكن ان يرتفع تصريفها الى بضع عشرات من الامتار المكعبة في الثانية . وأهم هذه الوديان من حيث المساحة : وادي القرن ووادي العوّاض ووادي العدرا ، وأهمها من حيث الانحدار : وادي الدياب (١٤٪) ووادي بسيمّة (١٢٪) ووادي ابو سالم (١٠٪) .

ويلاحظ ان تشكل هذه السيول ليس ناشئاً عن طبيعة الارض ، فهي قابلة لاختزان كميات كبيرة جداً من المياه ، ولكنه ناتج عن فقـــدان النبات وتعرية التربة ، فهي تتألف من قشرة رقيقة سرعان ما يتم تشبعها بالمياه ، فتوقف نفاذها نحو الطبقات السفلى ، وينتج عن ذلك جريان المياه على السطح وازدياد خطرها باطراد ، بدلاً من ترشحها الى الطبقة الجوفية وتغذيتها بالمياه .

وهكذا تتعرى الأرض في كل مرة ، وتصبح حياة النبات بعد ذلك مستحيلة . وهذه المياه السائبة تتصل اخيراً بمياه الشعاب الاخرى فيتضخم السيل وينتهي دوره المخرب بالطوفان في الوديان .

شكل (٣١)

مقارنة بين المعدلات الشهرية لتصريف نبع الفيجة
ونهر بردى عند التكية والهامة



ومن دراسة الشكل (٣١) الذي يتضمن المعدلات الشهرية لنهر بردى عند الهامة خلال ١٣ سنة (١٩٤٨ - ١٩٦٠) ، يتبين ان تصريف النهر يبلغ نهايته العظمى في شهر نيسان (ابريل) حيث يصل الى ٢١،٩م٣/ثا ، ثم يأخذ في التناقص السريع حتى يبلغ حده الادنى في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) وهو ٦،٥م٣/ثا ، وبذلك يزيد الفرق بين النهايتين العظمى والصغرى على نسبة ٣ الى ١

كما هو واضح في الجدول (٨) .

ويلاحظ كذلك ، ان متوسطات التصريف الشهري للنهر ، خلال فصل الصيف ، تكون منتظمة تقريبا ، وذلك لان بردى في هذا الوقت ، يتغذى في الواقع من الينابيع من جهة ، ومن طبقة المياه الجوفية التي تكاد تلامس القسم الاكبر من مجرى النهر من جهة اخرى .

جدول (٨)

مقارنة بين متوسطات التصريف الشهري لنهر بردى عند الهامة (م٣/ثا) والمعدلات الشهرية للأمطار في الزبداني والفيجة (بالمليمترات)

الشهر	كانون الثاني	شباط	آذار	نيسان	أيار	حزيران	تموز	آب	أيلول	تشرين الأول	تشرين الثاني	كانون الأول
بردى	٨٫٢	١٣٫٣	٦١٫١	٢١٫٩	١٨٫٩	١٣٫٠	٩٫٤	٧٫٨	٧٫١	٦٫٦	٦٫٥	٦٫٨
الزبداني	٩٢٫٨	٧٤٫٢	٣٩٫٢	١٦٫٧	٨٫١	٠٫٥	٠	٠	١٫٠	١١٫١	٩٫٩	١٢٤٫٥
الفيجة	٥٩٫٤	٥٨٫٣	٣٣٫١	٢٤٫١	٩٫٢	٠٫٢	٠	٠٫١	٠٫٢	٧٫٢	١٩٫٣	٦٥٫٧

ويتبين من الجدول السابق ، ان المعدلات الشهرية لتصريف المياه ترتبط ارتباطا وثيقا بالمعدلات الشهرية للامطار التي تسقط في الحوضين الاعلى والاوسط لنهر بردى ، وان كانت هنالك عوامل اخرى كالثلوج وطبيعة الصخور تفسد هذه العلاقة الطردية القائمة بينهما .

ومن مقارنة المتوسطات الشهرية لتصريف بردى عند الهامة مع المعدلات الشهرية للامطار في الزبداني وعين الفيجة ، يتضح ان النهاية العظمى للتصريف النهري تتأخر ثلاثة اشهر تقريبا عن النهاية العظمى للمطر ، وهذا يرجع الى ان الصخور المنفذة التي تسقط عليها الأمطار تبتلع ما يسقط عليها ولا تعيده الا بعد

مرور شهرين على شكل ينابيع ، هذا بالاضافة الى الثلوج التي تذوب مع ازدياد الحرارة في نيسان وأيار (ابريل ومايو) وتزود النهر بمياهها ، ولكن هذا المؤثر يزول في حزيران (يونيو) ليعمل بصورة غير مباشرة بعودة مياه ذوبانه التي امتصتها الصخور في الأشهر السابقة بشكل ينابيع في الأشهر التي تنقطع فيها الأمطار.

وكذلك ، نلاحظ ارتباطاً واضحاً بين مجموع التصريف السنوي للمياه في بردى ، وبين مجموع الأمطار السنوية التي تسقط في الحوض الاعلى لنهر بردى ، اذ يتبين من الجدول (٩) ان السنوات التي يزداد فيها مجموع الأمطار السنوية يوافقها ازدياد واضح في مجموع التصريف السنوي للمياه .

جدول (٩)

مقارنة بين التصريف السنوي لنهر بردى (بملايين الامتار المكعبة) مع مجموع الأمطار السنوية في الزبداني (بالميليمترات)

السنة	١٩٥٣	١٩٥٤	١٩٥٥	١٩٥٦	١٩٥٧	١٩٥٨
بردى (عند الهامة)	٢٦٤,١	٢٧٣,٩	١١٠,٩	١٩٢,٥	١٣٢	١٠٨,٩
الزبداني	٦٧٠	٦٩٣	٣٦٧	٦٠٨	٤٤٧	٤٣٩

* * *

وفي الجزء الواقع ما بين الهامة والربوة ، يصفي هذا الوادي بدوره مياه الكتل الجبلية المجاورة ويتلقى مياه الينابيع الكثيرة التي تحف بجراه ، فتحفظ مياهه وتزيد تصريفه حتى يجتاز آخر سلسلة جبلية تطل على حوض دمشق .

ويمكن التثبت من صحة ذلك ، من نتائج القياسات التي اجرتهـا مصلحة المياه عند الربوة في ١٠ / ١١/ ١٩٤١ ، وكانت على النحو التالي :

النهر	التصريف
يزيد	٢٧٨٨ ل/ ثا
تورا	٥٥٣ » »
بردى	٦٠ » »
بانياس	٥٥٤ » »
القنوات	١٠٤٢ » »
الداراني	١٥٨٦ » »
المزاوي	٣٣٣ » »
المجموع	٦٩١٦ ل/ثا

يتضح من القياسات السابقة ، ان كمية المياه التي يوزعهـا نهر بردى على فروعه الستة بين الهامة والربوة ، بالاضافة الى الكمية الباقية في مجراه ، تبلغ ٦٩١٦ ل/ثا ، فاذا عرفنا أن تصريف بردى في الهامة ، عند تفرع نهر يزيد يبلغ ٦٠٢٠ ل/ثا في التاريخ نفسه ، تبين انا من ذلك أن تصريف نهر بردى ، قدازداد ما بين تفرع يزيد عندالهامة حتى الربوة بمقدار : ٦٩١٦ - ٦٠٢٠ = ٨٩٦ ل/ثا . يضاف الى ذلك ما يضيع من المياه بنتيجة الترشح أو ري الأراضي على طول الأقنية الفرعية ، فضلاً عن نقص المياه بسبب التبخر في هذه الأقنية نفسها بما فيها بردى .

وقد قدر المهندس فيليب أسود[1] هذا النقص على النحو الآتي :

(١) المشروع البدائي لتنظيم بردى - تقرير غير منشور - ص ٧ .

نقصان المياه بالترشح	٢٥٣ ل/ثا تقريباً
نقصان المياه بالتبخر	٧ ل/ثا تقريباً
نقصان المياه بسبب الري	١٤٠ ل/ثا تقريباً
مجموع النقصان	٤٠٠ ل /ثا تقريباً

وبذلك يصبح مجموع ما يصل من طبقة المياه الجوفية على طول ٧٫٦ كم هو :

٨٩٦ + ٤٠٠ = ١٢٩٦ ل/ثا

أو ما يعادل ١٢٩٦ ÷ ٧٫٦ = ١٧٠ ل/ثا في كل كيلو متر .

* * *

وتستمر الطبقة المائية الجوفية في تغذية بردى في داخل المدينة ذاتها ، ويمكن التأكد من ذلك أيضاً ، من دراسة القياسات التي أجرتها مصلحة المياه ، بتاريخ ١٩٤١/٧/٢ ، في الجزء الواقع ما بين الربوة وجسر الحرية .

فقد تبين ان تصريف بردى عند جسر الحرية هو ١١٣٠ ل/ثا ، فاذا طرحنا منه تصريف بردى عند الربوة (وهو ٦٠ ل/ثا) ، وتصريف الأقنية التي تصب فيه قبل جسر الحرية (وهو ١٠٣ ل/ثا) ، نجد ان ماتقدمه طبقة المياه الجوفية على طول ٣٫٩ كم هو :

١١٣٠−١٦٣=٩٦٧ ل/ثا

اومايعادل ٩٦٧÷٣٫٩=٢٤٨ ل/ثا في كل كيلو متر

واذا حذفنا الجزءالمجاور الربوة،وطوله ٤٠٠ متر تقريباً ، بسبب انخفاض طبقة المياه الجوفية عن مجرى النهر ، تصبح كمية المياه التي تقدمها الطبقة الجوفية كالآتي :

٩٦٧ ÷ ٣٫٥ = ٢٧٦ ل/ثا في الكيلو متر

أما الجزء الباقي مابين جسر الحرية وساحة الشهداء (المرجة) فيقدر طوله بنحو ٦٥٠ متراً ، وكانت نتائج قياس تصاريف مياهه على النحو الآتي :

تصريف بردى عند جسر الحرية	١١٣٠ ل / ثا
تصريف القناتين اللتين تصبان فيه	٤١ ل / ثا
المجموع	١١٧١ ل/ثا
تصريف بردى عند ساحة الشهداء	١٣٢٥ ل / ثا

وبذلك يقدر ماتقدمه طبقة المياه الجوفية بين جسر الحرية ومقسم ساحة الشهداء (المرجة) كما يلي :

١٣٢٥ - ١١٧١ = ١٥٤ ل/ثا

أومايعادل ١٥٤ ÷ ٠٫٦٥٠ = ٢٣٧ ل / ثا في الكيلو متر .

وتجدر الاشارة ، الى ان مانلاحظه من اختلاف بين هذه الأرقام يرجع الى عدم الدقة في قياسات التصريف من جهة ، والى وضع طبقة المياه الجوفية بالنسبة لمجرى النهر من جهة أخرى. ولكن يمكن القول ، بأن هذه الأرقام متقاربة نوعاً ما ، وان ماتقدمه طبقة المياه الجوفية يتراوح بين ٢٠٠ ٢٥٠ ل / ثا في الكيلو متر تقريباً .

★ ★ ★

ومن الطبيعي انه يختلف تصريف بردى في ساحة الشهداء (المرجة) اختلافاً كثيراً عنه في الهامة ، فمياه نهر بردى في أوقات الصيف توزع جميعها بين الأقنية المتفرعة عنه فيما بين الهامة والربوة ، الى درجة ان تصريف بردى عند

الربوة لايتجاوز ٦٠ أو ٧٠ ل/ثا ، وفي أثناء هـذه الفترة الصيفية يرتبط تصريف بردى إذن بما تقدمه له طبقة المياه الجوفية ، ولكن بما ان تصريف المياه في الهامة يرتبط أيضاً بغنى الطبقة الجوفية من الميـــاه ، فمن المحتمل إذن وجود علاقة بين تصريف المياه فى الهامة وبين تصريف المياه في ساحة الشهداء .

ومن المـلاحظ فعلاً ، ان التصريف الصيفي في سـاحة الشهداء ثابت نسبياً، ويستمر من آب (أغسطس) حتى منتصف كانون الاول (ديـسمبر) ، ويبلغ معدله ٦٠٠ ل/ثا تقريباً ، أما في السنين الجدبة ، كما هي الحال في سنة ١٩٢٨ ، ينخفض التصريف الى أقل من ١٥٠ ل/ثا تقريباً منـذ منتصف تموز (يوليو) حتى كانون الأول (ديـسمبر) .

ومن الطبيعي ان يزداد التصريف كثيراً في فصل الشتاء ، لما يتلقاه النهر من مياه السـيول المختلفة ، وهذه الزيادة في المياه يحتفظ بها مجرى بردى حتى يزيد في تصريف الأقنية . ويستنتج من هذا ان تصريف النهر في ساحة الشهداء يعـــادل تصريفه في الهامة مع نقص يبلغ ١٠ الى ١٥ م٣/ثا ، وهذا مايعادل مجموع المياه المحولة للأقنية المتفرعة عن بردى فيما بين الهامة والربوة .

وبصورة عامة ، يتراوح تصريف النهر في فصل الشتاء بين ٣-٧ م٣ / ثا ، وعندما تهطل أمطار غزيرة على حوض النهر ، يرتفع الخط البياني للتصريف كالسهم في بضع ساعات ويصل لى مايقرب من ٣٠م٣/ثا ، وحالما ينتهي فيض السيل يهبط التصريف ثانية بصورة سريعة الى معدله الأول .

ولا شك في ان تفرع ميـاه النهر قبل خانق الربوة ، يؤدي الى تخفيف كميات المياه التي تجري في نهر بردى وبالتالي الى خفض منسوبها ، كما تعمل على درء أخطار الفيضان عن المدينة في أكثر الأحيان، إلا أثناء الفيضانات الكبيرة المفاجئة ،

حيث يعجز مجرى النهر بالاضافة الى فروعه الستة عن استيعاب جميع المياه ، فترتفع المياه وتطغى على المناطق المنخفضة من المدينة .

ولكن الفيضانات الخطيرة نادرة نوعاً ما، وأهمها ماحدث يوم ١٩٤٠/١/٣٠ حين ارتفع منسوب المياه في نهر بردى ارتفاعاً كبيراً ، وغمرت المياه ساحة الشهداء بالمياه حتى علو متر تقريباً ، كما غمرت المياه شارع الملك فيصل والأراضي المنخفضة المجاورة لنهر بردى ، وارتفع تصريف النهر عند ساحة الشهداء الى ١١٠ م٣/ثا ، ولكن يلاحظ ان أمثال هذه الفيضانات الخطيرة لاتحدث إلا كل ١٠ أو ١٥ سنة فقط .

أما الفيضانات التي تقل في أهميتها وخطورتها عن الأولى ، فيمكن ان تحدث كل خمس سنوات تقريباً ، ومثال ذلك ماحدث في ١٩٤٢/٣/٢٢ ، حيث غمرت مياه الفيضان جزءاً من ساحة الشهداء ، وارتفع تصريف النهر الى ٧٤م٣/ثا .

وتجدر الاشارة بصورة عامة ، الى ان ارتفاع المياه لايدوم إلا لفترة قصيرة ، اذ تدل الرسوم البيانية الموجودة في مركز التسجيل في الهامة ، ان المدة الكلية لارتفاع منسوب المياه تتراوح بين ١٢ - ٣٦ ساعة .

ويمكن ان تحدث الفيضانات اذا استمر هطول المطر مدة طويلة ، بحيث يأتي وقت يسهم فيه جميع الحوض في تشكيل الفيضان في آن واحد ، ولكن معظم الفيضانات المفاجئة تنشأ بسبب عاصفة هوجاء قصيرة الأمد ، فمن المعروف ان تأثير العواصف لايتجاوز سوى مساحة محدودة نوعاً ما ، كما ان مدة العاصفة قصيرة نسبياً وذلك تبعاً لشدة العاصفة وقوتها ، فالعاصفة الشديدة التي اجتاحت دمشق يوم ١٩٣٦/٥/١٦ في الساعة الحادية عشرة كانت تسقط ٥ر١٥مم من المطر في الدقيقة ، ولكنها لم تدم سوى ٤٨ دقيقة .

* * *

ويمكن أن نميز بين فترتين يختلف فيها منسوب مياه النهر ، كما تختلف فيها المواد المنقولة في كميتها ونوعها ، وهما فترتا الجفاف والأمطار .

فترة الجفاف : وهي تمتد اكثر من ستة شهور ، خلال فصلي الصيف والخريف ، تنساب الميـــاه في النهر بكميات قليلة فلا يزيد ارتفاعها فيه على ٢٠ — ٣٠ سنتيمتراً . وفي هذه الفترة يضعف عمل الحت بصورة عامة ، وينحصر عمل النهر في نقل المواد الهابطة اليه من جوانبه المجاورة بفعل الجاذبية والانحدار ، كما تقوم مياهه بنحت قاعه وجوانبه ، وخاصة في قسمه الأوسط حيث تساعد شدة الانحدار وغزارة المياه على هذا الحت ، كما يساعد على حمل هـذه المواد وترسيبها في الأماكن التي تقل فيها المياه ويضعف الانحدار .

وتقدر هذه المواد التي تحملها المياه ابان فترة الجفاف بحوالي ٥ر٢ كيلو غرام في المتر المكعب من مواد الطمي . ومع ذلك ، فان النهر لا يشغل جميع مجراه خلال فترة الشح بل يترك جزراً صغيرة بارزة .

فترة الأمطار : وهي الفترة التي تتفق مع فصلي الشتاء والربيع بصورة عامة ، ويرتفع فيها منسوب المياه حتى يتجاوز ضفافه الحجرية في بعض السنوات ، فيغمر الأراضي المنبسطة المجاورة لمسافـــة معينة ، يحددها من الشمال والجنوب جداران صخريان من الدماليك يشكلان « زقاق الصخر الشمالي » و « زقاق الصخر الجنوبي » .

ويمكن أن نميز في فترة الأمطار بين موسمين : موسم الأمطار الهادئة ، وهي التي تسقط في الشتاء ، وتتميز بحدوث حت غير عنيف ، يبدو لنا بتعكير المياه وتغير لونها تغييراً بسيطاً يستمر خلال هذا الفصل كله ؛ وموسم الأمطار العنيفة ، وهو يبدأ في أواخر شباط (فبراير) وأوائل آذار (مارس) تقريباً ، إذ تسقط فيه الأمطار شديدة ومفاجئة ، وعلى فترات متقطعة ، مما يسبب حتاً

عنيفاً ، وبالتالي يؤدي الى حمل كميات كبيرة من المواد المنقولة ، وتلك هي فترة الفيضانات الخطرة ، حيث تصبح المياه طينية لزجة حمراء ، وتبلغ نسبة المواد المنقولة حدها الأقصى ، فلا يقتصر النهر على حمل المواد الناعمة فقط بل يتعداها الى حمل الحصى الصغير والمتوسط الحجم ويذهب بها بعيداً عن اماكنها الأصلية .

وهذه الرواسب التي تتراكم في مجاري الأنهار والأقنية ، يبدأ تنظيفها كل عام بين منتصف آذار (مارس) ومنتصف نيسان (ابريل) حسب حالة الأمطار ؛ فاذا كان شهر آذار (مارس) ممطراً تأخرت عملية التنظيف الى نهاية الأمطار ، ونادراً ما تتأخر أكثر من ذلك ، فالرواسب تكون قد بلغت حداً كبيراً يخشى معه ردم مجرى النهر بعد هذا الوقت (آذار) ؛ وبالاضافة الى ذلك يصبح الطقس حاراً نسبياً بشكل تحتاج معه الأرض للسقاية في اوقاتها، فيكون قطع النهر بعد هذه الفترة المحددة مضراً بالمزروعات ولاسيما الصيفية منها، ولذلك سرعان ما تنظف هذه الأقنية في خلال اسبوعين فقط [١] .

ويجري تنظيف الأنهار وفق خطة منظمة ، فالقناتان الواقعتان على يسار النهر ، واللتان هما اكثر ارتفاعاً من بقية الأقنية تفرغ منذ الأيام الأولى ، فيبدأ الشواة[٢] ، أولا بنهر يزيد الذي يرسل فروعه العديدة الى نهر تورا . وبعد ثلاثة أيام ، وهي المدة اللازمة حتى يجف القسم الاعلى من نهر يزيد ، تتوقف مياه تورا كذلك عن الجريان ، وتحول مياه نهري تورا ويزيد معاً الى نهر بردى عند الربوة وتعرف هذه العملية باسم (فتح الطاقة) حيث تتدفق مياه القناتين من فوهة بشكل شلال ، حاملة معها الكثير من الاسماك ، ولذلك يهرع اليها هواة الصيد مستخدمين شباكهم ، فيحصلون على صيد وفير .

---

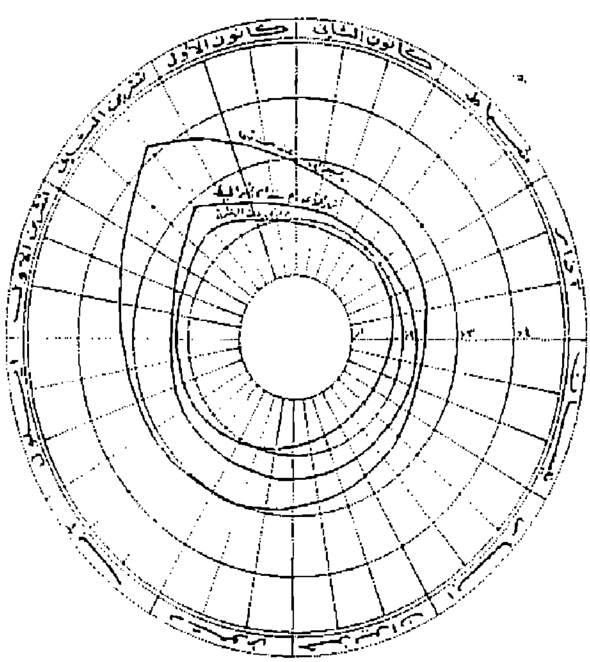
(١) Tresse, op. cit., pp. 483 - 485.

(٢) الشواة جمع شاوي وهو مراقب المياه .

ولكي يجري قطع النهر بصورة تامة وسريعة تستخدم الحواليل ، التي تقوم بمهمة تصريف المياه الى الوادي الرئيسي بالاضافة الى أنها تغسل النهر وتفرغ جزءاً كبيراً من رواسبه ، ولذلك تدعى « بحواليل الغسل » .

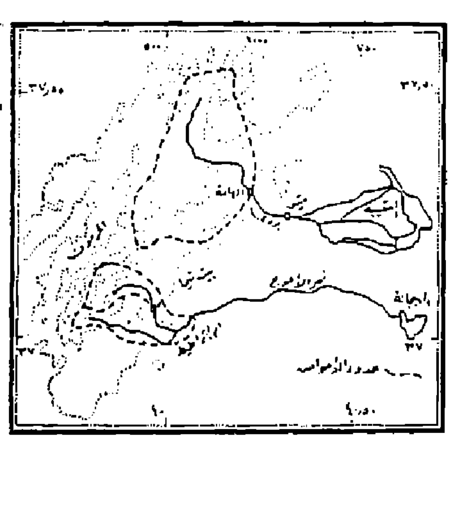
وحينما ينتهي تنظيف هاتين القناتين تعود اليهما المياه ، ويحدث الأمر نفسه بالنسبة لأكثر الأقنية ارتفاعاً على يمين نهر بردى وهما الداراني والمزاوي . اما قناتا المدينة القنوات وبانياس فتجففان في المرحلة الاخيرة ، وكل منهما على حده ، لئلا تترك المدينة كلها دون مياه ، وعندما تجف القناة تأتي فرق من العمال لرفع الطمي واصلاح ضفاف القناة .

شكل (٣٢)



عن فريولي

حالة الاملاح الذائبة في مياه الانهار بمنطقة دمشق



وتجدر الاشارة اخيراً ، الى ان الدراسات الجيوكيميائية قد دلت على وجود علاقة وثيقة بين كمية الاملاح المنحلة ونوعيتها من جهة وكمية الامطار من جهة اخرى . فقد قام فرولو بدراسة التغيرات الفصلية للتركيب الكيميائي ، فدرس ملوحة المياه في نهر بردى (عند الهامة) ، وفي نهر الاعوج (عند بيت تيما) على فرع السيبراني ، وارتباطها بفترات انعدام الجريان ، فلاحظ ان نسبة الأملاح تصل الى الحد الادنى في الربيع ، ثم ترتفع هذه النسبة بعد ذلك مع ارتفاع درجة الحرارة ، وتصل الى حدها الاقصى في اوائل موسم الامطار (٢٠ تشرين الثاني – نوفمبر) ومع ذلك تعتبر الملوحة في بردى قليلة ، ولكنها ترتفع قليلاً في السيبراني [1] (شكل ٣٢) .

---

(١) Frolow, M. V. Régimes des sels dessous dans les eaux des rivières de la région de Damas, (Comptes Rendus Hebdomadaires des Séances de l'Académie des Sciences), T. 195, Août 1932.

الباب الثاني

النمو العمراني لمدينة دمشق

الفصل الأول – مدينة دمشق منذ نشاتها حتى الفتح العربي الاسلامي

الموقع الجغرافي لمدينة دمشق – الموضع الذي قامت فوقه مدينة دمشق – العهد الآرامي – العهد اليوناني الروماني.

الفصل الثاني – مدينة دمشق منذ العهد الأموي حتى الحكم المصري .

العهد الأموي – العهد العباسي والفاطمي – العهد السلجوقي والأيوبي – العهد المملوكي – العهد العثماني .

الفصل الثالث – مدينة دمشق في العصر الحديث .

الفترة الأولى – الفترة الثانية : الأحياء الشمالية الغربية – الأحياء الجنوبية والجنوبية الغربية – الأحياء الشرقية .

الفصل الأول

مدينة دمشق
منذ نشأتها حتى الفتح العربي الإسلامي

يرى بعض الباحثين أن اسم مدينة دمشق يرجع الى لفظة آرامية بمعناه (مشق) تتقدمها دال النسبة ، وقد وردت في اللغة الهيروغليفية على هذا النحو تقريباً ، ومعناها الأرض المزهرة او الحديقة الغناء . وأطلق الآراميون عليها اسم (درمسق) والسريان (درمسوق) ، وأهل لغة التلمود (درمسقين) . وقال بعض المفسرين ان إرم ذات العماد التي ورد ذكرها في القرآن الكريم هي دمشق بعينها [1] .

وقال ابن الكلبي سميت بدماشق بن قاني بن مالك بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام . وقال غيره سميت بدماشق بن نمرود بن كنعان وهو الذي بناها ، وكان معه ابراهيم ، بعد ان نجى الله تعالى ابراهيم من النار . وقال آخرون : سميت بدمشق بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام [2] .

---

(١) محمد كرد علي - دمشق مدينة السحر والشعر ص ٧

(٢) ياقوت الحموي - معجم البلدان - ص ٤٦٣ - ٤٦٤

وأطلق بعضهم اسم جِلّق بكسر أوله وثانيه وتشديده على مدينة دمشق. ولقبت بالفيحاء (والفيحاء هي الواسعة من الدور والرياض) ، كما سماها بعضهم بجيرون وسماها آخرون بالعذراء .

الموقع الجغرافي لمدينة دمشق :

تقـــع دمشق على خط عرض ٣٠′ ٣٣° شمالاً وطول ١٧′ ٣٦° شرقي غرينتش ، عند مخرج بردى من الخـــانق الذي حفره في الكتلة الجبلية فيما بين الحرمون وجبال لبنان الشرقية ، وعند مدخل الصحراء التي تمتـــد شرقاً حتى الفرات.

ويبدو أن دمشق لم تمارس سوى النشاط الزراعي خلال الفتره الأولى من نشاطها ، إذ كانت غوطتها منطقة زراعية منذ انتشرت معرفة الزراعة بين الناس، وظهرت البيوت الأولى من دمشق واستقر فيها الزراع منـــذ الألف الثالثة قبل الميلاد .

وقد يكون غنى الواحة هو الذي اجتذب اليها أعداداً كبيرة نسبياً من السكان ، غير أن دمشق تدين بالدور الذي لعبته في التاريخ الى موقعها العام أكثر مما تدين الى ثروتها وغناها ، فهي تتحكم في عدد كبير من الطرق الحربية والتجارية في العالم القديم والوسيط ، لانها باب الى صحراء مأهولة ، تقوم من ورائها مكة واليمن وبغداد وفارس والهند ، وتقع عند أفضل مخرج من الصحراء الى البحر عبر الثلمة الواقعة فيما بين الحرمون وجبال لبنان الشرقية ثم عبر البقاع وجبال لبنان الشرقيـــة ، كما انها كانت صلة الوصل بين مهدي الحضارة القديمة في مصر وما بين النهرين .

والواقع ، ان دمشق لم تكن تستطيع البقاء والاستمرار لو كانت في

عزلة عما يجاورها ، ومع ان المبادلات التجارية قد وصلت الى حدها الأدنى وقتئذ، بسبب انتاج كل قرية كل ما تحتاج اليه ، فان التجارة المحلية التي كانت تقوم بين القرى المتجاورة قد أتاحت للناس إشباع الكثير من حاجاتهم ورغباتهم .

ولم تكن هذه الحاجة هي الدافع الوحيد لتلك الحركة التجارية ، فالموقع الجغرافي نفسه قد فرض على مدينـــة دمشق إقامة صلات دائمة مع المناطق المجاورة :

فمن جهة الشرق ، لاتقوم أية عقبات واضحة ، فالقبـــائل البدوية قد عاشت على اتصال مباشر ودائم مع أهل الحضر في حوض بردى ، ومعنى ذلك انه كانت لهم تجارة وغزو وعلاقات سلم وحرب معها .

وفي الجنوب ، لاتشكل مرتفعات الكسوة عائقاً للمواصلات مع حوران ، فرعاة الحماد وزراع النقرة يصلون الى دمشق بسهولة ، ليبيعوا ماينتجون وليأخذوا من الغوطة مايلزمهم من أخشاب وثمار وأقمشة .

ولم تكن دمشق لتجذب اليها اولئك الذين يأتون من الشرق أو الجنوب فقط ، انما كان القادم من الشمال ايضاً يجد نفسه منقاداً الى هذه المنطقة بين احدى سلاسل القلمون ، فلم تقف السلاسل الجبلية في الشمال حائلاً دون اتصال هـــذه المنطقة بما وراء هذه المرتفعات ، فسلاسل القلمون تنفتح على شكل مروحـة نحو الشمال الشرقي ، ولكنها تتقارب وتضيق نحـــو الجنوب الغربي ، فبالقرب من القطيفة يمكن المرور من سلسلة القلمون الثانية الى سلسلة القلمون الاولى بسهولة ، كما ان الممر الواقع في اسفل جبل ابي العنا يساعد على اجتياز السلسلة الأخيرة من جبال القلمون .

أمـــا وادي منين وعتبة قطنا الواقعة عند اسفل منحدرات الحرمون

الشمالية ، فهما ميدان السبيل للانتقال بين هذه المنطقة السهلية والهضاب المجاورة[١].

ويكتسب وادي بردى أهميته كطريق الوصول الى دمشق بالنسبة للقادمين من الغرب ، ويسهم معه وادي سرغايا في تشكيل سلسلة من الممرات ، تساعد على اختراق هذه المجموعة الجبلية (جبال لبنان الشرقية وجبال القلمون) ، وفضلاً عن ذلك فان هذه الممرات الجبلية تنفتح في سهل البقاع مواجهة لظهر البيدر الذي يمثل الممر الرئيسي في جبال لبنان الغربية .

وهكذا ، فان دمشق عدا انها مركز للانتاج الزراعي ، ومكان المبادلات بين البدو والحضر ، فهي نقطة اتصال بين الطرق الصحراوية والممرات الجبلية . ولقد كان من الصعب على هذه المنطقة التي لم تكن تعرف سوى الحياة الريفية ان تأخذ الدور الذي كان يفرضه مثل هذا الموقع ، فالنشاط الزراعي والموقع الاستراتيجي وتباين الظروف الطبيعية المجاورة قد استدعى قيام المبادلات التجارية بين اقاليم ذات موارد مختلفة ، كما يفسر العلاقة بين القلعة والسوق التي نشهدها في نشأة أغلب مدن سوريا الداخلية .

وهذه الأسباب نفسها ، تجذب التجار للعمل والاقامة فيها ، كما تغري الطامعين للمناداة بأنفسهم ملوكاً ورؤساء عليها ، وهذه العوامل كلها تتضافر لتهب الموقع شهرته وازدهاره . إلا أن دمشق لم تستمد مكانتها وأهميتها من اطارها الطبيعي فقط ، ولم تكن دمشق يوماً كسوق أو قلعة أو ممر إلزامي بمعنى الكلمة ، إنما جمعت بين هذه الأمور كلها ، وأعطتها طابعها الذي يتسق مع موقعها الجغرافي[٢].

---

(١) Thoumin, (1936), op. cit., p.237.

(٢) Ibid, p. 238.

اذا صرفنا النظر عن بعض الحالات الشاذة ، نجد أن القرب من النبع يحدد مكان التجمع البشري الى الشرق من جبال لبنان الشرقية ، كما أن مساحة الأرض المروية تحدد عادة أهمية هذا الموضع . واذا كان المصدر المائي يتحكم في اختيار الموضع فحسب ، فان غزارة مياهه تؤثر في نمو المركز البشري الذي يقوم بجواره . ونهر بردى لم يكن سبب نشأة الكثير من القرى فحسب ، انما كان يسمح بقيام مجموعة بشرية كبيرة نسبياً تشكل مدينة هامة بالقرب من مجراه .. كمدينة دمشق .

ولاشك في أن امكانية الاستيطان البشري في حوض بردى قديمة جداً ، وتاريخ الزراعة في هذه المنطقة يرجع الى ما قبل التاريخ ، فجميع الفصائل المحلية من حيوانات الغوطة ونباتاتها تدل على تطورها القديم في هذه المنطقة [١].

ودمشق ، لم تكن في أول عهدها سوى قرية صغيرة ، ولكنها كانت قرية تنعم بنصيب وافر من الثراء والرخاء ، حينما ظهرت المراكز الحضرية الأخرى في حوض بردى ، وكانت اكبرها لا تضم اكثر من بضعة مساكن أو عدة أكواخ . إلا انه لايمكننا أن نؤكد أقدمية دمشق ، وإن كانت محتملة جداً ، ولو صحت هذه الفرضية فانها تهب هذا الموضع ميزة هامة ، اذ أن وجودها قبل غيرها في هذه المنطقة يجذب المواطنين اليها للتجارة ، ولايخفى أن النشاط الاقتصادي يجر اليه النشاط السياسي ، وبالتالي الى قيام مركز مدني .

ويمكن أن نؤكد أن نهر بردى قد فرض موضع هذه القرية ، فأعمال السقاية في الماضي ، كانت تقتصر على أرض الوادي دون السهل ، والزراعة تنتشر

(١) Van Liere, W. J., The soil associations of the basin of Damascus and surroundings. Report 1953, p. 26.

على طول شريط من الأراضي التي كانت تروى من فتحات تتوزع على الضفاف ؛ ومن هذا يتبين أن المكان المناسب لقيام مركز بشري ، لا بد أن يكون قريباً من هذا النهر .

ويتضح من دراسة مواضع القرى في الغوطة ، انها تتوزع في منطقتين متميزتين تفصلها منطقة الزور . ولا شك في أن هذه المنطقة المنخفضة التي تغمرها المياه في جزء من السنة ، منذ أربعة آلاف سنة ، قلما يحتمل تعميرها بالسكان اكثر مما هي عليه في الوقت الحاضر ، بل ان القيام بجولة على طول نهر بردى ، تدفع الى تمثل منطقة الزور وكأنها لم تكن في السابق سوى مستنقع واسع ، يعتبر مقدمة لمستنقعات العتيبة ، فقبل شق الأقنية المتفرعة عن نهر بردى ، كانت جميع المياه التي تخرج من خوانق الربوة تمر في المجرى الرئيسي للنهر ، وكان النهر يفيض خلال فصل الربيع ، كما هي حاله اليوم ؛ ففي فصل الأمطار تغمر الأراضي المنخفضة بالمياه ، واذا ما عاد النهر الى مجراه في شهر حزيران (يونيه) يخلف وراءه مستنقعاً من المياه الراكدة ونسبة كبيرة من الرطوبة يؤكدان عدم صلاحية منطقة الزور من الناحية الصحية [١] ، كما يلاحظ أن القرى القريبة من منطقة الزور تقع بعيدة جداً عن نهر بردى ، لأنها أسبق من فروع بردى في نشأتها ، ولذلك ينبغي البحث في القسم الأعلى من مجرى النهر .

وفي هذه المنطقة ، تتحدد أرض الوادي المنبسطة بمنحدرين يتراوح عرض كل منهما بين ١٥٠ – ٣٠٠ متر ، يتألف المنحدر الشمالي منهما من مصطبة متموجة نوعاً ما ، ترتفع تدريجياً نحو سفوح قاسيون ، أما المنحدر الجنوبي فهو يرتفع على شكل تل يمتد بمحاذاة النهر ، يتصل بجبل المزة من جهة ، ويتصل بالسهل الممتد الى جنوبه بمنحدرات واضحة من جهة اخرى .

---

(١) Thoumin. (1936). Op. cit., p. 239 .

وهذا الوادي يمكن زراعته بسهولة ، دون الحاجة الى اعمال ري واسعة ، ويحاذي هـذا الوادي من الجنوب تل يشرف عليه من ارتفاع يتراوح بين ١٥ – ٢٠ متراً ، وهو الموضع المألوف في جميع انحاء القاموس ، يختاره الحضر عادة في نقطة قريبة من المياه لتأمين حاجاتهم المنزلية ، وبالقرب من منطقة صالحة لأعمال الري والزراعة ، ولكنها خارج هذه المنطقة الخصبة لئـلا تنقص من مساحتها ، لاسيما وان ارض الوادي وخاصة منطقة الزور منه ، تلازمها ظروف غير ملائمة لاقامة الحضر فيها .

ويرجع اختيار الناس للمنحدر الواقع الى الجنوب من نهر بردى لسبب اقتصادي بدون شك ، ففي الشمال من بردى ، تؤلف المصطبة سهلا يمكن ارواؤه بسهولة ، وان كانت تربته –كما تبدو- مناسبة لزراعة الحبوب أكثر من أي محصول آخر . أما في الجنوب فان التل الذي يمتد على طول نهر بردى ، تظهر صخوره في اغلب الأحيان ، وتستمر على هذا النحو في جزء من المنحدرات التي تتمم هذا التل الى جهة الجنوب .

هذا المكان الذي اختاره الانسان موضعاً لأول تجمع بشري في حوض بردى ، يحتمل جداً أن يكون حيث نشأت دمشق نشأتها الاولى ؛ الا ان الشروط الجغرافية لم تحدد مكاناً معيناً لها ، فالمدينة القديمة يمكن أن تنشأ في مكان ابعد الى الغرب بحوالي ٥٠٠ – ١٠٠٠ متر ، غير ان دراسة المدينة القديمة – التي تتفق حدودها الشرقية مع النهاية الشرقية للتل الواقع الى الجنوب من النهر وعند نقطة اتصاله بالسهل – تثبت ان المنطقة المحصورة بين القلعة الحالية وحائط الباب الشرقي تجمع افضل الشروط اللازمة لنشأة المدينة .

ويضم هذا التل الذي تتفق حدوده مع حدود المدينة القديمة [1] ، أربعة

---

(١) يقصد بالمدينة القديمة ، الاقسام الموجودة منها داخل السور .

تلال صغيرة : الاول في الحي المسيحي ، ويقــــع الى الغرب من مدرسة الروم الكاثوليك للبنات ، ويعرف باسم « سفل التلة » ، والثاني في الجنوب الشرقي من الجامع الاموي ، والثالث في القسم الشمالي من حي الشاغور ، والرابع في حي اليهود (شكل ٧) . وهذه التلال الاصطناعية يتراوح ارتفاعها بين ١٠ – ٢٠ متراً ، وهي تذكرنا بالمواضع الآرامية التي تنتظم على طول المجاري المائية في الجزيرة العليا ، او تلك التي تظهر على التلال المنتشرة الى الجنوب من كراتشوك.

وفي حالة صحة هذه الفرضية ، ينبغي علينا البحث في أكثر هذه التلال قدماً ، وهو التل القريب من الجامع الاموي ، الواقع على مسافة تقل عن ٥٠٠ متر من نهر بردى ، اذ تتوفر في هذا الموضع افضل الشروط لأقدمية هذه المدينة ، أكثر من أي موضع آخر في منطقة الغوطة ، فهو يساعد على التوسع الزراعي الذي يحقق الازدهار والرخاء ، هذه العوامل كلها تؤهل هـــذا الموضع للمركز السياسي [١] .

وقد تحملت السلطة السياسية التي قامت في الغوطة مهمة الحماية واعمال الادارة بالنسبة للري . ومع ان المدينة المحصنة تقوم عادة بجوار المنطقة التي تحميها، فان دمشق لا تبدو على هذه الصورة مطلقا ، فــبّد المدينة يدافع عن الواحة رغم افتقاره الى أي موقع يمكنه من العمل بصورة جيــدة ، كما ان الحصن المنيع في المدينة لن يستطيع فرض سلطته على القبائل البدوية مطلقاً ، فالسهوب الواسعة تساعد الغزاة على المرور بعيداً عن مركز الحراسة والمراقبة ، والابراج والأسوار لا تحمي سوى الاراضي القريبة منها . فمن أجل حماية الغوطة ، تقوم المدينـــة بتجهيز قوات لا تهتم بعددها بقدر اهتمامها بسرعتها ، لتكون قادرة على مباشرة المعركة في الصحراء .

---

(١) Sauvaget, J.. (1934) . Op. cit.. P.429

وهناك وسيلتان ، تستخدمها المدينة عادة لتوفير هذه الحماية ، تتلخص الأولى باعداد خيّالة لمقاتلة الغزاة ، كما تتطلب مخافر أمامية تنتشر على شكل قوس دائري يطوق الغوطة فيما وراء مستنقعات العتيبة ، على طول ٦٠ كيلومتراً تقريباً ، الا ان تحقيق ذلك يتطلب قيادة واعية وتنظيماً دقيقاً .

أما الوسيلة الثانية ، فتقوم على تحقيق الالفة مع القبائل التي تعيش بجوار هذه المنطقة المروية ، وهذا التآلف لا يمكن تحقيقه الا عن طريق الخدمات المتبادلة ، اذ ينبغي أن يجد البدو في هذا التعايش السلمي منافع مساوية للمنافع التي يجنونها في حالة الخصومة على الأقل ، او ما يدفعه الفلاحون من أتاوات الى القبائل لتأمين السلم وتوفير الحماية .

وبعبارة اخرى ، عندما تكون السلطة السياسية قادرة على القيام بدورها ، متمكنة من قدرتها تهدد القبائل البدوية بمقابلة الشر بمثله لتحقيق السلم ، وعندما تكون هذه السلطة السياسية غير قادرة على القيام بمهمتها ، تسعى كل قرية لحماية نفسها بالاتفاق مع البدو انفسهم ، وتدفع اليهم الاتاوة ثمناً لذلك .

ومثل هذه الوظيفة ، تتطلب ان يكون المركز السياسي بعيداً عن السهوب ، حتى يكون بمنجى من غزوات البدو ، ويحصل على فرص أكثر للنجاح في المفاوضات ، فيدعو شيوخ القبائل الى مركز هذه المنطقة الغنية ، بين هذه الزراعات المروية ، فيعجبون بالريف اعجابهم بالمدينة التي يتركز فيها النشاط التجاري ، مما يتيح لسيد المدينة السياسي الحصول على نتائج افضل في مفاوضاته مع هؤلاء الرعاة .

ولا يقوم المركز السياسي بدور الحماية فحسب ، انما يقوم بدور توزيع المياه على منطقة تبلغ مئات الهكتارات ، هذا بالاضافة الى صيانة هذه الشبكة وتوسيعها . إلا ان هذا النظام الاداري والعسكري ، لم يكن من السهل مدّه الى الأطراف الشرقية من الواحة كلما تقدم الحضر فوق

السهوب والمستنقعات ، فلا بد من اختيار الموضع الذي يمكن توجيه اعمال الري منه ، دون أن يكون عرضة للوقوع تحت رحمة هذا الري ، وهذا يعني انه ينبغي أن تقوم السلطة السياسية بالقرب من بردى غير بعيدة عن خوانقه [١] .

ونخلص من هذا ، ان الموضع الذي نشأت فيه دمشق ، اكثر قدماً وأهمية من جميع المراكز البشرية الأخرى في الغوطة ، وفي هذا الموضع تركز النشاط التجاري للبلاد ، وهذا بدوره يجتذب الأفضل من كل شيء ، ولا سيما السيد السياسي ، وذلك بسبب الوضع الطبوغرافي والنشاط الاقتصادي والسياسي ، وكل ذلك يجعل من هذه القرية – القائمة على التل الجنوبي من نهر بردى – مدينة هامة .

العهد الآرامي : [٢]

يتضح من دراسة النصوص المصرية والآشورية ان مدينة دمشق كانت مركزاً اقتصادياً وسياسياً ، ترجع أهميته – دون شك – الى خصب الواحة المحيطة به . ومن الطبيعي ان هذه الخصوبة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالري ، فالري وحده يضمن استمرار الزراعة في هذه المنطقة التي يمتد فيها فصل الجفاف من ٨ – ٩ أشهر في السنة . وهذا يحملنا على الاعتقاد بان فروع النهر الرئيسية ، او بعضاً منها ، كانت موجودة منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد تقريباً .

واذا امعنا النظر في نظام الري المعقد وما يتطلبه من خبرة واسعة بشؤون المياه ، على الرغم من ضعف الوسائل المستخدمة في تلك العصور ، ندرك بأن

(١) Thoumin, (1936) op. cit., P. 239.

(٢) اعتمدت في دراسة النمو العمراني لمدينة دمشق منذ العهد الارامي حتى مطلع العصر الحديث ، على مقالة المستشرق الفرنسي جان سوفاجيه :

« Esquisse d' une histoire de la ville de Damas »

قروناً عديدة قد مرت بهذه المنطقة قبل أن يصل الانسان الى هـذه الدرجة من العلم ومعرفة الوسائل الضرورية لتفريغ مياه النهر . كما أن المبادلات التجارية التي كانت في أول الأمر مقتصرة على المنتجات المحلية ما لبثت ان اتسعت شيئاً فشيئاً نحو الغرب باتجاه البحر ، ونحو الشرق باتجاه المدن الداخلية للقارة الآسيوية .

وقد استمر هذا التطور الاقتصادي حتى أواخر الألف الثانية قبل الميلاد حين دخلت دمشق حلبة التاريخ ، واصبحت مدينة معروفة في الشرق الأدنى كله بغناها ونشاطها الاقتصادي . ويمكن رسم الخطوط الأساسية لهذا التطور بالاستناد الى خصائص المدينة الرئيسية في القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، والتي كانت معروفة في هذا القرن معرفة تاريخية واضحة بفضل النصوص الواردة في العهد القديم (١).

كانت دمشق وقتئذ عاصمـــة المملكة الآرامية ، اهم دولة في سوريا ، وأكثرها منعة وقوة ، تفرض سيطرتها على مملكة اسرائيل المجاورة في أكثر الأحيان ، بل إنها كانت تقاوم دولة الآشوريين نفسها وتنتصر عليها أحيانا . وقد اقترنت هذه السطوة السياسية بالازدهار التجاري فاتصلت بفينيقيا وبلاد الجليل ، وصدرت اليها القمح والخمر ، كما كانت فوق ذلك ، مركزاً دينياً يتمتع معبدها بنفوذ واسع لم يفقده إلا في أواخر عهود الوثنية .

وقد تمكن سوفاجيـه من اعطاء صورة واضحة لهذه المدينة الآرامية في صفاتها الرئيسية على الأقل ، رغم افتقاره الى الكثير من الوثائق الأساسية (٢). وفي الصفحات التالية عرض لمعـــالم هذه الصورة ، كما رسمها المستشرق الفرنسي المذكور ، وأضاف اليها بعض الخبراء في شؤون الآثار والمشتغلين بها .

---

(١) Sauvaget (1934) , op . cit . , pp . 430 — 431 .

(٢) Ibid . , pp . 431 — 432 .

تتألف النواة الأصلية لمدينة دمشق الآرامية من تل يقع في قلب المدينة القديمة ، يشرف على الأراضي المجاورة من ارتفاع يتراوح بين ٥ – ٦ أمتار . ولما كان من المستبعد وجود مثل هذا التل الطبيعي ، كان علينا ان نبحث عن تل من تلك التلال التي تشكلت من آثار الأبنية القديمة المتهدمة ، قرنا بعد قرن ، ومايقام عليها من أبنية حديثة ترتفع على انقاض الأبنية القديمة .

ومن العسير تقدير حجم هذا التل الاصلي بعد ان تضخم مع مرور الزمن بسبب ارتفاع مستوى الأرض المستمر ، حتى أن أرض القرن الثالث قبل الميلاد تقع على ثلاثة او اربعة امتار تحت المستوى الحالي . ومن لمرجح ان يكون في هذا التل موقع قلعة المدينة الأولية وموقع قصر ملوك دمشق ؛ يؤيد هذه الفرضية بعض التأييد ، ذلك الاسم التقليدي الذي عرفت به هذه الناحية من المدينة ، زمن الفتح العربي ، وهو اسم « البريص » الذي يعود الى أصل يوناني – آرامي ومعناه القلعة .

أما موقع المعبد الارامي القديم ، حيث يعبد الإله السوري الكبير « حَدَدَ » إله المطر والرعد ، فهو يقابل دون شك موقع المعبد الكبير الذي بني في العهد الروماني لعبادة « جوبيتر » الذي ادمج بالإله « حدد » ، ونستدل على ذلك من منطقة « الحَرَم » التي تحيط بالمعبد المقدس عادة وتجعله ثابت الموقع والتخطيط .

وقد تأكد موضع هذا المعبد الارامي إثر اكتشاف حجر بازلتي عام ١٩٤٩ في الجهة الشرقية من أساسات الجدار الشمالي للجامع الأموي ، يمثل صورة أبي الهول ، ويعتقد انه قد وُضع ليزين معبد حدد في عصر حزائيل ملك دمشق[١].

---

(١) بشير زهدي . مملكة دمشق الآرامية – مجلة الحوليات الاثرية – المجلد الثامن والتاسع – ١٩٥٨ – ١٩٥٩ ، ص ٩٨.

واذا استطعنا تحديد موقع المعبد والتل (ويلحق به القصر) اللذين يمثلان المركزين الرئيسيين للمجتمع الحضري الذي نشأ حولها ، الا أنه لا يمكننا تقدير مساحة المدينة وتخطيط السور الحصن الذي كان يحيط بها وفقاً للعادة المعهودة في ذلك العصر ، وتفيد النصوص الآشورية أن دمشق قد صمدت أمام الفاتح الآشوري وقد يكون الفضل في ذلك يعود الى مناعة أسوارها وإحكام أبوابها التي لم يبق منها أي أثر يساعدنا على معرفة تخطيطها وتحديد ابعادها .

أما مظهر المدينة آنذاك فهو شبيه بمظهر القرى القريبة من المدينة في الوقت الحاضر ، وعلى غرار كل المراكز الحضرية التي تفتقر الى التنظيم والتنسيق ، كان بناء البيوت وفتح الطرقات لا يعرف قواعد الا تلك التي تفرضها طبيعة الأرض وحدود الملكية الخاصة وأهواء الافراد ، فلا اهتمام بمظهر المدينة ، ولا بما يجب ان تتصف به من فن وجمال ، وأين هذه الاعتبارات من بنّائي ذلك العصر ، وطراز البناء العادي يصرفهم عنها ، ولا مادة لهم الا الطين يستخدمونه تارة دكاً وطوراً لبناً ، يملؤون بها خلايا هيكل يصنعونه من الخشب ، من جذوع الحور الذي يأتون به من الوادي ، وهي طريقة بسيطة في البناء ، قليلة النفقات ، لا تتطلب إلا المواد المتوفرة بين أيديهم ، وتبدو هذه المباني للناظر على شكل مكعبات مطموسة الجدران ، مطلية بمزيج من الطين والتبن .

أما المباني الكبيرة ، فقد كانت ، غالباً ، مبنية على الطرق التقليدية التي نراها في المباني الخاصة . ولكن هذه الاساليب الابتدائية في البناء لا تنفي وجود بعض الزخرفة التي كانت تستخدم في تزيين داخل المباني . تشهد به آثار الذهب الباقية على بعض اللوحات العاجية التي كانت تشكل قسماً من سرير حزائيل ملك دمشق او عرشه الملكي ، كما كان في المعبد مذبح على شيء من الجمال ، حتى أن أحاز ، ملك يهوذا ، أخذ شبهاً عنه ليوضع في معبد أورشليم .

وقد منحت الطبيعة دمشق أخصب الاراضي وأجملها ، فانصرف المواطنون فيها الى اتمام عمل الطبيعة حتى جعلوا بساتينها الغناء وغوطتها المثمرة موضع فخرهم وسبب زهوهم ، كما تدلنا على ذلك كتابات تغلات فلاسر الثالث الذي خرب غوطتها المثمرة ، ولم يترك شجرة من أشجار بساتينها [1].

ويمكن أن نرسم صورة واضحة عن توزيع المياه في ذلك العهد استناداً الى حادثة « نعمان الابرص » التي وردت في الفصل الخامس من سفر الملوك الرابع ، حيث ذكر فيها « نهري دمشق : أبانة وفرفر » ومن المرجح ان ابانة هو « بانياس » احد الاقنية التي لاتزال الى يومنا هذا ، تزود قسما من المدينة القديمة بالمياه ، يؤيد ذلك ان اسمه العربي القديم « باناس » يتفق مع الاسم اليوناني « اباناس » المنقول عن الاسم الوارد في سفر الملوك . وتبدو هذه القناة اقصر من جميع الاقنية المتفرعة عن نهر بردى واسهلها حفراً . وهذا مما يرجح قدمها ، بالاضافة الى ان القناة المذكورة تمد المعبد والمدينة الاصلية بالمياه .

أما فرفر فمن المعتقد انه النهر الاصلي نفسه ، وقد عرف بهذا الاسم لفورانه وسرعة جريانه ، ففي الاسم دلالة على حركة تشبه حركة جناحي الطائر او فرفرة الفراشة ، وليس من شك كذلك في ان القناة التي ظلت تحمل الاسم الآرامي « نهر ثورا » ، كانت تمتد إذ ذاك في كنف الجبل ، وهي اعظم الاقنية اهمية في ازدهار الغوطة الزراعي ، تأخذ $\frac{10}{24}$ قيراطاً من مياه بردى لتروي اكثر من ٦٠٠ هكتار .

وقد شهدت مملكة دمشق الآرامية رقياً في بعض الصناعات الهامة ، كالمعاصر لاستخراج الزيوت وصنع الخمور ، كما راجت صناعة غزل الخيوط

---

(١) – فيليب حتي – تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين – ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق – الجزء الاول – المطبعة الثانية – ١٩٥٧ – ص ١٨١ .

ونسجها [1] كالاقمشة التي حصل عليها الملك الآشوري ، اداد نيراري الثالث غنيمة من أحد ملوك دمشق برحدد الثالث ، هذا بالاضافة الى صناعة الادوات الزراعية كالمحاريث [2] والاسلحة الحربية كالعربات والاقواس والسهام وغيرها [3] من الاسلحة التي حققت لمملكة دمشق تفوقاً حربياً رائعاً طيلة قرنين .

ولا شك ان موقع دمشق على عتبة البادية ،قد جعلها بمثابة مرفأالصحراء، ومحطة للقوافل الآتية والعائدة من الشمال الى الجنوب ، ومن عواصم التجارة في الساحل الى بلاد آشور في الداخل ، بما حصر النقل البري بايدي تجار مملكة دمشق الآراميين ، كما احتكر التجار الفينيقيون حركة النقل البحري [4] فكان على الآراميين تأمين سلامة طرق المواصلات البرية وايجاداسواق تجارية لهم في السامرة وغيرها ، بما يساعدهم على تحقيق قوتهم الحربية التي تدين للازدهار الاقتصادي .

* * *

هذه هي صورة دمشق الآرامية ، ومهما تتصف به هذه المعلومات من غموض ومهما تستند اليه من فرضيات ، فانها كافية لترشدنا الى معرفة سبب وجود المدينة ، والى اتجاه تطورها خلال آلاف السنين السابقة ، تلك المدة التي تفتقر فيها الى النصوص القديمة .

ويمكننا ان نحدد موضع المدينة ، ذلك الموضع الذي دلّ عليه مركزه الاصلي ، أي التل والمعبد ، والذي كان قائماً على ضفة النهر اليمنى ، لا في الوادي

(١) Dupont - Sommaire , les araméens , 1949 . P. 53 .

(٢) فيليب حتي – ص ٩٢ .

(٣) المصدر السابق – ص ١٧٩ .

(٤) المصدر السابق – ص ١٨١ .

نفسه ، بل على مرتفع مشرف على قاع الوادي ، وهو لا يكاد يختلف عن مواضع القرى في المناطق الزراعية المروية ، فان كل بقعة من الارض قابلة للري في تلك المناطق ، مهما صغرت مساحتها ، لأثمن من أن تشغل بغير الزراعة ،ولهذا يمكن القول أنه وجدت في هذا المكان قرية كانت تعيش من حبوب السهل ومحاصيل الخضر المزروعة في قاع الوادي المروية بمياه النهر على أساليب بدائية بسيطة .

ونتساءل بعد ذلك عن نمو هذه القرية الزراعية الصغيرة وتطورها الى مركز حضري ، بل عاصمة قادرة على صد هجمات الآشوريين ؟ لعل ذلك نتيجة الفتح الآرامي ، وقد يؤيد ذاك أن هؤلاء الآراميين اتوا من بلاد مابين النهرين ، وهي بلاد ذات حضارة زراعية عريقة ، وشهرة بأساليب الري واسعة ، فأخذوا يهدون ضفتي النهر لتوسيع المنطقة المروية باتجاه الصحراء ، فدفعوا حدودها شيئاً فشيئاً أمام الاراضي المزروعة .

ويمكننا أن نلتمس مايؤيد هذا الرأي في اسم المدينة نفسه ، ففي حين اننا نرى قرى الواحة جميعها تسمى بالاسماء الآرامية ككفر بطنا وعقربا وغيرهما يظهر اسم المدينة وحدة « دمشق » غريباً عن اللغات السامية ، فلا يمكن فهمه بالاستناد الى أي منها ، ثم انها البلدة الوحيدة في هذه المنطقة ، التي تظهر قائمة على النهر نفسه ، لا على قناة متفرعة عنه ،هذا المظهر الغريب المزدوج ، في اسم المدينة وفي مركزها ، يدفعنا الى الاعتقاد أن لدمشق نشأة مختلفة عن نشأة سائر القرى القائمة في تلك المنطقة .

وقد استفادت دمشق مما اتى به المهاجرون من طرق التحسين في استغلال البقعة المجاورة ، فازهرت حتى اصبحت سوق الواحة كلها ، وسوق البدو الرحل ايضاً . فهي مركز المبادلة بين سكان الحضر المجاورين والبدو في السهوب ، والقوافل الآتية من تدمر وما بين النهرين . وقد تابعت ازدهارها شيئاً فشيئاً كلها

اتسعت الأراضي المزروعة حول النهر ، وها هي تبدو مدينة متوسطة تحيط بها الضواحي الزراعية ، فعاصمة اقتصادية وسياسية للمنطقة كلها ، حتى تظهر « رأس بلاد آرام » .

بعد ذلك ، يستولي الاخيمينيون على سورية ويضمونهـا الى بلادهم ، وينتهي الفصل الأول من تاريخ دمشق ، وتظهر عوامل ثقافية جديدة ، تؤثر فيها سريعاً فتجعل تطورها في اتجاه جديد،على انها تظل دائماً على ماظهرت عليه في هذا العصر ، أي أعظم مجتمع حضري في سوريا الوسطى محتفظة بكل الصفات التي التي ستزداد وضوحاً في القرون التالية ألا وهي : كون دمشق مركز الحكومة وميداناً اقتصادياً ، ومقاماً لمعبد كبير .

العهد اليوناني ـ الروماني:

كانت موقعة ايسوس في عام ٣٣٣ ق.م. موقعة فاصلة في تطور دمشق، فقد أُلحقت المدينة بامبراطورية الاسكندر واتصلت المدينة إذ ذاك اتصالاً وثيقاً بالثقافة اليونانية . ومع أن دمشق أصبحت مدينة يونانية ، فقد أدارت ظهرها الى الغرب واتجهت نحو الصحراء ، وتخلت عن دورها الطبيعي الى مدينة انطاكية التي استعادت دور العاصمة وتفوقت على دمشق طيلة العهد اليوناني والروماني .

وبعد وفاة الاسكندر ، أفضى أمر دمشق الى السلوقيين ، بعد نزاع مرير مع حكام مصر من البطالسة ، وظلت في أيديهم حتى انتزعها الامبراطور بومبيي من ورثة انطيوخوس وأعلن ضمها الى الامبراطورية الرومانيـــة في سنة ٦٤ ق.م ، فالتحقت بالغرب [١] سياسة وثقافة حتى الفتح العربي الاسلامي سنة

(١) التحقت سوريا بروما ثم ببيزنطة عقب انقسام الامبراطورية الرومانية الى شرقية وغربية .

٦٣٥ م ، وأصبحت دمشق خلال هذه القرون السبعة ، أقرب الى المدن الأوروبية اتجاهاً واتساقاً بسبب سيادة العناصر الغربية .

مارست دمشق ، خلال القرون الأولى للسيادة المقدونية نشاطاً اقتصاديا محدوداً دون ان يتجاوز المركز الاقتصادي المحلي . إلا ان خلفاء الاسكندر ، من بطالسة وسلوقيين ، قد تطلعوا الى سهول سوريا الواسعة ، فأنزلوا في كل من مدنها الكبيرة حلب وحماه ودمشق جالية يونانية ، كانت غايتهم ان تعدل من تأثير المجتمع الآرامي ، كما كانت تأمل ان تتسع تلك الثقافة اليونانية شيئاً فشيئاً فتبسط نفوذها على ماحولها حتى يأتي يوم يمتزج فيه اليونان والأعاجم في ثقافة واحدة ، وذلك ايمانا منهم بتفوق مدنيتهم على غيرهم من الشعوب الخاضعة لهم ، وضرورة رفعها الى مستوى ثقافتهم (١) .

وفي منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ، أنشأ بطليموس فيلادلف في سوريا الوسطى ، جالية باسم ارسينوي Arsinoé ، كما أسس أحد ملوك السلوقيين جالية اخرى باسم ديمترياس Demetrias في سنة ٩٥ أو ٨٨ ق.م. وأحياناً يجعل بعضهم جالية دمشق ذات علاقة بما أنشأه انطيوخوس التاسع السيزيكي في المدينة نفسها ، على أثر تقسيم سوريا سنة ١١١ ق م .

ويبدو أن اليونانيين النازحين الى دمشق ، كانوا مختلفين تماماً عما كان عليه جماعة الاسكندر ، فان هجرهم الموطن الأصلي ، وزواجهم بالنساء السوريات ، والمناخ الغريب عنهم ، وسهولة العيش ، كل هذا قد أثر فيهم فغيّر خصائصهم الأصلية حتى أصبحوا أشبه بواليد المشرق منهم بواليد الغرب . ولكنهم ظلوا يونانيين بشعورهم وعواطفهم ، محافظين ما امكنهم على لغتهم وآلهتهم وثقافتهم واوضاعهم السياسية ، عاملين في مراكزهم الجديدة على ايجاد نظام خاص يتفق

---

(١) Sauvaget, (1934) , op . cit , 437 - 438 .

ومرافق حياتهم الاجتماعية ، وهـذا ما يظهر في طريقـة البناء وخصوصاً في ذلك العنصر الأساسي لكل مدينة يونانية وهو الساحة العـــامة المعروفة بالأغورا [1] Agora حيث تقام السوق ، ويجتمع المواطنون ، كما يظهر كذلك في ساحـــة الألعاب الرياضية والمسرح (شكل ٢٣) ولهذه الأسباب نرى اليونانيين الطارئين لا ينزلون داخل المدينة الوطنية نفسها .

وإذن، فقد اتسمت دمشق بتلك السمة التي نشهدها كلما اجتمعت ثقافتان مختلفتـا المستوى ومتباينتا الصبغة ، فاضطرتا الى الحياة معاً في المنطقة نفسها ، فأصبحت مدينة مزدوجة . وقد اقامت الجاليات الجديدة الى جانب المدينة القديمة ، في احياء جديدة بنوها ونظموها وفقاً لحاجاتهم وطرق معيشتهم الخاصة، فأسسوا الى شرقي المدينة الآرامية الاصلية المتجمعة حول معبدها ، مدينة يونانية محيطة بساحتها العامة . وقد عاشت المدينتان ، خلال القرون العديدة ، جنباً الى جنب ، ولكنها لم يتفاعلا تفاعلاً عميقاً .

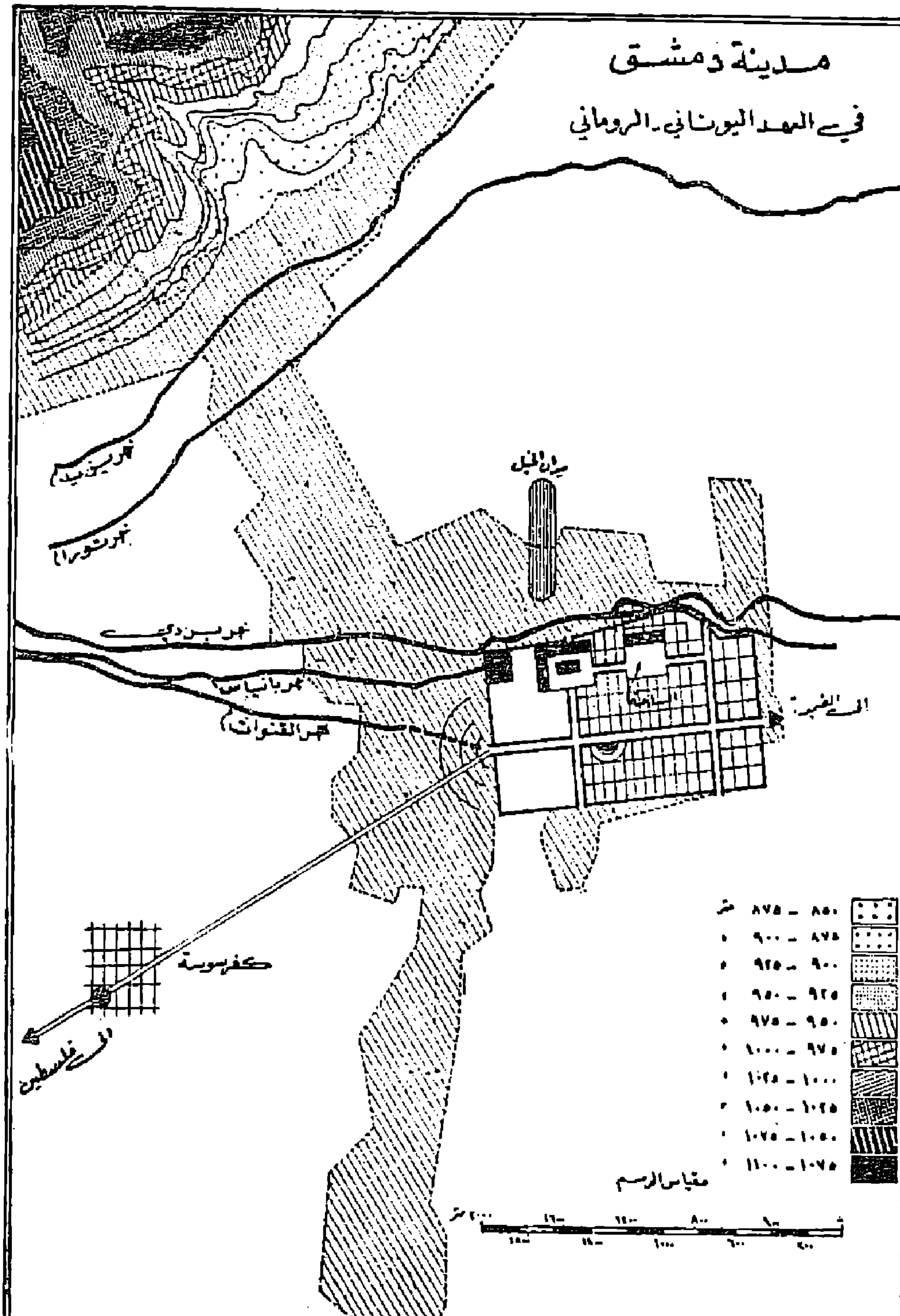
ومما يميز هذه الأحياء الجديدة عن المدينة السامية ، ما يراه الانسان لأول وهلة من تناسق البناء وموافقتـه لتصميم منظم ، فان البيوت التي كانت تتكدس بعضها فوق بعض ، دون ترتيب ، اصبحت تبدو منسقة في احياء مستطيلة ذات مساحات متماثلة ، تخترقها شوارع مستقيمة تتقاطع في زوايا قائمة .

وقد روعي في دمشق ماروعي في سائر المنشآت اليونانية في سوريا، فكان اتساع الشوارع يعادل متوسط الاتساع لبيت السكن ،وبالتالي أصبحت مساحة الحي ١٠٠ متر طولاً و ٤٥ متراً عرضاً على وجه التقريب . وقد حُدد هـذا العرض على طريقـة تمكن من بناء صفين متوازيين من البيوت في الحي الواحد فتتقابل مؤخراتهـا ،

---

(١) مكانها في حي القيمرية .

شكل (٣٣)



عن إيكوشار

ويكون لكل منها اتصال مباشر بالطريق العام . أما عرض الطريق فكان قليلا لا يتجاوز ٣ - ٥ امتار ، ولكنه كان كافياً في عهد لم يكن فيه من وسائل النقل إلا الدواب ، وأضخم مايمكن ان يمر بالشارع جمل يحمل عدلين ، وأما الساحة العامة فاننا نجهل مساحتها ، وان كنا نعرف موضعها (شكل ٣٤) .

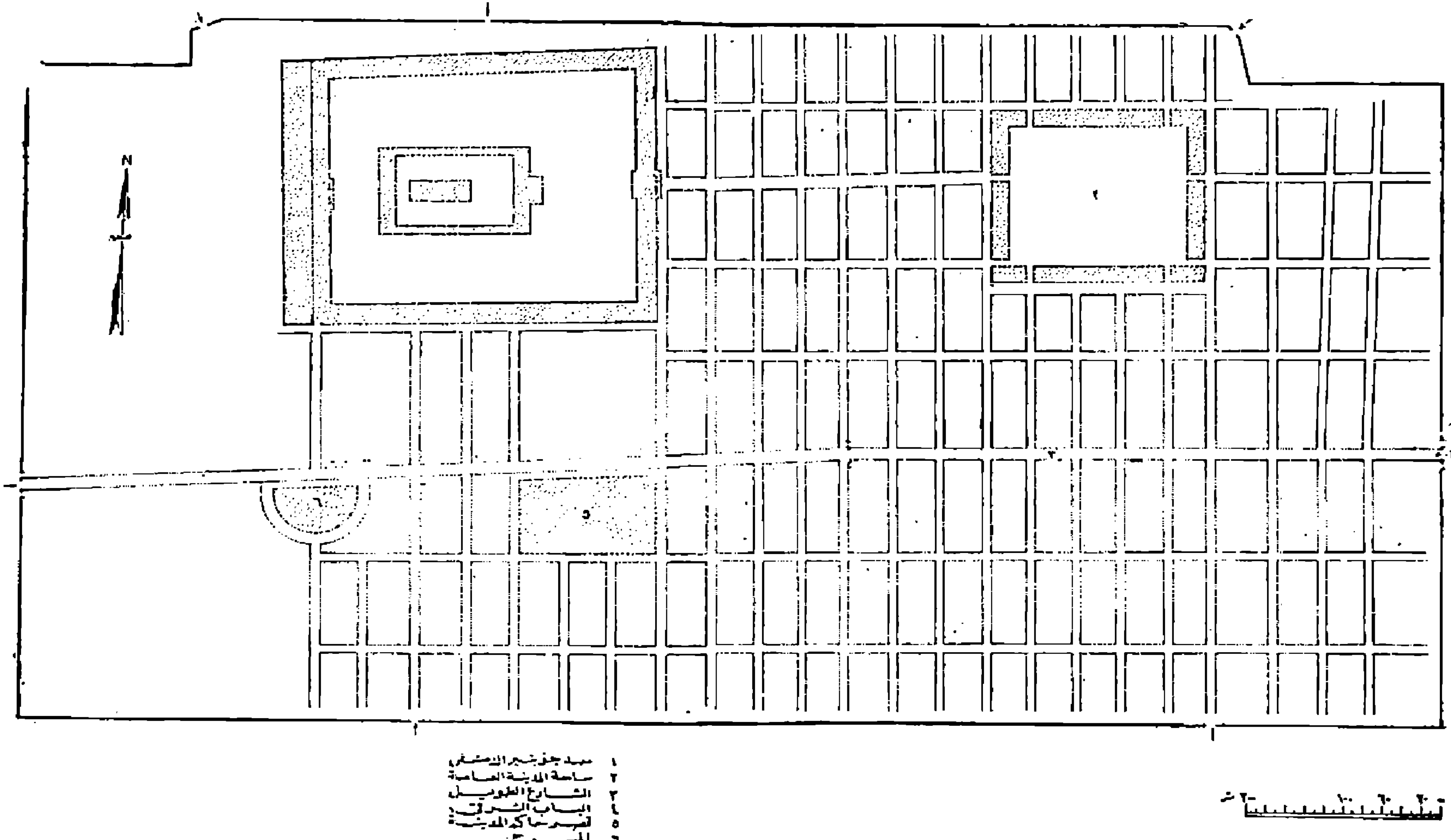
ويستخلص مما تقدم ، ان تخطيط المدينة كان على شكل رقعة الشطرنج، كما هي الحال في اكثر انحاء العالم الهلنستي، وذلك لبساطته وفوائده العملية وملاءمته للاغراض العسكرية التي تتطلب التنظيم السريع والدقة والاستقامة (١) . وليس من شك في ان هذه المستعمرة اليونانية في دمشق ظلت كسائر المستعمرات في سائر المدن ، ذات اهمية ثانوية بالنسبة الى المدينة الاصلية التي التصقت بها ، هذا بالاضافة الى انها كانت اقل عدداً وأضيق رقعة حتى العهد الروماني ، فبدأت تتقدم وتتسع بفضل ازدهار اقتصادي نادر المثال .

ولئن كان اهل دمشق لم يعرفوا طعم السعادة في اكثر ايام الرومان وشقوا بهم في آخر عهدهم خاصة ، اذ كانت روما لاتعد اهلها وطنيين رومانيين بل غرباء ورعايا ، فإنهم قد ذاقوا طعم السلم الذي لم تعرفه البلاد قبل دخول روما اليها . وكان عاملاً بعيد الاثر في الازدهار الذي شهدته المدينة فيما بعد ، ففي الداخل نظام تام يسود حتى البدو ، وفي الخارج لم تكن الحروب ضد الفرس لتقف حاجزاً في سبيل تقدم سوريا الاقتصادي ، بل انها افادت المدن مورداً جديداً للثروة ، وذلك ان الجيوش المعسكرة فيما وراء الفرات كانت بحاجة الى القمح والزيت والخمر ، ثم ان حركة المعاملات الواسعة في مناطق الامبراطورية الغربية لفتت انظار التجار ، فعادوا الى استخدام الطرق البرية حتى روما وبلاد الغال (ويلز في المملكة المتحدة) للتجارة . وكذلك الحال بالنسبة لتقدم الزراعه ،

---

(١) الدكتور سليم عادل عبد الحق - الفن الاغريقي - مجلة الحوليات الاثرية - ١٩٥٠ ، ص ١٨٤ .

شكل (٣٤) مخطط مدينة دمشق في العهد الروماني



عن مديرية الآثار العامة

بعد أن أصبحت محمية من غزوات البدو، مزدهرة بفضل انشاء السدود الجديدة ، كما أن المدن اخذت تكبر بسرعة عجيبة كانطاكية وتدمر .

وقد احترمت روما مؤسسات المدن اليونانية جميعها ، بل أنها كافأت بعض المدن على ولائها فاعطتها مميزات دستورية تزيد في استقلالهـــا ، كما حصل لدمشق مثلا ، فانها نالت على عهدهدريانوس لقب « متروبول » ثم لقب «مستعمرة رومانية » على عهد الكسندر سيفير (٢٢٢ - ٢٣٥ م) .

وهكذا فان تلك المدن ، لم تفقد شيئا من سيادتها السابقة على مقدراتها الخاصة ، الا أنها ، وان لم يتغير مبدأ الحكم فيها تغيرا محسوسا ، فقد تأثرت دون شك بالادارة الرومانية التي اخذت توطـــد روح النظام محل الاضطراب والفوضى اللذين طالما أفسدا حياة المدن اليونانية ، ولأول مرة في التاريخ نرى المدن السورية تنمو وفقا لقواعد محددة وطبقا لتشريع تفرضه الادارة البلدية عن دراسة ومعرفة ، وهي تسعى الى تجميل المدينة واقرار النظام في سبيل الراحة العامة ، وكلها جهود حضرية تعمل على أن تحل نموا موجهـــا محل ذاك النمو العشوائي الذي عرفته المدن سابقا .

وقد تجلت هذه الجهود في دمشق بانشاء مشروعين في سبيل المصلحة العامة ، هما بناء سور محيط بالمدينة ، وعمل قناة جديدة لمياه الشرب :

اما السور فتبلغ مساحته ١٠٥ هكتارات ، فقد كان يحيط بالمدينة الآرامية ، وبالاحياء الجديدة ، مبنيا على طريقة التحصين الروماني ، أي انه كان مستطيلا يبلغ طوله ١٥٠٠ متر وعرضه ٧٥٠ مترا ، وتمتد اضلاعه مستقيمة تماما ، ماعدا الجهة الشمالية ؛ وهي المشرفة على النهر الذي قام مقام الخندق ، فكان لابد فيها من الالتواءات والتعرجات . وكان في السور سبعة أبواب : ثلاثة منها في الواجهة الشمالية ، واثنان فقط في الواجهة الجنوبية واثنان ، وهما البابان المهمان ،

في الواجهتين الشرقية والغربية وتقعان في نهايتي الطريق الرئيسي Documanus الذي يخترق المدينة من الغرب الى الشرق ، ويتفق مخططه مــع سوق مدحت باشا حالياً .

واما القناة الجديدة ، فقد دفع الى حفرها ازدياد عدد السكان ، وهي لاتزال معروفة حتى اليوم باسم « القنوات » ، وقد كانت حتى عهد قريب تمد اكثر من ثلاثة ارباع المدينة القديمة بالمياه ، تتفرع عن النهر عند دخوله في السهل . ولا شك في انها كانت تتصل في العصور القديمة بخزان ضخم تزينه تماثيل آلهة المياه .

وقد اعيد بناء المعبد [1] القديم من اساسه وفقاً لذوق العصر ، ولكنه ظل محتفظاً – على مظهره الغربي الجديد – بالمرافق والترتيبات الاساسية في كل معبد سامي . فظهر حوله سوران يحيط احدهما بالاخر ، يحدد الاول منهما « حرم الإله » المتصف بصفة الملجأ او الملاذ ، ويبلغ ٣٦٠ متراً في ٣١٠ أمتار ، وهو محفوف برواق من الداخل ، وفي صدر واجهته الامامية مدخل مسقوف على اعمدة .
أما واجهته الخلفية فقد استندت اليها وتتابعت مجموعة مخازن المعبد ومساكن السدنة . وفي وسط هذه الساحة الفسيحة يرتفع السور الثاني وابعاده ١٦٠ متراً في ١٠٠ متر ، وفيه – كما في السور الاول – ذاك المدخل الفخم ذو الاعمدة ، وذاك الرواق الدائر المسقوف ، الذي تنفذ منه المداخل . وهذا السور يحيط بالمعبد نفسه المدعو « سيلا » او « ناووس » ، المخيم على الوثن المعبود وعلى كنز الاله ، الذي يقوم امامه المذبح وحوض الاغتسال . وكل هذا مبني بالحجر

---

(١) يشغل المعبد القديم المساحة الواقعة داخل الجدران الاربعة للجامع الاموي، كما تتألف الحدود الخارجية لباحة المعبد ومقر الكهنة من شمالي طريق مابين السورين ، وغربي جادة السليمانية ، وجنوبي جادة معاوية ، وشرقي امتداد جادة القاري .

المنحوت على الطراز الكورنثي [1] .

اما الاحياء الجديدة ، فظلت على ما كانت عليه في العهد اليوناني من حيث التصميم على الاقل ، فقد حوفظ ، في اتساع المدينة ، على ماعهدناه من طرق تخطيط الشوارع ، وتقسيم المبـــاني الى مناطق ، الافيما ندر فان بعض التخطيطات انحرفت عن اتجاه الشارع الاصلي . واذا ربطنا بين مظاهر هذا الانحراف وبين الاسم العربي الذي اطلق عليها وهو « النيبطون » فاننا نستدل على انها من اثر النبطيين الذين احتلوا دمشق مرتين في العهد الروماني [2]

ان بنـاء الاسوار اضطر الى توسيع الشوارع النافذة الى الابواب ، واهمها الشارع الذي يخترق المدينة من الباب الشرقي الى الباب الغربي وهو محور المدينة ، وكان يمتد خطا مستقيما ، بطول ١٥٠٠ متر ، مخترقا المساكن المتراكمة في المدينة القديمة ، وقـــد استملكت من اصحابها ، بعرض ٢٥,٥ متراً ، منها ١٢ مترا للطريق المرصوفة بالبلاط وما بقي الرصيفين المسقوفين ، ووراءهما الحوانيت المتتابعة تحت الرواقين المرفوعين على الاعمدة .

وكان هذا الشارع المستقيم يزدان بثلاثة اقواس فخمة مقامة عند المفارق الرئيسية ، كالقوس الذي وجد اخيرا في محلة الخراب . وكان للمدينة شارع آخر الى شمال الاول ، يصل بين المعبد والساحة العامة . وكانت هذه الساحة ذات مدخل مسقوف ، وهي محاطة ـ على مايرى سوفاجية [3] ـ برواقين ، ولاشك انها كانت حافلة بالمعابد ومقامات النذور وتماثيل عظماء المدينة .

ولنا في الاسماء العربية القديمة مايكمل معلوماتنا عن المدينة في ذاك

---

(١) Sauvaget , (1934) , op. cit. , pp. 441 - 442.

(٢) سقطت دمشق في ايدي الانباط مرتين ، الاول في عام ٨٥ ق.م أيام اليونان ، والثانية في عام ٣٥ ب.م أيام الرومان .

(٣) Sauvaget , (1934) , Op. cit , p. 442 .

العهد ، فان الحي المدعو « الديماس » يقابل موقع Dēmosion اي « دائرة المالية » القائمة قرب الساحة العامة . وكذلك الموضع المسمى « الفُرْناق » فانه يدل على مكان الفخار « fornaces » و « البريص » يشير الى موقع القصر ، و « الفُسقار » « foscarion » يدل على مكان صنع الفُسْقه وبيعها ، والفسقة شراب فيه ماء وخل كان يشربه الجنود الرومانيون . ثم المكان المسمى « المقصلاّط » حيث تلتقي فيه الاسواق المسقوفة « macella » وكان امام مدخلها قوس عال يرفع تمثال رجل واقف يمد يده .

ان اكثر هذه المباني التجميلية في المدينة بُنيت في عهدي سبتيم وسيفير وكارا كلالا ، اي في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث بعد الميلاد . ومن الواضح ان اهميتها لاتقف عند مظهر الجمال فيها ، بل تتجاوزه الى انها تظهر متأثرة بتكوين المدينة نفسها ، فان نمو المدينة في العصور الوسطى تطور وفقا لميزات دمشق الرومانية « دمشق الجميلة المقدسة » سواء أكان هذا التطور يسير وفقا للمبادىء الغربية ام مخالفا لها .

واخيرا ، فان دمشق ، رغم مانعمت به من امن وسلام ، وحظيت به من عمران ومنحت من ألقاب ، فانها ظلت حتى نهاية حكم البيزنطيين بعيدة عن مركز الصدارة والرئاسة ، فسيادتها السياسية لم تتحقق بعد ، ولابد من انتظار الفتح العربي الاسلامي ، ووصول الخليفة معاوية الاول لتصبح دمشق المدينة الاولى في الشرق .

الفصل الثاني

مدينة دمشق
منذ العهد الأموي حتى أواخر العهد العثماني

دخل العرب المسلمون دمشق في ايلول (سبتمبر) عام ٦٣٥ م، وما كان الفاتحون بغرباء عن دمشق لصلاتهم التجارية بأهلها في الجاهلية ، وعلاقاتهم بحكامها من الروم ، ولئن كانت بصرى محط رحالهم في اغلب الاحيان ، فقد وصل الكثير منهم الى دمشق في القرون السابقة ، يحملون اليها حاصلات الهند واصماغ بلادهم ، وعادوا منها يحدثون بما شهدوا من جنائن ظليلة ومياه وفيرة ، في بقعة مخضوضرة تضم عدداً من الاشجار يربو على اشجار بلاد العرب جميعاً في ذلك الوقت ، تبدو على شكل فردوس موعود لاولئك البدو من ارباب القوافل بعد ان اضنتهم اسابيع السير في الصحارى المقفرة .

ولم يكن تأثير دمشق على الفاتحين المسلمين بأقل من هذا التأثير ، واذا بدمشق في نظرهم شامة الارض وجنة الدنيا واحدى عجائب العالم ، يرون فيها احد المواقع التي شرّفها الانبياء ، ففيها قتل قابيل هابيل ، وفيها ولد ابراهيم ، وبها لاذ عيسى وأمه لاجئين « الى ربوة ذات قرار ومعين » ، وفيها ينزل عيسى في منتهى الازمان ليقاتل المسيح الدّجال . ولاشك ان هذا كله يعبر عن اعجاب شعب كان محصوراً منذ القديم بين آفاق الحجاز القاحلة الجرداء .

غير ان دمشق لم تمسك العرب طويلا ، فالبدو بحاجة الى سهول فسيحة لرعاية ابلهم ، لايجدونها في واحة دمشق . فغدا مجتمعهم الضخم على بعد ٨٠ كيلومترا من جنوبي دمشق ، في حاضر باب الجابية من أرض حوران . وهناك اخذ بعض القبائل في التحضر شيئاً فشيئاً ، ساكنين المضارب اوالاكواخ البسيطة من الطين والقصب(١) .

العهد الأموي

لم تتبوأ دمشق مكانة الصدارة من الدولة الجديدة ، حتى بويع معاوية بالخلافة ، فاختار دمشق عاصمة له سنة ٦٥٦م بعد ان كان واليا عليها . وقدضاقت المدينة بالفاتحين العرب ، فنزل امراؤهم في الدور والقصور التي اخلاها اصحابها البيزنطيون من حكام وقواد (٢) ، بينماضرب الجيش المحارب خيامه خارج اسوارها وعلى مقربة من ابوابها القديمة ، وكان اهمها ، تلك التي تقع الان في جنوب باب الجابية ، على طرفي الطريق المتجه الى حوران والحجاز جنوبا .

وكان امراء الدولة الجديدة لا يزالون متعلقين بالحياة القبلية ، يتدخلون في مشاحنات القبائل ، وينتقلون الى البوادي الفسيحة خلال ايام الربيع من كل عام ، فيعيشون عيشة امراء البدو في المضارب . ولكنهم كانوا يأخذون ، الى جانب ذلك ، بحياة التمدن ، فينعمون بالحمامات والقصور ومجالس الانس . وليست هنالك مدينة اجدر من دمشق بان تسهل عليهم حكم المناطق المتحضرة والمحافظة على الصلة بالبدو ، فتجمع لهم بين مباهج المرافق المدنية واصالة الحياة البدوية .

---

(١) Ibid , p. 444 .

(٢) عبد القادر الريحاوي – تاريخ دمشق العمراني – مجلة الحوليات الاثرية السورية – المجلد ١٤ – ص ٣٠ .

ولم تعد دمشق في عهد الامويين ، مجرد مركز زراعي ومركز سياسي، فحسب ، انما اصبحت مركزاً دينياً قبل كل شيء ، فهي المدينة المقدسة الثالثة في العالم الاسلامي التي لم تستطع التقلبات السياسية والعسكرية هدمها ؛ فغناها الزراعي يجتذب التجار ، وترفها وأبهتها تشدان اليها الوجهاء وطابعها الديني يستدعي الحجاج .

ولم تتوقف مدينة دمشق ، في هذا العهد ، عن النمو وسكانها عن الازدياد، كما اقام فيها الكثير من الغرباء ، فهي بكل ما في هـذه الكلمة من معنى رأس العالم العربي والاسلامي ، وقد كان نشاط اسواقها اكبر دليل على ذلك ، كما ان موقع المدينة ومركزها الديني جعلا منها منطلق قوافل الحجـاج الى مكة المكرمة[1].

ولما كان عـدد المسلمين قليلا ، في اول الامر ، فقد اكتفوا بمشاركة المسيحيين بمعبدهم القديم « كنيسة القديس يوحنا المعمدان » ، واصبح يضم كنيسة للنصارى في الجانب الغربي ومسجدا للمسلمين في الجانب الشرقي ، وظلت هذه الحال من الجوار بينهما اكثر من نصف قرن ، الى ان شرع الوليد في بناء الجامع الاموي الكبير[2] .

وقد شيد معاوية داره جنوبي الجامع ، ولا يفصله عنه الا جدار تُرك فيه باب لمرور الخليفة من منزله الخاص الى « مقصورة الجامع » ، وامـام القصر

(١) Thoumir, (1936), Op. cit., p .243.

(٢) عبد القادر الريحاوي – ص ٣٠ .

اصطبلات اطلق عليها« دار الخيل » .وقد عرفت دار معاوية بدار الامارةوبقصر الخضراء نسبة الى القبة الخضراء التي كانت فيها .

وقـــد تحول قصر الخضراء بعد معاوية الى دار للملك يقطنها الخلفاء الأمويون ، ثم تهدمت على اثر قـدوم العباسيين ، واصبح مكانها دارا للشرطة وضرب النقود ، كما شاهد ذلك الرحالة المهلبي في القرن العاشر الميلادي ، ثم يأتي عليها وعلى الجامع الاموي حريق عام ١٠٦٨ م فـتزول اثارها نهائيا ، ويتحول مكانها منذ عام ١٢٤٥ م الى سوق الصاغة (١) .

وقد تجمع المسلمون ، كعادتهم ، حول الجـــامع ، وأنشأوا البيوت والقصور والمحلات العامة في الساحة الواسعة المحيطة بالمعبد القديم . وقد قامت كل هـذه المباني ، كما تشير النصوص التاريخية ، على الاسلوب التقليدي في البناء المحلي ، فاستخدم فيها اللبن المجفف والخشب ، ولهذا لم تكن اهمية هذه المباني في قيمتها الفنية ، بل في تجمعها وتلاحمها بعضها الى بعض، في قلب مدينـة اكثريتها الساحقة من النصارى والبهود ؛ فـــألفت نواة صغيرة اسلامية ، كانت مركز سادة الحكم ، فغدت عنصرا مهما في تطور دمشق كلها .

ومن الاعمال الهامة التي تمت في عهد الامويين ايضا ، ما قام به يزيد بن معاوية في سفح قاسيون ، من شق قناة جـديدة لا تزال تحمل اسمه حتى اليوم « قناة يزيد » فهي بالاضافة الى ما دفعت اليه من اعادة النظر في توزيع « حقوق المياه» في الواحة كلها ، فقد عملت على توسيع المنطقة المزروعة باحياء اراضي حرستا والقابون ، كما ساعدت على امتـــداد الخضرة والعمران الى الاجزاء المرتفعة من سفح قاسيون ، وارواء المزارع والمنازل التي اقيمت على ضفافه .

---

(١) المصدر السابق – ص ٣٢ .

وفي عهد الوليد بن عبد الملك تبلغ الدولة اوج عزها ومجدها ، فيتطلع الى اقامة اضخم واروع اوابد العصر الاموي في الجامع الاموي الكبير ، ولا يخفى ما للجامع من اهمية خاصة في حياة المسلمين حيث يؤدون فيه صلواتهم كل يوم ، وهو مركز الحياة العامة ، يجتمع فيه الناس لمبايعة الخليفة ، ومن على منبره يخطب الخليفة كل جمعة ، وفيه يستقبل وفود القبائل ، وفيه يقام نصاب العدل ويحفظ بيت المال .

وترجع اقامة هذا الصرح المعماري الكبير الى امرين ، الاول هو رغبة الوليد في اقامة جامع كبير فخم جديد بدمشق ، عاصمة اعظم دولة في ذلك التاريخ ، يضاهي به تلك الكنائس الرائعة التي اقامها نصارى الشام . وقد اشار الى ذلك بقوله : (رأيتكم يا اهل دمشق تفخرون على الناس بأربع خصال : تفخرون بمائكم وهوائكم وفاكهتكم وحماماتكم فأحببت ان يكون مسجدكم الخامسة)[1] . والامر الثاني هو ازدياد عدد المسلمين المطرد ، بما كان يفد على دمشق من العرب المسلمين ، وما ينتقل الى الاسلام من نصارى الشام .

وابرز المشكلات التي واجهها الوليد في بناء الجامع الكبير ، في تلك المدينة الغاصة بالسكان ، انها لم يبق بها ارض خالية للبناء . الا ان تجمع المسلمين حول الجامع بدافع القرب منه والعيش الى جانب ابناء دينهم ، قد وضع الحل الوحيد لهذه المشكلة بضم كنيسة القديس يوحنا المعمدان الى الجامع وتعويض النصارى عنها .

وقد بدأ العمل في هذا المشروع الكبير سنة ٧٠٥ بهدم جميع المباني داخل السور الثاني ، فلم يبقوا الا على حائط السور نفسه وعلى أبراجه الاربعة ، فتوفرت لهم فسحة خالية تزيد مساحتها على الهكتار ، فخصصوا القسم الشمالي من الارض

---

(١) تاريخ مسجد دمشق - مخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق .

الساحة واسعة يحيط بها رواق مسقوف تنفذ فيه الابواب ، ويحتوي على قبة بيت المال .

أما في الناحية الجنوبية فقد أقاموا على طول حائط السور الاصلي ردهة واسعة لاجتماع المصلين تزيد مساحتها عن ٥٢٠٠ متر مربع ، وقد أقيم سقف هذه القاعة على جملون[1] يستند على صفين من الاعمدة . وفتح في الحائط الجنوبي باب جديد يصل الى مقام الخليفة ، عرف باسم « باب الزيادة » ، وبني أمام هذا الباب بين القصر والجامع ممر مسقوف . ولم يخل الحائط الشمالي من تجديد ، فقد رفعت في وسطه منارة عالية مربعة ، واتبع في زخرفتها اسلوب القسطنطينية ، فغطيت الجدران كلها بالتزيينات النفيسة ، أبرزها تلك الصفائح من الرخام المتعدد الالوان التي ارتفعت حتى مخارج الاقواس ، وفوقها قطع الفسيفساء الرائعة تمثل مشاهد المنازل والاشجار[2].

وقد استغرق هذا المشروع العظيم مدة عشر سنوات ، وتطلب جهوداً كبيرة وأموالاً طائلة وعدداً كبيراً من العمال المسخرين من جميع أنحاء الدولة ، فخرج آية في الروعة والجمال ، وموضع اعجاب الشرق والغرب على السواء ، بل انه « مؤسسة حديثة قائمة بذاتها في الهندسة وفن البناء ، فيه قبس من الفنون السابقة ، وفيه تجديد وابتكار[3] » ، وذلك بسبب سعة رقعته وعظمة ترتيبه وروعة زخارفه وغنى مواد بنائه ، التي يبرز قيمتها بيوت الطين والخشب المحيطة بالجامع ، حتى أصبح رمزاً لسمو الاسلام السياسي و نفوذه الادبي .

وهكذا بلغت دمشق في عهد الامويين ذروة عزها ومجدها ، فنمت المدينة واتسعت وانتشرت فيها البرك والنوافير التي كانت موزعة على أطراف الشوارع وأبواب المباني العامة وفي الاسواق والساحات العامة ، وقد عدد ابن عساكر

---

(١) سقف هرمي الشكل .

(٢) Sauvaget, (1934) . Op. cit. , pp. 447 - 448 .

(٣) عبد القادر الريحاوي – ص ٣١ .

عشرين منها كانت باقية الى عهده يرجع أكثرها الى عصر بني أمية ، كما شيدت الحمامات والمستشفيات والقيساريات[1].

ومن الطبيعي ان يؤدي استتباب الأمن واستقرار الحكم ورخاء البلاد الاقتصادي الى نمو المدينة واتساعها ، فبدأت منذ ذلك العهد تنشأ احياء سكنية خارج الاسوار ، فنشأت في أطراف المدينة وضواحيها مراكز سكنية عرفت بمنازل القبائل ، وامتد البناء على ضفاف بردى وسفوح قاسيون .

وقد تخربت المنازل والارباض في الفتن والحروب التي تلت العهد الأموي ، وقال ابن عساكر بشأنها : « وقل موضع حفر الا وجد فيه أثرالعمارة من سائر أطراف البلد » ، وذكر منها في الجنوب الشاغور والمنيبة (الميدان) ، وقصر حجاج ، وعاليه وعويلة (عند القدم) ، وفي الغرب القنوات ، ولؤلؤة الصغرى وصنعاء والنيربان غربي الربوة والمزة . وفي الشمال بيت لهيا والسبعة أنابيب (عند القصاع اليوم) والفراديس[2] .

وقد ظلت المدينة القديمة قائمة بسورها ومساحتها وشوارعها رغم الغزوات والزلازل التي أصابتها . على أن مدينة اسلامية جديدة ، أخذت تنمو شيئاً فشيئاً وأصبحت الجماعة الاسلامية تجد في جامع الوليـــد محور حياتها الثقافية ، تلك الحياة التي كانت تزداد سعة وتأثيراً كلما ازدادت عقيدة الاسلام وحضارته رسوخاً وعمقاً .

العهد العباسي والفاطمي :

على أثر قيام الدولة العباسية ، تسقط مدينة دمشق وينتهي عصرها الذهبي وتدخل عهد الانحطاط ،ذلك ان ذكر الأمويين كان ثقيل الوطأة على الخلافـــة

(١) أبنية كبيرة تضم سوقاً خاصة بمهنة من المهن ، شبيهة بالخانات التجارية .
(٢) عبد القادر الريحاوي - ص ٣٤ .

الجديدة فصبوا على المدينة غضبهم وحقدهم ، وخربوا القصور ، وانتهكوا حرمة قبور الخلفاء، وهدموا أسوار المدينة، رغبة منهم في ان يحرموا السكان ما يتحصنون به اذا ثاروا عليهم . وإذا كان الجامع الاموي قد سلم من هذا التخريب ، فالفضل في ذلك يرجع لما كان يتمتع به من احترام في نفوس المسلمين . ولا عجب بعد ذلك ، أن تنحط دمشق الى مصاف المدن الثانوية ، فتنقل منها دار الخلافة وتغدو قصبة ولاية ، تعمل فيها عناصر الانحلال على تفكيك عرى ذلك النظام القديم .

وأتى بعدهم عهد ملوك الطوائف ، الذي توالت فيه الحروب وغزوات البدو ، وشهدت دمشق خلاله حكم الطولونيين (انتهى سنة ٢٩٢ هـ) والاخشيديين (انتهى سنة ٣٥٧ هـ) ، ولم تلق أثناءها سوى راحة نسبية ، لا تتجاوز الحد الذي كانت تحظى به في عهد العظماء من خلفاء بني العباس .

ثم تدخل دمشق تحت حكم الفاطميين ، الذين استولوا على هذه المدينة سنة ٣٥٩ هـ ، فكانوا أبعد من أن يقروا الطمأنينة ، فقد عادت دمشق تشهد حظها يسودّ ، والفتن فيها تتكاثر وتشتد ، فازدادت الحالة حرجاً ، وخاصة في دمشق ، فأسرع فيها الانحلال على عهدهم ، بسبب الحرائق التي كانت تشب أثناء المشاغبات والثورات . ولا يخفى ان شعلة النار ، ايّاً كانت ، تتسارع ألسنتها ويتد أذاها حتى تصبح احدى الكوارث الهائلة، وخاصة في هذه المدينة المبنية كلها بالمواد القابلة للاحتراق ، ثم يقوم المصابون فيبنون فوق الانقاض دون نظام أو ترتيب ، ولا اهتمام بالمصلحة العامة (١) ، ولم ينجح من احداهـــا الجامع الأموي نفسه ، فاحترق حريقاً شاملاً عام ٤٥٨ هـ .

وقد كان من سياسة الفاطميين الا يولوّا الولاة مدة طويلة ، فاستشرت المفاسد الحكوميـة وسوء الادارة في أيامهم ، كما نكبت دمشق بالاختلافات

---

(١) Sauvaget , (1934) . Op . cit . , pp . 456 - 457 .

المتابعة التي كانت تثيرها العناصر المختلفة من سكان المدينة . ثم جاء الطاعون في سنة ٤٦٧ ﻫ فقضى على معظم سكانها ، وأنزل أعظم الكوارث التي حلت بها ، ولم ينته هذا العصر الحافل بالاحداث والاضطرابات ، وهو من أظلم العصور التي عرفتها دمشق في تاريخها ، الا بظهور الأتراك السلجوقيين .

ولا نخطىء اذا قلنا ان العامل الأساسي في تطور المدينة ، خلال هذه القرون الثلاثة من الفوضى ، هو اضطراب الأمن على مختلف مظاهره ، ولا نعني باضطراب الأمن ما يشبه الأزمة التي تنشأ في حالة الحرب ، انما نعني الاضطراب الداخلي المستمر ، الذي ينشأ في معظمه عن تكوين الجهاز الحكومي نفسه .

ولم يكن ارباب هذه الحكومة ، من ولاة وقضاة ومحتسبين ، من الموظفين العاديين ولا من ذوي الاقطاع ، انما كانوا أشبه بضباط مدنيين لا يقومون بأعمالهم الا بناء على تفويض من صاحب الأمر . ولما كان هذا التفويض قابلاً للالغاء في كل آن ، أصبح ذاك الاضطراب سائداً على الحكام ، مسيطراً على جميع أعمالهم ، فهم لا يثقون بالمستقبل ولا يعرفون ما يخبىء لهم ، ولذلك كان همهم الوحيد تقريباً ان يرهقوا المحكومين فينالوا منهم أكثر ما يمكن من المال في أقل وقت ممكن ، ذلك انهم ، في الغالب ، مدينون بارتقائهم لعطف أحد كبار الرجال ، من أولئك الذين قد ينالهم غضب السلطان وجفاؤه بين آونة وأخرى ، أو انهم قد اشتروا مركزهم بالمال فعليهم السعي الحثيث في استرجاع ما أنفقوا ، وهم واثقون بالمناعة لخلو الادارة من أي دائرة للمراقبة .

وكان من نتائج هذا الاضطراب في الامن ، ان طبقات الشعب العاملة ، أخذت تعمل على المقاومة ، ذلك انه لم يكن لها ضمانة الا الحماية الوهمية التي توليها اياها الشريعة القرآنية ، وليس لهم مرجع شرعي تجاه الظلامات الا الاستئناف لدى الخليفة البعيد الذي لا يمكن ان يوصل اليه بسهولة . واذن فالسوقة عرضة لاستبداد الحاكم ايا كان ، فكان من الطبيعي ان تلجأ الى طريقة

الدفاع الوحيدة وهي التعاون ، وقد بدا هذا في اجتماع تلك الطبقات وفقاً لنزعاتها الدينية والعرقية والصناعية خاصة ، حتى يتمكن افرادها من الدفاع بالقوة حين اللزوم عن حياتهم واموالهم ، بل انهم ذهبوا الى ابعد من ذلك ، فقد كانوا يشترون بالهم الشفاعات ورضى الحكام فينالون شيئاً من الراحة وحسن الحال.

وقد ظهرت خاصة روح المشاركة هذه في العودة الى الحياة الحرفية او اتحاد ارباب الحرف ، وهي دون شك ، من بقايا التنظيم الروماني والبيزنطي . وهكذا اصبح كل شخص – حتى المكدّون والبغايا – ينتمي الى عصبة او نقابة من ارباب مهنة ، لها انظمة تحمي اعضاءها من المزاحمة غير المشروعة ، وتعين المصابين منهم والعاطلين ، ويسهر عليها رئيس يكون وسيطاً بين ارباب الحرفة والحكومة .

على ان هذه الحياة المشتركة التي دفعت اليها الحاجة الى التعاون والتعاضد سرعان ما ادخلت التفكك في الوسط الحضري . واذا بالمدينة تظهر منذ ذلك الوقت بمظهر مجموعة من (الحارات) المستقلة كل منها بحياتها الخاصة ، منفصلة عن حياة جاراتها ، وكأن كلا من هذه الحارات مدينة مصغرة بمسجدها وطريقة توزيع المياه فيها وحمامها ، وسويقتها محتوية على الحبوب وسائر الحاجيات ، ولها شيخها المسؤول وشرطتها المؤلفة من أفراد العسس الذين يسهرون الليل فيعرفون المارة ، بل لها حصونها وهي الابواب ، وجيشها المؤلف من « الاحداث » وهم جنود الحرف .

اما سكان « الحارة » فيجتمعون على الغالب ، من ارباب المنطقة الواحدة ، كما نرى في « حارة الحوارنة » مثلاً ، ومن ذوي الدين الواحد ، اومن ابناء القبيلة او الاسرة الواحدة ، ولا يندر ان يكون سكان « الحارة » معادين او محاربين لسكان الحارة المجاورة (١) .

---

(١) Ibid., p. 451-453.

وتختلف « الحارات » بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً من حيث التخطيط عن احياء المدينة اليونانية - الرومـــانية ، فان الانتقال بين المساكن في المدينة القديمة كان يجري في الشوارع نفسها ، اما في المدينة الحالية فلم يبق الا عدد محدود من الشوارع الكبرى المواصلات الحرة ، ولكنها لاتنفذ الى المساكن ، بل يتفرع منها « دروب » خاصة عليها ابواب تُقفل كل مساء عند غروب الشمس ، ومن هذه الدروب تتفرع « ازقة » و « دَخْلات » تصل الى المساكن الخاصة ، وعليها كذلك ابواب يمكن اقفالها ؛ وهكذا فلا يظهر من المنزل الى جهة الشارع الا مؤخرته الخالية من النوافذ ، فلا يمكن الوصول اليه الا بعد ان يُقطع باب الحارة ، فَباب الزقاق ، فَباب المنزل نفسه ؛ فيجد الانسان شيئاً من الامان والطمأنينة في بيته بفضل هذه العقبات المتتابعة ، وبفضل ما اشرنا اليه من روح التعاون والتعاضد .

وهكذا فان هذه الطريقة من السكنى ، تظهر لنا المدينة مجموعة من « الحارات » خالية من كل صلة تربطها ؛ بيد ان هناك بعض المؤسسات المشتركة تعمل على الوحدة بين احيائها وهي :

١ - السور المحصن يعين حدود المدينة ، ويضمن الامان لسكانها بصرف النظر عن اصلهم وديانتهم ومركزهم من المجتمع ، ولهذا نرى « الاحداث » اي جنود الحرف يسيرون بقيادة رئيس التجار ، فيقومون بحراسته في حالات الخطر الى جانب العسكر النظامي .

٢ - الجامع الاكبر ، وهو لايزال مركز الحياة العامة ، وان تكن اهميته قلّت عما كانت عليه في عهد الامويين ، لأن مركز السلطان تحوّل عن دمشق ، ففيه تعلن الانباء التي تهم جمهور السكان كتعيين الولاة والغاء الضرائب وما شاكل ذلك ، وفيه يظهر الشعب تعلقه بالخليفة ، وامانته لسلطته ، اذ يأتي كل جمعة فيحتفل بالصلاة ، ذاكراً اسمه داعياً له .

٣ - الاسواق : وهي اهم الاسباب في وجود ذاك المجتمع ، بل القسم الاساسي في « المدينة » مقابلة بحارات السكن التي تؤلف « البلد » . والاسواق آهلة تماماً بحوانيت التجار ، والصناع تجتمع فيها وحدها . واذن فعلى السكان ان يطلبوا من الاسواق - لا في غيرها - مايحتاجون اليه من بضائع وسلع (١) .

اما تخطيط هذه الاسواق ، فيمثل مجموعة من الشوارع المتوازية ، تُقفل بابواب في مداخلها ، ويختص كل منها بارباب مهنة واحدة . وعن هذه الشوارع تتفرع اسواق مغطاة مسقوفة ، وهي « قيساريات » كقيسارية الحرير وقيسارية الصيارفة وغيرها ، وخانات اوفنادق تشتغل بتجارة الاستيراد والتصدير ، متصلة اتصالا مباشراً بتجارة السوق .

وكان من الطبيعي ان يقوم مجموع « المدينة » هذه في المحل الذي كان يقوم فيه المركز التجاري في العصور القديمة ، فتشعبت الاسواق مكان الشارع الروماني الكبير ، المحفوف بالاعمدة عن الجانبين . على ان منظرها كان ابعد من من أن يشبه ذاك الترتيب القديم بما فيه من حوانيت واسعة مفتوحة بتخطيط منظم تحت القناطر الضخمة ، تمتد وسطها الطريق الفسيحة الخاصة بمرور الحيوانات .

ولم يبق من كل ذاك الا اسواق غير مرصوفة ، مضطربة الاستقامة لايتجاوز عرضها المتر الى الثلاثة الامتار ، تغطيها الحصر أو رفوف الخشب او سقوف التراب ، وتنفتح على جانبيها حوانيت حقيرة لايندر ان نرى بينها مالا يتجاوز حجمه حجم الخزانة - وهي تستخدم المبادلات واعمال البيع والشراء - ولا يندر ان تستخدم محلات للعمل ، وهناك الازدحام العجيب من

Ibid., p. 454 (١)

مشترين ومارين وباعة متنقلين ودلالين وسائلين وحمالين ودواب ، حتى ان الشارع القديم انكمش وضغط عليه من الجانبين بعد ان اقتطع منه الرصيف والرواق ذو الأعمدة [1] .

اما طريقة هذا التحول فتظهر واضحة ، اذا ماقابلنا بين موقع الاسواق بالنسبة الى الشارع ذي الاعمدة وحالة شوارع العصور الوسطى وشوارع العهد القديم ؛ وقد كانت هذه الاخيرة تمتد دون انقطاع على خط مضبوط الاستقامة وبعرض لايتغير .

اما شوارع العصور الوسطى فقد كانت تنتهي بزوايا لامنافذ لها ، وسواء أنظرنا الى مجمل تصميمها ام الى خطوطها الفردية ، فاننا نرى ان الخط المستقيم كان من النادر فيها ، وكذلك القول عن عرضها المختلف باختلاف الممرات ، حتى انها كانت تظهر احيانا من الضيق بحيث لاتكاد تتسع لمرور رجل واحد . على ان هذا لاينفي النسبة المكانية بين هذه الشوارع والشوارع القديمة ؛ وقد رأينا الكثير منها يتابع نسبياً تخطيط الشوارع اليونانية واتجاهها . واذن فيحق لنا القول بأن سلسلة متتابعة من التعدي على الطريق العام فككت نظام ذاك الترتيب القديم وافسدته على طريقة بطيئة ولكنها متواصلة .

وكان مما سهل حصول تلك التعديات ، ان ولاة الامور يومئذ لايعرفون احكاماً خاصة بنظام المدن ولابالمؤسسات البلدية ، وهم لايرون في المجتمع المدني ما كانت تراه اوربا في العصر نفسه ، كوحدة ذات ميزات خاصة ، انما هو جزء متمم غير منفصل عن جسم الدولة الكبرى ، ولاصلاحية لأحد بأن يسوسه ويسهر على مقدراته الخاصة عن معرفة ودراية ، فان سلطة المحتسب ، وهي تتعلق قبل كل شيء بالتحريمات ، لاتوليه حق الاقدام على أي عمل كان .

---

(١) Ibid . PP . 454 - 455

وكذلك القول عن الحاكم ، وواجبه الاساسي يقوم بالدفاع عن المنطقة والعمل على جباية الضرائب ، فلا يرى المدينة الا مجموعة من المكلفين ، او عنصراً يؤثر بحالة الأمن العام ايجابياً او سلبياً ، وعلاوة على ذلك فان ماتتصف به ولاية هذين الرجلين من الاضطراب يحول بينها وبين التعلق الفعال بمقام لايشغلانه الا موقتاً ، فلا يسيران على الغالب الا بدوافع الرشوى والزلفى لمن كان اكبر منهما .

ومن هذا حصل امر مثقل بالنتائج ، وهو ان المدينة اختلفت عما كانت عليه ، فخرجت عن كونها شخصية مستقلة ، بل كائناً مركباً نابضاً بالحياة ، واصبحت مجموعة من الافراد ذوي المنافع المتضاربة ، ينفرد كل منهم بمصلحته عاملا لها في منطقته الخاصة ، منصرفاً كل الانصراف عن جاره مستغلا على قدر امكانه جميع الحوادث والاحوال في سبيل غايته الشخصية .

اما المجتمعات المنظمة ، وهي الحرف والحارات فلم تخرج عن هذه الصورة ، حتى امكننا الحكم بأن تطور المدينة اصبح نتيجة لمجموعة من المساعي الفردية فحسب . على انه من الحق ان نشير الى اعمال الامراء وعظماء المدينة ، لما كان لها من التأثير في عامة الشعب ، وهي اكثرية السكان عدداً وأقواهم حركة .

وقد احتفظت المدينة بهذه الصفات ، لاتكاد تغير فيها شيئاً طول القرون الوسطى ، فلم تحاول تبديلها الا بعد ان دخلتها المؤثرات الاوربية في منتصف القرن التاسع عشر .

ونفتش بين أحياء المدينة وثناياها ، باحثين عن اثر عمراني يعود إلى هذه الفترة فلا نكاد نجد شيئاً ذا بال . على ان العباسيين لم ينسوا دمشق كل النسيان ، وظلت تستهويهم بما لها من ماض مجيد وطبيعة ساحرة ، فشدوا الرحال إليها ، فزارها المهدي والرشيد والمأمون والمعتصم والمتوكل ، وفكّر الواثق بنقل العاصمة اليها ، وقال ابن عساكر : لم يزل ملوك بني العباس تخف الى دمشق طلباً للصحة

وحسن المنظر . اقام بها المأمون واجرى اليها قناة من نهر منين ، الى معسكر بدير مُرّان[١]، وبنى القبة التي في اعلى جبل دير مران ، وصيّرها مرقباً ، يوقد في اعلاه النار لكي ينظر ما في عسكره اذا جن عليه الليل[٢] .

ومما يجب ذكره في هذا العهد ، نشأة بعض الضواحي كضاحية «العُقيبة» في الشمال ، وهي تصغير العقبة ، وقد سميت كذلك لوقوعها على المنحدر الذي يحد وادي النهر من ناحية الشمال . وكضاحية «الشاغور» في الجنوب ، و«قصر حجّاج» في الجنوب الغربي على مسافة قريبة من المدينة ، وقد دعي كذلك نسبة الى قصر الحجاج بن عبد الملك ، احد امراء الامويين .

وقد نشأت هذه الضواحي دون تصميم سابق يوجّه تطورها ، وأخذت المنازل تتابع على عمق قليل ، على طول الطرقات الواصلة الى أبواب المدينة . وهي في اكثرها ضواح زراعية يقيم فيها باعة الخضراوات ، ومن ثم فلا نغتّر بأهميتها ، ولا نستنتج منها ازدهار المدينة ، انما كانت هذه تقاسي الأمرين من صعوبة الزمن واهمال السلطة ، فتحتال على الحياة منتظرة ايام الهناء .

ولما كانت السلطة الفاطمية تخشى هجوم العباسيين على المدينة ، رأت ان تعيد الاسوار فرفعتها اولا دكّاً ثم بالبناء الحجري ، وذلك في القرن العاشر ، ولكن التخطيط الجديد لم يوافق تخطيط السور الروماني الا في بعض مواقعه ، وقد استفاد المجددون من ابوابه القديمة فأصلحوها واستعملوا منها اربعة او خمسة ، ولا سيما اللذين كانا ينفتحان على طرفي الشارع المستقيم ، ولكن الابواب صغرت حتى نصفها ليسهل تحصينها والدفاع عنها[٣] .

---

(١) يقصد به الجبل المطل على دمشق قرب الربوة ، حيث توجد اليوم قبة السيار ، وكان الدير اسفلها .

(٢) تاريخ ابن عساكر – المجلد الثاني – ص ١١٦٦ .

(٣) Sauvaget. (1936), Op. cit. p. 457

العهد السلجوقي والايوبي :

خضعت دمشق لسلطة السلاجقة عام ١٠٧٦م، بعد ان تمكن الامير أتسز التركي ان ينتزعها من ايدي الفاطميين ، ويعلن فيها سلطة السلاجقة . فأخذ هؤلاء يحكمونها اما مباشرة واما بواسطة اتابكيهم[١] وكان من اشهرهم محمود بن زنكي الشهير بنور الدين الشهيد . ثم جاء بعده صلاح الدين الذي قدم اليها من مصر ، فأسس الدولة الايوبية التي دامت حتى غزوة المغول في سنة ١٢٦٠م.

وفي عهد هاتين الدولتين النورية والصلاحية ، عادت دمشق فشهدت مجداً وعزاً لم تشهد مثلها منذ عهد الامويين، فانتعشت الحياة العمرانية فيها رغم اشتغال السلاطين برد غزوات الصليبيين عن الشام . ويعتبر هذا العصر في دمشق عصر نهضة حقيقية عامة في جميع مرافق الحياة ، ذلك ان دمشق اصبحت عاصمة الحكم ومقر البلاط ومركزاً للحياة الحضرية والسياسية ، بعد ان فقدت هذا المركز قروناً طويلة منذ انقراض الدولة الاموية .

وللبلاط في عاصمة الحكم تأثير كبير على حياتها السياسية والاقتصادية ، فدمشق في هذا العصر ازدحمت بالامراء والقواد والجنود على اختلاف اجناسهم من اكراد ومماليك وموال ، وكانت لهم موارد مالية كثيرة ينفقونها على حاجاتهم الضرورية ومتعهم النفسية ، مما عاد بالرفاهية والرخاء على الشعب الدمشقي ، فلهم وحدهم تقريباً تشتغل العامة ، آمنة في ظل النظام الجديد ، وبفضلهم تنهض الصناعة والتجارة من جديد[٢] .

وكان من عوامل ازدهار الحياة الاقتصادية في دمشق مجاورتها للدولة اللاتينية التي تأسست في فلسطين عقب الحرب الصليبية الاولى ، وكانت لها صبغة

---

(١) لفظ كان السلاجقة يطلقونه على كبير امرائهم ، وصاحب هذا اللقب من امراء الجيش .

(٢) Sauvaget , (1934) . Op.cit. . p. 458 .

تجارية الى جانب عملها الحربي ، وتوطدت العلاقة التجارية بين هذه الدولةوعاصمة الايوبيين وخاصة في أيام الهدنة والسلم ، لان دمشق امتازت بمركزها الاقتصادي في الشرق بوقوعها على طريق القوافل الآتية من الهند والعراق، تحمل بضائع هذه الاقطار الى الثغور الشامية التي غصت بتجار البندقية وبيزة وجنوه ومرافيء فرنسا الجنوبية ، فاستفادت دمشق فائدة كبرى من هذه الحركة الاقتصادية النشيطة التي اوجدتها الحروب الصليبية . وغدت حاصلات دمشق الزراعية كالمشمش والبطيخ وغيرهما من الثمار والبقول ينتقل الى بلاد الغرب مع منسوجاتها ، كالاقمشة القطنية والدمقس والنحاس بالفضة والسكر والزجاج . وقد مرّ بدمشق في هذا العصر «سيمون سيمكولي» الايطالي فأعجب بما رآه في اسواق دمشق من التحف وانواع المصنوعات الدمشقية فقال : لو كنت خبأت دراهمك في عظم ساقك لما توقفت عن كسره لتشتري بها ؟

وفوق هذا، فان أتابك السلاجقة والايوبيين وسموا دمشق بسمة خاصة دائمة ، اذ جعلوها موقعاً حربياً ومركزاً ثقافياً ودينياً ، وكانت سياستهم متجهة بكاملها نحو تمجيد الاسلام السنيّ ، يعملون له في الخارج بحاربتهم الفاطميين والصليبيين ، وفي الداخل بنشرهم دعوة فعالة ضد البدع الشيعية في الدين. وهكذا كان همهم أن يعتنوا اعتناء خاصاً من جهة بالمنشآت العسكرية الرامية الى الدفاع عن المدينة ، وقد هددها الفرنجة مرتين الاولى في سنة ١١٢٩ والثانية في سنة ١١٤٨ ، ومن جهة أخرى ببناء « المدارس » العاملة على تثقيف رجال الادارة وفقاً لمبادىء الاسلام الصحيح .

ولا أدل على هذه الاتجاهات الجديدة من بناء « القلعة » أشهر أبنية دمشق ومنشآتها العسكرية على الاطلاق ، وقد أنشأها الامير أتسز ، على الزاوية الشمالية الغربية من السور الروماني ، حيث لم يكن قد بقي من بناء القلعة الا حجارتها وانقاضها ، فاستعان بقسم من الاسس القديمة ومن مواد البناء كذلك ، وقداعتنى

الأتابك بها عناية كبيرة ، على أنهم رأوا أن يرمموها بكاملها منذ سنة ١٢٠٦ م ، فيجددوا مواقع الدفاع فيها وفقاً لتقدم النقل الحربي . والى هذا الترميم ترقى في حالتها الحاضرة، ظاهرة على شكل مستطيل فسيح (يبلغ ٢٢٠ متراً في ١٦٠ متراً) له مدخـــلان ، وهي تضم ثلاثة عشر برجاً، أحدها برج الحمام يأوي اليه الحمام الزاجل للمراسلات .

ولهذه القلعة قيمة خاصة بالنسبة الى نظام المدينة وحياتها ،فهي لاتكتفي بكونها الملاذ الاخير للمحاصرين تلجأ اليها قوى الدفاع - كما كانت القلعة القديمة - بل انها قبل كل شيء ، مقام السلطان تجتمع فيها حول شخصه دوائر الحكومة كلها ، ففيها منزل السلطان الخاص وما يتعلق به من المرافق ، وفيها ردهة العرش أو الايوان ودوائر الادارة من مدنية وعسكرية ، وثكنات الحرس ، ومخازن السلاح وبيت المال ، ودار صك النقود والسجن، بل وفيها قبور الاسرة المالكة، حتى لم يبق خارجا عنها الا المحكمة القائمة منذ عهد نور الدين ، في بناء خاص يدعى « دار العدل » على مقربة من القلعة .

وللقلعة ايضا سوقها الخاصة وحماماتها ومسجدها الجامع يجتمع فيه سكانها لصلاة الجمعة ، ولا يخرج منها السلطان الى الجامع الاموي الا في العيدين دلالة على كونه رئيسا لدولة اسلامية ونائبا للخليفة .

وهكذا تبدو القلعة وكأنها مدينة مستقلة بنفسها عن دمشق، بل وكأنها السراي العثمانية لما بينها من اوجه شبه دقيقة تتجاوز ما تقدم ذكره ، فهي مدينة تكتفي بنفسها وتذكرنا «بالمدينة المحرّمة» في المدن الصينية ، وكثيرا ما تستسلم المدينة وتمتنع القلعة لقدرتها على الدفاع (١) .

ومن مظاهر اهتمام السلاطين بالشؤون الحربية ترميم السور في القرن الثاني

---

(١) Ibid, P. 459.

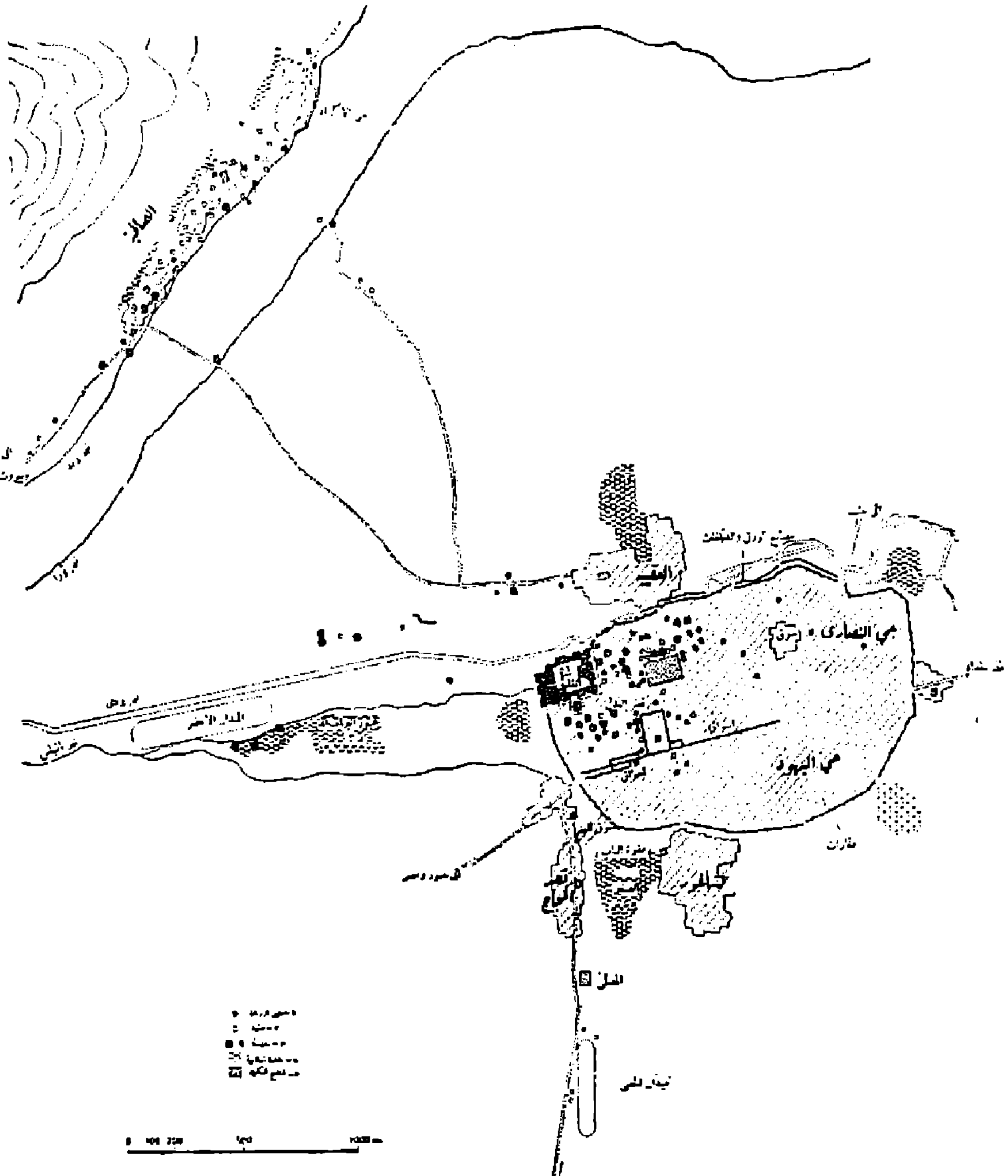
عشر ترميماً نُظر فيه الى مبادىء قريبة جـداً من طرق التحصين الرومانية والبيزنطية ؛ وقد بُني أمامه – على قسم من الجهة الشمالية – سور جديد في أوائل القرن الثالث عشر ؛ ولا يبعد ان يكون هذا السور نتيجة تصميم حديث كان يرمي الى تجديد الأسوار بكاملها ، ولكن يبدو ان العمل أوقف قبل نهايته بسبب الغزوات المغولية سنة ١٢٦٠ م .

ويجب ان نذكر من المنشآت المتعلقة تعلقاً وثيقاً بالحياة العسكرية ، الميدانين اللذين كان يرتادهما السلاطين أو الأمراء بانتظام يلعبون فيها بالكرة والصولجان فيروضون خيولهم ويتمرنون هم أيضاً منتظرين وقت الجهاد . وكان أحد الميدانين هو « الميدان الأخضر » يمتد غربي المدينة على مرج فسيح أخضر قرب نهر بردى ، يعرف سابقاً ببرج الزّنبقة ، يبلغ نحو ٥٠٠ متر في ١٥٠ متراً ، وفي أطرافه معالم تشير الى الأهداف ، وحوله اطار من الشجر .

أما الميدان الثاني وهو أصغر من الأول ، فكان يقع جنوبي المدينة ممتداً على أرض حصباء ، ولهذا دعي «ميدان الحصى» . ولم يكن الميدانان مختصين بالألعاب فحسب بل كانا بمثابة معسكرين لانزال الجيوش فيها عندما تضيق القلعة وتزدحم ، كما ينزلها من تضيق المدينة عن ايوائهم من الجماهير ، كمواكب الأمراء والوفود والجيوش والقوافل المهمة أحياناً ، وهما فوق ذلك ، من أماكن النزهة يقصدهما الشعب معجباً بألعاب فرسانه (شكل ٣٥) .

اما في المدينة نفسها فقد اتسعت الأسواق فتجاوزت منطقة الشارع القديم متجهة جهة الجامع الكبير ؛ وهنا نقطة مركزية يجتمع فيها أكثر السكان أسبوعياً ، ان لم نقل يومياً ، فيسهلون المعاملات التجارية . وكثرت الأسواق حتى

شكل (٣٥)



دمشق في منتصف القرن الثالث عشر

عن سوفاجيه

بلغت ١٣٩ سوقاً [1] ؛ وأشهر هذه الأسواق سوق تحت القلعة الذي وصفه ابو البقاء البدري في كتابه الشهير « نزهة الانام في محاسن الشام » . وكان من فضل هذا الازدهار الاقتصادي ان الضواحي أخذت تتسع بدورها ، وقد بلغ من اتساعها ان اثنتين منها ـ وهما العقيبة والشاغور ـ اضطرتا الى بناء مسجد جامع في كل منهما .

بيد أن هناك ظاهرة مهمة ، بل حادثاً اساسياً ، يجدر بنا تدوينه في هذا العصر ، وهو نزعة بارزة لدى الطوائف الدينية الى التجمع معاً والاستقلال باحياء خاصة من المدينة . وهي نزعة بدأت ـ دون شك ـ في العصور السابقة ، وستتسع كذلك في العصور المقبلة ولكنها جديرة بالذكر في هذا العصر خاصة ؛ فان النصارى اخذوا يتجمعون شيئاً فشيئاً في الزاوية الشمالية الشرقية من المدينة ، واليهود تجمعوا في الجنوب الشرقي ، أما المسلمون فكانوا متكاثرين في القسم الغربي يجذبهم اليه الجامع الكبير والقلعة والاسواق ، كما ان الرغبة في الأمن والطمأنينة كانت تدفع الاقليات ، مع ما نشأوا عليه من العادات والتقاليد وما خصتهم به الشريعة الاسلامية من حالة خاصة ، الى تأليف جماعات متماسكة متضامنة أشد التضامن .

والخلاصة ، فان تلك الظاهرة التي رأيناهـــا تؤول الى تأليف الاحياء او « الحارات » فيما مضى ، تعود الآن فتظهر على شكل آخر يتناول المدينة بكاملها . على ان الانفصال الثقافي لا يبلغ نهايته ضمن هذه الحواجز إلا فيما بعد ، جاريا مع تقدم الصفة الاسلامية الخاصة في الدولة وعمق العاطفة الدينية .

ولم تكن النهضة العمرانية في دمشق بأقل من النهضتين الثقافية والاقتصادية ،

---

(١) ـ ابن عبد الهادي ـ نزهة الرفاق عن شرح حال الأسواق ـ نشره حبيب الزيات في الخزانة الشرقية ـ الجزء الثالث ـ ص ٦٩ .

بل هي تعد أبرز ظاهرة في العصر الأيوبي ، فان مابني فيها من قصور ومدارس وربط[1] ومساجد وحدائق ومارستانات ماثلة آثاره للعيان ، تدل على مقدار ما كان يتمتع به اصحابها من الثروة والرخاء وعلى مقدار تمسكهم بالدين واعتنائهم بالمرضى وعطفهم على الغرباء .

ومن الطبيعي ان يكون تجمع المسلمين في القسم الغربي من المدينة قد أثر في تعيين مواقع المباني الخاصة بهم ، والتي أنشئت في ذلك العصر ، فقام مستشفى نور الدين المعروف « بالمارستان » وهو من أشهر المارستانات التي عهدها الشرق في القرون الوسطى على مقربة من الجامع الأموي ، وفي جواره عدد من الربط والخوانق ، بالاضافة الى المدارس العاملة على نشر العلوم الاسلامية ، وتأييد المذهب السني ، وقد كان الطلاب في بعضها يتناولون مبلغاً من المال يكفل معيشتهم ، فضلاً عن التعليم المجاني .

وكان هؤلاء المؤسسون في أول الأمر من أمراء الدولة ، ثم أخذ اعضاء الأسرة الحاكمة وكبار الرجال والقواد ووجهاء المدينة يتنافسون في هذه الأبنية ، حتى أصبح في دمشق نحو مائة مدرسة في منتصف القرن الثالث عشر ، يقوم أكثرها ، كما قدمنا ، في القسم الغربي ، على ان منها ماقام بعيداً عن ذلك المجتمع خارج الأسوار في عزلة مناسبة للدرس والصلاة ، فعمرت دمشق بما بناه بنو ايوب[2] ومماليكهم من العمائر الضخمة ، وأكثرها مدارس العلم ودور القرآن والحديث .

وينبغي الا نؤخذ بعدد هذه البنايات الجديدة ، فانها لم تغير شيئاً مهماً في

---

(١) تجمع على الرباطات ايضاً ويسمونها الخوانق الكبيرة، وهي المعاهد الموقوفة للفقراء .

(٢) Sauvagt, (1934) op. cit., p. 461.

منظر دمشق العام ، ولاشك في أنها ابنية حسنة التصميم جميلة البناء، ذات واجهات من الحجر المنحوت ، متميزة تماماً عما حولها من الجدران المطلية بالطين ؛ ولكن قوامها لا يرتفع بارزاً فوق مستوى السطوح ، والقبب التي تعلو قبور مؤسسيها ، ولا تتصف بالارتفاع والفخامة بشكل يؤثر في جمال المدينة أو مظهرها الطبيعي العام .

ويمكننا ان نجمع هذه المباني القائمة خارج الاسوار في مجموعتين هامتين : احداهما تشرف على الميدان الاخضر ، غربي المدينة ، في مكان وضعت فيه الاسطورة « قبور البرامكة » ، ولم تلبث ان أحاطت بها قبور الصوفية . وتعرف هذه المنطقة بالشرف القبلي ، وهو يمتد من جامع الامير تنكز في حكر السماق (وهو شارع النصر اليوم حتى البرامكة) الى قبور الصوفية ، وقد بنيت فيها أجمل العمائر وأجلها ، وأشهرها « القصر الأبلق » الذي بناه الملك الظاهر بيبرس البندقداري ، ثم بنيت على انقاضه التكية السليمانية فيما بعد .

والمجموعة الاخرى ، في لحف الجبل المشرف على دمشق ، وفيه ازدحمت المدارس والربط والاضرحة ، حتى ألفت ضاحية دعيت « بالصالحية » نسبة الى مسجد أبي صالح ، مؤسس أول بناء اقيم في هذا المكان ، وهي من الضواحي التي أخذت بالعمران في أوائل العصر الايوبي ، حين هاجر من فلسطين الشيخ ابو عمر المقدسي على اثر استيلاء الفرنج على الارض المقدسة ، ونزل بأهله من رجال الصوفية في ظاهر باب شرقي مدة سنتين ، ثم صعد الى سفح قاسيون وليس فيه من العمارة سوى دير الحوراني . وسميت البقعة التي سكنوها بالصالحية ، كما قدمنا نسبة الى مسجد ابي صالح ، ولم يبق من مدرسته اليوم الا انقاضها على نهر يزيد ، وتعرف بالمدرسة العمرية بطريق جامع الشيخ عبد الغني النابلسي ، ولم تلبث ان نمت الصالحية واتسعت ، وصار فيها سوق خاصة ومسجد جامع .[1]

---

(١) Ibid., P. 461.

والى هذه الفترة بالذات ، ترجع ايضـــاً نشأة حي الاكراد على سفح قاسيون ، فقد كثر توافد الاكراد في عهـد السلطان نور الدين وعهـد السلاطين الايوبيين لخوض غمار الحروب الصليبية ، وانتقوا لهم فسحة خالية من الارض إلى الشرق من الصالحية واختاروها موطناً دائماً لهم ، وقد انتقوا لهم هذه المنطقة لعدم وجود متسع لسكناهم في المدينة القديمة ، كما ابتعدوا بهم عن المنطقة المزروعـة ، لأنهم لم يكونوا ملاكاً ولا مزارعين ، بيد أن هـــذه الضواحي ، وان اعتبرناها امتدادات للمدينة ، فقد ظلت خلال قرون عديدة تحيا حيـاة خاصة مستقلة عن حياة المدينة .

وهكذا كان نصيب دمشق ان تعود الى نهضتها ، منـذ منتصف القرن الثالث عشر ، بفضل النظام والازدهار الاقتصادي الناجمين من ادارة أمراء الترك ، فتسترجع صفات المدينة الكبيرة الظاهرة في مركزهـــا السياسي والتجاري والصناعي والحربي والثقافي والديني .

الا انه في أواخر هذا العهد ، بدأت عوامل الضعف تنخر في جسم هذه الدولة ، فاشتد الخلاف بين ابناء العادل ، اشتداده من قبل بين ابناء أخيه صلاح الدين ، وأهم ما كان من الأحداث أيام هذا الضعف مجيء الخُوارزمية من الشرق يريدون الاستيلاء على الشام ، فأحرقت عدة أحياء وقصور ومساجـد وخانات ، ودام حصارها خمسة أشهر ، وهلك الكثير من أهل دمشق .

العهد المملوكي :

في مطلع النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، تمّ القضاء على الحكم الايوبي في دمشق ، على يد هولاكو ، وفتحت المدينـــة أبوابها للغزاة في آذار (مارس) ١٢٦٠ م ، ثم أصبح مماليك مصر سادة الشام بعد انتصارهم الكبير على المغول في عين جالوت ، فبدأت حقبة جديدة في تاريخ دمشق ، وأصبحت سوريا

بكاملها اعتباراً من هذا التاريخ ، مقاطعة ملحقة بدولة مصر ، وعلى رأس هذه الدولة « المماليك » الترك الذين ثاروا على سادتهم ، سلاطين الأيوبيين ، واغتصبوا عرشهم .

وقد ظهرت هذه الدولة المصرية – السورية في أول عهدها بارزة القوة ، حتى انها اعتبرت المركز الحقيقي للسياسة والثقافة في العالم الاسلامي، وذلك بفضل ما امتاز به أثنان من كبار سلاطينها ، وهما بيبرس وقلاوون ، من صفات خاصة وبما توفقا اليه من طرد الصليبيين واتّباع تقاليد الايوبيين . على ان هؤلاء المماليك أنفسهم أخذوا منذ أواخر القرن الرابع عشر يجمعون حولهم مماليك جدداً من الجركس، لم يلبثوا ان اغتصبوا الحكم بدورهم، فبدأوا عهداً من الارهاب والسلب والتعديات والتهاون في ضبط الأمور ، عجّل دون شك في خراب المملكة حتى ظهرت جيوش العثمانيين فطردتهم دون عناء سنة ١٥١٦ م .

ان اهم عامل في تطور دمشق اثناء هذا العهد ، بل العامل الوحيد تقريباً في ذلك التطور، هو اهمية العنصر العسكري في تكوين الدولة ، ولم يكن في هذا العصر الا المماليك والموالي ، وكلهم جهلة جشعون شرسو الاخلاق ، يخرج منهم رجال الحكم ، حتى السلطان نفسه ، من اصغر موظفي الدولة .

وكان من نتيجة ذلك – وهو امر غريب في الظاهر فقط – ان حركة المدينة الاقتصادية نالت ازدهاراً عجيبا في هذا العهد التعس ، وذلك ان جميع هؤلاء المغامرين الذين نالوا الرفعة لحماقة الحظ فعاشوا يقلقهم خوف الاغتيال او خشية الاعتقال لم يهتموا من شؤون الدولة الا بتوفير ملذاتهم والحياة في بذخ وترف غريبين .

ونكتفي بمثل واحد للدلالة على ذلك ، وهو ان الامير سلاّر بعد ان قضى احدى عشرة سنة في ولاية مصر توفي تاركا عدة ملايين من النقود وعددا

كبيرا من العبيد والمباني ، يضاف الى ذلك وزن طن ونصف من آنية الفضة و ٧٥٠ كيلو غراما من قنا الرايات المصوغة من الفضة و ١٠٠ سرج مزركش بالذهب و ٤٠٠ ثوب من الحرير المبطن بالفرو ، و ٣٠٠ من الثياب الفاخرة للحفلات و ١٠٠٠ قطعة حريرية و ١٦ مضربا مغشى بالحرير المزركش و ٣٠٠ فرس و ٧٠ كيلو غراما من الحجـــارة الكريمة و ٥٩٣٠٠٠ هكتو ليتر من الحبوب واذن فلا عجب ان تكثر كماليات هؤلاء الحكام الحديثي النعمة، فيشتغل في سبيلهم جميع رجال الصناعة التي عزّزها وجود البلاط السلطاني في دمشق خلال القرون السابقة . وهكذا غدت دمشق مدينة صناعية عظيمة مختصة بالمنتجات الشرقية تغذي بها تجارة داخلية واسعة النطاق (١) .

وكانت تلك المصنوعات تصدر الى الخارج ايضا ، بعد ان عادت العلاقات بين الغرب المسيحي والشرق الاسلامي ، على اثر انتهاء الحروب الصليبية عقب انقطاعها مدة طويلة . وكانت اوربا – وهي حافلة بظاهر الحياة اذ ذاك – لم تتجاوز بعد الافق الجغرافي الضيق الذي عرفته العصور القديمة ، فلم تعرف غير الشرق الادنى سوقا للمنتجات الغريبة ، كالافاوية والاصباغ والحرير وما شاكل ذلك . وكانت البندقية وبيزة وموانىء فرنسا الجنوبية تعمل في استغلال تلك السوق على اتم ما يمكن من مهارة ، وتتنافس في الحصول على الاولوية التجارية .

وكان لدمشق ان تستفيد نوعاً ما من هذه الحركة التبادلية الواسعة، على الرغم مما كانت تعانيه من مزاحمة حلب لها ، وموقع حلب الجغرافي افضل من موقعها ومقامها، ولهذا لم يؤسس تجار الفرنجة في دمشق محلا دائما على شيء من الاهمية ، انما كانوا يأتون السوق كثيرا على مثال جاك كور ، فيبيعون فيها الاجواخ (الاصواف)

---

(١) Ibid., P. 463.

الآتية من الفلاندر، والعبيد المستوردة من المستعمرات الجنوبية في البحر الاسود، ولا يشترون المواد الاولية كما في اسواق حلب فحسب، بل منتجات الصناعة المحلية النفيسة كالجرائر الدمشقية والنحاس المُنزّل بالفضة ونصول دمشق الشهيرة، وقد نقشت قبل سَقْيِها فبدت متموجة اللمعان، وآنية الزجاج الدمشقية الفائقة الزخرف بالمينا، تلك الآنية المذكورة في لوائح اثاث ملوك فرنسا، والتي تفتخر بها كنوز بعض الكاتدرائيات الغربية.

وقد اثرت هذه الحركة الصناعية والتجارية في تطور المدينة، فاتسعت الاسواق اتساعاً جديداً، واثر فيها كذلك تفوق العنصر العسكري، فاخذت محلات البيع والشراء تتميز مائلة الى الاختصاص بالنسبة الى زبائنها.

وظهر امام باب القلعة الشمالي ميدان فسيح دعي «تحت القلعة» كانت تقام فيه «سوق الخيل» وهي ضرورية لتموين الجيش المؤلف من الخيالة وحدهم. وفي هذا الميدان كان الحاكم يجمع الحامية مرتين في الاسبوع اثناء الحفلة التي تتقدم مجلس القضاء الحافل، فيستعرض الجند ويراقب الخيل والسلاح والاعتدة ويعلن الترقيات والقرارات.

ولما كانت سوق الخيل قد اصبحت مركز الحياة العسكرية وموقف الجنود التقليدي، اخذ جميع الصناع العاملين في سبيل افراد الجيش، كتجار الاقمشة والثياب والخياطين وصناع الاسلحة واصحاب المطاعم والخمارات وباعة السلع القديمة وجميع من يعملون في سبيل الخيل كباعة الشعير والتبن وصناع المذاري والغرابيل والسروج، يتركون شيئاً فشيئاً حوانيتهم ضمن الاسوار ويأتون مجتمعين «تحت القلعة» حول الميدان المذكور وعلى ممرات الطرق الموصلة اليه. وكذلك عمل هذا المركز على جذب باعة الخضر والفواكه حتى قامت فيه سوق خاصة كل نهار جمعة (١).

---

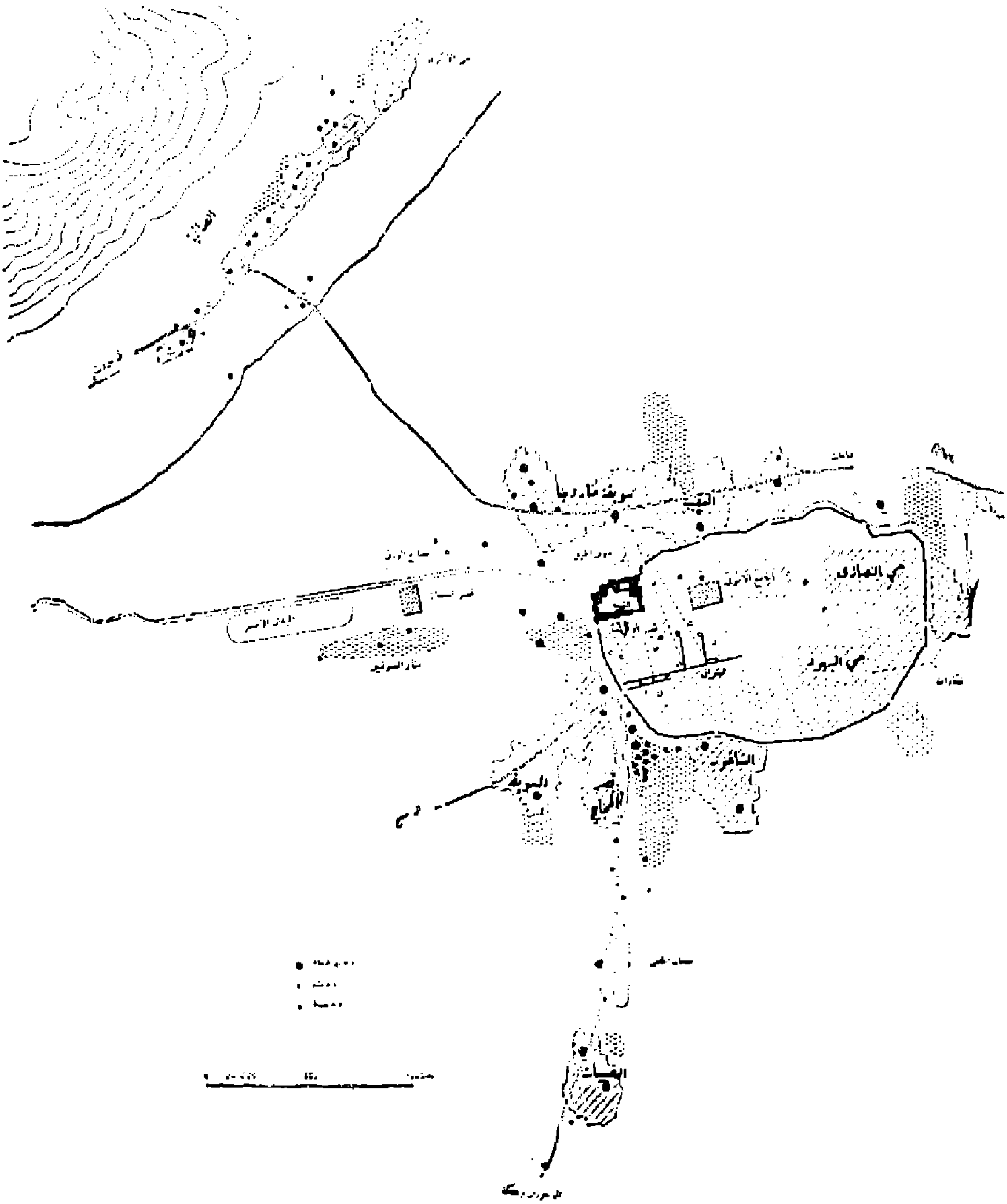
(١) Ibid., PP. 464 - 465

وعلى اثر تجمع ارباب الصناعات ، خارج المركز التجاري الاصلي ، وجد الصناع والتجار الذين يعملون في سبيل سكان المدينة متسعاً لهم في الاسواق القديمة ، فاستغلوه وفقاً لمتطلبات الحركة الاقتصادية ، فتكاثرت الدباغات وهي ضرورية لصناعة السروج ، حتى ان مصانع الورق التي كانت الى جانبها اضطرت الى الانتقال الى منطقة جديدة . وكذلك القول عن مصانع الفخار فانها تكاثرت حتى ألفت ضاحية جديدة خارج الباب الشرقي ، لأن مصنوعاتها ، بعد ان ظهر فيها تأثير الخزف الصيني ، اشتهرت شهرة واسعة وغزت كثيراً من الاسواق حتى اسواق القاهرة . اما الساحات التي كانت تقام فيها اسواق الماشية فقد تخلت عن ساحاتها للمنازل ، لأن تلك الاسواق لم يبق لها من منفعة فتلاشت .

ولا يخفى ان الحاجة الى اليد العاملة تزيد عدد السكان ، فنشأ من ذلك ضاحيتان جديدتان خُصّتا بالسكن ، وبرهننا على ذلك في اسميها المأخوذين من « السُويقة » التي كان سكانها يشترون منها . وقد نشأت الاولى منهما في الجنوب الغربي على الطريق الذاهبة نحو عكا وصور ومصر ودُعيت « السُويقة »، وحفلت بالكثير من الخانات الضرورية لنزول القوافل .

اما الضاحية الثانية فاسمها « سويقة صاروجا » ، نسبة الى الامير صارم الدين صاروجا (في عهد تنكز نائب الشام) ، وقد نشأت في شمالي المدينة على طريق الصالحية وبيروت قريبة من سوق الخيل ، واختصت على الغالب بسكن الضباط والجنود لقربها من القلعة (شكل ٣٦) . وتتابع البناء في عصر المماليك في هذه المنطقة ، فبُني الى جانبها عدة حارات منها حارة قولي ، كما ان الأمير المملوكي الشالق بنى حارة تعرف الان بحارة الشالة محرفة عن اسمه .

شكل (٣٦)



دمشق في أوائل القرن السادس عشر

عن سوفاجية

اما القلعة فقد كان لها نظام خاص ، لم يكن للحاكم اي سلطة عليها ، بل لم يكن له الحق في دخولها ، وذلك خوفاً من ان يستند اليها حكام المدينة في ثورتهم على السلطان ، انما كانت تخضع لقائد خاص يتصل رأساً بالسلطان ، فهي مدينة ملكية مستقلة ، وان لم يكن هناك سلطان ترتبط به . اما الحاكم فقد كان يقيم مع دوائر حكومته في قصر العدل القديم .

ولم يكن ذلك الازدهار الاقتصادي،الذي أشرنا اليه ، كل ما انتجته سلطة المماليك من الغرائب ، فقد كان هؤلاء المسيطرون الجفاة يرغبون في البناء ، وقد تركوا في دمشق عدداً من الآثار غدت زينة للمدينة . ولما كانوا دائمي القلق في حياتهم عمدوا قبل كل شيء الى تأمين دفنهم ، فأقاموا تلك المقابر الفخمة ذات الواجهات المتعددة الألوان والقبب الرفيعة المزينة بالصور الظاهرة في منظر المدينة مظهر الجمال الملوّن ، وهي تتسلسل على طريق مكة خاصة ، لينال الباني بركة صلوات الحجاج في طريقهم الى البيت الحرام .

واهتموا أيضاً ببناء المساجد الجامعة ، وهي من نتائج تطور الأفكار الدينية واتساع المدينة ، فقامت في جميع الأحياء مرتفعةً بآذنها المربعة أو المتعددة الاضلاع بما عليها من الشرفات،مرتفعة في كل ناحية عن المستوى العادي لسطوح المنازل، مضيفة الى منظر دمشق مشهداً جديداً ، معلقةً – وسط السماء طول ليالي رمضان – أكاليل متنوعة من الأنوار[1] .

بيد انه منذ منتصف القرن الخامس عشر بدأت أزمة اقتصادية شديدة الوطأة ؛ وذلك ان النظام الغريب الذي كان سائداً في مصر وسوريا منذ مئتي سنة ولّد فقراً شاملاً في جميع الطبقات ، ففرغت خزائن الدولة حتى اضطرت الحكومة الى الاحتيال للعيش ، وقلت مقدرة كبار الرجال على الشراء فخففت

---

(١) Ibid., pp. 466 - 467 .

الصناعة من منتجاتها ، وثقلت وطأة الضرائب والمكوس على التجـار فوق استبداد الموظفين ، فدخلت التجارة في طور نزاع حتى قضت عليها اكتشافات البرتغاليين عندما افقدوا طرق البحر المتوسط اهميتها السابقة .

ولقد كان نصيب دمشق وافرا من ذلك الشقاء، وخاصة بعد ان اكتسحها تيمورلنك سنة ١٤٠٠ م ، فأجلى عنها عدداً كبيرا من الحاكة وصناع الزجاج والاسلحة واضطرهم الى المسير نحو سمرقند ، فانحطت دمشق انحطاطا لم تنهض منه ، ولم تكن عندما دخلها السلطان سليم سنة ١٥١٦ م الا مدينة نصف خربة .

الا ان هذه المدينة ، ومهما كانت التقلبات السياسية ، تستفيق من غفوتها وتضمد جراحها ، لانها تتوسط اغنى الاقاليم في آسيا الغربية ، فالظروف الطبيعية والزراعية التي تدين بوجودها الى الري يجعلها في حاجة الى وجود هذه المدينة .

العهد العثماني

دخل العثمانيون دمشق بعد بضعة اسابيع من هزيمة المماليك في معركة مرج دابق ، ولم يغير خضوع سوريا لسلاطين القسطنطينية شيئا مهما في النظام الاجتماعي الا فيما يختص بمبدأ الحكم ، فان الباشاوات لم يكونوا ، على الغالب ، اقل جهلا ولا شراسة ولا اضطرابا في مراكزهم من حكام المماليك ، ولا ابعد عن النهم في المال ، بفضل ما كانوا يفرضونه على السكان من الضرائب والغرامات ، وان يكن جمهور الجيش ابعد عن اثارة الفتن من الجيش المملوكي ، فان هناك فرقتين ممتازتين هما « الشرفاء » و « الانكشارية » كانتا تتنافسان دائما في سبيل التفوق وبسط النفوذ ؛ وكثيرا ما كانت تنتهي منافساتها بالعراك المسلح . أما خارج المدن فلم يبق من سيادة للامن ، فالبدو وقطاع الطرق ينهبون القوافل ولا يخشون عقابا .

ولكن لم يكن لهذه المظاهر المحلية من تأثير عام ، فان تطور دمشق ، في هذا العصر ، تأثر بعوامل اهم مما تقدم ، هي تلك العوامل التي كانت تهم الامبراطورية بأسرها ، واولها كيان الامبراطورية نفسها التي تشمل شرقي البحر المتوسط بكامله ، حتى اصبح ممكناً لكل فرد من رعية السلطان الاعظم ان يسافر من الدانوب الى المحيط الهندي ، ومن بلاد العجم الى المغرب ، دون ان يخرج عن الشرائع نفسها ولا عن النظام الاداري الذي اعتاده ، بل دون ان يضطر الى استعمال لغة جديدة ، ولا ان يحتاج الى الاخذ بقطع من النقود غير التي عرفها في بلاده ، وهي حالة لاتخفى اهميتها في سبيل تعزيز حركة التجارة الداخلية ، حتى ان المكوس والرسوم المتعددة واستبداد الموظفين واضطراب الامن في الطرقات لم تتمكن من عرقلتها ، لأنها كانت تمدّ تجارة خارجية وافرة الارباح ؛ وذلك ان الموافقة على « الامتيازات الاجنبية » فتحت الموانىء التركية لتجار اوربا ، فاخذوا يصدرون اليها الكميات الهائلة من المصنوعات على اختلاف انواعها ، ويستوردون منها كميات كبيرة من المواد الاولية . وكان اكثر الناس فائدةً من هذه الحركة نصارى البلاد ، فان معرفتهم بالعادات المحلية سهلت لهم اعمال الوساطة والسمسرة والترجمة . وقد استفادت دمشق فائدة جليلة من هذه الحركة التجارية المزدوجة بفضل قربها من « أسكلة » صيدا الفرنسية .

على ان حركتها المهمة كانت تتجه ناحية اخرى ، وذلك بفضل موقعها الجغرافي على طريق الحج ، فقد كان الحج الى مكة مورد المدينة الاعظم حتى آخر القرن التاسع عشر ؛ ولا يخفى ان الوصول الى الحرمين بطريق البر يفرض مشقات جمّة ، فكان على سلاطين آل عثمان وهم رؤساء الاسلام السنيون ، ان يهتموا بتسهيل الحج على المؤمنين بتنظيم طريقه . فأنشأوا على طرقات مملكتهم المتجهة نحو الحجاز الخانات والجسور والمخافر ، واقاموا في البادية حصونا لحراسة

الآبار ، وجعلوا من دمشق ، وهي آخر محطـــة في بلاد الحضر الآهولة المتمدنة محل اجـتماع الحجاج القادمين من الشمال ؛ فكان والي دمشق في الموعد المعين كل سنة ، وقد دُعي بلقب طالما تاق اليه الباشــاوات ، وهو لقب «أمير الحج» يترك المدينة في موكب حافل مرافقاً « المحْمَل » ، شعار سيادة السلطان على « الحرمين الشريفين » فيصل الى المزيريب في حوران على حدود أرض القبائل حيث ينتظره الحجاج ، ومن هناك يقود بنفسه تلك القـافلة العظيـمة يحميها الجيش يدافعه عند الحاجة ملقياً الهيبة في قلوب البدو . وهي مهمة خطيرة قد تذهب بحياة الوالي ان لم يكن جديراً بتحمل مسؤوليتها .

ولكي نقدر هذا الحادث السنوي على قدره الصحيح ، علينا ان نتنبه الى ان هذا النظام لا يستفيد منه السوريون وحدهم بل يستفيد منه ايضاً مسلمو الجزيرة العليا و كردستان والقوقاز وأذربيجان والأناضول والبلقــان والقرم ومسلمو استنبول نفسها ، وهي من اكثر مدن البحر المتوسط سكاناً بعد البندقية ؛ وإذن فلدينا عشرات الألوف من المسلمين يستدعيهم الأمان السائد على « درب الحج » فيمرون في دمشق مرتين ذهاباً وإياباً (١).

وفي دمشق يستعدون لقطع البادية ، فيستأجرون أو يشترون الدواب ، ويأخذون المعدات للنزول في الصحراء ، ويهتمون خاصة بالمؤونة الكافية لمعيشتهم حتى رجوعهم الى دمشق ، لأنه لا مورد لهم في الصحارى المقفرة التي سيقطعونها ، ولا في الأماكن المقدسة التي سينزلونها . ومن الطبيعي ان يفضلوا أسهل المآكل حفظاً وأفضلها غذاء وهو القمح ، وكم يلزم من أطنان القمح لتغذية عشرين او ثلاثين ألف رجل مدة ثلاثة أشهر ! ويجتهد الحجاج - ليعوضوا جزءاً من نفقات حجهم ، فيحملون في إيابهم كثيراً من البضائع الوفيرة الأرباح على صغر حجمها ،

(١) Ibid .. p . 469

كسلع الشرق الأقصى والبن فيبيعون كل ذلك في دمشق ، أول مدينة متحضرة فى طريقهم . وهكذا يحدث الحج في المدينة حركة نشيطة تظل حتى أوائل العصر الحاضر العامل الأهم في تطور تجارتها .

وكان الدور المهم في حياة المدينة إذ ذاك للقوافل ، وهو مايسوغ إنشاء الخانات العديدة مستودعات وفنادق للأجانب من التجار . وأقدم تلك الخانات لايختلف تصميمه عما نعهده في سوريا ؛ ففي وسطه ساحة مربعة ، على الغالب ، يحيط بها رواق مرتفع على أعمدة تنفتح فيه الحوانيت والاصطبل ، وتختص الطبقة العليا بغرف السكن .

على انه منذ القرن الثامن عشر ، بل قد يكون منذ القرن السابع عشر ، ظهر بعض التغيير في هذا التصميم العادي ، وذلك ان الساحة المركزية أخذت تضيق وتسقف بالقباب فتتحول الى قاعة كبيرة واسعة تكون فيها البضائع بمأمن من تقلبات الجو ، وان نشأة هذا الطراز الجديد الخاص بدمشق لدليل على ان الخان أصبح إذ ذاك عنصراً حياً فعالاً في المدينة ، وأهم هذه الخانات هي : خان الحرير (١٥٧٢ م) وخان الجمرك (نهاية القرن السادس عشر) وخان أسعد باشا وخان سليمان باشا (١٧٣٢ م) .

ثم اننا نرى ان كل مايتعلق بالحج من مظاهر التجارة يتمركز على طريق مكة ، فتظهر هناك خارج الباب الغربي ، على ضفة الخندق ، في المحل المدعو « السنانية » نسبة الى الجامع القريب ، وهو من بناء سنان باشا ، مجموعة من الأسواق يجد فيها المسافرون وأرباب القوافل وباعة القمح من الفلاحين وأصحاب الإبل من البدو ، كل ما يحتاجون اليه من ثياب وأحذية ومعدات المضارب وأكياس ورحال وما شاكل ذلك .

وأبعد من ذلك، على الطريق التي تؤدي الى الحجاز والى أراضي حوران الخصبة ، تتتابع مستودعات القمح دون انقطاع بين المشاهد المبنية من عهد المماليك، فتؤلف ضاحية يبلغ طولها الثلاثة كيلو مترات تنمو فتبتلع أثناء تشكلها قريه صغيرة تدعى « القبيبات » [1] كان يسكنها زراع الأراضي المجاورة ؛ ثم اتصلت القبيبات في الجنوب الشرقي بقريه السودة ، التي تعرف الآن بحلة القاعة ؛ واستمرت هذه المنازل بزحفها شمالاً حتى التقت بشيلاتها الزاحفة جنوباً ، ولم تلبث تلك الضاحية ان شكلت حياً متطاولاً يدعى « الميدان » باسم « ميدان الحصى » القديم ، وهو قريب منها ، ويدعى طرفها الجنوبي « باب الله » وهو المحل الذي يترك فيه الحجاج مدينة دمشق متجهين نحو البيت الحرام . اما سكان تلك الضاحية فكلهم من باعة القمح والفلاحين والبدو ومن اليهم ، وكان من الطبيعي ان تقام سوق الجمال على مقربة من هذه الضاحية ذات الاختصاص ، اما سوق الخيل ـ وقد فقدت أهميتها ـ فأخذت تتراجع أمام تقدم الأسواق التجاريه التي كانت تحيط بها .

وكان من نتائج بعد الحدود السياسية ذاك البعد العجيب ، ان المدينة أصبحت بأمن من الغارات والغزوات ؛ فلم يبق من منفعة للتحصينات القديمة ، ولهذا رأينا منازل السكن تكتسح الأسوار شيئاً فشيئاً ، والخندق تملوءه الأوساخ والفضلات .

اما القلعة فقد تداعت للسقوط ، ولم يبق فيها إلا عدد قليل من الرجال العاطلين ، على أنها ظلت محافظة على صفتها المعروفة منذ عهد المماليك ، فبقيت ترتبط رأساً بالسلطان ، وعليها حاكم خاص إشارة الى سلطة السلطان الممددة دائماً

---

(١) دعيت بالقبيبات بسبب سقوفها التي بنيت على شكل قباب صغيرة ، وقد حل سكانها هذا الطراز من البناء من « السخنة » التي قدموا منها، ولا يزال سكانها يعرفون بالسخانة.

الباشا الوالي ، ومقام هذا الباشا مع دوائر الحكومة في السراي خارج المدينه ، تلتف حوله الأسر التركية الكبيرة ، مشكلين ضاحية جديدة،قريبه من السراي، تمتد على طرل القناة الرومانيه القديمة وتدعى «القنوات» . أما في الضواحي كسويقة صاروجا والعقيبه والسويقه فقد اتسعت كذلك بتأثير تلك الحركة العامة . وكان الأوروبيون من قناصل ومرسلين وتجار ينزلون بين أرباب دينهم في حي باب توما الحافل بالمنازل الجميلة[1] ، (شكل ٣٧) .

وكذلك القول بالنسبة الى حي الصالحية ، فقد اخذ بالاتساع نتيجة وصول هجرات حديثة من الاكراد ابان الحكم العثماني ، نزحوا اليه من موطنهم الاصلي (كردستان) وخاصة من تركيا والعراق . وقد هاجر هؤلاء بحكم وظائفهم لدى الحكومة العثمانية ؛ اذ كانت تعتمد عليهم في توطيد الامن واحلال النظام ، ولم تنقطع هجرتهم الا بعد انفصال سوريا عن الدولة العثمانية .

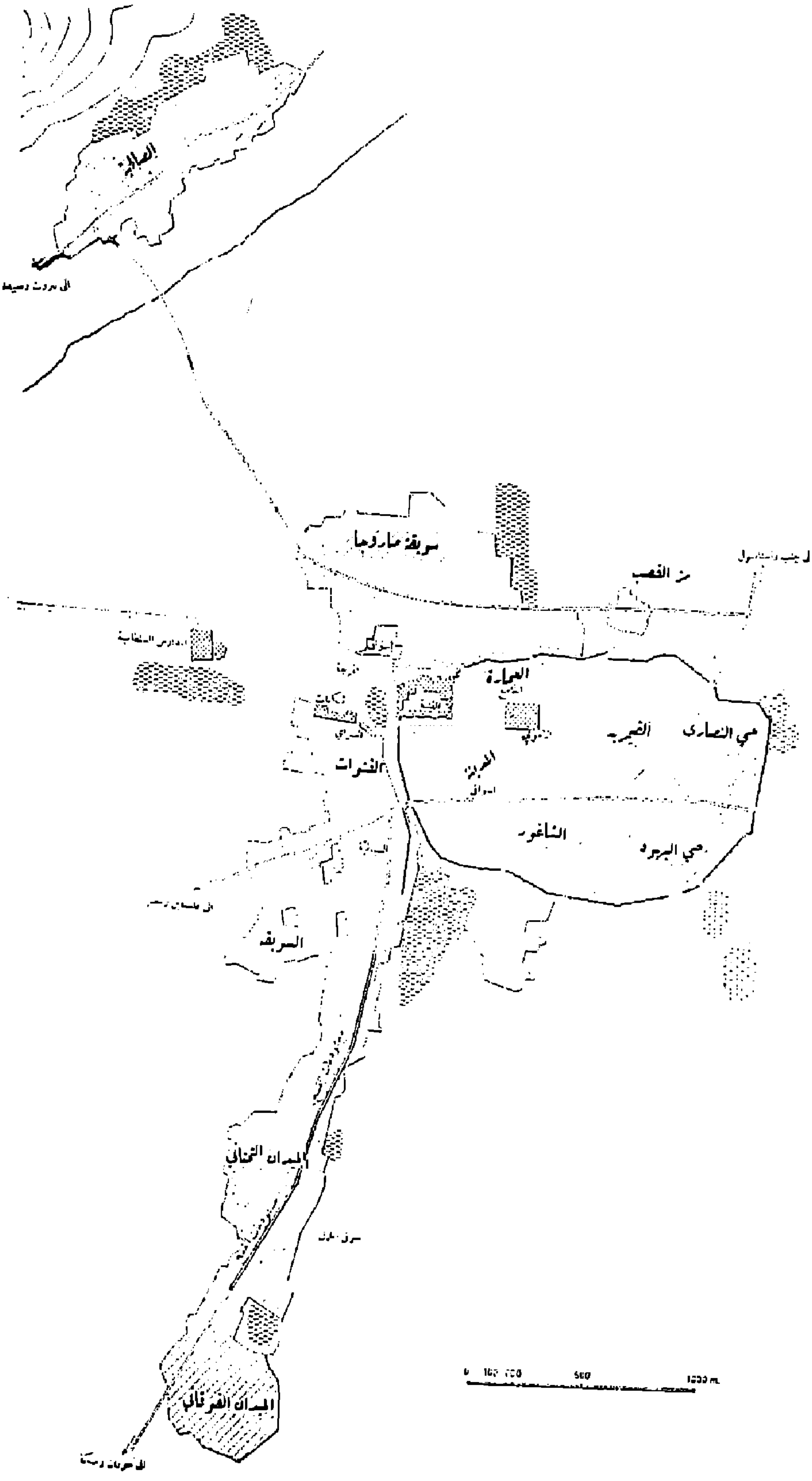
وقد كان عمران دمشق ايام العثمانيين كثيبا ، فقد تكدس الناس في رقعة ضيقة ، وجعلوا الازقة ملتوية ليختبئوا وراءها وتكون لهم متاريس ساعة يدور القتال في الشوارع والحارات ، وكان من نصيب الدور القديمة ان اختبأت في هذه الازقة ، ولا ينم ظاهرها الا عن فقر وخصاصة .

ويجدر أن نشير أخيراً ، الى ان الباشاوات انشأوا بعض الجوامع الكبيرة ، وان كانت قليلة العدد . وقد بنوها على طراز جوامع القسطنطينية ، فرفعت في الفضاء قبابها الفسيحة النصف الكروية ومآذنها النحيفة المتوجة بما يشبه مطافىء الشمع ، فأثرت في منظر المدينة بما اثرت فيه بنايات المماليك . وكانت ساحاتها التي تحيطها الاروقة اللطيفة ذات القبب وتظللها الدوالي وشجر الدلب ، تثير في قلب دمشق ، تلك اللذة الكئيبة التي تمتاز بها استنبول ، واهمها جامع التكية السليمانية الذي بني في عام ١٥٥٤ م .

---

(١) Sauvaget , (1934) , op. cit., pp. 471 - 472.

شكل (٣٧)



دمشق في منتصف القرن التاسع عشر   عن سوفاجيه

الفصل الثالث

مدينة دمشق في العصر الحديث

ان دراسة المدينة في العصر الحاضر ترتبط بالجغرافيا اكثر منها بالتاريخ، ويمكن ان نميز بين فترتين في تطور المدينة العصرية ، تبدأ الاولى بدخول ابراهيم باشا سنة ١٨٣٢ وتنتهي بانتهاء السيادة العثمانية سنة ١٩١٨ ؛ وفيها يظهر التأثير الاوربي بواسطة الموظفين المصريين والباشوات العصريين ، امثال مدحت باشا والمنتمين الى حزب « تركيا الفتاة » . ومن الطبيعي ان يكون التأثير خفيفا ، اول الامر ، فقد ظهر من جهة باهتمامات جديدة اهمها ما يتعلق بالصحة العامة وحركة السير ، ومن جهة اخرى بتنظيم اداري جديد ادى الى اقامة مبان حكومية جديدة .

وقد قامت هذه المباني على الاراضي التي ظلت حتى ذاك العهد ، وهي غربي المدينة القديمة في « المرجة » على ضفتي النهر ، فبنيت هناك السراي ومركز البلدية وادارة البريد وقصر العدل والجامعة والثكنات ومحطة سكة حديد بيروت والحجاز وادارة شركة الترامواي وغيرها .

وكان من اثر الاهتمام بالشؤون الصحية اعادة توزيع المياه ، ونشأة احياء بعيدة عن وسط المدينة القديم . وكانت السلطة في اواخر القرن التاسع عشر

قد انزلت في سفح الجبل في الطرف الغربي من الصالحية المهاجرين من مسلمي كريت في حي قسمته الى اقسام منظمة، ودعي منذ ذلك الوقت بحي «المهاجرين» وقد اهاب الهواء الدائم في ذاك الحي وما يمتاز به من جمال المنظر بأسر الاتراك الى السكنى فيه ، كما ان كثيرا من الأسر الموسرة اخذت تنتقل من المدينة القديمة لتجد على طول طريق الصالحية منازل افضل من منازلها الاولى بين الجنائن المتتابعة .

ان الرغبة بتسهيل حركة السير للعربات التي دخلت حديثا الى المدينة ، دفعت الحكومة الى طمر خندق القلعة الجنوبي لتوسيع السوق الهامة التي تقابل الشارع الروماني ، بسبب ضيق مجال التجارة في تلك السوق التي اخذت اسم سوق الحميدية الشهير ، وهو يصل ما بين شارع النصر والجامع الاموي حاليا .

* * *

أما الفترة الثانية فتبتدىء في سنة ١٩٢١ ، وفيها استقر الانتداب الفرنسي بدمشق ، فأخذ تقدم المدينة يسير سيراً حثيثاً ، وذلك لأن جالية فرنسية أخذت تقيم في المدينة ، ولئن تكن تلك الجالية قليلة العدد فانها كانت شديدة التأثير بسبب غناها النسبي ونفوذها الاجتماعي والثقافي . وبفضل إقامتها في دمشق ، وفي سبيل حاجاتها ، تقدمت تلك الاحياء الممتدة بين الصالحية والمدينة القديمة ، والتي ظلت ضئيلة حتى ذاك العهد .

وهكذا رأينا « الجسر » و « عرنوس » و « الشهداء » في أقل من عشر سنوات تنمو نمواً فاق كل تقدير ، فقد عُمّرت جميع البساتين التي كانت تفصل المدينة عن الجبل . وفيما بعد ، اصبحت طريقاً مستمراً يصل الصالحية بجسم المدينة فتظهر بظهر المدن الغربية بشوارعها العريضة المستقيمة واختلاط سكانها، حتى لا نرى اثراً

لتلك الحواجز الطائفية ، فالمسلمون والمسيحيون يعيشون جنباً الى جنب ، بل ان نصارى المدينة انفسهم أخذوا،بفضل الامن المستتب ، يتركون حيّهم القديم في باب توما وينتقلون شيئاً فشيئاً الى هذه الاحياء الجديدة . وهـــذه الحوانيت والمخازن تتابع الآن على طول الجادة الوسطى في هذه الأحياء ، فـلا تظهر بمظهر السوق القديمة بل بمظهر شارع اوربي تجاري ، تجد فيه جميع اصناف التجارة ، الواحدة الى جانب الاخرى (شكل ٣٨) .

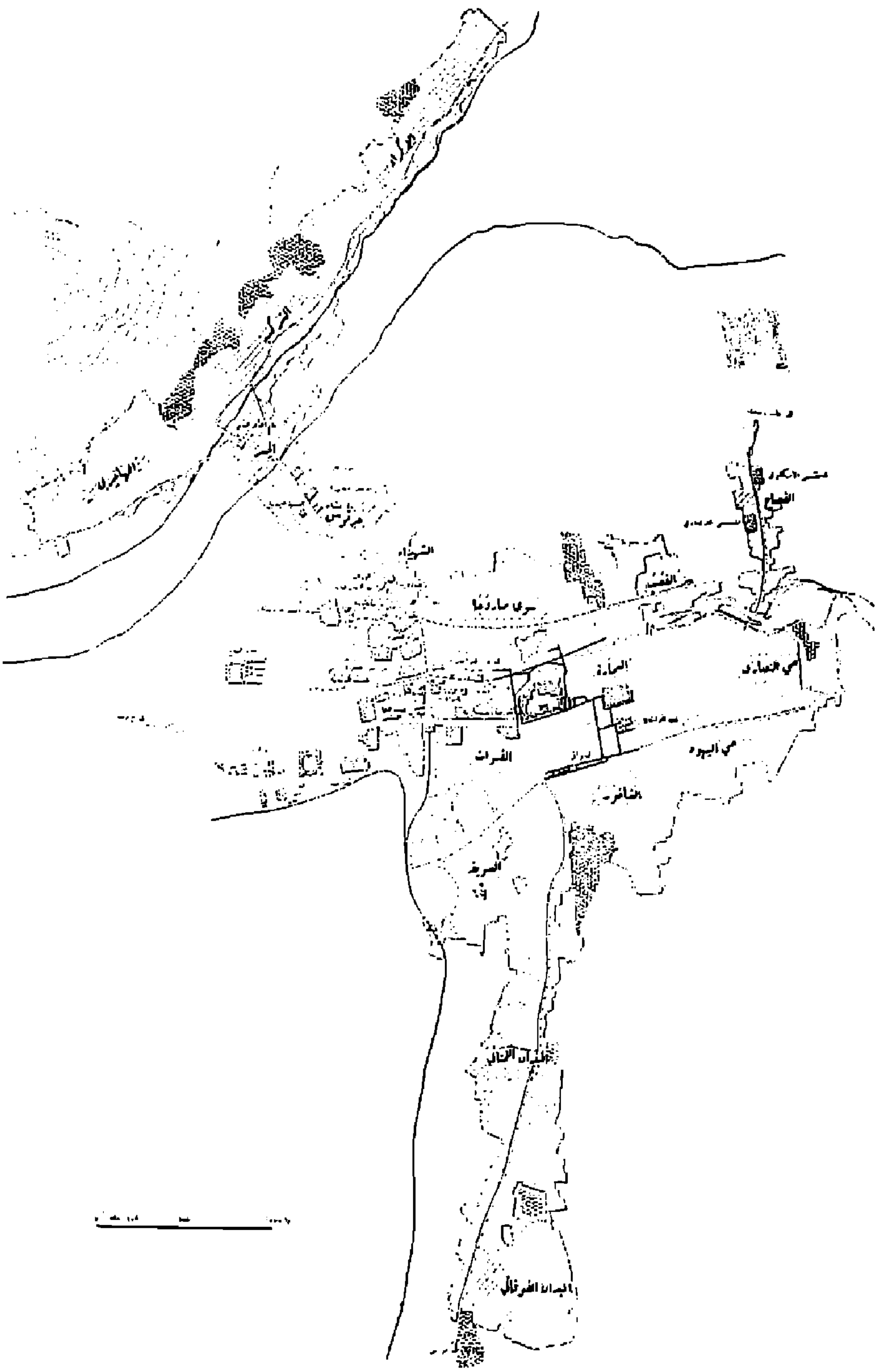
وليس ما يمنع تتابع هذه الحركة العصرية ، فان الاحياء الجـديدة تنزع منذ بضع سنوات الى احتكار الناحية العصرية في حياة المدينة،فتنتقل اليها يوماً بعد يوم جميع المؤسسات الهامة في المدينة الحالية،كالإدارات المتنوعة والمصارف والفنادق والمستشفيات وما شاكلها ؛ وهكذا تنشأ دفعة واحدة مدينة جديدة الى جانب المدينة القديمة؛ بينما تتجه هذه نحو الانحطاط باسواقها المحتضرة وما يقوم حولها من المؤسسات القديمة ،كالبطريركيات والمحكمة الشرعية ومساكن الطبقات الفقيرة من الشعب .

ان نمو أحياء المدينة لم يتم بدرجة واحدة في كل مكان ، فبعض الأحياء تضاعفت مساحتها في السنوات الأخيرة ، كما بنيت أحياء جديدة تضاهي في مساحتها الأحياء القديمة، وبعض الأحياء توسعت توسعاً ملحوظاً، وبعضها لا يزال كما كان منذ قرون خلت .

وبهذا الشكل نمت مدينة دمشق ، وأخذت احياؤهـا الأسماء التي كانت تطلق على الضواحي السابقة ، وهذه الأحياء هي :

ـ الميدان الذي يبلغ طوله أكثر من ٣٠٠٠ متر وعرضه يقرب من ١٠٠٠ متر .

شكل (٣٨)



عن سوفاجيه

دمشق في عام ١٩٣٦

- أحياء الشهداء وعرنوس والجسر المتتابعة بطول ١٥٠٠ متر وعرض يزيد على ١٠٠٠ متر .
- المهاجرين الذي يقدر طوله بما يقرب من ١٣٠٠ متر وعرض ٥٠٠ متر.
- الأكراد ويبلغ طوله ١٨٠٠ متر وعرض ٤٠٠ متر .
- القصاع ويبلغ طوله ١٠٠٠ متر وعرض يقرب من ذلك .
- ويمكننا دراسة نمو الأحياء المختلفة واتساعها حتى الوقت الحاضر على النحو الآتي :

الاحياء الشمالية الغربية :

تشتمل الأحياء الشمالية الغربية من مدينة دمشق على أحياء الصالحية والأكراد والمهاجرين ، وان نظرة عابرة الى هذه الأحياء تظهر بوضوح ان نهر يزيد هو الذي يتحكم بحياة المراكز البشرية القائمة على سفح قاسيون . وهذه الأحياء الثلاثة تتتابع من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي حسب الترتيب التالي : مهاجرين - صالحية - اكراد .

وأقدم هذه الأحياء هو حي الصالحية الذي يتوسطها. وان دراسة النصوص التاريخية تبين لنا ان مدرسة العمرية هي النواة الاولى التي نمت حولها المساكن في هذا الحي ، وحي الصالحية كان أثراً من آثار لاجىء فلسطيني ، نزح من بلاده هرباً بدينه من الصليبيين ، كما هرب الفلسطينيون اليوم بدنياهم من اليهود ، ونزل المسجد كما نزلوا ، ولكنه صنع هو وأسرته حياً جديداً لبث قروناً وهو اجمل أحيائها منظراً وأصحها هواء .

ففي سنة ٥٥١ للهجرة ، وصلت اول قافلة من لاجئي فلسطين لدمشق يرأسها كبير قرية جماعيل[1] وفقيهها الشيخ احمد بن قدامه المقدسي ، ثم تتابعت

(١) قرية في جبل نابلس في فلسطين (عن ياقوت) .

الهجرة بعد ذلك ، فكان المهاجرون يُعدّون بالمئات ، وكان نزولهم - وهم عدد غير قليل - في مسجد غير صحي في موقعه ، سبباً في تفشي الامراض بينهم وموت عدد كبير منهم ، فوقع اختيارهم على سفح قاسيون وعلى مقربة من نهر يزيد ، فبنوا لهم داراً تحوي عدداً كبيراً من الحجرات دعيت بدير الحنابلة ، ثم شرعوا في بناء اول مدرسة في الجبل وهي المعروفة « بالعُمرية » التي كانت في عزلة تامة عن المدينة ، ولم يكن آنذاك سوى دير مسيحي هو دير الحوراني [١] الذي كان في ذلك الوقت متهدماً على الأغلب ، ولا يزال موضعه الى اليوم يسمى « بجارة الدير » [٢] .

كانت المنطقة اذن ،قبل ظهور هذه الضاحية ملاذاًيقصد للتأمل والعبادة، وهذه هي « الصالحية »مجمع الأناس الصالحين، التي أقيم فيها بناء في السنوات الأولى من القرن الثاني عشر ، وشيدت فيها أول مدرسة على نهر يزيد ، أحد فروع بردى ، كما هي الحال في مواقع القرى المنتشرة في منطقة القلمون [٣] .

ولكن هؤلاء الناس الذين يعيشون حياة الفضيلة كان عليهم البحث عن أرزاقهم ، فالى جانب المدارس الدينية والمساجد استقر القرويون لزراعة الأرض التي كان يرويها نهر يزيد ؛ وهذا المظهر الريفي استمر طويلاً كصفة مميزة لمنطقة الصالحية . وقد نمت هذه القرية كأمثالها فوق الفرع العلوي ، وامتدت الكتلة السكنية بمحاذاة نهر يزيد ، ثم تجاوزت المباني هذا الفرع وامتد البناء باتجاه دمشق على طول طريق حمام المُقدَّم ؛ ونشأ شريط ضيق من المنازل المتراصة بين

---

(١) Journal Asiatique ,nov .-déc . , 1894 . P . 473 .

(٢) محمد بن طولون الصالحي - القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية - مقدمة محمد احمد دهمان - ص ٣ .

(٣) Thoumin. (1936) . Op. cit., p. 246

البساتين ، تدين بوجودها لأهمية هذا الطريق في حركة التنقل والمواصلات ،فاتصل الطريق بجسر تورا ثم بطريق دمشق ، وبذلك اصبحت الصالحية أحد أحياء دمشق ، التي تتصل بالمدينة القديمة اتصالاً تاماً ، ولاتبعد عنها سوى كيلو مترين تقريباً .

وقد تخلت البساتين عن مكانها من أجل ثلاثة أحياء تتتابع من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي وهي : الشهداء وعرنوس والجسر ، يحمل الأول اسم مسجد يحوي رفاة شهيدين لايعرف تاريخ استشهادهما تماماً ولا سببه ، والثاني اسم ضريح ، أما الثالث فهو نسبة الى موضعه قرب جسر تورا ، ومن حولها نمت القرى الصغيرة التي تمثل أصل الأحياء الحالية .

وقد كان الطريق الذاهب من دمشق الى الصالحية مطروقاً جداً ، ويزيد في أهميته كذلك استخدامه للذاهب الى دمر وقرى وادي بردى ، فاصطفت على جوانب الطريق بعض البيوت القليلة في أرض خصبة مرتفعة الثمن ، كما جذبت هذه الضاحية الريفية اليها ملاكين أغنياء بنوا فيها منازل فخمة .

واول بناء انشىء فيها المستشفى العسكري سنة ١٨٦٥ (مكان الأركان العامة القديمة) ، الذي بنته الحكومة العثمانية ، ثم بيت زيوار باشا الذي توفي قبل ان يسكنه ، فحوّله الاتراك الى مدرسة للطب دعيت « بمدرسة الحياة » (مكان مدرسة جول جمال) ، هذا بالاضافة الى بعض الأبنية الأخرى التي أنشأ الأتراك العثمانيون معظمها ، ولكن هذه الأبنية ظلت محدودة متفرقة ، كما بقيت البساتين الوارفة الظلال تشغل الأراضي الواقعة على طرفي طريق الصالحية حتى أواخر القرن التاسع عشر .

وعلى أثر فتح طريق الصالحية عام ١٩٠٣ ، انتشر العمران على طرفي الطريق لمسافة لاتتجاوز المائة متر في شرقي الطريق وغربه ، وفيماوراء ذلك تنتشر

البساتين ، كبستان الكركة الذي كان يمتد بين بوابة الصالحية والسبع بحرات ، وبستان سمار الذي كان يشغل مكان ثانوية جودة الهاشمي اليوم .

وهناك سبب لايمت الى الجغرافية بصلة ، يفسر التطور السريع لهذه الأحياء بعد الحرب الأولى ؛ فمنذ الاحتلال الفرنسي أصبحت الشهداء وعرنوس أحياء الأوروبيين ، مما أدى الى إعمار هذه المنطقة وازدهارها بفضل الجاليتين الفرنسية والايطالية والموسرين من المواطنين ؛ فقد بنت الجالية الفرنسية كنيسة القديس انطوان البادوية (سنة ١٩٢٦) ، ومعهد جان دارك (سنة ١٩٣٠) كما انشئت هناك دار الاركان العامة والمستشفى العسكري ، وخزانة الدولة ومركز البريد ومكاتب المفوضية الفرنسية والمجلس الحربي وغيرها ، وبالتالي مساكن الضباط النقباء الذين يفضلون السكنى بالقرب من مراكز عملهم . كما بدأت الجالية الايطالية بناء مستشفاها منذ سنة ١٩١٣ ، ولكنه لم يباشر أعماله إلا في سنة ١٩٢٥ بسبب حوادث الحرب العالمية الأولى . ونشط المواطنون في اقامة العمارات الفخمة ، وكان أولها بناية كسم وقباني ، فارتفعت اسعار الأرض ونشطت حركة العمران [1] .

ولاشك في أن وقوع هذه المنطقة على الطريق الواصل بين أحياء دمشق القديمة والأحياء الواقعة على سفح قاسيون ، قد ساعد على سرعة إعمارها واتساع عمرانها ، فهي همزة الوصل بين المدينة القديمة واحياء المهاجرين والصالحية والاكراد. ومنذ عام ١٩٣٠ نشطت هذه المنطقة وأخذت بالاتساع على حساب البساتين المجاورة ، فنشأت أحياء الجبوبي والسبكي والشعلان في غربي طريق الصالحية ، كما نشأت أحياء شرف والمزرعة والرئيس وغيرها في شرقي الطريق المذكور .

---

(١) غسان الخطيب – منطقة الشهداء – بحث غير منشور (١٩٥٧ – ١٩٥٨) ص ١٥ .

وقد أسهمت الحكومة في إعمار الصالحية حين أنشأت فيها المجلس النيابي ومديريتي الأشغال العامة والمواصلات (وزارة المواصلات حالياً) ووزارة الصحة والاسعاف العام ، كما ان اقامة رجال الحكومة والانتداب والجالية الفرنسية في هذا الحي قد جعله في مأمن من تخريب الفرنسيين اثناء الثورات الوطنية باستثناء المجلس النيابي الذي ضرب في عام ١٩٤٥ [١] .

ونشط العمران اثناء الحرب العالمية الثانية ، حتى غمر جانبي طريق الصالحية ، وتعمق شرقاً وغرباً الى مسافة تتراوح بين ٣٠٠ - ٥٠٠ متر في كل جانب . وشقت عدة شوارع جديدة كشارعي الجلاء (أبو رمانة) وعبد الرحمن الشهبندر اللذين يوازيان طريق الصالحية ، ويصلان الأحياء الواقعة على سفوح قاسيون بقلب المدينة . وتلا ذلك فتح شارع عدنان المالكي ، الذي يصل المهاجرين والصالحية و كيوان .

وعلى أثر النشوة الاقتصادية التي اعقبت الحرب العالمية الثانية ، انشيء في منطقة أبي رمانة عدد كبير من الدور الفخمة والقصور ، كما حظيت بنصيب وافر من العناية والاهتمام من قبل أمانة العاصمة ، بسبب اتخاذها مركزاً للبعثات السياسية الأجنبية ، وبذلك أضحت من أحدث المناطق السكنية وأجملها ، لا في دمشق فحسب بل في القطر السوري كله .

* * *

ويدين حي المهاجرين ايضاً بوجوده الى اسباب تاريخية اكثر منها جغرافية كما يدل عليه اسمه . ففي سنة ١٨٩٥ ، لم يكن في هذه المنطقة بيت واحد ، إذ كان آخر بيت الى جهة الغرب من دمشق هو بيت الداغستاني ، في المكان

---

(١) المصدر السابق – ص ١٦ .

المعروف حالياً بطلعه الباش كاتب عبد الحميد ، حيث كانت تمر منه الطريق البرية الواصلة بين دمشق وبيروت ، والتي كانت تخترق منطقة المهاجرين حتى تصل الى قبة السيار الحالية ، حيث كان المسافرون يستريحون فيها او يبيتون ليلتهم ، ثم يستأنفون السفر الى بيروت عن طريق دمر ، فالوادي ، وهذا قبل أن يُمد الخط الحديدي في عام ١٨٩٧ عبر الوادي (١) .

وعلى اثر تصريح غورتشاكوف في ١٨ نيسان (ابريل) ١٨٦٧ ، القاضي بالاستقلال الاداري لعـــدة مقاطعات بلقانية ، وعقب مؤتمر برلين والمعاهدات والاتفاقات التي جرت في السنوات التالية ، التي جردت الامبراطورية العثمانية من ممتلكاتها الأوربية ، ترتب على ذلك وقوع العائلات الاسلامية تحت سلطة الامراء المسيحين ، ففضل عدد كبير منها الهجرة الى البلاد الاسلامية ؛ ولذا كلف السلطان عبد الحميد والي دمشق ناظم باشا ايواء بعضهم ، فاختار سفوح قاسيون لاقامة المهاجرين الذين وصلوا دمشق في سنة ١٨٩٠ ، فأقاموا عليها مساكنهم فوق نهر يزيد ، واستقبلوا فيها المهاجرين القادمين من الروملي في عام ١٨٩٦ .

وفي عام ١٩٠٠ وصل فوج جديد من الاسر الاسلامية ، التي فرت من السلطة المسيحية ، وهؤلاء هم الكريتيون الذين هجروا بلادهم – عقب تدخل الدول الكبرى – بسبب المذابح التي حدثت في شباط (فبراير) ١٨٩٧ في كانديا وكانيه ، فأنشأ ناظم باشا من أجلهم حيا آخر على بعد ٢٠٠ متر الى الغرب من الحي الأول ، وأقام لنفسه بيتاً على بعد ٣٠٠ متر الى الغرب من مساكن الكريتيين .

وحينما زار غليوم الثاني دمشق عام ١٨٩٨ ، احبت المدينة أن تكرمه وتحتفي به ، فاختارت المهاجرين مكاناً للاحتفال ، حيث سويت الأرض ومهدت على شكل مصطبة لاستقبال الضيوف ، وقد كان المنظر الرائع الذي بدت به

(١) Thoumin, (1936) , Op . cit., p. 247.

دمشق من ذلك المرتفع وسط غوطتها التي تحيط بها من كل جانب ، باعثـــاً على اعجاب الامبراطور ، حتى أنه لم يُخف دهشته واستغرابه لعدم استغلال أهل دمشق لهذا المكان المرتفع الجميل ، ونصح أن يبني الناس بيوتهم فيه ، وتنبأ بمستقبل عظيم للمنطقة ؛ وقد صدقت نبوءة غليوم ، ودُعي الحي الذي قام فوق هذا المكان باسم « حي المصطبة » .

وقد أخذ حي المهاجرين ينمو منذ عام ١٩٠٥ ، وازداد نموه سرعة منذ عام ١٩٢٠ ، وهذا يرجع لعدة اسباب أهمها تسيير (الترام) الذي يصل هذه الضاحية بقلب المدينة ، وثورة ١٩٢٥ التي جعلت بعض الملاكين ينتقلون من المدينة القديمة الى المهاجرين ؛ كما ساعد على إعماره ايضاً ايصال مياه الفيجة اليه وبناء خزاناتها على سفح قاسيون . هذا بالاضافة الى ما توفره لسكانهـــا من هواء نقي ومناظر جميلة لا يمكن الحصول عليها في المدينة القديمة .

اقتصرت الهجرة الى حي المهاجرين في أول الأمر على المتقاعدين الذين يريدون ان يتمتعوا بالهدوء والراحة فيما تبقى لهم من العمر ، حتى ان الحي يطلق عليه تندراً « حي المتقاعدين » ثم تلتها هجرة الطبقة الغنية التي يتوفر لها المال ، واخيراً هجرة طبقة الفقراء المعدمين لتوفر اراضي املاك الدولة التي يحصلون عليها بالمجان . فالطبقة الفقيرة تسكن المناطق المرتفعة من الحي ، والتي بنيت أغلب مساكنها على أراضي أملاك الدولة ، وتسكن الطبقة المتوسطة المناطق المتوسطة من الحي فيما يلي شارع ناظم باشا الرئيسي شمالاً ، وسكانها أقدم سكان الحي ، فهم دمشقيون هاجروا الى الحي منذ نصف قرن ، والطبقة الغنية ، وهي تسكن المناطق الواقعة على جانبي شارع ناظم باشا والمنطقة الواقعة بينه وبين نهر يزيد[1] .

* * *

(١) محمد نظمي العلاف – حي المهاجرين – بحث غـير منشور (١٩٥٥ – ١٩٥٦) ص ٤٠ – ٤١ .

أما حي الأكراد و فقد سبق الحديث عن تاريخ انشائه ، في العهد الأيوبي ، منذ القرن الثاني عشر . حين نزل الاكراد على السفوح الشرقية لجبل قاسيون بالقرب من مدارس الصالحية ، بجوار قبر النبي ذي الكفل أمام صلاح الدين الأيوبي . وقد شمل عمران الاكراد في العهدالايوبي مسافة قصيرة لاتتجاوز ٤٠٠ متر ، بمحاذاة قناة يزيد ، بين المدرسة الصاحبية غرباً ، وجامع ركن الدين شرقاً ، وكانت تفصله عن مساكن الصالحية الواقعة الى الغرب منه مسافة تقدر بنحو ٣٠٠ م .

ويبدو ان حي الصالحية قد امتد شرقاً حتى اتصلت مساكنه بمساكن الأكراد ، بينما بقي حي الأكراد على حاله في الجهة الغربية أو اتسع اتساعاً بسيطاً لا يستحق الذكر ، يدل على ذلك ان حي الأكراد حالياً لا يتجاوز المدرسة الصاحبية ، حيث تلتحم مساكنه بمساكن حي الصالحية . أما اتساعه من الجهة الشرقية (شرقي جامع ركن الدين) ، فلم يحصل إلا خلال القرون الثلاثة الأخيرة حين كثرت هجرة الأكراد الى هذا الحي إبان الحكم العثماني .

واستمر اتساع هذا الحي شمالاً نحو الجبل ، في أملاك الدولة التي بنى الأكراد فيها منازلهم دون مقابل ، وما زال العمران مستمراً في هذا الاتجاه . أما العمران نحو الشرق باتجاه برزة والقابون ، فقد توقف عند منطقة مستشفى ابن نفيس [1] (أي عند الأملاك الخاصة لآل اليوسف وأهالي برزة) ، وهي منطقة يمكن إرواؤها من مياه برزة ، وخاصة في أيام الشتاء [2] .

ومن الجدير بالذكر ان الأيوبيين ومن تلاهم ، خلّدوا مجموعة كبيرة

---

(١) يقع مستشفى ابن نفيس على بعد ٣٠٠ متراً من النهاية الشرقية لحي الأكراد .

(٢) عبد الكريم الحلمي – حي الأكراد في مدينة دمشق – بحث غير منشور – (١٩٥١ – ١٩٥٢) ص ١٥ .

من الأبنية ، ذات قيمة أثرية ومعمارية كبيرة ، تتوزع على طول الطريق الأفقي الذاهب من المهاجرين الى الطرف الشرقي لحي الأكراد ، نذكر منها: مارستان القيمري وجامع الشيخ محي الدين ومدرسة الامير ركن الدين وضريحه .

الاحياء الجنوبية والجنوبية الغربية :

في الوقت الذي نشأت فيه احياء المهاجرين والشركسية والاكراد على سفوح قاسيون ، ونمت تبعاً لاتجاه فرعي بردى (تورا ويزيد) ، نشأ حي الميدان حول الطريق . واذا كان من السهولة بمكان معرفة اسباب نشأة الاحياء الثلاثة على سفوح قاسيون ، فانه من الصعب معرفه المكان الذي يمثل الخلية الأولى في نشأة هذا الحي .

ان الطبوغرافية الحالية لحي الميدان تظهر انه يتألف من طريق طويل يبلغ نحو ٢٣٠٠ متر اعتباراً من مفرق خان المغاربة ، وهو يتجه من الشمال الى الجنوب بشكل واضح ، حيث تتتابع المنشآت الدينية ومستودعات الحبوب التي تدعى بالبوايك ، وهي عبارة عن أبنية كبيرة مسقوفة مقسمة لحجرات تسمى « مقالب » . هذا الطابع المزدوج الديني والتجاري ، يميز هذا الطريق الذي يذهب جنوباً نحو اهراء حوران والأراضي المقدسة في الحجاز .

ان امتداد الحي يظهر ان المدينة تتجه في نموها نحو الجنوب الغربي أكثر من الجنوب الشرقي ، وذلك بسبب مشكلة الري ، حيث تروى المنطقة الواقعة الى الجنوب الشرقي من المدينة المسوّرة من مياه المجاري الوسخة ، مما أدى الى نمو العمران في الاراضي التي يشغلها حي الميدان حالياً .

ولا شك في ان اسم الميدان ينسب الى « ميدان الحصى » وهو ميدان سباق الخيل الواقع في الميدان التحتاني حالياً . وهذه التسمية تدل على تكوين الأرض نفسها وعدم صلاحيتها للزراعة ، وان كان أهليها يرون ان وجود الحصى

والحجارة لا يحول دون زراعة الحبوب على الأقل ، كما هي الحال في كثير من الأراضي السورية التي كانت عديمة النفع لو لم يبذل الانسان كل ما في وسعه للاستفادة من هذه الأراضي المحجرة ، وليس من المعقول أن يترك المزارعون التربة العضوية التي تغطي معظم اراضي الغوطة ، ويتجهوا الى زراعة هذه الأرض التي يغطيها الحصى ، ويظهر الصخر نفسه في جهات كثيرة منها .

ولإعطاء فكرة عن طبيعة الأرض التي تشغلها الطرقات والمساكن ، يكفي أن نسير على الأطراف من هذا الحي ، لنشهد الصخر في اقصى الجنوب الشرقي من الميدان الفوقاني ، وعند مدخل طريق ميدان – بيت سحم . ومع ذلك يمارس المزارعون فيها زراعات فقيرة بالنسبة لباقي بساتين دمشق ، تتخللها زراعات الخضر والفاكهة بصورة نادرة ؛ وغالباً ما تتألف من حقول تزرع الحبوب تحت صفوف من أشجار الزيتون .

ويلاحظ ان عرض هذه الضاحية الطويلة يتفاوت تفاوتاً كبيراً يرتبط بمقدار اتساع الصخور نفسها ، ومن هذا يتضح جيداً ان جدب الارض ومحولتها يتحكمان باتساع حي الميدان نفسه في قطاع طويل يتجه من الشمال الى الجنوب . ومع ان الفلاحين الذين يستغلون الاراضي المجاورة يسكنون في هـذا الحي ، فإن الطابع الريفي لا يسود فيه ، لأن أهل الميدان لا يعتمدون في معيشتهم على الزراعة بشكل رئيسي .

إذن فان طريق حوران ومكة يتبع العتبة الصخرية ، وهو يجذب جميع اولئك الذين يعملون مع القوافل التي كانت تسافر الى شرقي الأردن والجزيرة العربية ، والزراع الذين كانوا يأتون في النّقرة ، ويحملون الى دمشق حاصلاتهم من القمح . ولقد كانت سهول حوران الغنية بتربتها البركانية ، في كل العصور ، احدى الأقاليم الزراعية الشهيرة ، وكان من الممكن أن تنشأ الأسواق الزراعية

في هذا السهل ، ولكنها تتطلب ايجاد المخرج اللازم لتصريف هذا الانتاج؛ وخلال قرون عديدة ، كانت دمشق المنفذ الطبيعي لهذا الاقليم ، ولم يكن دورها التجاري في هذه المبادلات التجارية يقل في اثره عن الأثر الديني والسياسي .

لقد كان تأمين الحبوب يقلق بال سكان المدينة الكبيرة ، ويدفعهم الى الجري الى الريف للحصول عليه ، في الوقت الذي كانت فيه الغوطة تكفي نفسها بنفسها ، كما كان على ابناء القرى أن يأتوا الى المدينة لعرض حبوبهم اذا أرادوا بيعها ؛ فكان بعضهم يصل الى دمشق مع الأحمال التي كانت تنقلها قوافل الإبل من تموز (يوليو) الى كانون الثاني (يناير) ، والبعض الآخر يتوقف على مسافة من المدينة ، على طول الطريق الذي كان يسلكه أهل حوران باستمرار ، فيقصد القروي التاجر الذي اعتاد التردد عليه .

وكذلك يفضل اصحاب المطاحن في المدينة أن يتزودوا من هذه المستودعات الكبيرة بدلاً من التعامل مع المنتجين مباشرة ؛ مما ساعد على زيادة عدد المستودعات التي اعطت حي الميدان طابعه الخاص . وبالقرب من هذه المستودعات ، شُيدت الخانات الواسعة ، حيث ينزل القرويون مع دوابهم وأرزاقهم .

وهكذا نمت كتلة سكنية ، كانت في أول الأمر تعتمد على تجارة الحبوب بلا شك ؛ الا أن قدوم القرويين وإيابهم الذي شمل جميع انواع التجارة قد ساعد على زيادة عدد السكان من عائلات تعود إلى أصل حوراني ، كما انشئت مصابغ في هذا الحي تعمل من أجل الحورانيين بشكل خاص ، مما يؤكد الصلات التجارية الوثيقة التي تربط حوران بمدينة دمشق .

وقد أصيب حي الميدان بكوارث عظيمة أثناء الثورة السورية بين ١٩٢٥ – ١٩٢٧ ، اذ هدم الفرنسيون معظم أحيائه وخربوا الكثير من منازله، ولكن محافظة سكانه على تقاليدهم وعاداتهم وتعلقهم بحيهم ، قد جعلهم يؤثرون

البقاء في منازلهم ولا ينزحون عنها الى أحياء المدينة الأخرى، وعندما ازداد عددهم وضاق بهم حيهم وارتفع مستوى معيشتهم ، أخذوا في انشاء مساكن جديدة بالقرب من منازلهم القديمة .

ولعب عامل الهجرة الى هذا الحي دوراً كبيراً في نموه واتساعه ، فقد كان - وما زال - مقصد الكثير من أبناء القرى من مختلف أنحاء الريف السوري ، لما يتصف به ابناؤه من محافظة على العادات والتقاليد الريفية المألوفة ؛ تؤكد ذلك قلة الصلات العائلية بين سكان هذا الحي وبقية سكان الأحياء الأخرى في المدينة ، هذا بالاضافة الى لهجة أبنائه التي تمتاز بطابع الخشونة ، مما يدل على حداثة أصحابها في الحياة الحضرية .

وقد كان لفتح الشارع الغربي (شارع خالد بن الوليد) أكبر الأثر في امتداد العمران في غرب حي الميدان ، كما ساعد فتح الشارع الشرقي (شارع الزاهرة) على اتساع الحي من جهة الشرق ونشأة عدة مناطق سكنية جديدة ؛ وكذلك فقد لعب الشارع المحيط بالمدينة (الكورنيش) دوراً هاماً في امتداد العمران في غرب حي الميدان وشرقه على طول الشارع المذكور ، كما ساعد على ربط الحي المذكور بالأحياء المجاورة .

أما في الجهة الجنوبية الغربية من المدينة ، فيمكن القول ، بأن العمران لم يكن يشتمل حتى نهاية الحرب العالمية الأولى سوى على القسم الشرقي من هذه المنطقه ، ثم أخذ في التوسع تدريجياً نحو الغرب حتى شمل قسماً كبيراً من بساتين الغوطة الغربية ، وحمل أسماء البساتين نفسها غالباً .

وقد امتد العمران جنوب باب الجابية وباب سريجة ، فنشأت محلة البريدي ، كما نشأ في جنوبها حي المغاربة ؛ ثم امتدت هذه المنطقة اكثر من ذلك

جنوباً ، وانتشر العمران على طرفي الطريق الذي يصل دمشق بحي الميدان جنوباً ، وانتهى الأمر باتصالها بحي الميدان اتصالاً تاماً من الجنوب .

وزحفت المساكن شمالاً فشملت بستان العجّام وبستان الشريبيشات ، فاتصل حي القنوات بحي باب السريجة ، واستمر العمران شمالاً أيضاً حتى تجاوز نهر القنوات الذي كان يحول دون نموها في هذا الاتجاه . ولم يمض وقت طويل حتى غُطي النهر وافتتح شارع خالد بن الوليد الذي وصل حي باب السريجة والقنوات بشارع النصر .

وانتقل العمران بعد ذلك الى بستان الزاغة ، وأصبح يدعى « بمحلة الفحامة » ثم الى بستان الحجاجية وبستان الجندلي وبستان الحجر ، وحلت محل هذه البساتين منطقة صناعية واسعة لاصلاح السيارات وصنع هياكلها ومايلزمها من قطع تبديلية .

وقد توقف العمران فترة من الزمن بسبب الخطوط الحديدية التي وقفت عثرة في طريق الاتساع نحو الغرب ، غير أن قيام المنطقة الصناعية الحديثة للصناعات الميكانيكية غربي هذه الخطوط الحديدية ، إثر القرار الذي صدر باجلاء اصحاب هذه المحلات من محلاتهم القديمة على طرفي بردى عند مدخل شارع بيروت ، قد أدى الى تجاوز العمران لهذين الخطين الحديديين ، حتى اتصلت الأبنية الحديثة ببعض الدور التابعة لقرية كفر سوسة الواقعة الى الجنوب الغربي من المدينة القديمة .

الأحياء الشرقية :

وهي تشمل حي القصاع ، الواقع في الجهة الشمالية الشرقية من دمشق القديمة ، على الطريق الذي يصل ما بين دمشق وحلب شمالاً . وقد نشأ حي القصاع كضاحية تقل في أهميتها كثيراً عن الضواحي السابقة ، وكانت هذه المنطقة

تشغلها بساتين الخضر والفاكهة ، وتدعى « بالزينبية » نسبة الى العين الموجودة فيها ، والتي كانت المورد الأساسي لمياه الشرب وسقاية البساتين في هذا الحي حتى وقت قريب .

كانت أولى المباني التي أنشئت في حي القصاع ، مستشفى فكتوريا الذي أسسه الانكليز في سنة ١٨٩٦ ، ومستشفى القديس لويس الذي أسسه الفرنسيون بعد ثماني سنوات ، وذلك لغايات تبشيرية ، وكان لهما أكبر الأثر في إعمار هذا الحي . وتبع ذلك ، قبيل الحرب العالمية الأولى ، انشاء بعض المساكن على طول الطريق المؤدية الى قرية دوما ، وكانت هذه المساكن والمستشفيات النواة الأولى لحي القصاع الجديد ، هذا في الوقت الذي أخذ فيه حي باب توما ينمو ويتسع خارج السور الروماني ليتصل بالطريق القادمة من حي العمارة ، وأدى ذلك الى نشأة شارع جديد أطلق عليه اسم شارع الملك فيصل .

ومنذ عام ١٩١٩ ، أصبح نمو حي القصاع سريعاً ، فلم تختف البساتين الباقية بين باب توما ومفرق طريق العمارة فحسب ، ولكن أخذ في النمو نحو الشمال على طول الطريق الرئيسي ، مرسلاً بأزقة الى اليمين وأخرى الى اليسار بعضها مغلقة وبعضها الآخر ينفتح على البساتين . ويلاحظ ان معظم سكان القصاع من المسيحيين ، وقد شجع الاستعمار على هذا التجمع الطائفي عن طريق بث التفرقة واثارة النعرات الدينية بين فئات الشعب المختلفة فاصبح الحي يتسم بالطابع المسيحي .

ويرجع السبب في نمو هذه الضاحية الى ثورة ١٩٢٥ – ١٩٢٧ ، حين انتقلت العائلات المسيحية التي كانت تسكن حي الميدان ، سواء كان ذلك في القرشي أو باب مصلى (المحلتين المسيحيتين في حي الميدان الاسلامي) ، بعد أن أشبعها الاستعمار خوفاً من الثوار الذين اتخذوا هذا الحي مركزاً لهم . وهكذا

شهد القصاع في عامي ١٩٢٦ – ١٩٢٧ عدداً كبيراً من السكان الجدد الذين أتوا للسكنى في باب توما والقصاع ؛ إلا أن هؤلاء القادمين لم يستقروا في شارع القصاع الرئيسي انما انتشروا في الطرقات الصغيرة المتفرعة عنه .

وزاد في اتساع الحي وصول اللاجئين الأرمن الذين انشأوا لأنفسهم حياً خاصاً بهم بالقرب من الباب الشرقي ، مما زاد في نمو هذه الضاحية والتحامها بالمدينة القديمة ، كما كان لبعض قرى الغوطة والقلمون دور كبير في امداد هذا الحي بالمزيد من السكان للعمل في المدينة ، وخاصة من قرى صيدنايا ومعلولا ودير عطية وغيرها . هذا بالاضافة الى ما تلقاه هذا الحي من دفعات متتالية من حي باب توما المكتظ بسكانه ، بل أصبح الانتقال الى هذا الحي مظهراً من مظاهر الغنى والثروة عند أهل الحي .

وقد ساعد على نمو هذا الحي أيضاً فتح شارع بغداد سنة ١٩٢٥ ، وهو يمتد من ساحة ١٧ نيسان (سبع بحرات) الى المستشفى الفرنسي ، حيث يلتقي بشارع القصاع الرئيسي ، وقد افتتحه الفرنسيون لتسهيل وصول القوات الى الغوطة والمستشفى العسكري الذي يستخدمونه لمعالجة جرحاهم ، هذا بالاضافة الى التخلص من بعض البساتين التي كان الثوار يلتجئون اليها أثناء الثورة السورية ويلقون النار منها على الجنود الفرنسيين . وكان لهذا الشارع أكبر الأثر في اتساع هذا الحي ، وربطه بالمدينة بواسطة شارع مستقيم يعتبر من الطرق الرئيسية في الوقت الحاضر ، وتلا ذلك انشاء خط الترام في سنة ١٩٣١ الذي يصله مع ساحة الشهداء (المرجة) عن طريق شارع الملك فيصل (١) .

أما التوسع السريع لهذا الحي فقد بدأ منذ أواخر الحرب العالمية الثانية ، حيث امتد شارع القصاع الرئيسي شمالاً حتى وصل الى ما يسمى اليوم بساحة العباسيين ، كما امتد غرباً حتى بلغ منطقة حي الخطيب غربي شارع حلب .

---

(١) غالب العلمي – منطقة القصاع (١٩٥٧ - ١٩٥٨) ص ٨ .

أما من جهة الشرق فان نمو هذا الحي مازال بطيئاً بسبب انخفاض هذا الجزء وكثرة رطوبته ، وظلت الأبنية فيه عفوية لاتخضع لتنظيم .

وقد كان لفتح شارع حلب ، الذي يصل بين ساحتي التحرير والعباسيين ، والشوارع التي تصل بينه وبين شارع القصاع القديم ، اكبر الأثر في امتداد العمران في هذه المنطقة ، هذا فضلاً عما كان لنفوذ بعض العائلات الكبيرة التي كانت تملك الأراضي الواسعة في هذه المنطقة ، من أثر كبير في توجيه الحركة العمرانية وجهة تتفق مع مصالحها ورغباتها .

* * *

الباب الثالث

سكان مدينة دمشق

الفصل الأول - نمو السكان في مدينة دمشق :

تزايد السكان في مدينة دمشق - المواليد والوفيات - الهجرة الخارجية - الهجرة الداخلية .

الفصل الثاني - تكوين السكان :

الذكور والإناث - فئات السن - التصنيف المهني للسكان - التكوين الديني للسكان - التكوين العرقي واللغوي للسكان - الأجانب وتوزيعهم .

الفصل الثالث - توزيع السكان في دمشق :

التوزيع العددي للسكان - كثافة السكان - كثافة المساكن - درجة التزاحم - المستقبل العددي لسكان دمشق.

الفصل الأول

نمو السكان في مدينة دمشق

تزايد السكان في مدينة دمشق :

اقدم الاحصاءات المتوفرة لدينا عن عدد السكان في مدينة دمشق، يرجع الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر،فأول إحصاء للسكان جرى في سوريا كان في عام ١٨٥٤ ، إلا ان هذا الإحصاء اقتصر على الرجال الذين هم في سن الجندية ، ثم أعقبه احصاء عام شمل جميع السكان في عام ١٨٨٤ بلغ فيه عدد سكان دمشق حوالي ١٦٠٠٠٠ نسمة ، أي مايعادل ربع سكان دمشق في الوقت الحاضر .

إلا ان هذه الأرقام التي نشرت عام ١٨٨٤ لا بد ان تؤخذ بشيء من الحذر ؛ فقد جرى هذا الاحصاء في أوائل عهد السلطان عبد الحميد الثاني الذي اتصف حكمه بالإرهاب و كثرة الحركات السياسية والعسكرية،والتي انعكست آثارها على الحياة الاقتصادية بالجمود والركود ، وازدادت حاجة الدولة الى المال والرجال لكثرة الحروب ، فزادت الضرائب ورفعت الرسوم وساقت الشباب الى الجندية . هذه الظروف جعلت الكثيرين يمتنعون عن تسجيل أنفسهم لدى دوائر الدولة ، تلك الدولة التي كان من أكبر مهامها وقتئذ اعداد القوائم بأسماء

الذين بلغوا سن الجندية ليدفعوا البدل او يساقوا الى الخدمة[1] ؛ ولذلك يبدو ان هذا الرقم الذي ورد في إحصاء ١٨٨٤ يقل عن الرقم الحقيقي لسكان دمشق يومئذ.

أما الاحصاء الثالث الذي تلاه في عام ١٩٠٥ فلم تنشر أرقامه ؛ وقد قدر بدكر Baedeker [2] عدد سكان دمشق سنة ١٩١٣ بنحو ٣٠٠,٠٠٠ نسمة ، باستثناء رجال الحامية الذين يتراوح عددهم بضعة آلاف ، إلا أن هذا التقدير - كما يبدو - مبالغ فيه .

وفي أوائل عهد الانتداب الفرنسي ، جرى احصاء للسكان عام ١٩٢٢ ، تمّ على أساسه تنظيم سجلات الأحوال المدنية في سوريا ، وقد بلغ فيه عدد سكان دمشق الذي نشر في السنة التالية (١٩٢٣) ١٧٢,٨٤٦ نسمة ، ومع ذلك فان هذه الأرقام ليست موثوقة كل الثقة ، ذلك ان المخاتير والموظفين المكلفين بعمليات الاحصاء لم يكن لديهم من الخبرة والكفاءة مايؤهلهم للقيام باحصاء دقيق ؛ ومن جهة ثانية فانهم بدافع المصلحة او العصبية كانوا يزيدون او ينقصون عن عمد سكان طائفة دون اخرى ، كما ان عاملي الخوف والحذر من السلطة الحاكمة لم يكونا في عهد الفرنسيين أقل منهما في عهد العثمانيين الأتراك ، مما يبعث على الريبة ويدفع الى التكتم ، ولذلك جاءت هذه الأرقام - كما يبدو - أقل من الواقع ؛ ولذا فقد صُححت هذه الأرقام وأُكملت خلال الأعوام التالية ، ونشرت من جديد في عام ١٩٢٧ .

وقد عرف المسؤولون وقتئذ هذه الحقيقة ، ولذلك كانوا يلجؤون بين فترة واخرى الى إصدار عفو عام عن المكتومين الذين لم يسجلوا انفسهم في دوائر النفوس خلال عام ١٩٢٢ لتسجيل أنفسهم من جديد ، فكان يتقدم بعضهم ويحجم الآخر .

---

(١) الدكتور عزة النص - محاضرات عن جغرافية السكان في سوريا - ص ٦

(٢) دائرة المعارف الاسلامية - ص ٢٨١

ومنذ عام ١٩٢٢ لم تجر الحكومات السورية المتعاقبة أي إحصاء للسكان يمكن الاعتماد عليه ، حتى جاء عام ١٩٤٧ حيث أجرت الحكومة السورية في شهر آذار (مارس) إحصاء عاماً للسكان في يوم واحد اقتصرت أهدافه على تسجيل النفوس وضبط سجلات الأحوال المدنية .

ولكن نتائج هذا التعداد لم تنشر بسبب بعدها عن الواقع ، وكثرة الأخطاء التي ارتكبت خلال عملية التعداد بسبب ضعف الجهاز الفني وقلة كفاءته وخبرته . ولذلك سوف نضطر الرجوع دائماً الى سجلات الأحوال المدنية ، والتي تستند بدورها الى احصاء ١٩٢٢ أساساً لسجلاتها وفق مايسمى بعملية « الضم والتنزيل » التي تقوم بها دائرة الأحوال المدنية.

وفي شهر ايلول (سبتمبر) من عام ١٩٦٠ جرى أول تعداد عام للسكان في سوريا، بلغ فيه عدد السكان في مدينة دمشق ٥٢٩,٩٦٣ نسمة[١] . وقد تمّ هذا التعداد وفق الأهداف والأساليب العلمية الحديثة ، وبالتالي يمكن الاعتماد على أرقامه والوثوق ببياناته . وستكون دراستنا للسكان في ضوء هذا التعداد الأخير أكثر دقة وتفصيلاً ، بالاضافة الى انه يتضمن بيانات وتفصيلات عن السكان لاتتضمنها الاحصاءات السابقة ، والتي لم يكن يهمها أكثر من تسجيل السكان وتنظيم قيودهم لاستخدام هذه السجلات وقت الحاجة .

---

(١) وزارة — التخطيط التعداد العام للسكان ، لعام ١٩٦٠ ، مدينة دمشق .

جدول (١٠)

عدد السكان في مدينة دمشق في فترات متساوية

مع بيان زياداتهم الحقيقية ونسبة الزيادة المئوية سنوياً

السنة	عدد السكان	الزيادة	
		الرقم الحقيقي	النسبة المئوية سنوياً
١٨٨٤	١٦٠٠٠٠		
١٩٢٢	١٧١٠٣١ [1]	١١٠٣١	٠٫٠٨
١٩٦٠	٥٢٩٩٦٣	٣٥٨٩٣٢	٥٫٥٢

ومن دراسة الجدول السابق والشكل (٣٩) ، يتضح ان سكان دمشق يتزايدون باطراد ، ولكن معدل هذا التزايد يختلف بين فترة واخرى :

ففي الفترة الأولى مابين ١٨٨٤ – ١٩٢٢ كان نمو السكان في مدينة دمشق بطيئاً جداً ، فلم يزد عددهم خلال ثمان وثلاثين سنة الأولى سوى ١١٫٠٣١ نسمة . وإذا حسبنا معدل الزيادة السنوية في تلك الفترة نجده ٠٫١٨ ٪ ، وهو كما يبدو معدل ضئيل جداً اذا ماقورن بمعدل الزيادة في الفترة التالية .

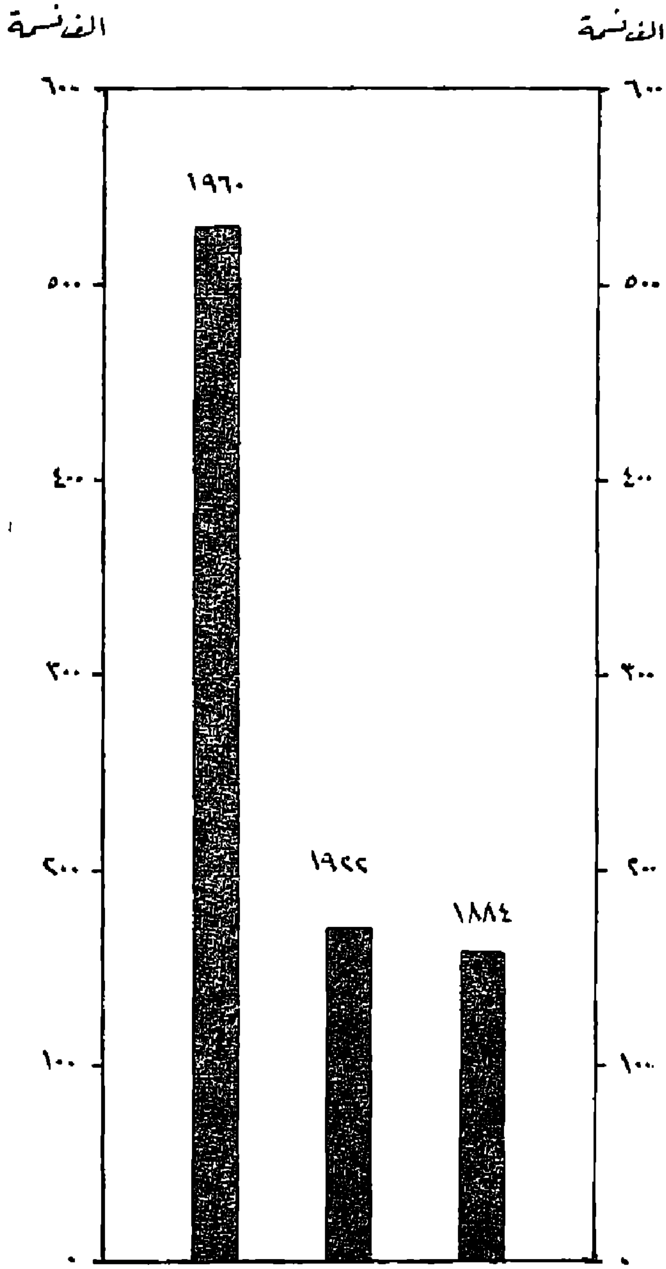
ولا شك ان نمو السكان البطيء خلال هذه الفترة يرجع الى الظروف السياسية والاقتصادية السيئة ، التي عانت منها البلاد كثيراً في أواخر العهد العثماني ، وكثرة الأوبئة والمجاعات التي اجتاحتها أثناء الحرب العالمية الأولى فأودت بحياة الكثيرين من أبناء البلاد ، يضاف الى ذلك سوق العديد من شبابها الى ساحات القتال وموتهم فيها .

---

(١) جرى تقدير سكان دمشق عام ١٩٢٢ استناداً الى الارقام التي نشرت عام ١٩٢٣ ، وذلك بحذف رقم يعادل متوسط الزيادة السنوية لسكان دمشق خلال السنوات الخمس التالية لاحصاء ١٩٢٢ ، وهو ١٨١٥ نسمة .

شكل (٣٩)

تزايد عدد السكان في مدينة دمشق
(خلال فترات متساوية)



أما في الفترة الثانية مابين ١٩٢٢ – ١٩٦٠ ، فقد كان نمو عدد السكان سريعاً، اذ تضاعف سكان دمشق خلال الثمان والثلاثين سنةالثانية ثلاث مرات، وزاد عددهم ٣٥٨٫٩٣٢ نسمة . واذا حسبنا معدل الزيادة السنوية في تلك الفترة نجده ٥٫٥٢ ٪ ، وهو معدل يفوق معدل الزيادة السنوية للفترة الاولى باكثر من ثلاثين مرة .

وقد كشف تعداد السكان لعام ١٩٦٠ عن وجود نقص في عدد السكان المسجلين في دوائر الاحوال المدنية في نهاية عام ١٩٦٠ يبلغ ٣٨٫٥٦٥ نسمة أي مايعادل ٧٫٨ ٪ من مجموع السكان المسجلين ، ويمكن تعليل هذا النقص الكبير في عدد السكان بالأمور التالية :

أولاً : عدم تسجيل دوائر الاحوال المدنية لحركة الهجرة الداخلية ، ولا سيما النزوح من الأرياف نحو المدن أو من المحافظات السورية نحو العاصمة دمشق . وحركة النزوح الريفي في سوريا حركة شديدة ودائمة بسبب جذب الصناعة في المدن وفقر الأرياف وانتشار البطالة المقنّعة فيها ، بينما جرى تعداد ١٩٦٠ على اساس حصر السكان المقيمين فعلاً في المنطقة يوم التعداد .

ثانياً : اضطراب سجلات الاحوال المدنية وعدم دلالتها في السابق على حقيقة الوضع السكاني .

ثالثاً : حصر التعداد لجميع المكتومين وافراد العشائر ، وان كان هذا التعداد بالمقابل لم يسجل العدد الكبير من التجار والموظفين والطلاب الذين كانوا خارج البلاد ليلة التعداد ، والمعروف ان السوريين يسافرون كثيراً الى الخارج ، اذ نجد جماعات كبيرة منهم في الجمهورية العربية المتحدة ولبنان والاردن والعراق والسعودية وغيرها [١] .

---

(١) الدكتور عزة النص – محاضرات عن جغرافية السكان في سوريا – ص ١٢٢ – ١٢٣ .

جدول (١١)

تزايد عدد السكان في مدينة دمشق بين عامي ١٩٢٣ – ١٩٦٤

السنة	عدد السكان	الزيادة	٪٠٠	السنة	عدد السكان	الزيادة	٪٠٠
١٩٢٣	١٧٢٨٤٦	—	—	١٩٤٥	٢٩٦٤٢٥	—	—
١٩٢٤	١٧٨٣٦٢	٥٥١٦	٣١,٩	١٩٤٦	٣٠٣٩٥٢	٧٥٢٧	٢٥,٣
١٩٢٥	١٧٩٥٣٣	١١٧١	٦,٥	١٩٤٧	٣١٠٢٤٦	٦٢٩٤	٢٠,٧
١٩٢٦	١٨٠٧٧٨	١٢٤٥	٦,٩	١٩٤٨	٣١٧٢٥١	٧٠٠٥	٢٢,٥
١٩٢٧	١٨٠٨٧٦	٩٨	٠,٥	١٩٤٩	٣٢٥٠٧٠	٧٨١٩	٢٤,٦
١٩٢٨	١٨٢٠٥٤	١١٧٨	٦,٥	١٩٥٠	٣٣٥٠٦٠	٩٩٩٠	٣٠,٧
١٩٢٩	١٩٢١٧٦	١٠١٢٢	٥٥,٥	١٩٥١	٣٤٥٢٣٧	١٠١٧٧	٣٠,٣
١٩٣٠	١٩٦٤٥٣	٤٢٧٧	٢٢,٢	١٩٥٢	٣٧٢٧٠٨	٢٧٤٧١	٧٩,٥
١٩٣١	٢٠١١٥١	٤٦٩٨	٢٣,٩	١٩٥٣	٢٨٣٢٣٩	١٠٥٣١	٢٨,٢
١٩٣٢	٢٠٢٤٢٢	١٢٧١	٦,٣	١٩٥٤	٣٩٥١٢٤	١١٨٨٥	٣١,٠
١٩٣٣	٢٢٠٦٨٧	١٨٢٦٥	٩٠,٢	١٩٥٥	٤٠٨٧٧٤	١٣٦٥٠	٣٤,٥
١٩٣٤	٢٢٩٥٦٧	٨٨٨٠	٤٠,٢	١٩٥٦	٤٢٣٨٣٢	١٥٠٠٨	٣٦,٨
١٩٣٥	—	—	—	١٩٥٧	٤٣٩٦٩٥	١٥٨٦٣	٣٧,٤
١٩٣٦	—	—	—	١٩٥٨	٤٥٤٦٠٣	١٤٩٠٨	٣٣,٩
١٩٣٧	—	—	—	١٩٥٩	٤٧٥٣٩٩	٢٠٧٩٦	٤٥,٧
١٩٣٨	—	—	—	١٩٦٠	٤٩١٣٩٨	١٥٩٩٩	٣٣,٦
١٩٣٩	—	—	—	١٩٦١	٥٠٧٥٠٣	١٦١٠٥	٣٢,٧
١٩٤٠	—	—	—	١٩٦٢	٥٢٦٤٥٤	١٨٩٥١	٣٧,٣
١٩٤١	—	—	—	١٩٦٣	٥٤٤٧١٢	١٨٢٥٨	٣٤,٦
١٩٤٢	—	—	—	١٩٦٤	٥٦٢٩٠٧	١٨١٩٥	٣٣,٤
١٩٤٣	—	—	—				
١٩٤٤	—	—	—				

واذا تتبعنا عدد سكان دمشق في سجلات الاحوال المدنية [1] ، خلال الفترة الواقعة ما بين ١٩٢٣ – ١٩٦٤ ، يتضح ان عدد السكان قد ازداد بصورة منتظمة وسريعة ، فقد تضاعف سكان دمشق خلال العشرين سنة الاخيرة ،فارتفع عددهم من ٢٦٣،٣١٤ نسمة في عام ١٩٤٣ الى ٥٤٤،٧١٢ نسمة في عام ١٩٦٣، كما تضاعف عددهم ثلاث مرات خلال الاربعين سنة الأخيرة ، فارتفع عددهم من ١٧٢،٨٤٦ نسمة في عام ١٩٢٣ الى ٥٤٤،٧١٢ نسمة في عام ١٩٦٣ .

ويلاحظ ان نمو السكان في مدينة دمشق ، تنتابه طفرات سكانية واسعة لاتقابلها تغيرات حقيقية في عدد السكان، ويمكن ان نرجع هذه الظاهرة الديموغرافية الى ثلاثة اسباب رئيسية :

الأول : توسع الحدود الادارية لمدينة دمشق ، في فترات مختلفة ، يوضحها الجدول الآتي :

جدول (١٢)

المساحات التي اضيفت الى مدينة دمشق بين ١٩٤٨ – ١٩٥٩

السنة	المساحة بالهكتار
١٩٤٨	١٨،٨
١٩٥٣	١،٦
١٩٥٤	٢٩،٩
١٩٥٦	٧،١
١٩٥٧	١٨،١
١٩٥٩	٣،١

(١) لا تشتمل ارقام السجلات المدنية على المكتومين واللاجئين الفلسطينيين .

وقد ادت هذه المراسيم المتابعة الى اضافة مساحات جديدة من الاراضي المجاورة الى مدينة دمشق ، معظمها من المناطق المأهولة بالسكان ، وعمل بالتالي على تزويد المدينة بعدد جديد من ابناء هذه المناطق ؛ ويمكن ان نشهد اثر ذلك واضحاً في ارتفاع نسبة الزيادة الكلية لسكان دمشق في عام ١٩٥٩ ، حيث بلغت ٤٥٫٧ في الألف ، وذلك على اثر ضم برزة ودمّر الى مدينة دمشق .

الثاني : تسجيل المكتومين الذين لم يكن لهم قيد في السابق ، فازدياد عدد السكان الذي تسجله دوائر النفوس لا يعادل ابداً زيادة المواليد عن الوفيات المسجلة في الدوائر نفسها ، كما سنوضح ذلك في دراسة المواليد والوفيات .

ويمكن ان نشهد اثر قرارات العفو المتتالية بارتفاع نسب الزيادة الكلية للسكان بشكل واضح ، لأن كل عفو جديد يؤدي الى زيادة جديدة في عدد السكان ، ففي عام ١٩٣٣ ارتفعت نسبة الزيادة الكلية الى اكثر من ٩٠ في الألف ، وكان ذلك على اثر صدور مرسوم في اواخر عام ١٩٣١ ، يقضي باصلاح دوائر النفوس وينص على ايجاد دفتر الهوية ودفتر العائلة (البطاقة الشخصية والبطاقة العائلية) ويفرض عقوبة على كل مواطن غير مسجل بعد ، وقد وضع هذا القرار موضع التنفيذ منذ مطلع عام ١٩٣٢ ، ومنح المكتومين مدة سنة لتسجيل انفسهم ، فكان اقبالهم شديداً حتى اضطرت السلطات الى زيادة عدد الموظفين في دوائر النفوس ، وأدى هذا القرار الى زيادة عدد المسجلين .

وفي عام ١٩٤٦ وماقبله ، تضاعفت حركة التسجيل في دوائر النفوس ، كنتيجة غير مباشرة للحرب العالمية الثانية ، بسبب حصر المواد الغذائية الرئيسية عن طريق بطاقات الاعاشة التي تقدمها الدولة الى السكان المسجلين في دوائر النفوس ؛ هذا بالاضافة الى تشديد السلطات المنتدبة على حمل الهوية من جهة اخرى ، مما ادى الى اقبال المكتومين على التسجيل .

وفي عام ١٩٤٨ صدر قانون عفو جديد يعفي من الغرامات والعقوبات

كل من يحصل على تذكرة هوية خلال ستة اشهر ، ولذلك نشهد تزايداً في السكان في عام ١٩٤٨ عن العام الذي سبقه ؛ كما كان لقـــانون خدمة العلم في عام ١٩٥٠ اثر ظاهر في حصر من تبقى مكتوما من السكان لسوقهم الى الخدمة العسكرية الاجبارية .

كما ان انتشار التعليم ، قد ساعد ايضا على تخفيض عدد المكتومين ، لان الالتحاق بالمدارس لايتم الابوجود البطاقات العائلية . ولذا يمكن ان نلاحظ زيادة وهمية في عدد السكان خلال السنوات التي ارتفع فيها عدد المدارس وزاد الاقبال على التعليم .

واذا كان لتسجيل المكتومين اثر واضح في تزايد عدد السكان ، فان هناك بعض الظروف السياسية والاقتصادية السيئة التي وجهت حركة السكان وجهة سلبية ، وادت الى انخفاض نسبة الزيادة الكلية بسبب الهجرة من البلاد ، وهذا مانشهده بوضوح خلال سنوات الثورة السورية الكبرى التي استمرت مايقرب من ثلاث سنوات ، وهبطت فيها نسبة الزيادة الكلية إلى أقل من ربع معدلها خلال سنتي ١٩٢٥ – ١٩٢٦ ، وكادت تنعدم في اواخر سنوات الثورة ١٩٢٧ ، واستمر اثرها الى السنة التالية لانتهاء الثورة .

وقد تكررت هذه الظاهرة ، اثناء الازمات الاقتصادية التي تعرضت لها البلاد، كما هي الحال في عام ١٩٣٢ ، على اثر الازمة الاقتصادية العالمية التي اجتاحت معظم دول العالم ، وكذلك الحال في عام ١٩٤٧ – ١٩٤٨ التي رافقت نكبة فلسطين .

الثالث : الهجرة من المدينة وإليهـــا ، وهو عامل يتأثر بالظروف الاقتصادية ، ولاسيما الزراعية منها بشكل خاص ، فقد قفزت نسبة الزيادة الكلية في عدد سكان دمشق عام ١٩٥٢ الى ٧٩,٥ في الالف، وهي نسبة تزيد على ضعفي معدل الزيادة الكلية في السنوات السابقة واللاحقة ، وهذه الطفرة الواسعة لايمكن تفسيرها بقرار العفو الصادر في عام ١٩٥١ فحسب ، انما ترجع في معظمها الى

رداءة موسم الامطار وهبوط الانتاج الزراعي في ذلك العام ، فعلى الرغم من زيادة المساحة المزروعة قمحا من ٩٩٢ الف هكتارا في عام ١٩٥١ الى ١٠٣٧ الف هكتارا في عام ١٩٥٢ ، فقد تدنى المحصول من ٨٣٠ الف طن الى ٥١٠ الف طن ، اي انه هبط بنسبة ٣٨ ٪ من مجموع انتاج السنة السابقة . وهذا مايفسر الهجرة الواسعة المفاجئة الى دمشق من اهالي الريف ، واستقرار قسم كبير منهم في المدينة بشكل نهائي .

والواقع أنه يتعذرالفصل بين عاملي الهجرة وتسجيل المكتومين ، وتحديد نصيب كل منهما في نمو سكان دمشق قبل عام ١٩٥٦ ، وذلك لعدم توفر الاحصاءات الخاصة بعدد المواليد والوفيات المكتومة قبل ذلك التاريخ .

جدول (١٣)

نصيب الهجرة في نمو سكان دمشق في الفترة ما بين ١٩٥٦ – ١٩٦٢ (في الالف)

السنة	معدل الزيادة الكلية	معدل الزيادة الطبيعية	الهجرة
١٩٥٦	٣٦٫٨	٣٣٫٣	٣٫٥
١٩٥٧	٣٧٫٤	٣٣٫٥	٣٫٩
١٩٥٨	٣٣٫٩	٣٣٫٧	٠٫٢
١٩٥٩	٤٥٫٧	٣٣٫٤	١٢٫٣
١٩٦٠	٣٣٫٦	٤١٫٢	‎-٧٫٦
١٩٦١	٣٢٫٧	٣٧٫٤	‎-٤٫٧
١٩٦٢	٣٧٫٣	٣٤٫٨	٢٫٥

ويوضح الجدول السابق نسب الزيادة الكلية التي استخرجت من سجلات الاحوال المدنية ، والزيادة الطبيعية التي حسبت من الفرق بين المواليد والوفيات المسجلة في السنوات نفسها ، الحديثة منها والمكتومة . كما يبين الفرق بين الزيادتين ما تسهم به الهجرة في نمو سكان دمشق .

ويمكن ان نرجع بعض هذا التفاوت في معدلات الهجرة الى عدم الدقة في هذه الاحصاءات ، والبعض الآخر الى توسع الحدود الادارية لمدينة دمشق ، الذي سبق الحديث عنه ، ولاسيما المرسوم الاداري الذي صدر في عام ١٩٥٩ ، وظهر اثره واضحاً في ارتفاع معدل الهجرة في العام ذاته .

اما انقطاع تيار الهجرة النسبي في عام ١٩٥٨ ، فهو يرجع الى النشوة الاقتصادية التي غمرت البلاد في ذلك العام بسبب تحسن المحصول الزراعي وزيادة انتاجه ، بينما تعلل المعدلات السلبية في عامي ١٩٦٠ - ١٩٦١ بنظام التسجيل في دوائر الأحوال المدنية ، والذي يقضي بتسجيل الولادة او الوفاة في مكان حدوثها وادراجها في سجلات المنطقة التي وقعت فيها .

المواليد والوفيات (الزيادة الطبيعية) :

من المعروف ، ان التغيير في عدد السكان هو حصيلة المواليد والوفيات ، وحالات الزواج والطلاق ، ودخول المهاجرين أو نزوحهم . ويمكن قياس هذه العوامل والتغيرات المترتبة عليها عن طريق التعداد وتسجيل المواليد والوفيات . وليس هناك حاجة لان نؤكد ان الاحصاءات الحيوية في مدينة دمشق ، وسوريا عموماً ، تعوزها الدقة بسبب النقص في التسجيل ، ويرجع ذلك الى الجهل والاهمال وخاصة اذا كان التسجيل لا يرتبط بمنافع اقتصادية أو اجتماعية .

ولا تزال دمشق حديثة العهد في مضمار التسجيل ، اذ لا يرجع أقدم سجلاتها الى أكثر من اول الربع الثاني من القرن الحالي ، وقد سبقتها قرون من

الشك والريبة كانت السبب في امتناع بعض الناس عن التبليغ عن أطفالهم ، كما ان التجنيد قد دفع الناس الى التكتم على أطفالهم الذكور ، هذا بالاضافة الى كره الطوائف الاسلامية لكل ما من شأنه كشف الاسرار العائلية وخاصة فيما يتعلق بعدد البنات .

وتدل معظم الدراسات الاحصائيـــة ، على ان نقص التسجيل في حالة الاناث أكثر منه في حالة الذكور ، وهـذا يصدق على دمشق . وعلى العموم ، ففي المجتمع الذي لا تلعب فيه المرأة دوراً ايجابياً في الحياة العامة نجد ان أهمية شهادة الميلاد بالنسبة الى الذكور تفوق كثيراً أهميتها بالنسبة الى الاناث . وأخيراً فاننا نجد حتى في معظم البـــلاد التي تتمتع بوعي احصائي ان الاهمال شائع في تسجيل الاطفال الذين يموتون في خلال ساعات قليلة من مولدهم ، ولهذه الاعتبارات وغيرها من أسباب الاختلال في البيانات ، فانه من الصعب ان نحدد مقدار النقص في تسجيل المواليد والوفيات ، ولكننا نستطيع ان نؤكد ان هذه الاحصاءات الحيوية تزداد دقة يوماً بعد يوم .

ويتضمن الجدول (١٤) ، نسب المواليد والوفيات والزيادة الطبيعية في مدينة دمشق منذ سنة ١٩٤٦ حتى سنة ١٩٦٤ . وقد حسبت هذه النسب الواردة في الجدول بقسمة عدد المواليد في كل سنة من هذه السنوات على عدد السكان التقديري في منتصف كل سنة (نصف مجموع عدد السكان حتى ١ كانون الثاني ، مضافاً إليه عدد السكان حتى ٣١ كانون الأول) .

وتجدر الاشارة الى ان هذه النسب الواردة في هذا الجدول تضم المواليد والوفيات الحديثة التي تم تسجيلها فعلاً في سنة ١٩٥٥ ، وبعد ذلك التاريخ تتضمن المواليد والوفيات المكتومة التي ادرجت اعدادها في السنوات التي صُرح عنها بالذات ، وهي ترتبط – كما هو واضح – بصدور قرارات العفو العام عن المكتومين .

جدول (١٤)

نسبة المواليد والوفيات والزيادة الطبيعية (في الألف) في دمشق[١] بين ١٩٤٦ – ١٩٦٤

السنة	نسبة المواليد	نسبة الوفيات	الزيادة الطبيعية
١٩٤٦	٣٢,٩	١١,٦	٢١,٣
١٩٤٧	٣٠,٣	١١,٢	١٩,١
١٩٤٨	٣٥,٧	١٣,٣	٢٢,٤
١٩٤٩	٣٥,٨	١٤,٥	٢١,٣
١٩٥٠	٣٩,٧	١٣,٩	١٥,٨
١٩٥١	٤٠,٩	١٣,٩	٢٧,٠
١٩٥٢	٣٧,٥	١٣,١	٢٤,٤
١٩٥٣	٣٩,٢	١٣,٣	٢٥,٩
١٩٥٤	٣٩,١	١١,٧	٢٧,٤
١٩٥٥	٤١,٤	١٠,٣	٣١,١
١٩٥٦	٤٤,٧	١١,٦	٣٣,١
١٩٥٧	٤٤,٣	١١,٣	٣٣,٠
١٩٥٨	٤٤,٠	٩,٩	٣٤,١
١٩٥٩	٤٢,٢	٩,٥	٣٢,٧
١٩٦٠	٥١,٩	١١,٤	٤٠,٥
١٩٦١	٤٦,٤	٩,٥	٣٦,٩
١٩٦٢	٤٣,١	٩,٧	٣٣,٤
١٩٦٣	٥٠,٣	٨,٨	٤١,٥
١٩٦٤	٤٨,٥	٨,١	٤٠,٤

ويمكن ان نعتبر سنة ١٩٤٦ فاصلا بين مانثق فيه ومالا نثق فيه من احصاءات حيوية ، كما ان انقطاع الاحصاءات الحيوية قبل هذه السنة لمدة احدى عشرة سنة يزيد هذا الفاصل وضوحاً ، ويعطل حساب معدلات المواليدوالوفيات والزيادة الطبيعية .

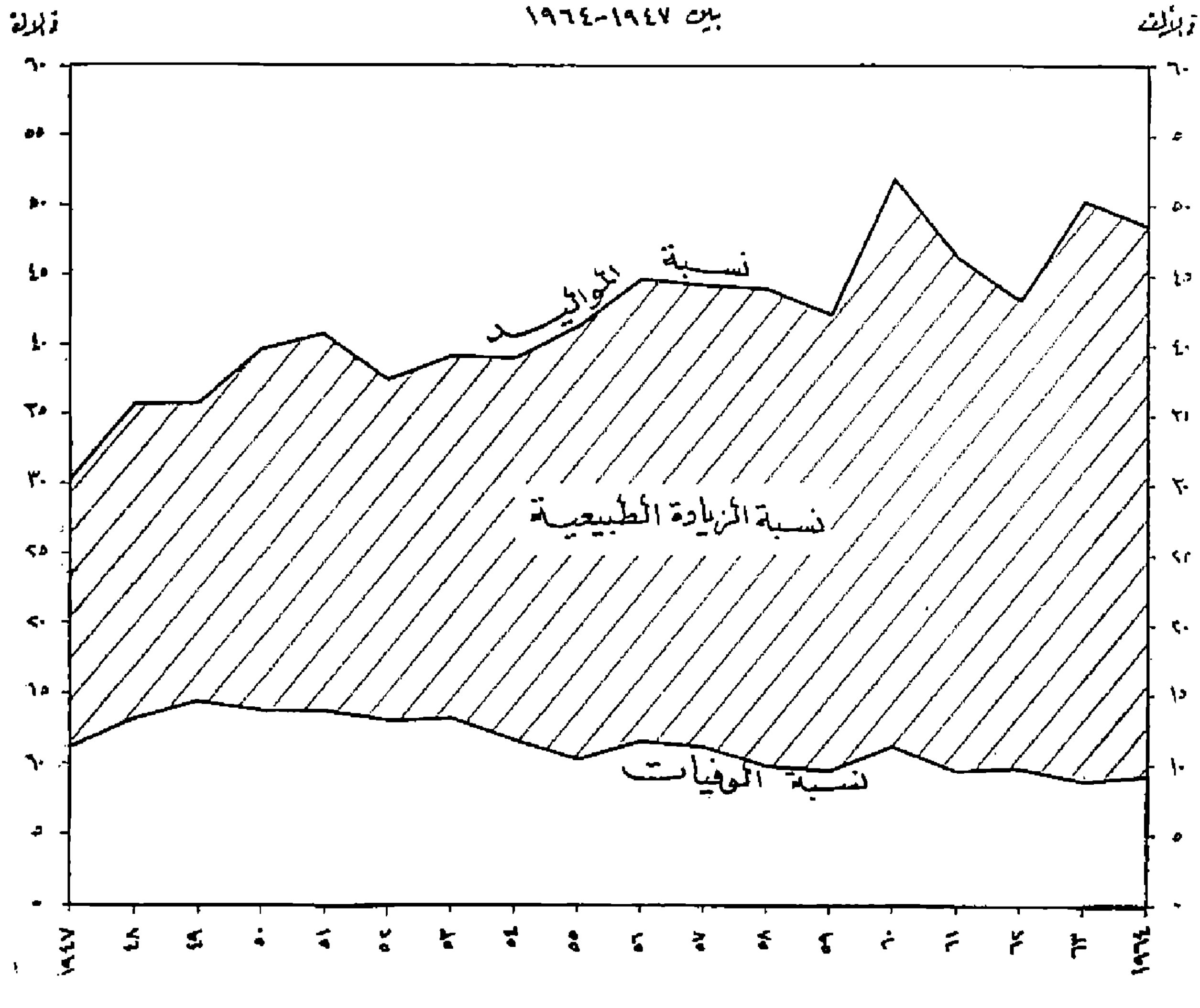
(١) اعتباراً من سنة ١٩٥٦ ، تتضمن هذه النسب المواليد والوفيات المكتومة في السنوات التي صرح عنها .

ومن دراسة الجدول السابق يلاحظ ان اقصى نسبة المواليد سجلتها مدينة دمشق خلال العشرين سنة الاخيرة ، كانت في سنة ١٩٦٠ (٥١،٩ في الالف) ، وهي - كما تبدو - نسبة مرتفعة ، ترجع الى ضبط سجلات النفوس في تلك السنة ، واقبال الناس على تسجيل مواليدهم الحديثة والمكتومة خوفاً من كشفها عن طريق التعداد ، اما ادنى نسبة للمواليد فكانت في سنة ١٩٤٧ (٣٠،٣ في الالف) ، وهي نسبة منخفضة ترتبط بالازمة الاقتصادية الخانقة التي مرت بها البلاد (شكل ٤٠) .

شكل (٤٠)

تطور نسبة المواليد والوفيات والزيادة الطبيعية في دمشق

بين ١٩٤٧-١٩٦٤



ويلاحظ ان هناك اتجاهاً عاماً نحو الزيادة في نسبة المواليد ، فقد ظلت هذه النسبة تقل عموماً عن ٤٠ في الالف حتى سنة ١٩٥٤ ، وذلك باستثناء سنة ١٩٥١ ، ثم اخذت هذه النسبة منذ سنة ١٩٥٥ تزيد على ٤٠ في الالف .

وقد تكون هذه النسب مضللة الى حد ما ، لانها تعبر على زيادة نسب المواليد الحديثة والمواليد المكتومة التي يصرح عنها فيما بعد ، ولذلك ربما كان معدل المواليد خلال السنوات الخمس الاخيرة (١٩٥٨ – ١٩٦٢) وهو ٤٥،٣ في الالف اقرب الى الحقيقة .

ويمكننا التثبت من صحة ذلك ، بمقارنة هذا المعدل مع نسبة عدد الاطفال الذين تقل اعمارهم عن السنة الواحدة في تعداد ١٩٦٠ (٢١،٧٣٣ طفلا) الى عدد السكان في السنة نفسها (٥٢٩،٩٦٣ نسمه) ؛ فنجد ان هذه النسبة تقل عن الحقيقة (٤١ في الالف) ، اذ ينبغي استخراج نسبة عدد المواليد الى عدد السكان التقديري في منتصف السنة ، اي في منتصف الفترة الواقعة بين ايلول (سبتمبر) ١٩٥٩ وايلول (سبتمبر) ١٩٦٠ (تاريخ التعداد) .

وعلى كل حال ، فان المعدل الحقيقي للمواليد في دمشق يتراوح بين ٤١،٠ – ٤٥،٣ في الالف ، ولكن الاقرب الى الواقع هو المعدل الاخير ، ويمكن ان يكون على وجه التقريب ٤٥ في الالف . هذا مع العلم بأن العوامل الفيزيولوجية والنفسية والاجتماعية التي تؤثر على معدل الزيادة يمكن ان تذهب بنا الى ابعد من ذلك بكثير .

ولاشك في أن نسبة المواليد تتأثر بمعدل الخصوبة العامة الذي يدل على حيوية السكان التناسلية . ويمكن الحصول على معدل الخصوبة العامة بنسبة عدد

المواليد الى عدد الاناث اللاتي من سن ١٥ – ٦٠ سنة[١] ، وهو الاساس المتبع في حساب الخصوبة لدى اكثر الدول ، حيث تبلغ ١٩٠،٨ في الالف في مدينة دمشق ، وهي نسبة مرتفعة تضع سكان دمشق في مصاف الشعوب الشديدة الخصوبة ، وهذه النسبة تختلف قليلاً عما هي عليه في المحافظات الجنوبية المجاورة ، كما يبدو من النسب التالية :

مدينة دمشق	١٩٠،٨ في الالف	محافظة درعا	١٩٣،٨ في الالف
محافظة دمشق	٢٣١،٩ في الالف	محافظة السويداء	١٦٩،٤ في الالف

ويمكن ان نفسر ارتفاع نسبة المواليد في دمشق بارتفاع معدل الزواج، فهو عامل من عوامل حركة السكان ، وسبب من اسباب التكاثر الطبيعي. ولاشك في أن أحسن مقياس للحصول على معدل الزواج ، هو نسبة عدد الزيجات الى من هم في سن الزواج حسب القوانين المرعية في البلاد ؛ الا ان عدم توفر مثل هذه البيانات تضطرنا الى الاكتفاء بحساب معدل الزواج في دمشق بنسبة عقودالزواج الى عدد السكانالتقديري في منتصف العام نفسه فنحصل على الجدول (١٥) .

ومندراسة هذا الجدول[٢]، يتضح ان معدل الزواج قد انخفض الى ادناه في عام ١٩٤٨ (٩ في الالف) بسبب حوادث فلسطين ، واشتراك سوريا مع الدول العربية الاخرى في معركة التحرير ، مما أدى الى انخفاض واضح في عدد الزيجات . ثم اخذ هذا المعدل في الارتفاع تدريجياً حتى بلغ اقصاه في عام ١٩٥٥ (١٤،٢ في الالف) ، وذلك على اثر الانتعاش الاقتصادي الناتج عن زيادة

---

(١) ان المقياس الصحيح للخصوبة العامة يكون بنسبة المواليد في سنة ١٩٥٩ وليس بنسبة الاطفال الذين على قيد الحياة ، وتقل اعمارهم عن سنة واحدة في شهر ايلول – سبتمبر ١٩٥٩ ، الى العدد التقديري للاناث اللواتي هن في سن الحمل (١٥ – ٥٠ سنة) في منتصف سنة ١٩٥٩ .

(٢) انظر الجدول في الصفحة التالية .

جدول (١٥)

معدلات الزواج والطلاق في دمشق (في الالف)

السنة	عقود الزواج	شهادات الطلاق
١٩٤٨	٩،٠	٢،٤
١٩٤٩	١١،١	٢،٦
١٩٥٠	١١،٣	٢،٥
١٩٥١	١٢،٤	٢،٢
١٩٥٢	١١،٧	٢،٥
١٩٥٣	١٢،٦	٢،٤
١٩٥٤	١٣،١	٢،٤
١٩٥٥	١٤،٢	٢،٤
١٩٥٦	١٣،٢	١،٦
١٩٥٧	١٢،٧	٢،٠
١٩٥٨	١٣،٧	٢،٦
١٩٥٩	١٢،٢	٢،٠
١٩٦٠	١٢،١	٢،٤
١٩٦١	١١،٢	٢،١
١٩٦٢	١١،٩	٢،٣
١٩٦٣	١٠،٦	٢،١

المحاصيل الزراعية . ثم أخذ معدل الزواج بعد ذلك بالهبوط التدريجي ، متأثراً بارتفاع المستوى الثقافي والاجتماعي ، باستثناء سنة ١٩٥٨ التي ارتفع فيها معدل الزواج مرة اخرى ارتفاعاً واضحاً (١٣،٧ في الالف) ، وذلك على اثر قيام الوحدة بين مصر وسوريا واقبال ابناء البلدين على التزاوج فيما بينهم .

ويعتبر الطلاق من أهم المشاكل الاجتماعية التي تؤدي الى تفكك الاسرة ، وانحلال رابطة الزواج . ويقاس معدل الطلاق عادة بنسبة عدد شهادات الطلاق في السنة الى عدد الزيجات في منتصف السنة ، الا ان افتقارنا الى مثل هذه البيانات يجبرنا على الاكتفاء بحساب معدل الطلاق في دمشق بنسبة شهادات الطلاق الى عدد السكان التقديري في منتصف العام نفسه .

ويتضح من الجدول (١٥) ان معدلات الطلاق في دمشق تتراوح بين ١٫٦ – ٢٫٦ في الفترة مابين ١٩٤٨ – ١٩٦٣ . ومما لاشك فيه ان الطلاق كالزواج يعكس الى حد ما الحالة الاقتصادية العامة والخاصة ، فكلاهما ذو تكاليف تقل او تكثر ، وهذه التكاليف تخفف من انتشار الزواج او الطلاق في سني الجدب وشح السماء او تعرّض نتاج الارض للآفات والحشرات . ومع ذلك فان هذه العوامل الاقتصادية وحدها لاتستطيع ان تعلّل حركة الزواج اوالطلاق صعوداً أو هبوطاً ، اذ تتدخل في ذلك ايضاً ظروف نفسية وتقاليد اجتماعية وتشريعات دينية ليست بتناول الاحصاء،وكل مانستطيع ان نتبينه من الجدول السابق هو الاتجاه العام نحو انخفاض معدل الطلاق بشكل عام .

وقد يكون من الأفضل ، حساب متوسطات نسب الزواج والطلاق لعدد من السنين ، كخمس سنوات مثلا ، فان في دراسة هذه النسب على اساس هذه المتوسطات تفادياً لمظاهر الشذوذ الذي قد تتعرض له هذه النسب في بعض السنوات بالارتفاع أو الانخفاض على نحو مارأينا .

جدول (١٦)

متوسط نسب الزيجات والطلاق في دمشق لكل خمس سنوات

في المدة بين ١٩٤٨ – ١٩٦٢

الفترة	متوسط نسبة الزيجات		متوسط نسبة الطلاق	
	دمشق	سوريا	دمشق	سوريا
١٩٤٨ – ١٩٥٢	١١٫١	٦٫١	٢٫٤	٠٫٧
١٩٥٣ – ١٩٥٧	١٣٫١	٦٫٩	٢٫١	٠٫٧
١٩٥٨ – ١٩٦٢	١٢٫٢	٨٫٦	٢٫٣	٠٫٧

ويتبين من هذا الجدول ، ان معدل الزواج في دمشق يتراوح بين ١١ - ١٣ في الالف تقريباً ، وهو - كما يبدو - معدل مرتفع الزواج (المتوسط العالمي للزواج ٩ في الالف) ، ويدل على اقبال شديد على الزواج ، يؤدي بالتالي الى وفرة في المواليد .

ويلاحظ كذلك ، ان هناك اتجاهاً عاما نحو الارتفاع في معدل الزواج في دمشق ، الا ان دراسة هذه المتوسطات تكشف لنا عن ثلاث مراحل متميزة: اولاها مرحلة انخفاض استمرت خمس سنوات (١٩٤٨ - ١٩٥٢) ، تلتهامرحلة ارتفاع استمرت خمس سنوات اخرى (١٩٥٣ - ١٩٥٧) ، اعقبتها مرحلةتشغل السنوات الخمس الاخيرة (١٩٥٨ - ١٩٦٢) وتتوسط بين المرحلتين السابقتين في نسبتها .

ومن مقارنة متوسطات نسب الزيجات في دمشق مع مثيلاتها في القطر السوري ، يتضح ان معدلات الزواج في القطر السوري لاتسجل اكثر من نصف مثيلاتها في دمشق ، كما ان معدلات الطلاق لاتزيد عن ثلث مثيلاتها في دمشق ، ولا يعلل هذا التفاوت الكبير الا باختلاف صحة الاحصاءات المتعلقة بالطلاق والزواج بين المدينة والريف .

ومن دراسة الحالة الزواجية في مدينة دمشق ، يتبين ان عدد المتزوجين والمتزوجات في دمشق ، بلغ نحو ثلثي عدد سكان المدينه الذين هم في سن الزواج (٦٤،٤ ٪) ، بينما تقرب نسبة العزّاب - من الذكور والاناث - من ربع سكان المدينة الذين هم في سن الزواج .

ويلاحظ ان نسبة العزاب بين الذكور اعلى منها بين الاناث ، وذلك بسبب القاء معظم اعباء الحياة على الرجل وحده، مما يضطره الى التأخر عن الزواج حيناً من الزمن ريثما يعدّ نفسه اقتصادياً للحياة الزوجية . هذا بالاضافة الى الخدمة

جدول (١٧)

الحالة الزواجية في مدينة دمشق حسب النوع (حسب تعداد ١٩٦٠)

لايشمل الافراد الذين هم دون سن الزواج[١]

الحالة الزواجية	ذكور العدد	ذكور ٪	اناث العدد	اناث ٪	المجموع العدد	المجموع ٪
عازب	٣٤٩٥٢	٣١٫٥	٢٨٠٥٢	١٩٫٧	٧٢٠٠٤	٢٥٫٦
متزوج	٩٠٥٤٥	٦٤٫٩	٩٠٨٦٩	٦٤٫٠	١٨١٤١٤	٦٤٫٤
مطلق	١١٩٣	٠٫٨	٢٥٨٥	١٫٨	٣٧٧٨	١٫٣
أرمل	٢٤١٩	١٫٧	١٨٥٨١	١٣٫١	٢١٠٠٠	٧٫٥
غير مبين	١٤٨٦	١٫١	١٩٤٥	١٫٤	٣٤٣١	١٫٢
المجموع	١٣٩٥٩٥	١٠٠	١٤٢٠٣٢	١٠٠	٢٨١٦٢٧	١٠٠

التي يفضل الشاب – عادة – اداءها قبل الزواج ، لئلا تبقى زوجته في فترة خدمته عبئاً على اهله واهلها .

ويبدو من الجدول (١٨) والشكل (٤١) ، أن الحد الأقصى لعدد المتزوجين يكون مابين ٢٥ – ٢٩ سنة ، بينما يكون الحد الأقصى للمتزوجات مابين ٢٠ – ٢٤ سنة . وهذا التبكير في الزواج يرجع الى تمسك الغالبية من السكان بدينهم والمحافظة على تعاليمه ، ولاسيما المسنّين منهم ، وهم الذين يلعبون الدور الاول في زواج اولادهم المبكر نظراً لما تنص عليه هذه التعاليم من حضّ على التكاثر وزيادة النسل . ونتيجة لذلك يحصل الزواج في وقت مبكر وخاصة بالنسبة للمرأة ، مما يطيل فترة الخصب (انجاب الاولاد) ويؤدي بالتالي الى كثرة المواليد .

---

(١) الحالة الزواجية للذكور ١٨ سنة فأكثر وللاناث ١٦ سنة فاكثر .

جدول (١٨)

توزيع المتزوجين والمتزوجات[١] حسب فئات الأعمار لعام ١٩٦٠ في مدينة دمشق

الفئة	ذكور		اناث		المجموع	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
اقل من ٢٠	٨١٤٢	٦٫٩	١٦٨٢٩	١٣٫٩	٢٤٩٧١	١٠٫٤
٢٠—٢٤	١٩٠٠٢	١٦٫٠	١٨٧٤٢	١٥٫٥	٣٧٧٤٤	١٥٫٨
٢٥—٢٩	١٩٦٤٦	١٦٫٥	١٦٩٦٤	١٤٫١	٣٦٦١٠	١٥٫٣
٣٠—٣٤	١٦٢٠٣	١٣٫٦	١٣٤٢٦	١١٫١	٢٩٦٢٩	١٢٫٤
٣٥—٣٩	١٣٤٠٠	١١٫٣	١١٥٢٧	٩٫٦	٢٤٩٢٧	١٠٫٤
٤٠—٤٤	٨٦٨٢	٧٫٣	٧١٢٧	٥٫٩	١٥٨٠٩	٦٫٦
٤٥—٤٩	٩٠٠٤	٧٫٦	٧٧٥٢	٦٫٤	١٦٧٥٦	٧٫٠
٥٠—٥٤	٦٢٤٩	٥٫٣	٧٥٠٧	٦٫٢	١٣٧٥٦	٥٫٧
٥٥—٥٩	٤٧٥١	٤٫٠	٦٠٩٧	٥٫١	١٠٨٤٨	٤٫٥
٦٠—٦٤	٤٥٨٩	٣٫٩	٥٧٣٣	٤٫٧	١٠٣٢٢	٤٫٣
٦٥—٦٩	٣٤٤٦	٢٫٩	٣٤٧٣	٢٫٩	٦٩١٩	٢٫٩
٧٠—٧٤	٢٥٣٨	٢٫١	٢٥٤٢	٢٫١	٥٠٨٠	٢٫١
٧٥ فأكثر	٢٩٤٦	٢٫٥	٢٧١٩	٢٫٣	٥٦٦٥	٢٫٤
غير مبين	١٦٥	٠٫١	٣٧٨	٠٫٢	٤٤٣	٠٫٢
المجموع	١١٨٧٦٣	١٠٠	١٢٠٧١٦	١٠٠	٢٢٩٤٧٩	١٠٠

(١) الحالة الزواجية للذكور ١٨ سنة فأكثر وللاناث ١٦ سنة فأكثر .

أما نظام تعدد الزوجات الذي تبيحه التعاليم الاسلامية في شروط معينة فقد أصبح عاملاً ثانوياً ، كما أخذ دوره يضعف تدريجياً ، بسبب اتجاه السكان العام في دمشق نحو الاكتفاء بزوجة واحدة كما يدل على ذلك الجدول الآتي :

جدول (١٩)

توزيع الذكور المسلمين المتزوجين حسب عدد الزوجات في العصمة في مدينة دمشق لعام ١٩٦٠

زوجة واحدة		زوجتان		ثلاث زوجات		اربع زوجات		المجموع	
العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
٧٩٤٣٨	٩٧،٥	١٩٤٥	٢،٤	٨٢	٠،١	١٠	—	٨١٤٧٥	١٠٠

ومن الجدول السابق يتبين أن نسبة المتزوجين بزوجة واحدة يبلغ ٩٧،٥٪ بين الذكور المسلمين ، بينما تقل نسبة المتزوجين بزوجتين عن ٢،٥ ٪ بين الذكور المسلمين . أما المتزوجون بثلاث زوجات او أكثر فلا يرقى عددهم الى مائة شخص في دمشق كلها .

وقد كتب روبرت فيدمر سنة ١٩٣٤ يقول : « ان دمشق مدينة يكثر فيها النسل ، اذ ان العائلات التي يزيد فيها عدد الأولاد على العشرة او الاثني عشرة كثيرة ، والعائلات التي يهبط فيها عدد الاولاد الى واحد او اثنين قليلة جداً . إلا أنه في السنين الأخيرة نشهد زيادة كبيرة في عدد الفئة الثانية بالنسبة الى عدد الفئة الاولى ، وذلك لانتشار العادات الاوربية التي رافقت انتشار العلم والثقافة الاوروبية » [1] .

والواقع ان متوسط عدد افراد الاسرة بدمشق آخذ في التناقص ، اذ بلغ

(١) مصباح ذهبي — الحركة الديموغرافية في مدينة دمشق — بحث غير منشور (١٩٥٥) ص ٤٨ .

٥ أشخاص تقريباً في سنة ١٩٥٧ . وهذا يرجع الى التطورات الاجتماعية السريعة التي طرأت على هذه المنطقة ، ومع ذلك فان هذا المعدل كبير اذا ما قورن بمثيله في الولايات المتحدة الاميركية وهو ٣،٥ أشخاص [1] فقط ، ولكنه لا يختلف كثيراً عن أمثاله من المراكز الحضرية الاخرى في الشرق الاوسط .

جدول (٢٠)

توزيع الاسر في مدينة دمشق حسب عدد أفرادها حسب تعداد عام ١٩٦٠

عدد افراد الاسرة	العدد	٪
١	٩٧٨١	١،٩
٢	٢٥٣٢٨	٤،٩
٣	٣٦٤٠٥	٧،٠
٤	٤٩٨٠٠	٩،٦
٥	٦١١٥٥	١١،٧
٦	٦٩٧٩٢	١٣،٤
٧	٦٧٧٣٢	١٣،٠
٨	٦٢٢٠٠	١١،٩
٩	٤٨٩٩٦	٩،٤
١٠	٣٣٤٠٠	٦،٤
١١	٢٢٢٤٢	٤،٣
١٢	١٢٦٨٤	٢،٤
١٣	٢١٢٥٧	٤،١
مجموع أفراد الاسر	٥٢٠٧٧٢	١٠٠

---

(١) U . S . Bureau of Census , Current population reports ,
« Household and family Characteristics » , Series, № . 67, p. 20 1956 .

ان حجم الاسرة في دمشق ، يتوقف الى حد بعيد على الحالة الاجتماعية والاقتصـــادية للاسرة . ومعظم الاسر في دمشق لاتحتوي على الاب والام والاولاد فحسب ، كما هو معروف في الغرب ، ولكنها غالبا ماتتضمن الاجداد وزوجات الاولاد والاحفاد .

ويتضح من دراسة الجدول (٢٠) ، الذي يبين حجم الاسرة في مدينة دمشق ، ان الاسر التي يقل عدد افرادها عن خمسة اشخاص ، تشكل اقل من ربـع سكان دمشق (٢٣،٤٪) ، بينما تشكل الاسر التي يزيد عدد افرادها على خمـسة اشخاص اكثر من ثلاثة ارباع سكان دمشق (٧٦،٦٪) ، ويلاحظ ان نصف سكان المـــدينة تقريبا تنتظمهم اسر يتراوح عـــدد افرادها بين ٥ — ٨ اشخاص .

ولاشك في ان حجم الاسرة والعلاقـات العائلية هامة في دراسة الاسكان واحتياجاته ، ويمكن ان ينتج عنها عاملان يجب مراعاتهما في التخطيط من اجل مشاريـع الاسكان المقبلة : اولهما ، هوان حجم الوحدة السكنية ينبغي ان يكون اوسع مما هو عليه في الوقت الحاضر ، وثانيهما ، هو ان عدد الوحدات السكنية ينبغي ان يكون اقل من عدد العائلات .

* * *

اما نسب الوفيات خلال الفترة مابين ١٩٤٦ — ١٩٦٤ ، فقد اخذت تميل نحو الانخفاض بشكل عام منذ سنة ١٩٥٠ ، بل انها لم تزد على ١٠ في الالف اعتبارا من سنة ١٩٥٨ حتى الان ، باستثناء سنة ١٩٦٠ (١١،٤ في الالف) . هذا على الرغم من ان نسبة الوفيات منذ عام ١٩٥٦ ، تشتمل على الوفيات المكتومة ، حيث تدرج في عداد الوفيات في السنة التي يُصرح عنها بالذات .

ويبدو من الجدول (١٤) ، ان نسبة الوفيات بلغت اقصاها في سنة

١٩٤٩ (٥و١٤ في الالف) ، وهذا التاريخ يرتبط بمعركة فلسطين وماخلفت وراءها من ضحايا عديدة فقدتها البلاد في ساحات القتال ، اما اخفض نسبة للوفيات سجلتها دوائر الاحوال المدنيـــة فهي في سنة ١٩٦٣ (٨و٨ في الالف).

ولايزيد معدل الوفيات في دمشق خلال السنوات الخمس الاخيرة على ١٠ في الالف وهو معدل يدعو الى الشك والريبة ، اذ يقارن بمعدلات الوفيات في الولايات المتحدة وفرنسا ، ويقل عن امثاله في القاهرة والاسكندرية بمايقرب من النصف ؛ وليس من المستغرب ان يكون التهاون في تسجيل الوفيات اكثر من التهاون في تسجيل المواليد .

وتجدر الاشارة الى وجود ارتباط بين نسبة الوفيات عامة ونسبة وفيات الاطفال في دمشق [1] ، اذ يلاحظ ان نسبة الوفيات العامة انخفضت انخفاضا واضحا ، منذ عام ١٩٥٤ الى عام ١٩٦٤ ، يوازي الانخفاض الذي شهدته نسبة وفيات الاطفال في الفترة ذاتها ، كما هو واضح في الجدول الاتي :

جدول (٣١)

نسبة وفيات الأطفال في دمشق مقارنة بنسب الوفيات عموما [2]

السنة	وفيات الاطفال		الوفيات عموما	
	العدد	٪	العدد	٪
١٩٥٤	٨٦٦	٦١٫٨	٤٥٨٩	١١٫٧
١٩٦٤	١٠٧١	٣٩٫٨	٤٥٢٩	٨٫١

(١) يقصد بالاطفال الرضع الذين تقل اعمارهم عن سنة واحدة .

(٢) عن دائرة الاحصاء الصحي والحيوي .

الا ان هذه الاحصاءات الرسمية الخاصة بوفيات الاطفال ، لا يمكن الوثوق بها تماما ، فمن المؤكد ان نسبة وفيات الاطفال الى مجموع المواليد السنوية تزيد كثيرا على هذه النسب ، بل ان بعض التقديرات ترتفع بهـا الى ١٢٠ في الالف (١) ، اي ثلاثة اضعاف المعدل المسجل في دوائر الصحة . ويرجع هـذا الفرق الى ان الكثيرة من الاطفال يولدون ويموتون دون ان تعلم بهم دوائر الاحوال المدنية ، هذا بالاضافة الى عدم الدقة في تسجيل الوفيات في اوقات حدوثها ، مما يجعل النقص في نسب الوفيات بين الاطفال اوضح واكبر من النقص الذي نشهده في فئات العمر الاخرى .

ومع ذلك ، فقد تبين في دمشق ، ان اتجاه نسبة الوفيات الى الانخفاض يرجع الى هبوط نسبة وفيات الاطفال ، نتيجة لقلة الاصابة بالامراض المعدية التي تصيب الاطفال الذين تبلغ سنهم اكثر من شهر واحد ، فقد صارت هـذه الامراض اكثر استجابة للعلاج في جميع انحاء العالم ، عن تلك التي يعاني منها الاطفال الذين تبلغ سنهم اقل من شهر واحـــد ، ونعني بذلك الاطفال الذين يولدون ضعفاء او يولدون قبل الاوان .

جدول (٢٢)

توزيع الوفيات في مدينة دمشق عام ١٩٦٤ (٢)

الشهر	كانون الثاني	شباط	آذار	نيسان	أيار	حزيران	تموز	آب	أيلول	تشرين الاول	تشرين الثاني	كانون الاول	المعدل الشهري
عدد الوفيات	٤٩٤	٤٣٤	٣٥٧	٢٩٢	٣٥٣	٤٣٢	٤١٠	٤٢٨	٣٠٥	٣٠٣	٢٥٥	٤٦٦	٤٥٢٩

---

(١) الدكتور عزة النص – احوال السكان في العالم العربي – مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية – ١٩٥٥ – ص ٢١٨ .

(٢) نشرة الاحصاءات الشهرية العامة .

ويظهر توزيع الوفيات في دمشق على اشهر السنة المختلفة ، اثر المناخ في ارتفاع معدل الوفيات وهبوطه ، اذ يبدو من الجدول (٢٢) ان أفتك مواسم الموت في دمشق هو الشتاء حين يشتد البرد ، وتكثر تقلبات الجو ، وتبدلات الحرارة السريعة ، ويأتي الصيف بالدرجة الثانية حين يشتد الحر . وعلى العموم يكون فصل الشتاء موسم وفاة الطاعنين في السن ، وفصل الصيف موسم موت الاطفال .

ولا غرابة في اختلاف معدل الوفيات تبعاً للسن ؛ ويمكن حساب هذا المعدل لكل فئة من الاعمار . ومن الجدول (٢٣) يتضح جلياً أن نسبة الوفيات تكون شديدة عند الاطفال دون السنة ، وعند الشيوخ الذين تجاوزوا سن الخامسة والستين ؛ وتقل الوفيات بعد السنة الاولى حتى تصل الى حدها الادنى في سن ١٠ – ١٥ ، وتأخذ في التزايد البطيء حتى الخامسة والخمسين ، ثم ترتفع باطراد حتى نهاية العمر ؛ وفي معظم مراحل الحياة تكون وفيات النساء اقل من وفيات الرجال .

* * *

واذا قسمنا الفرق بين عدد المواليد والوفيات على عدد السكان التقديري لمدينة دمشق في منتصف السنة نفسها نحصل على الزيادة الطبيعية ، كما هو واضح في الجدول (١٤) ؛ ومنه يتبين أن نسب الزيادة الطبيعية في دمشق تتأرجح بين الزيادة والنقصان من فترة لأخرى وإن كان الاتجاه الغالب فيها نحو التزايد ، فلم تزد هذه النسبة على ٢٧،٤ في الألف حتى سنة ١٩٥٤ ، وبعد تلك السنة أخذت تتراوح نسبة الزيادة الطبيعية بين ٣١ و ٤١ في الألف ، وطبيعي ان تأخذ هذه النسبة في الازدياد مادامت نسبة المواليد آخذة في الارتفاع ونسبة الوفيات آخذة في الانخفاض .

جدول (٢٣)

نسب الوفيات بين الذكور والاناث حسب فئات السن في مدينة دمشق (في الألف) عام ١٩٥٧

فئات السن	الذكور	الاناث
٠ - ١	٥٨،٦	٦٦،٨
١ - ٢	٣٧،٨	٤٧،٠
٢ - ٣	٩،٥	١٥،٣
٣ - ٤	٨،٢	٧،٣
٤ - ٥	٤،٨	٣،٦
٥ - ١٠	١،٨	١،٤
١٠ - ١٥	١،٠	١،٠
١٥ - ٢٠	٢،٥	١،٨
٢٠ - ٢٥	١،٧	١،٩
٢٥ - ٣٠	٢،٣	١،٨
٣٠ - ٣٥	٣،٣	٢،٤
٣٥ - ٤٠	٣،٣	٣،٢
٤٠ - ٤٥	٢،٩	٣،٥
٤٥ - ٥٠	٨،١	٤،٨
٥٠ - ٥٥	٧،٧	٦،٤
٥٥ - ٦٠	٢٦،١	٢٣،٣
٦٠ - ٦٥	٢٧،٥	٢٩،٠
٦٥ - ٧٠	٦٧،٨	٦٩،١
٧٠ - ٧٥	٤٠،٢	٣٤،٣
٧٥ - ٨٠	١٤٠،٠	١٣٨،٠

ولا يخفى ان ارتفاع نسبة المواليد يلعب الدور الاول في ارتفاع نسبة الزيادة الطبيعية ، بسبب زيادتها زيادة واضحة ، بينما كان النقص في نسب الوفيات بطيئاً ومحدوداً ؛ ومع ذلك فان ارتفاع نسبة الوفيات يعتبر مسؤولاً الى حد ما عن انخفاض نسبة الزيادة الطبيعية .

ويبلغ متوسط الزيادة الطبيعية للسنوات الخمس الاخيرة (١٩٥٨ - ١٩٦٢) ٣٥٫٥ في الالف ، وهو معدل قريب من الواقع ، اذ يتضح من الجدول (١٣) ان معدلات الزيادة الكلية خلال الفترة ذاتها تبلغ ٣٦٫٦ في الالف .

ويجمل بنا اخيراً ، ان نعقد مقارنة بين نسب المواليد والوفيات والزيادة الطبيعية في دمشق ومثيلاتها في القطر السوري عامة ، وتكون المقارنة بين متوسطات عدد من السنين ، تفاديا لمظاهر الشذوذ التي قد تتعرض له هذه النسب في بعض السنوات .

جدول (٢٤)

مقارنة بين دمشق والقطر السوري في متوسطات نسب المواليد والوفيات والزيادة الطبيعية (في الالف)

الفترة	متوسط نسبة المواليد		متوسط نسبة الوفيات		متوسط الزيادة الطبيعية	
	دمشق	سوريا	دمشق	سوريا	دمشق	سوريا
١٩٤٩ – ١٩٥٣	٣٨٫٦	٢٤٫٥	١٣٫٧	٧٫٣	٢٤٫٩	١٧٫٢
١٩٥٤ – ١٩٥٨	٤٢٫٧	٣٤٫٤	١٠٫٩	٦٫٦	٣١٫٨	٢٧٫٨
١٩٥٩ - ١٩٦٣	٤٦٫٧	٤١٫٥	٩٫٧	٦٫٧	٣٧٫٠	٣٤٫٨

ومن دراسة الجدول السابق يمكن ان نخرج بالملاحظات الاتية :

اولاً : ارتفاع سريع في متوسطات نسب المواليد في دمشق والقطر السوري عامة ، ويمكن ان نرجع هذه الظاهرة الى زيادة انتشار الوعي الاحصائي وتلافي بعض النقص الكبير في التسجيل ؛ كما تتضمن هذه المتوسطات منذ عام ١٩٥٦ المواليد المكتومين ، الذين ادرجت اسماؤهم مع المواليد الجدد في الاعوام المصرّح عنها .

ثانياً : ارتفاع متوسطات نسب المواليد في دمشق عنها في القطر السوري، وقد كان من المنتظر ان نجد متوسطات نسب المواليد في دمشق تقل عنها في القطر السوري ، طبقاً للظاهرة الديموغرافية المعروفة،وهي ان الخصوبة في الريف تزيد عنها في المدن ، ذلك ان الاتجاه الى التحضّر يصحبه دائماً هبوط في نسبة المواليد . ويرى « فولرس »(١) ان معدل المواليد الحقيقي في الريف يتراوح بين ٤٥ و ٥٠ في الالف ؛ ولا شك في ان الدقة النسبية التي تتمتع بها احصاءات مدينة دمشق هي السبب في رجحان دمشق على القطر السوري في متوسطات نسب المواليد .

ثالثاً : هبوط تدريجي بطيء في متوسطات نسب الوفيات ، وهذه الظاهرة معروفة في دمشق والقطر السوري كله ، وترجع في معظمها الى ارتفاع المستوى الصحي والتقدم الطبي والوقائي في البلاد .

رابعاً : ارتفاع متوسطات نسب الوفيات في دمشق عنها في القطر السوري ، وهي ظاهرة تدعو الى الغرابة والدهشة . اذ لا يعقل ان يبلغ معدل الوفيات في العاصمة ضعف ماهو عليه في الارياف ، مع ان العاصمة تحتكر النصيب الأوفى من سبل المعالجة الطبية والعدد الاكبر من المشافي والأطباء ، ولا شك في ان هذه الظاهرة الغريبة ترجع الى فداحة النقص في القيود الرسمية للاحوال المدنية .

---

(١) Weulersse , (1946) , op . cit ., P . 247

اما الارتفاع الجزئي الذي طرأ على معدل الوفيات في القطر السوري خلال الفترة الاخيرة ، فيعود الى الوفيات المكتومة التي اضيفت اعدادها الى الوفيات الحديثة منذ عام ١٩٥٦ ، وادرجت اسماؤها في الأعوام المصرّح عنها .

خامساً : يقابل هذا الارتفاع الدائم في متوسطات نسب المواليد والانخفاض المستمر في متوسطات نسب الوفيات ، ارتفاع في متوسط الزيادة الطبيعية في دمشق والقطر السوري على حد سواء ، وان كانت في القطر السوري أوضح وأشد .

سادساً : يمكن أن يعزى ارتفاع نسبة الزيادة الطبيعية في معظمه الى ارتفاع نسبة المواليد ، سواء كان ذلك في دمشق أو في القطر السوري ؛ أما انخفاض نسبة الوفيات فهو لا يسهم في ارتفاع نسبة الزيادة الطبيعية الا بنصيب محدود .

الهجرة الخارجية :

لم ينقطع تيار الهجرة من دمشق وإليها ، وإذا كانت الهجرات القديمة قد أعطت هذه المدينة بعض عناصر سكانها ، فان الهجرة الحديثة سلبت دمشق أكثر مما أعطتها .

وقد نشأت الهجرة الى دمشق لأسباب سياسية محضة ، فليس في موارد هذه المدينة ما يغري بالبحث عن الثروة فيها ، لذلك كانت الهجرة الى دمشق لا تعدل الهجرة منها . وقد حملت هذه الهجرة الى دمشق عناصر غريبة بأعداد وفيرة أحياناً كالأرمن والأكراد والشركس ، وحملت إليها عناصر عربية من بلاد الجزائر وفلسطين . وهذه العناصر الوافدة الى دمشق وصلت في عهود مختلفة ، واكتسب معظمها الجنسية السورية ؛ وقد سبق الحديث عن هذه العناصر المهاجرة

ودورها في نمو المدينة العمراني في الباب الثاني من هذا الكتاب ، كما سيأتي ذكرها عند دراسة التركيب الديني والعرقي لمدينة دمشق .

وإذا رجعنا الى تعداد ١٩٦٠ ، نجد ان عدد المهاجرين الى دمشق من خارج سوريا يبلغ ٥٧،٨١٤ نسمة . وقد وفد معظم هؤلاء المهاجرين الى دمشق من البلاد العربية ، إذ تبلغ نسبتهم ٩٠،٩٪ من مجموع المهاجرين الأجانب الى دمشق ، وأغلب هؤلاء المهاجرين العرب جاؤوا من فلسطين في أعقاب حوادث النكبة عام ١٩٤٨ ، فهم يشكلون وحدهم ٩٣،٤٪ من العرب المهاجرين الى دمشق ، وقد قدم معظم هؤلاء اللاجئين الى منطقة دمشق من الأجزاء الشمالية من فلسطين ، وخاصة من مناطق صفد وحيفا وطبريا وعكا .

أما المغاربة ، فقد قدمت جالياتهم في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، هرباً من الاضطهادات الاستعمارية في المواطن التي احتلها الفرنسيون والايطاليون من افريقيا العربية ، وسكن معظمهم في حي الميدان ، وانشأوا محلة تدعى بخان المغاربة ؛ وقد اندمجوا مع اخوانهم السوريين ، وأصبح من الصعب التمييز بينهم ، بسبب وحدة عقيدتهم ونسبهم القومي . وكذلك نزل حي الميدان عدد من تجار الحبوب النجديين ، فأقاموا ، بحكم عملهم ، الى جانب سوق الجمال في زقاق الجبّاجين ، وأطلق عليهم اسم العقيلية ، كما بقي في دمشق نفر من جند ابراهيم باشا عقب عودته الى مصر عام ١٨٤٠ ، سكن حي الميدان ايضاً وعُرف هؤلاء (بالمصاروه) .

ولا تزيد نسبة الاجانب من غير العرب على ٩،١٪ من مجموع المهاجرين الأجانب الى دمشق ، ومعظمهم من الموظفين والخبراء واصحاب الاعمال ، الذين تنتهي اقامتهم بانتهاء اعمالهم . اما الجاليات الاجنبيه القديمة فترجع هجرتهم الى المدينة الى اواخر العهد العثماني وعهد الانتداب الفرنسي ، واهمها الجالية اليونانية

التي قدمت من تركيا وبلاد اليونان في اعقاب الحرب العالمية الأولى ، على اثر المعارك التي دارت بينهم وبين الاتراك . وقد استقر هؤلاء اليونان في حي القصاع ، واشتغلوا في اول الامر في الفراء كما اشتغل بعضهم في الأعمـــال الميكانيكية وادارة المطاحن والفنادق والبقالة وغيرها ، ولا يزيد عددهم حاليا على ٢٥٠ شخصا ، ولهم ناد رياضي (نادي ابولون) ومدرسة لا تزال تدرس اللغة اليونانية الى جانب العربية .

اما الجالية الفرنسية ، فقد وصل عددها الى بضعة آلاف خـــلال عهد الانتداب الفرنسي وسكن معظمهم حي الشهداء ، فساعدوا على نشأة هذا الحي وعمرانه ، ولكنهم رحلوا جميعا بعد الاستقلال ولم يبق منهم سوى افراد قلائل ، يقومون برعاية مدارسهم التبشيرية ومؤسساتهم العلمية .

وكذلك حال الجاليتين الايطالية والروسية ، اللتين استقرتا في حي الشهداء ايضا ، فأنشأت الجالية الايطالية مدرسة ومستشفى (في عام ١٩١٣) ووصل عددها الى عدة مئات ، كانوا يعملون في الاعمال الصناعية ؛ وقد اخرجتهم السلطات الفرنسية والانكليزية ابان الحرب العالمية الثانية . اما الجالية الروسية ، فقد قدمت بعد سقوط الحكم القيصري في روسيا ونجاح الثورة الشيوعية ، ولكن القسم الاعظم منها هاجر الى امريكا ، ولم يبق في دمشق سوى النساء المتزوجات من ابناء البلاد . ولكن عدد افراد هذه الجالية قد ارتفع خلال السنوات الاخيرة ، على اثر ابرام عدد من الاتفاقيات الثقافية والاقتصادية والعسكرية ، والتي تقضي بتزويد القطر السوري باحتياجاته من الخبراء السوفييت .

ويمثل المهاجرون الى دمشق من خارج سوريا أكثر من عُشر سكان دمشق (١٠،٩٪) وهي – كما تبدو – نسبة مرتفعة جداً ، ولا سيما اذا قارناها بمثيلتها في مدينة حلب ، عاصمة الشمال ، اذ يبلغ المهاجرون إليها من خارج سوريا حوالي نصف هذه النسبة (٥،٨٪) .

* * *

أما الهجرة من دمشق الى خارج البلاد فهي قديمة ، بعضها يعود الى اسباب اقتصادية ، طمعاً في الحصول على موارد اوفر وحياة افضل ، وبعضها الآخر يرجع الى أسباب نفسية ، يظهر ان أثرها كان أكبر من الأسباب المادية في تغذية الهجرة ، بدليل ان الهجرة من دمشق بدأت مع بدء اتصال سوريا بالحضارة الغربية الحديثة في منتصف القرن التاسع عشر .

ولكن أسباباً اخرى سياسية تعاونت مع الأسباب الطبيعية على تشجيع الهجرة ، فقد جرت حوادث سنة ١٨٦٠ المؤسفة ، ثم كان عهد السلطان عبد الحميد الارهابي ، ثم جاء الخوف من الجندية العامة بعد اعلان الدستور سنة ١٩٠٩ ، وبعد ذلك مجاعات الحرب العالمية الاولى ، وأخيراً ثورات البلاد في بدء عهد الاحتلال الفرنسي ، ففر كثير من السكان ، وخاصة من الطبقات النيّرة ، الى افريقيا والبلاد الامريكية واستراليا . وكانت اخبار النجاح الذي يصيبه المهاجرون تقضي الى خروج مهاجرين جدد في اعقابهم وهكذا .

وقد لوحظ ان الغالبية العظمى من المهاجرين كانت من المسيحيين ، حتى يندر في الحي المسيحي بدمشق ان تجد عائلة لم يهاجر من أعضائها احد ، مؤقتاً أو نهائياً ، كما لوحظ ان نسبة كبيرة منهم من المتعلمين ، وان معظمهم من الرجال بين العشرين والخامسة والأربعين ، الا ان عدم توفر الاحصاءات اللازمة لا تسمح لنا بتحديد عدد المهاجرين من مدينة دمشق الى خارجها خلال عهودها المختلفة .

أما عن المهجر فليس من بقعة معينة واحدة يهاجر اليها ابناء دمشق ، فمنذ خمس وثمانين سنة ذهب كثير من المسيحيين الى امريكا ، وقسم هاجر الى مصر واستوطن القاهرة والاسكندرية . ولكن الهجرة باعداد كبيرة بدأت منذ سنة ١٨٩٠ تقريباً واتجهت نحو الولايات المتحدة وكندا ، واستمر هذا حتى سنة ١٩١٤ ثم عادت الهجرة فاشتدت كثيراً بعد الحرب حتى سنة ١٩٢٤ ، ولذلك راحت

الولايات المتحدة تتشدد شيئاً فشيئاً بقبول الشرقيين حتى قطعتها بتاتاً ، كما ان كندا منعت الهجرة بصورة قطعية .

وبعد أن اصبحت المكسيك قبلة المهاجرين مدة من الزمن ، تحول المهاجرون عنها بالنظر للاضطهادات الدينية ، ويمم أكثرهم شطر امريكا الجنوبية ، نحو البرازيل والارجنتين والارغواي خاصة ، كما فتش بعضهم عن الثروة في دول المحيط الهادي ، والقليل من مكث في بوليفيا وفنزويلا ، كما هاجر كثير منهم الى السنغال في افريقيا . وهناك دمشقيون هاجروا منعزلين الى باريس ومرسيليا ومانشستر ومانيلا ويوكوهاما .

على ان الهجرة من دمشق خاصة، وسوريا عموماً ، قد قلت كثيراً عما كانت عليه في الماضي ، وخاصة بعد أن وضعت معظم دول العالم الحواجز العديدة في وجه المهاجرين اليها وفرضت قيوداً شديدة على خروج الأموال من بلادها ، وأصبح الأمل ضعيفاً في أن يجد المهاجر مايصبو اليه من حياة افضل وعيش أرغد .

* * *

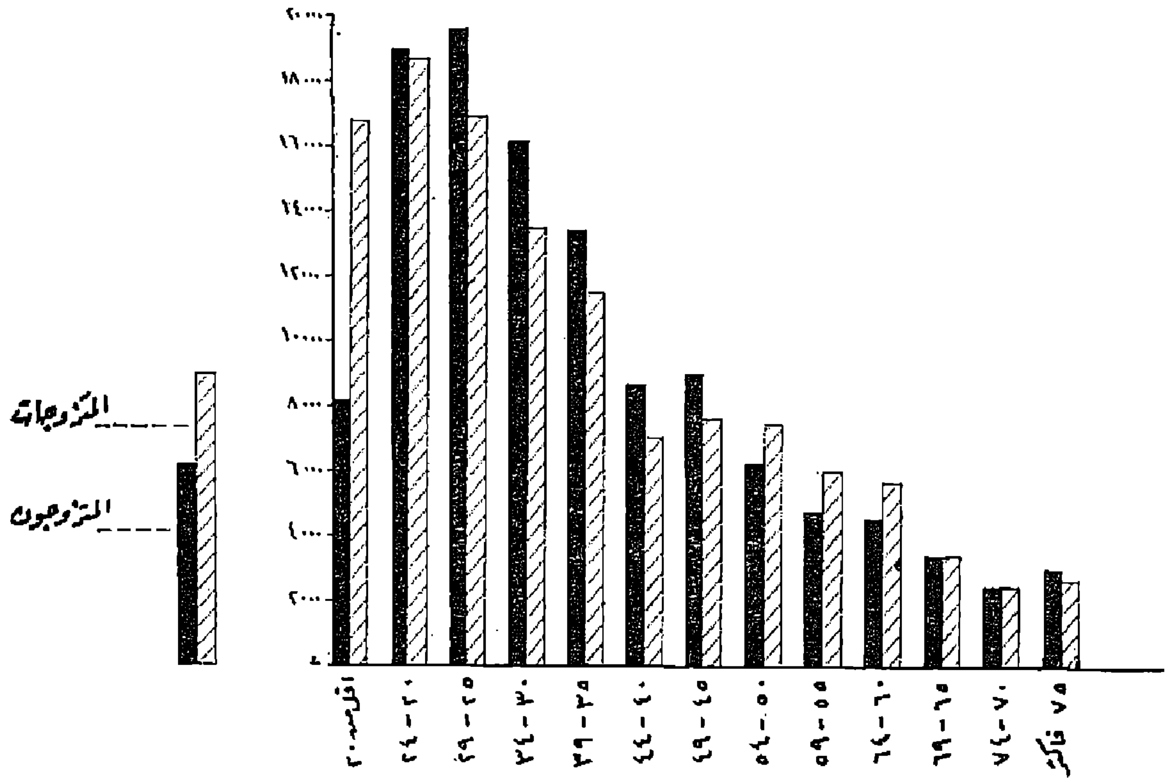
ولكل من الهجرة الى المدينة والهجرة منها حسناتها وسيئاتها ، انما ترجع السيئات في اوضاع كأوضاع دمشق الاقتصادية والقومية .

فاذا كانت الهجرة من دمشق تغذي البلد بنتاج المهاجرين وأموالهم وتستثمر موارد البلاد الأجنبية لمصلحة الوطن الأم ، واذا كانت هذه الهجرة الموقتة خاصة تعيد المهاجر بخبرة جديدة يضعها في خدمة بلاده ورأسمال يزيد في ثروتها القومية ، فان هذه الهجرة تحرم الوطن الأصلي من اليد العاملة ، وخاصة من الطبقة النشيطة الذكية . اضف الى هذا ان كثيراً من المهاجرين يكتسبون الجنسيات الاجنبية وتحرمهم اوطانهم نهائياً .

شكل (٤١)

توزيع المتزوجين والمتزوجات حسب فئات الأعمار

في مدينة دمشق - عام ١٩٦٠



أما الهجرة الى المدينة ، فهي ان زادت في السكان واكثرت اليد العاملة وافادت في ادخال صناعات جديدة وصناع مهرة الى البلاد ، كما هي حال الجالية الارمنية خاصة ، فانها مقابل كل هذا تدخل الى البلاد اقليات تخلق المشاكل السياسية العديدة ، فتفكك وحدة البلاد القومية وتجانسها وتباعد ما بين الرأي السياسي العام . هذا عدا أن المهاجرين ينافسون عمال البلاد الاصليين ويضطرونهم للبطالة ويخنقون الصناعات الوطنية ، ويؤدي ذلك الى انخفاض مستوى المعيشة وبالتالي الى انتشار الامراض الاجتماعية .

الهجرة الداخلية :

ان هجرة ابناء الريف السوري وحواضره الى مدينة دمشق هي ظاهرة

قديمة في تاريخ دمشق ، وكثير من الأسر الحضرية تعرف اصلها الريفي، وتاريخ انتقال بعض افرادها او كلهم الى المدينة ، وغالباً مايتوجه هؤلاء المهاجرون الى الاحياء التي سبقهم اليها ابناء بلدتهم وعشيرتهم ، فينتج عن ذلك تجمعات اقليمية ، يمكن ان نتبين ملامحها من اسماء بعض الاحياء والحلات التي استقر فيها هؤلاء المهاجرون فحملت اسماء قراهم وقبائلهم منذ زمن بعيد .

فحي الميدان مثلا كان ، منذ نشأته ، مركز جذب شديد لكثير من المهاجرين القادمين ، فقد قدم اليه جماعة النعيرية من مشارف حماه وسكنوا زقاقاً أطلق عليه اسم « زقاق النعير » ، ووصل اليه مهاجرون من قرية السخنة في محافظة حمص وأنشأوا قرية القبيبات ، كما يضم زقاق التيامنة معظم الدروز القادمين من جبل العرب .

اما حي القصاع ، فقد كان قبلة المهاجرين من ابناء القرى المسيحية ، ولا سيما قرى القلمون المعروفة بقلة مواردها المائية ؛ وقد تجمع ابناء كل قرية في جزء خاص من هذا الحي كحي الدراعطة الواقع الى الجنوب من المستشفى الانكليزي ، نسبة الى المهاجرين اليه من قرية دير عطية ، وكذلك يفعل اهل صيدنايا ومعلولا والنبك وغيرهم . ويلاحظ ان اكثر المهاجرين القرويين الى هذا الحي يسكنون في القسم الشرقي منه ، في بيوت عربية مكشوفة مبنية من الطين لاترتفع غالباً عن طابق واحد ، وتشبه الى حد كبير بيوت القرى التي نزحوا عنها .

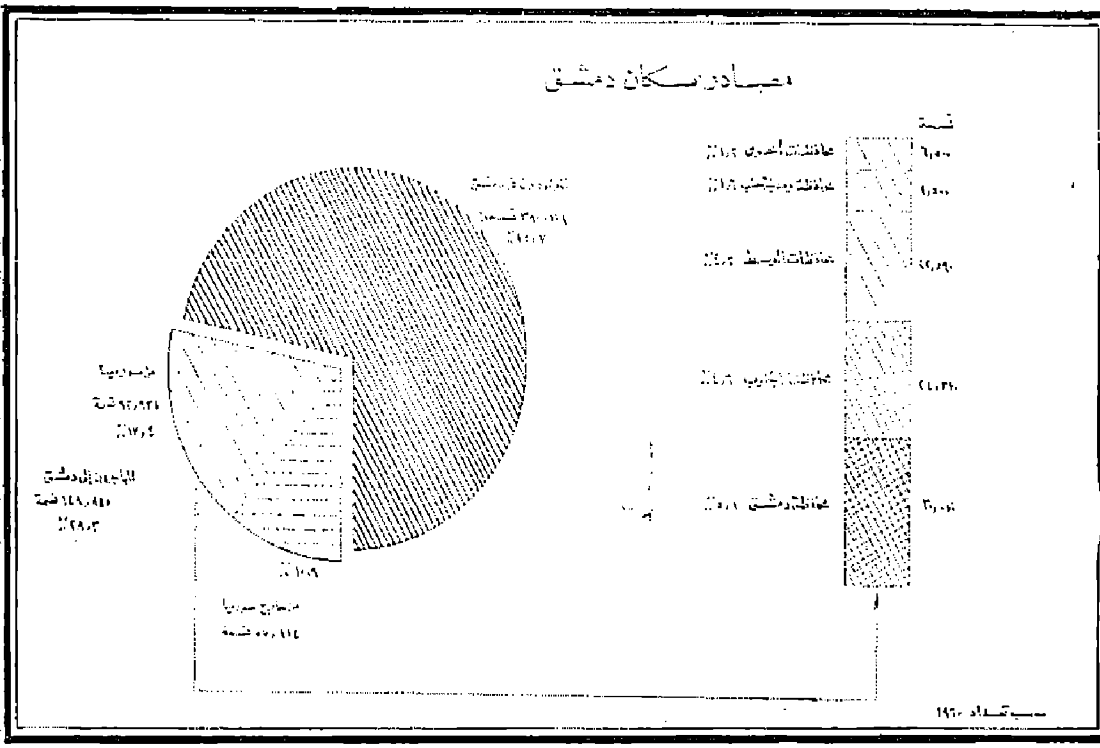
وقد اشتدت ظاهرة الهجرة الى المدينة في سني الحرب العالميـــة الثانية وسنوات الجفاف التي حدثت فيما بين ١٩٥٤ – ١٩٦٠ ، حتى اصبح من المتعذر ايجاد اليد العاملة الزراعية اللازمة لاعمال الحرث ومواسم القطاف والحصاد ، فهم يأتون الى المدينة أيام المواسم الزراعية فتطيب لهم الحياة فيها والاقامة بين ربوعها .

ويمكن معرفة اتجاهات الهجرة الداخلية بحسابها من البيانات الخاصة بحال

الميلاد، فالذين عُدّوا في التعداد ضمن سكان دمشق وليسوا من مواليدها يعتبرون مهاجرين من الجهات التي ولدوا فيها الى دمشق . وعلى العكس من ذلك يعتبر الذين عُدّوا ضمن سكان محافظات أخرى وكانوا من مواليد دمشق مهاجرين من دمشق الى الجهات التي عدّوا فيها .

ومن دراسة الجدول (٢٥) يتبين ان عدد المهاجرين الى مدينة دمشق بلغ ٩٢،٠٣١ نسمة حسب تعداد ١٩٦٠ ، وهؤلاء يمثلون ١٧،٤٪ من مجموع سكان دمشق ؛ فاذا أضفنا عدد المهاجرين إليها من الخارج ارتفعت النسبة الى ٢٨،٣٪ من مجموع سكان دمشق،وهذا يعني ان ثلاثةأعشار سكان المدينة على وجه التقريب ليسوا من مواليدها ، ويمكن اعتبارهم مهاجرين إليها من داخل القطر وخارجه (شكل ٤٢) . وهي نسبة مرتفعة من غير شك ، تفوق مثيلتها في حلب ، إذ تبلغ هذه النسبة فيها ١٧،٤ ٪ . وليس هناك ما يدعو الى الغرابة في ارتفاع هذه النسبة ، فدمشق قلب البلاد النابض ومقر رجال الحكم والسياسة ،

شكل (٤٢)



جدول (٢٥)

الهجرة بين دمشق وسائر محافظات ومناطق القطر السوري في تعداد ١٩٦٠[1]

المحافظة المنطقة	المهاجرون الى دمشق	المهاجرون من دمشق	مكسب أو خسارة
دمشق : الغوطتان	٤٥٨٨	١٣٦٥٠	- ٩٠٦٢
دوما	٥٥٠٦	٢٩٤٦	+ ٢٥٦٠
الزبداني	١٩٤٨	٥٤٦٣	- ٣٥١٥
قطنا	٣٥٦٢	٩٩١	+ ٢٥٧١
القطيفة	٤٣٩٣	٢٨١	+ ٤١١٢
القنيطرة	٣٥٧٨	١٤٩٠	+ ٢٠٨٨
النبك	٦٤٦٢	٦٢٦	+ ٥٨٣٦
غير مبين	٣٣	—	+ ٣٣
المجموع	٣٠٠٧٠	٢٥٤٤٧	+ ٤٦٢٣
حمص : مدينة حمص	٤٣٣٩	١٥٤٣	+ ٢٧٩٦
مركز محافظة حمص	١٩٠٨	٢١٧	+ ١٦٩١
تدمر	١٩٠	٧٩	+ ١١١
تلكلخ	١٧٩٩	٢٥٥	+ ١٥٤٤
غير مبين	٣٣	—	+ ٣٣
المجموع	٨٢٦٩	٢٠٩٤	+ ٦١٧٥

(١) عن التعداد العام للسكان لعام ١٩٦٠ – من كافة المجموعات .

تابع الجدول (٢٥)

المحافظة المنطقة	المهاجرون الى دمشق	المهاجرون من دمشق	مكسب أو خسارة
حماه : مدينة حماه	٤٤٩٧	٣٠٦	+ ٤١٩١
مركز محافظة حماه	٢٩٧	٥٢	+ ٢٤٥
السلمية	١٣٦٥	٧٣	+ ١٢٩٢
مصياف	١١٤٠	١٧٠	+ ٩٧٠
غير مبين	١١	—	+ ١١
المجموع	٧٣١٠	٦٠١	+ ٦٧٠٩
اللاذقية : مدينة اللاذقية	١٧٣٠	٨٤٥	+ ٨٨٥
مركز محافظة اللاذقية	٥٦٦	١٥٥	+ ٤١١
بانياس	٥١٩	١٣٨	+ ٣٨١
جبلة	٢٠٠٨	٣٤١	+ ١٦٦٧
الحفة	٦٤٣	١٢٥	+ ٥١٨
صافيتا	٩٨٦	١٦٨	+ ٨١٨
طرطوس	٥٥٦	١٥٢	+ ٤٠٤
غير مبين	٣	—	+ ٣
المجموع	٧٠١١	١٩٢٤	+ ٥٠٨٧
ادلب : مدينة ادلب	٧٢١	٤٩	+ ٦٧٢
مركز محافظة ادلب	٧٧٥	٥١	+ ٧٢٤
جسر الشغور	٣٨٤	٥٤	+ ٣٣٠

تابع الجدول (٢٥)

المحافظة	المنطقة	المهاجرون الى دمشق	المهاجرون من دمشق	مكسب أو خسارة
	حارم	٦١٨	٣٣	+ ٥٨٥
	معرة النعمان	٥٣٣	٤٠	+ ٤٩٣
	غير مبين	١٥	--	+ ١٥
	المجموع	٣٠٤٦	٢٢٧	+ ٢٨١٩
حلب	: مدينة حلب	٦٤١٤	١٧٥٦	+ ٤٦٥٨
	اعزاز	٤٣٨	٢٤	+ ٤١٤
	الباب	٣٧١	٣٣	+ ٣٣٨
	جبل سمعان	٣٤٢	٢٠	+ ٣٢٢
	جرابلس	١٦٥	٣٣	+ ١٣٢
	عفرين	٥١٥	٥٧	+ ٤٥٨
	عين العرب	٧٧	٣٧	+ ٤٠
	منبج	١٦٣	٢٤	+ ١٣٩
	غير مبين	١٥	—	+ ١٥
	المجموع	٨٥٠٠	٢٢٨	+ ٨٢٧٢
الرقة	: مدينة الرقة	٦١	٦٥	— ٤
	مركز محافظة الرقة	٢٩	٣٤	- ٥
	غير مبين	٢	—	+ ٢
	المجموع	٩٢	٩٩	— ٧

تابع الجدول (٢٥)

المحافظة المنطقة	المهاجرون الى دمشق	المهاجرون من دمشق	مكسب أو خسارة
ديرالزور: مدينة دير الزور	١٧١٣	٢٢٩	١٤٨٤ +
مركز محافظة دير الزور	١٨٥	١٢	١٧٣ +
البوكمال	٥٦	٧٢	١٦ −
الميادين	١٧٢	١٣	١٥٩ +
غير مبين	١٢	−	١٢ +
المجموع	٢١٣٨	٣٢٦	١٨١٢ +
الحسكة: مدينة الحسكة	٢٤٩	٢٠٣	٤٦ +
مركز محافظة الحسكة	٢٢٤	٦٢	١٦٢ +
المالكية	٩٨	٣٩	٥٩ +
القامشلي	٥٩١	٣٣٠	٢٦١ +
غير مبين	٦٣	−	٦٣ +
المجموع	١٢٢٥	٦٣٤	٥٩١ +
السويداء: مدينة السويداء	١٢٤٠	٣٧١	٨٦٩ +
مركز محافظة السويداء	٢٢٠٩	٦٦	٢١٤٣ +
شهبا	١٦٧٥	٥٢	١٦٣١ +
صلخد	٥١٣٠	١٠٥	٥٠٢٥ +
غير مبين	٢٤٧	−	٢٤٧ +
المجموع	١٠٥٠١	٥٩٤	٩٩٠٧ +

تابع الجدول (٢٥)

المحافظة المنطقة	المهاجرون الى دمشق	المهاجرون من دمشق	مكسب أو خسارة
درعا : مدينة درعا	١٤٤٣	٦١٧	+ ٨٢٦
مركز محافظة درعا	٤٦٤٢	٢٥٦	+ ٤٣٨٦
ازرع	٦٤٦١	٣٢٠	+ ٦١٤١
فيق	٨٠٦	٢٥١	+ ٥٥٥
غير مبين	٥١٧	–	+ ٥١٧
المجموع	١٣٨٦٩	١٤٤٤	+ ١٢٤٢٥
المجموع	٩٢٠٣١	٣٥٤٦٧	+ ٥٦٥٦٤

ومحط رجال العاملين في الصناعة والتجارة ، ومركز النشاط العلمي والفكري في القطر السوري كله .

وقد يتبادر الى الذهن ، ان الغوطة تشكل أهم مصادر الهجرة الرئيسية الى دمشق بسبب قربها منها وصلاتها الوثيقة بها ، في حين أننا لا نجد بين سكان دمشق سوى ٤٥٨٨ نسمة من أبناء الغوطة . ويبلغ عدد الأشخاص الذين ولدوا في الغوطة وعدّوا فيها ٨٤،٦٧٥ نسمة في تعداد ١٩٦٠ ، أي ما يعادل ثلثي سكانها البالغ ١٢٠،٩٣٥ نسمة في التعداد نفسه ، وضمن هؤلاء يوجد ١٣،٦٥٠ نسمة من مواليد دمشق ، ومن هذا يتضح ان الغوطة ليست منطقة يهاجر منها بل إليها !..

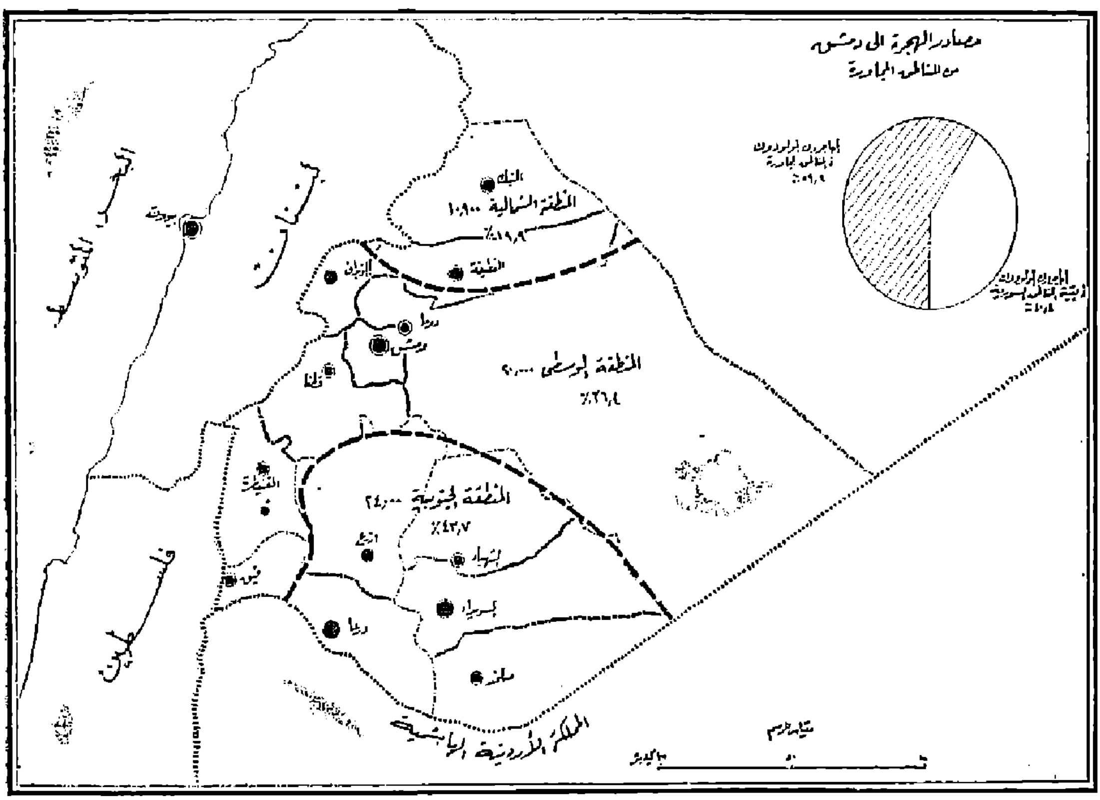
ويتضح من دراسة الجدول السابق ، ان المحافظات الجنوبية (دمشق ودرعا والسويداء) هي اكثر محافظات القطر السوري اسهاماً في تصدير السكان المهاجرين الى دمشق ، فان هذه المناطق تسهم بحوالي ٥٤،٤٠٠ نسمة من مجموع

المهاجرين الى دمشق حتى سنة ١٩٦٠ ، أي مايعادل ١٠٫٤٪ من مجموع سكان دمشق ، وتأتي محافظة دمشق في مقدمة هذه المحافظات تصديراً للسكان المهاجرين الى العاصمة (٥٫٨ ٪) وخاصة من منطقتيها دوما والنبك ، وتليها محافظتا درعا السويداء (٤٫٦ ٪) وخاصة من منطقتيها صلخد وازرع ، (شكل ٤٣) .

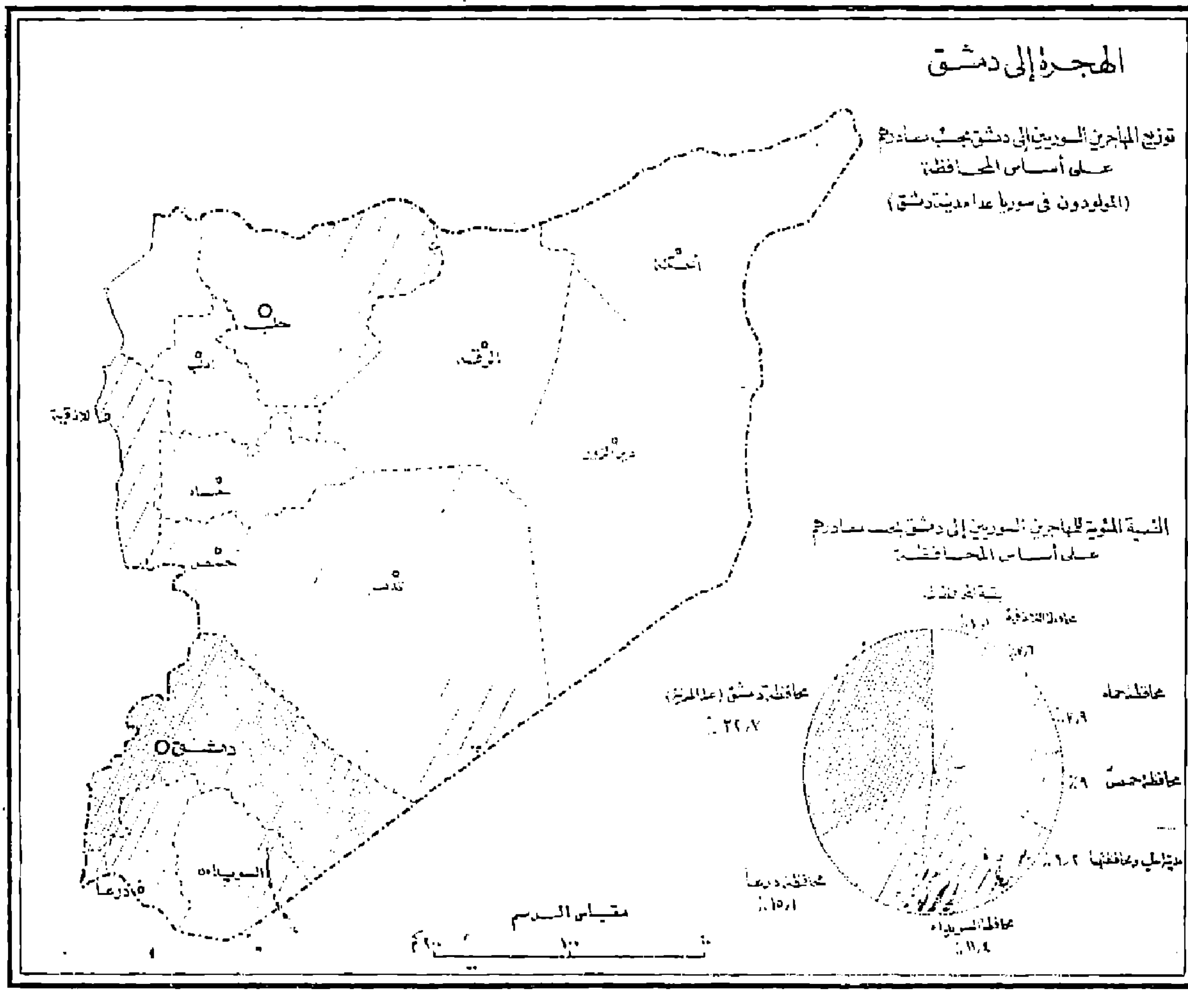
وتحتل محافظات الوسط حمص وحماه واللاذقية المرتبة الثانية من حيث تزويد دمشق بالمهاجرين ، فهي تسهم بنحو ٢٢٫٦٠٠ نسمة أو مايعادل ٤٫٢ ٪ من مجموع سكان دمشق . تليها بعد ذلك محافظة ومدينة حلب التي يصل منها ٨٥٠٠ نسمة أي مايعادل ١٫٩٪ من مجموع السكان . امابقية المحافظات فلاتسهم باكثر من ٦٥٠ نسمة او مايعادل ١٫٢٪ من مجموع سكان دمشق .

ومماتقدم ، يتبين ان قوة اجتذاب العاصمة للمهاجرين السوريين تشتد في

شكل (٤٣)



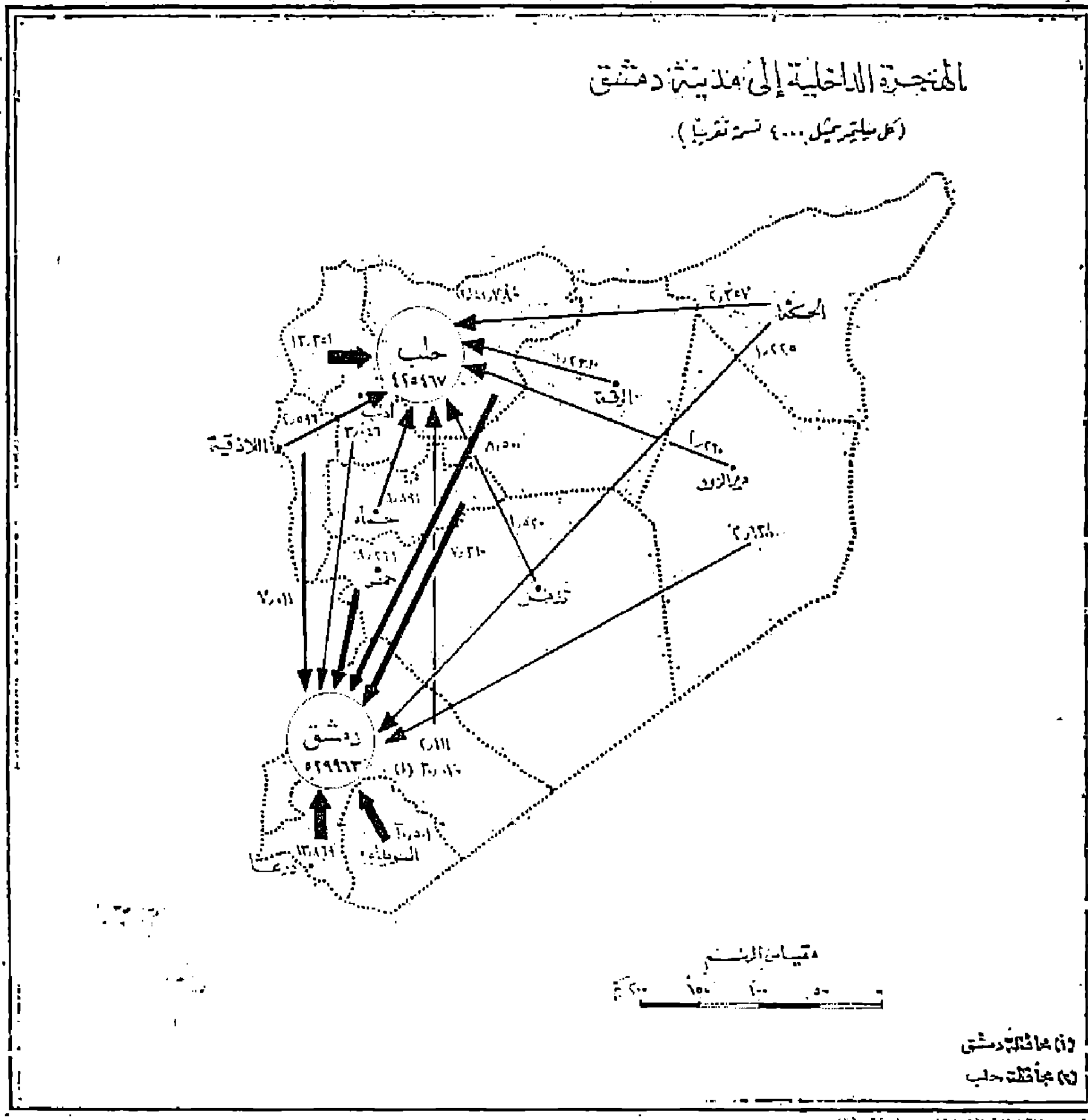
شكل (٤٤)



المحافظات الثلاث : دمشق ودرعا والسويداء ، وتضعف في المحافظات الاخرى ، كما هو واضح في الشكل (٤٤) الذي يبين توزيع المهاجرين السوريين الى دمشق بحسب مصادرهم على أساس المحافظة والنسب المئوية لهؤلاء المهاجرين .

كما توضح المقارنة بين الهجرة الى دمشق وحلب في الشكل (٤٥) تفوق العاصمة وقدرتها على جذب المهاجرين اليها من المحافظات الوسطى (حمص وحماه واللاذقية) ، وحتى من حلب نفسها ! بينما يتألف معظم المهاجرين الى مدينة حلب من محافظتها ومحافظة ادلب المجاورة لها .

شكل (٤٥)



وإذا أردنا أن ندرس مدى إسهام الهجرة الداخلية في نمو السكان بدمشق، ينبغي الانغفل جانباً آخر من الهجرة الداخليـة وهو المهاجرون من دمشق الى سائر المحافظات والمناطق السورية ، فان في دراسة الفرق بين هذين الجانبـين مايوضح مقدار المكسب أو الخسارة بالنسبة لدمشق عن طريق الهجرة الداخلية .

فاذا كانت دمشق قد اجتذبت ٩٢٠٣١ نسمة من مواليد الجهـات الاخرى من القطر السوري حتى سنة ١٩٦٠ ، فان هذه الجهات قد اجتذبت من

دمشق حتى ذلك التاريخ ٣٥٤٦٧ نسمة ، أو مايعادل ٦,٦٪ من سكانها ؛ وهي نسبة لاتزيد كثيراً على ثلث نسبة المهاجرين اليها . وعلى هذا يكون ما كسبته دمشق عن طريق الهجرة نحو ٥٦,٥٠٠ نسمة او مايعادل ١٠,٦٪ من سكانها .

واكثر المحافظات السورية اجتذابا لسكان دمشق هي اقرب المحافظات اليها (محافظة دمشق) ، فقد عُدَّ فيها وحدها ٢٥٤٤٧ نسمة من مواليد دمشق في عام ١٩٦٠ ، وهذا الرقم يعادل ٢٧,٦٪ من مجموع من يعيشون خارج دمشق من مواليدها . ويمكن القول بأن كثيراً من المهاجرين من دمشق الى محافظة دمشق لايعتبرون مهاجرين بمعنى الكلمة ، اذ ان كثيراً ممن يعملون في محافظة دمشق – لاسيما الموظفين – يفضلون سكنى دمشق والتوجه الى عملهم يومياً .

* * *

واذا اردنا تصفية حساب المكسب والخسارة بالنسبة لدمشق من تبادل السكان بينها وبين سائر جهات سوريا ، يتضح لنا في النهاية ان دمشق في مقدمة جهات المدن السورية جذباً للسكان المهاجرين ، وقلما نجد بين جهات القطر السوري كله منطقة تضاهي دمشق باجتذاب المهاجرين اليها . ومع ذلك فان هذا لاينفي وجود منطقة تجتذب من سكان دمشق ذاتها مايزيد على ماتخسره من سكانها بالهجرة الى دمشق كمنطقة الزبداني ، وان كانت هذه الهجرة موسمية موقتة ، تنتهي بانتهاء موسم الاصطياف .

ولعل هذا من العيوب التي يمكن ان توجه الى الاعتماد على البيانات الخاصة بمحال الميلاد في دراسة الهجرة الداخلية في سوريا . وعلى العموم، نستطيع ان نؤكد ان ماتكسبه دمشق من سكان المحافظات السورية – باستثناء محافظة الرقة التي لايزيد ماتخسره دمشق من سكانها بالهجرة اليها على سبعة اشخاص – يفوق ماتجذبه هذه المحافظات من سكان دمشق بالهجرة . ويمكن ان نقرر ان المحافظات السورية تعتبر مناطق طرد بشري بالنسبة لسكان دمشق بينما تعتبر مدينة دمشق منطقة جذب بشري بالنسبة لسكان تلك المحافظات .

الفصل الثاني

تكوين السكان

الذكور والاناث :

يترتب على تفاوت نسبة الذكور والاناث من المواطنين أكبر الأثر في معدلات الزواج ، وبالتالي نمو السكان ومستقبلهم العددي . كما أن معرفة مقدار الذكور والاناث تنير بعض الجوانب الاقتصادية من حياة السكان لما لهـا من علاقة بتوزيع العمل على المواطنين (١) .

ومن دراسة الجدول (٢٦) ، يتضح أن هناك اتجاه واضح ومستمر نحو الهبوط في نسبة الاناث الى الذكور في مدينة دمشق ، خلال الفترة ما بين ١٩٤٦ - ١٩٦٤ ، فقد هبطت هذه النسبة من ٩٧٧ في الألف عام ١٩٤٦ الى ٩٥٥ في الألف عام ١٩٦٢ ، أي انها انخفضت بمقدار ٢٢ في الألف خلال فترة ١٧ سنة فقط . وهذا التدني المطرد في نسبة الاناث يعزى الى كثرة الوافدين الى المدينة من جنود وطلاب وعمال ، من داخل البلاد وخارجها ، ومعظم هؤلاء من الذكور .

ويمكن أن نشهد ظاهرة نقص عدد الاناث عن الذكور في مختلف أقسام

(١) الدكتور عزة النص (١٩٥٥) - ص ٩٥ .

جدول (٢٦)

توزيع الذكور والاناث في مدينة دمشق ، بين ١٩٤٦ - ١٩٦٤

السنة	عدد الذكور	عدد الاناث	زيادة الذكور عن الاناث	نسبة الاناث لكل ألف من الذكور
١٩٤٦	١٥٣,٧٢٥	١٥٠,٢٢٧	٣٤٩٨	٩٧٧
١٩٤٧	١٥٦,٩٥٧	١٥٣,٢٨٩	٣٦٦٨	٧٧٦
١٩٤٨	١٦٠,٦٥٣	١٥٦,٥٩٨	٤٠٥٥	٩٧٤
١٩٤٩	١٦٤,٧٩٦	١٦٠,٢٧٤	٤٥٢٢	٩٧٢
١٩٥٠	١٦٩,٦٥٨	١٦٥,٤٠٢	٤٢٥٦	٩٧٤
١٩٥١	١٧٥,٠٠٢	١٧٠,٢٣٥	٤٧٦٧	٩٧٢
١٩٥٢	١٨٩,٢٥٢	١٨٣,٤٥٦	٥٧٩٦	٩٦٩
١٩٥٣	١٩٤,٦٨١	١٨٨,٥٥٨	٦١٢٣	٩٦٨
١٩٥٤	٢٠٠,٩٢٩	١٩٤,١٩٥	٦٧٣٤	٩٦٦
١٩٥٥	٢٠٧,٩٣٨	٢٠٠,٨٣٦	٧١٠٢	٩٦٥
١٩٥٦	٢١٥,٧٥٣	٢٠٨,٠٧٩	٧٦٧٤	٩٦٤
١٩٥٧	٢٢٤,١١٧	٢١٥,٥٧٨	٨٥٣٩	٩٦١
١٩٥٨	٢٣١,٨٠٤	٢٢٢,٧٧٩	٩٠٢٥	٩٦١
١٩٥٩	٢٤٢,٤٣٩	٢٣٢,٩٦٠	٩٤٧٩	٩٦٠
١٩٦٠	٢٥٠,٧٢٥	٢٤٠,٦٧٣	١٠٠٥٢	٩٥٩
١٩٦١	٢٥٩,٠٤٣	٢٤٨,٤٦٠	١٠٥٨٣	٩٥٩
١٩٦٢	٢٦٨,٦٣٩	٢٥٦,٨١٥	١١٨٢٤	٩٥٥
١٩٦٣	٢٧٨,١٠٥	٥٦٦,٦٠٧	١١٤٩٨	٩٥٨
١٩٦٤	٢٨٧,٦٠٥	٢٧٥,٣٠٢	١٢٣٠٣	٩٥٧

المدينة ، ولا يشذ عن ذلك بين أقسامها سوى قسمي الروضة والجسر ، حيث تنعكس فيهما هذه الظاهرة وتصبح نسبة الذكور لكل ألف من الاناث على الترتيب : ٨٦٣ ، ٨٩٩ في الألف ، حسب تعداد ١٩٦٠ .

ويلاحظ من الشكل (٤٦) أن نقص عدد الاناث عن الذكور يستمر بانتظام حتى الفئة ما بين ١٤ — ١٩ سنة ، ثم يشتد النقص بعد ذلك قليلاً ، ويصبح الفرق واضحاً بين فئة ٢٤ - ٣٩ سنة . وهذا يطابق فئات أعمار المهاجرين في مدينة دمشق بشكل واضح . وتستمر زيادة عدد الذكور عن الاناث حتى فئة ٤٥ — ٤٩ تقريباً ، ثم يبدأ عدد الاناث يرجح على عدد الذكور حتى فئة ٧٠ — ٧٤ سنة ، وتتقارب فيما بقي بعد ذلك من العمر . وهذا يتفق مع الظاهرة الديموغرافية المعروفـــة ، بأن مواليد الذكور يزيدون على مواليد الاناث ، ولكن الأمر ينعكس في نهاية الحياة ، فيبقى من الاناث أكثر مما يبقى من الذكور .

فئات السن :

تساعد دراسة تكوين السكان حسب فئات السن على تفسير كثير من العناصر الديموغرافية ، مثل اتجاهات نمو السكان ونسب المواليد والوفيات ومعدلات الزواج ، فضلاً عن دلالتها على قوة السكان الانتاجية ومقدار حيويتهم وأحوالهم الصحية والتعليمية ، فاحتياجات التخطيط والعمل والخدمات العامة والاجتماعية والاقتصادية تعتمد جميعاً على معرفة صحيحة لتكوين السكان حسب فئات السن .

الا أن البيانات الخاصة بتوزيع السن تعاني من نقص التبليغ عن الذكور الذين في سن الجندية وكثرة المغالاة في أعمارهم ، وذلك بسبب الرغبة في التهرب من الخدمة العسكرية ، كما أن الآباء يقللون عادة من أعمار الشابات اليافعات إذا كُنّ من غـــير المتزوجات اللاتي تعدّين السن المثالية للزواج ، وبالاضافة الى هذا فان المسنّين ومتوسطي الأعمار يميلون الى زيادة أعمارهم من

باب السهو أو الجهل أو اكتساب الهيبة والوقار .

والواقع أن أكثر السوريين الذين ولدوا قبل الحرب العالمية الأولى يجهلون تاريخ ميلادهم بدقة، أو على الأقل لم يسجلوا هذا التاريخ في دوائر الأحوال المدنية على حقيقته ؛ ويمكن تعليل ذلك بالظروف التاريخية التي كانت تسود البلاد ، فالآباء كانوا يخشون على أبنائهم الانخراط في الجندية ابان الحكم العثماني الطافح بالحروب ، ولذلك كانوا يكتمون ولادتهم في الغالب ، وإذا سجلوهم لم يصدقوا في قيدهم فإما أن يزيدوا في أعمارهم كي تفوتهم القرعة العسكرية أو ينقصون حتى لا تدركهم تلك القرعة ، ومن ثم أصبحت هذه العادة مستحكمة في نفوس الأهلين ، ولم تبدأ في الزوال حتى زمن قريب .

ومن دراسة الجدول (٢٦) الشكل (٤٦) ، يبدو أن هرم الأعمار لمدينة دمشق واسع القاعدة حادّ الذروة ، مما يدل على فتوة سكان هذه المدينة ، وليس هذا بعجيب ، اذ ان الشعوب العربية في طليعة الشعوب الفتية ، فهي من جهة تكثر من التوالد حتى لتبلغ الحد الاقصى من الاخصاب ، وهي من جهة ثانية لا تعدّ كثيراً من الشيوخ المعمّرين لسوء التغذية وفتك الامراض . فمن الظواهر البارزة في هرم توزيع الأعمار ارتفاع النسبة المئوية للاطفال الذين هم دون الخامسة ، فهي تبلغ ١٨،٢٪ في دمشق .

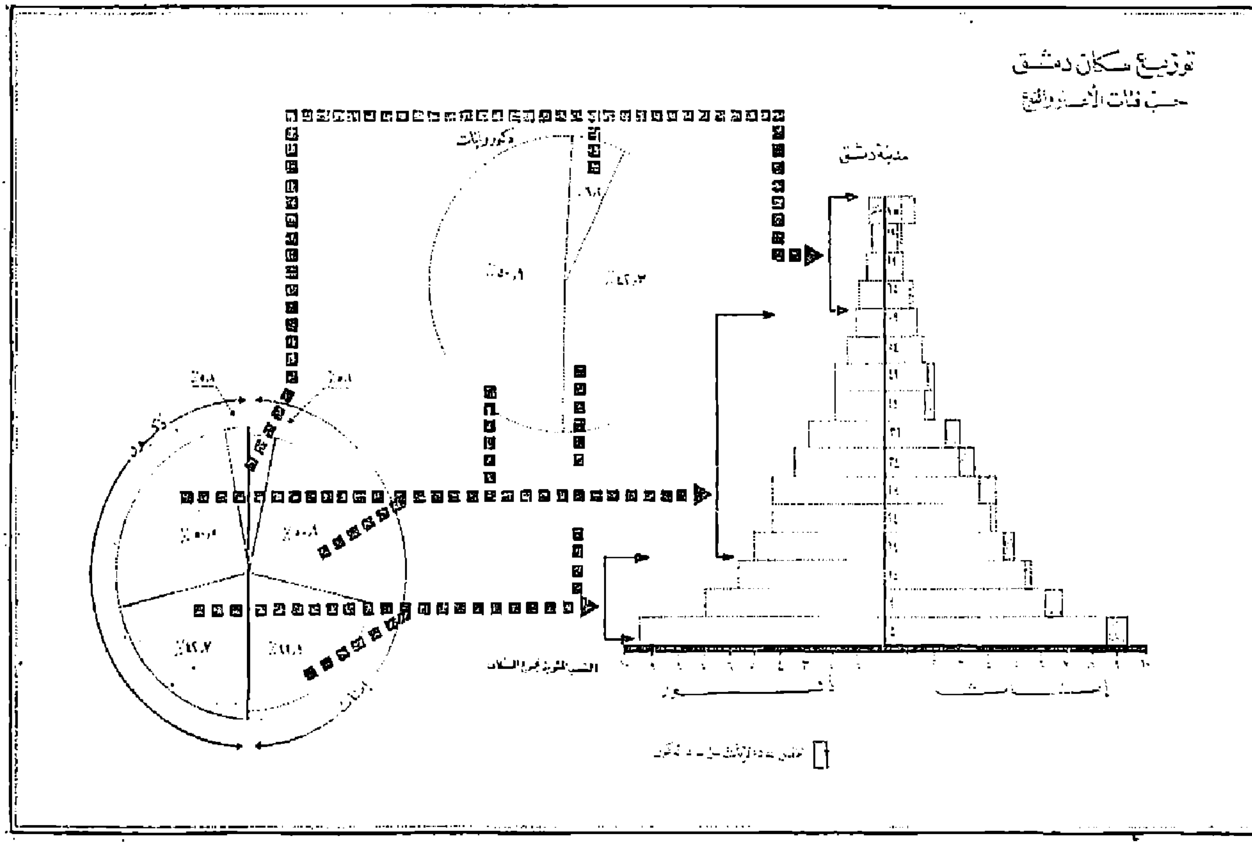
اما الاتساع الذي يظهر في هرم الاعمار من سن ١٥ حتى ٢٩ ، فهو يرجع غالباً الى تيار الهجرة الذي ينصب على العاصمة من جميع الارياف والمحافظات السورية التماساً للثقافة او العمل . وبعد ذلك ، يلاحظ ان الهرم تعتريه عدة طعنات ، حدثت الاولى بين سنتي ٣١ – ٣٦ ، اي بوصول مواليد الازمة الاقتصادية المعروفة ، حيث كانت تلك الفترة غير ملائمة للزواج والتناسل ؛ وحدثت الثانية في اعقاب فترة ٢١ – ٣١، اي بوصول مواليد الفترة التي تلت دخول

جدول (٢٧)

فئات الاعمار حسب النوع في مدينة دمشق حسب تعداد ١٩٦٠

فئات السن	ذكور	٪	اناث	٪	المجموع	٪
اقل من ٥	٤٩٧٩٥	١٨٫٣	٤٦٦٦٩	١٨٫٢	٩٦٤٦٤	١٨٫٢
٥ — ٩	٣٦٨٤٠	١٣٫٥	٣٤٢١٦	١٣٫٣	٧١٠٥٦	١٣٫٤
١٠ — ١٤	٢٩٨٧٣	١١٫٠	٢٩٦٦٦	١١٫٥	٥٩٥٣٥	١١٫٢
١٥ — ١٩	٢٦٤٦٣	٩٫٧	٢٤٨٢٧	٩٫٧	٥١٢٩٠	٩٫٧
٢٠ — ٢٤	٢٣٠٦٧	٨٫٤	٢٢٤٨١	٨٫٧	٤٥٥٤٨	٨٫٦
٢٥ — ٢٩	٢٢٩٥٦	٨٫٤	٢٠٠٦٢	٧٫٨	٤٣٠١٨	٨٫١
٣٠ — ٣٤	١٨٩٠٣	٦٫٩	١٥٧٦٦	٦٫١	٣٤٦٦٩	٦٫٥
٣٥ — ٣٩	١٥٦٢٥	٥٫٧	١٣٤١١	٥٫٢	٢٩٠٣٦	٥٫٥
٤٠ — ٤٤	١٠١٢٥	٣٫٧	٨٣٩٦	٣٫٣	١٨٥٢٠	٣٫٥
٤٥ — ٤٩	١٠٣٠٥	٣٫٨	٩٠٥٧	٣٫٥	١٩٣٦٢	٣٫٧
٥٠ — ٥٤	٧٣٠٨	٢٫٧	٨٧٢٢	٣٫٤	١٦٠٣٠	٣٫٠
٥٥ — ٥٩	٥٦٧٨	٢٫١	٧٠٣٣	٢٫٧	١٢٧١١	٢٫٤
٦٠ — ٦٤	٥٣٦٧	٢٫٠	٦٥٨٢	٢٫٦	١١٩٤٩	٢٫٣
٦٥ — ٦٩	٣٨٧٦	١٫٤	٣٨٤٤	١٫٥	٧٧٢٠	١٫٥
٧٠ — ٧٤	٢٩٤٧	١٫١	٢٩٩٥	١٫٢	٥٩٤٢	١٫١
٧٥ فأكثر	٣٣٤٣	١٫٢	٣١٩٢	١٫٢	٦٥٥٥	١٫٢
غير مبين	٢١٩	٠٫١	٣٣٤	٠٫١	٥٥٣	٠٫١
المجموع	٢٧٢٧١٠	١٠٠	٢٥٧٢٥٣	١٠٠	٥٢٩٩٦٣	١٠٠

شكل (٤٦)



الفرنسيين الى البلاد ، وقيام الثورة السورية الكبرى في وجه الاستعمار ؛وحدثت الاخيرة بين سنتي ١٦ – ٢١ ، اي بوصول مواليد الحرب العالمية الاولى ، وما رافقها من انتشار الجوع والفقر والمرض وغلاء الاسعار . وبعد ذلك يضيق الهرم كلما اقتربنا من ذروته لازدياد الوفيات المستمر بسبب العمر .

وتشكل فئة الاحداث الذين تقل اعمارهم عن العشرين اكثر من نصف مجموع سكان دمشق (٥٢٫٥٪) ، اما الشيوخ الذين تجاوزوا الستين من اعمارهم فلا تزيد نسبتهم على ٦٫٢٪ من مجموع السكان . واذا قسمنا عدد هؤلاء الشيوخ

على عدد الاحداث نحصل على « قرينة الهرم »[1] وهي تبلغ في دمشق ١١٫٧٪ تقريباً حسب تعداد ١٩٦٠ ، وبذلك يندرج سكان هذه المدينة تحت مجموعة الشعوب الفتية التي تقل فيها قرينة الهرم عن ٢٠٪ ، ففي مدينة دمشق نجد شيخاً واحداً تقريباً مقابل عشرة اطفال ؛ الا ان هذه القرينة عند الاناث اعلى منها عند الذكور ، فهي تبلغ ١٢٫٥٪ ، اي اننا نجد عجوزاً واحدة مقابل ثمانية اطفال .

واذا اعتبرنا بداية سن العمل والانتاج ، كما هي حال اكثر الامم الراقية ، هي في الخامسة عشرة ، وجدنا من هم دون هذه السن حوالي ٤٢٫٨٪ بينما هم لايتجاوزون ٢١٫٢٪ من جملة السكان في فرنسا مثلا . اما متوسطو السن الذين تتراوح اعمارهم بين ١٥ و ٤٩ سنة فتبلغ نسبتهم ٤٥٫٦٪ من مجموع السكان ، وعلى عاتق هذه الفئة يقع عبء العمل والانتاج ، بل ان جزءاً منها – من النساء – لايشارك في العمل مشاركة فعلية بسبب انصرافه الى اعمال البيت وتربية الاطفال . واخيراً تبقى فئة الكبار الذين تزيد سنهم على الخمسين ، وهؤلاء قلة لايتجاوزون ١١٫٦٪ فقط من مجموع السكان ، كما هو واضح في الجدول الآتي :

جدول (٢٨)

فئات العمر الرئيسية الثلاث في مدينة دمشق مقارنة بمثيلاتها في القطر السوري حسب تعداد ١٩٦٠

الفئة	أقل من ١٥ سنة		١٥ – ٤٩ سنة		٥٠ سنة فأكثر	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
دمشق	٢٢٧٠٥٩	٤٢٫٨	٢٤١٤٤٤	٤٥٫٦	٦١٤٦٠ [2]	١١٫٦
القطر السوري	٢٠١٤٥٢٨	٤٦٫٣	١٧٩٧٨٦٣	٤١٫٣	٥٤١٠٦٠ [3]	١٢٫٤

(١) قرينة الهرم Indice de vieillesse نسبة الشيوخ الذين تزيد اعمارهم على ٦٠ سنة الى ١٠٠ مراهق دون العشرين .

(٢) يشتمل هذا الرقم على الفئة غير المبينة وقدرها ٥٥٣ نسمة .

(٣) يشتمل هذا الرقم على الفئة غير المبينة وقدرها ٢٣٧٧ نسمة .

واذا اخذنا برأي بعض الكتاب الذين يرون ان النوع التقدمي للسكان من حيث النمو ، هو الذي تتناسب فيه فئات السن الثلاث الرئيسية مع النسب المئوية ٤٠ – ٥٠ – ١٠ [١] يتضح لنا من دراسة الجدول السابق ، ان فئات السن الثلاث لاتبتعد كثيراً عن هذا المعدل ، اذ ترتفع نسبة الفئة الاولى والثالثة فيها على حساب الفئة الثانية مما يؤدي الى ضعف النسبة المنتجة من السكان ويزداد الفرق اتساعاً بالنسبة للقطر السوري عامة ، حيث يشتد النقص بين فئة متوسطي السن لمصلحة فئتي الصغار والكبار .

التصنيف المهني للسكان :

لاشك في أن ابناء المدينة لايعيشون في ظروف اجتماعية او اقتصادية واحدة ، وهذه الظروف المختلفة لها أثرها فيما يتعرضون له من اخطار المهنة أو امراضها ، ولها أثرها في اقبالهم على الزواج او اعراضهم عنه ، بل ولها أثرها في اقبالهم على الانجاب أو زهدهم فيه .

وأول مايلفت النظر في حرف السكان في مدينة دمشق ، حسب تعداد ١٩٦٠ ، ارتفاع نسبة الذين ليس لهم نشاط ارتفاعاً ملحوظاً ، فهي تبلغ نحو ثلثي سكان دمشق (٦٧،١ ٪) ؛ وهذا يرجع الى ادخال الذين لاعمل لهم ممن تقل سنهم عن ١٥ سنة في عداد المتعطلين، ويمثل هؤلاء الغالبية العظمى من الذين لاعمل لهم ، اذ يبلغ عددهم ١٠٨،٧٨٨ نسمة . وتشمل البقية الباقية من الذين لاعمل لهم الافراد الذين تزيد سنهم على الستين ، هذا بالاضافة الى المتعطلين عن العمل في مختلف فئات الاعمار . ويلاحظ ان نسبة الاناث بين الافراد الذين لاعمل لهم ترتفع

---

(١) الدكتور محمد صبحي عبدالحكيم – مدينة الاسكندرية – القاهرة ١٩٥٨ – ص ٢٨٣ (نقلا عن السيد عبد الحميد الدالي في كتابه « العناصر الحيوية لمشكلة السكان في مصر – ص ٣٥٢ – ٣٥٣ »)

الى ٤٠,٩٢٪ بين الاناث ، بينما تنخفض هـذه النسبة الى اقل من النصف بين الذكور (٤٣,١٠٪) ، وبمعنى آخر فـان عدد الاناث الذين لا عمل لهم يزيد على ضعف عدد الذكور من هذه الفئة (جدول ٢٩) .

ويأتي عدد المشتغلين بالخدمات في طليعة الحرف التي يمارسها ابناء العاصمة اذ تبلغ نسبتهم ١٠,٥٪ من مجموع المشتغلين ، وهي تشمل الخدمات الشخصية (١٩٤٦٤ نسمة) والخدمات الحكومية والادارية (١١٤٦٤ نسمة) والخدمات الاجتماعية (٨٣٠٨ نسمة) وغيرها من خدمات الأعمال والترفيه . ويلاحظ ان معظم المشتغلين في هذه الحرفة من الذكور ، اذ تبلغ نسبتهم ١٤,٩٪ ، بينما تنخفض هذه النسبة بين الاناث الى ٦٪ من مجموع المشتغلات .

ودمشق هي موضع الفعاليات الثانوية ، وهذا يرجع الى عدة اسباب ، اهمها :

اولا - جامعة دمشق ، التي تزايد عدد طلابها كثيرا خلال السنوات العشر الاخيرة ، فقفز من ١٠٥٨ طالباً في العام الدراسي ١٩٤٥-١٩٤٦ الى ١٨٨٣١ طالبا في العام الدراسي ١٩٦٢-١٩٦٣ ، اي ان عدد الطلاب تضاعف اكثر من ١٧ مرة خلال ١٧ عاما . هذا مع العلم بأن الجامعة لا تؤمّن الاقامة الى جميع طلابها .

ثانيا - عاصمة الدولة ، ان دمشق كمركز للحكومة ، له اكبر الاثر على المدينة ، لان جميع المشتغلين في اعمال الحكومة تقريبا يعيشون في المدينة نفسها ، كما يرتبط بالعاصمة ايضا تهيئة اماكن الاقامة الفاخرة للبعثات الدبلوماسية الاجنبية في سوريا .

ثالثا - معرض دمشق الدولي ، الذي يقام سنويا ، منذ سنة ١٩٥٤ خلال شهر ايلول (سبتمبر) من كل عام ، ويقدر عدد زوار المعرض سنويا باكثر من مليون ونصف المليون نسمة ، وهؤلاء الزوار ليسوا دمشقيين فقط ، انما يأتون من

دول اخرى ، وخاصة من الدول العربية المجاورة . وقد كان المعرض اثراً كبيراً ليس على الفعاليات الاقتصادية فحسب انما على الوضع الاجتماعي والثقافي لسكان دمشق ايضا [١] .

اما الحرف الاساسية ، وهي الزراعة والصناعة والتجارة ، فتبلغ نسبة المشتغلين بها مجتمعة ٩١،٥١٪ من جملة المشتغلين . وتأتي الصناعة في المقدمة ، اذ يشتغل بها وحدها ٨١،١٪ ، ويمكن ان نضيف الى الصناعة استثمار المحاجر ، وان كان عدد المشتغلين بها قليلا ، لا تزيد نسبته على ٠،١٪ .

واغلب المشتغلين بالصناعة يمارسون الصناعات التحويلية التي اهمها في دمشق صناعة الغزل والنسيج (٧٠٧٢ نسمة) ، وصناعة الخشب والموبيليات (٥٥٧٤ نسمة) وصناعة المواد الغذائية والمشروبات (٤٢٠٤ نسمة) وصناعة وسائل النقل واصلاحها (٣٢٨١ نسمة) وصناعة الاحذية والملابس الجاهزة (٢٩٩٢ نسمة) [٢] .

ويلاحظ ان نسبة الاناث اللواتي يشتغلن بالصناعة قليلات جدا ، فهي تبلغ ٠،٠٦٪ فقط من مجموع الاناث المشتغلات، بينما ترتفع هذه النسبة الى ١٥،١٪ بين الذكور . وتنطبق هذه الملاحظة ايضا على المشتغلين بالتجارة ، اذ تبلغ نسبة الاناث المشتغلات بها ٠،٠٢٪ من مجموع المشتغلات ، بينما ترتفع النسبة بين الذكور الى ١٠،٧٪ ؛ الامر الذي يؤدي الى خفض نسبة المشتغلين بالتجارة عموما الى ٥،٠٦٪ من مجموع المشتغلين ، كما هو واضح في الجدول الآتي :

---

(١) Zakaria, T.T., A Housing Program for Damascus, 1936,P. 31-34

(٢) التعداد العام للسكان - مدينة دمشق - لعام ١٩٦٠ .

جدول (٣٩)

توزيع السكان حسب النشاط الاقتصادي والنوع في مدينة دمشق[١] (حسب تعداد ١٩٦٠)

المهنة	ذكور		اناث		المجموع	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
الزراعة والصيد	٥٥٨٦	٢٫٦	٢٩٠	٠٫١	٥٨٨٦	١٫٤
المناجم والمحاجر	٥٠٠	٠٫٢	٥٧	—	٥٥٧	٠٫١
الصناعات التحويلية	٣٢٣٨٦	١٥٫١	١١٧٨	٠٫٦	٣٣٥٥٤	٨٫١
التشييد والبناء	١٠٥٤٣	٤٫٩	١٧٠	٠٫١	١٠٧١٢	٢٫٦
الكهرباء والغاز والمياه	٢١٨٥	١٫٠	١٥	—	٢٢٠٠٠	٠٫٥
التجارة	٢٢٩٨٩	١٠٫٧	٤١٠	٠٫٢	٢٣٣٩٩	٥٫٦
النقل والمواصلات	٨١١٨	٣٫٨	١٦١	٠٫١	٨٢٧٩	٢٫٠
الخدمات	٣١٨٣٦	١٤٫٩	١٢١١٣	٦٫٠	٤٣٩٤٩	١٠٫٥
انشطة غير واضحة	٢١١٣	١٫٠	٧٢٠	٠٫٤	٢٨٣٣	٠٫٧
ليس لهم نشاط	٩٢٥٠٠	٤٣٫١	١٨٧٤٢٥	٩٢٫٤	٢٧٩٩٢٥	٦٧٫١
غير مبين	٥٨١٤	٢٫٧	٢١٦	٠٫١	٦٠٣٠	١٫٤
المجموع	٢١٤٥٦٠	١٠٠	٢٠٢٧٥٥	١٠٠	٤١٧٣١٥	١٠٠

واهم انواع التجارة التي يشتغل بها سكان دمشق هي تجارة المفرّق (١٩٧٣٥ نسمة) وتجارة الجملة (١٣٣١ نسمة) واعمال البنوك والمؤسسات المالية (١١٨٦ نسمة)، ثم اعمال التأمين والعقارات وخدمات المال والتجارة والاعمال المتصلة بها (١١٤٧ نسمة). وسواء أكانت التجارة بالجملة او بالمفرق، فمدينة دمشق تشكل المركز الرئيسي للتجارة الداخلية والخارجية وتضم معظم وكالات التصدير والاستيراد في سوريا، وان كان بعض اصحابها يقيمون في المدن السورية الاخرى، وخاصة في اللاذقية التي تمثل الميناء السوري الاول.

وطبيعي ان تكون نسبة المشتغلين بالزراعة والصيد في مدينة دمشق

(١) لا يشمل الاطفال دون السادسة.

ضئيلة ، فهي تبلغ ١٫٤٪ من مجموع المشتغلين ، بل ان عـــدد المشتغلين بالصيد وتقطيع الاخشاب لا يزيد على ٥١ شخصا فقط ، كلهم من الذكور ، كما يلاحظ ان معظم المشتغلين بالزراعة من الذكور ، فلا تزيد نسبة الاناث على ٠٫١٪ فقط من مجموع المشتغلات ، بينما ترتفع هذه النسـبة الى ٢٫٦٪ بين الذكور .

ويشتغل بالتشيد والبناء ٢٫٦٪ من مجموع المشتغلين بدمشق ، اغلبهم من الذكور ، اذ تبلغ نسبة المشتغلين منهم ٤٫٩ ٪ من مجموع المشتغلين ، بينما لا تتجاوز نسبة المشتغلات من الاناث ٠٫١٪ من مجموع المشتغلات ، وتنطبق هذه الملاحظة على المشتغلين بالنقل والمواصلات ، اذ تبلغ نسبة الاناث المشتغلات بها ٠٫١٪ من مجموع المشتغلات ، بينما ترتفع النسبة بين الذكور الى ٣٫٨٪ .

واخيرا ، هناك نحو ٠٫٥٪ من مجموع المشتغلين في دمشق ، يعملون في انتاج وتوزيع الكهرباء والغاز والمياه وجمع القمامة وتصريف المجاري ، وكلهم من الذكور تقريبا . ويبقى بعد ذلك ٢٫١٪ من مجموع المشتغلين في المدينة ، ثلثاهم غير مبين، والثلث الاخر أنشطة غير واضحة .

ومن دراسة الجـــدول (٣٠) ، الذي يوضح توزيع حرف السكان في اقسام دمشق المختلفة ، يمكن ان نتبين ابرز مظاهر الاختلاف الاقليمي بين اقسام المدينة على النحو الاتي :

اولا ـ ارتفاع نسبة المشتغلين بالزراعة عن المعدل بالنسبة المدينه كلها في الاقسام التي تقع في أطراف المدينة وهي الضواحي الشرقية والغربية ،ويظفر هـــذان القسمان بأكبر نسبة من المشتغلين بهذه الحرفة (٤٫٢٪ و ٣٫٧٪) . وطبيعي ان نشهد هذه النسبة المرتفعة من المشتغلين بالزراعة في هذه الضواحي فهي تمثل الظهير الزراعي لدمشق ، الذي يمد المدينة بالخضراوات والفواكه ، ويطوق المدينة من جهاتها الثلاثة ، من الشرق والغرب والجنوب ، بينما تختفي

جدول (٣٠) النشاط الاقتصادي في أقسام مدينة دمشق ونسبهم المئوية[1] (حسب تعداد ١٩٦٠)

المهنة	الاكراد	المهاجرين	الروضة	الجسر	عمارة	قصاع	باب الجابية	حريقة	ميدان	ضواحي ش	ضواحي غ	جملة دمشق
الزراعة والصيد	٩٤١	٢٨١	٢٧٩	٣٠٠	١٣٩	١١١	٢٤٨	١٢٣	٤٩٥	٩١٦	٢١٤٣	٥٨٧٦
٪	٢,٠	٠,٦	١,٢	٠,٦	٠,٤	٠,٣	٠,٧	٠,٣	١,١	٤,٢	٣,٧	١,٤
المناجم والمحاجر	٤٠	١١	٦	١٦	٦	٦	٤	٢	٧	٢٧٣	١٨٦	٥٥٧
٪	٠,١	—	—	٠,١	—	—	—	—	—	١,٣	٠,٣	١,١
صناعات تحويلية	٣٧٥٣	٣٥٣٧	٧٣٠	١٣٠٩	٣١٥٩	٣٥٦٢	٣٧٤٦	٣٢٨٩	٣٧٧٣	٢١٨٨	٤٥٦٣	٣٣٥٥٤
٪	٧,٩	٧,٦	٣,٢	٣,٩	٨,٩	١٠,٥	١٠,٠	٨,٨	٨,٦	١٠,١	٧,٩	٨,١
التشييد والبناء	١٦٩٧	٩٣٣	١٩٣	٤٥٦	٥٦٦	٨٩٠	١٢١٠	٤٣٤	٨٥٠	١٢٦٨	٢٢٠٩	١٠٧١٣
٪	٣,٦	٢,٠	٠,٨	١,٤	١,٦	٢,٦	٣,٢	١,٢	١,٩	٥,٩	٣,٩	٢,٦
الكهرباء والغاز	٢٣٨	٢٤٣	٦٤	١١٩	١٧٦	١٧٧	١٨٠	١٧٩	٢٣٢	١٨٥	٤٠٧	٢٢٠٠
٪	٠,٥	٠,٥	٠,٣	٠,٤	٠,٥	٠,٥	٠,٥	٠,٥	٠,٥	٠,٩	٠,٧	٠,٥
التجارة	١٧٩٨	٢٣٦٢	١٤٧٩	١٩٥٣	٢٣٤٧	٢١١٦	٢٤٥٣	٢٧٥٩	٣٢٩٧	٦٨٤	٢١٥١	٢٣٣٩٩
٪	٣,٨	٥,٠	٦,٦	٥,٨	٦,٦	٦,٢	٦,٥	٧,٥	٧,٥	٣,٢	٣,٧	٥,٦
النقل والمواصلات	١٠٠٠	١٠٠١	٣٥٦	٥٤٨	٧٢٥	٥٨٥	٥٩٥	٦٨٣	٩٥٩	٤٦٠	١٣٦٧	٨٢٧٩
٪	٢,١	٢,١	١,٦	١,٦	٢,١	١,٧	١,٦	١,٨	٢,٢	٢,١	٢,٤	٢,٠
الخدمات	٥٥٥٠	٥٤٧٨	٤٢٠٣	٦٢٨٦	٣٤٧٥	٣٤٧٤	٣٣١١	٣٢٢١	٣٠٨٥	١٧٥٣	٤١١٤	٤٣٩٤٩
٪	١١,٧	١١,٧	١٨,٧	١٨,٨	٩,٨	١٠,١	٨,٨	٨,٧	٧,٠	٨,١	٧,٢	١٠,٥
انشطة غير واضحة	١٧٣	٣١٤	١٣٥	١٧٨	١٧٩	٣٧٦	٣١٠	٣٤٩	١٨٣	٢٦١	٣٧٥	٢٨٣٣
٪	٠,٣	٠,٧	٠,٦	٠,٥	٠,٥	١,١	٠,٨	٠,٩	٠,٤	١,٢	٠,٧	٠,٧
ليس لهم نشاط	٣١٣٧٤	٣١٨٩٣	١٤٧٠٥	٢١٨٦٨	٢٣٩٦٨	٢٢٣٣٠	٢٥١٤٢	٢٥٤٦٥	٣٠٩٢٣	١٣٣٢٣	٣٩١٣٤	٧٩٩٢٥
٪	٦٦,٠	٦٨,١	٦٥,٣	٦٥,٣	٦٧,٨	٦٥,٤	٦٧,٠	٦٩,٠	٦٩,٨	٦١,٧	٦٨,٢	٦٧,١
غير مبين	٩٣٦	٧٩٠	٣٧٨	٥٤١	٦٣٠	٤٩٨	٣١٦	٤٦٥	٤٣٧	٢٨٣	٧٥٦	٦٠٣٠
٪	٢,٠	١,٧	١,٧	١,٦	١,٨	١,٥	٠,٩	١,٣	١,٠	١,٣	١,٣	١,٤
المجموع	٤٧٥٠٠	٤٦٨٤٣	٢٢٥٢٨	٣٣٤٧٤	٣٥٣٧٠	٣٤١٣٢	٣٧٥١٥	٣٦٩١٤	٤٤٠٤١	٢١٥٩٣	٥٧٤٠٥	١٧٣١٥
٪	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

(١) لا يشمل الأطفال دون السادسة .

الاراضي الزراعية ، وبالتالي المشتغلون بالزراعة في الاقسام التي تشغل وسط المدينة .

اما ظاهرة انخفاض نسبة المشتغلين بالزراعة في الضواحي الغربية عنها في الضواحي الشرقية ، فترجع الى انصراف معظم ابناء هذه الضواحي عن الزراعة واتجاههم نحو المدينة يلتمسون فيها موارد الرزق المتعددة التي تكون ، في العادة، اسهل منالا في نظرهم من الزراعة . ومع ذلك فهناك عوامل عديدة ، اسهمت في قلة نسبة المشتغلين بالزراعة ، تختلف بين قرية واخرى ، منهـا ضيق الارض الصالحة للزراعة ، كما هي الحال في دمر ، وزحف الحركة العمرانية ومشاريع الاسكان فوق الاراضي الزراعية ، كما هي الحال في المزة .

وفي حي الميدان ، الذي يتميز بطابعه الريفي ، نلاحظ انخفاض نسبة المشتغلين بالزراعة ايضاً ، بالمقارنة مع الحرف الاخرى ، فهي لا تتجاوز ١٫١ ٪ من عدد سكان الحي ، وهذا يرجع الى انصراف أبنائه الى التجارة والصناعة وعزوفهم عن الأعمال الزراعية ، فضلاً عن قلة الأراضي التي يملكها سكان الحي في الغوطة .

ثانياً ـ ارتفاع نسبة المشتغلين بالصناعة بشكل واضح في أقسام القيمرية والضواحي الشرقية وباب الجابية والحريقة ، بينما تنخفض نسبهم عن المعدل العام في أقسام الروضة والجسر . ويمكن أن نفسر ارتفاع نسبة المشتغلين بالصناعة في الضواحي الشرقية والحريقة الى وجود منطقة القابون الصناعية ضمن الأولى ، ووجود منطقة الصناعات الميكانيكية في زقاق الجن ضمن الثانية . أما ارتفاع نسبة المشتغلين بالصناعة في الأقسام الأخرى ، فـلا يرجع الى انتشار المؤسسات الصناعية فيها فحسب ، إنما لقربها من المراكز الصناعية وسكنى الطبقة العاملة في الصناعة فيها .

ثالثاً – ارتفاع نسبة المشتغلين بالتجارة عن المعدل بشكل واضح في قسمي الحريقة والميدان ، اذ تبلغ نسبة المشتغلين بالتجارة في كل منها ٧و٥٪ ، ولا غرابة في ذلك ، فالقسم الأول يشغل قلب المدينة التجاري ، والقسم الثاني يمثل سوق الحبوب الرئيسي في دمشق ، حيث يتلقى منتجات الحبوب الزراعية والحيوانية . ويلاحظ أن نسبة المشتغلين بالتجارة في أطراف المدينة ضئيلة، وخاصة في الضواحي وحي الاكراد ، لضعف الحركة التجارية فيها نسبياً .

رابعاً – ارتفاع نسبة المشتغلين بالخدمات الحكومية والاجتماعية والشخصية في قسمي الروضة والجسر ، وذلك لقربها من الادارات الحكومية ، التي تكاد تتركز في وسط المدينة ، وارتفاع المستوى الاجتماعي فيها ، كما ان هذين القسمين من أكثر أقسام المدينة اجتذاباً للموظفين . وتحتل حرفة الخدمات مركز الصدارة بين الحرف التي يمارسها أبناء الروضة والجسر ، اذ تبلغ نسبة المشتغلين بها على الترتيب ١٨،٧ ، ١٨و٨ .

خامساً – ارتفاع نسبة المشتغلين بالتشييد والبناء في الضواحي الشرقية والغربية وحي الاكراد ، وهي الأقسام التي مازالت حركة التوسع العمراني فيها مستمرة ، كما ان هذه الأقسام يسكنها الكثير من الايدي العاملة في البناء .

التكوين الديني للسكان :

يختلف اثر الديانات في نمو السكان باختلاف تعاليمها في الزواج وتعداد الزوجات واكثار النسل والحفاظ على الأولاد ، وإن كان هذا التأثير يضعف أو يشتد تبعاً لعوامل أخرى اقتصادية واجتماعية وثقافية .[1] ولاشك في أن قدم

(١) الدكتور عزة النص – ص ١٨ .

اتصال دمشق بالحضارة وصلتها المباشرة بمهود الأديان السماوية ، ترك فيها ممثلين لهذه الأديان كلها ، ولمختلف المذاهب والفرق الدينية التي تفرعت عنها .

جدول (٣١)

تطور نسب المسلمين والمسيحيين واليهود في دمشق بين ١٨٤٠–١٩٦٠ (في المائة)

الديانة	١٨٤٠[1]	١٨٧٦[2]	١٩٣٥	١٩٦٠
المسلمون	٨٠٫٥	٨٥٫٢	٨٤٫٥	٩٠٫٩
المسيحيون	١٤٫٥	١٠٫٩	١٠٫٣	٨٫٦
اليهود	٥٫٠	٣٫٩	٥٫٢	٠٫٥

ويتضح من الجدول السابق ، انه يدين بالاسلام أغلبية السكان ، فقد بلغت نسبتهم ٨٠٫٥٪ من مجموع السكان في تقدير عام ١٨٤٠ ، ثم اخذت هذه النسبة في الارتفاع حتى بلغت نحو ٩١٪ في تعداد ١٩٦٠ . وكانت هذه الزيادة في نسبة المسلمين على حساب الأديان الأخرى ، فقد هبطت نسبة المسيحيين من ١٤٫٥٪ في تقدير عام ١٨٤٠ ، واستمرت في هبوطها حتى بلغت نحو ٨٫٥ ٪ من مجموع سكان دمشق في تعداد ١٩٦٠ .

ويمكن تفسير هذه الزيادة في عدد المسلمين ، بأن الديانة الاسلامية تحض على الزواج والتناسل ، كما تبيح تعدد الزوجات ، ومع أن الديانات الاخرى كلها تدعو لكثرة النسل ، ولكن الاسلام أكثرها تشجيعاً على ذلك ، فهو يخلق في

(١) و (٢) نعمان القساطلي ـ الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ـ بيروت ١٨٧٩ — ص ٨ ؛ مجلة المشرق ٧ : ٧٤٨ — ٧٥٥ ، ١٢ : ٩١٦ ، ٣٢ : ٧٦١ — ٧٧٦ ؛

Porter , J. L. , Five years in Damascus , London , 1855 , P. 14 .

معتنقيه فتوة دائمة تتميز بكثرة المواليد ، بينما نلاحظ في الديانة المسيحية دعوة الى الرهبانية والتبتل [1] .

يضاف الى ماتقدم ، هجرة أبناء الريف المسلمين الى دمشق باعداد كبيرة ، وخاصة خلال الهزات الاقتصادية التي أصابت الريف واستقرارهم فيها نهائياً ، بينما كانت هجرة المسيحيين الى الخارج عاملا مهما في تقليل عدد السكان المسيحيين ، وخصوصاً من المسيحيين الارثوذكس ، اذ هاجرت عائلات كثيرة الى مصر في زمن العثمانيين هرباً من الخدمة العسكرية ، ثم تحولت هذه الهجرة بعد الحرب العالمية الأولى نحو اليونان ودول امريكا الجنوبية ؛ إلا ان هـــذه الهجرة قد قلت كثيراً في الفترة الحديثة بسبب الأمن والاستقرار وتحسن الأحوال المعيشية في البلاد .

أما اليهود فقد انخفضت نسبتهم من ٥٪ من مجموع السكان ، في تقدير سنة ١٨٤٠ ، الى ٥و٠٪ في تعداد ١٩٦٠ . وذلك رغم أن الديانة اليهودية تحرّض معتنقيها على التكاثر لاملاء الأرض والسيطرة عليها ، فقد وعد الله أنبياء اليهود في مواضع كثيرة من التوراة ، بالاكثار من نسلهم ليعمروا الأرض ويصبحوا سادتها [2] . إلا ان انخفاض نسبة اليهود في دمشق ترتبط بالقضية الفلسطينية ، وهجرة اليهود المستمرة الى فلسطين ، وقد بدأت طلائع هذه الهجرة منذ أوائل العقد الثالث من هذا القرن ، وبلغت ذروتها في أعقاب حرب التحرير عام ١٩٤٨ .

---

(١) يدل على ذلك رسالة بولس الرسول الأولى الى أهل كورنثوس ، وخاصة حين يقول للآباء « من زوج ابنته فحسنا يفعل ومن لايزوج يفعل أحسن » ، عن الاصحاح السابع – الآيات : ١، ٧، ٨، ١٠ – ٢٥ – ٣٣ – ٣٥ – ٤٠ .

(٢) أنظر العهد القديم – سفر التكوين – الاصحاح الثامن والعشرون، الآيات: ٣ ، ١٤ ، سفر التثنية – الآيات : ١٢ – ١٥ من الاصحاح السابـــع – الآية ٥ من الاصحاح الثلاثين .

جدول (٣٢)

توزع المسلمين والمسيحيين واليهود في أقسام المدينة المختلفة مع نسبهم المئوية .

(تعداد ١٩٦٠)

أقسام المدينة	المسلمون		المسيحيون		اليهود		المجموع	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
الاكراد	٥٥٤٧٠	٩٠٫٤	٥٨٦٧	٩٫٦	٦	—	٦١٣٤٣	١٠٠
المهاجرين	٥٨٧٨٢	٩٩٫٤	٣٣٥	٠٫٦	—	—	٥٩١١٧	١٠٠
الروضة	٢٤١٦٦	٩٠٫١	٢٦٣٨	٩٫٩	١	—	٢٦٨٠٥	١٠٠
الجسر	٣٣٢٤٤	٨٤٫٢	٦٢٥٨	١٥٫٨	١	—	٣٩٥٠٣	١٠٠
العمارة	٤٣٥٨٧	٩٨٫١	٨٦٠	١٫٩	١	—	٤٤٤٤٨	١٠٠
القصاع	١٩٤٢٣	٤٦٫٢	٢٢٥١٨	٥٣٫٦	٨٤	٠٫٢	٤٢٠٢٥	١٠٠
باب الجابية	٤٢٧١٦	٨٨٫٧	٣١٢٧	٦٫٥	٢٢٩٧	٤٫٨	٤٨١٤٠	١٠٠
الحريقة	٤٥٦٠٣	٩٧٫٣	١٢٧٧	٢٫٧	١	—	٤٦٨٨١	١٠٠
الميدان	٥٦٤٩٧	٩٩٫٣	٣٧١	٠٫٧	—	—	٥٦٨٦٨	١٠٠
الضواحي الشرقية	٢٦٤٧١	٩٤٫٣	١٥٨٥	٥٫٧	١	—	٢٨٠٥٧	١٠٠
الضواحي الغربية	٧٥٩٧١	٩٩٫٠	٨٠٥	١٫٠	—	—	٧٦٧٧٦	١٠٠
جملة دمشق	٤٨١٩٣٠		٤٥٦٤١		٢٣٩٢		٥٢٩٩٦٣	

ولعل ابرز ما يلاحظ على توزع السكان حسب اديانهم ، في الجدول السابق ، هو تركز المسيحيين في قسم القصاع الواقع في الجهة الشرقية والشمالية الشرقية من دمشق ، اذ يتجمع فيه أكثر من نصف المسيحيين في دمشق (٥٣٫٦٪) بينما يتوزع الباقون بين اقسام المدينة الأخرى بنسب متقاربة ، فيرتفع نسبة المسيحيين نوعاً ما في بعض أقسامها ، كما هي الحال في الروضة والجسر ، ولاسيما

منطقة الشهداء منها ، التي يرجع تركز المسيحيين فيها الى عهد الانتداب الفرنسي، وتنخفض نسبة المسيحيين في أقسام أخرى من المدينة كالمهاجرين والميدان، وذلك لأن الأول كان موطن هجرة قديمة للعناصر الاسلامية ، كما كان الثاني منطقة طرد بشري للعناصر المسيحية في اعقاب الثورة السورية .

وفي حي الميدان ، بقية من المسيحيين الكاثوليك ، قدمت الى هذا الحي من حوران منذ أوائل القرن التاسع عشر ، واستقرت فيه من أجل التجارة. أما المسيحيون الارثوذكس ، فقد وصلت عائلاتهم الاولى عقب مذابح ١٨٦٠ من راشيا (في لبنان) وباب توما ، الحي المسيحي القديم في دمشق ، حيث توفرت لهم الحماية في حي الميدان . وقد تركزوا في زقاق البرج الذي دعي بهذا الاسم لوجود برج الكنيسة الذي بناه المسيحيون في ذلك الحين ، ثم انتقل قسم منهم الى زقاق القرشي والموصلي وباب المصلى في حي الميدان نفسه .

ولم يمض وقت طويل حتى بدأت هذه العناصر المسيحية بالهجرة من هذا الحي منذ عام ١٨٨٠ . وقد ظلت الهجرة ضعيفة حتى سنة ١٨٩٥ ، واصبحت بعد ذلك شديدة ومستمرة حتى السنوات العشر التي اعقبت الحرب العالمية الاولى . وقد اتجهت الهجرة في اول الأمر نحو الولايات المتحدة ، وخاصة نيويورك التي أسسوا فيها حياً سورياً صغيراً ، ثم تركوا الولايات المتحدة ، واتجهوا نحو داكار واستراليا ، كما وصل قسم منهم اخيراً الى مصر (١) . وفيما بعد اتجه تيار الهجرة نحو حي القصاع والأحياء السكنية الحديثة ، مما جعل عدد المسيحيين في حي الميدان في تناقص مستمر نتيجة هذه الهجرة المستمرة .

(١) Thoumin, R . , Deux quartiers . Akrad et Bab Mouçalla , (Bull . d ' Etudes Orientales de L'inst . Fr . de Damas , T . 1 , 1931) PP . 113 - 115 .

وتبدو الظاهرة الثانية في تركز اليهود في قسم الشاغور ، إذ يضم وحده ٩٦ ٪ من الطائفة اليهودية بدمشق ، وذلك ضمن حيّهم المعروف باسم حي اليهود الواقع في الجزء الجنوبي من المدينة القديمة المسوّرة. ويلاحظ انه قلما يسكن اليهود خارج حيهم ، سوى بعض اثريائهم الذين ابتعدوا عن ابناء ملتهم وسكنوا الأحياء الحديثة ، كمنطقة القصور شمالي القصاع .

أما المسلمون ، فيتوزعون في باقي أقسام المدينة ، حيث تتفاوت فيما نسبتهم زيادة ونقصاناً ؛ فهي تقل في قسم القصاع مثلا بسبب تجمع المسيحيين فيه، كما سبق أن ذكرنا ، بينما ترتفع نسبتهم كثيراً في اقسام المدينة الأخرى، وخاصة في اقسام المهاجرين والميدان والضواحي .

ولا يقف توزيع السكان بحسب الأديان الرئيسية في مدينة دمشق عند هذا الحد ، بل يتعدى ذلك الى توزيع اصحاب الدين بحسب المذاهب والفرق الدينية المختلفة . فالشيعة من المسلمين مثلًا تتركز في حي الشيعة (محلتي الخراب والجورة) والعلويون والاسماعيليون يسكنون في الجزماتية وزقاق الحشاشة في الميدان ، والدروز ينزلون غالباً في زقاق التيامنة في الميدان أيضاً (١) .

وكذلك ينقسم المسيحيون في حيهم الى عـدة مذاهب دينية ، بعضهم يتبع الكنيسة الشرقية وبعضهم الآخر يتبع الكنيسة الغربية ؛ وأكثرهم عدداً هم المسيحيون الشرقيون ، أي الروم الارثوذكس ، يليهم في العدد المسيحيون الغربيون ، أي الروم الكاثوليك . والى جانب هاتين الطائفتين الكبيرتين طوائف أخرى أقل منها عدداً ، أهمها البروتستانت ثم السريان واليعاقبة .

ويلاحظ أن كل طائفة من هذه الطوائف المسيحية المذكورة ، تحاول أن تتجمع حول كنيستها ومدرستها ، بجانب أبناء طائفتها . فالروم الارثوذكس

---

(١) تيسير الرفاعي – الميدان – بحث غير منشور – (١٩٥٦) ص ٢٢ .

يتركز معظمهم حول حي الكنيسة في القصاع، كما انهم يشكلون معظم المسيحيين في حي الميدان ومنطقة الشهداء. اما الروم الكاثوليك فيتجمعون في الشوارع والازقة الواقعة الى الشمال من حي الكنيسة (منطقة الروم الارثوذكس)[1] وهذا لا يعني عدم وجود اماكن تختلط فيها هذه الطوائف بعضها مع بعض، اذ نلاحظ ان القسم الغربي من حي القصاع - المحصور بين شارع القصاع الرئيسي وشارع حلب - تختلط فيه جميع طوائف المسيحية، فضلا عـــن المسلمين الذين يسكنون فيه باعداد كبيرة.

التكوين العرقي واللغوي للسكان :

تضم دمشق اقليات عرقية ولغوية متعددة، يسكنون في احياء خاصة بهم، وهذا يرجع كما اسلفنا الى العهود السابقة، حيث كان الدفاع عن النفس يجبر السكان على التجمع فئات فئات ليتساندوا ويتآزروا وقت الملمات. ومع ان التطور العمراني الحديث قضى نوعاً ما على هذا التوزيع، لكنه مع ذلك يظل المظهر السائد؛ فالاقليات العرقية واللغوية رغم تفرقها في انحاء المدينة، فان الاحياء التي سكنتها في العصور التاريخية السابقة تحمل اسمها الى اليوم، وهكذا نجد في جبل قاسيون حي المهاجرين (اتراك والبانيين وكريتيـــين) ثم حي الشركسية في الوسط وحي الاكراد في اقصى الشمال الشرقي من الجبل.

وتختلف الخصائص القومية الاصيلة قوة وضعفا بين هذه الاقليات، الا ان الاكراد من المسلمين والارمن من المسيحيين في دمشق يشكلان اهم المجموعات القومية الواضحة. ويبـــدو عدم الالتحام القومي بين هذه المجموعات القومية من خلال ميلهم الى التجمع في اقسام خاصة من المدينة، فالاكراد يعيشون في القسم الشمالي من المدينة بينما يعيش الارمن في القسم الشرقي منها.

---

(١) غالب العلمي - ص ٢٦.

ويعتبر الاكراد اشد الجماعات القومية محافظة على عصبيتها القومية وروابطها القبلية ، وقد استوطنوا جبل قاسيون منذ عهد صلاح الدين ، كما سكن قسم منهم في محلة القاعة بالميدان وبنوا جامعا دعي باسمهم ، الا انهم التحقوا بابناء عشيرتهم فيما بعد ، وانعزلوا عن اهل دمشق انعزالا تاما . وكان هؤلاء ينظرون الى اهل مدينة دمشق نظرة كل بدوي قبلي يحتقر اهل الحضر ، بينما كان ينظر اليهم اهل المدينة نظرة الريبة والحذر . حتى اذا ما انتشر الامن والاستقرار في البلاد ، واستبد الفقر والحاجة بالاكراد ، اضطروا الى هجر عزلتهم مع الزمن واختلطوا بسكان المدينة ، وتعلموا اللغة العربية ، ونزلوا الى ميدان الصناعة فتعلموا بعض المهن ، ولا سيما مهنة النسيج اليدوي التي اختصوا بهـا وبرعوا فيها ولا سيما نسيج البَتَّة [1] .

وقد فقد الاكراد مع الزمن كثيرا من عصبيتهم القومية الكردية والقبلية وقلت الفوارق بينهم وبين سكان دمشق حتى كادت تنمحي . فعلى الرغم من ان كل كردي يعرف اسم عشيرته التي ينتمي اليها ، فان روح التعلق بالقبيلة والمفاخرة بها قد اصبحتا اليوم في طريق الزوال . ويقدر عدد الاكراد في دمشق بنحو ١٦ الف نسمة .

اما الارمن ، فقد وجدت جاليتهم في دمشق منذ العصور الوسطى ، وكانت لهم اديرتهم وكنائسهم الخاصة . وقد اشتدت الهجرة الارمنية الى سوريا عموما بعد الحرب العالمية الاولى ، واستمرت خلال الفترة ما بين ١٩٢٢-١٩٢٩ وخاصة الى مدينتي حلب ودمشق ، فوصل منهم الى دمشق وحدها ١٩ الف أرمني وذلك على اثر تنكيل الاتراك الكماليين بالارمن [2] .

---

(١) وهو نسيج سميك ومتين ، يحتوي على عروق كثيرة وصغيرة ، يتألف كل عرق منهـا من خمسة الوان ، وكانت سوق العراق تستهلك الكثير منه في الماضي .

(٢) الدكتور عزة النص – ص ٩٨ – ١٠١ .

وقد قطن اللاجئون الارمن في بادىء الامر قسما منعزلا في خارج مدينة دمشق ، قرب الباب الشرقي ، وانشأوا هناك حيا خاصا بهم لا يسكنه غيرهم ، وانعزلوا عن المدينة انعزالا تامـــا ؛ يعيشون في بيوت ترابية فقيرة ؛ ونزل قسم آخر من الارمن خارج حي الميدان في منطقة ظهر الشليف (مــكان مصنع الكبريت الحالي) ، واقام بيوته من الطين ايضا .

ويشكل الارمن اليوم ، اقلية عرقية ودينية ، تستعمل اللغة الارمنية في طقوسها الدينية واحاديثها الخاصة ، ومعظم هؤلاء الأرمن يمارسون الصناعة ويجيدونها ، ولذلك سرعان ماتوصل بعضهم الى الثراء بفضل نشاطه ومهارته ، فانتقل هؤلاء الاثرياء الى المدينة نفسها ، وسكنوا الاحياء الحديثة مثل السّبكي والصالحية والشهداء ولا سيما جادة الكويت .

ولا بد من الاشارة الى حي الشركسية ، الذي ترجع تسميته الى اواخر القرن الماضي ، حين ارسل السلطان العثماني حاميات كبيرة من الشراكسة لتوطيد الأمن في السهوب السورية ؛ وتركزت حامية دمشق وقتئذ في حي خاص بهم شمالي جامع الشيخ محي الدين ، عرف فيما بعد ، بحي الشراكسة . ولكن هذا الحي قد اصبح اليوم اسماً بلا مسمى ، ولم يعد بين سكانه الحاليين أحد من الشراكسة .

وفي مدينة دمشق ايضاً ، كثير من العائلات الدمشقية التى ترجع الى اصل تركي ، ولكنها لاتشكل حالياً اقلية واضحة ، بسبب تفرقها في الاحياء المختلفة واندماجها مع ابناء المدينة ، وقد استوطنت هذه العناصر التركية مدينة دمشق في القرن التاسع عشر ومطلع القرن الحالي ، ويمكن التعرف عليها بواسطة القابها التي تنسب الى مدينة تركية او تشير الى وظيفة او رتبة تركية وغير ذلك مثل : ديار بكرلي وقونيه لي ودفتردار وخزنه دار . . . الخ .

ومما تقدم ، نلاحظ ان مدينة دمشق اشبه ماتكون بلوحة من الفسيفساء ، تعددت الوانها وتنوعت مصادرها ، فهي تضم مجموعات بشرية تختلف في اصولها وتتباين في معتقداتها ومذاهبها . ومع ذلك ، فان التخطيط من اجل مشاريع الاسكان المقبلة ، ينبغي الا يقيم وزنا لهذا التركيب الديني والعرقي واللغوي ، حرصاً على صهر هذه المجموعات المختلفة في بوتقة حضرية واحدة .

الاجانب وتوزيعهم :

وجدت في دمشق جاليات اوربية عديدة منذ القرن التاسع عشر ، وفد بعض هؤلاء الاجانب لأغراض تبشيرية وبعضهم الآخر لأغراض تجارية ، وتحت ستار هؤلاء واولئك اغراض سياسية وعسكرية . وقد ازداد عدد هؤلاء الاجانب في عهد ابراهيم باشا الذي كان يستقدم الاجانب ولا سيما الفرنسيين منهم لاستخدامهم في الاعمال الفنية في الجيش والمصانع ، حتى بلغ عددهم نحو ١٥٠٠٠ شخص في سنة ١٨٤٠[1] ، كما سمح للأوربيين بفتح قنصليات لهم في مدينة دمشق ، واستقر معظم هؤلاء الاجانب في حي باب توما المسيحي .

ولكن عدد الاجانب مالبث ان تناقص في اواخر العهد العثماني بسبب الفوضى وعدم الاستقرار ، ولم يكد شبح الحرب العالمية يطل على العالم حتى خرجت البقية الباقية من الاجانب الى بلادها . وبعد خضوع البلاد لنظام الانتداب الفرنسي ، وصلت اعداد كبيرة من الفرنسيين وبعض الدول الدائرة في فلك الاستعمار الفرنسي ، حتى بلغوا بضع مئات في عام ١٩٢٢ ، ثم اخذ عددهم يزداد باستمرار نتيجة تشجيع الحكم الاجنبي القائم في سوريا .

---

(١) Porter, Op. cit., p. 14

جدول (٣٣)

الاجانب في دمشق مع نسبهم المئوية مقارنة بامثالها في القطر السوري حسب تعداد ١٩٦٠

الجنسية	في دمشق		في سوريا
	العدد	٪	٪
مصريون	٣٤٧١	٤و٣	٣و٩
فلسطينيون	٥٧٢٤٠	٧١و٠	٦٩و٥
عرب آخرون	١٥٨٦٨	١٩و٧	٢١و٨
أتراك	٣٩١	٠و٥	٠و٧
جنسيات أخرى	٣٣٤٨	٤و٢	٣و٧
غير مبين	٢٦٥	٠و٣	٠و٤
المجموع	٨٠٥٨٣	١٠٠	١٠٠

ويتضح من الجدول السابق ، ان عدد الاجانب في دمشق بلغ ٨٠٥٨٣ نسمة في تعداد ١٩٦٠ ، أي مايعادل ١٥و٢٪ من مجموع سكان دمشق ، منهم ٩٥٪ تقريباً من ابناء البلاد العربية ، بل أن الفلسطينيين وحدهم يشكلون ٧١٪ من مجموع الاجانب في دمشق ، بينما لاتزيد نسبة ابناء القطر المصري كثيراً على ٤٪ على الرغم من وجود الوحدة بين القطرين آنذاك .

أما الاجانب من غير العرب ، فلم يحدد التعداد جنسياتهم التي ينتمون اليها ، باستثناء الاتراك الذين لاتزيد نسبتهم على ٠و٥٪ من مجموع الاجانب ، فقد كان من نتيجة الحكم العثماني لهذه البلاد مدة اربعة قرون ، ان هاجرت الى هذه البلاد بعض العائلات التركية ، كما استقرت فيها مجموعة من الجنود . وقد تلقى حي الميدان بدمشق عدة دفعات منهم ، فهاجر اليه قسم كبير من التركمان وسكنوا

منطقة الحقلة (الى الشمال من محل القبيبات) ، كما هاجر اليه في أعقاب الثورة الكمالية عدد من الاتراك المتدينين، وسكنوا في زقاق الحطاب ، ومنطقة الحقلة، وكذلك يمكن ان نشهد بقايا هؤلاء الاتراك في حي سوق ساروجه ، الذي كان يلقب باستنبول الشام ، لكثرة العائلات التركية التي سكنت فيه، واخيراً في حي الشهداء الذي كان الاتراك العامل الأول في نشأته، وحي المهاجرين الذي سكنوه منذ عهد ناظم باشا . وعلى العموم لايزيد عدد الاجانب من غير العرب ، على

جدول (٣٤)

عدد الاجانب ونسبتهم الى مجموع السكان في اقسام مدينة دمشق

(حسب تعداد ١٩٦٠)

أقسام المدينة	عدد السكان	عدد الأجانب	٪ من السكان
الأكراد	٦١٣٤٣	٩٧٣٦	١٥،٨
المهاجرين	٥٩١١٧	٥٢٨٢	٨،٩
الروضة	٢٦٨٠٥	٣١٦٠	١١،٧
الجسر	٣٩٥٠٣	٦٢٥٦	١٥،٨
العمارة	٤٤٤٤٨	٣٤٩٤	٧،٨
القصاع	٤٢٠٢٥	٤٣٥٢	١٠،٣
باب الجابية	٤٨١٤٠	٩٦٦٠	٢٠،٠
الحريقة	٤٦٨٨١	٤٤٤٦	٩،٤
الميدان	٥٦٨٦٨	٤٥٧٤	٨،٠
الضواحي الشرقية	٢٨٠٥٧	٥٨٠١	٢٠،٦
الضواحي الغربية	٧٦٧٧٦	٢٣٨٢٢	٣١،٠
جملة دمشق	٥٢٩٩٦٣	٨٠٥٨٣	٩٥،٢

اختلاف جنسياتهم ، على ٤٠٠٠ نسمة في عام ١٩٦٠ ، او مايعادل ٥٪ فقط من مجموع سكان دمشق .

ومن مقارنة نسب الاجانب في دمشق بامثالها في القطر السوري عامة ، يتضح ان دمشق تستأثر بالنصيب الاكبر من الاجانب نوعاً ما ، وخاصة من المصريين والفلسطينيين من العرب ، ورعايا الدول الاجنبية غير العربية باستثنا الاتراك ، ولاغرابة في هذا ، فان دمشق عاصمة البلاد ومقر الحكم والسياسة ومركز الاقتصاد والثقافة .

ومن دراسة الجدول السابق ، يتبين لنا ان نسبة الاجانب الى مجموع السكان تختلف اختلافاً واضحاً من قسم الى آخر ، وتبلغ هذه النسبة اقصاها في الضواحي الغربية (٣١٪) ، لانها تضم معظم اللاجئين الفلسطينيين ، وخاصة في مخيم اليرموك ، وتليها الضواحي الشرقية ومنطقة الشاغور التي تضم معظم بقية اللاجئين الفلسطينيين . وتبلغ هذه النسبة أدناها في قسم العمارة (٧,٨٪) وغيره من اقسام المدينة القديمة ، التي تغص بابنائها ولاتجتذب الأجانب لسكناها.

ويمكن القول ، بأن الأجانب من غير العرب يندر وجودهم في أقسام المدينة القديمة ، ومعنى هذا ان الاجزاء الشرقية والجنوبية من المدينة لاتجتذب اليها الأجانب من غير العرب الا باعداد قليلة نشهدها شمالي القصاع في منطقة القصور بشكل خاص ، بينما تضم الأجزاء الغربية من المدينة معظمهم .

والواقع ، ان دراسة توزيع الأجانب في دمشق تتطلب فصل الأجانب من غير العرب عن ابناء البلاد العربية الشقيقة ، كما تستوجب فصل الفلسطينيين عن بقية المواطنين العرب لانهم – كما رأينا – يشكلون الغالبية العظمى من الاجانب في دمشق ، ويتوزعون في مختلف انحاء المدينة ، مما يضيع معالم الصورة الحقيقية لتوزيع الاجانب من غير العرب في دمشق بسبب قلة عددهم بالنسبة للفلسطينيين .

ومع ذلك ، يمكن ان نلاحظ ارتفاع نسبة الاجانب في قسم الجسر - سبع بحرات ، لتوسط مركزه في المدينة ، وقربه من الوزارات والدوائر الرسمية وتوفر الغرف والدور المفروشة للايجار فيه . وقد كان هذا الجزء من المدينة ، حتى عهد قريب ، موطن الجاليات الاجنبية الفرنسية والايطالية والروسية وغيرها ، كما ان قرب هذه المنطقة من جامعة دمشق وتوفر المدارس الثانوية والاعدادية والابتدائية فيها من رسمية وخاصة ، ، جعلت اغلب الطلاب الغرباء يرغب في سكناها .

ويلي ذلك قسم الروضة ، الذي يضم احدث الاحياء السكنية ، واكثرها تنظيما وتنسيقا ، فاجتذب اليه معظم دور السفارات والمفوضيات والقنصليات الاجنبية ، كما استقر فيه الموظفون الاجانب وعائلاتهم .

اما الفلسطينيون ، فقد سكن معظمهم في المدارس والمساجد والتكايا عند قدومهم الى دمشق عام ١٩٤٨ ، ثم اخذوا ينتقلون الى البيوت القديمة في مدينة دمشق تدريجيا . وقد بلغ عددهم في دمشق بعد ثلاث سنوات من وصولهم اليها حوالي ٢٠٥٠٠ لاجىء ، موزعين في مدرسة الاليانس في الحي اليهودي (٧٠٧٦ لاجىء) والتكية (٧٦٢٣ لاجىء) والقيمرية (٥٤٦٨ لاجىء) .

ولم تأت سنة ١٩٥٥ حتى انتقل معظم اللاجئين الى مخيم اليرموك ، الواقع الى الجنوب الشرقي من مدينة دمشق ، وعلى بعد لا يتجاوز الكيلو متر الواحد من البوابة في آخر الميدان . وقد انشىء هذا المخيم الكبير في سنة ١٩٥٤ باشراف مؤسسة اللاجئين .

وفي عام ١٩٦٢ وصل عدد اللاجئين الفلسطينيين في دمشق وضواحيها الى اكثر من ٤٠ الف نسمة ، يضم مخيم اليرموك اكثر من نصفهم (٢٠٧٧٠ نسمة) ويتوزع النصف الباقي بين جوبر (٣٧٤٩ نسمة) والمزة (٢٠٨٦ نسمة) ،

وكفرسوسة (١٩٠٥ نسمة) والقابون (١٧٥٤ نسمة) ودمر (٨٩٠ نسمة) والقدم (٧١٠ نسمة) وبرزة (٥٦٤ نسمة) .

ولا شك ان هذا العدد الكبير من اللاجئين الفلسطينيين في دمشق والقرى القريبة منها قد خلق مشكلات خطيرة ، ليس من ناحية الاسكان فحسب وانما من حيث الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية عامة ، فاغرقوا المدينة بالعمال والموظفين الذين يرغبون في العمل باجور تقل كثيرا عن اجور امثالهم من ابناء المدينة ، مما ادى الى انتشار البطالة ، كما اشتد الطلب على الغرف والمساكن فارتفعت اجورها ارتفاعا باهظا ، لا تطيقه الطبقة الوسطى والدنيا من ابناء الشعب .

ولعل ابرز ما يلاحظ على الجدول السابق ، هو ارتفاع نسبة الذين لا عمل لهم من الاجانب ، اذ يبلغ نحو ٧٠٪ من مجموع الاجانب ، شأنهم في هذا شأن السوريين في المدينة ، وهذا يرجع - بلا شك - الى ادراج الفلسطينيين مع الاجانب ، ووجود نسبة كبيرة منهم دون عمل تعتمد على المعونة التي تقدمها وكالة غوث اللاجئين . هذا بالاضافة الى اعتبار الطلاب ممن لا نشاط لهم في تعداد ١٩٦٠ .

اما الذين يعملون من الفلسطينيين ، فيتجه عدد كبير منهم للاشتغال بالخدمات المختلفة والصناعات التحويلية ؛ وتقترب نسبة المشتغلين في كل منها من مثيلتها بين ابناء دمشق ، وتفوقها احيانا في بعض المهن كما هي الحال في اعمال التشييد والبناء .

وطبيعي أن تنخفض نسبة المشتغلين بالزراعة والمحاجر بين الاجانب عامة ، فاصحاب الأراضي المتاخمة للمدينة هم من أصحاب الحيازات الصغيرة الذين يستغلون اراضيهم بانفسهم ، ومن أشد ابناء الغوطة تعلقاً بأراضيهم ، ولذلك يندر اشتغال الاجانب بهذه الحرفة ، حتى الفلسطينيين منهم .

جدول (٣٥)

توزيع الاجانب في دمشق حسب النشاط الاقتصادي
مقارنا بمثيله في القطر السوري[1] . (حسب تعداد ١٩٦٠)

المهنة	المشتغلون من الأجانب		نسبة المشتغلين بها من مجموع سكان دمشق
	العدد	٪	
الزراعة والصيد	٢٤٠	٠و٤	١و٤
المناجم والمحاجر	٨٤	٠و١	٠و١
الصناعات التحويلية	٤٢٢١	٦و٧	٨و١
التشييد والبناء	٢٨٢٤	٤و٥	٢و٦
الكهرباء والغاز والمياه	٣١٦	٠و٥	٠و٥
التجارة	٢٤٩٥	٣و٩	٥و٦
النقل والمواصلات	١٠٥٣	١و٧	٢و٠
الخدمات	٦٣٤٦	١٠و٠	١٠و٥
أنشطة غير واضحة	٥٣٤	٠و٨	٠و٧
ليس لهم نشاط	٤٤٦٣٦	٧٠و٥	٦٧و١
غير مبين	٥٨٠	٠و٩	١و٤
المجموع	٦٣٣٢٩	١٠٠	١٠٠

(١) لا يشمل الاطفال دون السادسة وعددهم ١٧٢٥٤ .

وإذا كان العرب من غير السوريين في دمشق يمارسون معظم الحرف التي يمارسها ابناء المدينة ، فان الاجانب من غير العرب ، يأتون الى دمشق غالباً ، كممثلين سياسيين لحكوماتهم ، أو خبراء اختصاصيين لمصانعهم وشركاتهم .

* * *

والخلاصة ، يجري توزع السكان في مدينة دمشق وفقاً لمبدئين :

أولاً : في احياء السكن وفقاً للقومية والديانة .

ثانياً : في الأسواق التجارية وفقاً لاختصاصاتها .

فالاسواق التجارية في دمشق ، لاتزال مقسمة حسب اختصاصاتها ، فهناك في دمشق اسواق تجارية مخصصة لنوع معين من البضائع ، كسوق العطارين والخياطين والعقادين وبائعي الصوف والحرير والقطن ... الخ ، فنجد في الاسواق المسلم والمسيحي واليهودي جنباً الى جنب ، طالما كانوا ينتسبون لمهنة واحدة .

أما احياء السكن ، فالتوزع يجري خلافاً لذلك ، فالمسيحيون يسكنون في أحياء خاصة بهم ، وكذلك اليهود والشيعة ، وهذا يرجع الى العهود السابقة ، حيث كان الدفاع عن النفس يجبر السكان على التجمع فئات فئات ليتساندوا ويتآزروا وقت الملمات . ففي دمشق ، تسكن الاقليات الدينية في شرقي المدينة ، فالمسيحيون يسكنون في احياء القصاع وباب توما وباب شرقي ، والى جوارهم من الجنوب يقوم حي اليهود ، كما يجاورهم من الغرب حي الشيعة في محلة الخراب .

وكذلك حال الاقليات العرقية واللغوية ، فرغم تفرقها في انحاء المدينة ، لاتزال الاحياء التي سكنتها في العصور السابقة تحمل اسمها اليوم ، وهكذا نجد في جبل قاسيون ، حي المهاجرين ، ثم حي الشركسية في الوسط ، وحي الاكراد في أقصى الشمال الشرقي من الجبل .

ويلاحظ أن هذا النمط من توزع السكان في أحياء السكن ، قد قضي عليه نوعاً ما نتيجة للتطور العمراني الحديث في مدينـــة دمشق ، إذ أن جميع الاحياء الحديثة بلا استثناء يسكنها جميع ابناء المدينة بدون تفريق أو تمييز . ولاشك في أن أي مخطط تنظيمي للمدينة ، يجب أن يقضي على انعزالية الاحياء المغلقة ذات النعرات العصبية والطائفية فيحطم استغلاقها ، ويحقق ذوبان مختلف عناصر الشعب بعضها في بعض ، ويؤدي الى التلاحم والتعاضد الاجتماعي .

* * *

الفصل الثالث

توزيع السكان في دمشق [٧]

لاشك في أن خريطة توزيع السكان في اي منطقة ، تعتبر المرآة التي تنعكس فيها جميع العناصر الجغرافية الطبيعية والبشرية مجتمعة ومتفاعلة ، وبمعنى آخر ، هي الصورة النهائية للتفاعل بين عناصر البيئة الطبيعية التي تشمل المناخ والتضاريس والتربة والموارد الطبيعية والعلاقات المكانية ، وبين العناصر البشرية التي يأتي في مقدمتها العامل الديموغرافي ، كما تشمل الحرفة والمواصلات والمشكلات السياسية .

التوزيع العددي للسكان :

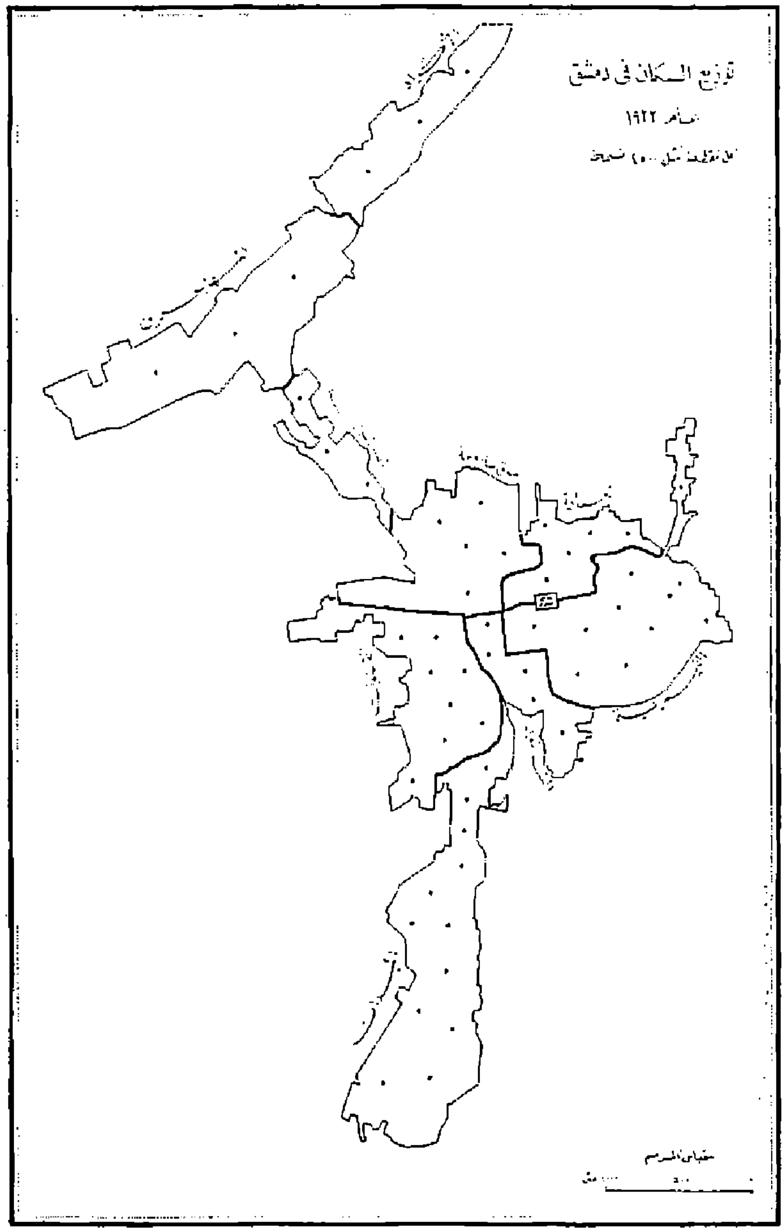
لايوجد بين أيدينا سوى تعداد واحد لسكان مدينة دمشق ، هو تعداد ١٩٦٠ ،يمكن أن نطمئن اليه في دراسة توزيع السكان في مدينة دمشق. أما الاحصاء الذي أجرته السلطات الفرنسية في عام ١٩٢٢ ، فلا يمكن الوثوق به تماماً ، لأنه جرى في ظروف سياسية مريبة ، سبق الحديث عنها مفصلاً في مطلع الحديث عن نمو السكان وتزايدهم ، وهذا فضلاً عن صعوبة الحصول على البيانات التفصيلية لهذا الاحصاء ، لما تتطلبه من جهود كبيرة يبذلها الباحث بين صفحات السجلات القديمة المهترئة في دائرة الأحوال المدنية .

وإذا استطعنا الحصول على عدد سكان مدينة دمشق حسب احيائها المعروفة آنئذ ، واجهتنا مشكلة أخرى تزيد على سابقتها صعوبة وتفوقها عسراً ، وهي معرفة حدود الاحياء القديمة كما كانت حالها عليه في عام الاحصاء نفسه ، وقد مضى على هذا الاحصاء ما يزيد على الأربعين عاماً ، ولا يعرف من أمر هذه الحدود إلا من بقي حياً من مخاتير الاحياء وكبارها .

ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد جرى التعداد في عام ١٩٦٠ ، قبل إيجاد تقسيم اداري واضح لمدينة دمشق ؛ ولذلك جاءت الاقسام التي حددتها وزارة التخطيط اساساً لعملية التعداد قليلة الفائدة في الدراسات التوزيعية ، لأنه لم يكن رائدها في هذا التقسيم سوى تنظيم عملية التعداد فحسب ؛ ومن الطبيعي ، ألا تتفق حدود هذه الاقسام مع حدود الاحياء القديمة المعروفة عام ١٩٢٢ (شكل ٤٧) . ورغم كل ما ذكر ، فان هذا لا يعفينا من بذل الجهد مهما وسع ، لنتبين الارتباط بين نمو السكان وتوزيعهم خلال فترات زمنية مختلفة .

ان دراسة توزيع السكان حسب احصاء ١٩٢٢ ، تبين ان عدد سكان مدينة دمشق بلغ نحو ١٣٠ الف نسمة ، كان نصيب حي الميدان وحده مايقرب من ربع سكان دمشق كلها (٢٢٫٧ ٪) ، ولاشك في أن ارتفاع نسبة سكان الميدان الى مجموع سكان دمشق ، يرجع الى وجود هذا الحي خارج الاسوار وقدرته على النمو والاتساع في معظم الاتجاهات ، كما أنه كان ، في كل العصور ، محط رجال المهاجرين من أبناء الريف الى المدينة ، حتى أصبح المظهر الريفي طابعاً مميزاً لهذا الحي وأبنائه . وقد ظل هذا الحي محتفظاً بنسبة سكانه المرتفعة حتى الوقت الحاضر ، كما يدل على ذلك تعداد ١٩٦٠ ، حيث يزيد سكانه على عشر سكان المدينة كلها ؛ وذلك بسبب استمرار الهجرة الريفية الى هذا الحي ،

شكل (٤٧)



والتوسع السكني الحديث الذي امتد على أطرافه الغربية والشرقية على حد سواء (شكل ٤٨) .

ويتضح كذلك من احصاء ١٩٢٢ ، ان حي الاكراد الذي يمتد الى الشمال الشرقي من دمشق ، على طول السفح الجبلي المطل على دمشق ، يحتوي على

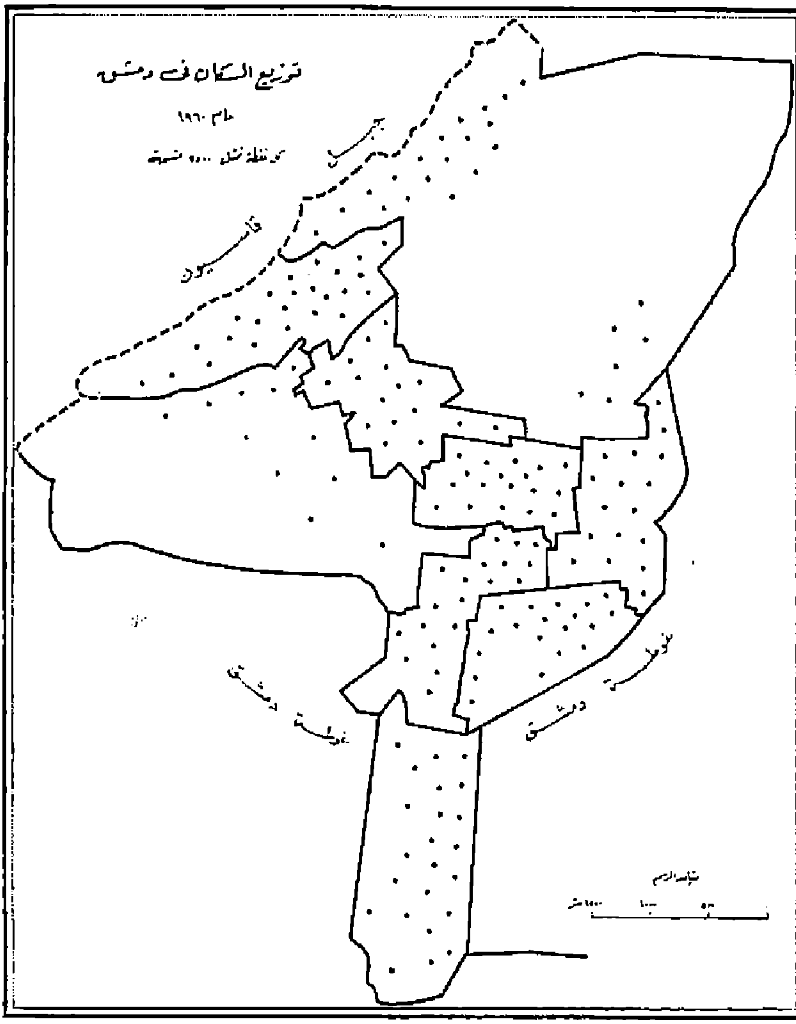
أقل نسبة من سكان دمشق ، إذ لم يظفر بأكثر من ٤،٦ ٪ من مجموع سكان المدينة . ويمكن أن نفسر ذلك بالعزلة التي عاشتها هذه الاقلية العرقية واللغوية ، خلال قرون عديدة ، متقوقعة حول نفسها، مغلقة في وجه جيرانها، ولم تكد تخرج من عزلتها إلا منذ عهد قريب؛ حيث فتح الحي أبوابه للحركة العمرانية الزاحفة على سفح قاسيون ، ونشأ الى جنوبه حي سكني حديث يدعى « ركن الدين » ، ولا يرجع عمره الى اكثر من بضع سنوات خلت ، ولا يفصله عن حي الاكراد سوى نهر يزيد وشارع ابن النفيس .

جدول (٣٦)

توزيع السكان على أحياء دمشق المختلفة حسب احصاء عام ١٩٢٢

أحياء المدينة	العدد	٪
القيمرية	٢٤٣٦٨	١٨،٨
العمارة	١١٧٥٨	٩،١
الشاغور	١٢٩٠٨	٩،٩
سوق ساروجة	١٣١٣٠	١٠،١
القنوات	١٩٢٦٢	١٤،٨
الصالحية	٦١١٧	٤،٧
المهاجرين	٦٨٧٤	٥،٣
الاكراد	٦٠٤١	٤،٦
الميدان	٢٩٤٣٨	١٢،٧
مجموع دمشق	١٢٩٨٩٦	١٠٠

شكل (٤٨)



ويخيل للقارىء في أول وهلة ، ان عدد سكان حي الأكراد قد تضاعف عشر مرات خلال فترة تقل عن أربعين سنة ، وذلك عندما يشهد عددهم في تعداد ١٩٦٠ قد أصبح اكثر من ٦١٠٠٠ نسمة بعد ان كان حوالي ٦٠٠٠ نسمة في احصاء ١٩٢٢ . والواقـــع ان اسم الاكراد الذي اطلق على القسم الاول من اقسام المدينة في التعداد الأخير ، لايستند الى الحقيقة ، فقد تضمن بالاضافة الى حي الأكراد القديم ، عدة مناطق اخرى سواه ؛ كحي ركن الدين ، وجزء من

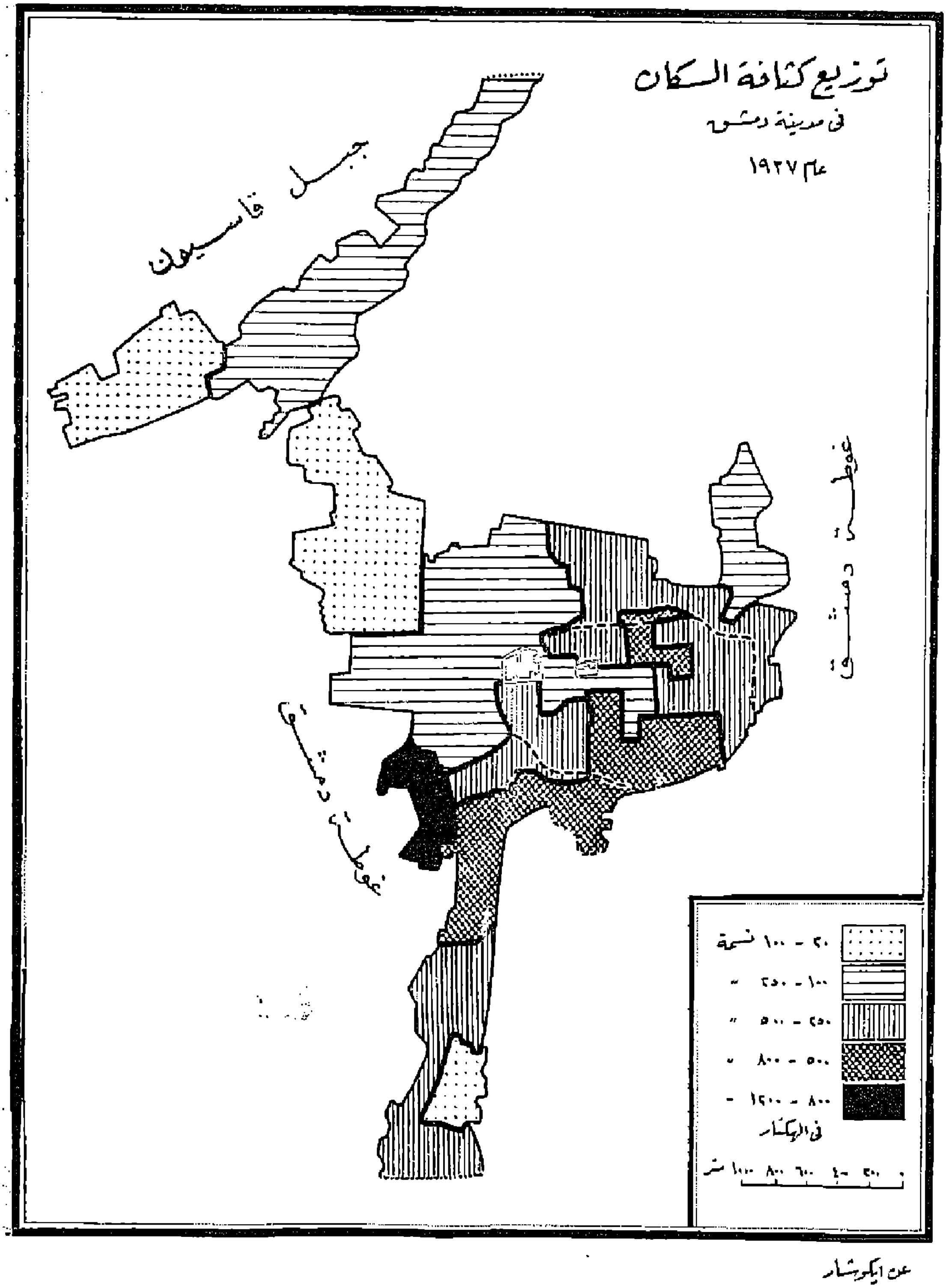
منطقة القصور في شمالي القصاع ، ومساحة واسعة من البساتين الخضراء المحصورة بين حي الأكراد وحي القصاع ، وبذلك اشتمل هذا القسم من المدينة (قسم الاكراد) على عناصر متباينة في اصولها ، مختلفة في مذاهبها ، متباعدة في مواقعها ، لايجمع بينها سوى الحدود التي رسمتها وزارة التخطيط في مصوراتها (شكل ٤٨).

جدول (٣٧)

توزيع السكان على أقسام دمشق المختلفة حسب تعداد ١٩٦٠

أقسام المدينة	العدد	٪
الاكراد	٦١٣٤٣	١١٫٦
المهاجرين	٥٩١١٧	١١٫١
الروضة	٢٦٨٠٥	٥٫٢
الجسر – سبع بحرات	٣٩٥٠٣	٧٫٤
العمارة والملك فيصل	٤٤٤٤٨	٨٫٤
القصاع – قيمرية	٤٢٠٢٥	٧٫٩
باب الجابية ـ الشاغور	٤٨١٤٠	٩٫١
الحريقة ـ القنوات	٤٦٨٨١	٨٫٨
الميدان	٥٦٨٦٨	١٠٫٧
الضواحي الشرقية	٢٨٠٥٧	٥٫٣
الضواحي الغربية	٧٦٧٧٦	١٤٫٥
مجموع دمشق	٥٢٩٩٦٣	١٠٠

شكل (٤٩)



عن ايكوشار

ورغم صعوبة المقارنة بين أحياء المدينة في عام ١٩٢٢، واقسامها التعدادية في عام ١٩٦٠ ، لعدم انطباقها من حيث الحدود او المساحة ، فاننا نستطيع ان نشهد ميلاً واضحاً للسكنى في الاقسام الغربية والشمالية الغربية من المدينة ، وليس أدل على ذلك من نمو حي الصالحية وارتفاع نسبة سكانه من ٣ر٥٪ من مجموع سكان دمشق في عام ١٩٢٢ ، الى اكثر من ٥ر١٢٪ في عام ١٩٦٠، متمثلة في قسمي الروضة والجسر ، كما يظهر هذا الاتجاه ايضاً في ارتفاع نسبة سكان المهاجرين بما يزيد على الضعف خلال الفترة نفسها ، وذلك لجفاف هوائها وجمال مناظرها.

واذا دخلنا أبواب المدينة القديمة اليوم نجد أحياء غاصة بالسكان ، كما كانت عليه حالها بالأمس ، بل ان أسوارهـــا في عام ١٩٦٠ ، أصبحت تضم عدداً من السكان يفوق العدد الذي كان يعيش داخلها عام ١٩٢٢، وهذا على الرغم مما تخسره هذه الأحياء القديمة من أبنائها الذين يهجرونها في طريقهم الى المنـــاطق السكنية الحديثة في غرب المدينة ، ولكن سيل الهجرة المتدفق من الريف الى المدينة كل يوم ؛ يصب غالباً في هذه الأجزاء القديمة من المدينة ، فيغنيها بعد فقر ويعمرها بعد هجر .

أما الضواحي الشرقية والغربية ، فقد ألحقت أراضيها بالعاصمة، في فترات مختلفة ، ترجع أقدمها الى عام ١٩٤٨ ، وجلها مناطق خضراء ، أقرب الى الريف منها الى المدينة . تضم الغربية منها دمر والمزةو كفرسوسة والقدم ومخيم اليرموك، وتشتمل على نسبة كبـــيرة من السكان ، إذ يبلغ نصيبها وحدها ٥ر١٤٪ من مجموع سكان دمشق ، وذلك بسبب إقبال السكان على تعمير الأطراف الغربية من المدينة ، خلال العصور المختلفة ، واحجامهم عن الأجزاء الشرقية من المدينة بسبب انخفاض أرضها وارتفاع نسبة الرطوبة فيها . ويستدل على ذلك من عدد سكانها الذين تقل نسبتهم عن نصف سكان الضواحي الغربية ، إذ تبلغ ٣ر٥٪ فقط من مجموع سكان دمشق ، ولا تضم سوى ضاحيتي برزة والقابون .

كثافة السكان :

ان دراسة كثافة السكان في أقسام مدينة دمشق المختلفة ، وتتبع تطور هذه الكثافة ، يتطلب الحصول على بيانات تفصيلية عن اعداد السكان في اقسام المدينة المختلفة ، خلال فترات متعددة ، وهذا ماتوفره ، في العادة ، تعدادات السكان التي تجريها الدولة في الغالب كل عشر سنوات .

وفي القطر السوري ، ليس لدينا ، حتى الآن ، سوى تعداد واحد يمكن الاعتماد على نتائجه ، هو تعداد ١٩٦٠ ، الذي تخير احدى وثمانين منطقة للتعداد في مدينة دمشق ، لا يقصد منها سوى تسهيل عملية التعداد فحسب ، ومع ذلك فان فان مديرية الاحصاء والتعداد لم تنشر من نتائج هذا التعداد سوى أرقامه الاجمالية على مستوى المدينة كلها ، اما البيانات التفصيلية فقد أخذت مكانها في المستودعات ، والحصول عليها « دونه خرط القتاد » .

ومن دراسة الجدول السابق ، الذي يبين كثافة السكان في اقسام مدينة دمشق المختلفة ، يمكن ان نلاحظ ما يأتي :

أولاً : هبوط الكثافة في الضواحي الشرقية والغربية الى أقل من ٢٥ نسمة في الهكتار . ولا غرابة في ذلك ، إذ انها تمثل ظهير المدينة الزراعي ومنطقتها الخضراء ، ولا تظهر فيها المراكز البشرية إلا على شكل بقع متفرقة ، لا يزيد عددها على الثمانية ، وهي أقرب الى الغوطة في مظهرها وكثافتها منها الى المدينة .

ثانياً : قلة الكثافة أيضاً في قسمي الأكراد والروضة ، فلا تزيد فيهما على ٧٣ نسمة في الهكتار ، وهي – كما تبدو – نسبة منخفضة جداً ، يمكن تفسيرها بوجود مساحات واسعة من الأراضي الزراعية في كل منهما ، الأمر الذي يؤدي الى خفض الكثافة فيهما ، وليس أدل على ذلك ، من ان نسبة الجزء المعمور من قسم الأكراد لا يزيد على خمس مساحته الإجمالية .

جدول (٣٨)

كثافة السكان في أقسام مدينة دمشق (في الهكتار)

حسب تعداد ١٩٦٠

أقسام المدينة	عدد السكان	المساحة (بالهكتار)	الكثافة
الأكراد	٦١٣٤٣	٨٣١٫٣٥	٧٣
المهاجرين	٥٩١١٧	١٤٨٫٠٠	٣٩٩
الروضة	٢٦٨٠٥	٤١٠٫٥٠	٦٥
الجسر – سبع بحرات	٣٩٥٠٣	١١٣٫٠٠	٣٤٩
عمارة والملك فيصل	٤٤٤٤٨	٨٩٫٢٥	٤٩٨
القصاع – القيمرية	٤٢٠٢٥	١١٨٫٥٠	٣٥٤
باب الجابية – الشاغور	٤٨١٤٠	١٠٨٫٥٠	٤٤٣
الحريقة – القنوات	٤٦٨٨١	١١٦٫٦٥	٤٠١
الميدان	٥٦٨٦٨	١٩٤٫٢٥	٢٩٢
الضواحي الشرقية	٢٨٠٥٧	١٥٦٥٫٠٠	١٧
الضواحي الغربية	٧٦٧٧٦	٣١٠٥٫٠٠[١]	٢٤
دمشق	٥٢٩٩٦٣	٦٨٠٠٫٠٠	٧٧

(١) مساحة مدينة دمشق ، باستثناء المنطقة الجبلية التي تبلغ مساحتها ٣٣٠٠ هكتار .

ثالثاً : ارتفاع الكثافة في أقسام المدينة الاخرى ، حيث تتراوح بين ٣٠٠ – ٥٠٠ نسمه في الهكتار ، وهذا يرجع الى ارتفاع نسبة المعمور في هذه الأقسام وقلة المساحات الخضراء فيها . وترتفع الكثافة في الاقسام القديمة من المدينة بسبب تزاحم مساكنها وتقاربها ، كقسمي العمارة وباب الجابية ، وترتفع الكثافة أيضاً في الأقسام الحديثة بسبب تعدد طوابقها و كثرة غرفها ، كما هي الحال في قسم الجسر – سبع بحرات .

نخلص من هذا ، الى أن دراسة توزيع الكثافة في دمشق ، من خلال الاقسام المحددة في الجدول السابق ، لايمكن أن تعطي صورة صادقة ودقيقة عن توزيع كثافة السكان في هذه المدينة ، ولابد من الاستعانة بمناطق التعداد الاحدى والثمانين في دمشق ، لرسم خريطة واضحة للكثافة ، كما يمكن الاستفادة من خريطة كثافة السكان لمدينة دمشق ، التي وضعها « ايكوشار »[1] في تقريره عام ١٩٣٧ ، لتتبع تطور هذه الكثافة في اقسام المدينة المختلفة بين هاتين الفترتين .

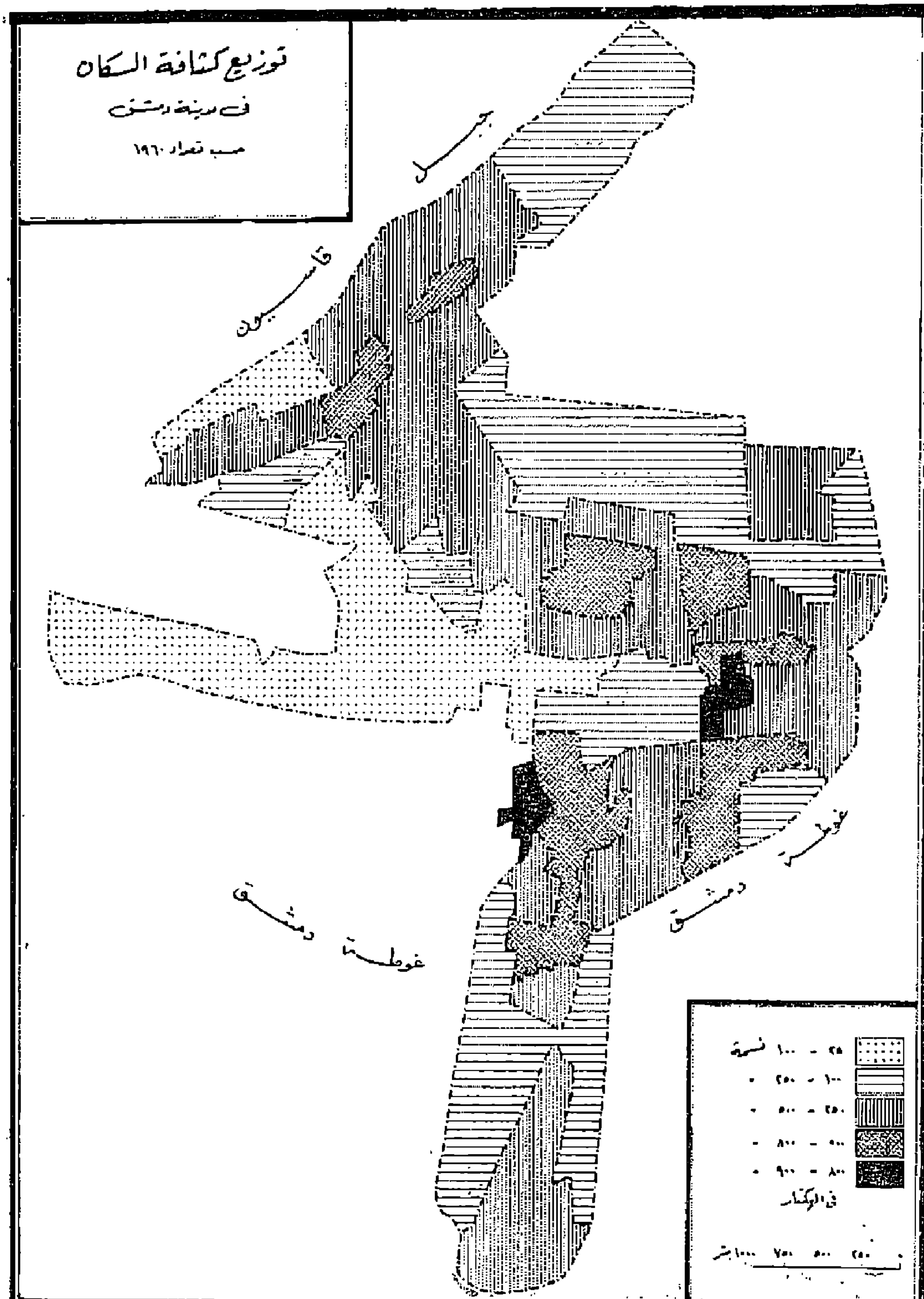
ومن مقارنة الشكلين (٤٩ و ٥٠) اللذين يوضحان كثافة السكان في عامي ١٩٣٧ و ١٩٦٠ ، يمكن أن نلاحظ ما يأتي :

أولاً : ظلت الأقسام القديمة من المدينة محتفظة باعلى كثافة للسكان خلال ربع القرن الأخير ، سواء كان ذلك في داخل الأسوار أو خارجها ، وخاصة في الجهات الواقعة الى الجنوب الغربي من المدينة المسوّرة ، إذ بلغت الكثافة فيها بين ٥٠٠ – ٨٠٠ نسمة في الهكتار ، وتبلغ هذه الكثافة اقصاها في منطقة باب سريجة وقبر عاتكة في الجنوب الغربي من المدينة القديمة ؛ إذ وصلت فيها الكثافة الى ٨٠٠ – ١٢٠٠ نسمة في الهكتار ، ولم تظهر منطقة

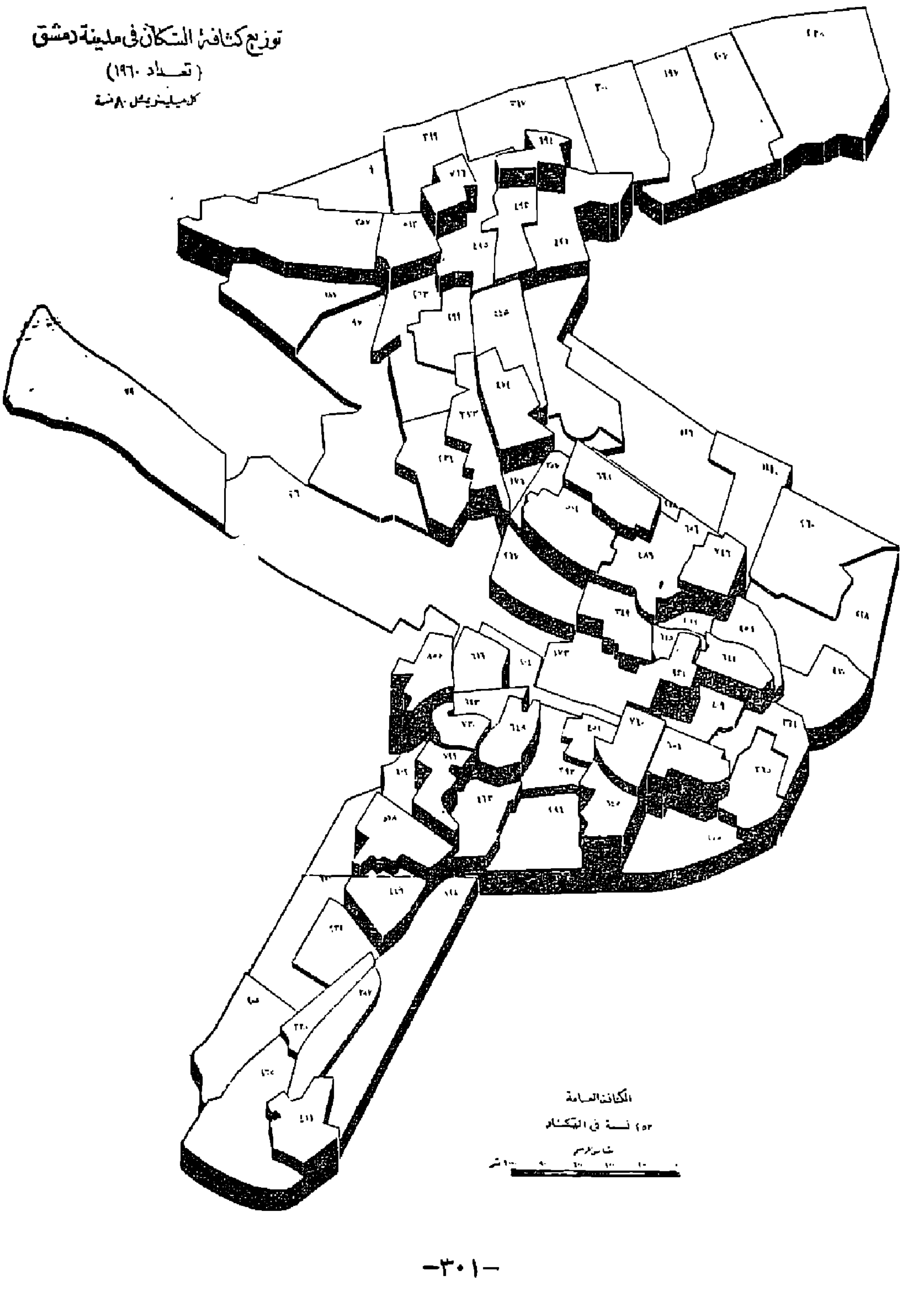
---

(١) المهندس الذي وضع اول مخطط تنظيمي لمدينة دمشق عام ١٩٣٧ ، والذي قام بوضع مخطط تنظيمي جديد للمدينة منذ سنوات قليلة .

شكل (٥٠)


توزيع كثافة السكان
في مدينة دمشق
حسب تعداد ١٩٦٠
جبل قاسيون
غوطة دمشق
غوطة دمشق
٢٥ - ١٠٠ نسمة
١٠٠ - ٢٥٠ «
٢٥٠ - ٥٠٠ «
٥٠٠ - ٨٠٠ «
٨٠٠ - ٩٠٠ «
في الهكتار
٠ ٢٥٠ ٥٠٠ ٧٥٠ ١٠٠٠ متر

شكل (٥١)


توزيع كثافة السكان فى مدينة دمشق
(تعداد ١٩٦٠)
كل مليمتر يمثل ٨٠ نسمة
الكثافة العامة

أخرى تضاهيها في كثافتها إلا محلة الخراب . ويرجع ارتفاع الكثافة في هذه الاقسام القديمة من المدينة عموماً الى انها تمثل أقدم مناطق المدينة عمراناً .

ثانياً : ظلت الاقسام الشرقية من المدينة محافظة على كثافتها خلال ربع قرن أو يزيد ، فبلغت الكثافة بين ٢٥٠ - ٥٠٠ نسمة في الهكتار ، ويمكن تفسير ذلك بانعدام النمو العمراني في هذا الجزء من المدينة ، فمازال سورها الشرقي يفصل المدينة عن غوطتها ، كما كان عليه الحال منذ أقدم العصور ؛ فالأرض الواطئة والرطوبة المرتفعة يقفان سوراً منيعاً يحول دون امتداد المدينة في هذا الاتجاه .

ثالثاً : يلاحظ ان فئات الكثافة العالية ، اخذت تزحف بالتدريج من اقسام المدينة القابعة في داخل السور وجنوبه الغربي نحو الشمال الغربي ، الى سفوح قاسيون عن طريق الصالحية ، وخاصة في منطقة أبي جرش في الشرق وزقاق الفواخير في الغرب ، إذ ترتفع الكثافة فيها الى ٢٥٠ - ٥٠٠ نسمة في الهكتار ، وكلاهما من أقدم اراضي الصالحية عمراناً (شكل ٥١) .

رابعاً : يلاحظ أن أقل فئات الكثافة في المدينة تظهر في الأطراف الغربية من المدينة ، وهذه الملاحظة تنطبق على دمشق في الماضي والحاضر ، اذ كان النمو العمراني في هذه المدينة يتجه في الغالب الى جهة الغرب ، مصدر الرياح الدافئة الرطبة والميـــاه الباردة العذبة ؛ وقد ينحرف أحياناً الى جهة الشمال الغربي صاعداً الى قاسيون ، سعياً وراء سفوحه المشمسة الدافئة ، ومناظره الجميلة الفاتنة .

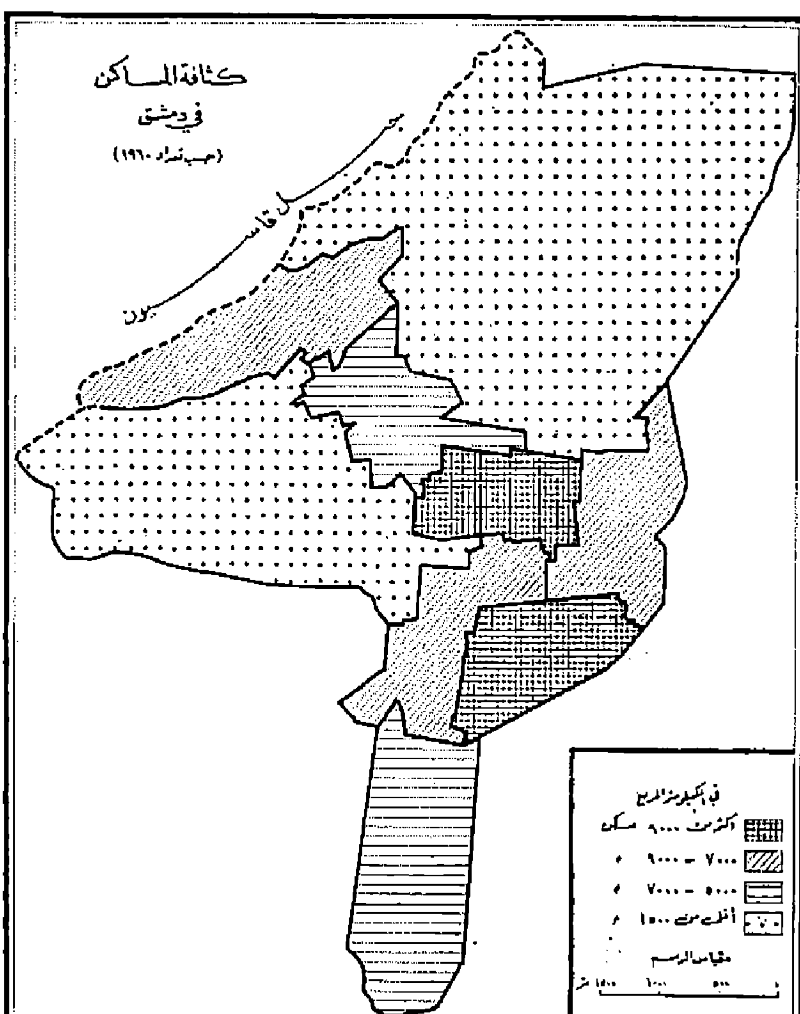
خامساً : ظل القلب التجاري للمدينة القديمة محافظاً على كثافته المتوسطة ، فلا تزيد على ١٠٠ - ٢٥٠ نسمة في الهكتار ، وهي تشغل المنطقة الواقعة في القسم الغربي من المدينة المسورة ، والى الشمال من سوق مدحت باشا . ولا شك

في أن انتشار الأسواق التجارية القديمة والخانات المتعددة في هذه المنطقة قد حال دون ارتفاع الكثافة السكانية فيها في الماضي والحاضر .

كثافة المساكن :

لاشك في أن تزايد عدد طوابق المنازل،او ما يسمى بالتوسع الرأسي في المساكن في المدن ، يجعل دراسة كثافة السكان قاصرة عن إعطاء صورة دقيقة عن درجة تزاحم السكان ، ولذلك سوف نلجأ الى دراسة عدد المساكن في

شكل (٥٢)



جدول (٣٩)

كثافة المساكن باقسام مدينة دمشق (في الكيلو متر المربع)

حسب تعداد ١٩٦٠

اقسام المدينة	عدد المساكن [١]	كثافة المساكن	كثافة السكان
الاكراد	١١٦٧٠	١٤٠٣	٧٣٧٨
المهاجرين	١٠٨٤٩	٧٣٣٠	٣٩٩٤٣
الروضة	٥٠٨٥	١٢٣٨	٦٥٢٩
الجسر ـ سبع بحرات	٧٣٨٥	٦٥٣٥	٣٤٩٥٨
العمارة والملك فيصل	٩٠٤٧	١٠١٣٦	٤٩٨٠١
القصاع ـ القيمرية	٩٠٦٣	٧٦٤٨	٣٥٤٦٤
باب الجابية ـ الشاغور	٩٩٦٤	٩١٨٣	٤٤٣٦٨
الحريقة ـ القنوات	٨٤٥٤	٧٢٤٧	٤٠١٨٩
الميدان	١٠٠٣٨	٥١٦٧	٢٩١٧٥
الضواحي الشرقية	٥٣٦٨	٣٤٣	١٧٩٢
الضواحي الغربية	١٤٧٠٩	٤٧٣	٢٤٧٢
دمشق	١٠١٦٣٢	١٤٩٤	٧٧٩٣

(١) هذه الارقام لاتنفق تماماً مع مجموع افراد الاسر التي تقابل هذه الوحدات السكنية في اقسام المدينة المختلفة ، انما هي قريبة من الواقع ، لاسيا وان مجموع السكان لا يختلف كثيراً عن مجموع افراد الاسر الذي يبلغ ٥٢٠٧٧٢ نسمة ؛ ويرجع هذا الفرق الى ان مجموع افراد الاسر لايشمل القاطنين في المساكن العامة .

الكيلو متر المربع ، وهو ما يطلق عليه بكثافة المساكن ، لعلها تلقي ضوءاً كافياً على درجة التزاحم في المدينة وتبرز اختلافها من جهة الى أخرى .
وقبل أن نمضي في دراسة كثافة المساكن ، يجدر بنا أن نحدد المعنى الذي نقصده من المسكن ؛ فالمسكن يتألف من مبنى او جزء من مبنى ، يقطن به شخص أو مجموعة أشخاص يشتركون في المسكن والمأكل .

يتضح من دراسة الجدول السابق ، ان كثافة المساكن في مدينة دمشق تختلف من قسم الى آخر ، وتبلغ هذه الكثافة اقصاها في قسم العمارة والملك فيصل (١٠١٣٦ وحدة سكنية في الكيلو متر المربع) ، يليه مباشرة قسم باب الجابية ـ الشاغور (٩١٨٣ وحدة سكنية في الكيلو متر المربع) ، وكلاهما من الاقسام القديمة من المدينة ، حيث تتزاحم المنازل وتتداخل ، وتتجاوز جدران بيوتها لتكسب غرفاً علوية معلقة ، تحملها ركائز خشبية مائلة ، وهذا فضلاً عن وفرة النزلاء ، فقد يضم البيت الواحد اكثر من اسرة ، يساوي عددها احياناً عدد الغرف نفسها ، وتحيا كل منها حياة منفصلة مستقلة . ومن مقارنة كثافة السكان بكثافة المساكن يمكن أن نلاحظ اتفاقاً تاماً بينها ، فكلتا الكثافتين تبلغ أقصاها في قسمي العمارة وباب الجابية (شكل ٥٢) .

ويمكن أن نشهد اقل كثافة للمساكن في قسمي الروضة والاكراد (وهما على الترتيب ١٢٣٨ و ١٤٠٣ وحدة سكنية في الكيلو متر المربع) ، ويرجع انخفاض الكثافة في كليهما الى وجود البساتين الخضراء الواسعة داخل حدودهما ، فضلاً عن رحابة المسكن الكردي واتساعه في حي الأكراد ، وكثرة الحدائق الواسعة والقصور الفخمة في قسم الروضة ؛ ويقابل هذا الانخفاض في كثافة المساكن ، انخفاض مماثل في كثافة السكان ، ويرتبط معه بعلاقة طردية واضحة .

ومن الطبيعي أن تهبط كثافة المساكن أكثر من ذلك بكثير ، عندما نخرج الى الضواحي الشرقية والغربية (وهما على الترتيب ٣٤٣ و ٤٧٣ وحدة سكنية في الكيلو متر المربع) فيها ، كما سبق ان ذكرنا ، جزء من أرض الغوطة لاتشغل الاقسام المعمورة فيها سوى مساحات محدودة ومتفرقة .

ويلاحظ من خريطة توزيع كثافة المساكن ، ان هذه الكثافة تقل تدريجياً كلما اتجهنا نحو الغرب من جهة ونحو الاطراف الشمالية الشرقية للمدينة من جهة ثانية ، وهذه الظاهرة تتفق أيضاً مع توزيع كثافة السكان بصفة عامة . ونخلص من ذلك الى أن هذه الجهات لم تتشبع بعد بمساكنها ، بل يمكن أن تتسع لمزيد من المساكن والسكان ، ويتجه نحوها التوسع العمراني المقبل .

* * *

ومن المعروف أن توزيع كثافة المساكن يتفق الى حد كبير مع توزيع ارتفاعات المباني ، ولكن هذه الفكرة لاتنطبق على مدينة دمشق ؛ فالمناطق السكنية الحديثة التي تقع مابين كتلة المدينة القديمة على طرفي نهر بردى واحياء المدينة القائمة على سفح قاسيون ، من جهة ، والواجهة الشمالية الشرقية للمدينة من جهة أخرى ، تضم أعلى المباني في دمشق (من ٣ - ٥ طوابق) ، ومع ذلك فهي تشغل أقل مناطق المدينة كثافة في المساكن . بينما نجد أن المدينة القديمة تضم أعلى كثافة المساكن ، مع ان ارتفاعات مبانيها لاتزيد غالباً على الطابقين بسبب انتشار الطراز العربي في طريقة بنائها . وهذا يرجع الى تزاحم المساكن في الاحياء القديمة وتداخلها وخلوها من الحدائق والمتنزهات والميادين والساحات ، على خلاف ماتتميز به الاحياء السكنية الحديثة . كما أن البيت العربي الواحد قد يضم مجموعة من الاسر ، تستقل بعضها عن بعض في المسكن والمأكل ، وتضاهي عدد الأسر التي يستوعبها المبنى الحديث ، رغم تعدد شققه وطوابقه . ولكن المباني الحديثة في دمشق

لاتتجاوز الطوابق الاربعة الا في مناطق محدودة ، وذلك تمشياً مع النظام الفرنسي، الذي يتجه الى التوسع الأفقي في امتداد المدينة وتوسعها .

درجة التزاحم :

اذا كانت كثافة المساكن تلقي ضوءاً على الجهات التي لم تتشبع بعد بمساكنها ، التي يمكن أن تتسع لمزيد من المساكن ، فان درجة التزاحم تلقي ضوءاً على الجهات التي يمكن أن تستوعب سكاناً آخرين في حدود المساكن الحالية ، كما أن الفروق في درجة التزاحم تبرز الاختلاف والتباين في درجة التزاحم بين أقسام المدينة المختلفة ، اذ أن درجة التزاحم تعني متوسط ما يخص كل غرفة من الاشخاص.

جدول (٤٠)

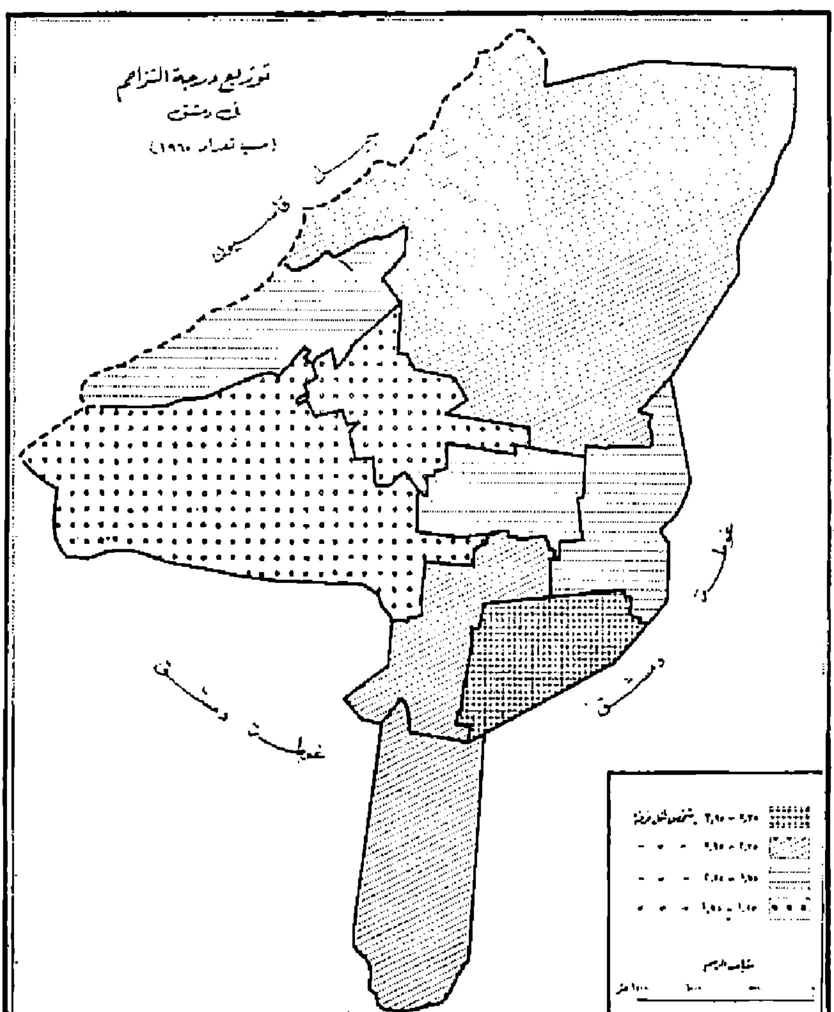
درجة التزاحم في أقسام مدينة دمشق حسب تعداد ١٩٦٠

أقسام المدينة	عدد السكان	عدد الغرف	درجة التزاحم
الأكراد	٦١٣٤٣	٢٥٧٣٣	٢,٣
المهاجرين	٥٩١١٧	٢٨٥٨١	٢,٠
الروضة	٢٦٨٠٥	١٩٣١٢	١,٣
الجسر - سبع بحرات	٣٩٥٠٣	٢٥٧٠٤	١,٥
العمارة والملك فيصل	٤٤٤٤٨	٢١١١١	٢,١
القصاع - القيمرية	٤٢٠٢٥	٢١٠٨٩	١,٩
باب الجابية - الشاغور	٤٨١٤٠	١٦٩٧٢	٢,٨
الحريقة - القنوات	٤٦٨٨١	١٩٨١٥	٢,٣
الميدان	٥٦٨٦٨	٢١٧٢٧	٢,٦
الضواحي الشرقية	٢٨٠٥٧	٨٥٢٥	٣,٢
الضواحي الغربية	٧٦٧٧٦	٢٦٣٧٢	٢,٩
دمشق	٥٢٩٩٦٣	٢٣٤٩٤٠	٢,٢

يتضح من دراسة الجدول (٤٠) ، ان توزيع درجة التزاحم لا يتفق مع توزيع كثافة السكان من جهة ومع توزيع كثافة المساكن من جهة اخرى ، ذلك ان قسمي الضواحي الشرقية والغربية يعتبران اكثر اقسام دمشق ازدحاماً، مع ان هذين القسمين اقل اقسام المدينة كثافة في سكانها ومساكنها (شكل ٥٣).

اما اقل اقسام دمشق من حيث درجة التزاحم فهما الروضة والجسر ، اذ يبلغ ما يخص كل غرفة فيها من الاشخاص ، على الترتيب ، ١٫٣ و ١٫٥ ؛ ويرجع ذلك الى ارتفاع المستوى المعيشي في هـــذه الاقسام ارتفاعاً واضحاً عن اقسام المدينة الاخرى .

شكل (٥٣)



ولا تتفق درجة التزاحم في قسم العمارة مع كثافة السكان والمساكن ، فقسم العمارة الذي يحتل مركز الصدارة بين اقسام المدينة من حيث هاتين الكثافتين بلا منافس ، نجده يتخلى عن هذا المركز لاقسام اخرى هي باب الجابية والميدان من حيث التزاحم ، وهذا لا يعني ان العلاقة بين درجة التزاحم من جهة وكثافة السكان والسكن من جهة اخرى ، هي علاقة عكسية باستمرار ، اذ نلاحظ ان قسمي باب الجابية والحريقة يأتيان في ترتيب متماثل تقريبا من حيث درجة التزاحم وكثافة السكان والسكن .

ومما تقدم ، يتبين ان درجة التزاحم في اقسام الروضة والجسر والقصاع تقل عن المعدل العام لدرجة التزاحم في مدينة دمشق ، وبالتالي يمكن ان تستوعب سكانا آخرين في حدود المساكن الحالية ، على فرض ان المدينة لا تعاني ازمة سكنية .

ويمكن ان نتخذ من درجة التزاحم مقياساً لمستوى المعيشة ، وطبيعي ان يتناسب التزاحم ومستوى المعيشة مع بعضها تناسبا عكسيا ، ومعنى هذا ان اقل اقسام المدينة من حيث مستوى المعيشة ، باستثناء الضواحي الشرقية والغربية هي باب الجابية والميدان ؛ وان اعلاها من حيث مستوى المعيشة هي الروضة والجسر . وهذه الحقائق ان دلت على شيء فانما تدل على ان درجة التزاحم تعتبر مقياساً مقبولا لمستوى معيشة السكان .

المستقبل العددي لسكان دمشق :

ويجدر بنا في ختام دراستنا لسكان دمشق ، أن نستعرض جميع العوامل الديموغرافية التي تؤثر في نمو السكان في المدينة ، لكي نستطيع التنبؤ بالمستقبل العددي لسكان دمشق .

لقد كشفت دراسة الزيادة الطبيعية ، اتجاها عاما نحو الزيادة في نسبة

المواليد ، واتجاها عاما نحو الانخفاض في نسبة الوفيات ، الامر الذي ترتب عليه اتجاه عام نحو الارتفاع في نسبة الزيادة الطبيعية ، وقد بلغ متوسط الزيادة الطبيعية في مدينة دمشق خلال السنوات الخمس الاخيرة ٣٧ في الالف (جدول ٢٤) .

وقد شهدنا في دراسة الهجرة ، نزوحا مستمرا من الريف الى المدينة ، يصعب تقديره تقديرا دقيقا بسبب اختلاطه بالمكتومين الذين يسهمون في ارتفاع الزيادة الكلية للسكان في كل عام ، الا ان تناقص نسبة المكتومين المستمر ،يجعل الهجرة تستأثر بالنصيب الاكبر من الفرق الذي نلاحظه بين الزيادة الكلية والزيادة الطبيعية . ويمكن تقدير متوسط الهجرة الى دمشق خلال الفترة ما بين (١٩٤٦ — ١٩٦٢) [1] بحوالي ٣ في الالف (جدول ١٣) ، وبذلك يصبح معدل الزيادة الكلية لمدينة دمشق ٤٠ في الالف .

وفي دراسة تكوين السكان من حيث النوع ، وجدنا ان نسبة الاناث الى الذكور تسجل انخفاضا تدريجيا ، بسبب كثرة المهاجرين اليها من الذكور ، الامر الذي يؤثر في معدلات الخصوبة والزواج ، كما يؤثر في تركيب السكان من حيث السن ، فيرفع نسبة متوسطي السن والمعمرين على حساب نسبة صغار السن .

ومع ذلك ، فان دراسة فئات السن في مدينة دمشق ، تدل على انها من النوع التقدمي من حيث النمو ، فهم يمتازون بالحيوية والقدرة على الانجاب ، وهم يسيرون بالتالي نحو النمو والازدياد . ونخلص من هذا ، ان نمو سكان دمشق ، في المستقبل القريب ، ينتظر ان ترتفع معدلاته قليلا ، عما عليه في الوقت الحاضر .

وقد اختلفت الآراء حول تقدير سكان دمشق خلال العشرين سنة المقبلة ، ويجدر بنا قبل طرح هذه التقديرات المختلفة ، ان نستعرض التقدير الذي تلتزم به وزارة التخطيط .

---

(١) باستثناء سنة ١٩٥٢ التي ارتفعت فيها نسبة المهاجرين الى دمشق ارتفاعاً هائلاً بسبب رداءة موسم الامطار .

تقدير وزارة التخطيط :

تطبق وزارة التخطيط معدلاً واحداً لزيادة السكان على جميع انحاء البلاد ، بما فيها مدينة دمشق ، هو ٢٢ في الالف ، وعلى هذا الاساس وضعت تقديراتها لسكان دمشق .

ولا شك في ان هذا المعدل ، الذي استخرجته وزارة التخطيط من حساب الفرق بين معدل المواليد ومعدل الوفيات في القطر السوري عامة ، يقل عن الواقع ، لأنه يهمل بعض العوامل التي تؤثر في نمو سكان المدينة وتزايدها ، وأهمها التصنيع ، وهجرة ابناء الريف الى المدينة .

يضاف الى ماتقدم ، انه قلمّا نجد دولة في العالم لايختلف فيها سكان العاصمه عن سكان بقية حواضرها وارياقها في معدل تزايدها وسرعة نموها . وهذا فضلاً عن عدم اتفاق هذا المعدل الذي اختارته وزارة التخطيط مع معدلات الزيادة الحالية لسكان مدينة دمشق .

ومن الجدير بالذكر ، ان معدل التزايد الذي قدّره الكسندر جيب في تقريره ، لايختلف عن تقدير وزارة التخطيط وهو ٢٢ في الالف . وعلى اساس هذا التقدير ، يرى ان عدد سكان دمشق سوف يصل الى ٧٥٠ الف نسمة في عام ١٩٩٤ [١] .

ولهذا ينبغي التطلع الى تقديرات اخرى اقرب الى الحقيقة والواقع ، كما ان ضعف الثقة ، نسبياً ، بالبيانات المتوفرة عن السكان ، تستوجب اقتراح ثلاثة تقديرات : تقدير منخفض وتقدير متوسط وتقدير مرتفع .

---

(١) الكسندر جيب – التطور الاقتصادي في سوريا – دمشق ١٩٥٠ – ص ٧٤ .

التقدير المنخفض :

يمكن معرفة التقدير المنخفض لمعدل الزيادة السنوية في مدينة دمشق ، باستخدام القاعدة البسيطة المعروفة :

معدل المواليد — معدل الوفيات = معدل الزيادة .

واذا طبقنا هذه القاعدة نجد ان معدل الزيادة السنوية في دمشق يبلغ ٣٥ في الالف ، وهو يمثل الزيادة الطبيعية والزيادة الكلية في وقت واحد ، كما يعني توقف الهجرة الى المدينة تماماً . ومن المحتمل ، بعد عشر سنوات ، ان ينخفض معدل المواليد قليلاً ، نتيجة الارتفاع المطرد في مستوى المعيشة وتحديد النسل ، بينما يبقى معدل الوفيات ثابتاً ، وبذلك ينخفض معدل الزيادة السنوية قليلاً ، بعد عشر سنوات تقريباً ، فيصبح ٣٠ في الالف .

وحسب هذا الافتراض يتزايد سكان دمشق لمدة عشر سنوات بمعدل ٣٥ في الالف ، وعشر سنوات اخرى بمعدل ٣٠ في الالف . وتكون تقديرات السكان على النحو الآتي :

٨٥٧٨٤٧	نسمة	في سنة ١٩٧٤
٩٩٤٤٧٩	نسمة	في سنة ١٩٧٩
١١٥٢٨٧٢	نسمة	في سنة ١٩٨٤

التقدير المرتفع :

يستند هذا التقدير على الحقيقتين الآتيتين :

الاولى : وجود نقص في عدد السكان المسجلين في دوائر الاحوال المدنية يبلغ ٨و٧٪ من مجموع عدد سكان المدينة ، وقد كشف عن هذا النقص تعداد السكان العام في سنة ١٩٦٠ .

الثانية : حركة الهجرة من المدينة واليها . وهذان العاملان ، يصعب تحديد كل منها على حده ، انما يمكن تحديد اثرهما مجتمعين ؛ فقد بلغ عدد المولودين خارج مدينة دمشق في شهر ايلول (سبتمبر) من سنة ١٩٦٠ : ١٤٩٨٤٥ نسمة من اصل ٥٢٩٩٦٣ نسمة ، أي مايعادل ٢٨٫٣٪ من مجموع سكان دمشق . وهذه النسبة تشمل ، في الواقع ، المهاجرين المقيمين في المدينة والمهاجرين الموسميين ، وهؤلاء لايستهان بعددهم في مثل هذه الفترة من السنة ، التي تتوقف فيها الاعمال الزراعية .

وفي ضوء الملاحظات التي استخلصت من دراسة نسب المواليد والوفيات والزيادة الطبيعية (جدول ١٤) والملاحظات التي استخرجت من دراسة نصيب الهجرة في نمو سكان دمشق (جدول ١٣) ، وبالاضافة الى تتبع تزايد السكان في مدينة دمشق خلال الفترة مابين ١٩٤٦ – ١٩٦٢ (جدول ١١) ، يمكن ان نتوقع تزايد السكان خلال السنوات العشر القادمة بمعدل مرتفع اقصاه ٤٠ في الالف ، ثم يطرأ عليه انخفاض بسيط ، يهبط به الى ٣٧ في الالف . وعلى هذا الاساس تكون تقديرات السكان على النحو الآتي :

٩١٧ ٧٢٢	نسمة في سنة	١٩٧٤
١١٠٠ ٥٣٨	» » »	١٩٧٩
١٣١٩ ٧٧١	» » »	١٩٨٤

التقدير المتوسط :

يقوم هذا التقدير على اساس الاستمرار على المعدل الحالي لتزايدالسكان ، وهو يبلغ ٣٧ في الالف (جدول ٢٤) ، وبذلك تكون تقديرات السكان على النحو الآتي :

٨٨١ ٣٥٠	نسمة في سنة	١٩٧٤
١٠٥٦ ٩٢١	» » »	١٩٧٩
١٢٦٧ ٤٦٩	» » »	١٩٨٤

وقد يبدو هذا التقدير على جانب كبير من البساطة ، الا انه غير بعيد عن الحقيقة بدون شك ، وحسبُ هذه التقديرات الثلاث دقة ان يقل الفرق بين ارقامها عن ١٠٪ ، وعلى هذا الاساس ، يحتمل ان يبلغ عدد سكان دمشق بعد عشرين عاماً بين ١٫١٥٣٫٠٠٠ و ١٫٣٢٠٫٠٠٠ نسمة ، ومعنى هذا ان عددهم سوف يتضاعف في عام ١٨٨٤ ، وتدخل مدينة دمشق في عداد المدن المليونية آنئذ[١] .

---

(١) Ecochard, M., Banshoya. G., Ville da Damas, Etudes préliminaires au plan d'urbanisme. Octobre 1964. p. 1 - II - 12.

الباب الرابع

مورفولوجية مدينة دمشق

الفصل الأول : التركيب الوظيفي للمدينة :

استخدام الأراضي في مدينة دمشق – قلب المدينة التجاري – المناطق الصناعية – الحدائق والمتنزهات – المقابر – الأراضي الزراعية .

الفصل الثاني : طبوغرافية المدينة :

العوامل التي اثرت في طبوغرافية المدينة القديمة – طبوغرافية المدينة القديمة – طبوغرافية الأحياء الخارجية .

الفصل الثالث : المسكن وانماطه :

البيت العربي – مخطط البيت العربي – البيت الكردي في حي الأكراد – البيت التركي في حي المهاجرين – البيت الأرمني في حي القصاع – البيت الحديث .

الفصل الرابع : المواصلات الداخلية :

خطوط الترام – سيارات النقل المشترك – سيارات الاجرة الصغيرة – حركة السير في مدينة دمشق .

الفصل الأول

التركيب الوظيفي للمدينة

« كثيراً ما شبّه الجغرافيون المدينة بالانسان ، كما ذهب بعضهم الى تشبيه مرافق المدينة واوجه نشاطها باعضاء الجسم البشري ووظائفه ، فوازوا بين مركز المدينة والقلب ، وبين حدائقها والرئة ، وبين طرقاتها والشرايين ، وبين مراكز السلطات القائمة على ادارتها والدماغ ، وبين مرافقها الحساسة والأعصاب وهلم جرّا »[1] .

وفي الواقع ، ليس من السهل ادارة شؤون مدينة مترامية الأطراف ، تضم مئات الالوف من السكان ، دون تقسيمها الى مناطق متعددة ، تختلف بحسب وظيفتها، صناعية كانت أم تجارية أم سكنية، وتنسجم مع بعضها وتتداخل بصورة تسهّل على سكانها الانتفاع من هذه الوظائف بسهولة ويسر ؛ فالمدينة تتألف من مناطق عديدة تربط بينها علاقات وظيفية ومكانية تحدد بنية المدينة وتركيبها.

استخدام الأراضي في مدينة دمشق :

يخضع توزيع استعمال الاراضي في مدينة دمشق لتأثير العوامل الاقتصادية والاجتماعية ، فنلاحظ مثلاً ، ان توزيع المحلات التجارية والحرفية في دمشق ،

(١) المهندس ممدوح زركلي – من وحي هندسة المدن – مقالة غير منشورة – ١٩٦٥ .

يرتبط بعوامل اقتصادية واجتماعية دون ان يكون للقيود التنظيمية اي اثر فعال في منع تغلغل تلك المحلات في المناطق السكنية ، فاذا كان الطلب اليومي المستمر على بعض انواع المحلات التجارية كالخباز والجزار والبقّال وامثالهم قد استدعى وجود هذا الاختلاط ، فانه ليس من الضروري وجود الحدادين والنحاسين وبائعي الجوهرات مثلا ، لا سيما وان بعض هذه المحلات تسبب الازعاج للسكان الذين يقطنون بالقرب منها .

وربما كان السبب الرئيسي في وجود تلك الحرف في المناطق السكنية هو ارتفاع نسبة الايجارات في المناطق التجارية الرئيسية من المدينة ، بالاضافة الى قرب مكان العمل من الدار التي يقطنها صاحب العمل ؛ كما ان تلك المحلات قد تكون احياناً مكان عمل فقط ، لا تبيع منتجاتها مباشرة انما ترسلها الى المحلات الرئيسية لبيعها .

ومن هذا يتبين ان وجود تلك الحرف والمحلات التجارية التي ليست لها علاقة وثيقة بالمناطق السكنية ، ليس لايفاء متطلبات تلك المنطقة وانما لاسباب اقتصادية ؛ ولذلك فإن وجود تلك المحلات في المناطق السكنية امر غير طبيعي ، ولا بد من تدخل الدولة لفصل تلك المحلات عن السكن وايجاد امكنة ملائمة لها .

هذا من حيث توزيع المحلات التجارية ، اما من حيث التطور الاقتصادي وتأثيره على نوعية الحرف التجارية ، فيمكن أن نتبين اثره واضحاً في المدينة القديمة ، فظهور السيارة مثلاً ادى الى ظهور محطات تموين السيارات وتصليحها فحلت محل الاصطبلات والخانات ، وادى استعمال المحركات الى توسع الحرف وتضخمها وتحولها الى صناعات كبيرة ، وبالتالي فقد اصبحت مصدراً للضجيج والازعاج .

وقد أدى هذا التغيير في نوعية الحرف التي اصبحت شبه صناعات الى ظهور القيود التنظيمية من اجل السماح باختلاط المحلات الجديدة المزعجة بالمناطق

السكنية ، ووضع اول نظام للبناء في دمشق عام ١٩٣٨ ، استمر العمل به مدة عشر سنوات تقريباً . وفي مطلع عام ١٩٤٨ صدر نظام جديد للبناء لا يزال معمولاً به حتى الوقت الحاضر [١] ، لا يختلف في جوهره عن النظام القديم ، وهو يشتمل على تسع مناطق وهي :

١ - منطقة القصور .

٢ - المنطقة السكنية الأولى .

٣ - المنطقة السكنية الثانية .

٤ - المنطقة السكنية الثالثة .

٥ - منطقة احياء المدينة القديمة واحياء العمال .

٦ - منطقة الأبنية التجارية .

٧ - منطقة الأبنية الصناعية غير المضرة بالصحة .

٨ - منطقة الأبنية الصناعية المضرة بالصحة .

٩ - منطقة البساتين .

وقد سمح نظام البناء الحالي بفتح المحلات التجارية والحرفية في منطقة الاحياء القديمة بالاضافة الى المناطق التجارية ، ولكنه اخضع استعمال المحركات الكهربائية الى ترخيص خاص ، يشترط ان لاتزيد قوة المحركات التي تعمل معاً في آن واحد عن خمسة احصنة في مناطق الاحياء القديمة ، وعشرة احصنة في المناطق التجارية [٢] .

وعلى الرغم من ان نظام البناء الجديد يمنع فتح المحلات التجارية في المناطق السكنية ، فان الواقع كان يجري على خلاف ذلك ، وعلى غرار ما كان معمولاً به في النظام السابق . واستمرت هذه السياسة حتى عام ١٩٤٩ ، اذ صدر

---

(١) قرار المجلس البلدي رقم ٩٧ بتاريخ ١٨/٢/١٩٤٨ .

(٢) قرار المجلس البلدي اللاحق رقم ٢٤٥ بتاريخ ٢٦/٣/١٩٥٦ .

قرار بتحديد المحلات التجارية وينص بأنه « لايجوز انشاء دكاكين الا في طرقات او اجزاء من طرقات يجري تعينها وتحديد نوع التجارة فيها بقرار من المجلس البلدي ... »

وقد وضع هذا القرار حداً لاختلاط استعمال الاراضي ، ومع ذلك فان دراسة هذا القرار توضح ان المنع لم يشمل الاستعمال التجاري بشكل عام ، انما خصّ الدكاكين دون سواها ، وترتب على ذلك استعمال الابنية السكنية للاغراض التجارية ، واصبح من الطبيعي ان ترى في دمشق بناءسكنياً يحتوي على مستشفى اومدرسة اومركز شرطة اومحلات حرفية (كالخياطة والحلاقة للسيدات . .الخ) اوعدة محلات منها في مبنى واحد . هذا عدا عن المرآب العائد للبناء ، والذي يستعمل لجميع انواع التجارة والحرف [1] .

* * *

وبعد ان استعرضنا الحالة الراهنة لاختلاط استعمال الاراضي وانظمة البناء القائمة حالياً لمعالجة هذا الاختلاط ؛ يمكن ان نقسم مدينة دمشق من حيث التركيب الوظيفي الى المناطق التالية :

قلب المدينة التجاري :

اشتهرت دمشق منذ نشأتها الاولى باسواقها ومراكزها التجارية القديمة ، وذلك بفضل موقعها المتوسط بين قارات العالم القديم الثلاث ، ووجودها عند نقطة من نقط تجمع المواصلات ، ومحطة من المحطات الهامة لسير القوافل ، مما جعل من تلك المدينة التاريخية مركزاً مزدهراً للتجارة .

وقد نشأت الوكالات التجارية في دمشق منذ عهد « بن حدد » ، كما

(١) تقدر نسبة المراتب المستعملة للاغراض التجارية والحرفية في مناطق السكن للطبقة المتوسطة بحوالي ٩٥٪ .

حفظت لنا السّامرة والكتاب المقدس الكثير عن حياتها الاقتصادية المزدهرة « سوريا تتاجر معك ، وبعدد كثير من منتجاتك ، ومن بهرمــان واثواب ارجوانية ومدبّجات .. وهي تزود اسواقك .. وهي تصنع لك الخمر والصوف الابيض » [1] ، كما كانت دمشق مركز القوافل التجارية الساعية بين مكة وغزة وبيت المقدس ودمشق والحبشة .

وكان من نتيجة هذه التجارة ، نشأة عدد من الاسواق والخانات داخل اسوار المدينة القديمة ، ماتزال الى يومنا هذا ، محتفظة برونقها وطرافتها ، مع انها ترجع في نشأتها الى بضع مئات من السنين ، مايجذب المشترين والسائحين اليها ، لما لها من قيمة فنية وأهمية سياحية ، اذ تشكل تلك الاسواق القديمة واحة من الهدوء والسكينة بعيداً عن ضجيج المدينة وحركة المرور المزعجة فيها .

ويتضح لنا من دراسة تاريخ مدينة دمشق ، ان بعض الاسواق الهامة بالمدينة قد اضمحل وفقد أهميته ، بينما أصيب البعض الآخر بالدمار بسبب الزلازل والحرائق الكبيرة ، ومع ذلك فان اغلب تلك الاسواق قد ظلت ماثلة حتى وقتنا الحاضر ، محتفظة بالكثير من طابعها المعماري الأصيل ؛ ولاشك في ان دراسة الاسواق التجارية وتوزيعها وتخصصها ، يعكس الاساس التجاري الذي لعب دائماً الدور الاكبر في حياة المدينة .

ويمكن ان نجد وصفاً للاسواق التجارية في دمشق في سنة ١٣٠٠ م في كتاب « الخزانة الشرقية » ، الذي ألفه حبيب الزيات ، حيث يقدر فيه عدد الاسواق بحوالي ١٥٠ سوقاً ، في ذلك الوقت ، ولو ان بعض هذه الاسواق هو في الواقع امتداد طبيعي للاسواق الاصلية ؛ كما يتبين من كتابه ، ان كل سوق منها يشغل رقعة محدودة ويحمل اسماً خاصاً ، وكانت تلك الاسماء لتخليد ذكرى الملك او الحاكم الذي بدىء انشاء السوق في ايامه ، او كانت تحمل أسمــاء

---

(١) Ezéchiel, XXVII, p. 16 - 18

الاحياء التي تشغلها ، او كانت تسمى بأنواع السلع التي تباع فيها ، او فئات الصناع الذين يعملون فيها .

ويقول نعمان القساطلي في كتابه « الروضة الغناء في دمشق الفيحاء» الذي يصف فيه الحياة في دمشق سنة ١٨٦٠ م ، انه كان هناك ثلاثون سوقاً رئيسية بالمدينة في ذلك العهد ، وكانت جميعها تتركز في قلب المدينة ، هذا بالاضافة الى مراكز تجارية اخرى كانت تنتشر في جميع انحاء المدينة لخدمة المناطق السكنية المختلفة بها (١) .

ويمكن أن نجد اليوم ضمن اسوار المدينة القديمة اكثر من ثلاثين سوقاً وخانا في حالة جيدة ، كما انها لاتزال مستعملة الى يومنا هذا . ولايزال يتبع بعضها التقليد القديم الذي يجمع الحوانيت التي تبيع البضائع نفسها في موضع واحد ، كما ان معظم تلك الاسواق تحتفظ باسمائها القديمة .

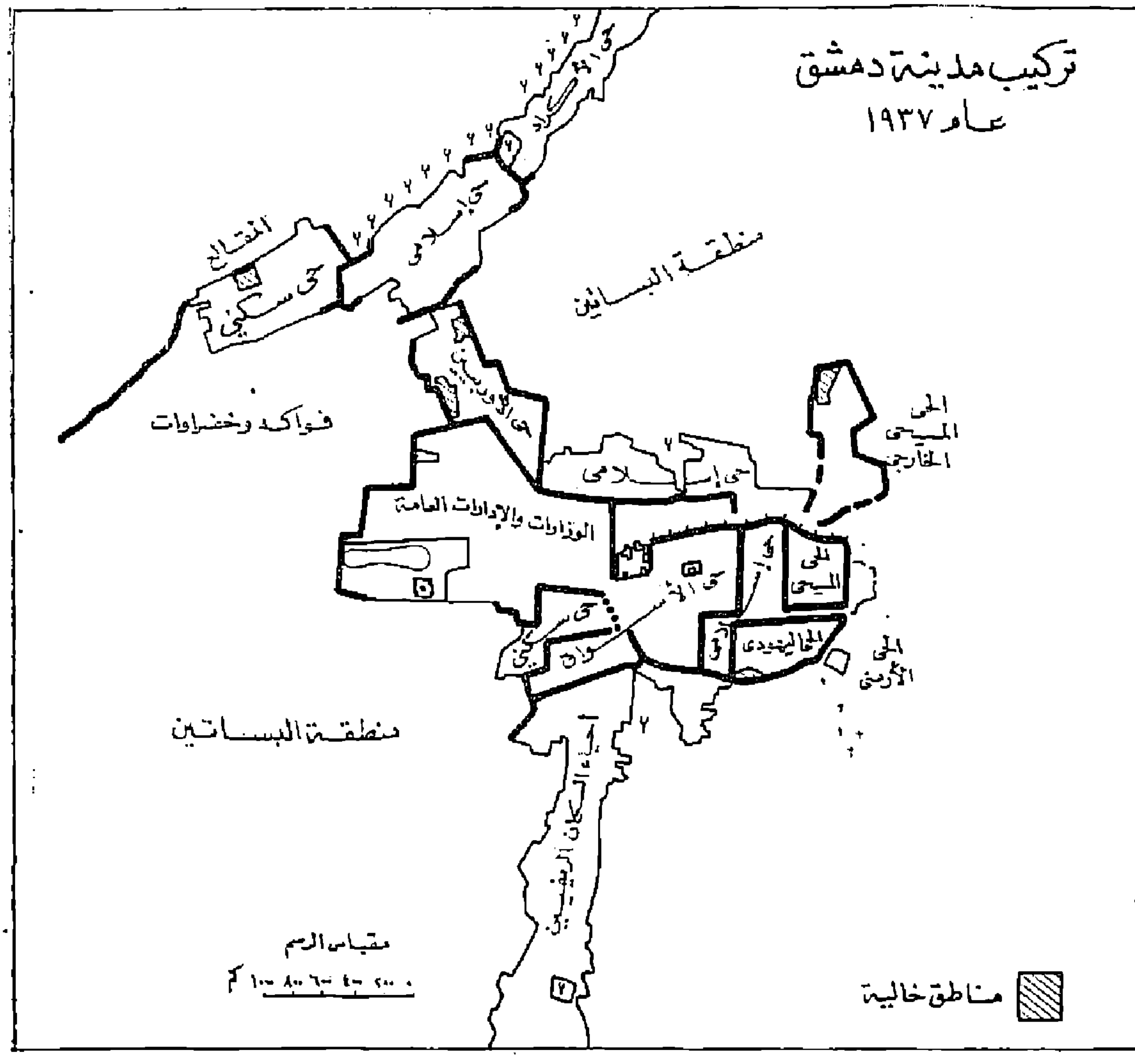
ولاتزال هذه الاسواق القديمة تحتوي على الكثير من الخانات ، تبيع نفس البضائع التي اشتهرت بها منذ القديم ، وتؤدي وظيفتها (كمستودعات) بحيوية ونشاط دائم . وقد تجمعت هذه الخانات في جنوبي الجامع الاموي ومابين القلعة وسوق مدحت باشا ، حيث توجد سوق تجارية كبيرة يتمون منها الجنوب السوري (حوران وجبل العرب) .

وفي هذه المنطقة الضيقة المزدحمة من دمشق القديمة ، نجد سبعة عشر خانا لاتزال عامرة ، تغذي اسواق المدينة المختلفة حتى ايامنا هذه ، وفي هذا الخضم العجيب لايزال قلب المدينة العريق في قدمه في حيوية دائمة ، يعود بنا بمنظره المعتم نوعاً ما وروائح العطارة القوية الى حياة القرون الوسطى .

---

(١) ص ١٣٩ .

(شكل ٥٤)



عن ايكوشار

ومن مجموعة الاسواق المتخصصة (سوق الهال ، سوق الحرير ، سوق الصاغة .. الخ) يتكون القلب التجاري في موقع متوسط من المدينة القديمة ، (شكل ٥٤) غير بعيد عن طرق المواصلات الرئيسية ؛ تنفصل فيه حركة مرور السيارات فصلا تاما عن حركة مرور المشاة مما يسمح بتجول المشاة فيها بيسر وسهولة وتتجمع المحلات التجارية في سوق واحدة تبعاً لتجارة او حرفة معينة ، بحيث تبيع كل مجموعة منها نوعاً واحداً من البضاعة .

ولكن امتداد المدينة وتوسعها نحو الغرب ، فقد افقد هذا القلب القديم صفة التوسط بالنسبة لاطراف المدينة ، فكان طبيعياً ان يتحرك قلب المدينة التجاري نحو الغرب والشمال الغربي ، مسايراً الاتجاه الغالب على الامتداد العمراني للمدينة ، والواقع ان مؤسسات البيع بالجملة والمكاتب التجارية قد اخذت في السنوات الاخيرة ، تهاجر من مراكزها القديمة الى مناطق احدث ، باحثة عن ابنية اكثر اتساعاً واقل غلاء وشوارع اكثر رحابة وايسر اتصالا .

ويلاحظ ان تكوين المحلات التجارية والحرفية وتوزيعها في المدينة الحديثة لا يختلف في جوهره عنه في المدينة القديمة ، ولذا يمكن اعتبار المنطقة التجارية الحديثة امتدادا طبيعيا للمنطقة التجارية القديمة وتكملة لها . والواقع ان هناك منطقة تجارية واضحة في المدينة يمكن ان نتتبع نموها وتطورها خلال القرون العديدة ، فهي تُرى على المحاور الكبيرة للمدينة الرومانية ، ثم اتسعت فيما بعد شمالا وغربا حيث نمت المدينة خلال العصور الوسطى . وهذا فضلا عن الاسواق التجارية المحلية التي نشأت في احيـــاء الاقليات الدينية والعرقية ، كما هي حال المسيحيين في باب توما والاكراد على طول الطريق الذي يخترق حيهم الكبير . وهذا النظام استمر حتى ايامنا هذه ، مع نمو سوق تجاري هام على طول طريق الصالحية الذي يصل ما بين المنطقة التجارية الكبيرة وحي الاكراد والمهاجرين .

وتتميز متاجر المدينة القديمة بطابع اقليمي وريفي ، بينما تهتم المتاجر الواقعة على الشوارع الحديثة في منطقة الصالحية ، بتطلبات الحياة العصرية بشكل واضح . واذا كان هذان النوعان من المتاجر يختلفان في السلع التي يعرضانها من جهة ، كما يختلفان في موقعهما من جهة اخرى ، فانه يصعب ان نرسم خطا فاصلا

بين هذين النمطين من التجارة ، التي تبدأ من العطارة الشرقية التي تفوح رائحتها في خانات القرن السادس عشر ، حتى الالات الالكترونية التي نشهدها في واجهات المحلات الكبيرة في شارع الفردوس .

ويلاحظ ان توزيع المحلات التجارية ، في معظمه ، يأخذ شكلا خطيا باستثناء الاسواق المحيطة بالجامع الاموي الكبير ، والخانات القديمة القريبة منها . ويبدو ان هذه المنطقة التجارية القديمة ظلت تسد حاجة سكان المدينة حتى وقت قريب ، الا ان اتساع المدينة الذي حصل خلال العشرين سنة الاخيرة ، اصبح يتطلب توسيعا للمنطقة التجارية الحالية وخلق مراكز اخرى جديدة ، لتزويد الاحياء البعيدة نسبيا عن قلب المدينة .

ويمكن ان نضع حدودا واضحة المعالم لقلب دمشق التجاري في الوقت الحاضر على النحو الاتي :

يقع قلب المدينة التجارية ضمن منطقة يحدها شارع الملك فيصل من الشمال وسوق مدحت باشا من الجنوب ؛ وتنتهي حدودها الشرقية عند خط يتصل بسوق مدحت باشا جنوبا عند سوق البزورية ، ويمم الاطراف الجنوبية والغربية للجامع الاموي الكبير ، ويسير غربا في زقاق ابي عصرون حتى القلعة ، ثم يتجه شمالا الى شارع الملك فيصل ، فيلتقي معه عند باب الفرج .

وتبدأ الحدود الغربية جنوبا عند باب الجابية (النهاية الغربية لسوق مدحت باشا) ، فتسير شمالاً في شارع الدرويشية ، ثم تتجه غربا في شارع النصر حتى محطة الحجاز . وهناك تسلك شارعي سعد الله الجابري وبور سعيد حتى المدخل المؤدي الى مؤسسة كهرباء دمشق ، فتنعطف غربا عبر شارع المتنبي ، ثم تعود

الى الاتجاه الشمالي مارة في شارعي البرازيل ومأمون البيطار حتى تلتقي بشارع الصالحية عند نادي الضباط . وتتابع الحدود سيرهـــا في شارع الصالحية باتجاه الجنوب الشرقي حتى ساحة يوسف العظمة ، ثم تنحدر جنوبا في شارع بور سعيد الى جسر فيكتوريا ، ومنه تتجه شرقا حتى تتصل بشارع الملك فيصل عند ساحة الشهداء .

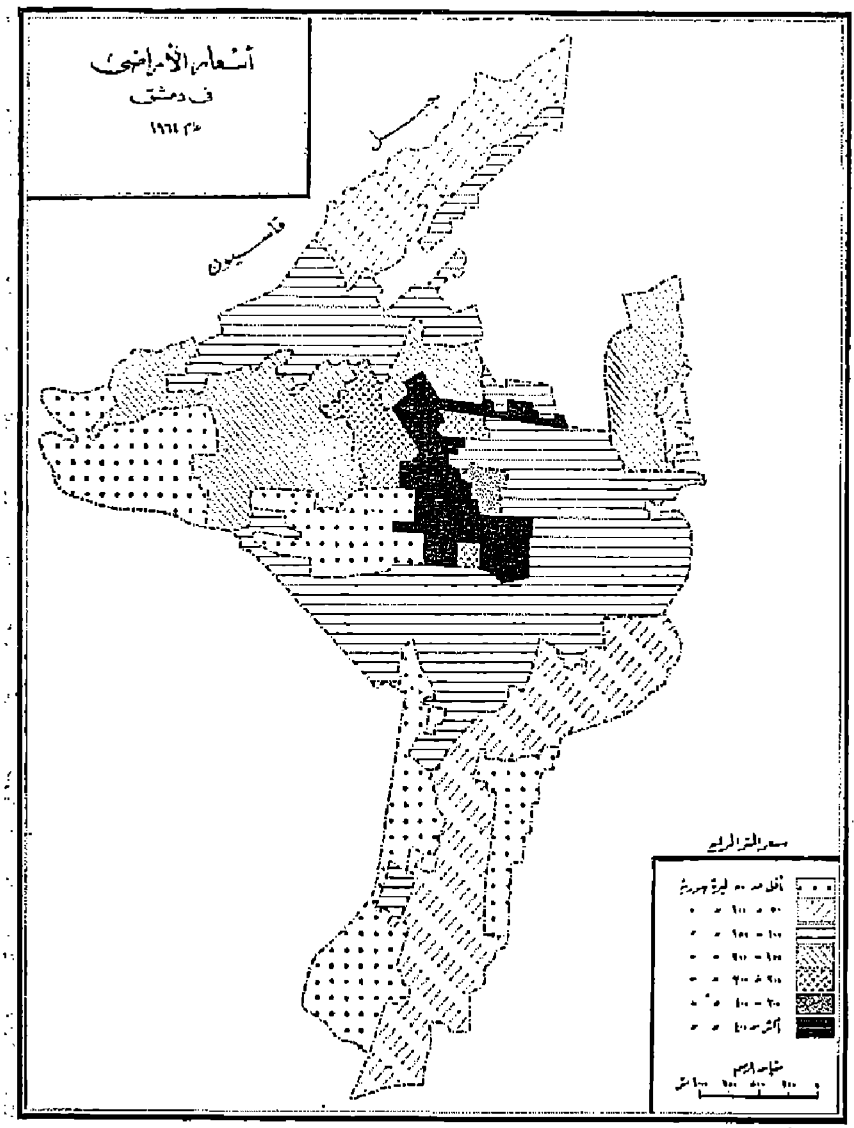
وتضم منطقة القلب اهم اسواق المدينة واكثرها حيوية ونشاطا، كسوق الحميدية وسوق مدحت باشا وسوق الحرير وغيرها ، وتتركز فيها معظم المحلات التجارية ومكاتب الشركات الصناعية والتجارية ، مثل الشركة التجارية الصناعية المتحدة المساهمة (ساحة يوسف العظمة) والشركة السورية لتكرير وتوزيع النفط المساهمة (شارع البرازيل) وشركة الصناعات الزجاجية والخزفية السورية (شارع سعد الله الجابري) وغيرها . ويقع فيها معظم المصارف وشركات التأمين ، مثل مصرف سوريا والمهجر (شارع سعد الله الجابري) ومصرف العالم (في الحريقة) وشركة الضمان السورية (شارع الفردوس) .

وتقع فيها ايضاً معظم وكالات النقل والسياحة ، مثل شركة الكرنك للسفر والسياحة (شارع بور سعيد) وشركة الخطوط الجوية الفرنسية (شارع سعد الله الجابري) ، والشركة الامريكية الشرقية للشحن والتوزيع (شارع البرازيل) ، وتشتمل هذه المنطقة كذلك على اهم دور السينما في المدينة ، كسينما الزهراء (شـــارع الصالحية) وسينما السفراء (شارع ٢٩ أيار) وسينما الدنيا (شارع الفردوس) ، وأخيراً يقع في قلب المدينة أهم الساحات ، كساحـــة الشهداء (المرجة سابقاً) وساحة يوسف العظمة (بوابة الصالحية سابقاً) وساحة الحجاز .

ولا شك في أن هذا التركز الشديد لوظائف التجارة والمال ، وماجذبت الى جوارها من وظائف اخرى ، ادى الى زيادة الطلب على اراضي منطقة القلب ، وترتب على ذلك ارتفاع اثمان الاراضي ؛ اذ يتضح من الشكل (٥٥) ان سعر

المتر المربع في منطقة القلب يساوي ضعفي او ثلاثة اضعاف مثيله في المناطق السكنية المجاورة ، ويساوي اكثر من عشرة اضعاف مثيله في المناطق السكنية الواقعة عند اطراف المدينة وينتج عن هذا الارتفاع في اسعار الاراضي ازدحام المباني وارتفاعها ، بحيث يندر ان تجد مكانا خالياً من العمران .

شكل (٥٥)



ويلاحظ ان معظم المباني في منطقة القلب تشغلها مكاتب تجارية او شركات صناعية او وكالات اجنبية او ما شابه ذلك ، ولذلك نجد اختلافاً واضحاً بين كثافة السكان في منطقة القلب بالنهار عنها بالليل ؛ ففي النهار تموج الشوارع والاسواق بالحركة والنشاط ، وفي الليل يخلو قلب المدينة او يكاد من السكان .

والى جانب هذا القلب التجاري الكبير ، توجد في المدينة مراكز تجارية محلية (الاسواق التجارية الثانوية) ، تتوزع على الشوارع الرئيسية . وينتج عنها الظاهرة الحديثة المعروفة بالشارع التجاري ، الذي يحقق للشارع وظيفتين وهما الشارع كوسيلة المواصلات وكسوق تجاري .

ويمكن أن نميز ثلاثة شوارع رئيسية تصل مركز المدينة وتحمل صفة الشارع التجاري . الاول ، هو الشارع الشمالي الغربي (الصالحية) الذي تصطف المحلات التجارية على جانبيه ، وينشطر في اقصى الشمال الى طريقين رئيسين ، يتجه احدهما نحو حي ابي جرش ، والاخر نحو المهاجرين . والثاني ، هو الشارع الجنوبي (الميدان) الذي يربط جنوب المدينة بوسطها ، يشكل القسم الشمالي منه مركزاً للحرف اليدوية ، والقسم الجنوبي مركزاً لمستودعات الحبوب . اما الثالث ، فهو الشارع الرئيسي الذي يربط شرق المدينة بوسطها (الملك فيصل) ، ويحتوي هذا الشارع في طرفه الشرقي على المستودعات والورش ، وفي طرفه الغربي على المستودعات والحرف اليدوية الثقيلة .

وهناك معرض دمشق الدولي ، وهو سوق تجاري موسمي كبير ، يقع في اقصى الطرف الغربي من المدينة ، يفتح ابوابه شهراً في كل عام ، فيحول دمشق الى مدينة زاهية تموج بالاضواء والحركة ، بل يجعل منها سوقاً تجارية كبرى ، تعيد الى الاذهان سيرة القوافل التجارية التي كانت تنطلق من هذا البلد التاريخي العريق .

معرض دمشق الدولي :

شهدت دمشق اول معرض لها ، في عهد الانتداب الفرنسي في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٧ ، وقد اقيم هذا المعرض في منطقة العباسية ، واقتصرت معروضاته على الثمار . وفي شهر آذار (مارس) من السنة التالية ، اقيم معرض آخر للصناعات الشرقية في المجمع العلمي ؛ كما اقيم معرض ثالث ايضاً في عام ١٩٢٩ في الجامعة السورية ، عرضت فيه الصناعات السورية المختلفة .

وفي حزيران (يونيه) ١٩٣٦ ، اقيم في مدرسة التجهيز الاولى (ثانوية جودت الهاشمي) معرض كبير للصناعات العربية والشامية يفوق المعارض السابقة في ضخامته واتساعه ، ومن اجل هذا المعرض انشئت الحديقة المقابلة للتجهيز الاولى . وفي عام ١٩٥٢ اقيم معرض صغير في فندق الشرق ، عرضت فيه نماذج من الصناعات السورية اثناء مؤتمر المغتربين .

اما المعرض الذي نتحدث عنه فقد ولدت فكرة اقامته عام ١٩٥٢ ، وخرجت هذه الفكرة الى حيز الوجود عام ١٩٥٤ على اثر تطور الحركة الصناعية والتجارية وازدهارها في البلاد . وقد اتجهت في أول الأمر الى جعل هذا المعرض دوريا يقام كل خمس سنوات ، الا ان النجاح الذي لاقاه حدا بالمسؤولين ان يجعلوا منه معرضاً دائماً . ومنذ ذلك التاريخ تعاقبت المعارض الدولية في دمشق ، تقام في غضون شهر آب وايلول (اغسطس وسبتمبر) من كل عام .

وفي ايام المعرض تتمرد دمشق على رتابة الحياة اليومية ، فتنتقل بقضّها وقضيضها من احضان الغوطة المحيطة بها ، لتعيش في صخب المعرض وضجيجه ، وترتفع فيها اعلام اكثر من خمس وعشرين دولة من الشرق والغرب ، وترسل

الاسهم النارية في الجو نجومها الساحرة وانوارها البديعة فتحيل المدينة الى شعلة مضيئة تنعكس على صفحة بردى في لوحة شاعرية بديعة . وفي هذا الاطار الساحر الجميل تفتح دمشق صدرها لمليون زائر وفدوا من شتى بقاع الارض الى المدينة الجميلة ، ليشاركوها الفرحة في موسم معرضها الدولي .

وقد تصدرت مدينة المعرض اجمل بقعة من مدينة دمشق ، بجوار نهر بردى عند مدخل المدينة ، على جانب الطريق القادم من بيروت ، وهي تشغل مساحة تبلغ ٢٧١ ألف م٢ ، تحتل الحدائق اكثر من سدسها . وقد احدثت فيها مديرية المعرض ثلاثة مداخل رئيسية تتناسب وهذه المدينة التي حشدت فيها عشرات الدول خيرة انتاجها ، واتاح قرب مدينة المعرض من نهر بردى اقامة نوافير المياه والبحرات الكبيرة والحدائق الجميلة المفروشة بالمروج الخضراء .

وساعد على نجاح المعرض ، ان دمشق كانت وما تزال ذات مركز تجاري ممتاز ، ثم أن تنوع الآثار السورية وخصبها جعل لمعرض دمشق صفة سياحية الى جانب اهميتها التجارية . يضاف الى ذلك ان فترة اقامة المعرض في غضون شهري آب وايلول (اغسطس وسبتمبر) ، حيث يكون الطقس لطيفاً في دمشق، مما يتيح لمئات الالوف من العارضين والزائرين، من الاجانب والمواطنين، فرص الاستمتاع بجو دمشق اللطيف ومشاهدة المصايف السورية القريبة من دمشق ؛ ففي نصف ساعة فقط ، يستطيع زائر دمشق ان ينتقل من المدينة الى القرى المعلقة على رؤوس الجبال حيث الهواء البارد النقي ، وغابات التفاح والجوز ومئات الالوف من الاشجار المثقلة بالفواكه الشامية اللذيذة .

وقد خلقت اقامة المعرض في مدينة دمشق ، حركة اقتصادية واسعة ، كان لها اكبر الأثر في زيادة الدخل القومي للبلاد ، بالاضافة الى الدعاية الواسعة

التي جنتها سوريا في الحقل الدولي ودعم موسم السياحة ، ويظهر ذلك جلياً في ارتفاع عدد الزوار ارتفاعاً ملحوظاً .

وفي فترة المعرض تعج دمشق بالزوار ، بما يخلق حركة دائبة في الاسواق المحلية ، فترتفع فيها أرقام المبيعات وتزداد الصفقات التجارية الداخلية بمقدار ٧٠٪ خلال شهر ايلول (سبتمبر) ؛ كما تزداد نسبة الصفقات الخارجية بنسبة ٥٪ تقريباً وهذا بالاضافة الى حركة كبيرة تجتاح المقاهي والملاهي والفنادق والمطاعم .

ويمكن معرفة أثر معرض دمشق الدولي في تنشيط التجارة بالرجوع الى احصاءات الاستيراد والتصدير (خلاصة التجارة الخارجية) ، فيتضح لنا أن الربع الأخير والربع الأول من السنة التي تليه ، هو الذي يحوي الرقم الصاعد بالنسبة الاستيراد والتصدير ، ويرجع ذلك الى ان الربع الاخير يحوي شهر ايلول (سبتمبر) ، ثم تستمر الحركة التجارية حتى الربع الأول من السنة الجديدة .

ومن الطبيعي ان تنشط الحركة السياحية في هذه الفترة من اقامة المعرض فقد دلت الاحصاءات ان عددالزائرين الاجانب خلال الاشهر الثلاثة التي يُهيِّأفيها المعرض هي اكثر منها في أي ربع آخر من ايام السنـــة ، وان معظم زائري معرض دمشق هم بالدرجة الأولى من ابناء الدول العربية ومن السائحين الاجانب بالدرجة الثانية .

ومن دراسة الجدول السابق ، يمكن ان نخرج بالملاحظات التالية :

اولا ـ يتراوح عدد زوار معرض دمشق بـــين ١،٢٥٠،٠٠٠ ـ ١،٧٥٠،٠٠٠ زائر كل عام .

ثانيا - يتراوح عدد الدول المشتركة بين ٢٠ - ٣٠ دولة عربية واجنبية كل عام .

ثالثاً - تبلغ نسبة الزوار الأجانب ٢٥٪ من عدد الزوار الاجمالي .

جدول (٤١)

تطور عدد الزوار العرب والاجانب والدول المشتركة

في معرض دمشق الدولي [١]

السنة	الدول المشتركة	عدد الزوار العام	عددالزوار الاجانب
١٩٥٤	٢٦	١,٠٠٠,٠٠٠	٥,٢٦١
١٩٥٥	٢٤	١,٢٥٠,٠٠٠	٩٧,٣٠٦
١٩٥٦	٣٠	١,٧٨٠,٠٠٠	٣٢١,٣٨٣
١٩٥٧	٢٨	١,٤٥٠,٠٠٠	٧٩,٥٢٩
١٩٥٨	١٩	١,٣٥٠,٠٠٠	١٦,٠٣٧
١٩٥٩	٢٠	١,٤٠٠,٠٠٠	٣٥٠,٠٠٠
١٩٦٠	٢٤	١,٤٥٠,٠٠٠	٣٦٢,٥٠٠
١٩٦١	٢٢	١,٣٥٠,٠٠٠	٣٣٧,٥٠٠
١٩٦٢	٢٣	١,٢٣٢,٠٠٠	٣٠٨,٠٠٠
١٩٦٣	٢١	١,١٥٢,٠٠٠	٣٨٨,٠٠٠
١٩٦٤	١٩	١,٢٥٧,٠٠٠	٣١٤,٢٥٠
١٩٦٥	٢٦	١,٣٠٠,٠٠٠	٣٢٥,٠٠٠

(١) مديرية معرض دمشق الدولي - قسم الدعاية .

ويلاحظ أن المعرض الثالث (عام ١٩٥٦) ، قد تفوق بعدد زواره والدول المشتركة فيه على بقية المعارض الأخرى حتى الآن ، وذلك بسبب اهتمام المعسكرين الشرقي والغربي وقتئذ بصداقة الشرق الأوسط عامة ، وتجلى ذلك في اشتراكهما في معرض دمشق الدولي الذي يبرز تقدم هذه الدول وتفوقها .

أما معرض دمشق الدولي الخامس فقد هبط فيه عدد الدول المشتركة من ٣٠ دولة عام ١٩٥٦ الى ١٩ دولة عام ١٩٥٨ ، كما هبط عدد الزوار في هذه المدة نفسها من ١٫٧٨٠٫٠٠٠ زائر الى ١٫٣٥٠٫٠٠٠ زائر ، وبالتالي هبط عدد الزوار الأجانب في المدة نفسها أيضاً من ٧٩٫٥٢٩ زائراً الى ١٦٫٠٣٧ زائراً ، ويرجع ذلك الى اضطراب الأوضاع السياسية في منطقة الشرق الأوسط عموماً ، ونزول القوات الاميركية والبريطانية الى لبنان والاردن وقتئذ .

المناطق الصناعية :

كانت لمدينة دمشق شهرة صناعية في القرون الماضية ، حتى أن اسم دمشق صار علماً لبعض المصنوعات المتقنة ، كصنعة الوشي المسمى دمسقو، وصنعة السيوف الدمشقية والقيشاني وغيرها ، وقد قال الادريسي[1] « لكل بلد ومدينة خاصية تحتفظ بها في نوع من الصناعة ، وأهم ما كان منها في مدينة دمشق » .

ففي الغزل والنسيج بقي الطلب مستمراً على ما يصنع في دمشق من الأقمشة الأرجوانية اللون ، بعد أن نقل صناعها طريقة حياكتها وصبغها عن الفينيقيين ، وأضافوا الى ما تعلموه نماذج فنية جديدة استهوت أذواق زبائنهم في مختلف أقطارهم ، ونقل لنا التاريخ أن الأقمشة الصوفية المصدرة الى منغوليا في اوائل العصر المسيحي دلت على تقاليد الدمشقيين الخالصة في صناعة النسيج . وكان

(١) نزهة المشتاق في ذكر الامصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق – ص ٣٤ .

تحمل من دمشق الى كل بلد أنواع من الثياب الحرير كالخزّ والديباج الثمين الصنعة[1].

وقد برع أهل دمشق في صناعة الحرير ، واحدثوا لها في دمشق المصانع ، حتى غدت عاصمة كبرى لهذه الصناعة . وبعد ذلك اندفعوا مع جيوش الفتح على شواطىء افريقيا والبحر المتوسط وبلغوا صقلية واسبانيا ، وشادوا مصانع الحرير الطبيعي في غرناطة واشبيليا ومالقة وسيراكوز ، ويذكر التاريخ ان الحرير الطبيعي ظل مجهولاً في فرنسا وايطاليا والمانيا حتى سنة ١٠٠٠ م ، وان شارلمان لم يستعمل من الاقمشة الحريرية الا ما كان يصله من الهدايا الفاخرة من دمشق العربية وقسطنطينية البيزنطية .

وقد فاخرت دمشق في قديمها ايضاً ، بما تصنع من السيوف المحلاة ، لما اختصت به من الصفاء والاخضرار ، ولما يكتب عليها من آيات واشعار بماء الذهب ، كما فاخرت بالرماح والخناجر . ويذكر التاريخ ان الامبراطور ديوقلسيانوس الروماني انشأ في دمشق في القرن الثالث الميلادي مصنعاً للأسلحة ، فاستُدل من ذلك على براعة اهلها العريقة في صنع السلاح .

واعترف الصليبيون لأهل دمشق بالبراعة في هذه الصناعة فنسبوها في عهدهم اليها ، كما لاتزال السيوف المصقولة تنسب الى دمشق ايضاً حتى يومنا هذا بعد ان نقل العرب صناعتها الى الاندلس ، فيقال بلغة الافرنج الى اليوم (دامسكيناج) و (دامسكينوزي) ، أي تنزيل الذهب والفضة في الفولاذ ، كما تطلق هاتان الكلمتان على أنواع من الثياب التي برع الدمشقيون بحياكتها .

واشتهرت دمشق ، كذلك بصفاء زجاجها ورقته ومتانته في القرون الوسطى ، وكانت له مصانع مهمة في دمشق ، رآها الرحالة « بوجيبو » في سنة

---

(١) كتاب محافظة دمشق ص ١٢١ — ١٢٢ .

١٣٤٦ ، ممتدة بمحاذاة الجامع الأموي ، ونقل البنادقة سر هذه الصناعة في القرون الوسطى الى اماراتهم ؛ ولكن هذه الصناعة انقرضت وتلاشت فيما بعد .

تلك صورة عن صناعة دمشق المشرقة التي ازدهرت بها في عصورها القديمة ، ولكن حينما استلم الحكم بنو عثمان بهت رونق الصناعة في دمشق ، وساعد على انحطاطها اختراع الآلة البخارية في اوربا ، فتخلف الشرق عن المثابرة على الاقتباس ولم يبق من عناصر الصناعة إلا ذوق الصانع الدمشقي في تحسين صناعاته التقليدية ، وهو محوط بالفوضى التي كانت تلف الامبراطورية العثمانية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر . وما عتمت دمشق ان تهاوى كيانها الصناعي تحت وطأة النهضة الصناعية الأوربية ، وتحولت شيئاً فشيئاً الى سوق لتصريف السلع الاوربية ، وباتت تتبع الزراعة في صناعتها .

وهكذا ضعفت هذه الصناعات وتلاشت وانقرض بعضها ، بعد أن عجزت الدولة ، بسبب معاهداتها ، عن حماية الصناعة الوطنية ، وهاجر صناع الدمسقو الى الخارج ، واقاموا صناعتهم في بلدان اوربية . وانقرضت صناعة السيوف وصناعة القيشاني ودهان البيوت ، ولم يبق من الصناعات غير حرف النسيج والدباغة والصباغة والحدادة والبناء والخياطة ؛ وانحصرت بعض الصناعات بطوائف معينة ، فكان اكثر العاملين بالصياغة من المسيحيين ، وتناقص عدد الحرف في دمشق وحدها من ١٩٦٦ حرفة عام ١٨٥٢ الى ١٣٩٥ حرفة عام ١٨٨٩ ، وقل عدد العاملين فيها ، في الفترة نفسها ، من ٣٠,٠٠٠ عامل الى ٨٠٠٠ عامل[١] .

---

(١) علي الحسني - تاريخ سوريا الاقتصادي - دمشق ١٣٤٢ - ص ٢٠٢ ، ٣٢٣ - ٣٢٤ . ونعمان قساطلي (١٨٧٩) ص - ١٢٠ - ١٢٥ .

وقد قام في القرون الاخيرة ، بعض الصناع الذين يعملون في صناعة النسيج من القطن والصوف والحرير ، فوقفوا ، بما اخترعوا من الانوال ، في وجه الثياب المصنوعة في الغرب ، وعملوا « الديا » و « الألاجه »[1] و« الشال ». وما برحت الصناعات الدمشقية على كثرة منافسة البضائع الاجنبية لها رائجة لمتانتها وجمالها، على الرغم من ان الحرب العالمية الاولى قضت بالتقهقر على هذه الصناعة بسبب ورود المنسوجات الأوربية ومنافستها لها في الاسواق المحلية والأجنبية ، واقامت السدود والحدود بين اسواقها التقليدية ، حتى لقد ذكر تقرير في المندوبية الفرنسية ، انه لم يبق من الأنوال التي كانت موجودة في عام ١٩٠٩ إلا أقل من ربعها [2] .

ولما اشتدت المنافسة الاوربية ، حاولت بعض المصانع تحسين انتاجها ، وصناعة منسوجات خفيفة ورخيصة . ولكن العادات تغيرت بأسرع من تطور الصناعة الوطنية فمالت النساء إلى لبس النسيج الاجنبي ، كما اقبل الرجال على ارتداء بزات اوربية ، مما احبط الجهود الرامية لتحسين الصناعة المحلية ، وجعلها عاجزة عن الوقوف في وجه المنافسة الاوربية [3] .

والصناعة الحديثة ، جديدة المولد في دمشق ، ولو رجعنا الى ماقبل الحرب العالمية الأولى ، لوجدنا ان معظم الصناعات الشامية لا يستحق ان يدعى « صناعة » بالمعنى العلمي الحديث للكلمة ، وانما هو « حرف » و « صناعات بيتية » . فلا رأسمال ولا آلة ولا مصانع تتسع لآلاف العمال ولا اختصاص

---

(١) تعتبر الديا والالاجه من انواع الصايات .

(٢) كتاب محافظة دمشق – ص - ١٢١ - ١٢٢ .

(٣) علي الحسني – ص ٢١٩ ، ٣٢٣ – ٣٢٤ . نعمان قساطلي (١٨٧٩) – ص ١٢٣ – ١٣٤ .

ولا انتاج بكميات كبيرة ... وكان لكل حرفة سوق خاصة ما تزال آثارها وأسماؤها ظاهرة في مدينة دمشق . وأهم صنعة في البلاد كانت الحياكة الحريرية والقطنية والصوفية ، وكانت المصانع صغيرة قليلة العدد ، ورؤوس الأموال التي تستغل هذه المصانع كانت معظمها اجنبية .

على انه بالرغم من ضعف الصناعة الشامية واعتمادها على النسيج فقط ، فان انتاجها كان رائجاً في الدولة العثمانية في مصر والعراق والاناضول ، ولكنه لم يسجل أي تقدم يذكر بسبب فقر الدولة العثمانية بمعادن الصناعة وفقد رؤوس الأموال والنظام التشريعي والاداري والأمن والاختصاصيين ، هذا عدا عن فداحة الضرائب وضرورة الحصول على امتياز للعمل ، ولذلك كله انصرف الناس للتجارة .

ولما جاءت الحرب العالمية الأولى ، ضُربت الصناعة السورية ضربة عنيفة لفقد الايدي العاملة والسوق الخارجية وانعدام القوة الشرائية لدى السكان ، وانقطاع الموارد ، حتى ان صناعة غزل الحرير هبطت الى العشر .

* * *

وفيما بين الحربين العالميتين تميزت الصناعة في هذه الفترة بميزات رئيسية ثلاث :

أولاً ـ بطء الاتجاه نحو الصناعة : فان البلاد بعد ان حبست في حدود ضيقة ، واغلقت في وجهها مجالاتها الحيوية في التجارة كمصر والعراق والاناضول اتجهت للتعويض نحو الزراعة اكثر من اتجاهها للصناعة . ولعل الاضطراب السياسي وعدم استقرار الامن وسياسه الافقار التي استهدفها الفرنسيون ، وحمّى الحواجز الجمركية التي اصابت العالم كله ، وحرّمها صك الانتداب على سوريا ، لعلها

جميعاً أسهمت في صرف الناس عن الصناعة .

غير ان تزايد السكان واغلاق ابواب الهجرة وارتفاع مستوى المعيشة في المدن وعدم تجدد الاساليب الزراعية لجأ الناس الى محاولة العمل الصناعي ، فظهر اعتباراً من سنه ١٩٣٠ بعض الصناعات ، واضطرت السلطات المنتدبة ان تفرض كثيراً من التدابير لحماية هـــذه الصناعات وساعدتها على الوقوف على قدميها ، وقد أتت الحرب الثانيه والصناعه السورية تسد جانباً من حاجه البلاد .

ثانياً ـ انحطاط الصناعة القديمة : انتعشت الصناعة القديمة بعض الانتعاش بعد نهاية الحرب العالمية الاولى مباشرة ، ولكن هذا الانتعاش لم يرجعها الى مقامها السابق ، وليس ذلك بسبب ظهور الصناعة الحديثة فحسب ، بل لان تلك الصناعة العتيقة نفسها كانت قبل الحرب في طريق الضعف والانحلال . ولم يدم الانتعاش الظاهري لأبعد من سنة ١٩٢٧ ، ثم عجلت الأزمة الاقتصادية العالمية في انحطاطها .

ثالثاً ـ ظهور المصانع الحديثة : رافق انحطاط الصناعة القديمة بدمشق نهضة صناعية مقابلة لها بدأت نشاطها منذ سنة ١٩٢٨ ، وادخلت « الآلة » ونظام المصنع الحديث . وقد صدر منذ سنة ١٩٢٤ قرار يعفي الآلات الصناعية من الرسوم الجمركية ، ولكن هـــذا القرار لم يُستفد منه إلا حين فرضت الرسوم الجمركية العالية على البضائع الأجنبية .

وقد لوحظ ان النهضة الصناعية سارت في طريقين : الأول تجديد المعامل القديمة ، والثانية تأسيس مصانع جديدة . وقد ظهر الميل نحو التجدد الصناعي في كل الصناعات الدمشقية وأولها الحياكة ، فقد دخلتها الأنوال الآلية ، ثم الدباغـــة القديمة التي زالت كلها تقريباً حوالي سنة ١٩٣٣ وظهرت مكانها المدابغ الحديثة . وجرى مثل ذلك في المطـاحن وفي الحرف (كصنع الأحذية) .

ورافق ذلك التجدد ظهور صناعات جديدة ، فأنشىء سنة ١٩٢٩ معمل

للاسمنت في دمشق ، ومعامـــل للكبريت والجوارب واللفائف والجعة وحفظ الأثمار ونسج الصوف والقطن ، كما ظهر الاعتماد على القوة الكهربائية ، وقامت معامل توليد الكهرباء قرب المدينة للإنارة وإدارة المعامل. ومن المهم ان نلاحظ ان الصناعة الحديثة كانت من نوع الصناعات الخفيفة ، والصناعات الزراعية دون الصناعات الثقيلة أو الآلية الواسعة .

* * *

أما الحرب العالمية الثانية ، فكان أثرها في الصناعة حسنا على خلاف ما كانت عليه الحرب الأولى ، ولم تتعطل الحركة الصناعية في فترة الاضطراب وتوقف التجارة وطرق النقل العالمية وقيود العمل والتصدير ... الخ ، لأن الصناعة السورية انما تعتمد على مواد أولية محلية ولأن معظم استهلاكها محلي كذلك . ثم ان كميات الانتاج زادت لضرورة الاكتفاء الذاتي وشح موارد البلدان المصدرة ، وأرهقت المصانع بالعمل لتأمين جميع الاستهلاك الداخلي وبعض حاجات البلاد المجاورة أحياناً ، وظهرت صناعات خفيفة أوجدتها الحاجة ، منذ نفد المدخر منها وغلا سعره في السوق في سني ١٩٤٢ ، ١٩٤٣ ، ١٩٤٤ كالادوات الكهربائية والمنزلية والزجاجية بشكل خاص .

وتعتبر فترة الحرب العالمية الثانية فترة التحول الكبرى بالنسبة للصناعة ، فمنذ ذلك التاريخ بدأ التطور الجدي في هذا الميدان الهام من ميادين الاقتصاد ، فنشأت صناعات جديدة لسد النقص الذي فرضته الظروف أثناء الحرب على معظم المستوردات المخصصة للاستهلاك المحلي ، كما دخل التوسع على الصناعات القديمة القائمة التي استفادت من الحماية العفوية الناجمـــة عن توقف عمليات الاستيراد ، وشجع هذا الازدهار المفاجيء رؤوس الأموال على دخول معترك الصناعة ، خـــاصة بعد التضخم الذي طرأ عليها نتيجة الأرباح التي سببها ارتفاع الأسعار .

ومع ذلك ، فان فترة الحرب لايمكن حسبانها في نطاق التطور الصناعي، ولا يمكن الاعتماد على ظواهرها كأساس لتقدير التقدم ، فهي فترة أزمة وشذوذ، وهي إنما تؤثر بنتائجها الاقتصادية والسياسية التي تتبعها .

* * *

وبعد الحرب العالمية الثانية ، عندما وضعت الحرب أوزارها ، وحصلت البلاد على حريتها واستقلالها ، واستلم زمام الأمور فيها أبناؤها ، بدأ التفكير بضرورة تشجيع الصناعات التي هيأتها لها ظروف الحرب ، وبضرورة تغيير النظم الاقتصادية البالية التي وضعها المستعمر في غير مصلحة البلاد .

وعلى الرغم من التطور الكبير الذي دخل على الصناعة ، منذ نهاية الحرب، فان خطوطها الكبرى المميزة لم تتطور ، فقد ظل رأس المال الصناعي مدة طويلة ضعيفاً يتردد في خوض ميدان الصناعة لفقد الدوافع لدى الممولين ، فكثيرون كانوا يفضلون العمل التجاري وخزن الأموال النقدية على إنشاء الشركات وبناء المصانع ؛ ويتبين هذا من دراسة رؤوس الأموال الموظفة في الشركات الصناعية المساهمة مثلاً قبل الحرب الأخيرة ، فهي لم تكن تتجاوز بضعة ملايين من الليرات السورية ، وقد لوحظ ان نجاح المشاريع الصناعية الأولى وقتئذ ، زاد في الاقبال عليها وزرع في النفوس الثقة بها .

وما كادت الحرب تنتهي ، وتترك وراءها تضخما نقدياً هائلاً في البلاد حتى تألف في دمشق عدد كبير نسبياً من الشركات المساهمة الضخمة للصناعة بجانب المشاريع الفردية . وقد شجعت سهولة الربح الكثيرين ممن لا يتمتعون بالخبرة اللازمة على الاندفاع في مشاريع صناعية جديدة واسعة جداً ؛ فازدادت نسبة رؤوس الأموال الموظفة في الصناعة ، وان كانت ماتزال محدودة بالنسبة للرساميل الأخرى المستغلة في التجارة والصناعة .

وليس في البلاد من معادن صناعية تسمح باقامة الصناعات الثقيلة ، وكل الصناعات في منطقة دمشق تعتمد على المواد الأولية المنتجة في البلاد ، أي على المنتجات الزراعية . وهناك استثناءات هامة لهذه القاعدة ، مثال ذلك صناعة الدباغة التي تستورد كميات كبيرة من الجلود، والمغازل الكبيرة التي تستورد كميات كبيرة من الأصواف .

وتعتمد الصناعة في دمشق على القوى الكهربائية ، وعلى الرغم من زيادة القوى المحركة زيادة هائلة منذ نهاية الحرب، فان اسعارها غالية وجريانها غير منتظم. وقد اتجهت الصناعة لذلك الى استخدام المولدات الخاصة بكل مصنع ، وتكاليف ذلك كثيرة ، ويشكل ثمن الوقود والقوة المحركة في صناعات عديدة نسبة عالية من تكاليف الانتاج .

وهناك عدد كبير من العمال الحاذقين الذين اكتسبوا خبرة وراثية عن أجيال متعددة باحترافهم الصناعات اليدوية التقليدية، لاسيما صناعة النسيج والدباغة ... الخ وقد انتقل بعض هؤلاء للاستخدام في الصناعات الميكانيكية الحديثة التي نشأت عن الصناعات القديمة . ولن تكون هناك صعوبات في إيجاد اليد العاملة الماهرة اذا استمر التطور على هذه الخطوط .

ولم تزل الصناعة في مرحلة التطور ، وبالتالي لم تقض الآلة تماماً القضاء على الاداة اليدوية ، ولم يحل نظام المصانع الحديثة مكان الصناعات القديمة البدائية . وانك لتجد آلاف الأنوال اليدوية في صناعة النسيج جنباً الى جنب مع الانوال الآلية ، وتجد المدابغ القديمة مع الحديثة .

ولعل السبب في ان الآلة لم تقض على النول في دمشق ، هو أن لكل منهما نوعاً من النسيج ، فالمناسج الآلية تصنع الأقمشة على الطرق الغربية وعلى الرسوم الحديثة ، أما الانوال فتختص تقريباً بالنسيج السوري العريق على الطرق

التقليدية . واذا كانت النسائج القديمة تضعف بالتدريج في أسواقها وعمالها وطرقها فليس ذلك لمزاحمة الآلة فحسب ، ولكن لتحول الازياء في هذه المنطقة من العالم .

وتختلف طريقة الانتاج بين الصناعة البيتية والمشغل القديم والمصنع الحديث ، ففي الصناعة البيتية والمشغل القديم يكون العمل يدوياً ويقوم صاحب العمل بتقديم المواد الأولية ، حيث تصنع بالبيوت أو في مخزنه الخاص ، ويستلم البضاعة جاهزة ويدفع الاجرة بالقطعة (مقاطعة) ، وأحياناً يدفع الاجرة لصنّاعه عنده مياومة .

* * *

ويبلغ عدد سكان دمشق في الوقت الحاضر نحو ٨٠٠ ألف نسمة ، وهي بذلك تعتبر سوقاً استهلاكية هامة ، للسلع التي يتطلب توطن صناعتها قربها من سوق الاستهلاك ؛ كما أن سهولة الاتصال بين دمشق وسائر أنحاء القطر السوري ، وبينها وبين الخارج ، يساعد على قيام الصناعة وازدهارها في هذه المدينة .

والصناعات في مدينة دمشق ، كشأن المدن الأخرى ، صناعات متنوعة واغلبها خفيفة استهلاكية بسيطة ، والقطاع الأكبر منها ليس أكثر من «صناعات مجتمع » كالخدمات الصناعية من تصليح وصيانة وبناء . . . الخ أو « صناعة البلديات » كالغاز والكهرباء والمياه وغيرها .

ومدينة دمشق اليوم تغلفها شرنقة كثيفة من أمثال هذه الصناعات ، التي كانت ، بلا شك ، دافعاً قوياً في نمو هذه المدينة . ومع ذلك فان الصناعة اصبحت تأخذ في أغلب مناطقها شكل ضاحية صناعية ، كما هي الحال في منطقة القابون الصناعية في دمشق .

* * *

ومما تقدم ، يتبين ان الصناعة في مدينة دمشق ، لم تسر بنظام واحد ، انما كانت تنتابها ، بين حين وآخر ، نكسات تعود بها الى الوراء او اندفاعات تسير بها نحو النمو والازدهار . وبقيت هذه الحركات بين مد وجزر حتى مابعد الحرب العالمية الثانية ، حيث حققت هذه الفترة تقدماً عظيماً في الصناعة وغيرها من الميادين الاقتصادية الاخرى .

فقد تأسست في دمشق ثلاثة مصانع كبيرة ، ولما يمض على انتهاء الحرب عام واحد ، وهي مصنع الزجاج في حوش بلاس ، في الضاحية الجنوبية ؛ ومصنعان للغزل والنسيج في القابون ، في الضاحية الشمالية . وتتابع بعد ذلك تأسيس المصانع ، وبعد أن كان عدد هذه الشركات لايتعدى في عام ١٩٤٩ عدد أصابع اليد الواحدة ، بلغ في نهاية عام ١٩٦١ : ٤١ شركة مساهمة ، فضلا عن مئات المنشآت الصناعية الفردية .

ويلاحظ أن صناعة الغزل والنسيج ، تحتل الصدارة بين الصناعات ، من حيث عدد العاملين فيها بدمشق (٦٣٤١ عاملا) ، تليها في الأهمية صناعةالموبيليا والاثاث والخشب والخيزران (٤٨٨٥ عاملا) . وتأتي صناعة الموادالغذائية والمشروبات في المرتبة الثالثة (٣٧٨١ عاملا) .

والى جانب ذلك ، توجد في دمشق صناعات متعددة غرضها الأساسي سد حاجة الاستهلاك المحلي في المدينة ذاتها ، وابرز هذه الصناعات : صناعة اصلاح وسائل النقل (٢٧٩٥ عاملا) ، وصناعة الاحذية والملابس الجاهزة (٢٥٥٢ عاملا) ، وصناعة المنتجات المعدنية (٢١٢٨ عاملا ، لايدخل في عدادهم عمال الماكينات ومعدات النقل) ، والمصنوعات غير المعدنية (١٦٨٣ عاملا) ؛ وما الى ذلك من الصناعات يقل عدد العاملين فيها عن الألف عامل[١] .

---

(١) تعداد السكان العام في دمشق — لعام ١٩٦٠ ؛ — جدول ٣٢ ، ص ٦٩ .

وتأتي الشركة التجارية الصناعية المتحدة (الخماسية سابقاً) في مقدمة شركات الغزل والنسيج في مدينة دمشق ، (٣٤١٢ عاملا) ، وتليها الشركة العربية المتحدة للصناعة (١٦٨٦ عاملا) ، ثم شركة المغازل والمناسج (١٥٩٣ عاملا) ؛ ويزيد عدد العمال في مصانع كل من الشركات الثلاث المذكورة على ١٥٠٠ عامل . ويلاحظ في توزيع مصانع الغزل والنسيج في دمشق ، تركز معظمها في منطقة القابون وطريق المليحة .

أما صناعة التريكو فيبلغ عدد مصانعها الكبيرة (اكثر من ٣٠ عاملا) تسعة مصانع ، يوجد خمسة منها في منطقة القابون ويتوزع النصف الآخر في داخل المدينة وطريق المليحة ، وأهمها مصانع شركة الشرق الملابس الداخلية وشركة عبد الرزاق المزين وأولاده للجوارب .

وعلى الرغم من أهمية صناعة الموبيليا والاثاث في دمشق ، فاننا لانجد فيها سوى مصنعين كبيرين فقط يتجاوز عدد العمال في كل منهما ٣٠ عاملا ، أحدهما شركة الخشب المضغوط في طريق المليحة ، والآخر مصنع جميل الباوندي للموبيليات في منطقة القابون .

وفي دمشق ستة مصانع كبيرة للموادالغذائية ، أهمها مطحنة مهايني وجلاد وأبيض (٤١٢ عاملاً) ، في القدم على طريق حوران ، وهي أكبر مطاحن الحبوب في دمشق، وتمد العاصمة بمعظم حاجتها من الدقيق . وفي دمشق أيضاً مصنعان كبيران للكونسروة احدهما في شارع بغداد بدمشق ، والآخر في منطقة القابون (الشركة الحديثة للكونسروة والصناعات الزراعية) .

وتتركز صناعة اصلاح وسائل النقل بدمشق في منطقة زقاق الجن ، على الطريق المؤدية الى كفرسوسة . ويضم مصنع خالد الحموي في زقاق الجن اكبر الورشات التي تعمل في الخراطة الميكانيكية ، أما بقية الورش فهي صغيرة يقل

عدد العمال في كل منها عن ثلاثين عاملا، وقلما نجد خارج منطقة زقاق الجن ورشة هامة لصناعة واصلاح وسائل النقل ، باستثناء مصنع الصهاريج الموجود في منطقة القابون .

ويوجد في دمشق ثلاثة مصانع الملابس الجاهزة ، أكبرها في منطقة القابون (زين العابدين وشركاه) ، والمصنعان الآخران في داخل المدينة ، أحدهما في الحريقة والآخر في الحي اليهودي . أما صناعة الأحذية فتقوم غالباً على الورشات الصغيرة ، التي لا يتجاوز عدد العمال في كل منها بضعة عمال ، ويعتبر مصنع جورج وجوزيف عواد في منطقة القابون (٧١ عاملا) أكبر المصانع الموجودة في دمشق .

وتتركز صناعة المنتجات المعدنية (عدا الماكينات ومعدات النقل) تقريباً في منطقة القدم ، حيث يوجد فيها المصنعان الوحيدان للبرادات في دمشق (شركة بردى للصناعات المعدنية) ، هذا بالاضافة الى مصنع غسالات هندي اخوان وشركاه (٣٧ عاملا) ، أما مصنع الغسالات الثاني في دمشق ، فهو مصنع يحيى الشماع في القابون (٣٣ عاملاً) .

يلي ذلك ، المصنوعات من الخامات غير المعدنية (عدا منتجات الفحم والبترول) ، وهي تشتمل على ستة مصانع كبيرة ، أهمها مصنع الشركة الوطنية لصنع الشمنتو ومواد البناء في منطقة دمر ، وهو من اكبر مصانع الاسمنت في سوريا كلها (٦٥١ عاملا) ، ومصنع شركة الصناعات الزجاجية والخزفية السورية في منطقة حوش بلاس (٥٧٥ عاملا) ، وللشركة مصنع آخر الزجاج ، في منطقة دمر ، اصغر من سابقه (٢٨٨ عاملا) . وعدا ذلك ، يوجد مصنعان للبلاط احدهما في حرستا والآخر في دمر نفسها .

* * *

لقد احتلت الصناعة في سورية ، بشكل عام ، وفي مدينة دمشق بشكل خاص ، مرحلة جديدة من مراحل تطورها ونموها اثر قرارات التأميم التي اتخذتها

الجمهورية العربية المتحدة في تموز ١٩٦١ ، تلك القرارات التي ألغاها عهد الانفصال واستعادتها ثورة الثامن من آذار عام ١٩٦٣ ووسعتها وما تزال ماضية في توسيعها، بحيث جعلت القسم الأكبر من الصناعات ملكاً للأمة ، وأناطت أمر تسيير شؤون المعامل بالعمال تشرف عليهم الدولة ، بعد أن كانت ملكاً لعدد صغير من الرأسماليين يتلاعبون بها تبعاً لمصالحهم الشخصية ومصالح الرأسمالية العالمية . وبذلك حققت سورية استقلالها الاقتصادي بعد ان كانت قد حققت استقلالها السياسي يوم الجلاء (١٧ نيسان ١٩٤٥) .

والواقع أن الاجراءات الاشتراكية قد أحدثت تعديلاً جذرياً في بنية مدينة دمشق الاجتماعية ، وهو تبديل لا يمكن للباحث العلمي المدقق أن يسبر أغواره الآن لأنه مايزال في أول مراحله ، ولسوف يستكمل شروط وجوده بعد سنوات قليلة ، وعندئذ يستطيع أن يقدر مداه بالطرق الاحصائية .

فمجتمع العمل الذي يمثل نظام المرحلة التاريخية الراهنة ، أو اعادة تنظيم المجتمع على أساس العمل المشترك ، الذي يمثل صميم المجتمع الاشتراكي ، سيتبدل تدريجياً ، كما أن التبدل في علاقات الانتاج سيحول البنية الاجتماعية في المدينة من شكلها الطائفي والعشائري ، الاقطاعي والبورجوازي ، الأسروي والديني ، الى شكل آخر جديد كل الجدة قوامه النقابات والاتحادات وما شاكلها من منظمات العمل .

وسنحاول أن نرسم بعض الخطوط الأولى لهذا التحول كما تبدو الآن ، وهي :

١ ـ الانتقال من الزراعة ذات الوسائل البدائية الى الزراعة المصنعة ، وذلك في غوطة دمشق التي تؤثر ، كما بينا ، تأثيراً كلياً على المدينة ذاتها .

٢ ـ الانتقال من الاقتصاد الحرفي ـ الذي سبق الحديث عنه ـ الى الاقتصاد التقني .

٣ ـ التبدل في أولويات الانتاج ، فمدينة دمشق أصبحت تعتمد على انتاج المنسوجات عوضاً عن انتاج المواد الغذائية .

٤ ـ التبدل في العلائق الاجتماعية وفي علائق الانتاج ، فهي تتحول من علائق طائفية وأسروية أو اقطاعية وبورجوازية الى علائق عمل قوامها المردود وتوزيعه ، بشكل يضمن العدالة وتكافؤ الفرص .

وما من شك أيضاً ، في أن عمران المدينة سيتأثر بكل هذه التحولات .

ولقد بدأ مردود الانتاج الصناعي في العهد الاشتراكي يزداد سنة بعد سنة . وهذه بعض الأمثلة ، على سبيل المثال لا الحصر :

لقد ازداد انتاج الخيوط القطنية في الشركات الرئيسية الثلاث (التجارية الصناعية المتحدة والمغازل والمناسج والعربية المتحدة للصناعة) من ٩٧٦٧ طن في عام ١٩٦٣ الى ١١٥١٨ طن في عام ١٩٦٨ . وارتفع عدد المغازل في الشركات نفسها من ٨٢٨٨٤ مغزلاً في عام ١٩٦٣ الى ١٠٢٥٤٤ مغزلاً في عام ١٩٦٦[١] .

وفي ميدان الصناعات الهندسية والكيميائية ، ازداد انتاج الاسمنت في مصنع دمر من ٢٣١٠٢٦ طن في عام ١٩٦٤ الى ٢٩٦٨٠٣ طن في عام ١٩٦٨ . وارتفع انتاج الكبريت في الفترة نفسها من ٥٠٠٠٧ شوال الى ٧٢٨٨٢ شوال ، وكذلك ازداد انتاج البرادات في الفترة نفسها من ٧٥٥٤ براداً الى ٨٩٧٩ براداً[٢] .

* * *

---

(١) عن صندوق تنشيط الغزل والنسيج .
(٢) عن اتحاد الصناعات الهندسية والكيميائية .

وتبلغ المساحة التي تشغلها الصناعة حالياً ٥٧٫٥ هكتاراً (مساحة المصانع التي تحوي أكثر من ٣٠ عاملا) ، ويبلغ عدد الاشخاص العاملين في دمشق ١٢٣٤٨٩ عاملا ، تبلغ نسبة العاملين منهم في المصانع ٤٠ ٪ ، وتقدر نسبة العاملين منهم ضمن الاحياء التي توجد فيها الصناعات الصغيرة والحرفية بحوالي عشر هذه النسبة ، أي مايعادل ٤ ٪ من مجموع الاشخاص العاملين في دمشق .

وهذه المراكز الصناعية تتوزع في سبع مناطق رئيسية على النحو الآتي:

اولا ـ منطقة زقاق الجن :

تقع في جنوب غرب المدينة ، بين دمشق وكفر سوسة ، في البساتين الواقعة غرب الخط الحديدي . ولم يكن في هذه المنطقة ، فيما مضى ، سوى بضع محلات للحدادة العربية القديمة ، كانت تقوم في القسم الغربي من حي باب السريجة ، تعمل كل مايلزم الفلاح من أدوات زراعية ومنزلية بسيطة .

وترجع نشأة هذه المنطقة الصناعية الى عام ١٩٥٠ ، على اثر صدور القرار القاضي باخلاء المحلات الصناعية القائمة على طرفي نهر بردى عند مدخل شارع بيروت وانتقال اصحابها الى القسم الغربي من منطقة باب السريجة ، حيث قامت المحلات الصناعية في اطراف البساتين الواقعة غربي الخطين الحديدين : (الحجازي وحماه) ، هذا فضلا عن المحلات التي اقيمت في الطوابق الارضية للابنية القديمة على طول شارع الميدان في محلتي ابن حجر والفحامة .

وقد تخصصت هذه المنطقة في الصناعات الميكانيكية ، التي تشتمل على صناعة مختلف ادوات السيارات والالات الزراعية الحديثة والخراطة والحدادة ، كما تضم الكثير من مرائب السيارات وورشات اصلاحها . ولا شك في ان رخص الاراضي نسبيا ، كان من ابرز العوامل في استقرار الصناعات الميكانيكية في

هذه المنطقة ، لما تتطلبه من مساحات واسعة من الاراضي ، لا يمكن توفرها في داخل المدينة باسعار معتدلة .

ثانيا ـ منطقة القدم :

تقع هذه المنطقة الى الجنوب من مـــدينة دمشق ، وعلى طرفي الطريق المؤدية الى حوران . وهي تضم صناعات متنوعة ؛ وأكبر المصانع هنا مصانع الشركة العربية المتحدة للصناعة ، التي تأسست منذ عام ١٩٥٠ ، ومصانع شركة الصناعات الزجاجية والخزفية السورية التي بدأت انتاجها في عام ١٩٤٩ .

وفي هذه المنطقة ايضا نشهد اكبر المطاحن الحديثة في دمشق (مهايني وجلاد وابيض) ، واهم مصانع البسكويت (شركة كاميليـــا للبسكويت والشوكولاته) . ولكن هذه المصانع الغذائية على اهميتها قليلة ، اذا ما قورنت بالصناعات الكيماوية التي تشتمل – بالاضافة الى مصنع الزجاج – على الشركة العربية لتوزيع المحروقات البترولية (سادكوب) ومصنع كبـــير للكبريت (الشركة المتحدة للكبريت) .

ولا يفوق الصناعات الكيميائية في هذه المنطقة سوى الصناعات التعدينية فهي تستأثر بصناعة البرادات ، وتضم في قطاعهـا المصنعين الوحيدين في دمشق ومصنع للكابلات الكهربائية ومصنع الادوات المنزلية (شركة بردى للصناعات المعدنية) ومصنع للغسالات (هندي اخوان وشركاه) . ونخلص من هذا الى ان الصناعات التعدينية والكيميائية هي الطابع الغالب على هذه المنطقة ، رغم وجود الصناعات الهامة الاخرى . [١]

---

(١) Bagh, A.S.,L industrie à Damas, (entre 1928 - 1958) : Damas, 1961, P. 110.

ثالثا ـ منطقة المدابغ الحديثة :

اشتهرت مدينة دمشق بدبغ الجلود منذ القديم، تعمل منه الاحذية والأحزمة والسروج والحقائب وغيرها ؛ وكانت ذات شأن قبل الحرب الاولى ، ولكنها كانت قديمة في طرقها وفي المواد الاولية التي تستعملها . ثم ظهرت المصانع الحديثة بعد تلك الحرب في دمشق ، وتضاءلت الصناعة القديمة ، ونشأ في دمشق مصنع رومية وعمري ، وتوسعت الدباغة توسعا جعل البلاد تكفي حاجتها بنفسها من الجلود المدبوغة والنعل حوالي سنة ١٩٣٢—١٩٣٣ . ولكن المزاحمة الاجنبية والازمة الاقتصادية قد ادت الى افلاس المصانع الكبيرة ، ولم تستطع هذه الصناعة الوقوف على قدميها ثانية الا قبيل الحرب العالمية الثانية .

وفي عام ١٩٥٢ ، اتخذت الحكومة قرارا بنقل المدابغ الى خارج المدينة ، وقد اختير لها موضع يقع في شرقي المدينة ، بين نهر بردى جنوبا ونهر الداعياني شمالا . ويرجع اختيار هذا الموضع لتوفر الشروط اللازمة لقيام هذه الصناعة وهي :

اولا : اتجاه الرياح السائدة من الغرب ، مما يجعل المدينة في منأى من روائح الجلود .

ثانيا : يمر طريق دمشق ـ كفر بطنا ، من هذه المنطقة ، مما يساعد على سهولة الاتصال مع المدينة من جهة ، وجلود الحيوانات المذبوحة القادمة من الشرق ، من الغوطة والبادية ، من جهة اخرى .

ثالثا : توفر المياه اللازمة لغسل الجلود ، فالمنطقة — كما سبق ان ذكرنا — تقع بين بردى جنوبا والداعياني شمالا .

رابعا : يوجد بين المدابغ ونهر بردى حوض صغير يسمح بتصفية المياه

المستعملة ، تم يتابع الماء الصافي جريانه نحو الشرق ليروي الغوطة ، بينما يستفاد من المواد المترسبة في الحوض كسماد عضوي يستخدم في الزراعة .

رابعاً ـ منطقة القابون الصناعية :

تقع الى الشمال الشرقي من مدينة دمشق ، وهي من أقدم المناطق الصناعية واكبرها ، ليس في دمشق فحسب ، بل في سوريا كلها ، كما انها تضم مختلف انواع الصناعات التي تتطلب رؤوس اموال ضخمة ، وتحتاج الى اعداد كبيرة من العمال .

وقد ظهرت اولى هذه المصانع في هذه المنطقة قبيل الحرب العالمية الثانية ، كمصنع كبريت الجزيرة وبعض مصانع الغزل والنسيج ، الا انها لم تأخذ طابعها كمنطقة صناعية متميزة الا في اعقاب الحرب الاخيرة ، حين شيدت فيها اكبر المؤسسات الصناعية بدمشق ، واختارتها شركات الغزل والنسيج لبناء مصانعها ، ولا سيما الشركة التجارية الصناعية المتحدة وشركة المغازل والمناسج ، وبعض المصانع الاخرى كعصر بذور القطن وصنع الصابون والسمن النباتي (مارغرين) ، وصنع المطاط والصفيح (القصدير) والجوارب والتريكو وغيرها .

وكان من نتيجة التوطن الصناعي في هذه المنطقة الزراعية ، ان حلت الصناعة هنا محل الزراعة كوظيفة للارض ، وهذا يعتبر ، في الواقع ، من المثالب التي تؤخذ على الزحف العمراني وتوطن الصناعة في مدينة دمشق ،خصوصاً وان الاراضي الزراعية القريبة من المدينة ذات قيمة اقتصادية وتموينية ، اذ انها تزرع في العادة بالخضر والفاكهة لتموين المدينة [١] .

---

(١) تميمة دوجي – المنطقة الصناعية في القابون – بحث غير منشور – دمشق ١٩٥٥ – ص ١٣ .

وقد ساعدت وفرة الاموال الناتجة عن ارباح الحرب العالمية الثانية على نمو هذه المنطقة الصناعية ، كما ان تنظيم مدينة دمشق واتخاذ قرار بابعاد المصانع من المدينة قد ادى الى انتقال المصانع من دمشق واليها .

ويرتبط ازدهار منطقة القابون الصناعية بعدة عوامل اهمها :

أولاً : موقع هذه المنطقة في نهاية السفوح الشرقية لمروحة برزة الفيضية ، في وسط سهل واسع لاتوجد فيه اية عقبة طبيعية تحول دون نموها وتوسعها في المستقبل .

ثانياً : رخص الارض الزراعية بالنسبة لاراضي المدينة ، مما يسمح باقامة المباني الواسعة ؛ فمصنع الشركة التجارية الصناعية المتحدة مثلاً يشغل وحده مساحة تزيد على ٧٦٠٠٠ م^{2} .

ثالثاً : يخترق طريق دمشق — حلب هذه المنطقة ، مما يسمح بتسهيل الاتصال بين دمشق والمنطقة الشمالية الشرقية من سوريا ، التي تنتج القطن الذي يمثل المادة الاساسية لصناعة النسيج في هذه المنطقة .

رابعاً : يسهل خط الترام وسيارات النقل المشترك (الباصات) ، التي تعمل بين دمشق وغوطتها ، على نقل العمال القادمين من دمشق وقراها .

خامساً : توفر المياه اللازمة لبعض الاعمال الصناعية بواسطة نهري يزيد وتورا والمياه الجوفية القريبة من سطح الارض ، التي يسهل الحصول عليها عن طريق الآبار ، وهذا فضلاً عن مياه الفيجة التي امتدت شبكتها في جميع ارجاء هذه المنطقة .

سادساً : ان كثرة اقنية الري من جهة ، ووجود غابة كثيفة من الاشجار المثمرة حول هذه المنطقة من جهة اخرى ، قد خلق مناخاً محلياً يتميز

برطوبة مرتفعة نسبياً ، تلائم الصناعات النسيجية التي تشكل القسم الاعظم من هذه المنشآت الصناعية .

خامساً ـ منطقة دمر :

وهي تقع في أقصى الجزء الجنوبي الغربي من منطقة دمشق ، على بعد سبعة كيلو مترات تقريباً من المدينة . وهي تضم عدة منشآت صناعية أهمها ، مصنع الشركة الوطنية لصناعة الاسمنت ومواد البناء ، ومصنع الزجاج[1] (شركة الصناعات الزجاجية والخزفية السورية) ومصنع البلاط (منيرالقباني) ، كما يمكن أن نضيف اليها مصنع الشركة العربية لصناعة الصابون والمنظفات الكيماوية (سار) الواقع بالقرب منها في منطقة الهامة .

الا أن أهم هذه المصانع واكثرها أثرا في حياة السكان هو مصنع الاسمنت ، الذي يقع في الشمال الغربي من ضاحية دمر ، ويعتبر من أقدم المؤسسات الصناعية الحديثة التي عرفتها مدينة دمشق . فقد انشيء في عام ١٩٣٠ ، وبدأ انتاجه بعد أربع سنوات من ذلك التاريخ ، معتمداً على تربة المارل المتوفرة في هذه المنطقة ولم يزد انتاجه في بادىء الأمر على ٢٨ الف طن ، ولكنه استطاع في سنة ١٩٣٧ وسنوات الحرب التي تلتها أن يتخطى الاستهلاك المحلي ويصدر الفائض .

ولكن المصنع الذي عمل خلال الحرب لسد حاجات الجيوش المحاربة ، أنهكت آلاته ولم تدخل عليه التحسينات الفنية الحديثة ، ولهذا عجز عن كفاية البلاد ، وخاصة بعد الحركة العمرانية الواسعة التي أعقبت الحرب ، ولذلك اقامت الشركة الى جانبه مصنعاً آخر وزادت افرانه ، فارتفع انتاجه حتى وصل الى مايقرب من ٣٠٠ الف طن في عام ١٩٦٣ .

---

(١) بدأ انتاجه عام ١٩٤٧ (مصنع نصف آلي) .

وعلى الرغم من النفع الكثير الذي حققه هذا المصنع الكبير لابناء منطقة دمر ، فانه ألحق بعض الضرر والأذى بأهلها وأرضها ، فغباره الكثيف الذي يصعد من افرانه يكسو الاشجار بطبقة من الغبار المحرق ، فيلهب اوراقها ويسقطها على الأرض قبل الأوان ، كما يغطي هذا الغبار الارض الزراعية بطبقة من الاسمنت ، يصل سمكها أحياناً الى عدة مليمترات مما يضعف محصولها ويقلل انتاجها ؛ فالكرمة التي كانت تغطي السفوح الجنوبية والشمالية للتلال الواقعة في شرقي المصنع قد انقرضت ، ولم يبق مكانها سوى شجيرات قليلة من التين .

اضف الى ذلك مايخلفه المصنع من أثر سيء على صحة السكان في هذه المنطقة ، حيث انتشرت بينهم الأمراض الرئوية بشكل خاص ، كما كان ذلك سببا في فرار المصطافين منها . وكان من نتيجة الشكاوى الكثيرة التي قدمها ابناء المنطقة اجبار الشركة على وضع مصافي خاصة لحجب الغبار عن البلدة ، وتعويض المزارعين عن اضرارهم التي لحقت بهم [٢] .

سادساً ـ منطقة طريق المليحة :

تشغل هذه المنطقة – كما يدل عليها أسمها ـ طرفي الطريق المتجهة الى المليحة ، وتضم ١١ مصنعاً يزيد عدد العمال في كل منها على ٣٠ عاملا ، وهي من احدث المناطق التي غزتها المصانع ، ولم تأخذ طابع المنطقة الصناعية الا في السنوات العشر الاخيرة .

وقد وقع اختيار اصحاب المصانع على هذه المنطقة لعدة اسباب ، اهمها القرب من المدينة ، اذ يقع معظمها ضمن الحدود الادارية لمدينة دمشق ، وعلى

(١) بدأ انتاجه عام ١٩٤٧ (مصنع نصف آلي)

(٢) عبد الهادي القصاص – منطقة دمر – بحث غير منشور (١٩٥٧-١٩٥٨) ، ص – ٢٤ .

مسافة يمكن قطعها في دقائق معدودة . ويبدو ان الرطوبة المرتفعة في هذه المنطقة « منطقة الزور » قد ساعد على وجود مناخ محلي مشابه لما شهدناه في منطقة القابون وبالتالي الى كثرة المصانع التي تعمل في صناعة الغزل والنسيج بشكل خاص ، واهمها شركة الصناعات الحديثة (١٦٤ عاملا) وشركة المغازل والمناسج (بغدادي وفرا سابقاً ، ١٦٠ عاملا) .

وتضم شركة الشرق للألبسة الداخلية (امبريال سابقاً) اكبر المصانع الموجودة في دمشق كلها . وهذا لايعني ان الصناعات النسيجية والملابس الداخلية تنفرد بالمنطقة كلها . وان كانت تستأثر بمعظمها – انما توجد مصانع اخرى للمواد الغذائية مثلاً ، تعتمد على ثمار الغوطة وتستفيد من رخص اسعارها ابان موسمها ، كما هي حال شركة صناعة الزيوت والصابون العربية على طريق جرمانا (١٢٣ عاملاً) .

وعلى طريق المليحة أيضاً ، مصنعان كبيران للمطاط ، أحدهما للشركة الأهلية للمنتجات المطاطية (١٠٦ عمال) والآخر لشاكر أسعد العاص (٦٩ عاملا) . هذا بالاضافة الى مصانع الخشب المضغوط والكبريت والبلاط ، التي يشتغل فيها اكثر من ٣٠٠ عامل .

سابعاً – منطقة المدينة :

وهي تشمل جميع الصناعات الموجودة ضمن الحدود العمرانية لمدينة دمشق ، باستثناء منطقة زقاق الجن ، التي تختص بالصناعات الميكانيكية . وتتميز هذه المنطقة عن سائر المناطق الصناعية بأنها لاتقع في اطراف المدينة ولكنها في في قلب المدينة نفسها .

وتجدر الاشارة الى ان معظم هذه الصناعات الموجودة داخل المدينة ، هي صناعات بسيطة ، يمكن ان نسميها « صناعات الخدمات » او « صناعات

المدن ، يحتاج اليها سكان المدينة للقيام بوظائفهم واشباع استهلاكهم اليومي . ومعظم هذه الصناعات تحتاج الى عنصر العمل بدرجة اقوى من حاجتهــا الى الخامات والوقود ، ولذلك يتحدد موقعها محلياً .

يتبين مما تقدم ، ان منطقة المدينة لاتتخصص في صناعة بعينها ، وانما تتعدد فيها الصناعات ، واهمها على الاطلاق ، صناعة التبغ الذي كانت تحتكر صناعته شركة اجنبية منذ سنة ١٩٣٢ ، ثم انتقلت الى الدولة السورية عقب تأميم صناعة التبغ ، ويعمل في هذه الصناعة حوالي ٧٠٠٠ عامل .

ومن أهم صناعة الخدمات التي نجدها في مدينة دمشق ، هي ما تقوم به مديرية كهرباء المنطقة الجنوبية (١٢٥١ عاملاً) والمديرية العامة للخط الحديدي الحجازي في القنوات (٨٢٦ عاملاً) وشركة النصر للتلفزيون في ساحة النجمة (١١٨ عاملا) . هذا بالاضافة الى عشرات المصانع الصغيرة التي تختص بالخدمات الصناعية المختلفة .

ولا يفوتنا اخيراً ، ان نشير الى الصناعات الغذائية ، التي نالت بهادمشق شهرة واسعة ، وغزت اسواقاً كثيرة ؛ وفي مقدمتها صناعة المحفوظات التي تعتبر عن الصناعات الدمشقية الهامة ، ولها في دمشق مصنعان ، أحدهمـــا في منطقة القابون (٤٥ عاملاً) ، والآخر في داخل المدينة في شارع بغـداد (١٠٠ عامل تقريباً) ، وهما يعرفان باسم الشركة الحديثة للكونسروة والصناعات الزراعية .

* * *

الحدائق والمتنزهات :

تشكل الحديقة جزءاً أساسياً من المظهر العام للمدينة في دمشق الحديثة . وهي تشغل مساحة تبلغ نحو ٦٣٤٠٠٠م٢ [١] ، أي ما يعادل ٠,٦ ٪ من مساحة

(١) عن مصلحة الحدائق .

المدينة ضمن حدودها الادارية ، بينما ترتفع هذه النسبة الى ٥،٢٪ من مساحة المدينة ضمن حدودها العمرانية .

ويتضح من مجموع مساحة الحدائق في دمشق ما تعانيه المدينة من نقص كبير في الحدائق والمتنزهات ، التي تضفي الجمال والمتعة على المدينة ، وتساعدعلى تهوية المدينة وتلطف من اثر الحرارة الشديدة في فصل الصيف ، وتحمي الاحياء السكنية من الرياح المحملة بالاتربة والرمال .

ولعل ابرز ما يلاحظ فى خريطة استعمال الاراضي في مدينة دمشق ، هو سوء توزيع هذه الحدائق. ففي المدينة القديمة تنعدم الحدائق والمتنزهات،على الرغم من ازدحامها بالمباني وضيق طرقاتها وانعدام الساحات العامة فيها،حتى ان الاماكن المكشوفة فيها لا تشاهد إلا داخل المساكن ، وهذه صفة من الصفات المميزة لمدينة دمشق القديمة ؛ فالسكان في الاحياء القديمة يستمتعون باللقاء خارج مساكنهم بالتجول في الشوارع الواسعة المشجرة ، حتى ان الشوارع الرئيسية في دمشق تكاد تغص بالمارة في ايام العطلات .

ويبدو انه لم يعد في هذا الجزء من المدينة سوى مكان واحد لانشاء حديقة كبيرة داخل الاسوار ، وهو مكان القلعة ، ذلك البناء الحربي الفريد في طرازه العربي ، وذلك بنقل السجن الى خارج المدينة ، وتحويل ساحته الداخلية الى حديقة عامة ؛ وأما المباني الحالية فيمكن اعدادها لتكون متحفاً حربياً ومكتبة وغير ذلك ، وهناك امثلة كثيرة لحصون العصور الوسطى التي تم تحويلها الى حدائق عامة لوجودها داخل المدن .

أما الجزر الخضراء التي تظهر في بعض الاحياء القديمة ، فلا تتعدى مساحة الواحدة منها بضع مئات من الامتار المربعة ، ومعظم هذه الحدائق يقوم فوق

الملاجىء التي انشئت اثناء نكبة فلسطين ، ثم حديقة ملجأ الجورة وحديقة ملجأ الشرعية وحديقة ملجأ الكلاسة وغيرها .

وفي خارج المدينة المسوّرة، تتكرر الصورة نفسها في الاحياء القديمة الأخرى ، كحي الميدان والاكراد وسوق ساروجة والقنوات ، فلا نشهد فيها سوى الملاجىء الصغيرة التي تستغل سطوحها كحدائق ومتنزهات . ويمكن تفسير ذلك ، بانعدام الخطة التنظيمية في الماضي ، وفقدان الأمن الذي يدعو ابناء المدينة الى التكتل والتكاثف ، هذا بالاضافة الى توفر الحدائق في معظم البيوت العربية .

وتختلف هذه الصورة كثيراً في المناطق السكنية الحديثة ، حيث يرتفع فيها عدد الحدائق وتزداد مساحاتها ، كما هي الحال في منطقة القصور وابي رمانة والمزرعة ، حيث نشهد فيها اكبر حدائق المدينة واجملها ، وهي على الترتيب : حديقة الكزبري (٣٥٠٠٠ م٢) وحديقة غربي ابي رمانة (٣٠٠٠٠ م٢) وحديقة المزرعة (٢٦٠٠٠ م٢) .

وتسهم الاحراج بدور هام بين متنزهات المدينة ، إذ يوجد منها ١٢ حرجاً ،تتوزع في مختلف انحاء المدينة ، واهمها احراج خورشيد ومنحدرات ناظم باشا وجنوبي نهر يزيد ، والتي تبلغ مساحتها جميعاً ٦٤٠٠٠ م٢ . هذا بالاضافة الى احراج هضاب المزة في مدينة دمشق الجديدة ، التي غرست فيها امانة العاصمة ١١٢٠٠٠ غرسة حراجية متنوعة .

واذا كان التنظيم الحديث للمدن يقضي بأن لاتقل مساحة الحدائق والمتنزهات عن عشر مساحة المدينة، وان لايقل نصيب الفرد منها عن اربعة أمتار مربعة ، فان مدينة دمشق تجد في غوطتها الواسعة ما يعوض لها النقص في حدائقها ومتنزهاتها ، ولن يحتاج المرء الى اكثر من دقائق معدودات حتى يلتقي ببساتين الغوطة ومتنزهاتها ، حيث يستمتع بمناظرها الخلابة وشلالاتها الهادرة واشجارها

الباسقة ، تظلل آلاف المتنزهين الذين اعتادوا ارتياد هذه البقاع الجميلة أيام العطلات .

واذا كانت الحديقة تمثل رئة المدينة التي تتنفس بها ، فان الملاعب الرياضية تمثل العمود الفقري للصحة العامة ، ولا بد أن يحسب حسابها اثناء دراسة تخطيط المدينة ، وتحتل اماكن خاصة تتناسب مساحتها مع عدد السكان ؛ وتكون عادة مكسوة بالحشائش ، وعلى ارض مسطحة منفذة للمياه .

وتقدر مساحة الملاعب بأن يخصص ٦ م٢ للشخص الواحد ، ويدخل في هذا التقدير ملاعب الرياضة وحدائق الاطفال والمسابح ؛ وفي ضوء هذا التقدير نستطيع ان نتبين مدى النقص الكبير في مساحة الملاعب بمدينة دمشق ، حيث لا يوجد فيها من الملاعب الكبرى سوى ثلاثة ، لا تزيد مساحتها معاً على ٢٩٦٠٠٠م٢ ، وهذه الملاعب هي ملعب العباسيين في اقصى الشرق والملعب البلدي في الغرب وملعب المزرعة في الشمال ؛ هذا بالاضافة الى ملعب البرامكة الجديد ، الذي يجري تنظيمه في مطلع العام الحالي ، ويشغل مساحة تبلغ ٩١٠٠٠ م٢ ، غربي مدينة دمشق (١) .

ويوجد في مدينة دمشق عدة مسابح ، اقدمها مسبح المزة الواقع الى الجنوب الشرقي من منطقة المطار العسكري في المزة ، بينما يعتبر المسبح البلدي في الربوة اكبرها مساحة وافضلها تجهيزاً ، يليه في الاهمية مسبح الاندلس ، الواقع على يسار الطريق الذاهب الى داريا عند نهاية حدود اراضي المزة ؛ اما مسبح الربوة فيقع على الطرف الشمالي لحافة المزة ، يشرف على خانق الربوة ويستمد مياهه من قناة المزة ، لذا تكون مياهه اقل صفاء من بقية المسابح .

ويدل توزيع هذه المسابح على تركزها في القسم الغربي من المدينة

---

(١) مكتب الدراسات الفنية في امانة العاصمة .

للاستفادة من مياه الاقنية المتفرعة من نهر بردى قبل دخولها الى المدينة وتلوثها ، هذا بالاضافة الى قربها من الملاعب الرياضية الواقعة بالقرب من مدخل المدينة .

ولئن توفر في مدينة دمشق عدد غير قليل من المسابح ، فانها جميعاً مسابح مكشوفة تمارس نشاطها اثناء الصيف ، مما يحول دون مزاولة هذه الرياضة المفيدة خلال فصول السنة الاخرى ، وذلك لعدم توفر مسابح مسقوفة دافئة .

المقابر :

جرت العادة ، في بادىء الأمر ، ان تكون المقابر خارج اسوار المدينة ، فكان امام كل باب من ابواب المدينة مقبرة [1] ، ويمكن تتبع هذه المقابر القديمة على النحو الآتي :

مقابر الجهة الجنوبية : وهي تشتمل على مقبرتين : مقبرة باب الصغير ، ومقابر باب كيسان . وقد سميت الاولى باسم الباب الصغير لانها تقابله ، وتعتبر اشهر مقابر دمشق واكبرها ، اذ تبلغ مساحتها اكثر من ٤٢٠٠٠ م^2 او مايعادل عشر مساحة مقابر دمشق كلها ، وقد دفن فيها عدد غير قليل من العلماء والائمة .

اما مقابر باب كيسان ، فقد كانت تقابل باب كيسان ، الذي اصبح الان داخل كنيسة القديس بولس . وقد دثرت هذه المقبرة منـــذ عهد قريب ، واصبحت في جنوب هذا الباب مقابر النصارى على اختلاف مذاهبهم ، وهذا بالاضافة الى مقابر اليهود القديمة العهد .

مقابر الجهة الشرقية : وهي تشتمل على مقبرتين ايضا ، مقبرة باب توما

---

(١) الدكتور صلاح الدين المنجد – خطط دمشق – بيروت ١٩٤٩ – ص ١١٦ – ١١٨ .

ومقابر الباب الشرقي ، وتقع المقبرة الأولى في شرقي الباب ، وما تزال موجودة حتى الوقت الحاضر ، وكانت اول مقبرة المسلمين في دمشق ، وفي هذه المقبرة مسجد خالد بن الوليد ومسجد الشيخ ارسلان الدمشقي .

اما مقابر الباب الشرقي ، فقـــد اندثرت جميعها ، ولم يبق منها ما يدل عليها سوى تربة أُبَيّ بن كعب ، وبعض الشواهد المبعثرة فيما وراءها . وقد قام مقامها اليوم دور ورحبة لاصلاح سيارات الجيش وصنع بعض الأسلحة .

مقابر الجهة الشمالية : وهي تضم مقبرة باب الفراديس ، اكبر مقابر الجهة الشمالية واشهرها ، تقع في مرج أبي الدحداح وما تزال حتى ايامنا هذه ، وتسمى مقبرة الدحداح ، وتفصل بينها وبين باب الفراديس العقبية . ويبدو أن باب الفرج لم يكن له مقبرة تسمى باسمه ، وانما كانوا يخرجون منه الجنائز التي كان يدفن اصحابها في الصالحية وسفح قاسيون .

مقابر الجهة الغربية : كانت تشتمل على مقابر الصوفية في المُنَيْبِع ، وتقابل باب النصر ، وقـــد دثرت هذه المقبرة ، وقامت مقامها جامعة دمشق والمستشفى الوطني وبعض الابنية العسكرية ، ولم يبق من هذه المقبرة سوى بعض قبور الصالحين ، كقبر ابن تيمية في المستشفى الوطني .

وبالاضافة الى هذه المقابر الواقعة خارج اسوار المدينة القديمة ، تتوزع بقية مقابر المدينة في منطقتين رئيسيتين ، احداهما تقع في حي الميدان والثانية في سفوح قاسيون في احياء الشركسية وابي جرش والاكراد .

وتقع اكبر مقابر حي الميدان في اقصى طرفه الجنوبي ، عند بوابة الله اذ تبلغ مساحة المقابر هناك نحو ٣٠٠٠٠ م٢ . اما في سفوح قاسيون فيوجد عدد كبير من المقابر الواسعة تقع عند النهايات العليا للاحياء الممتدة على سفوح قاسيون ، من اكبرها مقبرة الشيخ ابراهيم في ابي جرش ومقبرة الجوعية في حي الاكراد .

الأراضي الزراعية :

تبلغ مساحة الاراضي الزراعية في مدينة دمشق حوالي ٥٣٣٠٠٠ م٢ وهي تعادل ٥٢،٧٪ من مجموع مساحة المدينة ضمن حدودها الادارية ، وهذه الاراضي الزراعية تطوق دمشق من معظم اطرافها ، وتمثل الضواحي الشرقية والغربية معاً .

وتشكل هذه الاراضي الزراعية جزءاً من غوطة دمشق الواسعة ، ويمكن ان نميز فيها بين منطقتين رئيسيتين يفصل بينهما نهر بردى ، احـــداهما في الشمال وتدعى بأرض الصالحية ، والاخرى في الجنوب ، وتشتمل على اراضي القدم وكفر سوسة والمزة .

تمتد ارض الصالحية من الربوة غربا الى مشارف القابون وجوبر شرقاً ، وتحدها الاحياء المتـــدة الى الشمال من نهر يزيد شمالاً ومجرى بردى جنوباً ، مشكلة المنطقة الخضراء في شمالي مدينة دمشق . وهي تضيق في جهات الربوة الى بضع مئات من الامتار وتتسع في الشرق الى ثلاثة كيلومترات تقريباً . بينما تختفي هذه البساتين تماماً في الاقسام الوسطى من ارض الصالحية بعد ان زحفت عليها الاحياء السكنية الحديثة ، ويقدر طولها بين الربوة والقصاع بخمسة كيلو مترات . وتروى ارض الصالحية الواسعة من قناتي يزيد وتورا المتفرعتين من نهر بردى فتضفيان عليها الخصب والجمال .

ان طريق الصالحية – شيخ محي الدين ، الذي يصل بين دمشق القديمة واحيائها الواقعة على سفح قاسيون ، يقسم ارض الصالحية الى قسمين[1] .

---

(١) عبد الهادي السعيد – ص أ .

قسم غربي : يدعى منطقة الشركسية ، نسبة الى حي الشركسية في الصالحية ، ويشتمل هذا القسم على الاقسام الريفية التالية :

١ - بساتين الربوة .

٢ - بساتين النيربين : النيرب الاعلى ، ويمتد بين يزيد وتورا ، والنيرب الاسفل، ويمتد بين تورا والشرف الشمالي .

٣ - الشرف الشمالي او الاعلى ، وينطبق اليوم على المصطبة التي تشرف على بردى من الشمال ؛ وهو ما يطلق عليه اليوم اسم زقاق الصخر .

واخيراً السهل الفيضي لنهر بردى ،وهو يمتد بين هذه المنطقة وبين النهر نفسه .

قسم شرقي : يدعى بساتين ابي جرش ، نسبة الى حي ابي جرش في الصالحية ايضا ، ويضم هذا القسم بساتين وجنائن السهمين ، السهم الاعلى والسهم الادنى ، ويقعان بين يزيد وتورا ، شمال شرق الجسر الابيض ، وبساتين جرن الشاويش والنحاس والنيطور ، حتى نصل الى حدود قرية القابون ؛ كما تضم بساتين عين الكرش ومقري وحور تعلا حتى نصل الى قرية جوبر عند جسر تورا في الشرق ؛ وتشتمل هذه المنطقة ايضا على بساتين مسجد الاقصاب .

اما الاراضي الزراعية الواقعة الى الجنوب من نهر بردى فيشطرها حي الميدان الى شطرين ، احدهما في الغرب ، وهو اوسعهما مساحة واكثرهما اهمية ويشتمل على بساتين القدم وكفرسوسة والمزة ،ويرتوي من مياه المزاوي والداراني والقنوات . والاخر الى الشرق من حي الميدان ، وهو يشتمل على بساتين الشاغور والميدان ، ويرتوي بمياه المجاري التي تحمل فضلات المدينة واقذارها .

وتمثل هذه الاراضي الزراعية في شمال بردى وجنوبه جزءا من الظهير الزراعي القريب من المدينة ، وهي تختص بزراعة الخضر والفواكه والزهور وانتاج الالبان ، وتقدم جزءا هاما من الخضر التي تستهلكها مدينة دمشق . وقد

كان ابناء دمشق حتى عهد قريب ، يفضلون خضر المنطقة الشمالية على الجنوبية ، كما يرجحون محاصيل هاتين المنطقتين على مثيلاتها في بقية انحاء الغوطة ، ويعللون ذلك بأن انهار يزيد وتورا والقنوات والداراني والمزاوي لم تمر على اية قرية بعد ، ولذلك لا تزال مياهها نظيفة ، بينما نجد ان منطقة الزور ، والضواحي الواقعة الى الجنوب من مدينة دمشق تتلقى مياهاً تختلط باوساخ المدينة وفضلاتها .

وفي هذه الاراضي الزراعية القريبة من المدينة ، تتضاءل مساحة الارض التي يعمل فيها البستاني ، فيلجأ الى اختيار انواع معينة من الزراعات ، ولا يربي من الحيوانات الا الضروري منها ؛ فتزول زراعة الحبوب والمحاصيل العلفية وكثير من انواع الخضر ، ويكاد يقتصر عمل البستاني في هذه الحيازات الصغيرة على زراعة « الجرزة » اي تلك الخضر التي تحزم على شكل جرز كالفجل والكزبرة والسبانخ والبقدونس والسلق شتاء ، والملوخية والبصل والبقلة صيفا ، مع قليل من البندورة (الطماطم) ، وربما استغنى عن زراعة الكوسا والباذنجان .

والذي يستدعيه الى زراعة الجرزة هو سرعة نضوجها مع تعدد مواسمها ، كما تصبح زراعة الاشجار المثمرة في المساحات الصغيرة ثانوية تقريبا ، ومع ذلك يزرع بعض انواعها وخاصـــة الخوخ (البرقوق) والدراق . ويحاول البستاني جهده الى ان تكون الارض خالية من الاشجار ، فالاشجار هنا لاتحتل سوى الاطراف وضفاف السواقي (الجداول) .

اما تربية الحيوانات فتقل في هذه الاراضي الصغيرة ، وغالبا ما يكتفي المزارع بتربية دابة واحدة يستعملها في حراثة ارضه ونقل محاصيله الى السوق ، ويعتمد عليها في بيع الخضر في احياء المدينة المختلفة .

هذا في الحيازات الصغيرة ، أي التي تقل مساحة الواحدة منها عن فدان واحد ، أما الحدائق التي تنتشر في أرض الصالحية خاصة ، وتمتد غربي شارع الجلاء

حتى الربوة ، فهي تعنى بزراعة الأزهار والورود والاشتال وأغراس الأشجار المثمرة والحراجية . وقد ذكر عبد الله البدري[1] . «ان حكماء اليونان ازدرعوا هذه الرياض والأزهار في سفح (جبل قاسيون) لحكمة ، وهو انه يقيها البرد كونها في داره، وان النسيم اذا مر بها يحمل منها (من طيب الريح) مااستطاعه ويسري به الى من تحتها من أهل المدينة والسكان » .

* * *

(١) ابو البقاء الدمشقي - نزهة الانام في محاسن الشام - القاهرة ١٣٤١ - ص١٠٢ .

الفصل الثاني

طبوغرافية المدينة

لعل ابرز ما يلفت النظر في طبوغرافية مدينة دمشق ، هو ذلك التباين الشديد بين مخطط الاقسام القديمة من المدينة والاقسام الحديثة منها . وقد يكون من الممتع حقاً رفع الاجزاء القديمة من مخطط دمشق الحديث لدراسة المدينة القديمة ، سواء كانت قابعة داخل الاسوار أو في ظاهرها ، ونتبين من ذلك صورة الماضي باشراقاته وظلماته ، حتى نصل الى عصرنا الحاضر ، ونشهد نمو الاحياء السكنية الحديثة بجوار الاحياء القديمة ، وظهور الطرز المعمارية الحديثة ، ببنائها العالية وشوارعها العريضة وميادينها الواسعة .

العوامل التي اثرت في طبوغرافية المدينة القديمة :

من يطف في مدينة دمشق القديمة ، داخل الاسوار أو خارجها ، يشهد صورة متماثلة من المتاهات التي ترسمها الحارات والأزقة ، لايمكن ان تنتظمها أية خطة جماعية . ومع أن كل حي من أحياء المدينة يتسم بمظهر وطابع يميزه عن الأحياء الأخرى ، ويسهم بنصيبه من الحياة العامة في المدينة ، إلا انه لايمكن التعرف على أية بقعة من المدينة إذا اكتفى الباحث بمظهرها وشبكة طرقها ؛

فارزقة مسجد الاقصاب مثلاً يمكن أن تأخذ مكان مثيلاتها في حي السويقة دون ان يتغير مظهر هذه الاحياء [1] .

ويبدو ان الاسباب التي حددت موضع مدينة دمشق ، وعوامل نموها ، لاتستطيع ان تفسر طبوغرافيتها الداخلية ، فالاهتمام بالامن ورغبة المالك في زيادة مساحة بيته ، هما وحدهما يفسران مخطط الطرق والحارات والازقة ، وحتى مخططات المساكن نفسها ، فالشعور بالخوف يجعل صاحبه يبحث عن الأمن في التجمع ، كما ان الاطماع الشخصية تدفع باصحابها الى اختيار المكان وشكل المسكن ، وهاتان الفكرتان هما المسيطرتان على تخطيط الحي القديم في مدينة دمشق .

يتجلى البحث عن الأمن أولاً بانعدام النوافذ في الطابق الأرضي ؛ كما هو واضح في الجادات الرئيسية بشكل خاص ، وقد تشاهد في الأزقة نوافذ مشبّكة بالحديد ، تطل على الطريق في بعض الأحيان ، ولكنها تختفي تماماً على طول طرق المواصلات التي تصبح حركة المرور فيها شديدة ، واذا وجدت بعض هذه النوافذ بجانب الابواب فهي حديثة بلا ريب .

ويستجيب مخطط الطرق ايضاً الى الحاجة للحماية ، ولكن المدينةالعربية تختلف عن المدينة الرومانية في هذا الصدد ، ففي هذه يسود النظام ، وفي تلك يخشى السكان فقدان الأمن وتعكير السلم ، والسبب الأقوى هو الخوف من النهب أو السلب أو القتال . فالمنعطفات والمنعرجات في الحارات والدخلات ، تساعد على توفير الحماية ، ويندر أن تجد أربعة مساكن على استقامة واحدة ، وقلما تجد واجهتين متقابلتين في زقاق واحد ، توازي احداهما الأخرى لمسافة ستين متراً . فالمنعطف المزدوج في زقاق الورد ، عند منتصف المسافة بين شارع

---

(١) يستثنى من ذلك حي باب توما المسيحي ، الذي مازال محتفظاً بخططه الروماني الى حد ما .

كرجية حداد وسوق ساروجة مثال واضح على هذه الظاهرة ، وهو يمثل الصورة التي نشهدها في ازقة حي الشاغور ذات الخطة السُلمية .

ولاشك في ان كثيراً من هذه التفاصيل ، تظهر في تعديات الملاكين على حدود الطرقات المجاورة ، حيث نشهد تداخلا مقصوداً في الوقت الحاضر ، يدل على انه يرمي الى توفير الحماية بشكل واضح . ويعتبر تخطيط الطريق الواصل بين حي المغاربة الى باب المصلى مثالاً نموذجياً ، اذ يبدو الطريق مستقيماً تماماً ، ولكنه لا يلبث ان ينسد او يكاد بأحد البيوت البارزة الى عرض الطريق ، بما يضطر الى الالتفاف حوله ، لمتابعة السير في طريق يحير الانسان بمنعطفاته الشديدة وبمراته الضيقة، والتي تقل احياناً عن المتر الواحد . ومثل هذا ، يمكن ان نجده في الحي المسيحي من المدينة القديمة ، وخاصة في حارة الجوّانية [١] ، وهذه الحارة كانت تعتبر لدى السكان اكثر امكانية على الدفاع ، وبالتالي فهي اكثر أمناً .

ان مدينة دمشق التي قلما كان النظام فيها سائداً ، خلال قرون عديدة ، والتي كان سكانها يعيشون مع ذكريات الحوادث الدامية في نهاية القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ، من الطبيعي جداً أن يُنصح صاحب المال فيها ان يضع نفسه وثروته في مكان آمن ، وذلك في اكثر طرقات الحي ضيقاً وتعرجاً .

ويبدو ان مداخل المساكن تتمم هذه الوسائل من أجل الحماية ، فما كن العائلات الميسورة تضم في داخلها باحات مكشوفة واسعة ، نشهد فيها اشجار الحمضيات والرخام والنوافير التي تذكرنا بقصور الف ليلة وليلة ؛ إلا أنه ليس لها أي اتصال مباشر مع الطريق ، فالاتصال يتم عن طريق ممر ضيق وباحة صغيرة ودهليز متعرج وردهة ذات عقد، تؤدي كلها الى الفسحة الداخلية ، وغالباً ما يعترض

---

(١) هناك مثل سائر يقول : حط المية فوق المية واشترى بيت بالجوانية .

الداخل بابان يساعدان على ايقافه ، اذا كان يريد الدخول دون ارادة اهل البيت .

وغالباً ما تعيش العائلات المتجاورة على شكل مجموعات تضمها دخلة واحدة ، يتراوح طولها بين ٥ – ١٥ متراً ، وينفتح عليها بابان او ثلاثة او اربعة أبواب من المنازل ، وتشكل ما يشبه الدهاليز الشائعة في بعض المنازل . أما مداخل هذه الدخلات فكانت مزودة بأبواب تغلق بانتظام بين الساعة التاسعة والحادية عشرة مساء ، وكانت هذه الابواب كثيرة ، بدأت تزول تدريجياً منذ أواخر القرن التاسع عشر ، الا انه اعيد الكثير منها أثناء الثورة السورية بين ١٩٢٥ – ١٩٢٧ ، وما زال بعضها ماثلا حتى الوقت الحاضر ، مثل باب زقاق البرغل في الشاغور .

ولو رُفعت هذه الدخلات المغلقة من خارطة دمشق القديمة ، لاتخذت طبوغرافية المدينة الكبيرة المتشابكة طابعاً مختلفاً كل الاختلاف ، ولاصبحت اكثر وضوحاً وبساطة ، ولاقتصرت على بعض الطرق التي تؤمن المواصلات العامة ، كما توصل الى أبواب المدينة المسوّرة . وعلى هذه الطرق تنفتح الحارات التي تتحدد أهميتها بحسب عدد البيوت التي تنتظم على جانبيها ، وقد تشكل احياء صغيرة تستقل باسواقها وجامعها ، وتنعزل عن المدينة ، ولا تشترك معها إلا بواسطة أبوابها .

وتتجلى رغبة المالك في زيادة مساحة منزله ، مرة اخرى ، بالتعدي على الطرقات العامة ، حيث كان هذا الامر سهلا ميسورا ، فضاق الطريق شيئاً فشيئاً ، حتى وصل عرضه الى النصف ، واستمر هذا التجاوز حتى اختفى القوس الذي كان قائماً فوق الطريق ، في الأصل ، داخل البيت !... واذا تعذراقتطاع مساحة كافية من الارض الى الطابق الأرضي ، فليس من الصعب تجاوز حدود الطابق الأول ، وذلك بحمله فوق الجسور ؛ وقد يشكل هذا الطابق جسراً يمتد

من أحد جانبي الطريق الى جانبه الآخر ، يعتمد على عقود حجرية محكمة وأعمدة خشبية قوية ، ترتكز على أقواس حجرية متقنة ، تظهر اهتماماً كبيرا باقامة هذا البنيان الذي يتخطى الطريق؛ وهذا فضلا عن الجسور العديدة التي تغطي الطريق، وتحمل القسم البارز من البيت .

هذه المساكن تذكرنا بما نشهده في قرية التل الواقعة في وادي منين ، حيث تتكدس مساكنها بعضها فوق الآخر ، خوفاً من نقص الاراضي القابلة الزراعة . ولكن السبب يختلف عنه في دمشق ، فضيق المساحة في دمشق القديمة المسورة ، يدفع الى البناء على هذه الصورة ، ويمكن أن نشهد هذا النمط من البناء ايضاً في الأحياء الواقعة خارج الأسوار ، كما هي الحال في قبر عاتكة والعقيبة ، مع ان الامتداد قليلا نحو البساتين لا يمكن أن يسبب اضراراً جسيمة لأراضي الغوطة الرحبة الواسعة ، وفوق ذلك كله ، فان ضيق المساحة لا يستدعي ابداً انشاء المسكن فوق الطريق ، مع انه يمتلك باحة واسعة في منزله ، في أكثر الأحيان .

ويرى بعض الباحثين، ان حالة المناخ تتطلب هذا النمط من البناء ، فالمناخ يتصف بصيف شديد الحرارة ، وشمس تمر بالقرب من السّمْت ، فتدخل الى اضيق الطرقات، وهنا تساعد الطوابق البارزة القائمة على العقود والقباب على نشر الظلال .

ولكن يبدو انه ينبغي البحث عن اسباب اقل غيرية وايثاراً ، انها بلا شك ، الرغبة في الحصول على المنفعة ، ليزيد المالك مساحة بيته دون أن يدفع ثمن الارض . ويتم هذا التجاوز باستخدام النفوذ والجاه ، اذ يذكر المسنّون من ابناء دمشق ، ان الذين كانوا يعملون في خدمة الوالي او رجال الادارة او الموظفين في دوائر الدولة ، كانوا أكثر الناس جرأة في التعدي على املاك الدولة، بسبب مناصبهم التي توفر لهم الحماية الكافية من جميع الاعتراضات .

طبوغرافية المدينة القديمة :

يقوم القسم القديم من مدينة دمشق حول جامع أمية الكبير وقلعة صلاح الدين ، داخل السور وظاهره . وقد حافظت أحياؤه السكنية على مظهرها القديم وعلى ما كانت عليه منذ مئات السنين ، واكتسبت هذه الأحياء القديمة من دمشق، أهمية لا مثيل لها من الناحيتين التاريخية والأثرية .

ومن دراسة مصور المدينة القديمة، يتبين وجود مخطط مدينتين متداخلتين ، دمشق الرومانية ودمشق العربية ، بحيث أن مخطط المدينة البيزنطية قد عاش ضمن المدينة الاسلامية . فالطريق المستقيم الذي ورد ذكره في اعمال الرسل [1] (من اسفار العهد الجديد) ، ظل الشريان الرئيسي ، كما ان الطرق التي كانت تتعامد عليه من جهة الشمال مازالت حتى اليوم، فتظهر المدينة على شكل مستطيلات متلاصقة ومنتظمة الى حد كبير . وبالاضافة الى ذلك ، فهناك حارات وأزقة تصل ما بين زوايا المستطيلات السكنية في المدينة الرومانية ، تنفتح عليها دخلات ضيقة تنقسم الى شعبتين او ثلاثة لخدمة المساكن الداخلية [2] .

ويخترق هذه المنطقة من الغرب الى الشرق، شارعان متوازيان، يعطيان هذه الشبكة من الطرق طابعها :

الاول : وهو الطريق المستقيم ، الذي يصل بين الباب الشرقي وباب الجابية (الباب الغربي) ، ويطلق على الجزء الغربي منه اسم سوق مدحت باشا، حيث تكثر متاجر النسيج الوطني، والعباءات والكوفيات والعقل . وفي خارج السور ينحرف الطريق نحو الجنوب الغربي ، متابعاً سيره في طريق باب مريجة .

---

(١) Acte des Apotres, IX, ll .

(٢) Thoumin, (1936) , op . cit . , p . 250 .

ويلاحظ ان الطريق المستقيم في داخل السور ، يتبع عرف التل الذي نشأت عليه مدينة دمشق .

الثاني : يدعى على التوالي ، جادة سوق ساروجه - طريق الطاحون ، وهو يلتقي مع طريق بين الحواصل القادم من ساحة الشهداء (المرجة) عند منتصف المسافة بين جامع الجوزة وجامع السادات ؛ وهذا الطريق كان يعرف ، فيما مضى ، باسم « سلطاني عبيد » ، وهو يمتد الى الشمال من المدينة المسورة ، ويخدم الأحياء الواقعة الى شمالها ، وذلك منذ أن ضاقت المدينة القديمة بسكانها وانطلقوا خارج أسوارها . ويساير هذا الطريق اشكال سطح الارض تماماً ، فهو يقوم فوق المصطبة النهرية ، ويمتد فوق المنحدر الذي يحد السهل الفيضي لنهر بردى من جهة الشمال .

وقد استطاع طريق بين الحواصل ، فيما بعد ، ان يجتذب اليـــه حركة المرور التي استأثرت بها جادة سوق ساروجه طيلة العهود السابقة ، واصبحت صلة الوصل الرئيسية بين ساحة الشهداء ومنطقتي باب توما والقصاع ، وأخذت اسم شارع الملك فيصل . ويمكن أن ترجع عملية الأسر ، في حركة المرور هذه ، الى عدة اسباب ، أهمها مرور خط الترام من دمشق الى القصاع عبر طريق بين الحواصل ، وكثرة المحلات التجارية على طرفي هذا الطريق ، ففيه نشاهد محلات العلافـــين والحدادين وبائعي البقول والاثمار والاخشاب ، بالاضافة الى سوق الخضروات الكبير (سوق الهال) .

وعلى هذين الطريقين الرئيسيين ، تتعامد جميع الطرق المتجهة من الشمال الى الجنوب . ففي المدينة القديمة كانت أغلب الطرق تبتدىء بابواب ذات متاريس ، وتؤدي اما الى الطريق المستقيم ، واما الى الأسواق الكبيرة ، وفي الأحياء الشمالية تهبط الطرق نحو سوق ساروجة ، ومنهـــا الى الطرق التي تتممها نحو الجنوب ، وتوصلها الى ابواب المدينة القديمة .

وبين هذين الطريقين الرئيسيين يقوم شارع ثالث صغير ، هو سوق الحميدية الشهير ، الواقع في جنوب القلعة ، ينفذ منه الى جامع بني أمية ، ويعتبر من أهم أسواق المدينة بحركته التجارية ، وبين هـذا السوق وسوق مدحت باشا محلة سيدي عامود التي قضى عليها حريق عام ١٩٢٥ ، فأعيد بناؤها على شكل قطع الشطرنج ، وظهرت خطتها وبناؤها في صورة غريبة تماماً عن الوسط الذي تعيش فيه ، ولاتزال تعرف باسم الحريقة حتى الوقت الحاضر .

ويوجد في الشمال ، على واجهة يبلغ طولها نحو ١٦٠٠ متر ، في خط مستقيم ، خمسة طرق تمتـد خارج كتلة المدينة ، كان لها دور هام في حياة المدينة . فحارة الورد كانت فيما مضى ، توصل الى حي الأكراد عن طريق عين الكرش ، وعلى بعد ٦٠٠ متر الى الشرق من حارة الورد يمتد طريقا العقيبة والدحداح ، يبعد أحدهما عن الآخر ١٥٠ متراً ، وبينهما تمتد مقبرة الدحداح الكبيرة ، ووراء ذلك ترتفع القبة المعروفة باسم موسى بن جعفر ؛ وطريق القزازين غير بعيد عن طريق الدحداح فهو يوازيه ويلازمه ؛ وعلى بعد ٣٠٠ متر ايضاً تمر جادة عاصم التي كانت ، فيما مضى ، مطروقة جداً للتوجـه الى قريتي القابون وبرزة ، قبل إنشاء طريق القصاع - دوما الكبير .

وتستمر هذه الطرقات الخمس حتى أبواب المدينة نفسها ، فتوصل جادة عاصم الى باب السلام ، وتوصل طرق القزازين والدحداح والعقيبة الى باب العمارة ، وتستمر حارة الورد سيرها حتى المرجة ؛ وينفتح طريقان آخران بين المرجة وباب العمارة ، يوصل الأول إلى باب الفرج والآخر الى المرجة .

وفي داخل السور يبقى القسم الغربي من المدينة ، والذي تشغله الأسواق الكبيرة ، خارج الطرق الشمالية - الجنوبية . فالطرق القادمة من باب الفرج توصل الى المدخل الشرقي للقلعة ، وتخدم الحي الواقع الى الشمال من الجامـع

الاموي ؛ وعلى العكس من ذلك ، فان الطرق الناشئة من باب العمارة وباب السلام تخترق دمشق كلها وتوصل الى الشارع المستقيم ، مقابل الطريق المؤدي الى باب الشاغور . اما الطريق الذي ينشأ من باب توما ، فهو ينفتح كذلك على الطريق المستقيم ، ومن هناك يمكن الوصول الى وسط المدينة وغربها .

وفي الأحياء الجنوبية الغربية ، الواقعة خارج السور ، نشهد النظام نفسه ، جادات وحارات تتشعب منها بعض الأزقة والدخلات . فمن باب الجابية تنطلق جادة باب سريجة ، وينشق عنها ثلاثة طرق تمثل ادلة امتداد المدينة نحو الجنوب ، وعلى هذه الشبكة من الطرق تنفتح أحيـــاء متميزة بشكل واضح ، تعطي طبوغرافية المدينة طابعها الثاني .

إلا ان التطور العمراني الذي شهدته هذه المنطقة خلال ربع قرن الأخير ، قد خلق تبايناً شديداً في مخطط الأجزاء الشرقية عن الأجزاء الغربية من هذا الحي . ويلاحظ ان الشارع الجديد « خالد بن الوليد » الذي يمتد من الشمال الى الجنوب مساراً الخط الحديدي ، يشطر هذه المنطقة الى قسمين مختلفين : قسم شرقي يشمل منطقة الأحياء القديمة ، حيث الطرقات المتعرجة والحارات الضيقة المتشابكة ؛ وقسم غربي ذو مخطط حديث ، حيث الشوارع المتسعة والمبـــاني الجديدة والحدائق المنسقة .

ويلاحظ كذلك ، ان شارع خالد بن الوليـــد ، لايفصل بين مخططين مختلفين للأحيـــاء فحسب ، إنما يفصل بين وظيفتين متباينتين ايضاً ، قسم شرقي يتخصص للاستعمالات السكنية ، وقسم غربي يتخصص للأعمال الميكانيكية غير الضارة بالصحة [١] .

---

(١) رفيق طالو – المنطقة الجنوبية الغربية من دمشق وعلاقتها بالغوطة الغربية – بحث غير منشور (١٩٥٤ – ١٩٥٥) ص ٢٦ .

طبوغرافية الأحياء الخارجية :

تمثل الاقسام الواقعة خارج الأسوار ايضاً ، متاهة من الأزقة المتعرجة والمنعطفات المفاجئة ، بحيث لا يمكن ان نجد فيها أية خطة جماعية ؛ فعمرانها ينمو عشوائياً بحسب القادمين الجدد الذين يشيدون مساكنهم دون الاهتمام بالمساكن المجاورة ، وحتى بدون أي اكتراث بتأمين الاتصال بالطريق المجاورة .

ويلاحظ كذلك ان طبوغرافية الأحياء الخارجية تعكس عوامل النمو نفسها ، فالميدان يمتد على طول طريق يمتـــد من الشمال الى الجنوب، ويمر بباب الجابية والسنانية والسويقه وباب المصلى والميدانين التحتاني والفوقاني ، وينتهي عند بوابة مصر الواقعة في أقصى جنوب المدينـــة ، ومنها كان يخرج حجاج بيت الله الحرام . وعلى طول هذا الطريق نمت احياء الميدان التحتاني والفوقاني ، هـذا بالاضافة الى عدد من الابنية ذات الصبغة الدينية من اضرحة ومدارس وجوامع. وقد كان هذا الطريق عريضاً نسبياً اذا نظرنا اليه في ضوء المساحات المتروكة بين الابنية الاثرية الواقعة على جانبي الطريق ، ولكن هذا الحي الكثيف بسكانه قد تجاوز الطريق – كما يبدو – وفرض عليه الكثير من الالتواءات .

ان احياء الميدان تتتابع بعضها وراء بعض ، ويشتمل كل منها على طريق ينفتح على الطريق الرئيسي من جهة ، وعلى البساتين من جهة اخرى ؛ وقد كان لكل منها بابان ، فيما مضى ، يغلقان نهايات هذه الطرقات ، وقد اختفى اليوم معظم الابواب الشرقية بسبب توسيع طريق الميدان الرئيسي ، بينما حافظ السكان على بعض الابواب الغربية . وفي هذا الطريق الرئيسي عدد كبير من المتاجر البسيطة ، ترتبط بعلاقات واسعة مع القرويين .

وتأخذ نهاية الميدان الفوقاني طابع الموضع الريفي ، فهي تشكل غدة في نهاية هذا الحي التجاري الطويل . وربما كان هذا الجزء من الميدان ،

بشكل امتداد الضاحية الطويلة التي بدأت نشأتها من باب الجابية ، كما انه من المحتمل ان يكون هذا الموضع في الأصل مكان قرية نمت وتطورت مستقلة عن المدينة ، كما هي الحال بالنسبة لبقية القرى الأخرى في الغوطة .

ويختلف حي الميدان في مخططه ، عن بقية احياء دمشق القديمة التي يغلب عليها المخطط المربع ، فهو ذو مخطط طولاني متأثر ومتوجه بعامل اقتصادي هو عامل الطريق . ومن الصعب ان نميز بين اقسام مختلفة عن بعضها في هذا الحي ، فجميع ازقته وحاراته متشابهة ، سواء كان من حيث ضيقها وتعرجها ، أوتزاحم منازلها وتجاوز طوابقها العلوية فوق الطرقات . وكثيراً مايصبح المرور في ايام الشتاء من هذه الازقة صعباً للغاية ، فالمزاريب التي تقذف مياهها من سطوح المنازل تنحدر على المارة حاملة معها الاتربة والاوساخ .

ويعتبر المخطط العام لحي الميدان اذن من النوع المسمى بالفقري، يتألف من طريق رئيسي يدعى طريق الميدان ، وكان يدعى سابقاً بالسلطاني ، قلما يزيد عرضه على ٢٠ متراً ، ارضه مرصوفة بحجارة منحوتة من البازلت المقطوع من جبل المانع القريب من الكسوة ، وينتهي جنوبا بمنفذ رئيسي يطلق عليه اسم باب مصر أوبوابة الله ، حيث ينطلق منه المسافرون الى مصر أو الحجاز . وكانت هذه البوابة تغلق ليلاً وتفتح عند طلوع الشمس لدخول قوافل الجمال المحملة بالحبوب ؛ ولكن هذه البوابة أزيلت منذ الحرب العالمية الأولى . وترفد طريق الميدان على جانبيه ازقة ضيقة عمودية عليه ، لايستمر امتدادها الى الجهة الاخرى ، كما توازيه بعض الطرقات الضيقة مثل طريق القبو .

وقد ظل طريق الميدان لمدة طويلة صلة الوصل بين المدينة (المركز) والجنوب (حوران وجبل الدروز) ، وحافظ على نشاطه هذا حتى الآن في

التجارة والحرف الريفية بنوع خاص ، ولكنه اخذ يتطور شيئاً فشيئاً تحت ضغط الحيّين الحديثين اللذين تمّ انجازهما في الشرق وفي الغرب ، فقد شقت الحكومة شارعين طويلين في هذا الحي لخدمة المناطق السكنية الحديثة التي امتدت في شرق الحي وغربه ، واصبح المخطط الحالي يتألف من ثلاثة شوارع رئيسية متوازية تمتد من الشمال الى الجنوب تقريباً ، شارع خالد بن الوليد في الغرب ، وهو يمتد بين المجتهد وبوابة الله ، وشارع الزاهرة في الشرق ، يمتد بين المسلخ ومخيم اللاجئين ، وشارع الميدان الرئيسي في الوسط ، وهذا الاخير ينحرف في الشمال نحو الشرق فيقترب من الشارع الشرقي قرب المسلخ ، وينحرف في الجنوب نحو الغرب ليلتقي بالشارع الغربي عند بوابة الله . ولا يخترق هذه الشوارع الطولية من الشرق الى الغرب سوى شارع واحد هو شارع المسلخ الذي يتمم شارع المجتهد من الشرق [1] .

* * *

وقد لعب عامل الطريق دوره ايضاً في نمو حي القصاع واتساعه ، وبالتالي فقد اخذ الحي في بدء نشأته ، بعد الحرب العالمية الاولى ، شكلاً شريطياً ، وهو يتألف من شارع رئيسي طولي يمتد من الشمال الى الجنوب يدعى شارع القصاع ، تتفرع منه الازقة نحو اليمين ونحو اليسار ، بعضها مغلقة ، واخرى مفتوحة على البساتين نحو الشرق .

الا أن نمو المدينة على اطراف الطرق ، لايقف عند حدود معينة ، بل يتعداها احيانا ، ويدخل في حدود المناطق الريفية القريبة ؛ فقد ابتلع حي القصاع الاراضي الزراعية المجاورة ولا سيما الغربية منها ، ونشأت منطقة سكنية حديثة في تنظيمها وتنسيقها ومبانيها هي منطقة القصور ، اخترقها شارع حلب في

---

(١) محمد تيسير الرفاعي – ص ٩ و ١٠ .

الغرب ، وشارع الناصرة في الشرق (الكورنيش) ؛ وبذلك اصبح المخطط الحالي لحي القصاع يتألف من ثلاثة شوارع طولية رئيسية تمتد من الجنوب الى الشمال تقريباً ، تتلاقى كلها في مركز واحد هو ساحة العباسيين في الشمال ، ومن هناك تتصل جميعها بالطريق الذاهب شمالاً الى حمص وحلب .

وكان من نتيجة الحركة العمرانية الحديثة في هذه المنطقة ، ان اصبح فيها منطقتان متميزتان ، احداهما قديمة تحف بشارع القصاع الرئيسي من كلا جانبيه ، والاخرى حديثة تحف بشارع حلب ، وبين هذين الشارعين منطقة انتقالية تختلط فيها مناطق السكن القديمة بالحديثة [1] .

* * *

وفي الطرف الآخر من دمشق ، تحتفظ الصالحية ، في بعض اجزائهـــا بطابع ريفي ، وهي تنتظم نوعاً ما حول الطريق الرئيسي ، حيث تتركز الحياة الاقتصادية حول طريقي الشركسية وابي جرش . واما طرقات الضواحي المنشأة على طول الفروع النهرية فهي تتبع نهر يزيد .

ففي الشمال الشرقي ، يمتد حي الاكراد بخطة مذبذبة غير محددة ، ويشكل طريقه الرئيسي استمراراً لطريق ابي جرش ، وهو الطريق الذي يمتد على سفوح قاسيون حتى برزة . اما الأزقة المتفرعة ، فهي تصل بين الضفة اليسرى لنهر يزيد والمنحدرات الجبلية الشديدة . ومن هذه الاراضي الجبلية القاحلة ، يقتطع السكان مساحات واسعة لمساكنهم ، فلا تتزاحم فوق بعضهـــا ولا تلتحم على شكل نواة كثيفة بالقرب من الجامع ، كما هي الحال في اغلب قرى الغوطة .

وهناك ثلاثة عوامل اسهمت في طبوغرافية هذا الحي ومخططه وهي :

---

(١) غالب العلمي – ص ٢٧ .

أولاً – نهر يزيد وغوطة دمشق اللذان يؤلفان الحد الجنوبي للحي ، وقد أنشئت المساكن على شكل شريط مواز لنهر يزيد على جانبي الطريق العامة المتممة لطريق ابي جرش التابع لحي الصالحية .

ثانياً – السفوح الجبلية الجرداء في الشمال ، وهي من املاك الدولة ، واليها يزحف العمران ويمتد .

ثالثاً – الوديان المنحدرة من جبل قاسيون ، والتي تتدفق فيها سيول فصل الشتاء لتصب في نهر يزيد ، مما اضطر السكان ان يتركوا هذه الوديان خالية من العمران ، فتألفت منها ازقة الحي ، وهذا مايمكن ملاحظته في جميع وديان جبل قاسيون ، حيث تنتهي كلها في هذه الأزقة .

وبين هذه الحدود الطبيعية الثلاثة : نهر يزيد وجبل قاسيون ووديانه ، انشئت المساكن دون أية خطة جماعية ، وذلك بسبب انعدام التنظيم في المدينة خلال العهود الماضية . الا أن هذه المنطقة شهدت في السنوات العشر الاخيرة ، حركة عمرانية واسعة ، شملت الاجزاء الواقعة الى الجنوب من نهر يزيد ، وشكلت حياً جديداً اطلق عليه اسم « ركن الدين » . وهو يمتد بموازاة نهر يزيد حتى قرب مستشفى ابن نفيس ، ويختلف عن حي الاكراد الواقع الى شماله اختلافاً واضحاً في طراز بنائه وتنظيم شوارعه وحداثة تخطيطه .

اما في الشمال الغربي ، فيمتد حي المهاجرين على شكل مستطيل تقريباً ، يضيق قليلاً باتجاه الغرب ، ويشتمل مخططه على شارع رئيسي يقع في الثلث الجنوبي من هذا المستطيل يدعى شارع ناظم باشا ، وتهبط على هذا الشارع الرئيسي شوارع عمودية عليه بانحدار يتراوح بين ٢٠ – ٣٠ ٪ وقد يصل الى ٤٠ ٪ أحياناً ، كما توازيه شوارع اضيق ، تتقاطع مع الشوارع العمودية ، وهذه الشوارع بمجموعها الطولية والعرضية ، تحصر فيما بينها مقاسم سكنية ، تأخذ شكل المخطط الشطرنجي الذي يتبع المخطط الرباعي (حسب تصنيف ديكنسون) .

ويتميز حي المهاجرين عن حي الاكراد الواقع الى الشرق منه باستقامة شوارعه وانتظام تخطيطه ، وذلك بسبب تنظيم حي المهاجرين قبل توزيع الاراضي على المهاجرين الاتراك ، كما سبق الحديث عن ذلك في دراسة نمو المدينة العمراني ، ولذلك كانت الشوارع مستقيمة ، والبناء منتظماً ، وان كان بعضه مبنياً من التراب والخشب .

ان دراسة مخطط حي المهاجرين يظهر بوضوح تأثره بطبوغرافية المنطقة ، فالشوارع العرضية ، التي تتجه من الشمال الى الجنوب (الجادات) ، تكون غالباً مستقيمة ، وتتبع مجاري الوديان السيلية ، وبذلك تكون المنازل في نجوة من خطر السيول وبجروفاتها خلال فصل الامطار ، أما الشوارع الطويلة ، التي تتجه من الشرق الى الغرب ، فهي تتبع خطوط الارتفاعات المتساوية . ويلاحظ ان العمران قد توقف في المنطقة الشمالية الشرقية من الحي بسبب شدة الانحدار ، بحيث اصبح فتح الشوارع أو اقامة المساكن فيها امراً مستحيلاً ، ولذا فقد خصصت هذه المنطقة للاحراج .

نستخلص من هذا الى ان مخطط المهاجرين هو مخطط موجه غير عفوي ، لأن السلطة ، التي وزعت الاراضي على المهاجرين بمساحات معينة ، قد نظمتها قبل التوزيع ، كما أن طبوغرافية الارض قد فرضت نفسها على مخطط الحي ، في وقت لم تكن فيه دائرة التنظيم في المدينة قد انشئت بعد .

الفصل الثالث

المسكن وأنماطه

تضم مدينة دمشق أنماطاً متعددة للمساكن ، لا تمثل الأجيال المتعاقبة عليها فحسب ، انما تعكس الأثر القومي لمصادر السكان واختلاف مستواهم الاجتماعي. ويمكن أن نميز في دمشق بين الأنماط التالية :

البيت العربي :

مايزال البيت العربي القديم في دمشق محتفظاً بكثير من أوضاعه القديمة، خاضعاً للوسط الذي يفرض عليه مادة البناء المحلية . وهو يظهر لنا مدى تلاؤم الانسان مع بيئته الطبيعية ومستواه المعيشي، كما يعكس لنا مدى التطور الاجتماعي والثقافي الذي وصل اليه (١) .

ان لموقع دمشق وسط غوطتها اثر واضح في تأمين المواد الاولية للبناء في الماضي، سيما وان الاسمنت لم يكن معروفا في ذلك الوقت ، ولم يدخل ميدان العمران في دمشق الا في عام ١٩١٨ ، فكان على المواطنين الدمشقيين ان يلجأوا الى المواد المتوفرة في محيطهم، والتي يمكن استعمالها بسهولة وبأرخص الاثمان، وهذه المواد هي صلصال الأرض وجذوع الحور من الوادي .

(١) الدكتور نظيم الموصلي – محاضرات غير منشورة في جغرافية المساكن. (١٩٦٠ – ١٩٦١) ص ٥ .

وربما كانوا يفضلون الطين والخشب اتقاء شر الزلازل ، فان بيوت الخشب يوم الزلزال أقل خطراً على السكان من بيوت الحجر ، فقد مات في الزلازل التي حدثت سنة ٢٣٣ هـ معظم أهل دمشق تحت الردم ؛ هذا بالاضافة الى أنه أقرب الى حفظ الحرارة واتقاء البرد من الطراز الحديث .

ويرجع تاريخ أكثر البيوت الموجودة حالياً في مدينة دمشق الى العهد العثماني ، ويندر أن نجد منها ماينتمي الى اقدم من ذلك العهد ؛ وهي ، عموماً في طريق الانقراض بسبب انصراف الناس عنها ، وضعف مواد بنائها ، فضلا عن ان مظهرها الخارجي بعيد عن الجمال ، ولا يتلاءم مع الذوق العمراني الحديث .

ويعتمد البيت العربي في بنائه على التراب في الدرجة الاولى ، وهو تراب الارض الذي تقوم عليه البيوت ، ويدخل الخشب في البناء مع التراب لتغطية المسكن بالسقف ودعم الجدران . ويمكن ان نلخص طرق البناء في البيت العربي على النحو الاتي :

الجدار :

يرفع الجدار عادة باحدى الطرق الاربعة الاتية :

اولا ـ طريقة اللّبِن : وهي تعتمد على اللّبِن العريض فقط في بناء الجدران ، ويتم ذلك بخلط الطين بالقش المكسر وصب هذا الخليط في قوالب ابعادها ٣٠×٣٠×٨ سم و ٣٠×١٥×٨ سم ، وتترك هذه اللبنات عرضة لاشعة الشمس حتى تجف وتقسو .

وتبتدىء عملية بناء الجدار بوضع الاساس اولا ، وهو يتألف ـ عادة ـ من الحجارة ، وقد يكون الاساس من اللبن ايضا اذا كان صاحب الدار فقيرا ، فيوضع اللبن حينئذ فوق الارض داخل خندق قليل العمق . وفوق الاساس

ترصف اللبنات ، بحيث تمسك كل لبنة لبنتين تحتها ، وبين اللبنات ملاط يمسكها مؤلف من تراب ممزوج بالماء بدون التبن او القش ، وتستمر هذه العملية حتى يتم بناء الجدار . وبعد ذلك يغطى الجدار بطبقة رقيقة من الطين الممزوج بالتبن ، وذلك بعد وضع السقف أو قبله .

ثانيا ـ طريقة الهيكل الخشبي : يغلب استعمال هـــذه الطريقة في المساكن ذات الطابقين ؛ وهي تستخدم الاخشاب الى جانب التراب ، حيث يكثر وجوده في جميع انحاء الغوطة . ويتم انجاز الجدار عادة على مرحلتين ، تشتمل الاولى على اقامة هيكل خشبي ، يتألف عادة من جذوع اشجار الحور بعد قشرها ، وقلما يكلف النجار نفسه تشذيبهـــا وتشكيلها . وتتضمن الثانية ملء الفجوات باللبن الصغير ، ويتم هـذا دون نظام . واخيرا تطلى الجدران بطبقة مصقولة لحماية الجدران من الامطار .

ثالثا ـ طريقة الدك : وهي اقل الطرق الثلاث انتشارا ، ويجري عملها كما يأتي : يؤتى بلوحين خشبيين مستطيلين طول كل منهما ١٧٠ سم ، وعرضه ٨٥ــ٩٠ سم ، ويثبتان بعيدا عـن بعضهما بشكل رأسي بمقدار ٣٠ــ٥٠ سم ، ويسد الجانبان الآخران بلوحين صغيرين ، فيتشكل قالب خشبي مقفل الجوانب ، تستند قاعدته على الارض وفتحته الى الاعلى . ثم يملأ هذا القالب بالتراب والحصى الممزوجين بالماء ، ويضغط هذا المزيج بعد ذلك حتى يصبح كتلة واحدة متراصة ، وبعد ذلك يرفع القالب وتعاد هذه العملية بالطريقة نفسها .

وعندما تنتهي اقامة الصف الاول من الدك ، يقام فوقه صف ثان وثالث حتى يصل الى الارتفاع المطلوب . ويفصل الدك الاول عـن الارض ـ عادة ـ بطبقة من الحجارة تتماسك مع بعضها بملاط طيني ، كما يفصل بـين كل دك وآخر ايضا بطبقة رقيقة من الحجارة الصغيرة ، ومن مجموعة هذه الصبات الترابية المضغوطة

تتشكل جدر صلبة تصبح قاسية بعد جفافها ، وتطلى بعد ذلك بطبقة طينية رقيقة مخلوطة بالتبن ، تجدد غالبا كل ثلاث سنوات .

رابعا ـ طريقة الحجارة : وهي اقل انتشارا من النوع الترابي ، لانها تكاد تقتصر على بيوت الاسر الميسورة والجوامع والكنائس وبعض المزارات والقباب ، كما يمكن ان تشاهد في بعض الضواحي القريبة من المقالع الحجرية في برزة والمزة .

يقام اساس البيت الحجري ، عادة ، باستخدام الحجارة مع الملاط ، ثم ترفع فوقه الجدران ، وغالبا ما تكون سميكة ، تتراوح بين ٦٠ - ٩٠ سنتيمترا . وهي تتألف من واجهتين متقابلتين من احجار البناء ، تكون الواجهة الخارجية منها اكثر تشذيبا وتنسيقا ، ويملأ ما بينها بالحجارة غير المنحوتة والملاط . وقد توضع فوق الجدران ، احيانا ، قطع من الاخشاب على شكل افقي لتشكل رباطا بين اقسام الحائط وتؤمن قوته وتماسكه .

والمساكن الحجرية اطول المساكن القديمة عمرا وابقاها على الزمن ، كما انها اقل النماذج تبدلا وتطورا . وتكون الحجارة المستخدمة على احجام مختلفة ، معظمها من الحجارة الجيرية البيضاء المجلوبة من تلال المزة أو جبال برزة ، والبعض الاخر من الحجارة البركانية السوداء المجلوبة من جبل المانع قرب الكسوة ، كما هي الحال في بعض منازل حي الميدان القديمة ، ومساكن الموسرين القديمة ، حيث يستعمل الحجر البازلتي في بناء اطارات الابواب الخارجية وابواب الغرف والنوافذ والاقواس الحجرية .

السقف :

تدخل الاخشاب في بناء المسكن لتغطيته وبناء سقفه ، سواء كان هذا المسكن مصنوعاً من اللبن فقط او اللبن والخشب ؛ وتكون هذه السقوف ـ

شأنها في ذلك شأن السقوف في البلاد الجافة - مسطحة ، يستخدم فيها خشب الحور الذي يتوفر في هذه المنطقة، ويتم بناء السقف بعد رفع الجدران بالطريقة الآتية :

تُمدّ الاعمدة الخشبية بصورة متوازية من جدار الى جدار ، وقد يوضع عمود خشبي غليظ يستند على منتصف الجدارين الاخرين لتستند عليه الأعمدة المتوازية مشكلة معه زوايا قائمة ، ويسمى هذا العمود « بالجِسْر » . ثم يوضع فوق هذه الاعمدة دفوف خشبية تدعى « بالطُّبْق » وفوقها تفرش طبقة من التراب الخشن المبلول وتدعى « بالبَلّة » ، يضاف اليها أحياناً قليل من الحصى، ثم تضغط وتدحل . ويتراوح سمكها من ٢٠ - ٣٠ سنتيمتراً، وعندما تجف تكسى بطبقة طينية لزجة متماسكة لتمنع الدلف في فصل الامطار .

ويصنع للسقف ميل أو ميلان خفيفان حتى يسهل انحدار مياه الأمطار عليها ، وقد يمتد السطح خارج الجدران بمقدار ٤٠ - ٥٠ سنتيمترا لحماية الجدار من الامطار الشديدة ، كما يوجد لبعض البيوت الراقية أروقة ، وهي أطراف زائدة عن السقف مشرفة على باحة البيت ، مثبتة بعمد خشبية مستندة على الارض.

ولاشك في أن انتشار البيت الترابي في المدينة القديمة ، يعود الى الفوائد التي يجنيها المواطن من هذا النوع من البناء ، ومن أهمها سهولة البناء وقلة التكاليف بسبب رخص المواد الأولية ، ورداءة النقل للحرارة والبرودة .

وهكذا يبدو المسكن العربي ، وكأنه حصيلة تضافر الظروف المناخية وحالة مواد البناء المتوفرة في المنطقة، الا أن المواطن في الوقت الحاضر ، لم يعد مضطراً لاستخدام المواد المحلية المتوفرة في وسطه الطبيعي بعد انتشار الاسمنت والحديد وغيرهما من مواد البناء ، مما أفقد هذه المساكن طابعها وصبغتها المحلية وحرمها من تجانس مظهرها .

مخطط البيت العربي :

يتألف البيت العربي في العادة من فسحة مكشوفة ، يختلف اتساعها من بيت الى آخر ، تحيط بها أحواض الزهور والأشجار من جميع جهاتها تقريباً ، بينما تتوسطها بحيرة صغيرة تأتيها المياه من طالع[1] ، يصله المياه من أحد فروع بردى. وعلى جوانب هذه الفسحة عدد من الغرف ، يختلف عددها باختلاف عدد أفراد الاسرة وحالتها المادية ؛ وهي تشرف على هذه الفسحة بنوافذها التي تغطيها القضبان الحديدية المتشابكة بغية الأمن . وفي الطابق العلوي عدد آخر من الغرف ، يُصعد اليه بواسطة سلم حجري أو خشبي (شكل ٥٦) .

وتتميز مساكن الأغنياء غالباً بوجود « الليوّان »[2] الذي يتصدر البيت ، وهو مسقوف دوماً ، يقع بين غرفتين متقابلتين ، ينفتح على فسحة البيت بقوس حجري يعتبر دليلاً على النفوذ والثراء ، ويتجه الى الشمال بشكل عام ، يستفاد منه في فصل الصيف ، حيث يتقي فيه اصحاب المنزل شمس النهار ، ويتلقون نسمات الشمال المنعشة . وتقوم على جوانب الليوان الثلاثة مصاطب تعلوها الفرش والوسائد ، وقد يكون في الدار الكبير ليوان آخر في الجهة المقابلة ، يصلح لفصل الشتاء حيث يتعرض لاشعة الشمس الدافئة .

واذا القينا نظرة على المظهر الخارجي للبيت العربي ، نجد أنه يتألف من طابقين في أغلب الأحوال ، يبنى القسم الأسفل من الحجر غالباً ، أما القسم العلوي فيبنى من الطين المخلوط مع التبن . وتدعى غرف الطابق الثاني « بالفرنكات » ، وغالباً ما تتقدم فوق الطابق الأرضي بشكل بارز قائم على عقد ؛ ونادراً ماتبنى غرفة صغيرة لطابق ثالث تدعى « طيارة » .

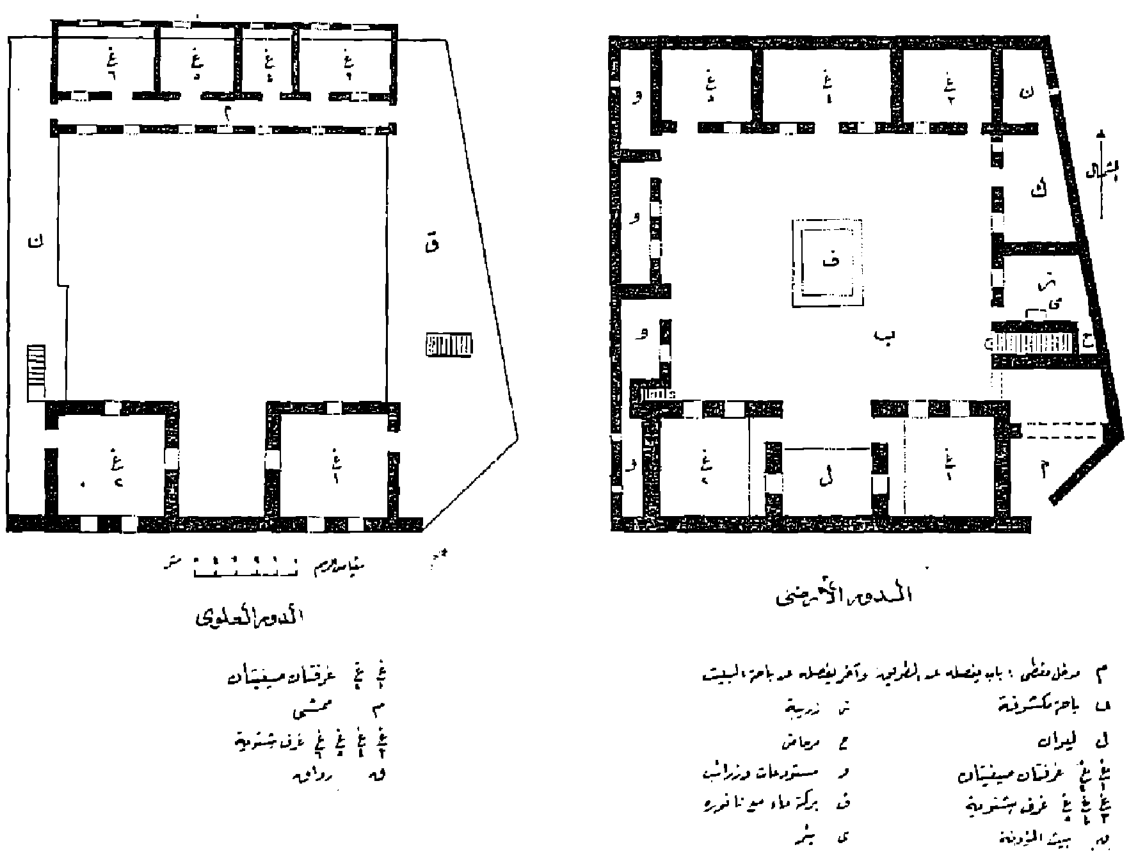
أما السبب في قلة ارتفاع المساكن فيعود الى طبيعة المواد المستعملة في

---

(١) سيأتي شرحه في فصل تزويد المدينة بالمياه .

(٢) كلمة محرّفة عن الايوان .

شكل (٥٦) البيت العربي في دمشق



البناء، فهي لا تسمح ببناء طوابق عديدة، فضلا عن ان ارتفاع البناء كثيراً يحجب عن الطوابق الارضية والازقة الضيقة النور والهواء، كما أن وجود مساحات واسعة من الأراضي في الماضي وضآلة ثمنها، قد ساعد على اتساع هذه المساكن وعدم الحاجة الى بناء طوابق عديدة.

والمنزل العربي هذا ، هو مسكن صيفي وشتوي في آن واحد ، فالطابق الأرضي يكون في الصيف رطباً معتدل الحرارة ، بينما تمضي العائلات الدمشقية فصل الشتاء في الطابق العلوي الذي يكون دافئاً معرضاً للشمس . وهو يخلو من النوافذ الخارجية غالباً ، بسبب تمسكهم الديني الشديد وخوفهم من السرقات ، وان ظهرت بعض النوافذ فهي ضيقة وعالية .

وقد ساعد استخدام الخشب في هذه المساكن على اقامة الشرفات فيها . ففي البيوت المؤلفة من طابقين ترى الشرفات ، ولكنها غالباًماتكون متجهة نحو داخل البيت ، واذا ما اتجهت نحو الخارج تكون مغلقة مستورة بالاخصاص الخشبية لتحجب سكان المنزل عن المارين في الطريق ، كما هي الحال في منطقة الشهداء.

ويمكن الوصول الى الردهات والحجرات في كل المنازل عن طريق الأفنية وحدها ، اذ لايوجد ممر داخلي يصل بينها ، وهذا النظام وان كان مرضياً في الصيف إلا أنه غير مقبول على الاطلاق في الشتاء ، وتعتبر هذه المشكلة احدى الأسباب التي دفعت أصحاب هذه البيوت العربية الكبيرة الى النزوح عنها .

ان المنازل البورجوازية ، مثل جميع الآثار العربية ، ليست لها واجهات فنية خارجية ، لأن مظهرها الخارجي بسيط لا يسترعي اهتمام المارة ، وكل ما هناك هو جدران صماء تكاد تكون خالية من النوافذ ، وطرقات ضيقة ومداخل بسيطة لا تنم عن عظمة ما فيها ، ولا تدل على قيمة المباني التي تقع خلفها .

ويتجلى أثر المناخ في تبييض الجدران الخارجي بسبب الحرارة الشديدة ، وسمك الجدران ودفن جزء من البيت في الارض ، لوقاية السكان شدة الحر وفرط البرد ، وكذلك اتجاه النوافذ نحو الجنوب لاستقبال الشمس . ويظهر هذا الامر في بناء البيوت في دمشق على طابقين ، يكون الطابق الأول ذا جدران مرتفعة وسميكة وقاعات كبيرة ونوافذ مزدوجة ، تجهز أحياناً بغطاء خشبي (أباجور) لتصد الرياح الغربية ؛ بينما يكون الطابق العلوي على الغالب متجهاً نحو الجنوب ، لتكون الغرف معرضة لاشعة الشمس من جهة ، ولان القاعات الصيفية الكائنة في الجهة الجنوبية من الباحة ذات سقوف مرتفعة جداً ، تعادل طابقين من الطوابق

القديمة[1] . كما تكثر في الطابق العلوي النوافذ البلورية لاستقبال الشمس ، وقد تحتوي القاعة على بركة ماء لتزيد في رطوبة الجو في الصيف .

ويبدو أن البيئة العربية كان لها أثرها في المسكن العربي، فالسماء بالنسبة للرجل العربي المسلم هو المنزل الالهي ، وهو في الوقت نفسه ، أكثر أوجه الطبيعة لطفاً ، فهي تبشره بتلاطف الجو وتعطيه الماء واهب الحياة من سحابها الأبيض ، ولذا كان من الطبيعي ان يرغب في ادخالها الى مسكنه ، فيحاول ان يجتذب صفو السماء وقدسيتها الى مسكنه ويحجب الصحراء برمالها الخانقة التي تعمي الأبصار .

ان الوسيلة التي تحقق هذا الهدف هي الفناء الداخلي ، حيث يكون البيت عبارة عن مربع خال من الداخل ، يدير حوائطه الصماء الى الخارج ، وتطل جميع حجراته على فناء داخلي يمكن منه التطلع الى السماء فحسب ، ويجلب هذا الفراغ المحاط بحجرات مسكنه شعوراً بالهدوء والامان لا يمكن لأي عنصر معماري آخر ان يجلبه . ان هذا الصفاء ليس وهماً وليس بعملية رمزية مفتعلة ، ولكنه حقيقة يحس بها كل من يدخل الى مسكن عربي .

وقد يستعمل جزء من أجزاء المسكن التي يمكن الوصول إليها من الشارع كمعارض لارباب الحرف أو كمتاجر صغيرة ، وهكذا نجد أنفسنا أمام مبان تجمع بين الاغراض السكنية والاغراض التجارية ، وان كان هذا لا يمنع من ان تكون الاسواق هي المراكز الرئيسية للأعمال .

ورغم انه لا توجد في دمشق دور يرجع تاريخها الى عهد بعيد ، الا أنه من المؤكد ان طراز البناء في دمشق لم يتغير منذ بضعة قرون ، وان هذا الطراز

---

(١) ابو الفرج العش – الدور الأثرية الخاصة في دمشق - مجلة الحوليات الأثرية السورية – المجلد الثالث ١٩٥٣ – ص ٤٨ و ٤٩ .

في بناء بيوت دمشق خلاصة أسلوب قديم ارتقى مع الزمن حتى وصل الى ما هو عليه في القرون الأخيرة. ولا جرم ان العرب قد أخذوا عن الرومان هذا الطراز في البناء الذي يتلاءم مع مناخ البحر المتوسط ، ولا نزال نجد أمثاله في اسبانيا حيث يسمى الفناء الداخلي باسم « باتيو » أو الفناء المبلط.

ومع ان المدينة القديمة تحتفظ بنشاط اقتصادي ريفي، فان قيمة المساكن قد انخفضت بهجر سكانها لها، حيث يذهبون نحو المدينة الجديدة ، حتى انهم يهجرون أيضاً قصور القرن الثامن عشر الفخمة التي تتساقط خربة بعد هجرها ، ثم تقسم وتوزع بين عدد كبير من العائلات ، ولذا تفقد أهميتها وقيمتها .

والخلاصة ، لايتأتى لمن يتجول في المدينة القديمة ان يظفر بجميع محاسنها على وجه السرعة ، الا مايشاهده من جوامع وخانقاهات وحمامات وبيمارستانات (مستشفيات) عمرت في شوارع ضيقة ، وبين ابنية بسيطة ، قد يستغرب المرء تشييدها بينها ، ويدهش للبون الشاسع والتناقض الواضح بين مظهريها . ولا يمكن ان يدرك سر وجودها في هذا الوسط الحقير بظهره مالم يجتز هذه الجدران البسيطة ويطلع على ماوراءها ليرى دوراً شرقية كقصور الف ليلة وليلة . فيها باحات واسعة مرخمة بالمرمر، تظللها الاشجار والرياحين وايوانات فخمة وقاعات مزخرفة، وبرك ماء جارية تبهج الابصار ؛ وعندئذ تتجلى له حقيقة دمشق وما كانت عليه من العظمة في العصور القديمة ، ويدرك سبب شهرتها وافتتان الناس قديما بمحاسنها واكثار الشعراء من وصفها .

ومن المعروف ان المرء يستمتع بالنظر الى كل ماهو بهيج او غريب ،

فالمناظر الغريبة والطرقات الملتوية الضيقة التي تثير الدهشة والجمال المتخفي والآثار المتراصة جنباً إلى جنب ، والتي خلفتها لنا قرون عديدة ، كل هذه الامور تخلق تأثيراً رائعاً لمدينه دمشق .

وفي هذا الحشد الهائل من المنازل التي لا يزيد ارتفاعها على طابق او طابقين ، نجد ان الآثار الكبيرة والمآذن هما وحدهما اللذان يرتفعان عن هـــذا المستوى العام ؛ ومن ثم انفردت دمشق بمنظرها الحالي الذي تعرف به اليوم في كل ارجاء العالم . لذا فان ناطحات السحاب الحديثة ، وحتى العمارات ذات الطوابق الاربعة او اكثر ، من شأنها ان تقضي على هذا التناسق فتغير من نسب المنظر العام للمدينة تغييراً شاملاً .

لقد كانت مواد البناء التي تستعمل في المدينة القديمة هي الحجر الجيري بلونيه الاصفر العاجي والابيض الضارب الى الحمرة ، وكذلك الطين المدكوك على الطريقة الريفية ، او الطين المغطى بالبياض الاصفر الداكن ، والبازلت الأسود والخشب المطلي باللون الاحمر او الاصفر او الاخضر ، ويعطي كل هذا احساساً بالتناسق بين هذه الالوان الدافئة .

اما الاسقف فهي جميعاً افقية فيما عدا بعض الاسقف المقببة المصنوعة من دعامات خشبية دقيقة مغطاة بطبقة عازلة من الطين الذي يميل الى الحمرة الداكنة . وقد بقي هذا التناسق في الالوان دون خلل حتى الان ، وذلك لعدم استعمال الصلب او قوالب الطوب ، او الواجهات المغطاة بالزجاج او البلاط .

واذا نظرنا الى معظم البيوت العربية من الخارج ، فانها تبدو عديمة المعنى ، ذلك ان الابداع الفني والاصالة المعمارية والروعة الزخرفية كلها موجودة في الداخل ؛ ولذا فاننا نجد طرقات وأزقة متواضعة ليس فيها مايسترعي الانتباه ، كما أن الجدران الريفية الصماء التي كثيراً ماتبدو خربة لاتدل على الثراء الفني في

الداخل ؛ ولكننا نستطيع أن نلمح من خلال أحد الأبواب المفتوحة فناء رخاميا تغمره الشمس أو حديقة زاهية ، كما أننا نجدهنا وهناك سواء في الأحياء السكنية أم التجارية للمدينة ، قطعاً صغيرة من الآثار المختلفة .

البيت الكردي :

يتميز المسكن في حي الأكراد بعدة خصائص مشتركة ، أهمها سعة المسكن وهي صفة بارزة تميز مساكن حي الأكراد عن مساكن مدينة دمشق القديمة الضيقة المتراصة بعضها على بعض ، فالأرض هنا مجانية ، وملك للأكراد لا ينازعهم فيها منازع ، ولذلك كان من الطبيعي أن يطمع الكردي بمسكن واسع بغية المفاخرة والزهو ، حتى لتبلغ مساحة هذا المسكن الف متر مربع أو أكثر ، في الوقت الذي لا نجد في هذا المسكن أكثر من غرفتين أو ثلاث غرف تحتل جزءاً صغيراً من الباحة ، أما بقية المسكن فهو عبارة عن باحة مكشوفة (شكل ٥٧) .

واذا قارنا بين مساكن حي الأكراد ومثيلاتها في حي الصالحية المجاور ، نلاحظ صغر مساكن حي الصالحية بالنسبة لمثيلاتها في حي الاكراد ، على الرغم من تشابه موقعهما في سفح قاسيون . ويمكن أن نرجع صغر مساكن حي الصالحية الى كثرة السكان الغرباء الذين وفدوا الى حي الصالحية في الوقت الذي بقي فيه حي الأكراد منعزلاً ووقفاً على سكانه الأكراد دون سواهم

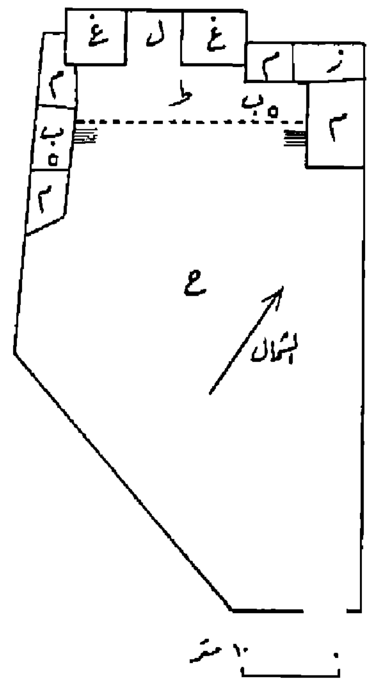
على أن هذه المساكن الواسعة لم تلبث ان قسم كل منها الى عدة أقسام بسبب تزايد السكان ، وغدا بعضها مساكن متوسطة والبعض الآخر صغيراً ، وخاصة في الطرف الغربي من الحي حيث يقبل الناس على تعميره بسبب قربه الى مركز المدينة من الطرف الشرقي للحي ، حيث لاتزال معظم المساكن على حالها الاول من الاتساع[١] .

---

(١) عبد الكريم الحلمي — ص ٣٠ .

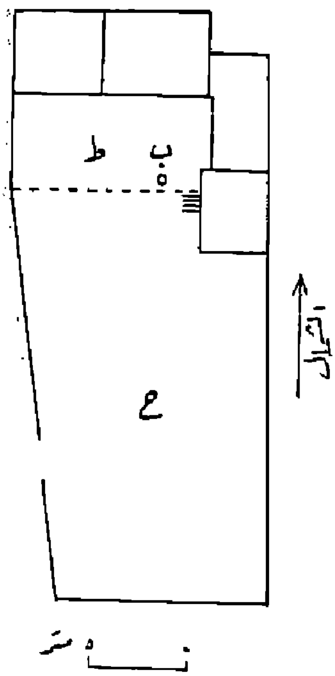
شكل (٥٧)

نماذج من البيت الكردي في دمشق

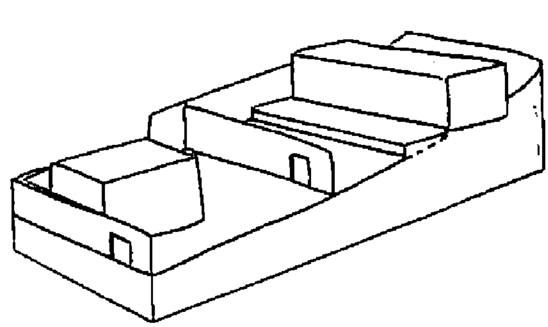


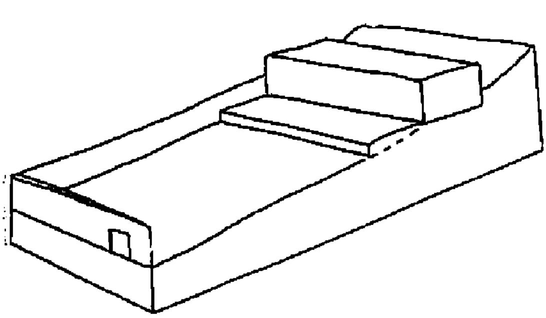
مسكن اسرة ميسورة

غ	غرفة	م	ملحقات
ل	ليوان	ط	مصطبة
ز	زريبة	ت	تنور



مسكن أسرة فقيرة





ويشترك معظم مساكن الاكراد ايضاً باستعمال طريقة الدّك في بناء الجدران ، فيطليها الفقراء منهم بالطين الممزوج بالتبن ، بينما يطليها الموسرون بالجير والاسمنت ، كما يستعملون اخشاب الحور للسقوف وذلك على الطريقة التي سبق شرحها .

ويلاحظ كذلك ، ان الغرف الرئيسية من البيت تبنى عادة باتجاه الجنوب كما هي الحال في البيوت العربية الأخرى ، فيتمتع السكان بأكبر قدر من اشعة الشمس كما ينعمون بمناظر غوطة دمشق الجميلة .

وقد ترك المستوى المعيشي المنخفض الذي يعيش فيه معظم ابناء الحي اثره واضحاً في المساكن التي نجدها في غاية البساطة من حيث موادبنائها وتخطيطها . ولما كان الأكراد قد اقبلوا بكثرة على صناعة النسيج ، لذلك فقد نقلوا الأنوال اليدوية الى مساكنهم في حي الأكراد ، واصبحت معظم ورشات النسيج اليدوي والعربي ضمن المساكن ، وأصبحت بيوت اصحاب هذه الورشات دوراً للسكن ومراكز لصناعة النسيج في وقت واحد .

البيت التركي :

للمسكن في حي المهاجرين طراز قديم رافق بناء هذا الحي ؛ فالأتراك المسلمون الذين هاجروا الى هذا الحي نقلوا من بلادهم الكثيرة الأمطار فكرة السقف ذي الميلين ، وقد أعطيت العائلة الواحدة من الأتراك المهاجرين من كريت وتراقيا الشرقية مساحة من الأرض لاقامة مسكن عليها تبلغ نحو ٤٣٠ م٢ (١٨ قصبة) . ويبدو ان بعض المهاجرين قد باعوا ، فيما بعد ، نصف مساحة بيوتهم أو أكثر لغيرهم ، ولذا فانهم – في المهاجرين – يستعملون التعبير عن مساحة البيت القديم حتى الآن اصلاح حصة أو نصف حصة أو ربع حصة .. الخ [١].

---

(١) محمد نظمي العلاف – ص ٢٧ .

وقد شيد معظم هذه المساكن من الدّك أو اللبن والخشب ، والقليل منها بالاسمنت المسلح والحجر المنحوت . ويكون المنزل ذا مستويات عدة لانحـــدار الأرض، اذ ان الانحدار الشديد يؤثر على مخطط المسكن فيجعله متطاولاً ومتلائماً مع مستويات الأرض ، فتكون المجموعة الأولى من الغرف على مستوى الطريق، تليها مجموعة أخرى على مستوى اخفض بمقدار متر الى مترين يوصل اليه بسلم حجري، وقد يلي ذلك مستوى ثالث اذا كانت المساحة كبيرة . وقد اضاف الدمشقيون المهاجرون الى هذا الحي وضع القضبان الخشبية المتصالبة على النوافذ (الخصاص) لأسباب دينية .

وفي أعالي المهاجرين، تنتشر بيوت الفقراء التي يبنيها اصحابها فوق اراضي الدولة ، حيث يمنع البناء عليها باعتبارها منطقة احراج . وقد دفع غـــلاء اسعار الارض وارتفاع أجور السكن بهؤلاء الناس الى اعمار قسم من هـذه الأراضي الجبلية ببيوت بسيطة دون رخص سابقة ، وكثر عدد هـذه البيوت حتى اصبح الآن يشكل أحياء متطاولة ، تتصل شرقاً بحي الصالحية ، وتمتد غرباً حتى شرقي خزان الفيجة الحديث . ولم يبت في مصير هـذه البيوت حتى الآن ، فقد انذر اصحابها أكثر من مرة بوجوب اخلاء بيوتهم لهدمها ، بسبب بنائها بدون ترخيص او تنظيم سابق .

البيت الارمني :

يمكن أن نشهد هـذا النمط من المساكن الى الشرق من حي القصاع ، وهي بيوت خشبية يطلى بعضها بالطين والقش من الخارج ، بينما يظل بعضهـــا الآخر على شكل هيا كل خشبية فقط . ويشتمل الواحد منها على غرفتين ، غرفة سفلية وأخرى علوية ، تستعمل السفلى للطبخ والغسيل ومختلف الخدمات المنزلية ،

وتنفتح نوافذها على الطريق العام ؛ أما الغرفة العليا فتستعمل للنوم واستقبال الضيوف .

وقد أخذ هذا النمط من المساكن بالتناقص تدريجيـــاً ، بسبب هجرة الكثير من اصحابها الى الأحياء السكنية الحديثة ، ولا سيما الموسرين منهم . ويمكن أن نشهد بقايا هذه المساكن اليوم في منطقة الزبلطاني الواقعة الى الشرق من حي القصاع . وهناك نشهد الكثير من ربات البيوت يؤدين بعض اعمالهن المنزلية في العراء بسبب صغر بيوتهن وقلة غرفها .

البيت الحديث :

وهو يقوم على الطراز الاوربي ويتميز بانعدام الباحة الداخلية ، ووجود النوافذ العديدة على الشارع وارتفاع البناء . وقد ظهر اول مرة في دمشق خلال الربع الاخير من القرن التاسع عشر ؛ ومع ذلك ، من المستحسن أن نميز بين البيت الذي يعود الى ما قبل الحرب العالمية الأولى ؛ وهو يتألف عموماً من طابق واحد فوق الطابق الأرضي ، والبيت الذي يعود الى مابعد الحرب ، وهو يتألف من عدة طوابق .

ويبدو ان النمط الاول كان تقليداً أخرق ، عن الأنماط الاوربية ، وذوقاً يقوم على البذخ دون راحة ، وفوق ذلك ، فهو يتطلب استيراداً ضخمـــاً للجسور والألواح الخشبية والحديد من الدول الأوربية؛ فالحديد يستعمل لتدعيم السقف مع الحجر الغشيم ،مما يجعل ارتفاع البناء ممكناً ميسوراً ، كما يسمح بتجاوز الطابق العلوي عن الطابق الأرضي وبروزه فوق الشارع .

وقد عمل هذا النمط الجـــديد على اسقاط نفوذ البيت العربي ذي الطراز السوري ؛ واصبح على المواطن أن يهجر الأحياء القديمة ، حيث توجد « البيوت الواسعة في الطرقات الضيقة » للاستقرار في « بيت صغير على شارع كبير » .

وفي الواقع ، ان البيوت الحديثة الأولى ، لم يكن يقصد مما أنفق عليها اكثر من تحقيق الفخامة الظاهرية ، التي تخدع المارة فحسب . اما الداخل فهو أقل راحة من داخل البيت العربي ، إذ ان غرفها صغيرة مظلمة وسقوفها منخفضة ، توصل اليها سلالم ضيقة شبه قاتمة ، تتوزع غرفها حول صالة واسعة ، ولكنها تفتقر الى سهولة الاتصال فيما بينها .

فهي ، في الواقع ، انموذج فاسد ، منقول عن نمط الفنادق من قبل المسافرين السوريين ، كما أوكل أمر تنفيذها الى معلمين معماريين بسطاء ، وفي فترة كان الفن المعماري الأجنبي في مراحله الأولى من التطور .

ولم يحسب هذا النمط حساباً للتدفئة أو المدافىء ، ولم يترك فراغاً كافياً في الجدران يسمح بتصريف الدخان ، ولذا كان على المداخن ان تثقب زجاج النوافذ لاخراج الدخان الذي يملأ الشوارع والأرصفة .

ان الهياكل المعدنية او الخشبية التي سمحت ، حتى ذلك الوقت ، بزيادة الحجم الرأسي المساكن الحديثة طابقاً او طابقين ، قد دعمّت مكانتها بالاستخدام المتزايد للاسمنت المسلح منذ عهد الانتداب الفرنسي . والواقع ان هذا التطور الفني يدين ، في معظمه ، الى استخدام الاسمنت الذي مهّد لانشاء أبنية أكثر تنوعاً من المساكن السابقة ، والتي كانت هياكلها بكاملها من الحجر المنحوت والحجر الغشيم (العقود والقباب) ، أو من الحجارة والأعمدة الخشبية ، أو من الحديد الذي يحمل السقف . وفضلاً عن ذلك ، فقد ساعد استخدام الاسمنت على تقليل تكاليف البناء ، وبالتالي ، فان انماط المساكن الحديثة أصبحت اكثر بساطة في الفن المعماري ، وأوفر عدداً في الطوابق السكنية ، ولم تلبث ان ظهرت بعدها العمارات التجارية الكبيرة .

ومع ذلك ، فان متطلبات المناخ لم تسمح باستمرار التطور الفني دون الأخذ بعين الاعتبار الوسائل التي توفر الحماية من الطقس المتقلب ، فمتوسط الحرارة في ايام الشتاء غالباً يقل عن ٧° م في كانون الثاني يناير - ، في حين ان متوسط الحرارة في أيام الصيف يزيـــد على ١٦٫٥° م . ولا شك في ان وجود الحرارة المنخفضة نسبياً في الشتاء والحاجة الى التدفئة ، لا يتفقان مع استخدام المساكن الخفيفـــة التي يمكن ان تكون مقبولة في أقاليم مناخية أكثر اعتدالاً وأقل تطرفاً .

وفي الصيف ، تتأرجح الحرارة حول درجة ٢٧° م ، وهي حرارة ليست جهنمية ، إلا ان الاسمنت والحديد في العمارات الحديثة يختزنان الحرارة فيجعلانها لاتطاق ، ويحتبسان الهواء بين جدرانها فيجعلانه حرقاً يخنق الأنفاس في الصدور حتى في الظل .

ولا شك في ان هذه الشروط الصحية والفنية تتدنى في العمارات التجارية بشكل واضح ، وتتحول فيها الأفنية الداخلية (المناور) الى آبار عميقة محاطة بالطوابق العديدة من جميع جهاتها ، كما ان افتقار المباني العالية للمصاعد الكهربائية يسبب المتاعب لسكانها ، إذ لم يزد عدد المصاعد في دمشق عام ١٩٦٦ على ١٣٥ مصعداً ، يوجد معظمها في الادارات الحكومية والمباني الكبيرة .

ومع ذلك فان المساكن الحديثة لم تتوقف عن التطور والتقدم ، فأصبح البيت محاطاً بحديقة من الأزهار مع تدفئة مركزية ومياه جارية ساخنة وباردة ، وهواء مكيف أيام الحر الشديد ؛ اما المباني التجارية الكبيرة ، فهي تفتقد الى الفن المعماري بشكل واضح ، فالرأسمالية الجشعة تريد الحصول من هذه المباني على الحد الأقصى من العائدات بأدنى التكاليف ، ولذا أخذت الحديقة تتناقص الى حدها الأدنى ، والعمارة تتجه الى زيادة عدد الطوابق ، وأصبحت هذه العمارات تتصف بالضخامة ولكنها تفتقر الى الذوق والأناقة .

الفصل الرابع

المواصلات الداخلية

كانت دمشق قبل نصف قرن من الزمن ، تجمع سكانها ضمن مساحة محدودة من الأرض ، حيث إجتمعت البيوت وتقاربت ، وضاقت الأزقة والدروب ، وتداخلت وظائف الأسواق ، او تفرد كل سوق بمهنة خاصة ، وأحاطت بيوت السكن بهذه الأحياء التجارية والصناعية ، لا يستلزم التنقل بينها جهداً ولا وقتاً ، فالتاجر او الصانع غالباً مايسكن فوق متجره او مصنعه ، او لا يبعد عنه اكثر من بضع مئات من الأمتار ، ولم يكن يستخدم من وسائط النقل يومئذ سوى بعض الحيوانات وعربات صغيرة تجرها الخيول ، توجد عند الوجهاء من أبناء الأحياء فقط . وكان مرور هذه العربات والدواب لا يخلو من صعوبة ومشقة بسبب ضيق الحارات وتعرجها . كما كان لكل حارة أو دخلة باب صغير في مدخلها يغلق كل مساء .

ومن الملاحظ ، ان حركة المرور في المدينة القديمة ، لاتزال قاصرة محدودة فلا يوجد في المدينة القديمة حتى اليوم سوى طريق رئيسي يمتد طولياً ، وهو طريق سوق مدحت باشا (الطريق المستقيم) ، وطريق يمتد عرضياً ، وهو جادة باب توما ، وكل من هذين الطريقين يصلح لسير السيارات ، أما الطرقات والأزقة الأخرى فهي جميعاً مخصصة لمرور المشاة ولا تصلح لسير السيارات ، ولذا فان

هذه الأجزاء القديمة من المدينة تتمتع بهدوء مريح ، كما ان ابتياع البضائع فيها سهل ميسور ، وان كان هذا التخطيط لا يتفق مطلقاً مع الأساليب الحديثة للمرور ولا يسعف رجال الاطفاء او الدفاع المدني على اداء مهمتهم على وجه صحيح .

ان نمو مدينة دمشق واتساع رقعتها ، أصبح يتطلب شبكة مواصلات تسهل الاتصال بين المناطق السكنية الحديثة وبين أحياء المدينة القديمة ، واتصال الأحياء الجديدة بعضها مع بعض ، إذ ان نمو المدن وتطورها في وقتنا الحاضر مرتبطان بنمو وتطور وسائل المواصلات ، فكلما امتدت رقعة المدينة صعب الانتقال بين أحيائها ، وأصبحت زيادة وسائل النقل والاتصال أمراً محتوماً (١) .

وفي الأحياء السكنية الحديثة ، قلما نجد اشخاصاً يعملون في أمكنة عملهم ، فالمدينة التي اتسعت ونظمت ، وظهر التنوع والاختصاص بين أحيائها ، يصعب التنقل بين أقسامها المختلفة مشياً على الأقدام ، لما يتطلبه ذلك من قطع مسافات طويلة تستغرق زمناً غير قصير . وهذه الحركة كثيراً ماتتضاعف ، فيمكن ان نضيف الى غدو الناس صباحاً الى أعمالهم ورواحهم مساء الى منازلهم ، ذهابهم الى الغذاء ظهراً وعودتهم بعد ذلك الى أعمالهم . وكذلك يتشابك سير هؤلاء مع أولئك الذين يذهبون لشراء حاجاتهم من المخازن ، بالاضافة الى الطلاب ومستخدمي المصانع والمتاجر وغيرهم ، ومن كل هذا ينتج ازدحام الطرق العامة مما يؤدي الى احتقان بعض نقاطها وتعطيل حركة المرور فيها .

خطوط الترام :

لم تدخل وسائل النقل مدينة دمشق إلا في عام ١٩٠٤ ، وذلك حين

«١» عدنان الدردري – وسائل النقل وتطورها في مدينة دمشق – بحث غير منشور – ١٩٥٤ – ص ٣ و ٤ .

منحت الدولة العثمانية احدى الشركات البلجيكية امتيازاً بتنوير مدينة دمشق وتسيير الحافلات الكهربائية فيها . وفي مطلع عام ١٩٠٦ اصبح في دمشق خطين للترام ، احدهما من المرجة الى الميدان والآخر من المرجة الى الجسر الأبيض . وكان هذان الخطان اقدم خطين للترام الكهربائي واول مظاهر النقل الميكانيكي المنظم وأول وسيلة للنقل العمومي المشترك في دمشق .

وفي عام ١٩١٢ مد الخط المزدوج من المرجة الى الجسر حتى جامع الشيخ محي الدين ، وبذلك ربطت مدينة دمشق بالاحياء المنفصلة عنها وهي الصالحية والاكراد . وتلا ذلك مد خط القصاع الذي الحق بخط دوما في أوائل عام ١٩٣٥ ، وقد سهل خط دوما اتصال دمشق بغوطتها الشرقية ، فهو يخرج من القصاع ويمر بقرى جوبر وعربين وحرستا ودوما .

وقد كان الدافع الى مد هذه الخطوط الجديدة هو الحاجة للمواصلات الحديثة والسريعة في مدينة دمشق ، وعدم اكتمال وكفاية شبكة الخطوط القديمة وبقاء أحياء كثيرة بدون مواصلات منتظمة تربطها بقلب المدينة أو تصلها باحياء أخرى ، هذا بالاضافة الى نجاح استثمار هذه الخطوط .

ودمشق مدينة بالشيء الكثير من عمرانها الحديث ، الى خطوط الترام وافتتاح طرق المواصلات ، فخط الصالحية الممتد حتى أحياء الصالحية مع فرعه خط الشيخ محي الدين ، هو عامل من عوامل عمران هذه المنطقة ، وخط القصاع الممتد حتى دوما ، كان له اكبر الأثر في اتساع رقعة المدينة نحو الشرق . أما حي الميدان الواقع في جنوب المدينة فيرجع عمرانه — كما ذكرنا — الى طريق الحج والحبوب ، وخط الترام الذي يصل هذه المنطقة بمركز المدينة قد اتبع الطريق القديم .

وقد وصل عدد الحافلات الكهربائية التي تقوم بالعمل في دمشق الى اكثر من أربعين حافلة ، وكان يتوقف منها ساعات المساء ١٦ حافلة ، ولما كانت هذه الساعات هي التي تكاثر فيها الحاجة الى المواصلات ، فان قسماً كبيراً من الركاب الذين يودون ركوب الترام لايجدون الحافلات اللازمة .

ويتبين من نتائج استثمار خطوط الترام ، انه كان رابحاً حتى عام ١٩٤٤ ، فقد تزايد عدد الركاب الذين نقلوا بالترام من ٧ ملايين راكب في عام ١٩٣٧ حتى بلغ اقصاه في سني الحرب ، فوصل الى ٢٣ مليون راكب في عام ١٩٤٤ ، وذلك بسبب توقف كافة وسائط النقل الأخرى وكثرة الزحام على الترام ، ثم أخذ عدد الركاب في التناقص المطرد بعد ذلك فهبط الى ٩ ملايين راكب في عام ١٩٥١ بسبب مزاحمة الاتوبيس . إلا أن الارباح التي جنتها الشركة قبل الحرب الثانية لم تكن كبيرة الى حد تسمح معه بزيادة رأس المال وتوسيع شبكة المواصلات ، إذ يلاحظ ان الشركة قد أحجمت عن مد خط المرجة ـ باب شرقي[1] الذي اخذت امتيازه .

وهناك أسباب عديدة لخسارة هذه الشركة وعجزها عن تأمين حاجات المدينة المتطورة ، وأهمها :

اولاً : تركز الدوائر الحكومية والمؤسسات التجارية والمالية في قلب المدينة ضمن دائرة تقع ساحة المرجة في مركزها ، ولذلك فالحافلات تمتلىء دوماً في اتجاه واحد ؛ هو الاتجاه نحو المرجة ، تزدحم في ساعات الصباح بالركاب القادمين من أطراف المدينة الى ساحة المرجة وتعود فارغة ، ثم تزدحم بهم انفسهم في ساعات الظهر أو المساء وهم عائدون الى بيوتهم .

---

(١) يمر هذا الخط بسيدي عامود (الحريقة) والبزورية والقيمرية .

ثانياً : اضطرار الشركة الى تخفيف عدد الحافلات الكهربائية كل مساء الى النصف تقريباً ، بسبب نقص الطاقة الكهربائية في أشد ساعات الزحام، فيضيع على الشركة عدد كبير من الركاب .

ثالثاً : قدم الحافلات الكهربائية المستخدمة ، إذ أن نصفها تقريباً يرجع عهده الى ما قبل عام ١٩١٤ ، فهي لا تتمتع بالميزات اللازمة لتأمين راحة الركاب وسلامتهم ، كما ان استطاعة محركاتها صغيرة لا تسمح باستعمالها على الخطوط الشديدة الانحدار ، وهذا فضلاً عن ضعف سرعتها .

رابعاً : مزاحمة سيارات الاوتوبيس لخطوط الترام ، إذ أن كثرة عدد سيارات الاتوبيس وقدرتها على السرعة يساعدها على اجتذاب الركاب اليها .

خامساً : كثرة النفقات التي تتطلبها ادارة وتسيير الحافلات الكهربائية وذلك بسبب ضرورة مد السكك والاسلاك وصيانتها بصورة دائمة ، هذا بالاضافة الى ارتفاع اجور موظفي ومستخدمي مؤسسة الكهرباء عن سائقي السيارات وقاطعي التذاكر .

وقد اقترحت عدة حلول للتخلص من خسارة حافلات الترام ، منها تنفيذ احدى المواد الواردة في دفتر شروط امتياز الترام ، بمنع سيارات الاوتوبيس من السير على خطوط الترام كلما كان لها طريق آخر تستطيع سلوكه . إلا أن هذا الحل لا يهدف الى حل مشكلة النقل في دمشق بصورة جذرية ، انما يقتصر على التخلص من خسارة الترام .

والخلاصة ، ان هذه الشركة قد مرت بدورين ، استمر الأول منذ تأسيسها حتى قبيل الحرب العالمية الثانية ، أدت الشركة فيه وظيفتها التي انشئت من أجلها ، وهي تأمين انتقال سكان العاصمة في وقت لم تكن فيه المدينة على حالها من الاتساع الذي نشهده اليوم .

أما الدور الثاني ، فقد بدأ مع الحرب العالمية الثانية واتساع مدينة دمشق وزيادة عدد سكانها ، وأصبحت الحاجة ماسة الى زيادة خطوط الترام وزيادة عدد الحافلات الكهربائية ؛ ولكن الأمور جرت على العكس من ذلك ، فلم تستطع الشركة استيراد أية حافلة جديدة أو مد أي خط جديد للترام ، وازدادت هذه الأزمة بعد الحرب وتفاقمت ، مما أدى الى الاعتقاد بأن النقل بالترام لم يعد حلاً مقبولاً ، وخاصة بأمثال هذه الحافلات القديمة ، وعجز الشركة عن تأمين حاجات المدينة المتزايدة في النقل .

هذه الأمور دعت الى التفكير بوسائل أخرى للنقل ، وظهرت الحاجة الماسة الى تأمين وسائل مساعدة للترام ضمن مدينة دمشق ، تتلافى مساوىءالترام ونقائصه ، وتؤمن الاتصال بين هذه الأحياء المحدثة ؛ ومن هنا نشأت فكرة استخدام السيارات الكبيرة (الاتوبيسات) في شوارع دمشق[١] .

سيارات النقل المشترك (الباصات) :

شهدت نهاية الحرب العالمية الثانية حركة عمرانية واسعة ، نشأت على أثرها عدة مناطق سكنية جديدة تبعد كثيراً عن خطوط الترام الثابتة . ولما كانت هذه الخطوط عاجزة عن توسيع شبكة خطوطها وتحسين وسائل نقلها ، لذلك فقد لجأت الشركة الى وضع عدة سيارات نقل كبيرة على خط المهاجرين ، تبتدىء من شارع النصر (جمال باشا) وتسير مع خط الترام ، ماعدا الاقسام الواقعة بين عرنوس والعفيف ، حيث تدخل في شارع الروضة وأبي رمانة . ولكن هذه السيارات لم تلبث أن توقفت بسبب قلة عددها وعجزها عن أداء مهمتها .

---

(١) المصدر السابق – ص ٢٤ .

ولذلك أقدمت المشاريع الخاصة ، بموافقة الحكومة ، على استثمار خطوط المواصلات ، ووضع حد لأزمة النقل ، وذلك بواسطة تسيير سيارات نقل كبيرة على خط الميدان ، وانشاء أول خط أهلي ينافس ويزاحم شركة الكهرباء على النقل في ترامها وخطوطها . وقد اعترضت شركة الكهرباء لتجاوز شروط امتيازها التي تقضي بعدم السماح لشركة ما ان تسير على الطرق التي تمتد فيها سكك خطوط الترام ؛ فلجأ صاحب السيارات [1] الى الحيلة ، وأعطى مشروعه اسم نقليات دمشق – القدم ، ومن الطبيعي أن الوصول الى القدم يتطلب السير في طريق الميدان الذي سلكه خط الترام .

وقد أدى نجاح هذا المشروع وكثرة أرباحه الى تشجيع أصحاب السيارات على تشغيل سياراتهم ضمن العاصمة ، فقامت شركة الباصات الجنوبية (التي كانت تتولى نقل الركاب بين دمشق وشرقي الأردن وفلسطين) ، بتسيير سياراتها على خط المهاجرين ، واتبعت سياراتها الطريق الذي سلكته في الماضي سيارات شركة الكهرباء ، انما بأجور مخفضة تبلغ نصف ما كانت تتقاضاه شركة الكهرباء من الركاب . ثم تبع ذلك قيام شركة بويو وعوض للسيارات على خط القصاع ، عن طريق شارع بغداد ، بالأجور المخفضة أيضاً ، واستطاعت هذه الشركات الأهلية مزاحمة شركة الكهرباء والترامواي ، سواء كان ذلك في حافلاتها أو في سياراتها ، واجتذبت منها ركابها بسبب انخفاض اجورها .

وطالبت شركة الكهرباء والترامواي ايقاف هذه الباصات ، تنفيذاً لصك الامتياز الذي ينص على حق استعمالها وحدها للطرق العمومية التي تسير فيها

---

(١) عبد الغني الشربجي .

خطوط الترامواي ؛ ولكنها خسرت هذه القضية بسبب عجزها عن زيادة وسائل النقل ضمن المدينة رغم مطالبة الحكومة لها باستمرار ، وتقرر رفض طلبها والسماح لسيارات النقل المشترك بالعمل على خطوط المهاجرين والقصاع والميدان بصورة رسمية .

وأدى نجاح هذه الخطوط الداخلية الى زيادة عدد السيارات العاملة ، فارتفع عددها من ٣٠ سيارة في عام ١٩٤٧ الى مايقرب من اربعة امثالها في عام ١٩٥٣ . وظل النقل المشترك في المدينة فترة من الزمن ، تحت رحمة اصحاب السيارات الذين لاتجمعهم رابطة ولاتنتظمهم شركة ، وكان همهم الوحيد هو تحقيق الربح الوفير فحسب ؛ مما أدى الى استياء المواطنين ، ويمكن ارجاع ذلك الى الاسباب التالية :

اولا : اختلاف عددالسيارات المستخدمة في احد الخطوط بين يوم وآخر ، فقد يقل عدد السيارات العاملة الى النصف أو الربع ، بسبب استخدامها في السفر الى خارج دمشق او في رحلات خاصة .

ثانيا : عدم التقيد بعدد الركاب الذي تستوعبه السيارات ، فقد تحشر السيارة ضعف طاقتها مما يعرض السيارة لاخطار كثيرة .

ثالثا : كانت السيارات لاتتحرك من مراكز انطلاقها الا بعد ان تمتلىء بالركاب ، فيبقى ركاب المحطات الواقعة على الطريق منتظرين فترة من الزمن قد تطول او تقصر حسب الظروف .

رابعا : عدم وجود تحديد لصلاحية السيارات وملاءمتها من حيث الحجم وعدد المقاعد والارتفاع والنظافة وغيرها .

خامسا : تسابق السيارات وتزاحمها ، طمعاً في الوصول الى المواقف المحددة قبل غيرها للفوز بركاب غيرها .

وهذه الاسباب دعت المسؤولين الى استصدار مرسوم يقضي بتنظيم النقل المشترك في اواخر عام ١٩٥٣[1] ، تحددت بموجبه خطوط النقل والشروط الواجب توفرها في السيارات العاملة عليها ، كما نص على عدم زيادة الركاب على عدد المقاعد المخصصة في كل سيارة ، فانتظمت حركة النقل في المدينة وزالت اسباب الفوضى الى حد كبير .

ويعتبر شارع النصر المركز العام لانطلاق جميع السيارات ، ويبدو أن خطوط النقل العام المشترك في مدينة دمشق قد سلكت طريق الترام في اقسام كبيرة من مساراتها، كخط الشيخ محي الدين والمهاجرين والميدان؛ويمكن تتبع شبكاتها الرئيسية على النحو الآتي :

شبكة خط القصاع : لم تكن شبكة خط القصاع في عام١٩٤٧ تشتمل الا على خط واحد ، انقسم الى اربعة خطوط في الوقت الحاضر ، وهي : حميدية ـ باب توما (٢٦) باص ، حميدية ـ ساحة العباسيين (٥) باصات ، حميدية ـ تجارة (٥ باصات) ، حميدية ـ مدحت باشا (١٠ باصات) .

تنقسم شبكة خط القصاع من مبدئها الى قسمين ؛ ينطلق الاول من شارع النصر الى القصاع عن طريق شارع بغداد ، ويتفرع عند وصوله الى ساحة التحرير الى فرعين ، يتجه الأول نحو باب توما ، والثاني نحو ساحة العباسيين ومدرسة التجارة ، وكلاهما يعود الى شارع النصر عن طريق شارع مرشد خاطر الموازي لشارع بغداد .

وينطلق الثاني من شارع النصر عن طريق سوق مدحت باشا حتى الباب الشرقي،حيث يتفرع هناك الىفرعين ، يتجه أحدهما الى ساحة العباسيين عائداًالى

---

(١) المرسوم الخاص بتنظيم النقل المشترك رقم ١١٢ بتاريخ ٥/١٠/١٩٥٣.

شارع النصر عن طريق شارع مرشد خاطر ؛ بينما يتجـه الآخر الى شارع ابن عساكر ، عائداً الى مركز انطلاقه عن طريق شارع خالد بن الوليد .

شبكة خط المهاجرين : وهي تتألف من ثلاثة خطوط اهلية ، وهي : مهاجرين ـ شعلان (٨ باصات) ،مهاجرين ـ ابو رمانة (٨ باصات) ،مهاجرين ـ مالكي (٣ باصات) . وهناك خط حكومي رابع الى المهاجرين عن طريق الصالحية (٢٠ باصا) ، تابع لمؤسسة النقل العام ، وقد حل محـل خط ترام المهاجرين عقب الغائه .

وتتألف شبكة مواصلات المهاجرين من خطين ، احدهما ينطلق من ساحة الشهداء الى ساحة خورشيد (في نهاية المهاجرين) عن طريق الصالحية وشارع ناظم باشا ، متبعاً نفس الطريق الذي كان يسلكه ترام المهاجرين ؛ والآخر ينطلق من شارع النصر الى مدرسة دار السلام ، حيث يتفرع الى فرعين ، يسلك الاول طريق الشعلان ، والآخر شارع ابي رمانة ، وهذا الأخير يتفرع الى فرعين ثانويين ، يتابع الاول طريقه في شارع ابي رمانة ، بينما يتجه الثاني الى شارع عدنان المالكي ، ولاتلبث هذه الفروع ان تلتقي ثانية في شارع ناظم باشا ، في طريقها الى ساحة خورشيد .

شبكة خط الميدان ـ الشيخ : كانت هذه الشبكة تتألف من شبكتين مستقلتين ، تعرف الاولى بخط الميدان والثانية بخط الشيخ، وقد تم توحيدهما منذ بضع سنوات تقريباً ، واصبح هذا الخط أطول خطوط المدينة كلها ، يخترقها من شمالها الى جنوبها ، وهو يتألف من خمسة خطوط : ميدان ـ حميدية ـ شيخ (٣٦ باصا) ، حميدية ـ ميدان ـ قدم (٦ باصات) وهذان الخطان أهليان ، بينما تشرف الحكومة على خطين آخرين هما : ميدان ـ حجاز (١١ باصاً) ، مخيم ـ مساكن ـ حجاز (١٠ باصات) .

شبكة خط ركن الدين : وهي من الخطوط الحديثة التي رافقت التوسع العمراني الحديث في منطقة ركن الدين الواقعة الى الجنوب من حي الاكراد . وتشتمل هذه الشبكة على خطين ، يعرف الاول بخط ركن الدين - ساحة ، ويمر بالمزرعة (١٤ باصا) ، والثاني اطول من الاول، ويعرف بخط ركن الدين - مستشفى ابن نفيس (١٣ باصا) .

شبكة خط المزة : لم يكن في هذه الشبكة ، حتى عهد قريب سوى خط واحد ينتهي في الساحة العامة لضاحية المزة القديمة ، ولكن بناء المساكن الشعبية على الطرف الايسر من الطريق الذاهب الى القنيطرة ، قد دعا الى تسيير خط آخر للسيارات . ويدعى الخط الاول ، مزة - مساكن شرقية (٦باصات) ويدعى الخط الثاني ، مزة - مساكن غربية (١٩ باصاً) .

ومما تقدم يتبين ان في دمشق مؤسستان للنقل ، الاولى حكومية تدعى « مؤسسة النقل العام » والاخرى اهلية تدعى « مؤسسة النقل المشترك » ، وقد سدت هاتان المؤسستان فراغاً كبيراً في حاجة المدينة الى وسائطالنقل، كما اسهمت في حل مشكلة المواصلات في المدينة ، وكان لها فضل لاينكر في نمو المدينة ، فقد حملت هذه الطرق معها مظاهر المدنية الى اطرافها ؛ ولكن الاطماع الشخصية والدوافع المادية مازال المتحكمة في المصالح العامة ، فالسيارات لاتستطيع استيعاب جميع الركاب في المحطات الواقعة بين نقطتي الانطلاق والنهاية ، ولا تتحرك غالباً من هاتين النقطتين حتى تستوعب العدد الكامل من الركاب ؛ بينما ينتظر الباقون في غير هذه المحطات دورا لهم قد يدوم وقتاً غير قصير .

ولابد من زيادة اشراف الدولة على هذه الشركات ، واجبارها على تأمين عدد كاف من السيارات يتناسب مع عدد السكان الذين يقطنون الاحياء التي تمر

منها هذه الخطوط وتخدمها ، كما يجب تزويد جميع المحطات بأروقة تقي المنتظرين حر الشمس وامطار الشتاء .

ان ظاهرة الازدحام وزيادة حركة النقل تبرز في اوقات خاصة من النهار ، تبدأ من السابعة حتى التاسعة صباحاً ، حين يتوجه الناس الى اعمالهم ، والموظفون الى دوائرهم والطلاب الى مدارسهم ؛ ومن الساعة الثانية عشرة والنصف الى الثانية والنصف ظهراً ، وقت الذهاب الى الغذاء وخروج الموظفين من دوائرهم ؛ ومن الساعة السادسة الى الثامنة مساء حين تبدأ الحركة المعاكسة لحركة الصباح ويعود الناس الى منازلهم .

ففي مثل هذه الاوقات لاتكفي وسائل النقل لاستيعاب هذه الزيادة في حركة النقل ، ولذلك يشتد الزحام على وسائل النقل ، وهذا يتطلب تسيير وسائل نقل اضافية في هذه الفترات تؤمن ركوب هذا الحشد من السكان ، وتمنع التزاحم والتسابق على وسائل النقل .

سيارات الاجرة الصغيرة :

ظلت سيارات الاجرة الصغيرة حتى وقت قريب ، لايربطها أي اتحاد اوشركة ، ولم يكن هناك من تنظيم لهذا النوع من وسائل النقل ، واصبح مبدأ المضاربة والمصلحة الشخصية هما العنصران المتحكمان في تحديدالاجور .

ومنذ عام ١٩٥٣ تألفت شركات موحدة لسيارات الاجرة الصغيرة ، وذلك عن طريق تكتل اصحاب السيارات واتخاذ مكاتب معينة لهم اعطت نفسها اسم « تاكسي العاصمة » ؛ وهي تتوزع في انحاء المدينة المختلفة ، مثل باب توما وشارع بغداد والجسر والمزرعة والمهاجرين وشارع النصر وغيرها .

ويتضح من دراسة الجدول (٤٢) ، ان عدد سيارات الاجرة الصغيرة في دمشق يتزايـــد باستمرار ، حتى كاد يتضاعف خلال السنوات السبع

جدول (٤٢)

تطور عدد سيارات الاجرة الصغيرة في دمشق

مقارنا بمثيله في حلب والقطر السوري[١] من ١٩٥٧ – ١٩٦٣

السنة	دمشق[٢]		حلب		القطر السوري	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
١٩٥٧	٣٥٦	٣٨,٨	٤١٣	٤٥,٠	٩١٦	١٠٠
١٩٥٨	٣٩٧	٤٠,٠	٤٠٤	٤٠,٧	٩٩١	١٠٠
١٩٥٩	٤٠٢	٣٨,٨	٤٢٥	٤١,٠	١٠٣٥	١٠٠
١٩٦٠	٤١٤	٤١,٦	٣٦٧	٣٦,٨	٩٩٥	١٠٠
١٩٦١	٤٥٤	٤٢,١	٣٧٤	٣٤,٧	١٠٧٦	١٠٠
١٩٦٢	٥٢٤	٤٧,٤	٣٢٧	٢٩,٦	١١٠٤	١٠٠
١٩٦٣	٦١٨	٥٨,١	٢٢٠	٢٠,٦	١٠٦٣	١٠٠

الاخيرة ، فقد ارتفع العدد من ٣٥٦ سيارة في عام ١٩٥٧ الى ٦١٨ سيارة في عام ١٩٦٣ . ومن الجدير بالملاحظة ، ان هذه الزيادة المطردة في عدد سيارات الاجرة الصغيرة في دمشق يقابلها تناقص مستمر في مثيلاتها بمدينة حلب بلغ النصف خلال الفترة نفسها ؛ فقد كان عدد سيارات الاجرة الصغيرة في حلب قبل عام ١٩٦٠ يفوق مثيله في دمشق العاصمة ، ولكنه اخذ في التناقص حتى بلغ ٢٢٠ سيارة فقط في عام ١٩٦٣ بعد ان وصل الى ٤١٣ سيارة في عام ١٩٥٧ .

(١) عن وزارة المواصلات .

(٢) تشمل محافظتي درعا والسويداء .

ومن مقارنة عدد سيارات الاجرة الصغيرة في دمشق ايضاً بمثيله في القطر السوري ، نجد ان العاصمة كانت تستأثر دائماً بأكثر من الثلث ، ولكن هذه النسبة ارتفعت في عام ١٩٦٣ الى اكثر من النصف (٥٨،١٪) .

ولا شك في ان هذه السيارات الصغيرة قد اسهمت في حل مشكلة المواصلات المتزايدة في مدينة دمشق ، ولعبت دوراً هاماً في سد العجز الحاصل في ساعات الازدحام امام مواقف الباصات ؛ ولكنها لاتزال في حاجة الى مزيد من التنظيم فيما بينها ، وتنسيق عملها مع مؤسسات النقل الاخرى ، لتؤدي دورها كاملاً في تسيير وسائل النقل لجميع المواطنين .

ولا يفوتنا اخيراً ، ان نشير الى السيارات الصغيرة الخاصة ، التي اخذت اهميتها تزداد مع ازدياد اعدادها يوماً بعد يوم ، فقد ارتفع عدد السيارات الخاصة من ٦٨٨٨ في عام ١٩٥٧ الى ١٢٠٩٦ في عام ١٩٦٣ (١) ، أي انه تزايد بمعدل ١٠٪ سنويا .

واذا اعتمدنا هذا المعدل العام في الزيادة السنوية ، نجد ان عددالسيارات الخاصة يصل الى ١٠٤٩٣٤ في عام ١٩٨٤ ، اي بنسبة سيارة واحدة لكل ١٤ شخصاً . ولا شك في ان هذا العدد الكبير من السيارات سوف تترتب عليه مشكلات خطيرة في حركة السير داخل المدينة ، لابد ان تنال ماتستحقه من اهمية كبيرة اثناء وضع المخطط التنظيمي لمدينة دمشق .

حركة السير في مدينة دمشق :

لاتجري حركة السير في المدينة كل يوم على وتيرة واحدة ، فهي تزداد بين الساعة السابعة والخامسة عشرة في وسط المدينة ، وبعد الظهر تقل

(١) تشمل هذه الارقام محافظتي درعا والسويداء بالاضافة الى دمشق ، الا ان نصيب هاتين المحافظتين يبدو ضئيلاً جداً بالنسبة لدمشق .

بشكل واضح ، ولكنها لاتلبث ان تزداد عند المساء ، وهذا يرتبط ، كل الارتباط ، باوقات العمل في الادارات الحكومية والمحلات التجارية وغيرها في المدينة .

اما ايام الجمع والاحاد فتتناقص هذه الحركة عما تكون عليه في الاحوال العادية ، وذلك لأن سيارات العمل تبقى في « المرائب » كما أن قسماً كبيراً من السيارات الاخرى تنطلق آنذاك الى خارج المدينة ، وتكون الحال على عكس ذلك ايام المعرض الدولي ، إذ تشهد المدينة اثنـــاءه زيادة كبيرة في كثافة حركة السير .

وتختلف حركة السير في المدينة من مكان الى آخر ، ومن دراسة الشكل (٥٨) الذي يبين حركة السير في ساعات الازدحام على خطوط المواصلات في مدينة دمشق ومداخلها ، نحصل على النتائج الاتية :

اولاً : ان حركة السير التي تنشأ عن وسائل النقل القادمة الى دمشق ، من كافة الاتجاهات ، تبدو ضعيفة بالنسبة لمثيلاتها في داخل المدينة .

ثانياً : ان شارع شكري القوتلي المحاذي لنهر بردى هو اكبر طريق يلج المدينة في كثافة حركته ، وهذه الكثافة تكاد تتضاعف بما يصب فيها من طريق المزة ، الذي يتممه طريق فلسطين .

ثالثاً ــ تبلغ حركة المرور اقصاها في شوارع ٢٩ ايار وبور سعيد وسعد الله الجابري ، وهي تؤمن الاتصـــال من الشمال الى الجنوب وبالعكس ، وفي الشارعين المتوازيين بغداد ومرشد خاطر ، وهما يؤمنان الاتصال من الشرق الى الغرب وبالعكس ، ثم في شارع النصر من جهة وعلى طول الطريق الواصل مابين جسر فيكتوريا وساحة الشهداء من جهة اخرى ؛ حيث تصل كثافة حركة المرور في كل منها الى ١٠٠٠ مركبة في الساعة .

رابعاً ــ يحتل المحور الرئيسي القادم من الجنوب ، وهو شارع خالد بن

الوليد ، المرتبة الثانية في كثافة حركة المرور ؛ وكذلك الحال بالنسبة للمحاور الثلاثة القادمة من القسم الشمالي من المدينة وهي شوارع ابي رمانة والصالحية والشهبندر ؛ حيث تتراوح كثافة حركة المرور في كل منها بين ٤٠٠ – ٦٠٠ مركبة في الساعة .

خامساً – يلاحظ ان الشارع المحيطي (الكورنيش) كثير الحركة في قسمه الجنوبي الشرقي وقليلها في القسم الجنوبي الغربي ، وتتراوح كثافة المرور فيه بين ١٥٠ – ٢٠٠ مركبة في الساعة .

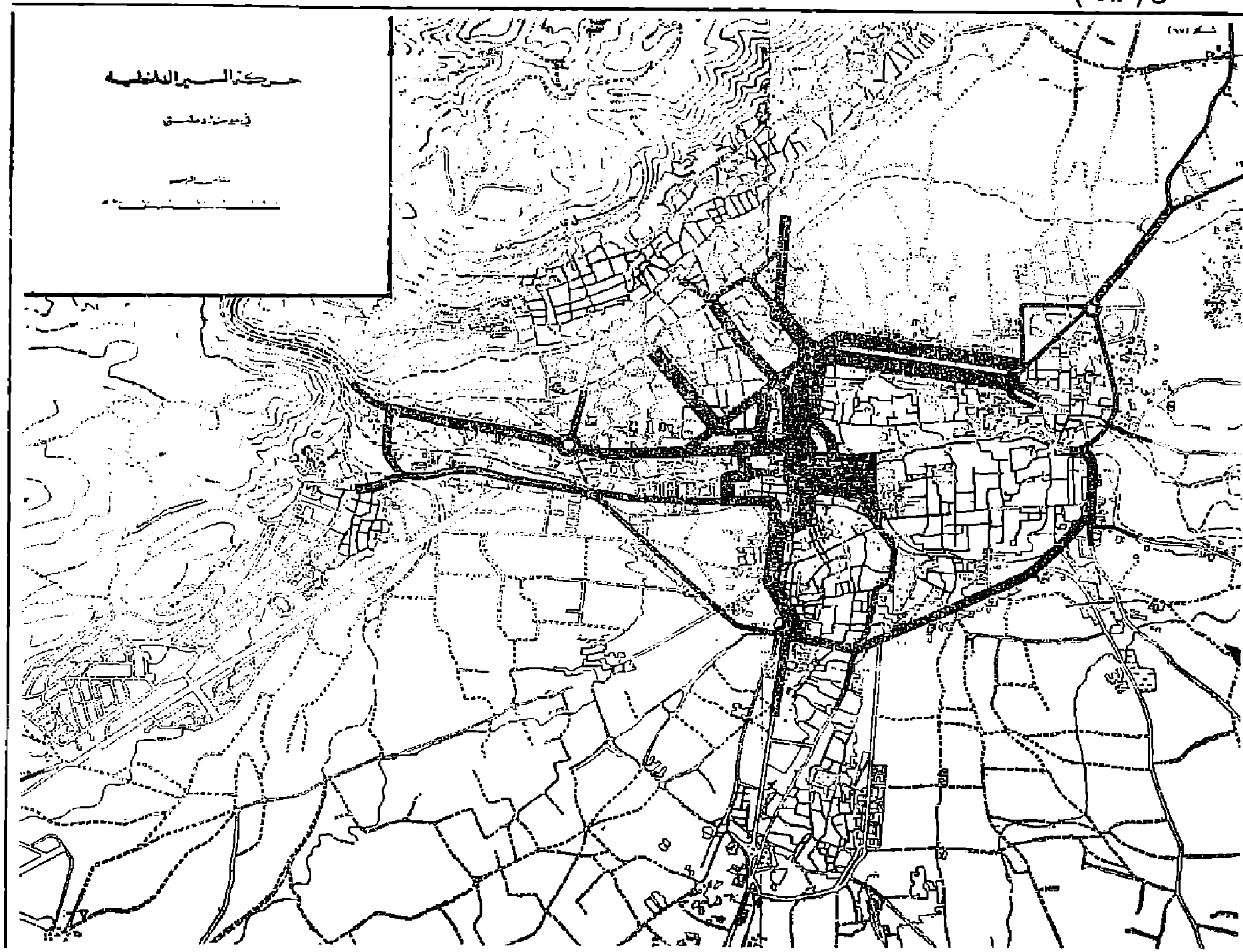
سادساً – ان الشارع الكبير الذي يبدأ من الأركان العامة باتجاه عرنوس ، يمكن ان يتحمل جزءاً كبيراً من حركة السير ، ومع هذا فان عملية التعداد لحركة السير لم تعطنا شيئاً مطلقاً عنه ، لأن الطريق كان معطلاً وقت التعداد (١) .

ومما تقدم ، يتبين ان في مدينة دمشق اماكن تكتظ بحركة السير البشري والآلي معاً ، مما يعرقل حركة سير السيارات من جهة ويعرض حياة المواطنين الى الخطر من جهة ثانية ، والحل المجدي في مثل هذه الاحوال هو فصل حركة السير البشري عن الآلي باحداث ممرات للمشاة تحت الارض تخترق الطرقات والساحات من طرف الى آخر ، دون ان يتعرض المشاة الى خطر الارتطام بالسيارات ؛ وتزود هذه الممرات بالتنوير المناسب وتراعى فيها التهوية اللازمة ، كما يمكن ان تنشأ على اطرافها اماكن لعرض المنتجات والبضائع من جميع الاصناف ، ودكاكين للبيع تمتاز بهدوئها وانعزالها عن اخطار السير والانواء الجوية وحرارة

---

(١) Ecochard , M . , Etape definitive , Rapport , 2 Juliet 1966 p . II - C - 3 .

شكل (٥٨)



الشمس ، فضلاً عن انها تضفي على هذه الممرات نوعاً من البهجة والحياة تجذبان الناس اليها ، فتعودهم على اجتناب اجتياز الشوارع والاختلاط مع السير الآلي. وقد اتجهت النية فعلاً الى انشاء مثل هذه الممرات والمحال التجارية في النقاط الهامة من تقاطع الطرق في المدينة مثل البرلمان ومحطة الحجاز والدرويشية (بالقرب من سوق الحميدية) وما شابه ذلك .

كما ان ازدياد عدد السيارات في مدينة دمشق بشكل مطرد ، جعل طرقات المدينة وساحاتها الرئيسية تكتظ بوسائط النقل بصورة شديدة لم تعرف لها المدينة مثيلاً من قبل ، وبات موضوع وقوف السيارات يؤلف معضلة كبيرة تتطلب الحل السريع لها ، ولا شك في أن المخطط التنظيمي الجديد لمدينة دمشق لن يدخر وسعاً في تخصيص مساحات واسعة لايواء عدد كبير من السيارات ، وخاصة في المناطق ذات الصفة التجارية التي تكثر السيارات عادة فيها . وبالاضافة الى ذلك ، يمكن انشاء عمـــارات لايواء السيارات (سياو كاراج) على بعض الاراضي التي تملكها امانة العاصمة ، على النحو المتبع في معظم المدن الكبيرة ذات النشاط الكبير في حركة السير الآلي .

الباب الخامس

العلاقات المكانية لمدينة دمشق

الفصل الأول : دمشق في غوطتها :

دور الغوطة في نشأة دمشق - حركة السكان بين دمشق وغوطتها - توسع المدينة في غوطتها - الصلات الاقتصادية بين دمشق وغوطتها .

الفصل الثاني : دمشق العاصمة .

موقع دمشق - الثقل الديموغرافي لمدينة دمشق - التفوق الاقتصادي لمدينة دمشق - مكانة دمشق في الشرق الأوسط .

الفصل الأول

دمشق في غوطتها

دمشق وليدة غوطتها ، ولا يمكن ان نعرف احداهما بدون الاخرى ؛ وتاريخ الغوطة يرتبط بتاريخ دمشق اوثق ارتباط ، فكان يصيبها ما يصيب دمشق من صلاح او فساد ومن رخاء او شقاء ؛ فاذا وقعت فتنة في دمشق لاتلبث الغوطة ان تصبح ساحة حرب لها ، واذا استتب الامن مدة من الزمن لاتلبث اطراف دمشق ان تعمر الى مسافات بعيدة ، فتزهو الغوطة وتكثر قصورها في ضواحي المدينة .

وهكذا كان العمران ، اذا أمن السكان امتدوا الى اقصى حدود قراهم ، وعمروا منازل لهم في حقولهم ، واذا خافوا انضموا بعضهم الى بعض ، وتخلوا عن المزارع الصغيرة ورحلوا الى الأرجاء البعيدة وتكتلوا داخل السور أو في القرى الكبيرة ، التي يستطيع أهلها حماية أنفسهم وبيوتهم من اعتداء المعتدين ومن هجمة اعراب البادية .

هذا الارتباط الوثيق بين دمشق وغوطتها يستند بجذوره الى المظهر الطبوغرافي ، الذي يفرض دراسة الغوطة ومركزها الحضري معاً ، فهو يتخذ بشكل مروحة فيضية ، تقع أعلى نقاطها عند مخرج بردى من خانق الربوة ، الواقع

بين جبلي قاسيون والمزة ؛ وفي هذا الجزء من المروحة الفيضية تلتقي رواسب بردى النهرية مع الرواسب السفحية الهابطة عليها من جبال قاسيون ، حيث شق فيها بردى واديه الذي يخترق المدينة من الغرب الى الشرق، فيشتد الانحدار من قمة المروحة الفيضية ، وتبدو فيها خطوط الارتفاعات المتساوية على شكل موجات مركزية تنطلق من مخرج النهر عند خانق الربوة .

وبالاضافة الى ذلك ، فان هذه البقعة تمثل الممر الوحيد نحو الغرب عبر الجبال ، وبالتالي تفرض التجمع على جميع طرق المواصلات القادمة من الشرق او الشمال او الجنوب . كما ان موقع المدينة القديمة في داخل المروحة الفيضية ، قد فرض ايضاً على طرق المواصلات التزامات اخرى .

هذان المظهران الطبوغرافيان ؛ شكل الارض وموقع المدينة، يشكلان ضرورة التجمع عند مخرج بردى من جهة ، ونحو مركز المدينة القديمة من جهة اخرى ، حيث ينبغي تنظيم المواصلات العامـــة للقادمين الى المدينة والخارجين منها .

ومما يجدر ذكره ، ان مركز المدينة الذي اخذ ينتقل نحو الغرب ، يؤكد اثر المظهر الطبوغرافي الاول المذكور بشكل واضح ، فقد اخذت طرق المواصلات تميل الى التجمع عند الربوة ، والعمران يتجه نحو مرتفعات المهاجرين لنقاء هوائها وجمال مناظرها ، وتهرب من الاراضي المنخفضة الرطبة قرب ضفاف بردى .

دور الغوطة في نشاة دمشق :

ان العوامل الجغرافية التي تضعف وتشتد باختلاف الظروف التاريخية ، توضح الدور السياسي للمدينة ، ولكن الحياة في دمشق بصورة خاصة ترتبط بحياة

الغوطة ارتباطاً وثيقاً ، والمدينة تريد لغوطتها الازدهار ، وتبذل ما في وسعها لتؤمن لأرضها المياه والأمن اللازمين لرخائها .

ودراسة الري في غوطة دمشق ، تبعث على الاعتقاد بأن نظام توزيع المياه - وحتى قبل ان تصل شبكة الري الى شكلها الحالي - كان يتطلب وجود سلطة سياسية قادرة على فرض احترامها بين رعاياها ليتسنى لهذا النظام بقاءه واستمراره ، ومن ثم فان حفر بعض الاقنية المائية ، ولا سيما قناة تورا ، تعتبر من الاعمال التي أمكن تحقيقها في وقت لم تسيطر فيه الاهواء الخاصة على المصلحة العامة . كما تفسر لنا - من ناحية اخرى - مغزى الاسطورة التي كثيراً ما يرددها اهل الغوطة ؛ ذلك ان هذه المنطقة كانت فقيرة فيما مضى ، وكانت الاراضي القريبة من نهر بردى هي وحدها التي تُسقى بمياهه ! وفي يوم من الأيام ، قدم الى هذه المنطقة ملك ، وبنى مدينة دمشق ، وكان له سبعة أولاد ، فعهد الى كل منهم حفر قناة لارواء اراضي الغوطة ، وكان ابنه الاكبر اسمه تورا[1] !...

وبالاضافة الى ذلك ، فان غوطة دمشق التي تقع على أطراف المناطق السهبية قد أوحت الى جميع سكانها بوجوب التضامن للدفاع ضد البدو ، والمركز الاقتصادي والسياسي أصبح اذن مركزاً حربياً كذلك . ولم تكن مهمة هذا المركز ضبط ومراقبة نقطة المرور الاجبارية فحسب ، فالطرق والدروب تتوجه الى الواحة كلها وليس الى نقطة معينة ، انما كانت مهمته توفير الأمن والطمأنينة لسكان الواحة كلها ، فالواحة لم تكن تتطلب رئيس فرقة لحراسة الطرق التي تسلب القوافل أو تجبي رسوم المرور ، انما كانت تحتاج الى سيد يحمي رعاياه ضد البدو ، لأن أهل الريف يفتقرون الى الأمن من أجل الانتاج ودفع الضريبة ، فتأمين وسائل الحماية كان كفيلا بنمو الحياة الاقتصادية وازدهارها .

---

(١) Thoumin . (1936) , Op . cit ., p . 239

ومنطقة الغوطة لا تتلقى أكثر من ٢١٥ ميلمتراً من الأمطار كل عام ، ولذلك فان الزراعة فيها لا تنجح وتزدهر الا بالري ، وبالتالي كان الحضر بحاجة الى الحماية من غارات البدو الذين لا يعرفون الانتفاع من الري ، ولا شك ان رعاية نظام الري وتوفير الأمن والسلام قد دفعا الى قيام سلطة سياسية وعسكرية في الغوطة . فالغوطة قد انجبت المدينة ، والمدينة توفي دورها السياسي في تأمين السلام وازدهار الغوطة .

حركة السكان بين الغوطة ودمشق :

تقوم بين دمشق وغوطتها علاقة اجتماعية واقتصادية مباشرة ، تتجاوز العلاقة التموينية ، وتحتم دراسة التفاعل الديوغرافي والاقتصادي والعمراني ، ومدى تأثيره على المخطط العام لمدينة دمشق .

ويمكن ان نميز في العلاقة السكانية بين حركتين : هجرة دائمة من الغوطة الى دمشق ، وحركة يومية بين العمل والمسكن .

أولاً ـ الهجرة الدائمة من الغوطة الى دمشق : هذه الظاهرة ليست جديدة ، فالمدينة استمدت سكانها دائماً من الريف ؛ ولكن نزوح الريفيين أصبح ظاهرة تسترعي الانتباه منذ النهضة الصناعية التي حدثت بدمشق في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، كما تلقت المدينة دفعات كبيرة من أبناء الغوطة ، خلال فترة الجفاف التي حلت بالبلاد بين عامي ١٩٥٤ - ١٩٦٠ ، والتي يمكن ان نعدها أكبر هجرة ريفية شهدتها الغوطة بعد الثورة السورية التي حدثت بين عامي ١٩٢٥ - ١٩٢٧ . والغوطة اذن لا تغذي المدينة بالطعام فحسب ولكن بالسكان أيضاً ، إذ تكاد لا توجد أسرة ريفية ليس لها ممثل في مدينة دمشق .

اما أسباب هذه الهجرة فهي عديدة ومعروفة ، أهمها تقدم كفاءة الفن الزراعي ، مما يحرر فائض السكان من الريف ، فالآلات الزراعية الحديثة التي

تقدمها الزراعة قد سلبت الريف كثيراً من عمله الزراعي الشتوي (آلات الحرث) و كذلك الصيفي (آلات الحصاد) .

وهناك ضغط وافراط في سكان الريف ، إذ تبلغ كثافـــة السكان في الغوطة ٣٠٠ نسمة في الهكتار، ويعيش فيها حالياً ما يقرب من ١٣٠٠٠٠ نسمة، وإذا كان معدل الزيادة السنوية ٣٥ في الألف ، فان هذا يعني ان عدد السكان فيها سوف يصل الى ٣٠٠,٠٠٠ نسمة في عام ١٩٨٤ .

ومن هذا يتضح أنه ينبغي تأمين أراضي زراعية لما لا يقل عن ١٧٠,٠٠٠ نسمة ؛ هذا بغض النظر عن عدد الذين يتركون الغوطة بحكم عامل الحضارة الحديثة . ونحن نعرف عدداً من المشاريع الخاصة بالغوطة[1] لا بد من التفكير باخراجها الى حيز التنفيذ منذ الآن ، إذا أردنا ان نساير التطور الديموغرافي لهذه المنطقة ، وعدم تبدل عمالها من ريفيين الى مدنيين؛ هذا فضلاً عما يترتب على زيادة السكان من عوامل الفقر المادي كضآلة الملكية وانخفاض مستوى المعيشة ورتابة الحياة المملة ، وهذه كلها عوامل طرد من المدينة .

وهناك عوامل جذب إلى المدينة ، كارتفـاع مستوى الأجور والمعيشة وأنوار المدينة والطلب على العمل خاصة في الصناعة والخدمات البلدية وهذا فضلاً عن العوامل الاخرى ، كالخدمة العسكرية التي تتم أحياناً في المدينة ، والتعليم العالي الذي يحصل دائماً في معاهدهـــا وكلياتها ، وهناك أسباب كثيرة تدعو المسرحين الى الاستقرار نهائياً في المدينـة ، كما تغري الخريجين الى العمل في مؤسساتها ومرافقها .

ولو دققنا النظر في هوية العمال المستخدمين في أكثر مصانع دمشق،لوجدنا

---

(١) سيأتي ذكرها في الباب الأخير من الرسالة .

جلهم من ابناء الغوطة ؛ مما يدل على ان الغوطة تشكل أهم مصادر اليد العاملة في دمشق ، ومع ذلك لم نجد بين سكان دمشق سوى ٤٥٨٨ شخصاً من أبناء الغوطة في تعداد ١٩٦٠ ، بينما يبلغ عدد الأشخاص المولودين في الغوطة وعدّوا فيها ٨٤٦٧٥ شخصاً ، أي ما يعادل ثلثي سكان الغوطة الحاليين تقريباً حسب تعداد ١٩٦٠ ، ومن هذا المجموع نجد ١٣٦٥٠ شخصاً من مواليد دمشق و٤١٠٦ أشخاص من مواليد محافظة السويداء و ٢٠٠٥ أشخاص من مواليد محافظة درعا ؛ ومن هذا يتضح ان الغوطة ليست منطقة يهاجر منها بل إليها !

ولا بد ان نذكر ، ان هناك تياراً عائداً من دمشق الى الغوطة يشمل الشيوخ المسنين من أبناء الريف ، كما يشمل الفقراء من ابناء المدينة هرباً من الغلاء والعوائد وأجور السكن الباهظة ، وهؤلاء اما ان يكونوا مرتبطين بمدينة دمشق باعتبارهم موظفين لدى الحكومة ، أو مستخدمين في بعض المؤسسات العامة أو الخاصة ، أو انهم مرتبطون بمنطقتهم نفسها ، باعتبارهم مستخدمين أو عمال في أحد المصانع المنتشرة بها . ولكن الملاحظ بأن هذا التيار العائد الى الغوطة صغير قليل الأهمية .

ثانياً ـ الرحلة الى العمل : هناك الكثير ممن يعمل في المدينة ويسكن خارجها في الغوطة، ولكن هناك بعضاً ممن يسكن في المدينة ويعمل خارجها، انما بنسبة أقل دائماً . فهناك رحلة يومية الى العمل ، ورغم ان هذه الحركة اليومية تقوم في داخل المدينة بين قلبها وأطرافها ، فان الحركة الاقليمية ظاهرة أساسية في العلاقة بين المدينة والريف ، فالسكن الريفي مع العمل في المدينة يأتيان من وفرة فرص العمل عادة في المدينة ، خاصة في الصناعة مع مشكلة قلة المساكن والغلاء فيها .

ان دراسة توزيع السكان حسب أعمالهم في غوطة دمشق (الجدول ٤٣)

جدول (٤٣)

أعمال السكان في غوطة دمشق حسب الجنس ونسبهم المئوية(١)

حسب تعداد ١٩٦٠

أعمال السكان	ذكور		اناث		المجموع	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
الزراعة والصيد	٩٨٥١	٢١،٧	٢٦١	٠،٦	١٠١١٢	١١،٥
المناجم والمحاجر	٢٢٧	٠،٥	٤	–	٢٣١	٠،٣
الصناعات التحويلية	٧٤٤٤	١٦،٤	٢٩٨	٠،٧	٧٧٤٢	٨،٨
التشييد والبناء	٢١٧١	٤،٨	٧	–	٢١٧٨	٢،٥
الكهرباء والغاز والمياه	٢٨٥	٠،٦	–	–	٢٨٥	٠،٣
التجارة	٢٤٨٧	٥،٥	١١	–	٢٤٩٨	٢،٨
النقل والمواصلات	٩٦٠	٢،١	١	–	٩٦١	١،١
الخدمات	١٠١٦	٢،٢	١٩٥	٠،٥	١٢١١	١،٤
أنشطة غير واضحة	٥١٦	١،١	١٥٣	٠،٤	٦٦٩	٠،٧
ليس لهم نشاط	١٩٣٥٢	٤٢،٧	٤١٨٨٨	٩٧،٧	٦١٢٤٠	٦٩،٤
غير مبين	١٠٦٢	٢،٤	٣٤	٠،١	١٠٩٦	١،٢
المجموع	٤٥٣٧١	١٠٠	٤١٨٥٢	١٠٠	٨٨٢٢٣	١٠٠

تظهر ان الزراعة والصناعة تأتيان في طليعة الاعمال التي يشتغل فيها أهل الغوطة، إذ تبلغ نسبة المشتغلين بها أكثر من ٣٨٪ بين الذكور ، تنال منها حرفة الصناعة ما يقرب من ١٦،٥٪ ، وتحتل المرتبة الثانية بعد الزراعة مباشرة .

(١) لا يشمل الأطفال دون السادسة .

ولا شك في ان ارتفاع نسبة العاملين في الصناعة ، في هذه المنطقة الزراعية ، يرجع الى زيادة ضغط السكان على الأرض الزراعية ، وعدم قدرتها على اعالتهم ، مما اضطر أهل المنطقة التوجه الى المصانع القريبة من قراهم ، فيؤمون مدينة دمشق صباحاً ، ثم يعودون الى قراهم عند المساء ؛ وقد أخذ هذا العدد يزداد يوماً بعد يوم ، حتى أصبح الحقل في كثير من الأحيان يقتصر على الوالد وابنه الاكبر فقط .

ويلاحظ ان أغلب المشتغلين بالصناعة من الذكور يعملون في الصناعات التحويلية ، وأهمها الصناعات النسيجية والخشبية والجلدية ، حتى ان بعض القرى أصبحت تشتهر بتفوقها بصناعات معينة حذق بها صناعها ، كشهرة أهل المزة بصناعة الحبال وأهل جوبر بالصناعات الجلدية والخشبية وأهل كفر سوسة بالتبغ .

وعلى هذا لم تعد حرفة الزراعة (٢١٫٧٪) المورد الوحيد بالنسبة لكثير من سكان الغوطة ، وبالتالي فان مستواهم المعيشي أبعد من أن يرتبط في تحوله صعوداً وهبوطاً بانتاجهم الزراعي ، كما هي الحال في بقية أنحاء الريف السوري .

وليست الصناعة هي الحرفة الوحيدة التي يعمل بها الفلاح في المدينة ، فقد شارك الفلاح في عدة أعمال أخرى غيرها كالتجارة (٥٫٥٪) والبناء (٤٫٨٪) والخدمات (٢٫٢٪) والنقل والمواصلات (٢٫١٪) ... الخ ، تشكل في مجموعها نسبة تقرب من عدد العاملين في الصناعة بين الذكور (١٥٫٧٪) .

ولا شك في أن سهولة المواصلات وتوفرها قد زاد في مدى الرحلة وجعلها تمتد حتى أطراف الغوطة . وهكذا أصبح النبض اليومي بين دمشق وغوطتها ظاهرة كبرى ، وهذه الحركة عامل فعال في التقريب الحضاري بين المدينة والريف .

الا أن الرحلة اليومية الى المدينة لاتقتصر على السعي من أجل الكسب والعمل ، انما تهدف للاستفادة من المؤسسات الحضارية التي يفتقدها أبناء الغوطة في قراهم كالتعليم والصحة ؛ فنلاحظ مثلا أن المدارس الابتدائية متوفرة في ثلاثة أرباع القرى تقريباً ، وخاصة في القرى التي يكثر فيها عدد السكان ؛ أما المدارس الاعدادية ، فهي على العكس من ذلك ، قليلة محدودة ، في حين أن المدارس الثانوية تنعدم تماما . ولا شك في أن انشاء مدرستين ثانويتين ، الاولى في الشمال الشرقي للغوطة ، والأخرى في الجنوب الغربي كداريا مثلا أمر ضروري للغوطة ، على أن يراعى الارشاد الزراعي فيها بشكل خاص .

ويتبين من توزيع المرافق الصحية من مستشفيات ومستوصفات وصيدليات واطباء ، وجود نقص كبير جداً . واذا كان توفير الاطباء لهذه القرى امراً عسيراً ، فمن المهم دائماً ان نوفر لكل قرية او لكل مجموعة من القرى على الأقل مركزاً طبياً مع مستوصف مجاني تتوفر فيه الاسعافات اللازمة .

* * *

وقد قامت امانة العاصمة في شهر ايار (مايو) ١٩٦٥ ، باجراء تعداد لحركة السكان بين الغوطة ودمشق ، وذلك على جميع وسائط النقل المارة عند مداخل المدينة الرئيسية الخمسة : طريق دوما ، طريق كفربطنا ، طريق المليحة ، طريق القدم ، طريق القنيطرة . وجرى حساب كل نوع من وسائط النقل على فترات ، مدة كل منها نصف ساعة ، اعتباراً من الساعة ١/٢ ٧ الى ٩ صباحاً ، ومن الساعة ١٣ الى ١/٢ ١٤ بعد الظهر ، ومن الساعة ١٨ الى ١/٢ ١٩ مساء . وقُدر عدد المارة على النحو الآتي : راكبان في السيارة الصغيرة الخاصة ، و ٤ ركاب في سيارة الاجرة الصغيرة ، و٢٥ راكباً في سيارة الركاب الكبيرة ، وراكب واحد للدراجة العادية او الدراجة النارية .

جدول (٤٤)

عدد المارين من مداخل دمشق بمختلف وسائل النقل بين الساعة ٣٠ر٧ و ٩ صباحاً

حسب تعداد أيار ١٩٦٥

المراكز	سيارة خاصة	سيارة اجرة صغيرة	اوتوكار	اوتوبيس	شاحنة	دراجة عادية	دراجة نارية	المجموع
مدخل طريق كفربطنا	١٤٩	١٥	—	٧٥	١٠٣	٥٣٩	٢٠٣	١٠٨٤
٪	١٣٫٨	١٫٤		٦٫٩	٩٫٥	٤٩٫٧	١٨٫٧	١٠٠
مدخل طريق المليحة	١٢٠	٣٥	—	١٥	٤٧	٨٦	٥٧	٣٦٠
٪	٣٣٫٤	٩٫٣		٤٫٢	١٣٫٠	٢٣٫٩	١٥٫٨	١٠٠
مدخل طريق دوما	١٨٩	٦٧	١٧	٨٦	١٥٢	٩٢	١٠٥	٧٠٨
٪	٢٦٫٧	٩٫٥	٢٫٤	١٢٫١	٢١٫٥	١٣٫٠	١٤٫٨	١٠٠
مدخل طريق القدم	٧٠	٣٦	٣٢	٤٥	١٤٩	٤٠	٢٠	٣٩٤
٪	١٧٫٨	٩٫١	٨٫١	١١٫٤	٣٧٫٨	١٠٫٢	٥٫٦	١٠٠
مدخل طريق القنيطرة	١٦٧	١٣١	٦	٢١	٨٧	٤	٢٧	٤٤٣
٪	٣٧٫٧	٢٩٫٦	١٫٤	٤٫٨	١٩٫٦	٠٫٩	٦٫٠	١٠٠
المجموع	٦٩٥	٢٨٤	٥٥	٢٤٢	٥٣٨	٧٦١	٤١٤	٢٩٨٩
٪	٢٣٫٣	٩٫٥	١٫٨	٨٫١	١٨٫٠	٢٥٫٥	١٣٫٨	١٠٠

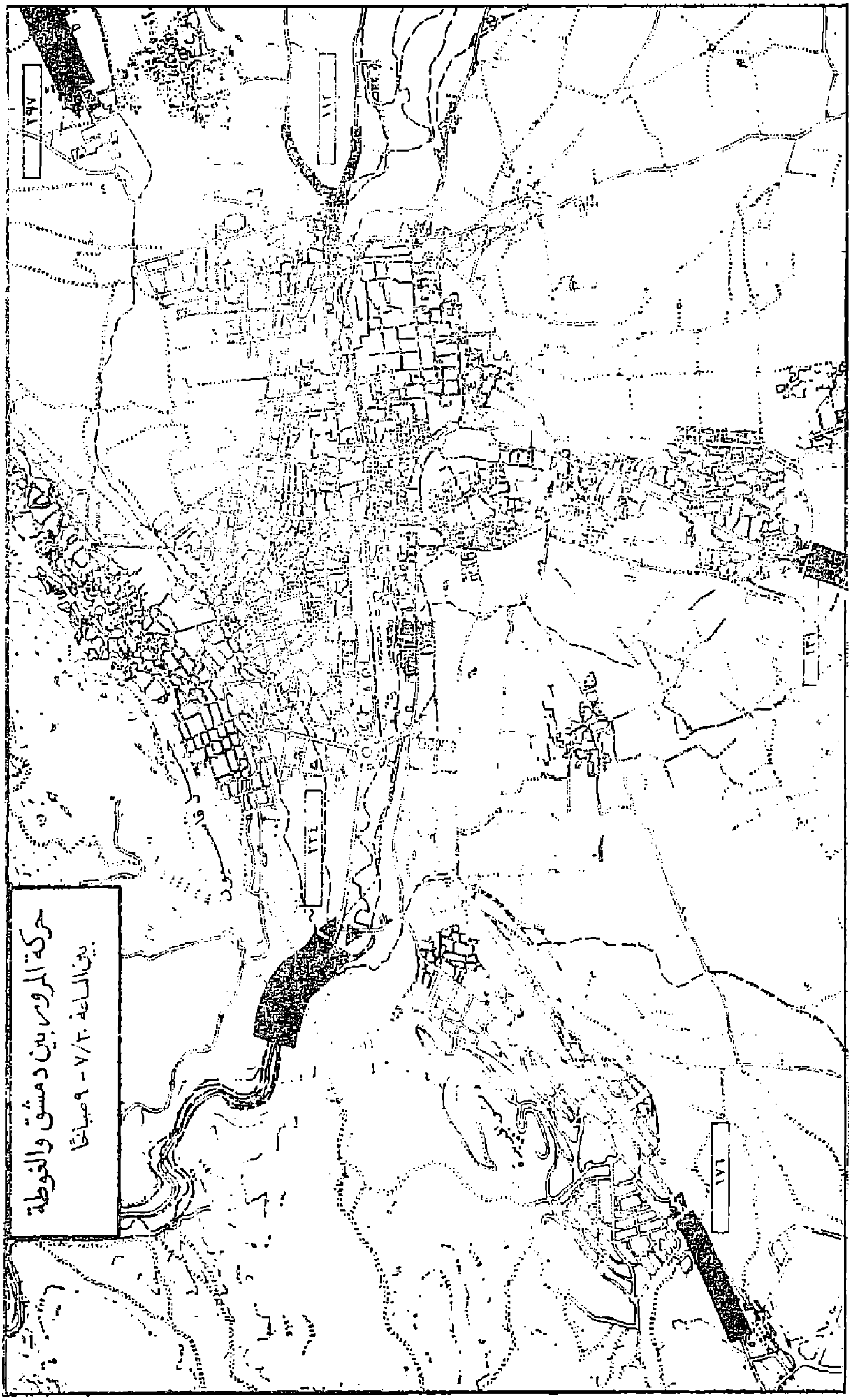
ومن دراسة وسائل النقل بين دمشق وغوطتها ، في الجدول السابق ، يتضح انه ينتقل بالدراجات العادية والنارية ٣٩،٣٪ من مجموع القادمين الى دمشق و٣٢،٨٪ بالسيارات الصغيرة الخاصة والعمومية ، و ٢٧،٩٪ بالسيارات الكبيرة من اوتوبيسات وشاحنات .

وتختلف وسيلة الانتقال الى العمل بحسب المسافة ، ففي طريق كفربطنا تقصر المسافة وتتقارب القرى ، وبالتالي تتم اكثر من ثلثي الحركة بالدراجات ٦٨،٤٪ ، بينما يقتسم الاتوبيس والسيارات الصغيرة بقية الحركة بنسب متقاربة . وتنقلب هذه النسب في طريق القنيطرة رأساً على عقب ، حيث تطول المسافة وتتباعد القرى ، وبالتالي يقل استخدام الدراجة العادية الى ٧٪ تقريباً،بينما ترتفع نسبة القادمين بالسيارات على اختلاف احجامها إلى ٧٣٪ .

ويلاحظ ان مدخل طريق كفربطنا يمثل اشد مداخل الغوطة كثافة في حركة المرور ، وهذا يرجع الى كثرة القرى التي تستخدم هذا المدخل في رحلتها اليومية الى المدينة ، فهي تفوق في عددها جميع القرى التي تستخدم مداخل طرق المليحة والقدم والقنيطرة مجتمعة ، ولا يفوق طريق كفربطنافي اهميته سوى طريق دوما ،الذي يخدم أهم قرى الغوطة واكبرها مثل دوما وعربين ، ولاشك في ان المكانة التي تحتلها دوما كمركز اقليمي يفسر تراجع مدخلها الى المركز الثاني بعد مدخل كفربطنا في كثافة حركة المرور (شكل ٥٩) .

اما طريق وادي بردى ، فهو طريق النزهة وقضاء الاجازات الاسبوعية طيلة ليالي الصيف ، حيث تشتد حركة المرور مساء كل جمعة حتى الساعة السابعة مساء باتجاه بيروت ، وهذا يرجع الى انتقال المتنزهين من ابناءدمشق نحوالرطوبة والظلال في وادي بردى . بينما تبتدىء حركة العودة الى دمشق اعتباراً من الساعة

شكل (٥٩)



السابعة مساء ، حيث تصل الى ١٠٠٠ مركبة في الساعة تقريباً[1].

ويلاحظ ان النسبة المئوية لسيارات النقل العام منخفضة جداً ، اذ لا تتجاوز ٧٪ من مجموع المركبات التي تمر في هذا الطريق . ولكن هذه الحركة الشديدة تقتصر على مساء كل جمعة فقط ، اما مساء السبت والاحد من كل اسبوع ، فتضعف الحركة نسبياً بحيث تبلغ ٥٠٠ مركبة في الساعة تقريباً.

هذه الكثافة الشديدة في حركة المرور ، تسبب العديد من حوادث السير على طريق الوادي ، مما يتطلب توسيع الطريق في بعض اقسامه ، كما يمكن تخفيف الضغط عنه باحياء الطريق الجبلي ، الذي يصل مابين المهاجرين ودمر .

واذا فرضنا ان المدة التي يتوافد فيها ابناء الغوطة الى المدينة تستمر ثلاث ساعات في الصباح ، أي من الساعة السابعة حتى العاشرة ، يكون المجموع ٦٠٠ نسمة تقريباً ، وهذا رقم تقريبي – كما هو واضح – اذ يمكن تقدير عدد الاشخاص الذين يأتون الى دمشق صباحاً للعمل او التموين بين ٥٠٠٠ – ١٠٠٠٠ نسمة. وعدد القادمين هذا – بلاشك – كبير نسبياً اذا ذكرنا ان عدد سكان الغوطة كله لايتجاوز ١٣٠ الف نسمة ، أي حوالي ٢٠ – ٢٥ الف عائلة ، كما ان هذا الرقم الكبير يفسر الطابع الريفي لبعض اسواق دمشق .

والمدينة ، بعد هذا ، هي المسرح ودار السينما ومدينة الملاهي لواحتها ، فكل هذه خدمات يصعب ان تقوم في القرى. ويلاحظ ان رواد هذه الخدمات من الغوطة يجمعون بينها وبين أغراض العمل والشراء في رحلة واحدة الى المدينة. واذا كانت رحلات العمل من الغوطة الى المدينة تتم صباحاً فرحلات التسلية والسهرة تتم مساء ، ويمكن قياسها من حركة سيارات الاتوبيس الليلية .

---

(١) Ecochard, (1966) , Op. cit., p. II - c - 4.

توسّع المدينة في غوطتها :

نشأت دمشق كقرية تعتمد في معيشتها على بساتينها واسواقها، ووفـّـت الموضع الاول بحاجات المدينة القديمة لمدة تزيد على الالفي سنة ، فقد كان التل الذي قامت عليه واسعاً ؛ ففي الغرب يأخذ في الارتفاع تدريجياً نحو الجبل ، الذي يسمح بالعيش عليه لكثير من الناس ؛ اما في الشرق ،فقلما تقدمت المدينة نحو الاراضي الواطئة الرطبة التي تشكل مدخل منطقة الزور ، ولذلك فان الحائط الروماني قد استقر على الحدود الشرقية لمدينة دمشق اليوم كما كان عليه في الماضي .

وقد ظلت دمشق حتى القرن الثاني عشر مخلصة للتل الذي نشأت عليه، محافظة على اسوارها التي ظلت قائمة في اكثر اقسامها ، ولم تكن تشتمل في عمرانها سوى مايكتنفه سورها في داخله من مساكن ومحلات تجارية وغير ذلك ، ولم تخرج عن ذلك السور الذي احاط بها من جميع جهاتها طوال القرون الطويلة ، بحيث لم يكن يستطيع المرء الخروج منها او الدخول اليها الا عن طريق ابوابها.

وعندما ضاقت المدينة المسورة بسكانها اضطر الناس لان يخرجوا بعمرانهم خارج السور ، فقد اقيمت الاسواق خلال القرن الرابع عشر على اختلاف انواعها كسوق الخيل في الناحية الشمالية وسوق الغنم في الناحية الجنوبية ، ومع مرور الزمن كان من الطبيعي ان تلحق الدور بهذه الاسواق ، فابتنى الناس ، ولا سيما التجار بيوتهم حول هذه الاسواق .

وهكذا خرجت دمشق عن السور المحيط بها ، واخذت تنمو تدريجيا وتتوسع على حساب غوطتها ، فتلتهم بساتينها ومزارعها واحداً بعد آخر ، يدل على ذلك اسماء الاحياء التي تحمل اسماء البساتين السابقة مثل بستان العجام

(الحلبوني) وبستان الشريبيشات وبستان الزاغة (الفحامة) وبستان الحجاجية وبستان الجندلي وغيرهم .

ولا شك في ان توسع المدينة المطرد ، سيؤدي حتما الى انكماش رقعة الارض المروية ، وحرمان المدينة من ظهيرها الزراعي الذي يؤمن لسكانها معظم حاجاتهم من الخضراوات والفواكه والالبان . وقد زحفت المدينة بعمرانها بدافع من ارباب المصالح الشخصية الذين يستخدمون نفوذهم من اجل ادخال اراضيهم ضمن مناطق التنظيم الجديد لبيعها باغلى الاثمان ، يساعدهم في ذلك اصحاب الضمائر الرخيصة من القائمين على مشاريع التنظيم ، وذلك بتوجيه الحركة العمرانية نحو الاراضي الزراعية المنتجة دون النظر الى المصلحة العليا والخير العام ، كما استفاد هؤلاء المستغلون من عدم وجود مخطط تنظيمي واضح او سياسة عمرانية محددة للمدينة .

ولم يقتصر زحف المدينة على الغوطة بعمرانها ، بل تعدى ذلك الى المصانع التي اخذت تظهر في اعقاب الحرب العالمية الثانية ، وانتشرت في اكثر مداخل الغوطة ، وتغلغل بعضها الى داخل البساتين ، فانتقلت عملية الغزو من الاطراف الى القلب نفسه ، واصبحت المشكلة اكثر سوءا واشد تعقيدا .

وقد صدرت عدة مراسيم متلاحقة تؤكد عملية السطو على اراضي الغوطة وتؤيدها بقرارات تقضي بضم بعض اجزائها واخضاعها لسلطانها ، وذلك تسهيلا لابتلاعها واعدادها لمشاريع التوسع المقبلة . وقد بلغت مساحة الاراضي التي نظمتها امانة العاصمة فيما بين ١٩٤٠ - ١٩٦٤ نحو ١٢٠٠ هكتار . اضيفت الى الرقعة المبنية من مدينة دمشق ، هذه المدينة التي كانت مساحتها المعمرة في عام ١٩٤٠ لا تزيد على ٦٧٠ هكتارا فأصبحت مساحتها اليوم تربو على ١٨٠٠ هكتار ، اي ان مساحتها تضاعفت ثلاث مرات خلال ربع قرن من الزمن .

ويرى بعض المسؤولين ، ان انكماش الاراضي الزراعية في الغوطة ، نتيجة زحف المدينة نحوها ، سوف يدفع بالمزارعين نحو المرج ، ويشجعهم على استثمار مساحات جديدة من اراضي هذه المنطقة السهبية استغلالا افضل ، كما ان المياه التي تخص هذه الاراضي الزراعية التي سلخت عن الغوطة سوف تساعد على احياء اراضي جديدة في منطقة المرج المتعطشة الى المياه ؛ وبذلك تكون النتيجة المترتبة على توسع المدينة في غوطتها هي مجرد عملية دفع وزحزحة للاراضي المروية من الغرب الى الشرق ، فما تبتلعه المدينة في الغرب يعوضه المرج في الشرق . ويحاول اصحاب هذه الدعوة ان يؤيدوا رأيهم ببعض الامثلة عن الملاك الذين باعوا اراضيهم التي شملها التنظيم والعمران باثمان مرتفعة واشتروا بها مساحات واسعة من اراضي المرج ، فاستصلحوها واقاموا فيها المضخات وحولوها الى مزارع واسعة مشجرة .

ولكن هذه المشكلة ليست – كما تبدو – على هذه الدرجة من البساطة، ولا يمكن الاخذ بمثل هذا الرأي لاسباب عديدة اهمها :

اولا : ان تربة الغوطة تختلف كثيرا عن تربة المرج ، فهي اكثر منها خصوبة وغنى [1] ، فما تكسبه الغوطة من اراضي المرج لا يعادل خسارتها من الاراضي المجاورة للمدينة .

ثانيا : اذا قبلنا جدلا ، ان المرج يعوض ما تفقده الغوطة من مساحات زراعية ، فان ذلك لا يبرر قبول فكرة التوسع على حساب الاراضي الزراعية المروية مطلقا ، واننا لنتساءل هنا ، لِمَ لا يكون المرج منطقة التوسع الزراعي المنتظر دون ان نضحي بارض الغوطة ؟ « اجمل قلادة في منطقة شرقي البحر

(١) انظر الفصل الخامس من الباب الاول في كتاب « غوطة دمشق » للمؤلف.

المتوسط » ، لا سيا وان الكثافة السكانية في الغوطة قد بلغت اقصاها ، واخذ ابناؤها يتطلعون الى آفاق جديدة يسعون اليها .

ثالثاً : ان وصول المياه التي كانت تروي الاراضي الزراعية ، التي انتشر فيها العمران ، الى اراضي المرج كاملة ، هو امر مشكوك في صحته ، فلن تستفيد من هذه المياه سوى اراضي الغوطة نفسها ، لأن هذه المياه سوف تضاف الى مياه الأنهر وتتوزع مع مياهها ، وخاصة في فصل الجفاف الذي تعاني الغوطة فيه مشكلة نقص المياه ، فأي فائض بعد ذلك يذهب الى الشرق ويساعد على احياء الاراضي الجديدة ؟ هذا بالاضافة الى ان طول المسافة التي تقطعها المياه في هذه المنطقة سوف تفقدها جزءاً من مياهها بالتبخر ، وخاصة في فصل الجفاف الذي يتصف بارتفاع حرارته وشدة جفافه .

رابعاً : ان الارض التي تحتاج اليها المدينة في توسعها ، يمكن توفيرها خارج الاراضي الزراعية المروية ؛ فعلى سفوح قاسيون التي تمتد نحو الشمال الشرقي حتى برزة ، وعلى روابي المزة التي تمتد نحو الجنوب الغربي حتى المعضمية ، مساحات واسعة من الاراضي الجرداء يمكن ان تستوعب التوسع العمراني المنتظر ، وتمتص الفائض البشري من مدينة دمشق ، كما انها تتمتع بميزات سكنية لا تتوفر في اراضي الغوطة المنخفضة . ولم تعد مشكلة مياه الشرب عاملاً محدداً للتوسع العمراني في المناطق المرتفعة ، فقد وصلت مياه الفيجة حتى قمة قاسيون لتزويد محطة التلفزيون الواقعة على ارتفاع ١١٥٠ م تقريباً .

اما المصانع التي اخذت تهدد الغوطة بغزو جديد ، وتملأ جوها النقي دخاناً وتحيل هدوءها ضجيجاً ، فهي تتطلب دفع مراكز الصناعة الى ماوراء الغوطة ، الى بضعة كيلو مترات فقط نحو الجنوب مثلاً ، فتحفظ للغوطة بهاءها وجمالها ، وتبعث الحياة في ارض هي احوج ماتكون الى هذه المراكز

الصناعية ؛ ولن يكلف ذلك اصحاب المصانع اكثر من التضحية بجزء من ارباحهم لتأمين نقل عملهم ومنتجاتهم لمسافة محدودة ، فيعوضون عن ذلك بأرض اكثر اتساعاً وأقل ثمناً .

واخيراً ، تجدر الاشارة الى انه مهما كان مستقبل الاتجاه في توسع مدينة دمشق فانه مرتبط بمستقبل الغوطة الى حد كبير ، لارتباط هذين المظهرين البشريين بعنصر واحد هو المياه . فقد كانت دمشق وما زالت مركزاً اقتصاديا وسياسياً هاماً ، يدين بأهميته الى غنى الواحة التي تحيط به ، ولكن هذا الغنى نفسه لا يمكن فصله عن نظام الري الذي يرتبط به اوثق الارتباط .

الصلات الاقتصادية بين دمشق والغوطة :

كانت القرية ، فيما مضى ، تمثل وحدة اقتصادية مستقلة ، تسعى لتأمين حاجاتها المختلفة اولاً ، ثم ترسل بفائضها الى المدينة لتحصل بثمنه على بقية متطلباتها ، وكان لاختلال الأمن وانتشار الفوضى ، في العهود السابقة ، اكبر الأثر في استمرار الريف ضمن هذا الاطار الاقتصادي المغلق حتى وقت غير بعيد . وكل ذلك قد فرض انواعاً معينة من المحاصيل الزراعية التي تحتاج اليها القرية ، بغض النظر عما اذا كانت هذه المحاصيل الزراعية مجزية اوغير مجزية .

ثم حل الاستقرار شيئاً فشيئاً ، واخذت القرية تخرج من عزلتها ، وتهدم اسوارها الترابية العالية ، وتزايد الاتصال والاحتكاك بالمدينة ، فاخذت معالم الاقتصاد الريفي تتطور شيئاً فشيئاً ، متطلعة الى اسواق المدينة . وازداد مع الزمن سلطان المدينة على الريف فاستلمت دفة توجيه الاقتصادي ، وسرعان ماطبعته بطابع اقتصادي اقليمي راسخ ، يتميز بتركزه حول المدينة وسوقها

الاستهلاكي الكبير ، ويحمل عبء تموينها وسد حاجاتها بالغلات الغذائية والمواد الاولية اللازمة للصناعة من زيت وقطن وقنب واخشاب وغيرها .

وقد نجحت المدينة في اقتطاع قرى كاملة من الريف لنفسها ، تستمد منها ذاتها وغناها . وهذه المدينة الطفيلية والسيدة هي الافق الاقتصادي الوحيد الذي يعرفه الفلاح المجاور ، وفيها يتم اتصال الوحدات الاقتصادية الصغيرة معاً ، والتي تشكل بمجموعها اللحمة الحقيقية للحياة الاقتصادية للمنطقة المحيطة بدمشق؛ وهذا يتفق مع قول فوارس عندما وصف الشرق الاوسط بأنه « بلد ريفي ذو اقتصاد مدني »[١] .

وتمثل مدينة دمشق سوقاً استهلاكياً ضخماً يفرض نفوذه على ظهيره الزراعي ، ويوجه انتاجه وجهة ترضيه ، والاستهلاك هنا هو اهم ضابط يحدد انتاج الغوطة وتوزيعه وتسويقه . والواقع اننا نشهد حول مدينة دمشق خضوع الجغرافيا الزراعية خضوعاً تاماً لجغرافية المدن .

ومع ان المياه تأتي في طليعة العوامل التي تحدد اهمية الارض في واحة دمشق ، الا ان عامل المسافة يقفز الى مرتبة الصدارة في المناطق المتاخمة للمدينة . فبعد الارض عن المدينة يسلبها عن طريق تكاليف النقل جزءاً من ميزاتها الاخرى ، ولهذا يقل سعر الارض كلما ابتعدنا عن المدينة ، ويرتبط بذلك كثافة الانتاج التي تشتد وتضعف تبعاً لسعر الأرض .

ومن هنا يظهر تخصص في الانتاج الزراعي في الغوطة ، يتفق مع المسافة من سوق المدينة ؛ فتنتظم المحاصيل في نطاقات واضحة . وقد وصف فون تينن

---

(١) Weulersse , J . Paysans de Syrie et du Proche - Orient , ed . 8 , 1946 , P . 88 .

هذه الصورة بقوله : « ستتنافس المحاصيل على الأرض ، وسيحتل الأرض ذلك المحصول الذي يمكنه ان يدفع أعلى ايجار لها ، أي الذي سيكون اربح محصول بعد حساب تكاليف الانتاج والنقل . وهذا العامل من شأنه ان يرتب المحاصيل في نطاقات متعاقبة بالنسبة للقرب أو البعد من المدينة »[1] .

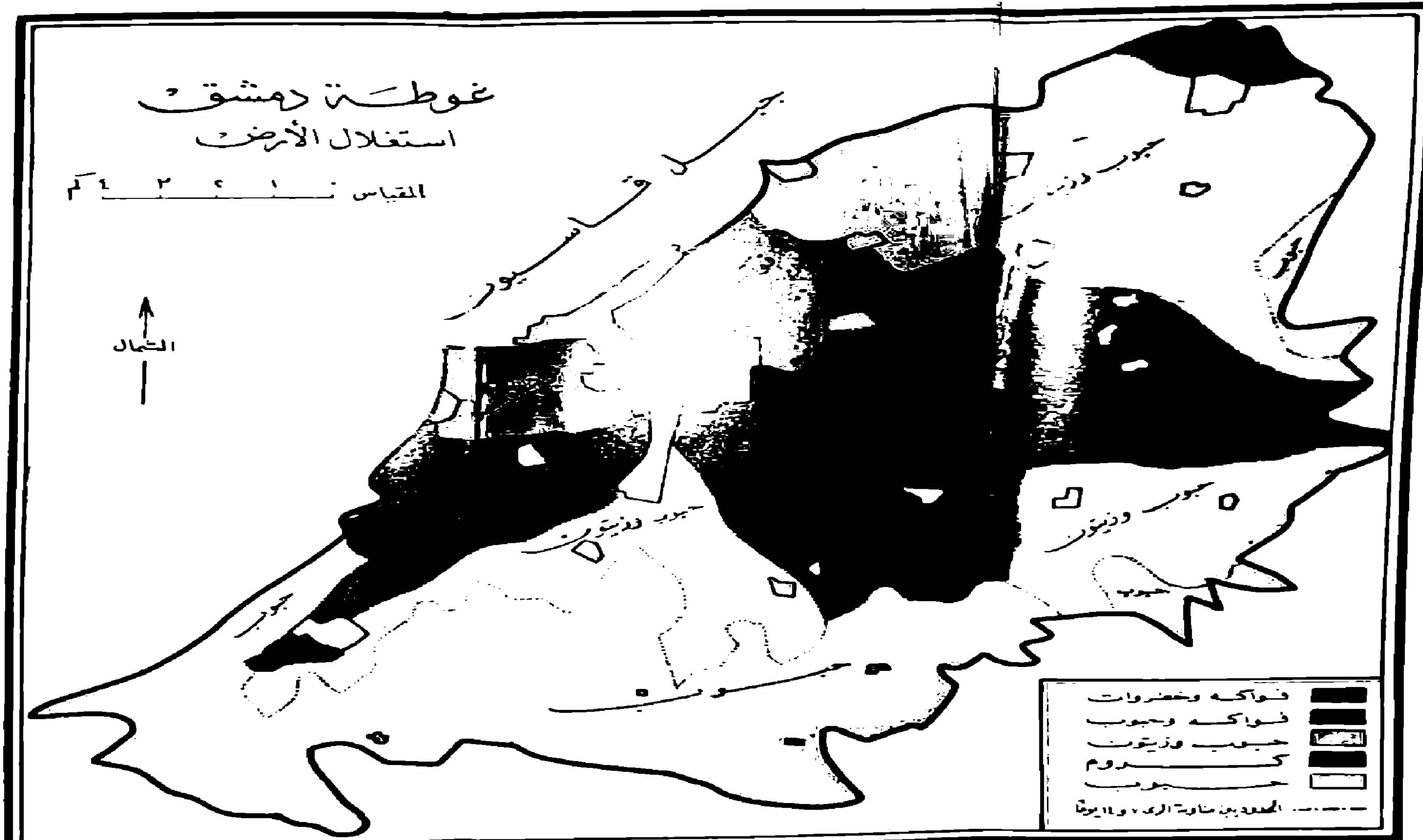
ويمكن ان نتبين وجود هذه العلاقة بين نوع المحصول وبعد المنطقة عن سوق الاستهلاك بدراسة استغلال الأراضي في غوطة دمشق ، حيث يمكن ان نميز بين نطاقين ، يشمل اولهما الحدائق والبساتين التي تتربع العاصمة في وسطها ، كما يضم بعض الضواحي والقرى المجاورة ، مثل كفر سوسة وبيت سحم وعين ترما وجوبر والقابون وغيرها ، وهذا النطاق قريب جداً من مركز الاستهلاك ويمكن من النقل السريع ، فلا تزيد ابعد نقاطه على بضعة كيلو مترات ، وتجري عملية النقل عادة بواسطة الدواب أو الطنابر أو السيارات ، ويختص هذا النطاق بزراعة الخضر والفاكهة ، كما يمكن ان نميز فيه منطقة ثانوية (ارض الصالحية) تعنى بزراعة الزهور وتتخصص بانتاجها .

اما النطاق الثاني ، فهو يشمل بقية اجزاء الغوطة ويتجه الانتاج فيه الى الزراعة الكثيفة المركزة ، ويستمر فيه النطاق الشجري بالاضافة الى زراعة الحبوب وبعض المحاصيل النقدية . ويمكن ان نميز فيه قطاعاً ثانوياً يعنى بانتاج الألبان ، ويضم اكثر من عشرين قرية اهمها عربين وجوبر والمزة والقدم وجرمانا والمليحة .

ويلاحظ ان هذا النطاق اكثر تحرراً من الارتباط بسوق الاستهلاك ، باستثناء الالبان السائلة التي تقترب مراكز انتاجها قدر الامكان من سوق

---

(١) المصدر السابق .



عن أطلس العالم العربي والشرق الأوسط (مع إضافات)

الاستهلاك ، وخاصة لأن تسويقها يتم بالمفرق (بالتجزئة) . والحيوانات في هذه المنطقة هي حيوانات ألبان فقط ، من بقر وغنم وماعز ، اما حيوان اللحم فتقع مراكزه بعيدة عن حدود الغوطة .

ومما تقدم ، يتبين انه يمكن تقسيم الغوطة – اذا صرفنا النظر عن بعض الشذوذ - الى مناطق كبيرة تحددها الفروع المائية ، فالأقسام الغربية من الغوطة تزرع الخضر والفاكهة ؛ اذ تسود الخضر جميع الأراضي التي تمتد من الصالحية الى كفر سوسة ، وتقدم جزءاً هاماً من الخضر التي تستهلكها مدينة دمشق ؛ وقد جاءت شهرة هذه المنطقة بزراعة الخضر نتيجة وفرة المياه وكثرة الدبال وكفاءة الفلاح الذي نال شهرة واسعة في هذا المضمار . وماوراء منطقة الخضر تمتد منطقة الحبوب والفاكهة ، ويفصل بين هذين النوعين من الاستثمار حدود تتذبذب من سنة الى اخرى (شكل ٦٠) .

ولاشك في ان المظهر الطبيعي العام للغوطة (اللاندسكيب) يعكس نوع الانتاج ، والعلاقة المتبادلة مع دمشق ، فالغوطة تبدو على شكل مربعات ترسمها جداول مائية قلما تتجاوز اطوالها ٣٠ - ٤٠ متراً ، ولا يزيد عرضها على المتر الواحد ؛ وتغطي اراضيها غابة كثيفة مخضوضرة ، مشتبكة الاشجار ، وكأنها بستان واحد لا تكاد الشمس تقع على ارضها لغزارة اشجارها واكتناف اغصانها ، تخفي تحتها المحاصيل الزراعية المختلفة . ويفصل بين الحيازات المختلفة خطوط تتألف من الاسيجة احياناً ومن الجدران الترابية (الدكوك) احياناً اخرى ؛ وخلال هذه البساتين تنطلق شبكة واسعة كثيفة من الطرق والدروب المترابطة .

ولا يشذ عن هذا المظهر الذي يشعر بالتقسيم والتفتيت سوى مشهد القرى الكثيفة المتلاحمة ، التي تتباين في مظهرها مع فسيفساء البساتين . انما يبدو

ان هذه الصورة في طريق التبدل ، فهناك الكثير من المساكن المتفرقة في داخل الحقول والبساتين لا يقتصر اقامتها على ابناء دمشق - سواء كان ذلك من أجل تأجيرها أو استخدامها خلال العطلات الاسبوعية - بل أخذ الفلاحون يشيدون أمثالها بازدياد مطرد .

ويبدو ان انتشار المضخات المائية، والرغبة في مراقبة الزراعة عن كثب ، قد أخذت تزداد بكثرة ، كما ان ادارة الحقوق المائية على مستوى القرية كلها قد فقد أهميته في قسم كبير من الغوطة ، وأصبحت السقاية بالنسبة المستثمر قضية فردية بعد انتشار المضخات بكثرة خلال العشرين سنة السابقة .

ولا شك في ان هذا المظهر الطبيعي للغوطة لا يمكن تفسيره بدراسة المحاصيل الزراعية فحسب ، فهو يتأثر بالمدينة القريبة ، ويمكن ايجاز العلاقات الحالية بين العاصمة والغوطة على النحو الآتي :

تعتبر الغوطة مصرفاً لمدينة دمشق ، ترسل اليها مياهها المستعملة (٥٠ مليون متراً مكعباً في السنة) وقسماً كبيراً من فضلاتها ، يجمعه الفلاحون من شوارع العاصمة أثناء الليل ، وما تجمعه أمانة العاصمة من القمامة التي تكدسها خارج المدينة (حوالي ٣٥ طن يومياً) ومقابل ذلك ، تتلقى دمشق من الغوطة الخضر والفواكه والألبان وكميات محدودة من اللحوم ، هذا بالاضافة الى سيل من الفلاحين ، يدخل الى المدينة ، ويخرج منها كل يوم ، وخصوصاً بين الساعة السابعة صباحاً والساعة الخامسة عشرة بعد الظهر .

وفي كل عطلة اسبوعية ، يذهب الى الغوطة عدد كبير من أبناء دمشق ، يقصدون أقاربهم أو أصدقاءهم من المزارعين ، وينتشرون في البساتين والحقول وعلى طول طرقاتها وتحت ظلال أشجارها .

ويمكن ان ترجع هذه الصلات الوثيقة بين دمشق وغوطتها الى عدة عوامل ، أقدمها شبكة الري ونظام توزيعها ، يلي ذلك شبكة المواصلات التي

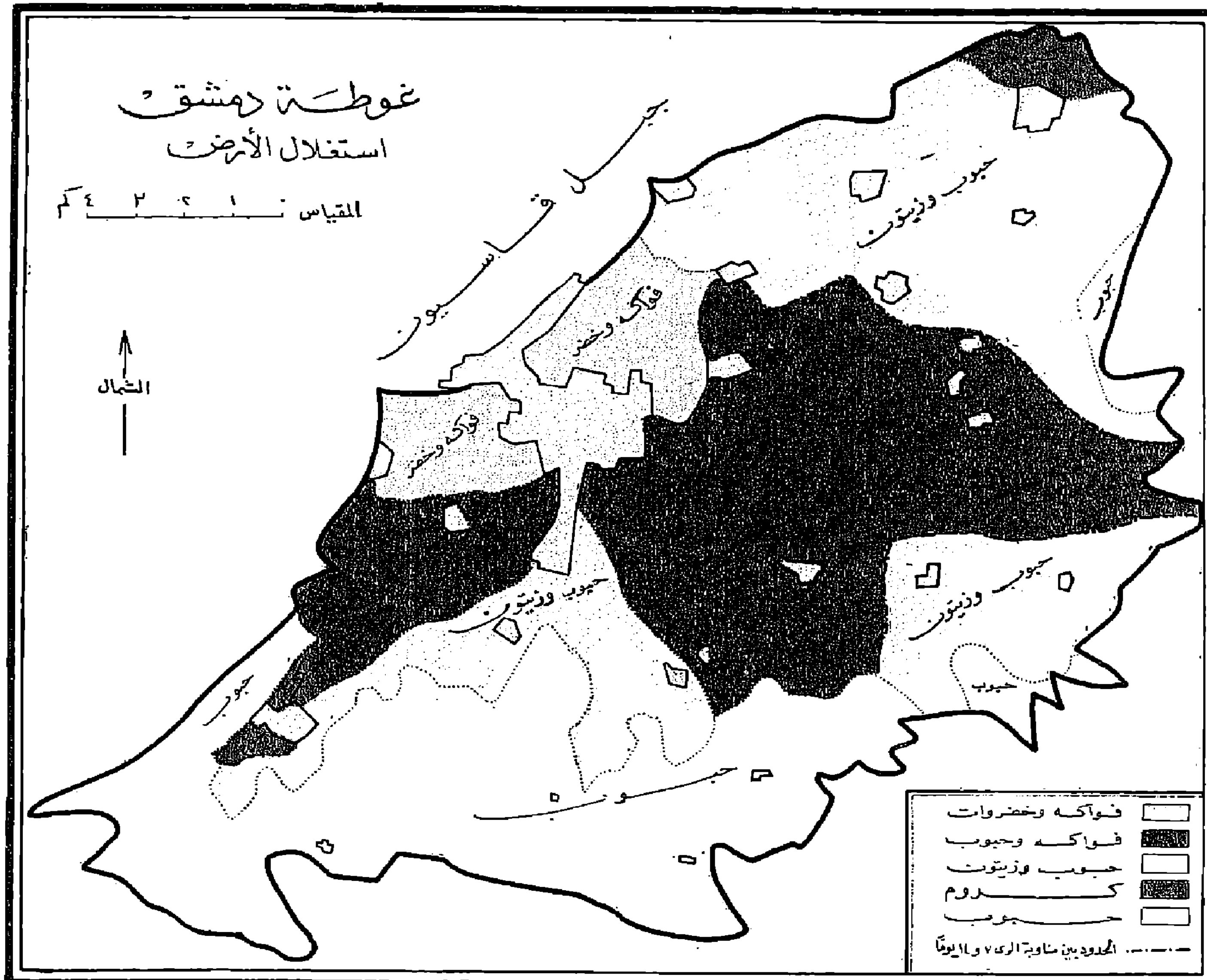
يلاحظ نموها واتساع شبكتها وتحسن طرقاتها ، كما يتضح ذلك من مقارنة خريطة الغوطة في عام ١٩٤٠ وخريطتها في عام ١٩٦١ .

وكذلك فان استغلال الغوطة كمنطقة تسلية ولهو في أوقات الفراغ ، يؤدي الى زيادة عدد بيوت الاصطياف شيئاً فشيئاً ، هذا بالاضـــافه الى امتداد المدينة نفسها داخل الغوطة وإقامة بعض المصانع فيها ، إذ يلاحظ اتجاهاً واضحا لانتقال الصناعة من دمشق الى أطرافها الريفية للافادة من سعة المكان وانخفاض الضرائب وسعر الأرض .

وكيف يمكن لصناعة المدينة ان تتخلص من أثر التوجيه الريفي ، فخامات الريف وحاجاته تسهم الى حد كبير في تحديد شخصية المدينة الصناعيـة ، حيث تقوم بتصنيع خامات الريف الزراعية للاستهلاك المحلي او التصدير ، فقـــد نالت دمشق شهرة واسعة بمصنوعاتها الغذائية ، وفي طليعتها الكونسروة التي تعتمد على ثمار الغوطة وخضارها .

ولا ريب ان التجارة تمثل أهم أوجه العلاقة بين المدينة وغوطتها ، فسكان الغوطة لايجدون كل حاجاتهم في قراهم ، ولذا يستكملون ماينقصهم منها برحلة يومية أو اسبوعية الى المدينة . كذلك يفضل بعض الفلاحين بيع منتجاتهم خاصة من الفواكه والخضر والألبان الى المستهلك في المدينـــة مباشرة في رحلة يومية .

وتجد الغوطة في المدينة مجـــالاً لتصريف فائضها الحيواني ، في أسواق الماشية التقليدية التي تقام في المدينة . ولكن هذه الأسواق أخذت تضمر تدريجياً ، بعد ان أصبح تجار الحيوان وسماسرته ينتقلون الى الريف والبادية مباشرة لجمع الحيوانات اللازمة لاستهلاك المدينة ، هذا فضلاً عن ان الغوطة لاتسهم في هـــذا المضمار إلا بنصيب محدود .



عن أطلس العالم العربي والشرق الأوسط (مع إضافات)

ومما تقدم ، يتضح ان العلاقة بين دمشق وغوطتها علاقة متبادلة ، فرخاء المدينة غالباً من رخاء ريفها وانتعاشه ، حتى ان المرء يستطيع ان يحكم على حالة المواسم الزراعية في الريف من درجـــة النشاط أو الكساد في محلات المدينة ومتاجرها « فلولا الغوطة ما كانت دمشق من أجمل مدن العالم ، ولولا دمشق ما كانت الغوطة إلا صحراء خالية تعبث البادية في ربوعها »[1] .

(١) محمد كرد علي (١٩٤٩) – ص ٢٩ .

الفصل الثاني

دمشق العاصمة

يهدف هذا الفصل الى استقصاء العلاقة بين دمشق العاصمة وسورية الدولة، فالتخطيط القومي لابد ان يشمل العوامل الكثيرة التي تؤثر تأثيراً مباشراً على وضع المدينة السياسي والاداري والاقتصادي والاجتماعي والثقافي ؛ فهناك دائماً عوامل تؤثر في تخطيط المدينة وتنبثق أساساً من خارج الوضع المحلي .

والمدينة تنمو تبعاً لحاجات وقدرات خاصة ، فالحاجات الادارية للسلطات العامة كانت - وما تزال - عوامل هامة في نمو المدينة على مدى التاريخ ، وكانت التجارة - وما تزال - عاملاً آخر يماثله في الأهمية . وتنمو المدينة كذلك لزيادة تبادل السلع والخدمات ، ولزيادة تبادل الآراء ، كما ان الخلق السياسي والثقافي والفني يتطلب المدينة لينمو ويزدهر فيها ، إذ ان المدينة هي وحدها التي تضم العدد الملائم من الناس لمواجهة مختلف الآراء والتخصصات .

ان تخطيط المدينة ليس مسألة حساب المساكن والحجرات فيها، أو توفير الشوارع الواسعة والخدمات البلدية لساكنيها ، انما هي وحدة قومية تتكامل من

الناحيتين الاقتصادية والثقافية مع نمو البلاد كلها ، والواقع ان المدن غالباً ماينتسع ميدان خدمتها فلا تقتصر على أقاليمها ، بل يمتد أثرها الحضاري الى أقاليم اوثقافات أوسع متخطية بذلك الحدود السياسية .

ومتى حصل القائمون بتخطيط المدن على التقديرات التي يحتاجون اليها بالنسبة لمستقبل عدد السكان والصناعة والتجارة ، والتركيب الاجتماعي ومستويات الدخل وتوزيعه ونمط العمارة وتصميمها ، وحركة المرور ، وغير ذلك من البيانات، استطاعوا أن يتخيلوا صورة تخطيط الدولة كلها ، لاتخطيط المدينة فحسب . فمن الصعب ان نقدر المستقبل العددي لسكان مدينة ما إذا لم يسبق ذلك دراسة نمو السكان في القطر كله ، فالدخل والثروة والتصنيع والتجارة إنما تنمو في مدينة كجزء من تنمية عامة في القطر كله ، ومن ثم كانت العلاقة وثيقة بين تخطيط المدينة والتخطيط القومي . فالمدن ، باعتبارها تجمعات بشرية عضوية وظيفية ، انما تنمو نتيجة قوى معينة ، هي في طبيعتها قوى اقتصادية وثقافية واجتماعية وإدارية ، وهي قوى تنبثق من داخل المدينة ومن خارجها ، فالمؤثرات القومية بالغة الأهمية بصفة عامة في تحديد نمو المدينة ووضع مخطط تنظيمي لها .

ورغم التطورات العديدة التي مرت بها مدينة دمشق ، فقد تبوأت مركزها الطبيعي في البلاد كعاصمة ، واستأنفت وظيفتها السياسية التي تمتد جذورها التاريخية الى مطلع الالف الأولى قبل المسيح. ولم يتغير دور مدينة دمشق كمركز زراعي ومكان المبادلة ، كما يؤكد ذلك الرواة العرب منذ ألفي سنة ، ولم تتغير مكانة ثروتها وجمالها بالنسبة لسكان الشرق على مجرى تاريخها، فهي موطن السحر ، يستراح فيه بعد اسابيع طويلة من السير عبر الصحراء ، او اجتياز مساحات واسعة تبدو على نمط واحد بدون أشجار ، وخاصة في القلمون وحوران .

ومع ان السوق الزراعي اليوم مازال نشيطاً كالسابق ، إلا أنه فقد مكانته التي كان يحتلهـــا في آسيا الغربية قبل انتشار السكك الحديدية والسفن التجارية وسيارات النقل الحديثة . ولم يعد الحجاج يرتادون هذا المركز الديني ، كما هي الحال في الماضي ، للسفر الى مكة عن طريق دمشق؛ كما أن الخط الحديدي الذي اسهم في التوجيه الى هذه الاسواق باعادة جزء من حيويتها القديمة ، لم يعد يمضي الى اكثر من بلدة معان في شرقي الاردن .

ورغم ذلك كله ، فان دمشق تجد في موقعها الجغرافي وثقلها الديموغرافي وتفوقها الاقتصادي ما يوفر لها جميع المقومات التي تؤهلها للاستمرار كعاصمة للبلاد في عصرها الحديث .

موقع دمشق :

ليست العاصمة مجرد مركز اداري كبير للدولة ، او مكتب رئيسي في الداخل فحسب ، ولكنها ايضاً نافذة على العالم الخارجي ؛ فتحديد موقع العاصمة تتجاذبه وظيفتان : وظيفة العاصمة الداخلية « كضابط ايقاع » يحفظ التوازن والتكامل بين اقاليم الدولة المختلفة ، ووظيفة العاصمة الخارجية « كولي امر » الدولة مع الدول الاخرى [1] . والفكرة الاولى تجنح بالعاصمة الى مبدأ الرأس وبالتالي موقع التوسط الجغرافي؛ والثانية تجنح الى مبدأ البوابة وبالتالي الموقع الهامشي.

وفي كلا الحالين لابد من تحقيق الشرط الرئيسي العام لمواقع العواصم الكبرى ، والذي اجمله « كورنيش » في عبارة واحدة وهي « الموقع البارز» [2] ولكن هذا الشرط العام لايتحقق الا بشروط خاصة ، يمكن أن نميز منها اربعة : التوسط الهندسي ، توسط الجزء المعمور ، التوجيه السياسي ، العامل التاريخي .

---

(١) Chabot, G., Les Villes, Paris, 1952, P. 88

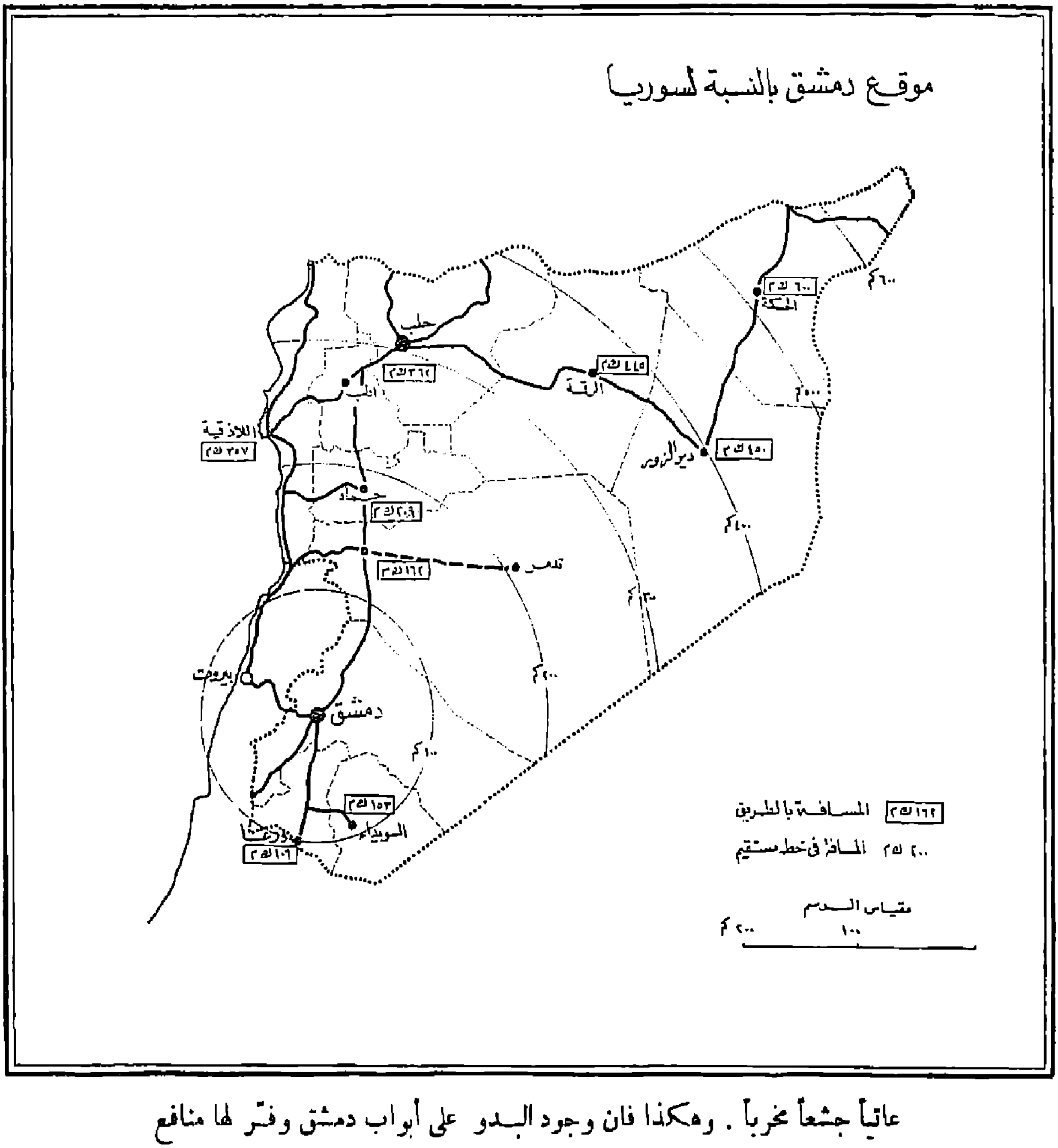
(٢) Cornish, V., The great cpitals, London, 1923, pp. VII - VIII.

فالتوسط الجغرافي بالنسبة لاطار الدولة ، يتطلب من العاصمة ان تتوسط الدولة وان تكون منها في مركز الثقل الهندسي ؛ وذلك ضمانا للحماية في وقت الحرب ، كي لا تقع بسهولة في ايدي الاعداء، لأن سقوط العاصمة يحطم معنويات الدولة ، وتسقط البلاد بسقوطها ، كما حدث بالنسبة لباريس عام ١٨٧١ ، ولهذا تبتعد العواصم عادة عن الحدود البرية والبحرية بقدر الامكان .

ومدينه دمشق ، تحتل موقعاً هاماً في القطر السوري ، كما يتضح من الشكل (٦١) ، الذي يبين المسافات التي تفصل العاصمة عن بقية المدن السورية في خط مستقيم . ولكن يلاحظ ان مدينة دمشق لم تكتسب اهميتها الكبرى بسبب موقعها فحسب ، لأن مدينة حمص مثلا تتمتع بموقع افضل يساعدها على الاشراف على جميع انحاء القطر السوري ؛ فهي تقع عند مفترق الطرق الرئيسية الشرقية ـ الغربية ، والشمالية ـ الجنوبية ، بالاضافة الى موقعها على طريق مرور انابيب البترول . كما ان موقعها عند فتحة حمص ـ طرابلس ، التي تقع بين جبال العلويين وجبال لبنان الغربية ، يؤمن لها الاتصال السهل مع الساحل .

ولا شك في أن صعوبة المواصلات بين المدينة والبحر ، لا يدل على جودة موقع دمشق ، فاجتياز الحاجز الجبلي المزدوج ، في جبال لبنان الغربية والشرقية ، يتطلب عبور الثنايا المرتفعـــة المغمورة بالثلج كل شتاء ، والاودية الضيقة العميقة ؛ وكلها طرقات صعبة يتوقف العمل عليها خلال أيام عديدة من السنة . وقد نتج عن صعوبة اتصالها بالبحر ، ان تعلق مصير دمشق بمصير الشرق بشكل خاص ، فانحرفت عن البحر المتوسط ، وغدا تاريخها يهيمن عليه البدوي ، وإذا بهذا البدوي يظهر تارة جائعاً عرياناً يروعه جو المدينة ، ولكنه يضطر الى دخولها ليبدل بمنتجات ماشيته ما يحتاج إليه من الحبوب والسلع ، وطورا سيداً

شكل (١١)



عاتياً جشعاً مخرباً . وهكذا فان وجود البدو على أبواب دمشق وفرّ لها منافع كثيرة ، ولكنه سبب لها كذلك مخاطر جسيمة .

اما في الشمال والشرق والجنوب ، وهي الجهات المطلقة ، فالمواصلات

صعبة كذلك ، لا تسمح بحركة مبادلات شديدة، ويعود ذلك الى تلك الحرّات المنبسطة في بعض المناطق ، ونقص المياه على طول الطريق ، والخوف الدائم من هجوم لصوص البادية . فان تكن دمشق في هذه الاحوال قد صارت مركزاً تجارياً ، فانما كان ذلك لانها سوق لمنطقه زراعية ومركز صناعي هام ، فهي مدينة في ازدهارها الى هذه الصفة المزدوجة أكثر منها لموقعها الجغرافي . ولا يغرب عن البال ان موقع دمشق القريب من حدود اسرائيل يجعلها على مرمى المدافع والصواريخ الاسرائيلية البعيدة المدى .

واذا كان عامل التوسط الجغرافي بالنسبة لاطار الدولة يعني أي علاقة معينة ، فهو يعني علاقة وثيقة لا شك فيها بين عنصرين من أهم عناصر الجغرافية السياسية، وهما الحدود والعاصمة ؛ ومن ثم ، فكل ذبذبة في الاطار ـ في الحدود ـ تهز توسط العاصمة ، ففي فترات الاستقرار السياسي تقتصر وظيفة العاصمة على التنظيم الداخلي ، وتسعى الى موقع عميق أمين ، اما في فترات الحروب تتحرك الحدود بسرعة ومعها العاصمة ، لأن وظيفة العاصمة في هذه الفترات هي ان تكون رأس حربة ومركز قيادة .

ودمشق الشام «عاصمة حدود» فهي تتطرف بعنف نحو الركن الجنوبي الغربي من الرقعة السياسية تاركة الجزء الاكبر منها بعيداً كل البعد ؛ ومثلها في ذلك عمان التي تقع في الركن الشمالي الغربي الأقصى من الرقعة السياسية . وهذا الموقع ، بلا ريب ، له متاعبه العملية في القدرة على ضبط ادارة البلاد وتأمين الربط فيما بينها ، وفي التماسك الداخلي وسرعة التجاوب والاشراف ، ويضعف من المركزية الادارية ، وقبضة العاصمة على الاطراف البعيدة ، وخاصـــة في بيئة تسودها الصحراء الكاملة .

ولكن اطار الدولة ليس دائماً مضلعاً ، وليست الكل نقطة ومنطقة فيه نفس القيمة البشرية ، ولهذا ليس من الضروري دائماً ان يكون الوسط الهندسي

هو العصب الحيوي ، فالنقطة الوسطى السياسية تختلف عن النقطة الوسطى الهندسية ؛ وهكذا غالباً ما تنقسم الدولة ، على أساس الانتاجية والقابلية للسكنى الى قطاعين مختلفي النسبة ، المعمور واللامعمور . فالمعمور هو الجزء الذي تتركز فيه أكبر رقعة متصلة من السكان وشبكة المواصلات ، فهو أغنى اجزاء الدولة وأقواها جذباً للعاصمة وأقدرها على اقامتها واعالتها ، ولذا ، فان العاصمة اذا لم تتوسط الدولة هندسياً فانها غالباً ما تتوسط الجزء المعمور من الدولة(١) .

فاذا نظرنا الى موقع دمشق ضمن حدود المعمور من البلاد ، وجدنا تطرفها أقل في الحقيقة مما يبدو على السطح ؛ فاذا كان المعمور في سوريا هو نطاق طولي ضيق في أقصى الغرب ، فان دمشق ان لم تتوسطه تماماً فهي تتوسط قلبه ونواته .

وإذا ضيّقنا بؤرتنا قليلاً لنتفحص التفاصيل الدقيقة لموقع عاصمتنا في اطارها الطبيعي ، كما تبدو في صفحة الأقليم وعلى وجه المظهر الطبيعي العام (اللاند سكيب الطبيعي) ، نجد انها تمثل نقطة حرجة على جبهة الالتحام بين الزروع والسهوب وبين المعمور واللامعمور ، فهي واحة استراتيجية تستمد أهميتها من قاعدة موضعية غنية (هي غوطة دمشق) ، على طريق موقعي حيوي ، فهي من مدن القوافل بالموقع والموضع على السواء .

على ان عوامل التوسط الهندسي والمعموري لا تكفي لتفسير مواقع العواصم جميعاً ، بل هناك عامل التوجيه الجغرافي أو التوجيه الخارجي ، وهنا يغلب على الموقع ان يصير هامشياً بصورة تناقض مبدأ التوسط الهندسي . وقد يأتي التوجيه الخارجي بدوافع من الداخل ، ويكون ذلك بقصد جعل العاصمة

---

(١) Sorre, M., Les fondements de la géographie Humaine, Paris, 1952, p. 228 .

رأس الدفاع عن الدولة ، فتوقــع على الاطراف التي يأتي منهـا الخطر الرئيسي ؛ وهكذا كانت بكين خلف السور العظيم تحرس رأس مثلث السهل الشمالي العظيم فأصبحت رأس الدفاع والعاصمة، وقديماً نقل بطرس الاكبر العاصمة من موسكو الى سان بطرسبرغ حين قرر توجيه روسيا توجيهاً أوربياً ، ومواجهة قوة السويد الصاعدة في شمال أوربا[1] . وربما كان موقع واشنطن وريو ومونتفديو وبوينوس آيرس حالياً هو استجابة للتوجيه الخارجي ، الى تيارات الحضارة ومحاور السياسة العظمى في العالم .

* * *

وبعد كل الضوابط السابقة ، هناك حالات يتعذر تفسيرها الا في ضوء العامل التاريخي ، فالمدن التي تستطيع ان تعبر خير تعبير عن روح الدولة ، وتلخص تاريخ الوطن هي المدن القديمة التقليدية التي لها تاريخ طويل حافل تليد . ومن هذا المجد الادبي والتاريخي تستمد المدن استقراراً وقوة واندفاعاً تؤدي بها الى مرتبة العاصمة ، كما هي حال دمشق وروما ودلهي وموسكو وغيرهـــا من عواصم العالم ، وستظل دمشق قلب البلاد النابض ومقر رجال الحكم والسياسة ، ومحط رجال العاملين في الصناعة والتجارة ومركز النشاط العلمي والفكري في القطر السوري كله .

وأخيراً ، إذا كانت دمشق لا تحتل أفضل موقع بالنسبة لسوريا ، فانها تتمتع بدور طليعي على المدن السورية كافة ، بما تملكه من عوامل أساسية من أجل تطورها ؛ الا ان معرفة هذه العوامل تقتضي شرح الدور الذي تلعبه دمشق في سوريا ، سواء كان من ناحية السكان أو من ناحيـــة الاقتصاد أو من ناحية المواصلات الدولية .

---

(1) Fawcett, C.B., The Position of Some Capital Cities, Geog . Teacher, 1917 - 1918, p. 239 .

الثقل الديموغرافي لمدينة دمشق :

على الرغم من أن مدينة دمشق تأتي في طليعة المدن السورية في عدد سكانها الذي يقرب من ٥٣٠ الف نسمة في نهاية عام ١٩٦٠ ، وحوالي ٨٠٠ الف نسمة في نهاية عام ١٩٦٩ ، فهي لاتقوم بين أعلى مناطق البلاد كثافة[1] ، اذ يظهر الجدول (٤٥) ، الذي يمثل توزيع كثافة السكان في المحافظات السورية حسب تعداد ١٩٦٠ ، ان اشد المحافظات كثافة هي محافظة اللاذقية (١١٤ نسمة في الكم٢) ، تليها محافظتا ادلب ودرعا (وهما على الترتيب ٤٤ و ٣٩ نسمة في الكم٢) .

جدول (٤٥)

كثافة السكان في محافظات القطر السوري حسب تعداد ١٩٦٠

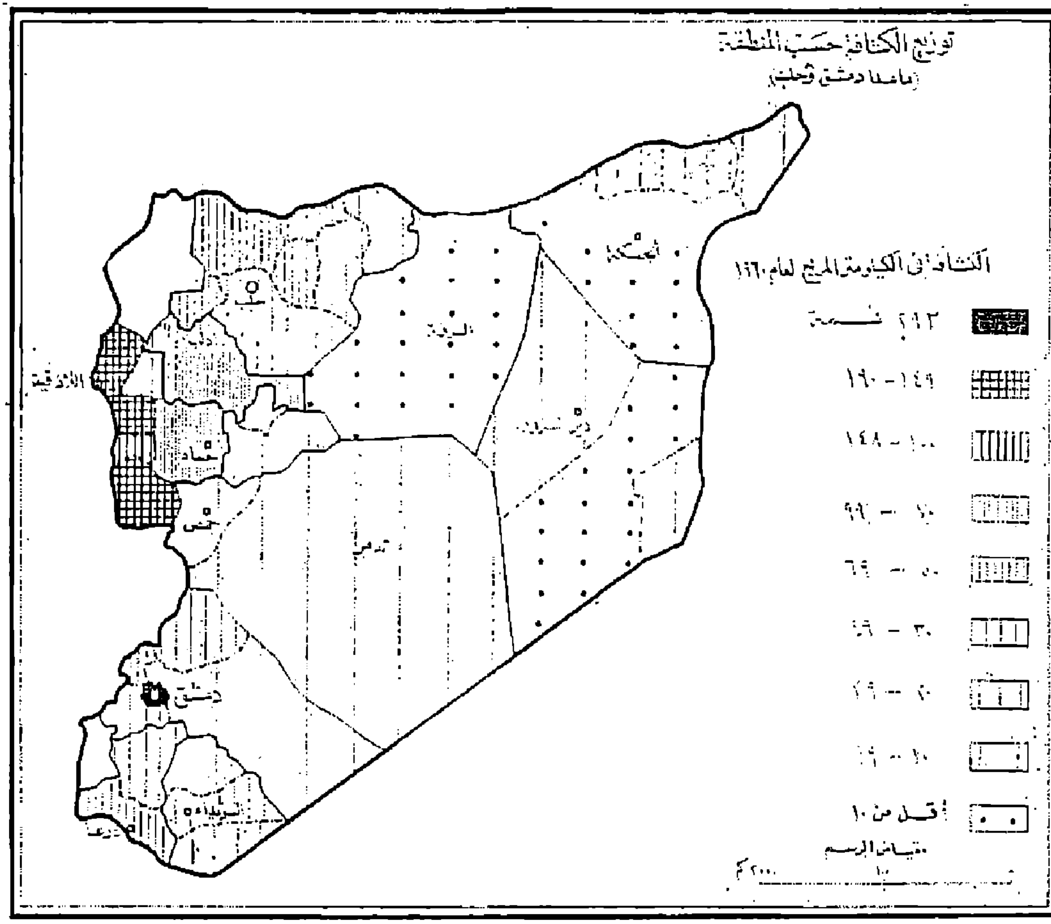
المحافظة	دمشق	حمص	حماه	اللاذقية	ادلب	حلب	الرقة	دير الزور	الحسكة	السويداء	درعا	القطر السوري
الكثافة	٢٣	٩	٣٧	١١٤	٤٤	٣٢	٦	١٠	١٣	١٦	٣٩	٢٤

وتصبح الصورة اكثر وضوحاً ، عند دراسة توزيع كثافة السكان حسب المنطقة (شكل ٦٢) ، اذ تبلغ ١٨٨ نسمة في الكم٢ في منطقة صافيتا و ١٨١ نسمة في الكم٢ في منطقة تل كلخ و ١٥٨ نسمة في الكم٢ في منطقة طرطوس و١٤٩ نسمة في الكم٢ في منطقة اللاذقية . اما في المحافظات الجنوبية (دمشق ودرعا والسويداء) فلاترقى الكثافة في أية منطقة منها الى مثل هذه الارقام ،

---

(١) ماعدا منطقة دمشق التي تضم الغوطتين الشرقية والغربية .

شكل (٦٢)



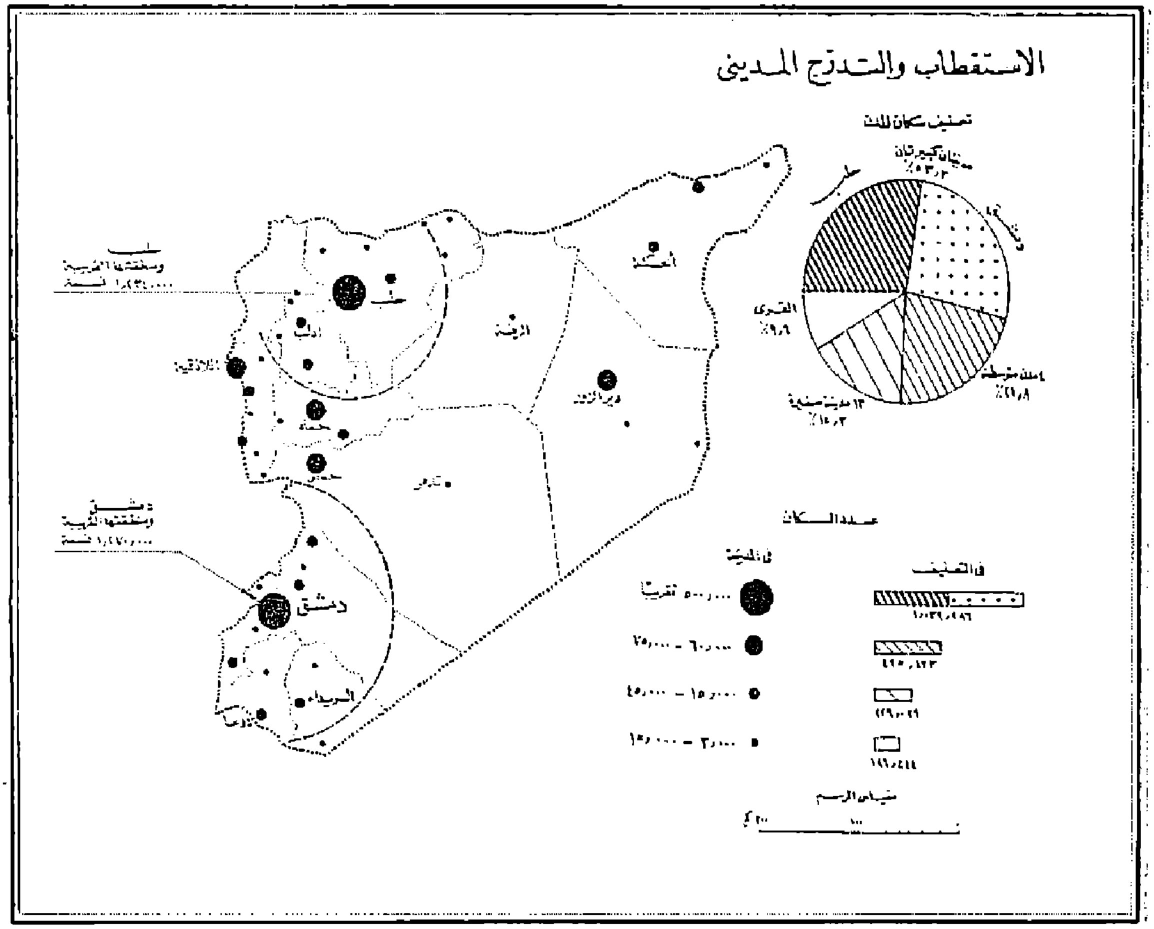
باستثناء منطقة الغوطة (٢٩٣ نسمة في الكم٢) ، فأعلى كثافة تشاهد في هذه المحافظات الجنوبية تمثلها منطقة القنيطرة،وهي تبلغ ٧٥ نسمة في الكم٢ .

ويبين الشكل (٦٣) ان المدن الرئيسية في القطر السوري تتركز كلها تقريباً في الثلث الغربي من البلاد ، وهذا ، بدون شك ، يرتبط بتوزيع الامطار والمياه ارتباطاً وثيقاً ، اذ يحظى هذا الجزء من البلاد بالنصيب الأوفى من الرياح البحرية الرطبة التي تنعقد امطاراً تتفجر فيما بعد عيوناً وانهاراً، بينما تسود الصحراء في الاجزاء الشرقية من البلاد ، باستثناء المنطقة الشمالية الشرقية منها .

كما يتضح من دراسة ترتيب المدن السورية بحسب احجامها(١) ، وجود

(١) يقصد بدراسة الحجم هنا عدد سكان المدينة وليس اتساعها كمنطقة سكنية .

شكل (٦٣)



ثغرات مختلفة ، اذ نجد ان مدينتي دمشق وحلب من فئة نصف مليون نسمة تقريباً ، بينما لانجد بعد ذلك أية مدينة قبل فئة ١٧٠ - ٦٠ ألف نسمة ، يلي ذلك ثغرة اخرى قبل فئة ٤٠ - ١٥ الف نسمة . وتضم مدينة دمشق وحدها ٢٧٪ من مجموع سكان المدن السورية ، وترتفع هذه النسبة الى ٥٣٫٣٪ اذا اضفنا اليها مدينة حلب (جدول ٤٦) .

ويبلغ عدد سكان المدن المتوسطة (١٧٠ - ٦٠ الف نسمة) اربعة فقط ، هي حمص وحماه واللاذقية ودير الزور ، ومتوسط عدد سكان الواحدة منها نحو ١٠٦ الف نسمة ، وهي لاتشكل بمجموعها سوى ٢١٫٨٪ من مجموع سكان المدن السورية .

جدول (٤٦)

توزيع المدن السورية حسب فئات احجامها[1]

(المدن التي يزيد عدد سكانها على ٣٠٠٠ نسمة)

الفئة	عددها	الحد الأدنى والأقصى	عدد سكانها	نسبتها الى مجموع سكان المدن	متوسط عدد السكان في المدينة
المدن الكبيرة	٢	٥٠٠ ٠٠٠ فأكثر	١ ٠٣٩ ٢٨٦	٥٣٫٣	٥١٩ ٦٤٣
المدن المتوسطة	٤	٦٠ ٠٠٠ - ١٧٠ ٠٠٠	٤٢٥ ٤٧٣	٢١٫٨	١٠٦ ٣٦٨
المدن الصغيرة	١٣	١٥ ٠٠٠ - ٤٠ ٠٠٠	٢٩٩ ٠٢٩	١٥٫٣	٢٣ ٠٠٢
المدن القزمية	٢٣	٣ ٠٠٠ - ١٥ ٠٠٠	١٨٦ ٤٤٤	٩٫٦	٨ ١٠٦

اما المدن الثانوية (٤٠ - ١٥ الف نسمة) ، فعددها ١٣ مدينة، ومتوسط عدد سكان الواحدة منها ٢٣ الف نسمة ، وهي تشكل حوالي ١٥٫٣٪ من مجموع سكان المدن . وأخيراً نجد ٢٣ مدينة قزمية (١٥ - ٣ ألف نسمة) ، تشكل بمجموعها اقل من ١٠٪ من مجموع سكان المدن .

ويتضح من الشكل (٦٣) الذي يبين استقطاب المدن الكبرى والتدرج المدني في القطر السوري ، ان دمشق تتمتع بسيطرة واضحة على رقعة واسعة من الارض السورية ، تضم مجموعة كبيرة من المدن المختلفة الاحجام ، فهي تستقطب حولها ١٫٢٧٠٫٠٠٠ نسمة، منهم ٧٤٠٫٠٠٠ نسمة في خارج المدينة ، وذلك ضمن دائرة يبلغ طول نصف قطرها ١٢٠ كيلو مترا تقريبا ؛ بينما تستقطب مدينة حلب حولها ما يقرب من ١٫١٣٠٫٠٠٠ نسمة ، ثلثاهم من الريف، وذلك ضمن دائرة يبلغ نصف قطرها ١٠٠ كيلو متر .

(١) المجموعة الاحصائية السورية لعام ١٩٦٢ — ص ٣٧ .

وتتوسط هاتين المدينتين الكبيرتين منطقة تدرج مدني غير منتظم ، تتشكل من المثلث الذي تحدده مدن اللاذقية وحماه وحمص . ومن الجدير بالذكر ان هذه المدينة الاخيرة آخذة في التطور والنمو السريع ، بسبب موقعها المتوسط وقيام الكثير من الصناعات الهامة فيها ، كصناعة السكر وتكرير البترول وصنع الاسمدة الازوتية. اما بالنسبة لدير الزور الواقعة في المنطقة الشمالية الشرقية من البلاد ، فمن المنتظر ان تستقطب حولها ، في المستقبل القريب ، مدن المحافظات الثلاث دير الزور والرقة والحسكة ، وخاصة بعد ظهور مشروع سد الفرات الى حيز التنفيذ .

ولا يكفي ان نعرف توزيع احجام المدن المطلقة في القطر السوري ، بل لا بد ان نرى كيف تنتظم في انماط وانواع معينة ، فهذا ما يعطي مجتمع المدن في كل وحدة شخصيته وطبيعته . ومنهجنا في هذا ان نحدد نسبة حجم العاصمة الى المدن الكبرى الاخرى ، وذلك بطريقة « المدينة الاولى Primate city » التي وضعها جفرسون ، [1] فنستخرج قيمة المدينة الثانية والثالثة ، باعتبار الاولى ١٠٠ ، مع العلم بأن المعدل العادي كما وجده جفرسون للغالبية العظمى من بلاد العالم يتبع المتتالية الاتية : ١٠٠–٣٠ ٢٠ .

المدينة الاولى	المدينة الثانية	المدينة الثالثة
دمشق	حلب	حمص
٥٢٩,٩٦٣	٤٢٥,٤٦٧	١٣٧,٢١٧
١٠٠	٨٠,٢	٢٥,٨

(١) Jefferson, M. , The low of the primate city, Geog. Review, April. 1939, P. 227

ويبدو من الجدول السابق ، ان هذه النسب تشكل نوعا « عالياً » من الهرم المفلطح ، تتنافس فيه المدينة الاولى والثانية ، ولا تبتعد الثالثة كثيرا عن الثانية ، فهنا تقارب عام في الاحجام الكبرى ، وتصل المركزية ودرجة التركيز الى ادناها ، بل يعني التشتت الجغرافي في سوريا شبه الجبلية بقطبيها الشمالي والجنوبي التقليديين ، والذي يدل على عدالة توزيعية أو لامركزية جغرافية .

كما ان التفوق الضئيل الذي تتمتع به العاصمة على المدينة الثانية ، لا يسمح لها ان تكون بين العواصم السائدة أو الطاغية ، بل يضعها في مصاف العواصم الضعيفة في ثقلها الديموغرافي ؛ فمنذ عشر سنوات فقط كانت حلب تقليديا اكبر حجما من دمشق ، ولو ان هذا الوضع لم يكن دائماً ، ففي سنة ١٨٨٠ مثلا كانت دمشق هي الكبرى . (١)

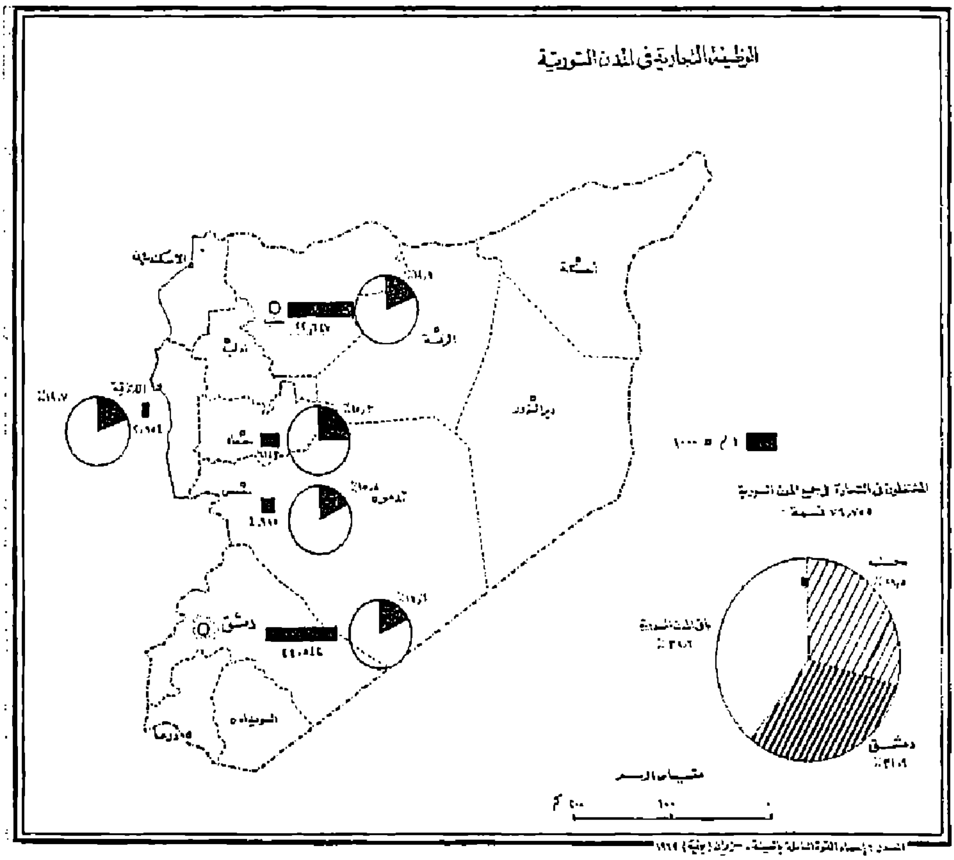
ومما تقدم ، نلاحظ ان دمشق ، ولو لم تكن مركز الثقل الديموغرافي في القطر السوري ، ولا مركز تجمع الحد الاقصى للسكان بين جميع المدن السورية ، كما هي حال الكثير من عواصم العالم ، فانها تتمتع بنفوذ يفوق امثاله بين المدن السورية الاخرى ، وهذه الظاهرة يمكن تفسيرهـــا من الوجهة الاقتصادية للمدينة .

التفوق الاقتصادي لمدينة دمشق :

اذا حاولنا ان نتبين خصائص البناء الاقتصادي لمدينة دمشق ، ونقوّم الوظائف الهامة فيها بالنسبة للاقتصاد السوري ، نلاحظ ان التفوق الاقتصادي لهذه المدينة يقوم في معظمه على التجارة ، سواء كانت التجارة بالجملة او المفرق (التجزئة) ، فمدينة دمشق تشكل المركز الرئيسي للتجارة الداخلية والخارجية وتضم معظم وكالات التصدير والاستيراد في القطر السوري .

(١) Bonne, A., Economic development of the Middle East, London, 1955, P. 12.

شكل (٦٤)



ومن دراسة الشكل (٦٤) ، نجد ان عدد المشتغلين في التجارة في جميع المدن السورية بلغ ٧٦،٧٥٥ شخصا في عام ١٩٦٢ [١] ، تستأثر مدينة دمشق بما يقرب من الثلث (٣١،٩٪) ، وتحتل المركز الاول بين المدن السورية ، وتليها مباشرة مدينة حلب (٢٩،٥٪) . اما بقية المدن السورية فهي تشكل بمجموعها ٣٨،٦٪ من مجموع المشتغلين في التجارة في القطر السوري .

واذا كان عدد المشتغلين بالتجارة في مدينة دمشق يجعلها في المقام الأول بين المدن السورية ، الا انه لايشكل سوى ١٧،٦٪ فقط من مجموع المشتغلين في

---

(١) احصاء القوة العاملة بالعينة – مطبوعات مديرية الاحصاء والتعداد في وزارة التخطيط – دورة حزيران ١٩٦٢ – ص ١٦ .

جدول (٤٧)

توزيع الاطباء [١] والمرضى في المستشفيات [٢] والمستوصفات بحسب المدن والمحافظات السورية

المدينة أو المحافظة	الاطباء		المرضى في المستشفيات		المرضى في المستوصفات	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
مدينة دمشق	٥٢٠	٤٧،٧	٢٠٧٣	٤٢،١	٦٤٧	٣١،٢
محافظة دمشق	٤	٠،٤	٧٢٩	١٤،٨	٢٤٥	١١،٨
محافظة حمص	٨٥	٧،٨	٢٧٢	٥،٥	٣٠٠	١٤،٤
محافظة حماه	٥	٠،٤	١١٢	٢،٣	١٥٧	٧،٦
محافظة اللاذقية	١٠٥	٩،٦	٤٩٠	١٠،٠	١٠٥	٥،١
محافظة ادلب	٢٣	٢،١	١٥٧	٣،٢	٢٠	١،٠
مدينة حلب	٢٣٩	٢١،٩	٨١٣	١٦،٥	٤٧٣	٢٢،٨
محافظة حلب	١٦	١،٥	—	—	١٢١	٥،٨
محافظة الرقة	٨	٠،٨	—	—	—	—
محافظة دير الزور	٣٠	٢،٧	١٠٨	٢،٢	—	—
محافظة الحسكة	٣٢	٢،٩	١٠٩	٢،٢	—	—
محافظة السويداء	١٣	١،٢	٤٥	٠،٩	٣	٠،١
محافظة درعا	١١	١،٠	١٧	٠،٣	٤	٠،٢
المجموع	١٠٩١	١٠٠	٤٩٢٥	١٠٠	٢٠٧٥	١٠٠

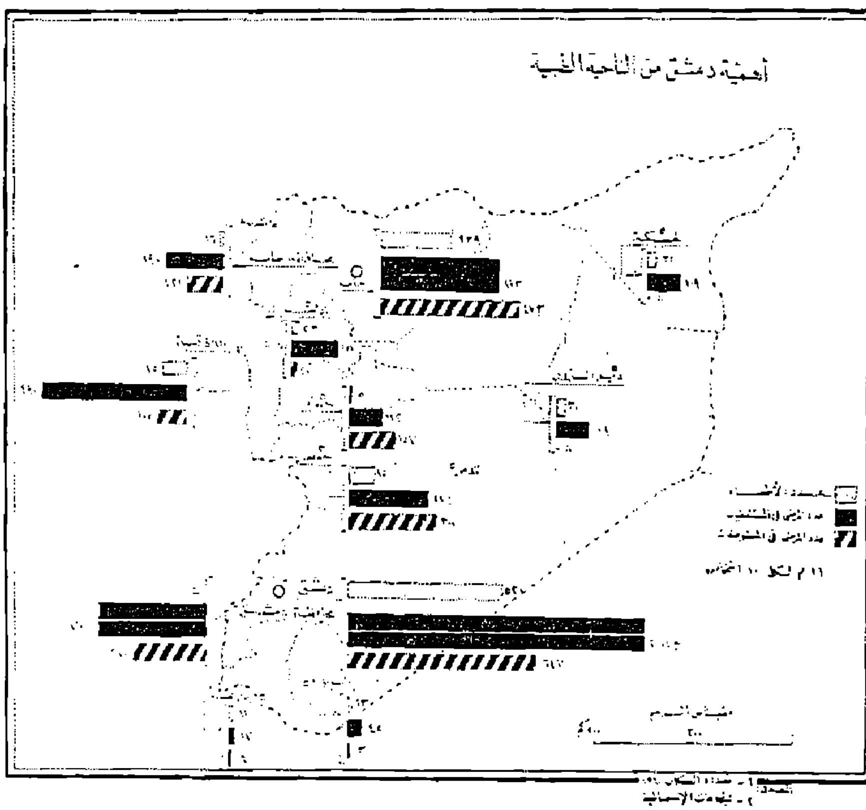
---

(١) التعداد العام للسكان لعام ١٩٦٠ من جميع المجموعات ، وهو يشمل الاطباء والجراحين واطباء الاسنان .

(٢) المجموعة الاحصائية لعام ١٩٦٢ – ص ١٤٣ .

مدينة دمشق نفسها ، والبالغ عددهم ١٣٠٫٦٦٣ شخصاً ، وهذه النسبة تقل عن مثيلاتها في بعض المدن السورية كحماه (٢٥٫٣٪) وحلب (١٨٫٩٪) واللاذقية (١٨٫٧٪) ؛ وهذا يمكن تفسيره بارتفاع نسبة عدد المشتغلين في المدن الاخرى في مدينة دمشق على حساب التجارة كالخدمات والصناعة والنقل ، بينما تقل نسبة المشتغلين بها في المدن الاخرى (باستثناء الصناعة في حلب) .

شكل (٦٥)

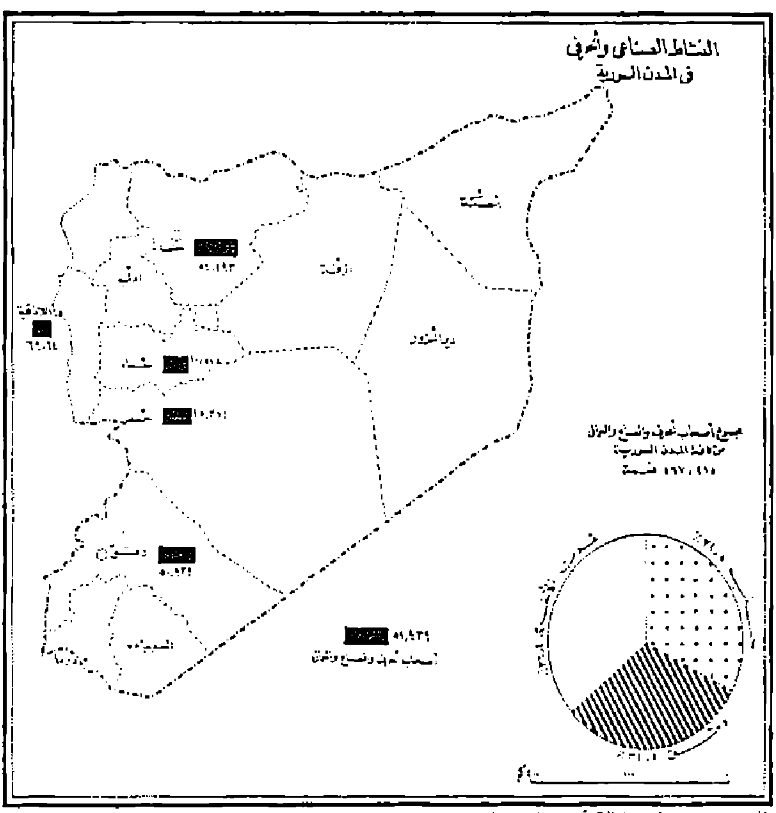


وتكفي الاشارة هنا ، الى الخدمات الطبية التي تقدمها العاصمة ، فمن دراسة الجدول (٤٧) والشكل (٦٥) ، يتضح ان مدينة دمشق وحدها تستأثر بما يقرب من نصف عدد الأطباء في القطر السوري (٤٧٫٧٪) في عام ١٩٦٠ ، كما تضم مستشفياتها اكثر من خمسي عدد المرضى الذين تعالجهم المستشفيات

السورية (٤٢،١٪) ، وحوالي ثلث المرضى الذين تعالجهم المستوصفات السورية (٣١،٢٪) .

اما الصناعة ، فعلى الرغم من نموها السريع خلال الفترة التي تلت الحرب العالمية الاخيرة ، فان عدد المشتغلين بها في مدينة دمشق يجعلها في المركز الثاني بين المدن السورية . ومن دراسة الشكل (٦٦) الذي يبين توزيع النشاط الصناعي والحرفي في المدن السورية ، يتضح ان عدد اصحاب الحرف والصناع والعمال في المدن السورية كافة يبلغ ١٦٧،٢١٥ شخصاً ، تتوزع في خمس مدن رئيسية وهي : دمشق وحمص وحماه وحلب واللاذقية ؛ ويبلغ نصيب دمشق وحدها نحو ٥٢،٠٠٠ شخص ، أو مايقرب من ثلث المشتغلين في النشاط الصناعي

شكل (٦٦)



جدول (٤٨)

توزيع المؤسسات الصناعية في محافظة دمشق حسب الفروع وفئات العمال[1]

(الفروع التي تضم ١٠٠ عامل فأكثر)

نوع الصناعة	عدد المشتغلين			توزيع المؤسسات حسب فئات العمال				
	في دمشق	في سوريا	نسبة دمشق الى القطر السوري	١ - ٤	٥-٤٩	٥٠ فأكثر	غير مبين	المجموع
الموبيليا والاثاث	٣٩٧٦	٨٥٧٢	٤٦٫٤ ٪	١٤١١	١٥٦	—	١٧	١٥٨٤
الاحذية والملابس الجاهزة	٢٩٠١	٧٦٤٨	٣٧٫٩ ٪	١٣٢١	٨١	٢	٥	١٤٠٩
الغزل والنسيج	١٠٦٩٣	٢٦٦٣٨	٤٠٫١ ٪	١١١٥	٢٤٦	١٦	٣٣	١٠٧٢
المواد الغذائية	٥٦٠٢	١٥٨٦٧	٣٥٫٣ ٪	٨٠٠	٣٠٠	٨	١٢٧	١٢٣٥
المنتجات المعدنية	٢٠٣٣	٥٥٨٥	٣٦٫٤ ٪	٧٨٣	٨١	—	٤	٨٦٨
وسائل النقل	١٩٢٣	٤٧٠٥	٤٠٫٨ ٪	٥٤٧	٩٥	—	٦	٦٤٨
مصنوعات من خامات غيرمعدنية	٤٨٤١	٧٥٨١	٦٤٫٤ ٪	٢٢٩	١٦٩	٦	٥	٤٠٩
الجلود والصناعات الجلدية	٨٥٢	١٦٣٤	٥٢٫١ ٪	٢٤٨	٢٤	٢	٦	٢٨٠
الخشب والخيزران والفلين	٧٣٦	١٩١١	٣٨٫٥ ٪	١٩٥	٤٧	—	٤	٢٤٦
الصناعات المعدنية الأساسية	٦٦٠	١٢١٥	٥٦٫٠ ٪	١٥٩	٢٩	١	٣	١٩٢
الطباعة والصناعات المتصلة بها	٥٩٠	٩٨٥	٥٩٫٩ ٪	٦٠	٤٠	—	٣	١٠٣

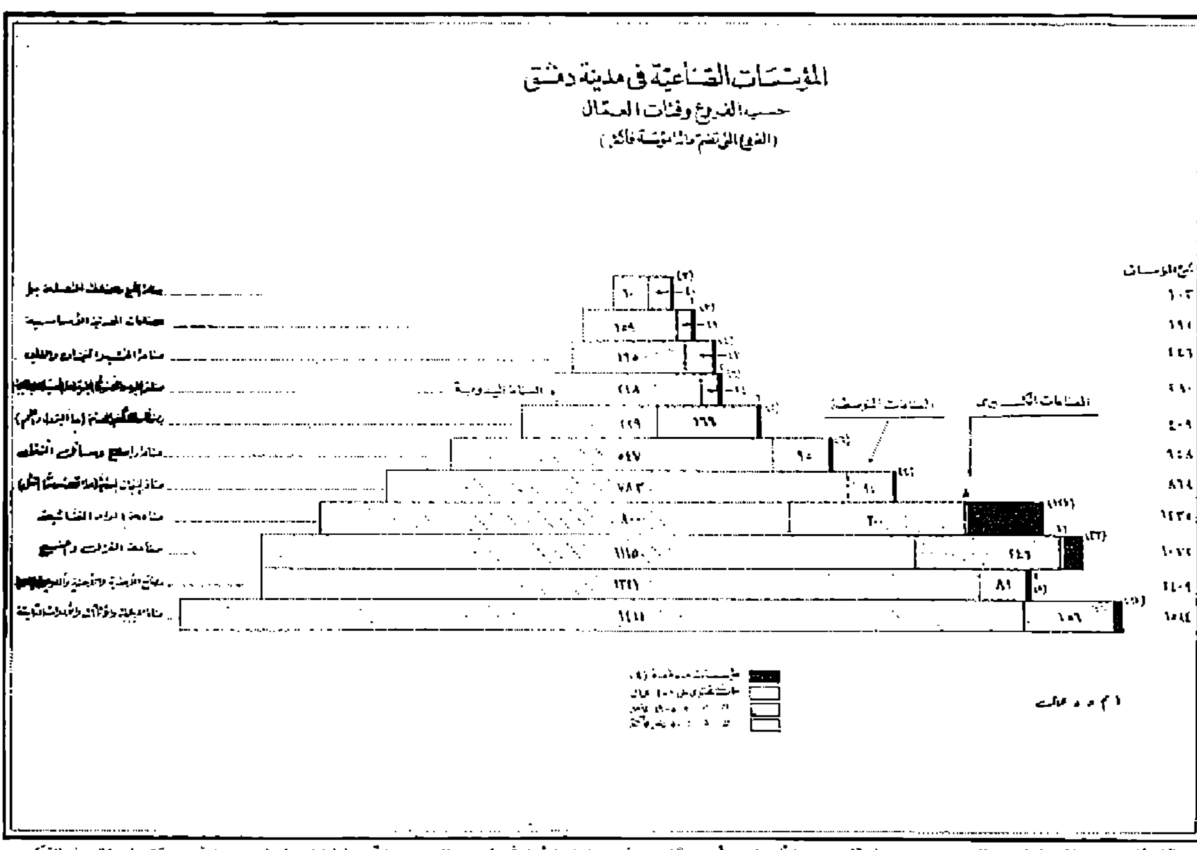
(١) نتائج عملية حصر المؤسسات في الجمهورية العربية السورية لعام ١٩٦٠ ص٧ — ١٧ وص ٣١ — ٣٣ .

والحرفي في القطر السوري (٣١،١٪) ، وبذلك تأتي في المركز الثاني بعد مدينة حلب (٣٢،٥٪) .

ان دراسة المركز الصناعي الذي تحتله مدينة دمشق بالنسبة للقطر السوري كله تواجه عدة صعوبات ، اهمها نقص البيانات التفصيلية عن المؤسسات الصناعية المختلفة ، وعدم الفصل بين الاشخاص الذين يمارسون الصناعة وابناء الحرف الذين يشتغلون في الصناعات اليدوية .

ومع ذلك يتبين من الجدول (٤٨) والشكل (٦٧) ، اللذين يوضحان ترتيب الفروع الصناعية المختلفة ، ان الانتاج الصناعي في مدينة دمشق يبلغ اكثر من نصف الانتاج الوطني كله في عدة فروع ، وهي :

شكل (٦٧)



٦٤٫٦٪ من المواد المصنوعة من المطاط .

٦٤٫٤٪ من صناعة المواد الاولية غير المعدنية (كصناعة الاسمنت والزجاج) .

٦١٫٦ ٪ من المواد الكيماوية .

٥٩٫٩٪ من الطباعة والنشر .

٥٦٫٠٪ من صناعة المعادن الاساسية .

٥٢٫٩٪ من صناعة المشروبات .

٥٢٫١٪ من صناعة الجلود .

والصناعة الاخيرة ، صناعة الجلود ، تنقسم الى ١٨ فرعا ، يقدر عدد المشتغلين بها بما لا يقل عن ١٠٠٠ عامل في القطر السوري كله ، يصيب دمشق في سبعة فروع منها اكثر من ٥٠٪ من مجموع المشتغلين بصناعة الجلود ، وفي ثلاثة منها اكثر من ٤٠٪ ، وفي ثمان منها بين ٣٠-٤٠٪ .

ويلاحظ ان تركز هـــذه الصناعات في مدينة دمشق ، لا يرجع الى ضرورات فنية ، اذ انه من الممكن قيام صناعات مماثلة في مدن اخرى كحمص وحلب ، ويصبح عندئذ تفوق دمشق فيهذه الفروع ليس موضع بحث .والواقع ان الصناعات التي تتفوق بها دمشق ليست من الصناعات التي تحتل المكانة الاولى في اقتصاد البلاد كلها او العاصمة وحدها ، كما انها ليست من الصناعات التي تفوق غيرها اهمية ونشاطا .

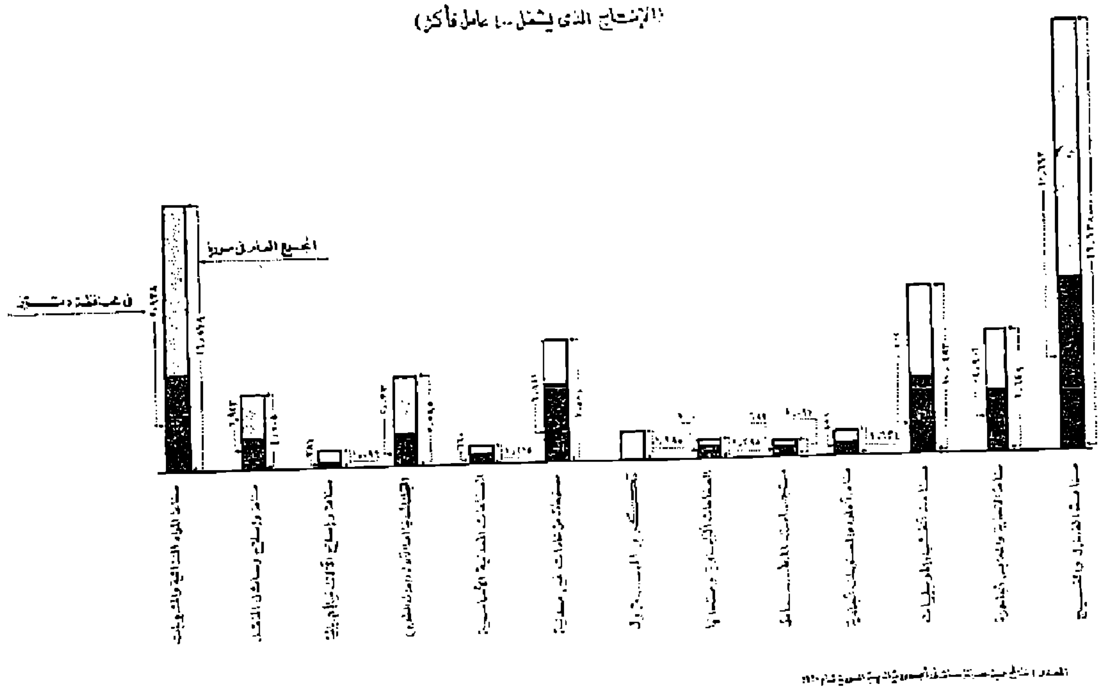
واذا اتخذنا عدد العاملين في كل فرع من الفروع الصناعية اساسا للمقارنة يأتي الغزل والنسيج في مقدمة الصناعات السورية (٢٦٫٦٣٨ عاملا) ، تليها الصناعات الغذائيـــة والمشروبات (١٦٫٥٧٨ عاملا) ، ثم صناعة الخشب والمفروشات (١٠٫٤٨٣ عاملا) ، واخيرا تتساوى صناعة الملابس الداخلية والاحذية تقريبا مع الصناعات التي تستعمل مواد اولية غير معدنية (حوالي ٧٦٠٠

عامل) . وهذه الفروع الصناعية الخمسة تنتشر في دمشق بشكل واسع ، كما هو واضح في الشكل (٦٨) ، ويمكن ترتيب فروعها بحسب اهميتها في دمشق على النحو الاتي : الغزل والنسيج – الصناعات الغذائية – الصناعات غير المعدنية .

شكل (٦٨)

نصيب دمشق من المشتغلين في الصناعات الرئيسية واليدوية في سوريا

(الإنتاج الذي يشغل ١٠ عامل فأكثر)



ويختلف نصيب كل من هذه الفروع الصناعية في تكوين الدخل القومي ، الا ان هذه الفروع الثلاثة المذكورة ، تشكل اكثرها قيمة بين مجموع الانتاج الصناعي في البلاد ، ونستنتج من ذلك ان نمط الصناعة في دمشق مماثل للصناعة في القطر السوري كله ، وهو ذو ثلاثة فروع رئيسية مسيطرة ، تستوعب وحدها اكثر من نصف اليد العاملة الصناعية والحرفية ، واكثر من نصف قيمة الانتاج في هذا القطاع الصناعي .

ونتساءل بعد ذلك ، عما اذا كانت هذه الصناعات في طور النمو او الركود او التقهقر ؟ ويمكن ان ناخذ فكرة عن التوسع الصناعي في دمشق من

دراسة المساحات الطابقية للابنية الصناعية المرخصة سنوياً في دمشق ، وهنا تواجهنا مشكلة عدم الفصل بين رخص الابنية الصناعية والابنية التجارية ، اذ لم يتنبه المسؤولون الى ضرورة التمييز بينهم الا منذ عام ١٩٦٣ .

ويوضح الجدول (٤٩) ان المساحة الطابقية للابنية الصناعية والتجارية المرخص بها في دمشق ، قد ازدادت من ٣٣٫٩٠٠ م٢ في عام ١٩٥٠ الى ٣٧٫٥٠٠ م٢ في عام ١٩٥٥ ، ثم اخذت هذه المساحة تتذبذب زيادة ونقصانا حتى بلغت ٥٠٫١٠٠ م٢ في سنة ١٩٦٢ ، ويتبين من ذلك ان هذه المساحات في نمو مطرد رغم وجود بعض العثرات .

ومن دراسة أنواع الصناعات الدمشقية ، وتطور الفروع الرئيسية منها ، يتضح أن بعضها في طور التقدم السريع كالاصناف المصنوعة من المطاط ، والتي يصيب دمشق منها $\frac{٣}{٥}$ انتاجها تقريباً ، وبعضها الآخر يواجه بعض الصعوبات نوعاً ما ، إلا أن الصناعات الرئيسية الثلاث النسيجية والغذائية وغير المعدنية التي سبق ذكرها تنمو بانتظام .

ولكن هل يستمر هذا التطور في النشاط الصناعي والحرفي في دمشق ؟ ان الجواب على ذلك لايتوقف على الاندفاع الواضح الذي حققته هذه الصناعات في الماضي فحسب ، انما يتوقف على تكوينها أيضاً ، وقد اعتبرت المصانع التي تستخدم اكثر من خمسين عاملا ، على وجه التقريب ، « كقوى محركة » للتطور الصناعي . ويتبين من الشكل (٦٧) الذي يشتمل على توزيع المؤسسات الصناعية والحرفية في دمشق بحسب عدد العمال ، ان الصناعة الكبيرة لاتوجد الا في حقل النسيج (١٦ مصنعاً) والصناعات الغذائية (٨ مصانع) والصناعات « غير المعدنية » (٦ مصانع) وصناعة الأحذية والملابس الجاهزة (٥ مصانع) .

جدول (٤٩)

المساحات الطابقية للابنية الصناعية والتجارية المرخص بها في دمشق مقارنة بمثيلاتها في القطر السوري . (بآلاف الأمتار المربعة) .

السنة	دمشق	القطر السوري	نسبة دمشق الى القطر السوري
١٩٥٠	٣٣٫٩	–	–
١٩٥١	٢٨٫٥	–	–
١٩٥٢	٣٠٫٩	–	–
١٩٥٣	٣٣٫٠	–	–
١٩٥٤	٣٧٫٤	–	–
١٩٥٥	٣٧٫٥	–	–
١٩٥٦	٣٤٫٧	١٢٢٫٩	٢٨٫٢
١٩٥٧	٢٥٫٧	١٠٧٫٢	٢٣٫٩
١٩٥٨	٣٧٫٦	١٣٦٫٠	٢٧٫٦
١٩٥٩	٥٧٫٧	١٣٥٫٨	٤٢٫٤
١٩٦٠	٤٠٫٤	١٥١٫١	٢٦٫٧
١٩٦١	٣٤٫٦	١٠٣٫٩	٣٣٫٣
١٩٦٢	٥٠٫١	٣٨٤٫٧	١٣٫٠
١٩٦٣	٢٢٫٢	١٤٧٫٢	١٥٫٠

ويلاحظ أن الصناعة المتوسطة تضم عدداً محدوداً من المؤسسات ، في حين أن الصناعة اليدوية تفوقها أهمية؛فصناعة الموبيليا في دمشق تستخدم ٤٧١٢ عاملا، ويبلغ عدد المحلات التي تستخدم أقل من ٥ عمال في هذا الفرع الصناعي ١٤١١ محلا . ولو افترضنا انه لايوجد في المشغل الواحد سوى عاملين — وهو افتراض يقل عن الحقيقة دون شك ـ فان عدد العمال الذين يشتغلون في هذه المصانع يشكل ٣/٥ مجموع العمال المستخدمين في صناعة الموبيليا في مدينة دمشق كلها .

ومن المعروف ، ان كثرة الصناعات اليدوية الصغيرة لاتتفق مع التطور الصناعي الحديث ، الا ان هذا الوضع لايختص بدمشق وحدها ، بل يسود في المدن الاخرى اكثر منه في العاصمة ؛ ويتضح من دراسة الاحصائيات المتوفرة أن هنالك سبع محافظات لايوجد فيها اية صناعة يتجاوز عدد عمالها ٥٠ عاملا ، بينما نجد في اللاذقية اثنين وفي حمص ست منها.أما حلب التي يوجد فيها ٣٥ مصنعاً ، فهي في الواقع،على مستوى قريب من دمشق التي تحتوي على ٤٦ مصنعاً ؛ علماً بأن حلب تحتوي على مصانع أقل أهمية من دمشق ، الا أن عدد السكان العاملين في الصناعات والحرف في حلب اكثر منه في دمشق (شكل ٦٩) .

ان دراسة القوى المحركة[1] وتوزيع الموارد المعدنية المعروفة حالياً لاتسمح لنا بأن ننتظر من دمشق اندفاعاً صناعياً يتصف بالسرعة والازدهار ، كما اننا لا نرى أية صناعة أساسية يمكن أن تأخذ مكانها في العاصمة أو في أطرافها .

وليس من المؤكد ، أن تستمر دمشق وحلب في اقتسام حصر الصناعة السورية ، واذا كان عدد العمال الصناعيين في دمشق ، قد وصل في سنة ١٩٦٢ الى

---

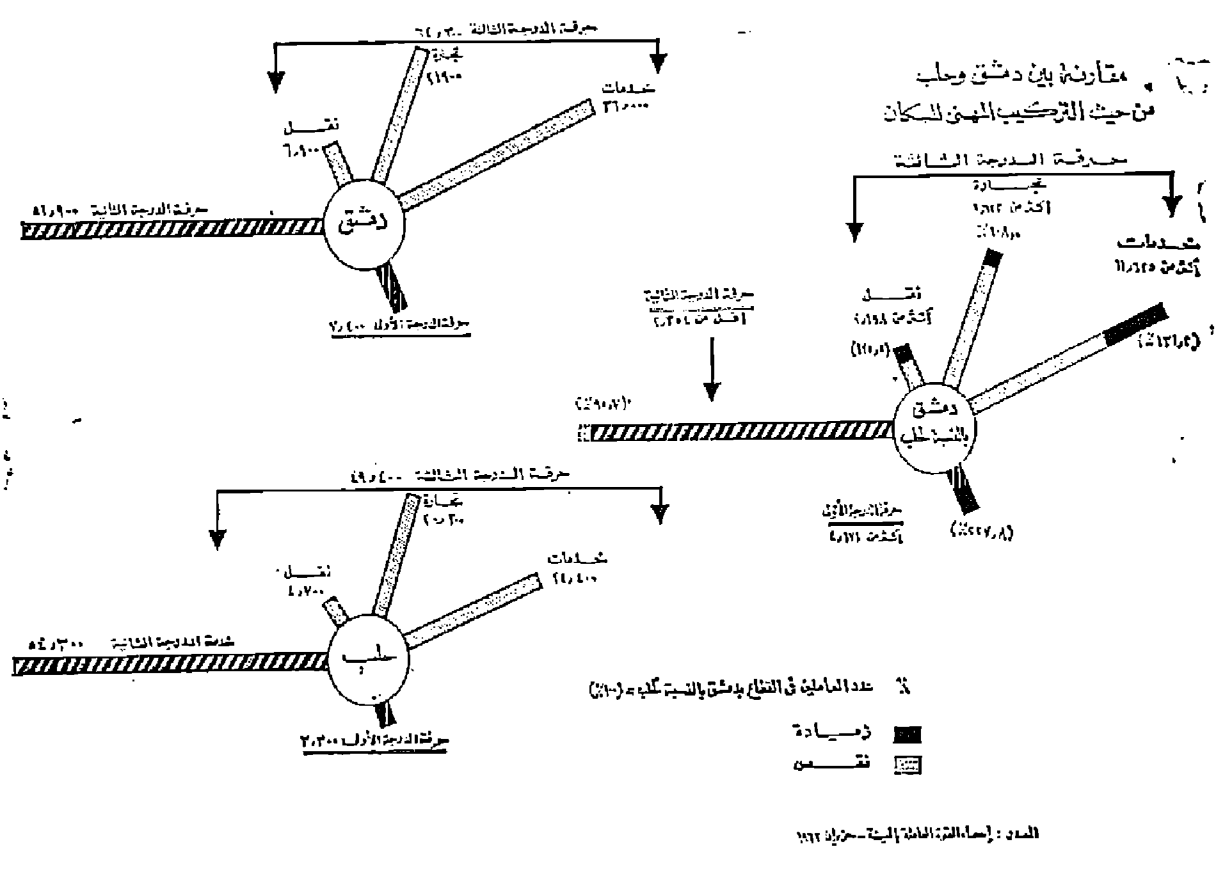
(١) تتوفر القوة الكهربائية الرخيصة في حمص (من البترول) والجزيرة خاصة (من القوة المائية) .

٤٢٫٧٪ من مجموع عمال الصناعة وأصحاب الحرف في البلاد ، فمن الممكن أن تنخفض هـذه النسبة ، ويكون ذلك ما نتمناه لاحداث توازن الأوضاع في البلاد .

ويلاحظ ان دمشق قد اشتملت خـلال السنوات الاخيرة على ربع المؤسسات الصناعية أو ثلثها (جدول ٤٨) ، ويمكن تقدير نصيبها من النمو الصناعي المقبل في سوريا بهذه النسبة نفسها ، وذلك على سبيل التقدير التقريبي .

واخيراً ، نتساءل عن مدى اهمية دمشق كمركز زراعي ، حيث تبين من دراسة توزيع الأراضي المزروعـة في القطر السوري ، ان مدينة دمشق لاتملك في محافظتها في الوقت الحاضر ، مايؤهلها لاحتلال مركز الصدارة بين المدن السورية الاخرى ، فلا تزيد المساحة المزروعة فيها على ٣٩٧

شكل (٦٩)



هكتاراً ، وبذلك يكون ترتيبها السابعة بين المحافظات السورية ، ولا يشفع لها تربعها وسط غوطتها الخضراء ، فشهرة هذه الغوطة لم تنلها من عظم مساحتها ، انما اكتسبتها من خصوبة تربتها ووفرة مياهها وأهمية موقعها بين الجبال العارية والسهول الواسعة الجرداء الممتدة شرقاً حتى الفرات .

وتجدر الاشارة هنا ، الى ان مرتفعات الكسوة في جنوب مدينة دمشق لاتشكل عائقاً للمواصلات مع حوران وجبل العرب ، بل ان هاتين المنطقتين الجنوبيتين بالاضافة الى القنيطرة ليس لها سوى قطب جاذبية وحيد هو دمشق ، التي تمثل السوق الزراعي للمنطقة الجنوبية في سوريا ؛ ويترتب على ذلك ازدياد الأهمية التي تتمتع بها مدينة دمشق كسوق زراعي لأربع محافظات ، تبلغ مساحة القسم المزروع منها حالياً ٧٥١ هكتاراً ، وبذلك ترتفع قيمة دمشق الى المرتبة الرابعة بين المراكز الزراعية في القطر السوري .

ولن تكون دمشق أوفر حظاً من المشاريع الزراعية الكبرى في سوريا ، فلا تتعدى مساحة الأراضي التي ستروى من مشروع تخزين المياه على نهري بردى والأعوج ١٥٠٠٠ هكتار ، وهي مساحة ضئيلة اذا ماقورنت بالمساحات الواسعة التي ستروى في محافظتي دير الزور والرقة بعد تنفيذ مشروع سد الفرات ، أو غيره من مشاريع الري التي سوف تستمد مياهها من نهري العاصي والخابور .

مكانة دمشق في الشرق الأوسط

لاتستمد دمشق أهميتها ومكانتها من تاريخها ونهضتها الاقتصادية فحسب ، انما من مواصلاتها وصلاتها التجارية مع العالم الخارجي أيضاً ، ويلاحظ ان كلا من هذه العوامل مرتبط بالآخر أوثق ارتباط .

جدول (٥٠)

المسافات التقريبية بين دمشق وعمان والقاهرة من جهة والعواصم الرئيسية في الشرق الأوسط من جهة اخرى (في خط مستقيم)

العاصمة	دمشق		عمّان		القاهرة	
	ساعة	كيلو متر	ساعة	كيلو متر	ساعة	كيلو متر
القاهرة	١٢،٠	٦٠٠	٩،٧	٤٨٥	—	—
الخرطوم	٤٠،١	٢٠٠٥	٣٦،٨	١٨٤٠	٣٢،٠	١٦٠٠
بغداد	١٤،٨	٧٤٠	١٦،١	٨٠٥	٢٥،٦	١٢٨٠
عمان	٣،٦	١٨٠	—	—	٩،٦	٤٨٠
الرياض	٢٨،٠	١٤٠٠	٢٦،٣	١٣١٥	٣٢،٣	١٦١٥
بيروت	١،٦	٨٠	٤،٣	٢١٥	١١،٥	٥٧٥
دمشق	—	—	٣،٥	١٧٥	١٢،٢	٦،١
الكويت	٢٤،٠	١٢٠٠	٢٣،٧	١١٨٥	٣٢،٠	١٦٠٠
انقرة	١٥،٣	٧٦٥	١٨،٤	٩٢٠	٢٢،٠	١١٠٠
طهران	٢٨،٧	١٤٣٥	٢٩،٧	١٤٨٥	٣٩،٥	١٩٧٥
المجموع		٨٤٠٥		٨٤٢٥		١٠٨٣٥

ومن دراسة الجدول السابق ، يتضح أن المدينة التي يمكن الذهاب منها الى عواصم الشرق الاوسط في أسرع وقت هي مدينة دمشق ، الا ان مثل هذا الموقع لاياتي ، عادة ، بفائدة عندما يكون في منطقة صحراوية غير مستثمرة أو غير قابلة للاستثمار ، كما أن القبول بهذا المبدأ لايجعل من دمشق اكثر من وريثة تاريخ مجيد فحسب ! ولكن هل تنطبق هذه الحقيقة على دمشق ؟

ان هذا مخالف الواقع تماماً ، وهذا ما توضحه الاجابة على الأسئلة التالية :
لأي شيء تصلح دمشق ، وما هي المكانة او الدور الذي تمثله المدينة في الوقت الحاضر ؟ وكيف نفسر تطورها وما هو مستقبلها ؟ ولماذا ندرس وضعها بالنسبة للشرق الاوسط ؟

تقع دمشق بالقرب من أكثر مناطق الشرق الاوسط كثافة في سكانها ، والتي تمتد على طول الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، من الاسكندرون حتى حدود الجمهورية العربية المتحدة ، حيث تصل في لبنان الى ١٥٨ نسمة في الكم٢ وسطياً . كما ان دمشق ليست بعيدة عن الدول الهامة كالجمهورية العربية المتحدة ومن ورائها السودان ، وتركيا ومن ورائها اوربا ، وايران ومن ورائها باكستان والهند ؛ ولا شك ان هذا الجوار يهيء لدمشق سوقاً طبيعية تتوقف اهميته على « الوزن الاقتصادي لسكان البلاد القريبة ومواردهم » ، وهذا ما يمكن أن توضحه دراسة الدخل القومي لبلدان الشرق الاوسط .

ومع ان المقارنات الدولية في هذا المضمار عسيرة ، والارقام الموجودة تختلف باختلاف المصادر والطريقة الحسابية التي اجريت بها ، فان الجدول « ٥١ » يظهر أن كثيراً من الدول المجاورة لسوريا هي دول منافسة لها من الناحية الاقتصادية ، فالدخل الوسطي للفرد في هذه الدول اكثر منه في سوريا ، كما انه يزداد بسرعة ؛ ففي خلال سنتين ارتفع في الاردن ٢٠،٢٪ وفي العراق ١٦،١٪ أما في لبنان ، فيشذ عن ذلك ، اذ لم تتجاوز نسبة الزيادة فيه ٣،٧٪ ، الا ان الدخل الوسطي للفرد فيه اصلاً تزيد على اعلى دخل للفرد في البلاد الاخرى بنسبة الثلث .

جدول (٥١)

تطور الدخل القومي في بعض الدول العربية المجاورة [١] « بالدولارات »

القطر	الدخل القومي للدولة			متوسط الدخل القومي للفرد		
	عام ١٩٦٠	عام ١٩٦٢	الزيادة المئوية	عام ١٩٦٠	عام ١٩٦٢	الزيادة المئوية
سوريا	٦١٧	٧٤٧	٢١٫٢	١٢٧	١٤٤	١٣٫٣
لبنان	٥٧٤	٦٣٧	١٠٫٩	٣٤٩	٣٦٢	٣٫٧
شرقي الاردن	١٣١٤	١٨٧٤	٤٠٫٥	١٤٣	١٧٢	٢٠٫٢
العراق	١٢٢٤	١٤٧٤	٢٠٫٤	١٨٦	٢١٦	١٦٫١

ويظهر تكوين الدخل القومي لهذه الدول، انها لم تبلغ بعد مستوى رفيعاً في التصنيع ، فقد بلغت نسبة الانتاج الصناعي من الدخل القومي فيها كما يأتي : ١٦ ٪ في الاردن ، ١٧ ٪ في الجمهورية العربية المتحدة، ١٧ ٪ في لبنان ، ١٨ ٪ في سوريا .

ومن هذا يتبين ، ان دمشق يمكن أن تحتل مكانة هامة بين هذه الدول المجاورة في انتاجها الصناعي ، وهذا يتطلب من دمشق تأمين الطرق الملائمة التي تصلها بالمناطق الهامة بعدد سكانها او انتاجها. ويتضح من دراسة شبكة المواصلات الرئيسية في الشرق الاوسط ، ان السكك الحديدية – مع اعادة تسيير الخط الحديدي الحجازي – وطرق السيارات غير كافية ، ولا تسمح لمدينة دمشق أن تلعب دورها كاملا كعقدة لهذه الطرق .

---

(١) O. N. U., 1964, P. 64 .

ومع ذلك، فان موقع دمشق يتيح لها أن تستفيد من توسع ميناء بيروت والمنطقة الحرة ، وكذلك ميناء اللاذقية ، في الوقت نفسه ، على الرغم من وضعه الجغرافي ، وذلك بسبب موقع دمشق على الطريق الذي يؤمن اتصال الاردن والسعودية والعراق والكويت والبحرين مع البحر المتوسط واوربا ، والاتحاد السوفييتي نوعاً ما ، بأقل كلفة وأكثر سرعة من أي طريق آخر .

ولا شك في ان الاتفاقية التي جرت بين الجمهورية العربية المتحدة ولبنان والاردن والعربية السعودية في نهاية عام ١٩٥٩ ، بشأن شبكة طرق السيارات العربية ، من شأنه تقوية مركز دمشق في الشرق الاوسط وما حوله ، ويمكن تتبع شبكة الطرق المقترحة على النحو الآتي :

من الشمال ، طريق يبدأ من حلب ومنها الى دمشق وعمان والمدينة وعدن، ويتصل بالطريق الأوربي الذاهب الى لندن .

ومن الغرب ، طريق يبدأ من بيروت ومنها الى دمشق وبغداد ، ويتفرع نحو الكويت والرياض ، ويتابع سيره من خانقين نحو طهران والهند والشرق الاقصى .

وهكذا نلاحظ ان الموقع الجغرافي لمدينة دمشق في الشرق الاوسط يهبها حظاً لا يجارى، انما تتوقف الاستفادة منه على مدى نشاطها واعدادها، وذلك لتكون نقطة التقاء لطرق المواصلات بين قارتي اوربا وآسيا ، وكذلك بين أفريقيا وآسيا ، وطرق المواصلات الواقعة على محور القسم الشرقي من البحر المتوسط ، وهذه الحقيقة تصدق ايضاً على الطرق الجوية بين قارات العالم الثلاث .

والخلاصة، يمكن لمدينة دمشق أن تتوسع في عمرانها وتنمو في اقتصادها، لتصبح المفرق الرئيسي للطرق في منطقة الشرق الاوسط ، وقد تأخذ عمان لنفسها مثل هذا الدور في المستقبل ، ولكن عمان – كما يبدو – متخلفة عن دمشق منذ البداية تخلفاً كبيراً .

الباب السادس

تموين مدينة دمشق

الفصل الاول : تزويد المدينة بالمياه والكهرباء والغاز :

طريقة توزيع مياه الانهار في دمشق - مجاري المياه وتصريف فضلاتها - المياه الجوفية « العيون والآبار - نبع الفيجة » - مراحل ايصال مياه الفيجة الى دمشق - شبكة توزيع المياه - كمية المياه اللازمة للمدينة - النتائج التي ترتبت على استعمال مياه الفيجة في دمشق .

تزويد المدينة بالكهرباء .

تزويد المدينة بالغاز .

الفصل الثاني : تموين المدينة بالمواد الغذائية :

الخضراوات - الفواكه - الحبوب الغذائية - السكر - اللحوم - الألبان .

الفصل الأول

تزويد المدينة بالمياه

اشتهرت دمشق منذ القديم بوفرة مياهها ، وأشاد كثير ممن زارها بغزارة مائها ، حتى ذهب ابن جبير الى ان « أرضها سئمت كثرة الماء فاشتاقت الى الظمأ » [1] . وقد جعل ياقوت الحموي هذا الأمر من خصائصها فقال : « ومن خصائص دمشق التي لم أر بلداً مثلها كثرة الانهار بها ، وجريان الماء في قنواتها ، فقل ان تمر بحائط إلا والماء يخرج منه في انبوب الى حوض يشرب منه ، يستقي منه الوارد والصادر . وما رأيت بها مسجداً ولا مدرسة ولا خانقاها إلا والماء يجري فيه في بركة في صحن هذا المكان » [2].

وقد جعلوا هذه المياه زينة لها ، وفضلوها على غيرها ، فقال القلقشندي « وحلب اجل بناء لعنايتهم بالحجر ، ودمشق ازين واكثر رونقاً لتحكم الماء على مدينتها وتسليطه على جميع نواحيها » [3]. وهذه الغزارة كانت سبباً في وجود حماماتها الكثيرة التي يفخر بها اهل دمشق .

(١) رحلة ابن جبير – طبعة ليدن ١٩٠٧ – ص ٢٦١ .
(٢) معجم البلدان – طبعة ليبزيغ – المجلد الثاني – ص ٥٩٠ .
(٣) صبح الاعشى – الجزء الرابع – ص ٩٣ .

ولاشك في أن هذه المدينة التي اشتهرت منذ القديم بكثرة حماماتها ومساجدها ودورها الفسيحة ، تتطلب شبكة واسعة من التمديدات المائية، يدل عليها وفرة المقاسم المائية وتجاورها في المدينة القديمة ، فلا تبعد احداها عن الأخرى أكثر من خمسين متراً . أما تزويد أقنية المدينة بالمياه فيجري بالطريقة التي تزود بها الأقنية المتفرعة من نهري يزيد والعقرباني مثلا .

ان توزيع المياه وتحديد حصصها ، وكذلك بيعها وايجارها ، وتعقيد شبكتها وتداخلها ، كل ذلك يذكر بقوانين العرف السائدة في الغوطة ، وهي تعكس رغبة المواطن في تأكيد استقلاله عن جاره ، وحرصه على ضمان حقه الكامل .

ولا يختلف نظام توزيع المياه في المدينة عنه في الغوطة ، فالبيت في المدينة يقابله « البستان » في الغوطة و « الطالع » يقابله «البط» ، وان كانت شبكة المياه في المدينة تلبي اغراضاً اكثر من متطلبات الغوطة ، فابن المدينة يريد ان يتسلم في بيته مياهاً نظيفة ، ولذا فانه يستبدل بمجاريها اقنية مغلقة،ولابد كذلك من هدر جزء من المياه لدفع الاقذار ؛ ومن أجل هذا يلقي بانياس وتورا بجزء من مياهها في مجاري المدينة .

والحاجات المنزلية تتطلب ان تكون المياه دائمة الجريان ، وهذهالضرورة تشكل فرقاً آخر بين شبكتي مياه المدينة والريف ، فمقاسم المياه في دمشق لا تعمل وفق مناوبات معينة ، بحيث يفتح بعضها ويغلق بعضها الآخر ، كما هي الحال في الغوطة ، بل انها تفتح باستمرار ، كما أن القساطل التي تتفرع عنها لا تغلق مطلقاً .

وعلى الرغم من جر مياه عين الفيجة الى دمشق منذ اكثر من ثلث قرن، والتسهيلات التي تقدمها مؤسسة مياه عين الفيجة لتشجيع المواطنين على الاشتراك

في مياه الفيجة النقية ، فان هنالك بعض البيوت الفقيرة في المدينة ما تزال تعتمد على مياه الأنهار والآبار الملوثة ، بالاضافة الى المياه النقية التي تجلبها من السبلان العامة من أجل الشرب والطبخ ، كما أن كثيراً من بيوت دمشق التي كانت تزود بمياه بردى والتي اشتركت بمياه الفيجة لم تتخل عن حصتها من المياه التي تصلها من الانهار، لأنها تعتقد ان هذا من حقها من جهة ، ومن جهة أخرى ، فان طراز البيوت القديمة ، بما فيها من باحات واسعة وحدائق مزروعة، تتطلب مياهاً كثيرة مما جعلها تتمسك بحقها من مياه الانهار ؛ هذا بالاضافة الى ان المراحيض القديمة فيها مبنية على طراز يقتضي اسالة المياه فيها باستمرار ، وكل ذلك يدفعنا الى الحديث عن البقية الباقية عن شبكة التوزيع القديمة لمياه الانهار .

طريقة توزيع مياه الانهار في دمشق

تتزود مدينة دمشق بالميـــاه من ثلاثة فروع من نهر بردى وهي : تورا وبانياس والقنوات، يتولى كل منها شطراً من المدينة ، فيختص تورا بالاحياء الواقعة الى الضفة اليسرى من نهر بردى ، ويختص بانياس بالأحياء الواقعة الى ضفته اليمنى حتى خط يمتد بين القلعة والجامع الأموي وجادة القيمرية ، ويصل حتى باب توما ، أما القنوات فيغذي الأحياء الواقعة الى الجنوب من الخط المذكور . (١)

وربما كان نهر بانياس اقدمها ، لأنه اسهلها حفرا واقصرها طولا ، وهو نهر أبانا الذي ورد ذكره في التوراة(٢) ، ولا ندري ان كان الاسم يونانيـــا أم عبرانياً ، وقد يكون تحريفاً لاسم المهندس البناء بالانياس Balaneas ، الذي يعود الى العهد الآرامي ، كما يعتقد بعض الرهبان (٣) .

(١) Thoumin , (1936) . op. cit . , P . 77 .

(٢) Ecochard, M. , et Le Cœur, C. , Les bains de Damas, Beyrouth, 1942, p. 11.

(٣) Tresse, p. 470 .

ويبدو ان القنوات ، وُجدت في وقت احدث ، وصل فيه الانسان الى مرحلة متقدمة في مضمار الحضارة والعلم ، بدليل اتساع شبكة تمديداتها ودقتها ، فهي ترجع الى العهد الروماني ، ويرجح انها نهر « قينية » القديم[1] ، لأنه يسقي اراضي قرية قينية القديمة[2] . كما ان تسميته قد تكون تحريفاً لهذه الكلمة .

وبعد نمو المدينة خارج السور ، ونشوء احياء وشوارع جديدة ، اسهمت قناة تورا بارواء الاحياء الواقعة الى جنوبها ، على الضفة اليسرى لنهر بردى، وتولى يزيد تغذية اراضي الصالحية والاكراد وابي جرش والشركسية بالمياه ، بينما اختص المزاوي باعطاء المزة حاجتها من المياه ، وارسل الداراني قسما من مياهه الى حي الميدان .

* * *

تجرى مياه الانهار بواسطه القساطل من مقسم الى آخر ، ويتألف المقسم (يطلق عليه اسم الطالع في دمشق) من حوض مستطيل الشكل في اغلب الاحيان تظهر في وسطه فوهة القسطل الموصل للمياه ، تخرج المياه منها وتنبع كما تنبع العيون . وعلى جوانب هذا الحوض فتحات مختلفة تحدد المياه لاصحابها ، يختلف اتساعها بين طالع وآخر ، فبعضها صغير لا يزيد على خمسة سنتمترات يؤمن المياه الى منزل واحد ، وبعضها الآخر كبير يبلغ ١٨ سنتمتراً يؤمن المياه الى حي كامل . وهذه الفتحات تنقل المياه من القناة الرئيسية الى الأقنية الثانوية ، وترسلها الى المنازل في قساطل ممتدة تحت الارض ، فتخرج اما من وسط البركة أو من أحد جوانبها . وينبغي ان تكون البركة اقل ارتفاعاً من الطالع بما لايقل عن

---

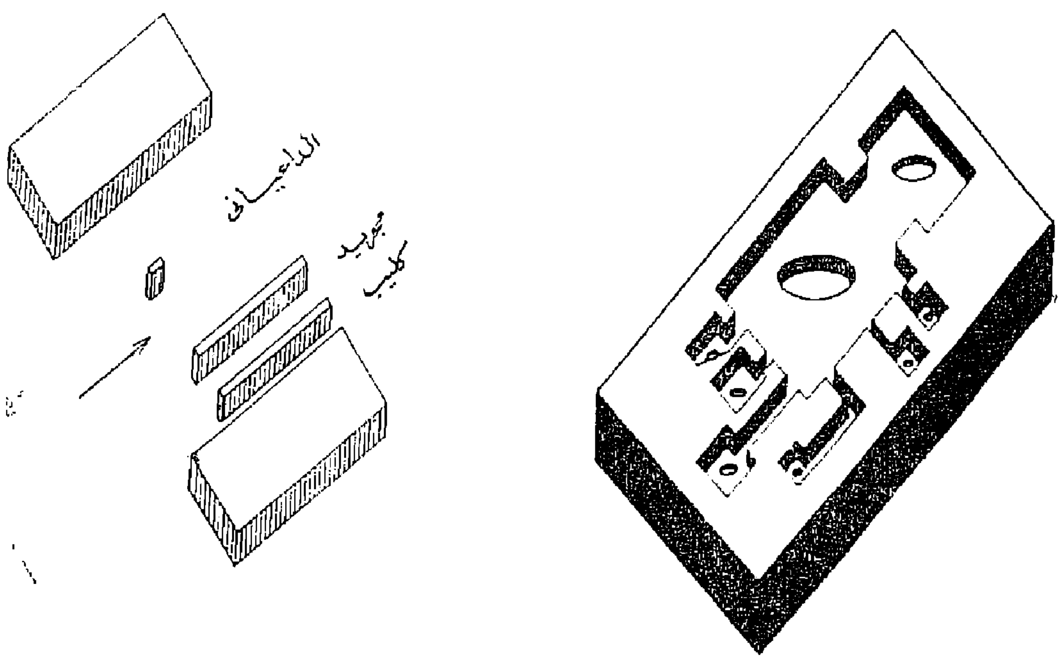
(١) Ecochard, (1942), Op. cit. , p. 12.

(٢) قرية درست ، تقع في ظاهر باب الجابية (ضرب الحوطة على الغوطة) لابن طولون الصالحي – ص ١٦١ .

عشرين سنتيمترا ، فكلما كان الفرق بينهما واسعاً كانت المياه اشد تدفقاً ، وكانت أقنية الطالع اقل خرابا من غيرها (شكل ٧٠) .

شكل (٧٠)

مقاسم المياه في دمشق والغوطة



"البَسْط" في الغوطة

"الطّالِع" في دمشق

ولا تحدد كمية المياه العائدة الى الحقوق العامة او الخاصة بعدد معين من الامتار المكعبة او الليترات في الثانية ، انما تحدد بحصة نسبية من كمية المياه الجارية في القسطل عند نقطة خروجها الى حوض المَقْسم ؛ ويرجع ذلك الى ان تصريف المياه في الانهار يتغير من فصل الى آخر ومن سنة الى اخرى ، ولذا فقد اصبح من المستحيل توزيع المياه على أساس التصريف في وحدة الزمن ، وبذلك تصبح النسب خير وسيلة لتوزيع المياه بين اصحابها . وتحسب الحصص

عادة بالقيراط ، وهو يمثل $\frac{1}{24}$ من الوحدة ، ويعبر عن حجم المياه ، فيقال ان حصة الجامع عشرة قراريط ، بمعنى انه يأخذ ١٠ من ٢٤ من تصريف ميـــاه القـطل الذي يحمل المياه الى الطالع .

وقد يرتفع بعض هذه الطوالع عن سطح الارض مـــتراً او اكثر من ذلك ، كما هي الحال في « السَّبْع طوالع » الواقعة في حي العمارة ، وقد تكون على مستوى سطح الارض او دونه ، وغالباً ما تزود الطوالع بأبواب حـــديدية مقفلة خوفاً من التعدي على حقوق المنتفعين منها ، وحرصاً على وصول المياه نقية الى اصحابها .

وتقام معظم هذه المقاسم عند مفترق الطرق ، والباقي يختفي في جدران المنازل على شكل نافذة صغيرة مزودة بقضبان حديدية ، او ضمن حجرة صغيرة تفتح كما تفتح الخزانة . وقد يقوم الطالع في مدخل البيت يوزع المياه الى بركة غرفة الاستقبال والباحة والمطبخ ، وربما قامت فتحة الطالع الواحـــدة بتوزيع مياهها بين البيوت المتجاورة ، فتدخل المياه الى المنزل ويذهب الفائض الى المنزل الآخر المجاور . وقد يتخذ الطالع مكانه في حائط مشترك بين منزلين لتأمين المياه اليهما ، تزوّد كل جانب منهما بفتحة تسمح بالإشراف عليه .

ان تغذية دمشق بالمياه تضع أمامنا حقائق كثيرة ، فنجد في المدينة، كما في الريف ، الحاجة نفسها والخوف ذاته والارادة عينها ، في أن يأخذ كل واحد حقه كاملا . ولا يقتصر توزيع المياه على الضرورات المنزلية فقط ، بل تـدخل الاعتبارات الدينية ومرتبة العائلات الاجتماعية وحتى تاريخ نمو المدينة نفسها .

ويلاحظ ان معظم الأقنية الرئيسية وُجد اساساً لخدمة الجوامع والحمامات العامة ، فقد كان الجامع الأموي مثلاً هو الثاني بعد القلعة بالنسبة لمن يستفيد من بانياس ، فالتفرعات تتجه نحو اماكن العبادة . وفي الجوامع تلتقي الاقنية التي تغذيها الفروع المختلفة كي تحصل على المياه اللازمة للوضوء باستمرار ، حتى في حالات اصلاحها او تنظيفها .

وللحمامات العامة أهمية كبيرة ايضاً في مدينة دمشق ، فالقساطل الكبيرة تتجه الى الحمامات بعد الجوامع ، وفي حالات كثيرة ، لا تتقاسم البيوت سوى المياه الزائدة عن حاجة هذه الحمامات . وغالباً مايشترك في تغذية الحمام نهران ، وذلك لحاجته الى جريان المياه فيه باستمرار ، كما هي الحال في حمام القرماني في سوق ساروجة وحمام السلسلة في العمارة وحمام القاضي في نزلة حمام القاضي وحمام السروجي خارج باب الصغير ، وكلها تلتقي مياهها من بانياس والقنوات باستثناء القرماني الذي يتزود من بانياس وتورا .

وقد لعبت المراتب الاجتماعية بين العائلات دورها في توزيع المياه ، فهناك عدد من العائلات الدمشقية الكبيرة قد حصلت على امتيازات تمنحها حق استخدام فروع ثانوية خاصة ، كما تمكن ذوو المكانة في الاحياء الحصول على أنصبة خاصة من المقاسم الرئيسية القريبة من بيوتهم . وهكذا نلاحظ ، ان الحياة الاجتماعية تتحكم في توزيع الميـــاه وتفرض عليه تعقيداته اكثر مما تتحكم فيه طبوغرافية المدينة وتصريف الاقنية . ومع ذلك ، يمكن ان يكون هذا التوزيع اكثر بساطة ، لو أن كل موزّع يوصل المياه الى المنازل التي تجاوره ، الا أن الغالب هو وجود قساطل تصدر عن طوالع مختلفة ، فالحي الواحد يتلقى مياه طالع يتغذى مثلاً من ثلاث اقنية .

ومن دراسة توزيع المياه ، يتبين ان شبكة الاقنية تلخص تاريخ نمو

المدينة ، فقد تخصص بانياس والقنوات بتزويد المدينة القديمة ، وعندما توسعت المدينة خارج الاسوار انشئت تفرعات جديدة تنطلق من الفروع الاصلية لنهري بانياس والقنوات ، بينما بقيت تفرعات تورا حتى مطلع القرن التاسع عشر تروي الحدائق والبساتين ، وكانت تؤمن في الوقت نفسه مناطق الريف التي ذابت رويداً رويداً في جسم المدينة منذ مائة عام . اما احياء قاسيون التي كان يفصلها عن المدينة اكثر من اربعة كيلو مترات من الاراضي الزراعية ، فيما مضى ، فقد اوجدت لنفسها ايضاً شبكات تغذية من مياه نهر يزيد (١) .

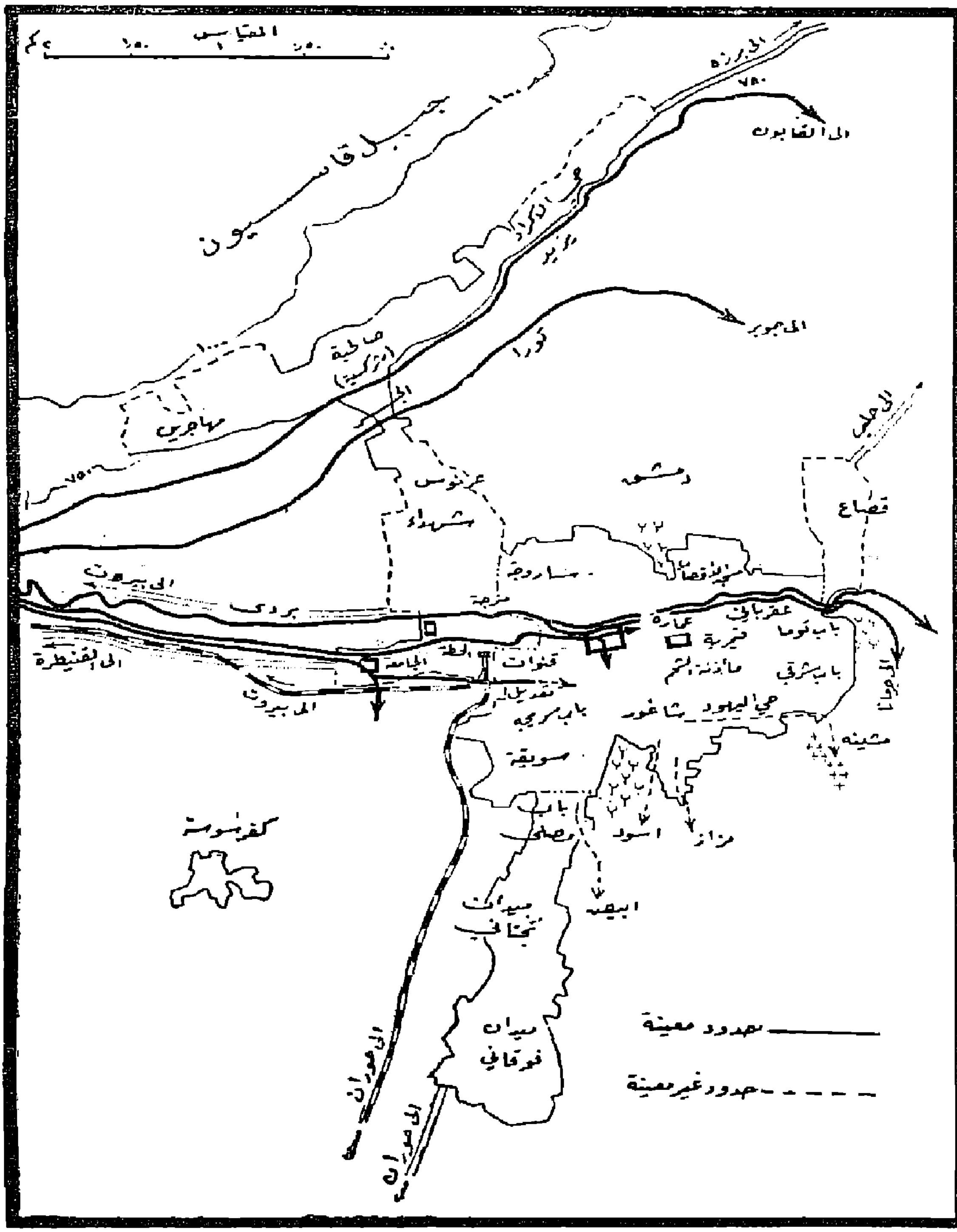
مجاري المدينة وتصريف فضلاتها

وجدنا ان مياه تورا وبانياس والقنوات تسيل الى برك المنازل القديمة ومطابخها ودور مياهها باستمرار ، ومنها تصل الى المجاري التي تنقلها الى خارج المدينة لري الغوطة . ولا شك ان مجاري المياه التي صممت من أجل تصريف المياه المستعملة امر لا يقل اهمية عن ايصال المياه الى المساكن ، فلا يكفي ان تتأمن للمدينة حاجاتها وضرورياتها من غذاء وماء وانارة ، اذ يجب تخليص المدينة من الفضلات التي تتخلف عن اعمال اهلها ونشاطهم . واول مظهر لتحقيق هذه الغاية هو انشاء المجاري العامة (شكل ٧١) .

وقد كانت المجاري في اول الامر ، مقتصرة على تلقي المياه القذرة المتخلفة عن الاستعمالات المنزلية وغيرها ، ولكنها اصبحت الآن ، بعد تجهيزها ، تتلقى ايضاً الاوحال الناشئة عن الامطار والسيول وغيرها . وفي دمشق ثلاث شبكات من المجاري تقابل شبكات التغذية الثلاثة التي سبق ذكرها ، وهي :

---

(١) سلوى دهمان – تموين مدينة دمشق بمياه الشرب – بحث غير منشور (١٩٥٨) ص ٢٦ و ٢٧ .



مياه المجاري في مدينة دمشق
في طريقها الى الغوطة

الشبكة الأولى : وهي شبكة تورا ، وتتألف من أقنية واسعة عميقة ، تجمع المياه المستعملة التي تخرج من المساكن والجوامع والحمامات وغيرها . وتتصل هذه الأقنية بالفروع الرئيسية لنهر تورا الذي يلقيها بدوره في نهر بردى أو الداعياني .

الشبكة الثانية : وهي شبكة بانياس ، وتخص جميع الأحياء الواقعة بين طريق جادة الخراب ونهر بردى تقريباً ، وهذه المجاري تلقي مياهها في العقرباني .

الشبكة الثالثة : وهي شبكة القنوات ، وتعتبر أهمها جميعاً ، تتشكل في ساحة القلعة ، حيث يمدها بانياس بثلث مياهه التي ينقلها فرع لا يلبث أن ينقسم جنوبي القلعة الى فرعين : فرع غربي يخترق الجزء الغربي من الشاغور ، ويحمل عندئذ اسم « النهر الأبيض » وفرع شرقي يصل الى وسط الشاغور ، ويمر بطاحون السجن ، وينقسم بدوره الى فرعين أيضاً ، فرع يمر بالقرب من باب الشاغور ويذهب الى الغوطة ، وهذا هو « نهر المزّاز » أما الآخر فيخترق حي اليهود ويروي بعض البساتين الداخلة ضمن السور القديم ، ويخرج من دمشق عند حائط « القديس بول » وهذا هو « نهر مشيّنة » .

والى الغرب من شبكة المجاري التي تنظفها مياه بانياس ، وبموازاة النهر الأبيض ، يجري « نهر الأسود » الذي يتجه من باب الجابية الى قسم شرطة باب المصلا ، ويتلقى مياه أحياء القنوات وقبرعاتكة وباب سريجة والسويقة .

وهذه الاقنية الاربعة الابيض والاسود والمزاز ومشينة ، تسقي الاراضي الواقعة بين حوض العقرباني وحي الميدان . وكل قناة من هذه الاقنية تتفرع عند خروجها من المدينة وتوزع مياهها في بساتين دمشق ، ولاسيما أراضي الميدان ، اما الماء الفائض فيذهب الى يلدا وببيلا ، ومن هذا نلاحظ ، ان المجاري تتميز بشبكات معقدة في تخططها كما هي حال الشبكات التي تغذيها بالمياه .

* * *

اما القمامة والمخلفات الاخرى ، فتجمع بواسطة الطنابر والسيارات التي تمر في ساعات مختلفة من كل يوم ، لتنقلها الى خارج المدينة . وبين هذه الفضلات والبقايا توجد مواد صالحة للاستعمال والاستثمار يجمعها بعض العمال الذين يذهبون الى المزابل العامة مزودين بعصي معقوفة من أحد طرفيها للتنقيب عن الخرق البالية .

وقد كانت قمامة المدينة ، تجمع في أرض القعاطلة شرقي مدينة دمشق ، ولكنها ابعدت منذ سنوات قليلة ، الى أقصى الحدود الشرقية للمدينة ، في اراضي عين ترما ، وبذلك اصبح على هذه القرية ان تتحمل روائح هذه القمامات التي تحملها الرياح الغربية السائدة في معظم شهور السنة ، مع ان رفع الاذى عن هذه القرية وغيرها ، لن يكلف أمانة العاصمة اكثر من نقلها الى ماوراء الغوطة جنوباً او شرقاً ، لمسافة بضعة كيلومترات ، فيوفر للمزارعين أرضهم الخصبة وهواءهم النقي .

ولعل خير الطرق للافادة من هذه الفضلات ، ماانبعته مدينة شيدام في هولندا ، حيث تستخدم آلات خاصة تحول القمامة الى عجينة ، تخمّر بعد ذلك لمدة ستة أيام تقريبا (وقد تحتاج لمدة أقصر في دمشق لاختلاف مناخها عن هولندا) فيعطي كل طن زبالة حوالي ٧٥٠ كيلوغراماً من السماد البلدي المتماسك(١) .

ومن الجدير بالذكر ، ان جميع الطرق التي تحول بواسطتها الزبالة ميكانيكيا اكثر تكلفة من تحويلها بواسطة البكتريا ، الا ان هذه الطريقة الاخيرة لايمكن قبولها صحياً بجوار المدينة ، كما انها تعطي سماداً بلديا اقل جودة .

المياه الجوفية

تتطلع الانظار الى المياه الجوفية عندما تعجز المياه السطحية عن سد

---

(١) Van Liere (1953) Op. cit., p. 44

حاجة السكان ، وهي تعتبر من الموارد المائية الهامة ، وخاصة في مثل هذه المنطقة الصحراوية . وقد فطن الاقدمون الى أهمية هذه المياه الجوفية فاستفادوا منها ، ولكن استفادتهم كانت محدودة نسبياً ، لعدم توفر الوسائل الآلية التي تساعد على التغلغل الى اعماق الارض بسهولة ، كما هي الحال في وقتنا الحاضر ، حيث تتوفر اجهزة الحفر ووسائل الضخ وغيرها من الآلات التي تجعل أمر الاستفادة من المياه الجوفيه سهلا ميسوراً . وعلى الرغم من انعدام الوسائل الالية في تلك العصور القديمة ، فان اعمالا جبارة انجزت في هذا المضمار ، تبدو واضحة في الآبار التي حفرت باليد ، والفجارات[١] التي يدل وجودها على مدى تفوق اولئـك الذين سكنوا تلك البقاع .

ولاتقتصر المياه الجوفية على الآبار والفجارات التي يعتمد وجودها على حاجة الانسان ونشاطه ، حيث يقوم بانشائها وحفرها ، بل هنالك نوع ثالث من المياه الجوفية لادخل للانسان في وجوده هي العيون او الينابيع التي تنتشر بصورة خاصة في المنطقة السفحية وعلى طول المجرى الرئيسي لنهر بردى .

ان المياه الجوفية تعتمد في كميتها ونوعيتها وتوزيعها على عوامل عديدة ، منها المناخ وطبيعة الصخور ودرجة نفاذيتها وطبوغرافية ارضها ، فالامطار ومقدارها والرياح وشدتها والرطوبة النسبية ودرجات الحرارة وتفاوتها كل هذه لها اثر بالغ في مقدار المياه الجوفية ، فمن الملاحظ ان فصول الشتاء التي تقل فيها الامطـار والثلوج تتبعها قلة في مياه العيون والآبار في مواسم الصيف التالية ، كما حدث خلال فترة الجفاف التي مرت بهذه المنطقة بين عامي ١٩٥٤ — ١٩٦٠ .

ولاشك في ان كمية المياه الجوفية المتوفرة في هذه المنطقة تتوقف على

---

(١) حيث بالفجارات لانها تفجر المياه وتخرجها الى سطح الارض .

وجود طبقات منفذة وعلى مقدار التغذية التي ترد هذا القطاع مباشرة من الامطار والثلوج المتساقطة ، أو تتسرب من المناطق المجاورة ؛ غير ان استثمارها بصورة اقتصادية يتوقف على العمق الذي توجد فيه الصخور المنفذة الحاوية للمياه ، فاذا كانت عميقة جداً ، كما هي الحال على سفوح قاسيون ، فلا يمكن الاستفادة منها بصورة اقتصادية ، نظراً لكثرة التكاليف الباهظة التي تتطلبها أعمال الحفر وضخ المياه الى السطح .

ويمكن تقسيم منطقة دمشق ، التي تغطيها رواسب الزمن الرابع المكونة من الحصى والطين ، الى منطقتين يختلف فيها المخزون من المياه الجوفية ، ويرجع هذا التفاوت الى اختلاف درجة تماسك الحصى ونسبة الطين فيه :

اولا - منطقة برزة : يكون الحصى فيها متماسكا وقليل النفاذية ، وبالتالي فان مياه هذه المنطقة قليلة .

ثانيا - منطقة دمشق : يكون الحصى فيها قليل التماسك ، وله نفاذية عالية ، ويحتوي الحصى في هذه المنطقة على اغنى طبقة مائية في حوض دمشق ، ويزيد تصريف بعض آبارها على ١٫٢٠ م٣/ساعة ، كما يزيد سمك الطبقات الحاملة للمياه على ١٧٥ متراً .

وقد اجريت عدة تجربات في مدينة دمشق وضواحيها ، تهدف الى معرفة الامكانيات المائية الجوفية في طبقات الكريتاسي الاعلى ، وتكوينات النيوجين ورواسب الزمن الرابع ، فكانت النتائج على النحو التالي[1] :

الجير الكريتاسي الاعلى : اعطى نتائج سلبية حتى عمق ٣٠٠ م ، وذلك في

---

(١) الدكتور شفيق الصفدي - مصادر اضافية لتأمين مياه الشرب لمدينة دمشق - من محفوظات مديرية الري في وزارة الاشغال العامة - دمشق ١٩٦٠ - ص ٢ - ٥ .

البئر التي حفرت في هذه التكوينات على سفح جبل قاسيون ، في نقطة تبعد أربعة كيلومترات شمال غرب حرستا .

تكوينات الصوان والجير والطباشير البليو سيني : اعطت نتائج سلبية نوعا ما ، فقد حفرت في هذه التكوينات بئر على عمق ١٧٥ مترا ، على بعد ١٠٠ متر جنوبي خزان بلدة برزة بجانب طريق المقالع فكانت مياهه جيدة ، وبلغ تصريفه ١٢ م٣/ساعة .

ان التصريف الذي يمكن الحصول عليه من هذه التكوينات ، لايمكن ان يلبي سوى الحاجات المحلية المحدودة للقرى ولمناطق الاسكان المرتقبة ، ولاشك في أن العثور على المياه الجوفية في التكوينات البليوسينية سيساعد على المضي قدما في انشاء مناطق سكنية اضافية لمدينة دمشق على السفوح الشرقية لجبل قاسيون .

تكوينات الجير النوموليتي والبازلت النيوجيني : اعطت نتائج ايجابية ، فقد حفرت في هذه التكوينات بئر في منطقة الاسكان في المزة على عمق ١٩٠ متراً ، فأعطى مياهاً جيدة ، بلغ تصريفها ٣٦م٣/ساعة .

وقد اعتبرت هذه التكوينات ملائمة مبدئياً لمشروع تأمين مصادر اضافية لمياه الشرب لمدينة دمشق ، لولا بعض الصعوبات التي تعترضها واهمها :

اولا ـ ان تكوينات الجير النوموليتي والبازلت النيوجيني موجودة فقط جنوب غربي مدينة دمشق ولكنها تنعدم في شمالها الشرقي ، على امتداد السفح الشرقي لجبل قاسيون ، وذلك بسبب عوامل الحت والتعرية .

ثانيا ـ ان المياه الجوفية المخزونة في هذه التكوينات ، جنوب غربي مدينة دمشق ، سوف يستفاد منها في مشاريع الاسكان المرتقبة في المستقبل ، ولكنها محدودة لايمكن الافراط في استثمارها .

تكوينات الدماليك النيوجينية ورواسب الزمن الرابع الفيضية :

اعطت نتائج ايجابية هامة ، فقد حفرت في هذه التكوينات ثلاثة آبار ، كانت نتائجها على النحو الآتي :

(البئر الأولى) : حفرت في ساحة العباسيين بدمشق ، على عمق ١٧٥ متراً، وقد اعطت مياهاً جيدة ، وبلغ تصريفها ١٢٠م٣ / ساعة .

(البئر الثانية) : حفرت في القدم جنوبي دمشق ، على عمق ١٤٩ متراً ، وقد اعطت مياهاً جيدة ايضاً ، وبلغ تصريفها ٢٥م٣ / ساعة .

(البئر الثالثة) : وهي بئر خزان الفيجة الشرقي ، وقد حفرت في شمالي دمشق ، على سفح جبل قاسيون ، ووصلت الى عمق ٢٧٤ متراً ، وقد اعطت مياهاً غامضة النوع ، وبلغ تصريفها ٢م٣ / ساعة .

ولقد جرت هذه الجسات حول دمشق وداخلها، على اعتبار ان تكوينات الدماليك النيوجينية ورواسب الزمن الرابع ذات عمق كبير في هذا القطاع ، وفي ضوء نتائج هذه الجسات يمكن ان نخرج بالملاحظات التالية :

اولا : ان منطقة دمشق غنية بالمياه الجوفية على العموم ، وهي تحتوي على طبقة مخزونة في تكوينات الدماليك النيوجينية ورواسب الزمن الرابع الفيضية .

ثانياً : الطبقة المائية الجوفية المشار اليها تكون وفيرة المياه ، عموماً ، في الأراضي السهلية ، وشحيحة المياه بالقرب من جبل قاسيون .

ثالثاً : هذه المياه الجوفية غير مخزونة في الطبقات الجوفية بشكل منتظم بسبب اختلاف درجة نفاذية الدماليك ورواسب الزمن الرابع من مكان لآخر،

والذي ترتب عليه اختلاف غزارة طبقة المياه الجوفية ايضاً من مكان لآخر، وهذا ما يستلزم تحديد القطاعات التي تتوفر فيها المياه بغزارة .

رابعاً : ان المياه الجوفية المتوفرة في طبقات الدماليك النيوجينية ورواسب الزمن الرابع الفيضية في مدينة دمشق وضواحيها ، يمكن ان يسد حاجة مدينة دمشق بمياه الشرب في حالة الطوارىء .

خامساً : إن الأقسام العلوية من هذه المياه الجوفية ملوثة ، بلاشك ، ولذا ينبغي ايجاد طريقة فنية للتخلص منها .

سادساً : هذه المياه الجوفية مستثمرة حالياً على نطاق واسع في حوض دمشق من قبل القطاع الخاص لاغراض الري ، وقد فرضت قيود على استثمارها في أوائل عام ١٩٦٠ (١) ، كما سيجري حفر عدد من آبار الرصد في حوض دمشق لمراقبة تطور منسوب هذه المياه الجوفية وتعديل القيود المذكورة في ضوء هذه التطورات .

* * *

ولا تقل دراسة الصفات الكيميائية للمياه الجوفية أهمية عن دراسة توفر هذه المياه او عدم توفرها ، إذ تدل الدراسات التي اجريت في منطقة دمشق ، ان مياهها الجوفية جيدة وصالحة للشرب والزراعة ، فملوحة المياه عموماً تتراوح بين ٥٠٠ — ١٠٠٠ ميليغرام في الليتر .

اما مياه الينابيع الرئيسية في المنطقة الجبلية فهي كربونية وغنية نسبياً

---

(١) القرار رقم ٢٠٨ تاريخ ٢٣ / ١٢ / ١٩٥٩ والبلاغ ، رقم ١١٨٨ / ع بتاريخ ٥ / ٤ / ١٩٦٠ الصادرين عن وزارة الاشغال العامة .

بالمواد الجيرية ، ولا يلاحظ تبدلاً محسوساً في التركيب الكيميائي للمياه الجوفية في طبقات الحصى في منطقة دمشق ، ولكن درجة الملوحة ترتفع قليلا .

العيون والآبار

تظهر الميـــاه الجوفية الى سطح الأرض في منطقة دمشق ، أما بصورة طبيعية كالينابيع والعيون او عن طريق تدخل الانسان مثل الآبار .

فالينابيع التي تتفجر في منطقة دمشق ، في الواقع ، قليلة الأهمية، ينتشر معظمها على طول المجرى الرئيسي لنهر بردى . وقد روى ابو البقاء الدمشقي في كتابه « نزهة الأنام في محاسن الشام » انه يقال من ظاهر باب السلام الى ظاهر باب توما ثلاثمائة وستون عيناً تجرى الى القبلة »[1] ، وذكر الدمشقي « انه رأى أغلبها وارتوى من عذبها » .

ولا شك في ان مياه هذه الينابيع التي تنبثق من جوانب النهر ، تستمد مياهها من امطار الشتاء الهاطلة على سفوح المرتفعات المجاوره ، بالاضافة الى المياه المترشحة من الأنهار والأقنية ومياه الري ، فتتسرب خلال الطبقة السطحية من التربة ، وهي بذلك تنتمي الى الطبقة المائية القريبة من سطح الارض .

وفي خارج المجرى الرئيسي لنهر بردى ، يظهر عدد كبير من الينابيع الى الجهة الشرقية من بردى ، ولكن انتشار العمران السريع في هذه المنطقة ، قضى على معظم هذه الينابيع ولم يبق منها الا النذر اليسير . ولا يزال أبناء هذه المنطقة يذكرون « عين الكرش » و « نبع الخمس » و « نبع ام الفلوس » التي كانت تتحد مياهها الهابطة من مواصي تورا وتسير بمحاذاة شارع بغداد ، وترسل جزءاً

---

(١) ص – ٩٢ .

من مياهها الى بعض احياء المدينة ، كما يذكر أهل القصاع « عين الزينبية » الشهيرة التي تنبع مقابل المستشفى الانكليزي عند منتصف شارع القصاع الرئيسي .

أما الينابيع التي ما تزال ماثلة حتى الوقت الحاضر ، فهي قليلة جداً ، نذكر منها « عين علي » في أسفل سوق الهال ، و « عين الوراقة » خارج باب السلام ، و « عين الشرش » في القسم الشرقي من حي القصاع ، وما تزال مياهها تزود بعض البيوت القديمة من هذه المنطقة [1] .

ومن الجدير بالذكر ، ان الناس كانوا يلجؤون الى هذه العيون في ايام الشتاء لاملاء أوانيهم ، وخاصة حين تقذف السيول بالاتربة الى الانهار فتجعلها معكرة حمراء . كما كان بعض الأهالي يفضل هذه العيون في أيام الصيف لبرودة مياهها .

ويرى تريس [2]، ان هذه الينابيع ناشئة عن ترشح المياه خلال الطبقات الجيرية في جبل قاسيون وامتداداته ، ثم تظهر على شكل ينابيع في المناطق المنخفضة ، ويستدل على ذلك بوجود بعض المظاهر الكارستية السائدة في هذه المنطقة ، نذكر منها مغارة السبع ومغارة الدم ومغارة الكهف في سفوح قاسيون.

الا انه من الملاحظ ، ان هذه الينابيع تجف تقريباً في شهر آذار (مارس) وقت قطع مياه نهري يزيد وتورا لتنظيفها (لكرايتها) ، مما يؤكد لنا ان هذه الينابيع ناشئة على الغالب من ترشح مياه النهرين المذكورين ترشحاً سطحياً ، وعودة تلك المياه للظهور على شكل ينابيع ، لاسيما وأنها لا تجري الا بعد جريان المياه في هذين النهرين المذكورين ببضعة ايام [3] .

---

(١) غالب العلمي – ص ٣٣ .

(٢) Tresse . Op . cit. , P. 529 .

(٣) عبد الهادي السعيد – ص ٨ .

وتتصف هذه الينابيع بانها تشح خلال فصل الجفاف، وينقطع بعضها عن الجريان شهراً أو بعض شهر ، وقد تتوقف اكثر من ذلك في السنوات العجاف ، فسرعان ما تتأثر هذه الينابيع وتنضب مياهها لانخفاض منسوب المياه الجوفيةالتي تعقب الجفاف ، لأنها تستمد مياهها كما ذكرنا من طبقة سطحية غير عميقة ، كما حدث خلال فترة الجفاف السابقة .

* * *

اما الآبار فهي اكثر انواع المياه الجوفية شيوعاً ، اذ انها تحفر حيث يجد الانسان حاجة لها . وقد ساعد مستوى المياه القريبة من سطح الارض على الاستفادة من هذه الآبار استفادة كبيرة منذ اقدم الأزمان حتى الآن ، ولم يقتصر استخدامها على الشرب وسقي الحيوانات بل تعداها الى الزراعة .

وقد عرفنا ان المقاسم الرئيسية لمياه الانهار تقع في غربي دمشق ، ولذا كانت الاجزاء الشرقية من المدينة تنال قسطاً اقل من المياه من الاجزاء الغربية، كما كان الفساد يتطرق بسرعة الى اقنيتها بسبب بعدها عن مصادرها الرئيسية ، وبالتالي تكاف نفقات باهظة ، يصعب جمعها من ابناء الحي في اغلب الاحيان من اجل اصلاحها ، ولذلك كثيراً ما كان الاهالي يلجؤون الى حفر الآبار في الاحياء الشرقية من المدينة للاستفادة منها في الشرب والاستعمالات المنزلية ، والرجوع اليها اثناء انقطاع مياه الانهار ، كما هي الحال في احياء القصاع ومئذنة الشحم وباب توما والقيمرية ، وكذلك تكثر الآبار في الاحياء الجنوبية من المدينة هرباً من مياه الانهار الملوثة ، الا ان استخدام مياه الفيجة النظيفة وانتشارها في معظم مساكن المدينة قد قضى نهائياً على استخدام هذه الآبار .

وختاماً ، يمكن القول بأن دور مياه الانهار والينابيع والابار في طريق الاحتضار في دمشق بسبب تلوثها وكثرة نفقاتها ، فضلا عن انتشار مياه الفيجة

النظيفة ، ولن تمضي سنوات كثيرة حتى تزول معالم الشبكة المائية القديمة وتصبح في ذمة التاريخ .

نبع الفيجة

يمثل نبع الفيجة [1] اكبر روافد بردى وأهمها ، كما انه اكبر ينابيع منطقة الزبداني وأغزرها ، بل انه أهم ينابيع سوريا كلها . فهو ينبع من شمال قرية الفيجة ، على ارتفاع ٨١٥ م في شروط هيدروجيولوجية واضحة جداً ، تتألف من كتلة واسعة من الصخور الجيرية الكارستية الخازنة المياه الجوفية (ولا سيما السينومانية والتورونية) ، محاطة بحزام من الصخور المارنية الجيرية السينونية غير المنفذة ، التي توجه المياه المتجمعة في الكتلة الجيرية بكاملها نحو عين الفيجة ، وتمنع تسربها في اتجاهات اخرى ، وفي أخفض نقاط هذه الطبقات الجيرية تتفجر المياه مكونة نبع عين الفيجة الشهير [2] .

ينبجس هذا النبع من حضيض جبل مرتفع عمودي كالجدار يدعى جبل القلعة ، نسبة الى « قلعة حصن عزتا » فتخرج مياهه من كهف ، تسقط بعده من شلال عريض ، ثم تجري لمسافة مائة متر لتلتقي بنهر بردى القادم من سهل الزبداني ، وتنحدر معه في وادي بردى نحو دمشق وغوطتها ، بينما يسيل قسم من مياه النبع في قناة واسعة الى مدينة دمشق لإروائها .

وقد فطن الناس الى أهمية نبع الفيجة منذ أقدم العصور ، واتخذوه مكاناً

---

(١) يونانية الأصل Pégé تعني النبع الغزير جداً ، عن :

Dussaud, R., Topographie de la Syrie antique et médiévale . paris. 1927, p. 226 et suiv.

(٢) شركة سوكريا — تقرير اولي حول امكانيات تحسين استثمار نبع عين الفيجة — الترجمة العربية — آب ١٩٦٥ — ص ٤ .

العبادة بدليل وجود المعبد الروماني الوثني المعروف باسم « حصن عزتا » والذي لم يبق منه حالياً سوى بقايا جدرانه التي يظهر جزء منها في شمال الخزان ، ويختفي الجزء الآخر تحت سقفه ، هذا فضلاً عن الحجرة المقدسة او حجرة مقاسم المياه ، التي تخرج المياه من الفوهات المنتشرة عند أسفلها ، وتندفع جارية نحو القناة الأثرية التي كانت تحمل مياه الفيجة الى دمشق في القرون الأولى . وعلى أثر خراب هذه القناة واندثار قناطرها ، اضطر سكان دمشق الى الالتجاء الى مياه نهر بردى لتأمين حاجتهم من المياه .

وقد حوّل هذا المعبد الوثني الى كنيسة في عهد النصرانية ، ثم أصبح حصنا في عهد الإسلام وسماه المسلمون حصن عزتا ، وظل على حاله حتى أصابه الخراب والدمار بسبب الزلازل التي كانت تتعرض لها هذه المنطقة بين حين وآخر . وقد أقامت مؤسسة الفيجة فوق النبع بناء حديثاً في سنة ١٩٣١ لحفظ مياهه من العبث والتلوث [١] .

جدول (٥٢)

متوسطات التصريف الشهري لنبع الفيجة (م٣/ثا) لمدة ١٩ سنة
من ١٩٤٠ – ١٩٥٨ (عدا أيار فهو لمدة ١٨ سنة)

الشهر	كانون الثاني	شباط	آذار	نيسان	أيار	حزيران	تموز	آب	أيلول	تشرين الأول	تشرين الثاني	كانون الأول	المتوسط الشهري
نبع الفيجة	٣٫٥	٤٫٩	٩٫٤	١٤٫٣	١٣٫٤	٩٫٤	٦٫١	٤٫٢	٣٫٣	٢٫٨	٢٫٦	٢٫٦	٦٫٤

(١) شركة سوكريا – ص ١٥ و ١٦ .

يتضح من الجدول السابق والشكل (٣١) ، ان تصريف نبع الفيجة يتفاوت تفاوتاً كبيراً خلال أشهر السنة المختلفة ، فهو يبلغ اقصاه خلال فصل الربيع من اواسط آذار (مارس) الى اواسط حزيران (يونيه) (١٤٫٣م٣/ثا في نيسان) ، ثم يقل تصريفه تدريجياً حتى يصل الى حده الأدنى خلال فصل الخريف ، فيتراوح تصريفه بين ٢ – ٣ م٣/ثا ، وبذلك يزيد الفرق بين النهايتين العظمى والصغرى على نسبة ٥ الى ١ .

وبالاضافة الى ذلك ، تنفجر من قاع نهر الفيجة بعض الينابيع التي يمكن ان تشاهد في موسم الجفاف، عندما تحوّل جميع المياه الى قناة الجر ، ويقدر تصريفها بحوالي متر مكعب في الثانية. وعند التقاء نهر الفيجة بنهر بردى ينبجس من الطمي نبع يعطي بضع مئات من الليترات في الثانية تشكل قناة صغيرة ترفد نهر بردى [1].

ولا شك في ان المعدلات الشهرية لتصريف المياه في نبع الفيجة ،ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمعدلات الشهرية للامطار التي تسقط في تلك المنطقة ، وان كانت هنالك عوامل اخرى كالثلوج وطبيعة الصخور تفسد هذه العلاقة الطردية القائمة بينها .

جدول (٥٣)

المعدلات الشهرية للامطار في نبع الفيجة [2] (بالمليمترات)

الشهر	كانون الثاني	شباط	آذار	نيسان	مايس	حزيران	تموز	آب	ايلول	تشرين الأول	تشرين الثاني	كانون الأول	المتوسط الشهري
كمية المطر	٥٩٫٤	٥٨٫٣	٣٣٫١	٢٤٫١	٩٫٢	٠٫٢	—	٠٫١	٠٫٢	٧٫٢	١٩٫٣	٦٥٫٧	٥٥٫٣

(١) معدل الفترة مابين ١٩٥٩ – ١٩٦٣ .

(٢) معدل الفترة مابين ١٩٥٩ – ١٩٦٣ .

ومن مقارنة المعدلات الشهرية لتصريف المياه عند نبع الفيجة (جدول ٥٢) بالمعدلات الشهرية للامطار في المنطقة نفسها (جدول ٥٣) ، يتضح ان النهاية العظمى لتصريف النبع تتأخر ثلاثة اشهر تقريباً عن النهاية العظمى المطر ، وهذا يرجع الى ان الصخور المنفذة التي تسقط عليها الامطار تمتص مايسقط عليها ولا تعيده الا بعد ثلاثة اشهر على شكل ينابيع ؛ هذا بالاضافة الى الثلوج التي تذوب مع ازدياد الحرارة في نيسان وأيار (ابريل ومايو) وتزود النهر بمياهها ، ولكن هذا المؤثر يزول في حزيران (يونيه) ليعمل بصورة غير مباشرة ، بعودة مياه ذوبانه التي امتصتها الصخور في الاشهر السابقة ، بشكل ينابيع في الأشهر التي تنقطع فيها الامطار .

ومن مقارنة التصريف السنوي لكل من نبعي الفيجة وبردى (عند التكية) يتضح لنا أهمية نبع الفيجة في تزويد بردى بمعظم مياهه ، ففي حين ان متوسط التصريف السنوي لنبع بردى (عند التكية) يبلغ ١١٢ مليون م٣ من المياه تقريباً ، يصل متوسط تصريف نبع الفيجة الى اكثر من ٢٣٥ مليون م٣ [١] ، ولذا كان نبع الفيجة أجدر وأولى بأن ينسب النهر اليه بدلاً من نبع بردى .

مراحل سحب مياه الفيجة الى دمشق :

يبدو ان التفكير باستخدام مياه نبع الفيجة قديم جداً ، بدليل وجود آثار قناة قديمة محفورة على سفوح الجبال المشرفة على وادي بردى ، تصل مابين نبع الفيجة ومنطقة الصالحية في دمشق ، تشاهد آثارها بوضوح عند رأس نبع العين ، ويعود تاريخها في الغالب الى العهد الروماني او ما قبله [٢] .

---

(١) Burdon , D.G., The groundwater resources of the Damascus basin-a preliminary report - Dep . of irrigation , Damascus , 1959 , P. 10

(٢) أحمد وصفي زكريا – ص ٣٤ .

ولاشك في ان دمشق ، قد استخدمت مياه الفيجة منذ وقت طويل ، ولكن يظهر ان الاهمال والفوضى قد أديا الى تخريب هذه القناة واندثار قسم كبير منها ، إذ ان صيانتها واصلاحها كانت تقوم بها على الاغلب ، لجان من أهل المدينة والقرى ، على طريقة تطهير الانهار المتبعة الآن في غوطة دمشق ، مما اضطر اهالي دمشق للعودة الى مياه الأنهار مرة اخرى ، واستخدامها في الشرب والاستعمالات المنزلية ، رغم عدم نقاوتها ، مما يعرض سكان دمشق للاوبئة والامراض .

وعلى أثر انتشار وباء الكوليرا بين سكان دمشق ، في اواخر القرن التاسع عشر ، اتجهت انظار الحكومة في زمن الوالي التركي ، ناظم باشا ، الى سحب مياه الفيجة لتأمين مياه المدينة . وتم ذلك فعلا في عام ١٩٠٨ ، بواسطة قساطل حديدية طولها ٢٣ كيلو متراً وقطرها ٢٥٠ مليمتراً ، عرفت باسم « قساطل ناظم باشا » ، وما زال هذا القسطل يستخدم حتى الوقت الحاضر ، حيث يتصل بشبكة التوزيع الحالية عند وصوله الى دمشق ، وهو يسير بموازاة نهر بردى ، ويلتقي بالطريق القادم من دمشق قرب الهامة فيسير معه حتى كيوان . وكان يصب في خزانين ، يدعى الأول « خزان العفيف » وهو يقع على ارتفاع ٧٢٠ متراً وسعته ٢٠٠٠ م٣ ، ويدعى الثاني « خزان ظبيان » ، وهو يعلو عن الأول بأربعين متراً ، ولكن سعته محدودة لاتزيد على ٥٠٠ م٣ ، ومازال مستخدماً حتى الآن ، بينما أهمل خزان العفيف بسبب قلة ارتفاعه عن المدينة ، وعدم صلاحيته لتأمين الضغط اللازم لايصال المياه الى المساكن .

تتصل بهذين الخزانين شبكة محدودة من القساطل ، يجري فيها نحو ٢٠٠٠ م٣ من المياه يومياً ، توزع المياه على السبلان العامة في المدينة ، والتي يقرب عددها من ٥٠٠ سبيل ، تسيل منها المياه في ساعات معينة في الصباح والمساء ، وهي لاتكاد تكفي حاجة الشرب ، ولذلك كان الناس يزدحمون حولها في اوقات جريانها .

يتضح من هذا ، ان مياه الفيجة التي سحبت في عهد العثمانيين لم تكن كافية لتأمين حاجة سكان المدينة من مياه الشرب ، ولذلك بقيت دمشق تستخدم مياه الآبار والأنهار الملوثة ، وهذا ما حدا ببعض ابناء دمشق الى التفكير في زيادة كمية المياه الآتية من نبع الفيجة لتحسين اوضاع المدينة من الناحيتين الصحية والعمرانية ، وتخليصها من الامراض والأوبئة التي كانت تنزل بهذه المدينة بين حين وآخر ، لفقدان مياه الشرب النقية فيها .

وقد تأسست في عام ١٩٢٢ لجنة وطنية لاستغلال هذا المرفق الحيوي في البلاد ، واستطاعت الحصول على امتياز اسالة مياه الفيجة الى بيوت دمشق من المفوض السامي الفرنسي « ويغاند » في اوائل عام ١٩٢٤ ، رغم كل العقبات التي وضعت في طريق هذا المشروع الوطني . وفي منتصف العام التالي مباشرة اجرت لجنة مياه عين الفيجة مناقصة عالمية لتنفيذ أعمال المشروع ، فنالته احدى الشركات الكبرى ، وأهم ما اشتمل عليه المشروع :

أولاً : انشاء خزان في نبع عين الفيجة لحماية المياه من التلوث ، وحصرها واسالتها في القناة .

ثانياً : انشاء قناة لسحب المياه بما فيها الانفاق والقنوات والجسور .

ثالثاً : انشاء شلال مائي لاقامة مصنع لتوليد الكهرباء في الهامة لانارة المدينة ، يعوض عن عجز الشلالات القديمة في التكية .

رابعاً : انشاء خزانين لتجميع المياه وتوزيعها وهما : « خزان الورود » في أرض الوالي بسعة ٢٠٠٠ م٣ و « خزان الفواخير » بسعة ١٥٠٠ م٣ .

خامساً : انشاء شبكة أنابيب في المدينة بطول ٢٥٠ كيلو متراً تقريباً لتزويد المنازل والسبلان .

وقد اتجهت النية في بادىء الأمر الى سحب المياه بواسطة الانابيب الحديدية ، كما جرى من قبل في عهد الحكومة العثمانية ، ولكنهم آثروا انشاء القناة ، فيما بعد ، على شكل نفق لعدة أسباب ، أهمها زيادة طاقتها على نقل المياه اللازمة لمدينة دمشق ، واستغلال قدرتها الكبيرة في تأسيس شلال مائي يستخدم في توليد الكهرباء ، وتخفيف نفقات الترميم والاصلاح ، وهذا فضلاً عن تماثل المشروعين تقريباً من حيث التكاليف .

وفي نهاية عام ١٩٢٥ ، بدأ العمل بمد القناة ، ولكن مالبث ان توقف بعض الوقت بسبب الثورة السورية فيما بين ١٩٢٥ – ١٩٢٧ ، ثم استمر العمل بعد ذلك حتى انتهى في عام ١٩٣٢ . وقد حفرت القناة في الصخور على شكل مقطع بيضوي ارتفاعه ١٫٨ م ، وهي تتألف من ٤٠ نفقاً تتوزع ما بين نبع الفيجة وأعالي جبل قاسيون ، يقع أطولها بين المهاجرين ودمر ويبلغ طوله ٢٠٠٠ متر ، كما تشتمل على ثلاث أقنية من الاسمنت المسلح مطمورة في التراب لحمايتها . وتحتوي هذه الانفاق والقنوات على عدة أبواب تستعمل للتهوية والمراقبة ، هذا بالاضافة الى اربعة جسور معلقة فوق الوديان الصغيرة ، يوجد ثلاثة منها بين دمر والهامة تتراوح اطوالها بين ١٥ – ٥٠ متراً ، ومماص « سيفون » كبير في قرية دمر يبلغ طوله ٤٠٠ متر وعمقه ٤٠ متراً ، يعمل على إسالة المياه الى أسفل الوادي والصعود بها الى الجبل بواسطة ضغط المياه الحاصل من فرق الإرتفاع ، وهي تستعمل عوضاً عن الجسور في حال اتساع الوادي .

يسيل في هذه القناة ٣٠٠٠ ل/ثا من المياه ، كانت تأخذ المدينة منها ٦٥٠ ل/ثا ، ثم ازدادت فيما بعد الى ١٢٠٠ ل/ثا ، أما الباقي فيصب في شلال الهامة الذي يستغل في توليد الكهرباء ، وتعود مياه الشلال هذا الى نهر بردى في الهامة قبل تفرع نهر يزيد .

ومن هذا ، يتبين ان سحب مياه الفيجة الى دمشق قد جرى ضمن قناة محمية ، حفظت لأبناء المدينة صحتهم وقللت نسبة الأمراض بينهم . ومن أجل التثبت من صلاحية المياه ونقاوتها ، يجري تحليلها يومياً من الناحية الجراثيمية ، وتقدم التقارير اليومية الى وزارتي الداخلية والصحة ، كما تقوم الدوائر العسكرية ايضاً بمثل هذه الفحوص .

وقد دل تحليل مياه الفيجة الذي جرى في عدة مخابر ، على ان تركيب مياه الفيجة ممتاز ، فدرجة صلابتها العامة هي ١٦٫٥ فقط (درجة صلابة الماء الصالح للشرب يكون بين ١٦ – ٣٠) ، وكمية الكلور فيها ٢٠ ميليغراما في الليتر (كمية الكلور في الماء الجيد تكون أقل من ٢٧ ميليغراماً في الليتر) ، وكمية الجير فيها ١٩ ميليغراماً في الليتر (كمية الجير في الماء الجيد تكون أقل من ١٥٠ ميليغراماً في الليتر) ، وكمية المغنزيوم فيها كثيرة ، وهو ما يظنه بعض الناس جيرا . ويتبين من هذا ان مياه الفيجة من الوجهة الطبيعية والكيميائية والجرثومية جيدة جداً [1] .

شبكة توزيع المياه

تأخذ القناة مياهها من نبع الفيجة الذي يقع على ارتفاع ٨٢٠ متراً ، وتجري في خط مستقيم حتى خزان الورود في المهاجرين الذي يقع على ارتفاع ٧٩٤ متراً ، وبذلك تسيل فيها المياه بالانحدار الطبيعي (بالراحة) دون الحاجة الى استخدام المضخات ، إذ يبلغ الفرق بين النبع والخزان الرئيسي ٢٦ متراً تقريباً .

ويوجد في دمشق عدة خزانات ، على ارتفاعات مختلفة ، يقع اربعة منها على جبل قاسيون ، وهي :

---

(١) مياه عين الفيجة في دمشق – ١٩٥٦ – ص ٣٨ .

اولا ـ خزان ارض الوالي : وهو الخزان الرئيسي بالمهاجرين ، يقع على ارتفاع ٧٩٥م، ويتألف من خزانين يستوعب احدهما ٢٠٠٠م³ والآخر ٨٠٠٠م³. ويعتبر خزان ارض الوالي حوض الورود الرئيسي ، اذ تنتهي عنده القناة الاتية من نبع الفيجة ، ومنه تنطلق الانابيب لتغـــذية خزاني الفواخير وظبيان ، كما تغذى جزءاً من المدينة .

ثانيا ـ خزان الفواخير: يقع على ارتفاع ٧٥٠ م ، ويستوعب ١٥٠٠م³، وهو يتزود ـ كما رأينا ـ من خزان أرض الوالي بواسطة قسطل يبلغ تصريفه ٤٠ ل / ثا .

ثالثا ـ خزان ظبيان : يقع على ارتفاع ٧٧٠م ، ويستوعب ٥٠٠م³ . وهو يتزود ايضاً من خزان أرض الوالي، بواسطة قسطل يبلغ تصريفه ١٢٠ل/ثا، ويقوم بتغذية المناطق النائية من المدينة ، كمستشفى ابن نفيس ومعسكرات القابون بواسطة مضخات كهربائية تقع بجوار الخزان .

رابعا ـ خزان قاسيون : يقع على ارتفاع ٨٧٠م ، ويستوعب ٥٠٠م³. وهو يختص بتغذية المناطق المرتفعة من المدينة ، اي التي يزيد ارتفاعها على مستوى الخزان الرئيسي بالمهاجرين ، وترفع المياه الى خزان قاسيون بواسطة مضخة بمعدل ١٧ ل/ثا . وهذا الخزان لايكفي لتغذية كل المنطقة المرتفعة ، ولذلك سيجري توسيعه من ٥٠٠ الى ١٥٠٠م³ ، كما سيأتي معنا فيما بعد ، كما أن مؤسسة مياه عين الفيجة جادة الآن بانشاء خزان شرقي حي الاكراد الذي يستوعب مالا يقل عن ٢٥ الفم³ .

وبالاضافة الى ذلك ، يوجد خزانان آخران على جبل المزة ، يقعان على مستويين مختلفين وهما :

اولا ـ خزان الورود : يقع على ارتفاع ٧٧٠م ، ويستوعب ٢٤٠٠م٣، وهو يتغذى من خزان أرض الوالي بالانحدار الطبيعي .

ثانيا ـ الخزان العالي : يقع على ارتفاع ٨١٥م ، ويستوعب ١٦٠٠م٣، وهو يتغذى من خزان الورود في المزة بواسطة الضخ .

وهناك خزان صغير في قرية برزة ، يقع على ارتفاع ٨٣٠م، ويستوعب ٥٧٠م٣ ، وهو يتغذى مع خزان القرية القديم (وسعته ١٠٠م٣) من الخزان الشرقي بواسطة الضخ .

وتنحصر وظيفة هذه الخزانات العادية بتجميع المياه وتوزيعها ، عن طريق الانحدار الطبيعي او عن طريق الضخ أما الخزان الشرقي في ضاحية برزة فيقوم بوظيفة التخزين بالاضافة الى عملية التجميع والتوزيع ، وهو يقع على ارتفاع ٧٥٠ م ، وتبلغ سعته ٣٣ الف م٣ .

وهناك نوع ثالث من الخزانات ، يدعى « بخزانات التوازن » ، يقصد منها تزويد اقسام الشبكة التي يتعرض ضغطها للانخفاض في بعض ساعات النهار وبالتالي الى نقص التصريف ، وخاصة عندما تكون الخزانات بعيدة عن الاقنية الرئيسية ، فاثناء الليل يكون الاستهلاك قليلا بينما يكون الضغط قوياً في القساطل ، فتمتلىء خزانات التوازن التي تتصل بالشبكة مباشرة . وفي اثناء النهار ، عندما يكون الاستهلاك كبيراً والضغط ضعيفاً في القساطل لا يكفي لتغذية المباني المرتفعة والبعيدة عن الخزانات ، فتفرغ خزانات التوازن من تلقاء نفسها في الشبكة المحيطة بكل خزان وتؤمن الضغط الكافي .

وستقوم مؤسسة الفيجة بانشاء سبعة خزانات توازن في مدينة دمشق ، سعة كل منها ٤٠٠م٣ ، وارتفاع قاع الحلة لكل منها ٢٥ م عن سطح الارض ، يجري العمل في ثلاثة منها ، وهي خزانات القدم وباب شرقي والزبلطاني ، اما

الخزانات الاربعة الباقية فسوف تقام في كفرسوسة والقابون والاكراد وباب المصلى .

وتتوزع مياه الخزانات الى ثلاث مناطق ، وهي :

اولاً ـ المنطقة المنخفضة : وهي تستهلك ٨٠ ٪ من المياه المستهلكة ، وتقع احياؤها على ارتفاع ٧٣٠ م تقريباً ، وتتغذى من خزاني الورود في ارض الوالي والفواخير والخزان الشرقي ، كما سيقام خزان بسعة ٢٥٠٠٠ م٣ في ارض الجريد لتغذية هذه المنطقة ايضاً ، يسمى الخزان الغربي .

ثانياً ـ المنطقة الوسطى : تقع هذه المنطقة بين ارتفاعي ٧٣٠ م و ٧٦٠ م ، يغذيها خزانا الورود بأرض الوالي وظبيان .

ثالثاً ـ المنطقة العليا : في جبل قاسيون ، تقع فوق ارتفاع ٧٦٠ م ، وتتغذى من خزان قاسيون ، وتشمل هذه المنطقة محطة التلفزيون في قمة جبل قاسيون .

* * *

اما شبكة التغذية التي تمّ انشاؤها عام ١٩٣٢ ، فقـــد كانت تكفي حاجات المدينة في ذلك الحين ، ولكن المدينة شهدت في اعقاب الحرب العالمية الثانية حركة عمرانية واسعة عمت معظم ارجاء دمشق، واستطاعت شبكة التغذية أن تلبي جميع طلبات المياه الجديدة وتؤمن ايصالها الى مختلف المناطق السكنية الحديثة ، إما بمد خطوط مباشرة من الخزانات او بمد خطوط فرعية ، وذلك بفضل تصميم شبكة التغذية التي روعي في انشائها امكانية التوسع في المستقبل ، هذا على الرغم من عدم وجود مخطط تنظيمي لتوسع مدينة دمشق ابان تصميم مشروع الفيجة وتنفيذه .

ولكن التوسع المستمر في رقعة المدينة والازدياد المطرد في عدد سكانها

وارتفاع نسبة المستهلكين المياه ، ادى الى عجز الشبكة المائية عن ايصال المياه الى الأماكن المرتفعة على سفح قاسيون ، ونقص ضغط المياه عن بعض الاحياء الأخرى كالشاغور والقيمرية والقنوات وخاصة في أوقات الصيف . ويعزى عجز الشبكة الحالية الى عدة عوامل أهمها :

أولاً : اعتماد المدينة على مورد مائي واحد هو نبع الفيجة .

ثانياً : بعد الشبكة الحالية عن مركز تغذيتها ، فهي تمتد اكثر من خمسة كيلو مترات نحو الجنوب ، واكثر من أربعة كيلو مترات نحو الشرق والشمال الشرقي ، مما يجعل الضغط قليلا في هذه المناطق البعيدة عن المركز .

ثالثاً : عدم كفاية أقطار الأنابيب الرئيسية المتفرعة عن الخزانات ، اذ أن طول الشبكة يتطلب نقل المياه بواسطة انابيب ذات اقطار كبيرة ، لتجنب فقدان الضغط الذي يسبب قلة المياه في بعض الأحياء .

رابعاً : صغر حجم الخزانات ، اذ أنها لاتسمح بتخزين المياه المتدفقةاليها بكاملها؛ففي أثناء الليل ، عندما يكون الاستهلاك قليلا ، تمتلىء الخزانات ويذهب الفائض هدرا الى نهر بردى عند الهامة ، ولما كانت كمية المياه المخزونة في الليل ، بالاضافة الى المياه الجارية في الانبوب لاتتناسب مع الاستهلاك الذي يبلغ حده الأقصى وقت الظهيرة ، فانه من الطبيعي حدوث النقص في كمية المياه .

خامساً : كثرة السبلان التي وصل عددها في الماضي القريب الى ٨٠٠ سبيل ، يستهلك الواحد منها بين ٢٠ ـ ٢٥م٣ يومياً ، وهذا بالاضافة الى ٥٠٠ مؤسسة دينية تستهلك ٢٥٠٠ م٣ يومياً . ولا يخفى بعد ذلك ، ان الكثيرين من الأهالي يعمدون الى سحب مياه الفيجة الى مساكنهم خلال الليل ،وذلك بواسطة خراطيم المياه .

سادساً : سرقة المياه من قبل بعض المشتركين بحق الارتفاق ، اذ أن معظمهم لايشترك بأكثر من ربع متر ، والقليل منهم يشترك بنصف متر ،وهذه الكمية لاتكفي الحاجات المنزلية ، وخاصة في أيام الصيف ، فيلجؤون الى سرقة المياه في بيوتهم .

هذه الأسباب مجتمعة ، أدت الى عجز الشبكة المائية عن اداء دورهـــا كاملا ، واصبحت لا تتلاءم مع توسع المدينة الجديد ، ولذلك عمدت المؤسسة الى استقدام خبير عالمي بشؤون توزيع المياه ،هو المهندس الفرنسي (موريس فونتين) الذي قام بوضع تقريرين اولها في عام ١٩٥٣ والآخر في عام ١٩٦٣ .

كمية المياه اللازمة للمدينة :

لاشك في أن تموين المدينة بالمياه يحتل المرتبة الأولى في طريق عمرانها ، ولا يخفى ان استهلاك المياه في المدن كبير ، اذ يبلغ متوسط ما يستهلكه الفرد الساكن في المدينة ٥٠٠ ليتر من الماء في اليوم ، وان جزءاً من المياه يستخدم في رش الشوارع وغسلها ، وآخر يستهلك عن طريق السبلان العامة ،وفي الصناعة التي تزداد حاجتها الى المياه باطراد مع تقدمها وغيرها .

ومدينة دمشق تعتمد في تموينها بالمياه على نبع الفيجة في الوقت الحاضر ، ومياه الينابيع ـ كما هو معروف ـ محدودة الطاقة ، وتصريفها يقـــل في فصل الصيف ، في الوقت الذي يزداد فيه استهلاك المياه ، ولا بد لمياه الينابيع أن تكون محمية ومراقبة طبياً بصورة مستمرة . وهكذا نرى أن امر التثبت من صلاحية المياه أصبح عائداً الى المختبر وحده ، أما كمية المياه فهي ترتبط بعوامل طبيعية ، خارجة عن سيطرة الانسان وارادته الى حد بعيد ، ولذلك لازالت

تمثل احدى المشاكل الهامة التي تواجه مدينة دمشق في حاضرها ومستقبلها(١) .

ومن الجدير بالذكر ، ان طريقة توزيع المياه في دمشق ، لاتشابه الطرق المعروفة في سائر مدن العالم الاخرى ، فالمشتركون يملكون أمتاراً من الماء بحق الارتفاق ، ويدفعون ثمنها كاملا ، وبالتالي فهم يستمتعون بالمياه في بيوتهم الى أجل غير محدود ، ولا يدفعون سوى رسم سنوي زهيـد لقاء نفقات الاصلاح والترميم . ثم استخدمت العدادات فيما بعد ، لتزود المشتركين عن طريق الامتار ، بما ينقصهم من المياه .

وقد درس المهندس الفرنسي « فونتين » في عام ١٩٥٣ حاجة المدينة من المياه ، كما عالج نقاط الضعف في الشبكة المائية ، واقترح برنامجاً لتحسين توزيع المياه ، يجري تنفيذه على مرحلتين :

المرحلة الأولى : تنحصر أعمال هذه المرحلة بتنظيم شبكة مائيـة توفر المياه لجميع المساكن ، أي بمعدل ٥٠٠٠٠ م٣ يومياً ، كما تؤمن الضغط الكافي لجميع الأبنية التي يزيد ارتفاعها على ٢٥ متراً في مختلف أنحاء المدينة ، وقد قدر الخبير الفرنسي لانجاز هذه المرحلة مدة عشر سنوات ، تؤمن المياه لمدينة دمشق مدة عشرين سنة ، وأهم ما اشتملت عليه المرحلة الأولى :

أولاً : انشاء ثلاثة خزانات جديدة ، تستوعب كميات كبيرة من المياه ، الاول في أرض الجريد بالمهاجرين (وسعته ١٠٠٠٠ م٣) والثـاني في منطقة الاكراد (وسعته ١٥٠٠٠ م٣) والثالث في جبل قاسيون (وسعته ١٥٠٠م٣) .

ثانياً : انشاء خزانات للتوازن في مناطق القصاع وباب شرقي والميدان ،

---

(١) عبدالهادي قصاص ومحمود دهام – تموين المدينة وتسهيل المصالح فيها – بحث غير منشور (١٩٦٠ – ١٩٦١) – ص ٤ و ٥ .

تقوم بتقوية تدفق المياه في نهايات القساطل ، ويستوعب كل من هذه الخزانات ٥٠٠ م^{٣} .

ثالثاً : مد شبكة قساطل رئيسية ، تنطلق من الخزانات بطول ٣٠٠٠٠م ، واخرى ثانوية تتفرع من القساطل الرئيسية بطول ٥٠٠٠٠ م .

رابعاً : ايجاد مورد اضافي للمياه ، يستخدم حين حصول عطل طارىء في جهاز التغذية الحالي .

خامساً : انشاء مركز تعقيم على قناة الفيجة ، لمكافحة حدوث تلوث طارىء في جهاز التغذية .

سادساً : تنظيم السيلان العامة .

سابعاً : التحري عن سرقة المياه في القساطل .

المرحلة الثانية : تنحصر أعمال هذه المرحلة في توسيع شبكة التوزيع من أجل المستقبل ، بحيث تؤمن ما لا يقل عن ٩٠٠٠٠ م^{٣} يوميا من المياه . وتتلخص أعمالها بتوسيع الخزانات الثلاثة المنشأة في منطقة الجريد والاكراد وجبل قاسيون ، بحيث تصبح سعة كل من الاول والثاني ٢٥٠٠٠م^{٣} ، وسعة الخزان الثالث ٢٥٠٠م^{٣} ، وهذا فضلا عن مد القساطل اللازمة لاعمال هذه المرحلة. ولا يبدأ تنفيذ هذه المرحلة الا عندما تمس الحاجة الى ذلك ، ولا يعتقد الخبير الفرنسي ان هذا العمل سيبدأ قبل عام ١٩٧٥ .

ويمكن تلخيص الأعمال التي تم انجازها من المرحلة الأولى على النحو التالي :

أولاً : تم انشاء الخزان الشرقي في منطقة الاكراد ، كما بدىء بانشاء خزانات التوازن في القدم وباب شرقي وساحة العباسيين .

ثانياً : تم تركيب القساطل الرئيسية التي تحيط بالمدينة من خارجها ، وأُخذ قسم من مياه هذه القساطل المحيطة بالمدينة لتغذية كفرسوسة والقدم والقابون ، رغم عدم ادراج تغذيتها في برنامج عام ١٩٥٣ ، كما مدت القساطل الثانوية في مختلف انحاء دمشق .

ثالثاً : تم التفتيش عن ضياع المياه في بعض اجزاء شبكة التوزيع في دمشق ، كما تم تبديل حواصر[1] المشتركين بالعدادات ، فتناقص عدد المشتركين بالحاصرة من ١٠٠٠٠ مشترك في عام ١٩٥٢ الى النصف تماماً (٥٠٠٠ مشترك) في نهاية عام ١٩٦٢ .

ويبدو ان المؤسسة لم تستطع انقاص عدد السبلان العامة في المدينة ، إذ يدل الاحصاء الاخير على وجود ٣٨٣ سبيلاً ، يبلغ متوسط ما يصرفه كل منها ٢٥ م٣ في اليوم ، فاذا فرضنا ان السبلان تسيل مدة ١٦ ساعة يومياً ، فانها تستهلك ٦٠٠٠ م٣ في اليوم ، وهذه الكمية من المياه تؤمن مياه الشرب لما يقرب من ١٣٠٠٠٠ نسمة من السكان غير المشتركين بالمياه ، أي بمعدل ١٠ ليترات للشخص الواحد ، يضاف الى ذلك اماكن العبادة التي يبلغ عددها نحو ٥٠٠ مركز ، يستهلك كل منها ما لا يقل عن ٥ م٣ في اليوم ، واكثر هذه الأماكن لاتزال تستخدم الحاصرة .

لقد قدر استهلاك المياه في مدينة دمشق بنحو ٥٠٠ ل / ثا يومياً في عام ١٩٤٣ ، وارتفع هذا الاستهلاك الى ٦٠٠ ل / ثا يومياً في عام ١٩٤٩ ، وفي ضوء هذه التقديرات أمكن تقدير الاستهلاك اليومي لمدينة دمشق بمقدار ١١٠٠ ل / ثا بين عامي ١٩٧٥ – ١٩٨٠ . وفي الواقع ، فقد بلغ استهلاك المدينة هذا التقدير

---

(١) مفردها حاصرة ، وهي المحبس الذي يوضع في مجرى الماء لتحديد حصة المالك .

الأخير في عام ١٩٦٢ ، فاستنفدت المرحلة الأولى التي وضعت في عام ١٩٥٣ أغراضها خلال مدة قصيرة ، وتضاعف الاستهلاك خلال عشر سنوات بدلاً من ثلاثين عاماً ، كما كان مقدراً له ، وهذا يرجع الى عدة اسباب اهمها :

أولاً : ضياع الكثير من المياه في السبلان العامة وشبكة المياه .

ثانياً : ازدياد عدد السكان ازدياداً كبيراً واتساع رقعة المدينة ونموها .

ثالثاً : كثرة عدد المشتركين بمياه الفيجة ، نتيجة التسهيلات التي تمنحها مؤسسة الفيجة لهؤلاء المشتركين ، حتى اصبح عدد المشتركين في العام الواحد يزيد على ٥٠٠٠ مشترك جديد .

وقد قدر استهلاك المدينة ، في أحد أيام الصيف في عام ١٩٦٢ بحوالي ١٠٤،٠٠٠ م٣ في اليوم ، أو ما يعادل ١٢٠٠ ل / ثا ، تتوزع على النحو الآتي :

السكان المشتركون بمياه الفيجة (وعددهم ٤٢٠،٠٠٠ نسمة)	٥٨٠٠٠ م٣ في اليوم	١٣٥ ل يومياً للشخص الواحد
السكان غير المشتركين بمياه الفيجة (وعددهم ١٣٠،٠٠٠ نسمة)	٢٦٠٠ م٣ في اليوم	٢٠ ل يومياً للشخص الواحد
امانة العاصمة	٣٥٠٠ م٣ في اليوم	
الجيش	٣٥٠٠ م٣ في اليوم	
دور العبادة	٣٠٠٠ م٣ في اليوم	
الضياع	٣٣٤٠٠ م٣ في اليوم	أي ما يعادل ٣٢ ٪ من الاستهلاك

وفي ضوء النتائج السابقة ، يمكن تقدير استهلاك المياه في مدينة دمشق تقديراً قريباً من الواقع ، في صيف عام ١٩٩٠ ، حين يبلغ السكان مليون نسمة تقريباً ، ويكون الاستهلاك على النحو الآتي :

السكان المشتركون بمياه الفيجة (وعددهم مليون نسمة)	١٥٠٠٠٠ م³ في اليوم	بمعدل ١٥٠ ل يومياً للشخص الواحد
أمانة العاصمة	٦٠٠٠ م³ في اليوم	
الجيش	٥٠٠٠ م³ في اليوم	
دور العبادة	٥٠٠٠ م³ في اليوم	
الضياع	٦٦٤٠٠ م³ في اليوم	أي ما يعادل ٤٠ ٪ من الاستهلاك
	٢٣٢،٤٠٠ م³ في اليوم	

يتضح من هذا ، ان مجموع الاستهلاك سيبلغ ٢٣٠،٠٠٠ م³ في اليوم من المياه ، او ما يعادل ٢،٧ م³ / ثا ، وهذه الكمية يمكن الحصول عليها من نبع الفيجة نفسه ، كما تستطيع قناة الجر استيعابها ونقلها الى المدينة [1] .

النتائج التي ترتبت على استعمال مياه الفيجة في دمشق :

يعتبر مشروع استثمار مياه الفيجة فاتحة المشاريع الاقتصادية في سوريا ، فقد افاد فائدة عظيمة في توجيه الشعب الى المساهمة بأمواله لتحقيق الأعمال النافعة ، كما حدا بالشعب ان يقوم باستثمار مرافق البلاد الاقتصادية ، وتشجيع اصحاب الاموال بمشاريع اخرى ، كشركتي الاسمنت والكونسروة بدمشق .

وقد ساعد هذا المشروع على تنشيط الحركة العمرانية في المدينة وزحفها الى الاماكن المرتفعة من المدينة في سفوح قاسيون ، كما سمح بارتفاع المساكن وتعدد طبقاتها بعد ان كانت مساكن المدينة لاتتجاوز الطابقين (طابق أرضي وطابق علوي) ، وكثيراً ما يكون الطابق الارضي ادنى من مستوى الطريق العام بمتر أو أكثر ، وذلك ليتسنى لمياه الانهار التي تسيل في الطوالع ان تتدفق الى البحرات الموجودة في باحات المساكن .

(١) موجز عن تقرير الخبير موريس فونتين – آذار ١٩٦٣ – ص ٤ .

واسهمت مياه الفيجة في تخفيف اخطار الحرائق والاسراع في مكافحتها، وذلك عن طريق تزويد المدينة بالعشرات من فوهات الحريق في مختلف انحاء المدينة ، كما تجلت فوائدها الصحية باختفاء حوادث التيفوئيد والزحار التي كان يشكو منها معظم سكان دمشق ، بسبب استخدام المياه الملوثة .

هذا فضلاً عن اسهام المشروع في انارة مدينة دمشق عن طريق شلال الهامة الذي يولد طاقة كهربائية تقدر بنحو ١٥٠٠ حصان بخاري ، كما ساعد على ارواء الكثير من حدائق المدينة التي لاتصلها الانهار ، ولا سيما الاحراج التي تتعهدها مؤسسة الفيجة بالسقاية في سفوح قاسيون وروابي المزة المرتفعة .

تزويد المدينة بالكهرباء :

يعتبر الكهرباء احد الأسس الهامة التي تقوم عليها مدنيتنا الحديثة ، وحجر الاساس لأي بناء وطيد في الميادين الاقتصادية والاجتماعية ، بل انه عصب الحياة لكل امة راقية ، حتى اصبح معدل الاستهلاك الفردي للكهرباء في بلد ما المقياس الصحيح لرقي هذا البلد ، ولاشك في أن سهولة استعمال المنافع الكامنة في القوة الكهربائية بصورة نظيفة ادخلتها في جميع مرافق الحياة ، في المجتمع والمتجر والشارع والمنزل ... الخ .

وقد دخلت الكهرباء مدينة دمشق عام ١٩٠٥ ، على يد الشركة العثمانية التي بدأت استثمارها باستطاعة لاتزيد على ٤٠٠ ك. ف. تقريباً ، ثم اخذت تزيد في هذه الاستطاعة زيادات ضئيلة لاتتفق وحاجة السكان المتزايدة الى الكهرباء في المدينة والضواحي المحيطة بها إلا بالقدر الذي ينسجم ومصلحتها الاستثمارية ، فلم تزد الاستطاعة التأسيسية على ٧٠٠ كيلووات[١] في عام ١٩٥٠ ، مما حفز الدولة

(١) الكيلووات يساوي ١٫٣٤ حصان .

الى تأميم هذا المرفق الحيوي الهام في حياة السكان عام ١٩٥١ ، وانشأت مكان الشركة الاجنبية مؤسسة وطنية استطاعت ان تحقق قفزات هامة في تنميــة استثمارها وتوسيع رقعة خدماتها ، وان تكوّن استطاعة تأسيسية تبلغ حالياً ٦٢٠٠٠ كيلووات ، اي ما يقارب تسعة أضعاف ما كانت عليه الاستطاعة قبل التأميم . وما زالت المؤسسة في تسابق لاهوادة فيه ، يقوم بينها من جهة ، وبين التوسع الصناعي والانتشار العمراني من جهة اخرى .

كانت دمشق تستمد حاجتها من الطاقة الكهربائية من شلال التكية على نهر بردى ، وهو أول مشروع قام في البلاد ، وكان مصنع التكية ، في بادىء الأمر ، يحتوي على مولدّين فقط ، ازدادا فيما بعد الى خمسة مولدات ، تبلغ قوة كل منها حوالي ٣٠٠ حصان بخاري ، تمد دمشق وضواحيها بالكهرباء فضلاً عن قرى الزبداني . إلا أن نمو السكان وازدهار الحركة الصناعية في البلاد اديا الى عجز الطاقة الكهربائية عن اداء مهمتها ، حتى اصبح شلال التكية لا يعطي دمشق اكثر من ثلث حاجتها فقط .

ولم يزد مجموع استطاعة التوليد في عام ١٩٥١ على ٨٣٤٠ كيلووات ، ولكن المؤسسة لم تكن تستفيد منها إلا في حدود ٧٠٠٠ كيلووات فقط ، فعملت على تركيب مجموعتي توليد ديزل في القابون باستطاعة قدرهـا ٤٢٠٠ كيلووات ، في الوقت الذي اتخذت فيه الاجراءات لانشاء مصنع توليد بخاري في الهامة باستطاعة مبدئية قدرها ١٠٠٠٠ كيلووات ، وبعد ذلك اتبعته بمصنعين مائيين ، الأول في الهامة والثاني في سوق وادي بردى ، باستطاعة اجمالية قدرها ٨٠٠٠ كيلووات ، ثم وسعت مصنع الهامة البخاري بتركيب مجموعة بخارية باستطاعة ٥٠٠٠ كيلووات .

وكان آخر اعمال المؤسسة في هذا الميدان تركيب مجموعتين بخاريتين في مصنع الهامة ، استطاعة كل منهما ١٥،٠٠٠ كيلووات ، وبذلك ارتفعت الاستطاعة الجاهزة لديها من ٧٠٠٠ كيلووات الى ٦٢،٠٠٠ كيلووات ، تستمدها المدينة من ثلاث محطات كهربائية (جدول ٥٤) ، وبذلك اصبحت الاستطاعة المذكورة كافية لمجابهة الطلب المتزايد على الكهرباء حتى نهاية عام ١٩٦٥ [١] .

جدول (٥٤)

انتاج المحطات التي تزود مدينه دمشق بالكهرباء

المحطة	نوعها	كيلووات	٪
الهامة	مائية وحرارية	٤٥٠٠٠	٧٥،٠
القابون	حرارية	٨٠٠٠	١٣،٣
وادي بردى	حرارية	٧٠٠٠	١١،٧
المجموع		٦٠٠٠٠	١٠٠

يتبين من الجدول السابق ، ان محطة الهامة تحتل المقام الاول في انتاج الطاقة الكهربائية التي تستهلكها العاصمة ، فهي تنتج وحدها ٤٥،٠٠٠ كيلووات أو ما يعادل ٧٥٪ من الانتاج الاجمالي للقدرة الكهربائية ، وهي تستفيد من شلال الهامة في توليد الكهرباء الى جانب مجموعاتها البخارية ، وتسهم محطتا القابون ووادي بردى في الانتاج بنسب متقاربة، تبلغ على الترتيب ١٣،٣ ، ١١،٧٪ ، من الانتاج الاجمالي .

(١) منجزات الخطة الخمسية لتنمية القطاع الكهربائي ، ١٩٦٠ – ١٩٦٥ ، رقم ٦٩ ، ايلول ١٩٦٣ ، ص ٢٠ – ٢٥ .

جدول (٥٥)

تطور الاستهلاك السنوي للكهرباء في دمشق وضواحيها من ١٩٥٠–١٩٦٣[1]

(بالكيلووات الساعي)

السنة	الانارة كيلووات ساعي	الانارة ٪	الصناعة كيلووات ساعي	الصناعة ٪	المجموع كيلووات ساعي	المجموع ٪
١٩٥٠	١٧،٤٧٢،٧٨٦	٦٢،٤	١٠،٤٩٧،٥١٦	٣٧،٦	٢٧،٩٧٠،٣٠٢	١٠٠
١٩٥١	١٩،٤١٠،٢٨٩	٦٥،٧	١٠،١٤١،٠٤٦	٣٤،٣	٢٩،٥٥١،٣٣٦	١٠٠
١٩٥٢	٢٢،٣٥٨،٨٦٩	٦٩،١	١٠،٠٠٩،٢٤٧	٣٠،٩	٣٢،٣٦٨،١١٦	١٠٠
١٩٥٣	٢٦،٦٨٩،١٦٥	٦٩،٨	١١،٥٣١،٥٦٢	٣٠،٢	٣٨،٢٢٠،٧٢٧	١٠٠
١٩٥٤	٣٠،٢٣٩،٩٩٧	٦٩،٥	١٣،٢٨٦،٨٨٦	٣٠،٥	٤٣،٥٣١،٨٨٣	١٠٠
١٩٥٥	٣٥،١٠٩،١٨٨	٦٨،٤	١٦،٢٤٠،١١٣	٣١،٦	٥١،٣٤٩،٣٠٦	١٠٠
١٩٥٦	٣٩،٥٩٧،٥٩٨	٦٧،٢	١٩،٣٠٢،٠٨٠	٣٢،٨	٥٨،٨٩٩،٦٧٨	١٠٠
١٩٥٧	٤٢،٦٨٢،٦٤٨	٦٥،٣	٢٢،٦٣٣،٩٤٤	٣٤،٧	٦٥،٣١٦،٥٩٢	١٠٠
١٩٥٨	٤٨،٧١٢،٢٣٩	٦٩،٣	٢١،٥٧٨،٠٦٤	٣٠،٧	٧٠،٢٩٠،٣٠٣	١٠٠
١٩٥٩	٥٥،٠٢٦،١٩١	٦٧،٣	٢٦،٧٩١،٤٣٨	٣٢،٧	٨١،٨١٧،٦٢٩	١٠٠
١٩٦٠	٥٨،١٢١،٣٢٤	٦٩،٩	٢٥،٠٣٨،٨٧٨	٣٠،١	٨٣،١٦٠،٢٠٢	١٠٠
١٩٦١	٦٥،٩١٣،٣٢٧	٧١،٤	٢٦،٤٦١،٦٥٩	٢٨،٦	٩٢،٣٧٤،٩٨٦	١٠٠
١٩٦٢	٧٢،٥٧٧،٦٩٤	٦٩،٦	٣١،٦٣٤،٣٣٩	٣٠،٤	١٠٤،٢١٢،٠٣٣	١٠٠
١٩٦٣	٨٠،٨٩١،٢٣٩	٧١،٦	٣٢،١٤٢،٤٧٤	٢٨،٤	١١٣،٠٣٣،٧١١	١٠٠

(١) مؤسسة كهرباء دمشق .

ويتضح من دراسة الجدول السابق ، ان الاستهلاك السنوي للكهرباء في دمشق وضواحيها ، قد ازداد من ٢٨ مليون كيلووات ساعي تقريبا في عام ١٩٥٠ الى اكثر من ١١٣ مليون كيلووات ساعي في عام ١٩٦٣ ، اي ان الاستهلاك قد تضاعف اربع مرات خلال ١٤ سنة فقط ؛ وهذا يرجع الى التوسع الصناعي الكبير الذى شهدته المدينة خلال هذه الفترة المذكورة ، وتزايد عدد المشتركين في الانارة ، فقد قفز عددهم من ٤٦٠٠٠ مشترك في عام ١٩٥٠ الى ما يقرب من ١٣٠٠٠٠ مشترك في نهاية عام ١٩٦٤ .

وتتوزع هذه الطاقة المستهلكة بين الانارة والصناعة ، بنسبة الثلثين الى الاولى والثلث الى الثانية ، فقد تراوحت نسبة الطاقة المستهلكة في الصناعة مابين ٣٧،٦٪ من الاستهلاك الاجمالي للمدينة في عـــام ١٩٥٠ ، و ٢٨،٤٪ من الاستهلاك الاجمالي في عام ١٩٦٣ .

وقد بلغ متوسط استهلاك الشخص الواحد من الكهرباء في مدينة دمشق ٨٣،٣ كيلووات ساعي في عام ١٩٥٠ ، ثم ارتفع هذا المتوسط الى اكثر من الضعف (١٩٤،٨ كيلوات ساعي) في عـــام ١٩٦٣ ، اي ان الزيادة السنوية لمتوسط استهلاك الفرد من الكهرباء بلغت ٨،٥٪ تقريبا ، وهذه المعدلات تبدو مرضية اذا ما قورنت بأمثالها في لبنان (٦٠ كيلووات ساعي في عام ١٩٥٠ ، و ١٢٠ كيلووات ساعي في عام ١٩٥٨) ، ولكنه بعيد جدا عن معدلات الدول الصناعية في اوروبا (اكثر من ١٠٠ كيلووات ساعي في السنة) .

ومن اجل تغطية التزايد الكبير في الاستهلاك ، تدرس مؤسسة الكهرباء مشروع مجموعات جديدة طاقتها ١٥،٠٠٠ كيلووات لعـــام ١٩٦٦ ، وانشاء مجموعات اخرى بالطاقة نفسها في عـام ١٩٦٨ ؛ ولكن خط التوتر العالي ٢٢٠

كيلو فولت ، الذي سيخرج من محطة حمص، يستطيع توليد طاقة تبلغ ٦٠،٠٠٠ كيلووات ، تبدأ بتزويد مدينة دمشق بالكهرباء منذ عام ١٩٦٩ وتساعد على رفع معدل استهلاك الشخص الواحد الى ٣٢٠ كيلووات ساعي لعدد من السكان يبلغ ٧٢٠ الف نسمة .

ومن اهم مشاريع المؤسسة للمستقبل ، مشروع تنظيم نقل وتوزيع الكهرباء في مدينة دمشق وفقا للخطة الكهربائية التي وضعتها الشركة الفرنسية (سفروليك) ، وهي تتضمن اعادة النظر في مشاريع النقل والتوزيع القائمة حاليا في دمشق ، وادخال كثير من التعديلات عليها وذلك وفق برنامج مدته عشر سنوات ، يتناول تنسيق النقل والارتباط بين مراكز التوليد من جهة ومحطات التحويل الرئيسية والفرعية من جهة اخرى ، وتغيير انظمة توتر النقل والتوزيع ، لكي تتناسب مع توسع المدينة والحمولات الكهربائية الكبيرة المنتظر تحميلها لهذه الخطوط .

ومن بين المشاريع الهامة التي ستعمد المؤسسة الى تنفيذها ايضا ، مشروع تحويل التوتر المنخفض من ١١٠ الى ٢٢٠ فولت ، وذلك للتخفيف من اعباء التأسيس في شبكات التوسع المرتقبة المستقبل ، والاحتفاظ بالشبكات الحالية دون اجراء تقويات او تعديلات عليها ، مما يساعد على تقليل الفاقد في الشبكات ورفع توتر التيار عند المشتركين ، لتحسين وسائل الاستعمالات المنزلية والقوة المحركة ، وخاصة اجهزة الراديو والتلفزيون التي تعمل بتوترات نظامية تقرب من توتر التوزيع الاساسي ، وقد وضعت المؤسسة برنامجا لتنفيذ هذا المشروع خلال مدة اقصاها ١٢ سنة .

تزويد المدينة بالغاز :

عرفت مدينة دمشق استخدام الغاز منذ عام ١٩٣٦ ، ولكن استعماله

ظل مقصورا على فئة محدودة من السكان حتى أواخر الحرب العالمية الثانية ، وذلك بسبب ندرة وجوده وارتفاع اسعاره ، ثم اخذ بعد ذلك يعم استخدامه ويزداد انتشاره عاما بعد آخر ، حتى اصبح لا يكاد يخلو منه بيت في الوقت الحاضر .

وكان يقوم بتوزيع الغاز في مدينة دمشق ، قبل عام ١٩٥٨ ، موزعون متعددون بالاضافة الى شركات توزيع المحروقات الاجنبية والوطنية ، مثل شركة شل والشركة السورية وغيرها ، وكان هؤلاء يستوردون الغاز المعبأ في اسطوانات من الخارج ، ويتولون توزيعها في القطر السوري .

وفي عهد الوحدة بين مصر وسوريا ، تولت الجمعية التعاونية للبترول ، المؤسسة في القطر المصري ، توزيع غاز البوتان في القطر السوري على سبيل الحصر ، وفي هذه الاثناء بدأت مصفاة البترول في حمص تنتج كميات محدودة من هذه المادة ، كانت الجمعية التعاونية تتولى توزيعها وتستورد باقي حاجاتها من لبنان او العراق .

وفي اواخر عام ١٩٥٨ ، ظهرت فكرة تأسيس جمعية تعاونية في القطر السوري على غرار الجمعية المؤسسة في القطر المصري ، تتولى استثمار وتوزيع كافة انواع المحروقات ، وقد نجحت الفكرة وتأسست الجمعية وطرحت اسهمها للبيع ، ولكنها لم تبدأ عملها الا في عام ١٩٦١ ، ولم يمض على ذلك اكثر من شهور معدودة حتى وقع الانفصال بين القطرين السوري والمصري ، واصبحت الجمعية التعاونية السورية للنفط المسؤولة الوحيدة عن توزيع المحروقات في القطر السوري بكامله .

ويعتمد توزيع الغاز في مدينة دمشق ، والقطر السوري عامة على الانتاج المحلي ، وهذا بدوره يعتمد على عاملين رئيسيين :

اولا : الطاقة الانتاجية للغاز في مصفاة حمص .

ثانيا : توفر الاسطوانات اللازمة .

وتختلف طاقة المصفاة الانتاجية تبعا لظروف انتاج المحروقات عامة ، ففي الايام الباردة يكثر استهلاك المحروقات فتعمل المصفاة بحمولتها القصوى ، وفي هذه الحالة تستطيع انتاج ٣٠٠٠ اسطوانة من الغاز يوميا ، وعندما يقل استهلاك المحروقات ، يكون انتاج المصفاة نحو ٢٢٠٠ اسطوانة يوميا فقط .

اما العامل الآخر ، وهو توفر الاسطوانات [١] ، فيعتبر رأسا لكل مشكلة وسببا لكل ازمة ، لما تعانيه الجمعية من نقص فادح في عدد الاسطوانات اللازمة لتوزيع الغاز ، ولا ادل على تفاقم هذه المشكلة من معرفة ان رصيد الاسطوانات قد نقص مثلا ١١،٥٠٠ اسطوانة في عام ١٩٦٤ ، بدلا من يزيد هذا الرصيد .

ويجري توزيع الغاز على المستهلكين بواسطة موزعين منتشرين في مختلف انحاء المدينة ، عدا كمية بسيطة توزع مباشرة بواسطة الجمعية الى المستهلكين ، وبعض الدوائر الرسمية التي تستهلك كميات كبيرة ، وقد بلغ عدد هؤلاء الموزعين في دمشق وحدها ٦٣ موزعا .

وقد بلغ المعدل الشهري لاستهلاك الغاز في مدينة دمشق ٢٥،٩٤٥ اسطوانة في عام ١٩٦٤ . ويبدو من الجدول (٥٦) ، ان هذا المعدل تفاوت بين شهر وآخر ، ومن الطبيعي ان نشهد ارتفاعا في نسبة الاستهلاك خلال اشهر الشتاء الباردة ، وانخفاضا في هذه النسبة خلال اشهر الصيف الحارة . ولكن الواقع غير

---

(١) سعة الاسطوانة ١٢،٥ كيلو غرام من غاز البوتان .

ذلك ، فارتفاع نسبة الاستهلاك وهبوطها هنا يرتبط بعوامل اخرى ، سبقت الاشارة الى بعضها ، وفي مقدمتها عدم توفر الاسطوانات اللازمة ، وهذا مايفسر لنا سبب تناقص نسبة الاستهلاك في شهر شباط (فبراير) رغم برودته (٧,٣٪) وازدياد نسبة الاستهلاك في شهر ايلول (سبتمبر) رغم دفئه (٩,٢٪) .

جدول (٥٦)

استهلاك الغاز في مدينة دمشق خلال اشهر عام ١٩٦٤ (١)

الشهر	كانون الثاني	شباط	آذار	نيسان	مايس	حزيران	تموز
عدد الاسطوانات	٢٦٩٢٩	٢٢٧٧٦	٢٨٥٤٩	٢٧٢١٨	٢٣٧١٢	٢٦٢٠٢	٢١٧٩٣
النسبة المئوية	٨,٦	٧,٣	٩,٢	٨,٧	٧,٦	٨,٤	٧,٠

الشهر	آب	ايلول	تشرين اول	تشرين ثاني	كانون اول	السنة
عدد الاسطوانات	٢١٣٤٠	٢٨٤٩١	٢٥١٠٩	٣٠٤٠٧	٢٨٨١٦	٣١١٣٤٢
النسبة المئوية	٦,٨	٩,٢	٨,١	٩,٨	٩,٣	١٠٠

ولا شك في ان وسائل النقل تلعب دورا بارزا في التأثير على معدلات الاستهلاك ، اذ ان عدم سيطرة الجمعية على وسائل النقل ، واعتمادها على المتعهدين يخلق لها كثيرا من المشاكل ، ولا سيما التأخير في نقل اسطوانات الغاز من المصفاة الى مراكز التوزيع .

---

(١) عن الجمعية التعاونية للنفط .

جدول (٥٧)

تطور الاستهلاك السنوي للغاز في مدينة دمشق مقارنا بمثيله في القطر السوري

(بالاسطوانة)

السنة	القطر السوري	مدينة المعرض	٪ من استهلاك القطر السوري
١٩٦٢	٥١٠،٠٠٠	٢١٨،٢٧٨	٤٢،٧
١٩٦٣	٦٢٨،٣٥٥	٢٦٥،٩٩٦	٤٢،٣
١٩٦٤	٧٣٥،٩٢٨	٣١١،٣٤٢	٤٢،٣

ويتضح من دراسة الجدول السابق ، ان الاستهلاك السنوي للغاز في مدينة دمشق يتزايد عاما بعد آخر، فقد بلغ اكثر من نصف مليون اسطوانة في عام ١٩٦٢ ، وارتفع هذا العدد الى اكثر من ٢٠٠ الف اسطوانة خلال العامين التاليين ، حيث وصل الاستهلاك السنوي المدينة الى ٧٣٦ الف اسطوانة تقريبا في عام ١٩٦٤ . ولا شك في ان هذه الزيادة السريعة تعود الى ازدياد عدد السكان من جهة ، والى ارتفاع مستوى المعيشة من جهة اخرى .

ويؤكد المسؤولون في الجمعية التعاونية للنفط اطراد زيادة الاستهلاك بالمعدل نفسه تقريبا ، خلال السنوات التي سبقت عام ١٩٦٢ ، وان كانت لا تتوفر لديهم الاحصاءات عن تلك الفترة ، بسبب تعدد الشركات التي كانت تتولى مهمة توزيع الغاز في دمشق قبل التأميم [١] .

(١) بدأت الجمعية التعاونية للنفط اعمالها في ٨-٥-١٩٦١ .

ومن مقارنة الاستهلاك السنوي للغاز بمثيله في القطر السوري ، يتبين ان مدينة دمشق تستهلك وحدها اكثر من خمسي الاستهلاك السنوي للغاز في القطر السوري كله (٤٢٫٣٪ في عام ١٩٦٣) وهي نسبة مرتفعة جدا ، خاصة اذا عرفنا ان نسبة عدد سكان دمشق لا تزيد كثيرا على عشر سكان القطر السوري (١٠٫٢٪ في عام ١٩٦٣) ، مما يدل على ارتفاع المستوى المعيشي في مدينة دمشق على امثاله في بقية انحاء سوريا .

* * *

الفصل الثاني

تموين المدينة بالمواد الغذائية

أصبح موضوع تموين المدينة بالمواد الغذائية ، من المشاكل الهامة التي تواجهها مدينة دمشق في السنوات الأخيرة ، فقد برزت مشكلة التموين على أثر ازدياد عدد سكان المدينة واتساع رقعتها على حساب الاراضي الزراعية ؛ وأصبح لابد من النظر بعين الاعتبار الى الامكانيات التي يمكن ان تقدمها الأرض من موارد غذائية ومدى كفايتها لأعداد السكان المتزايدة في المدينة وتطور أحوالهم الاجتماعية والمعيشية .

صحيح ان أهمية المنطقة في تموين المدينة أخذت تتلاشى في الوقت الحاضر ، بسبب تطور وسائل النقل وطرق المواصلات ، ولم تعد قضية تموين المدينة تعتمد على المنطقة المحيطة بها ، إذ أصبحت مناطق الانتاج ترسل بمنتوجاتها الى المدن المستهلكة لها مهما شطّ البعد بها ، إلا ان النتيجة المترتبة على هذا الموضوع هي زيادة التكاليف وبالتالي ارتفاع أثمان المواد الغذائية التي ترهق الطبقة الكادحة من الشعب ، مما لا يتفق ودخلها المالي المحدود .

ولا يمكن التفكير في صعوبات التموين إلا عندما تحل في المدينة ساعات حرجة صعبة ، حين تتهدد المدينة بانقطاع المواد الغذائية اليومية عنها ، ومثال ذلك

ماحدث لمدينة لينينغراد عندما حاصرها الألمان النازيون أثناء الحرب العالمية الثانية، فاقتصر تموين المدينة على البساتين المحيطة بها .

ومن الطبيعي ان تتفاوت صعوبات التموين، فما دامت المدينة لم تتجاوز ، في عدد سكانها ، رقماً معقولاً متناسباً مع قدرة ضواحيها على تموينها بالأغذية ، فان تموينها يكون سهلاً ، إذ يتأمن من تلك الضواحي مباشرة ، وهذا مايدعى «بالتموين القريب» . ولكن قد يحصل أحياناً ان تكون إمكانيات الضواحي التموينية غير كافية ، وهذا مايستدعي الالتجاء الى المناطق الزراعية الأخرى البعيدة في تموين المدينة ، وهذا مايدعى « بالتموين البعيد » .

وتتجلى صعوبة التموين خاصة بالنسبة لبعض المواد الغذائية التي يجب ان تجلب بكميات كبيرة كالقمح والبطاطا ، او التي يجب ان تستهلك بسرعة كالخضر والفاكهة [1] ، لانها محاصيل سريعة التلف . ولا شك في أن الاعمال الزراعية لايمكن ان تقوم في وسط المدينة نفسها ، حيث تحتل المنشآت المختلفة كل أجزائها، وسكان الضواحي وحدهم يمكنهم تأمين ما يحتاج اليه سكان المدينة من مواد تموينية وغذائية مختلفة .

ومدينة دمشق تقع وسط غوطتها التي تخرج لها بقولها وفاكهتها وألبانها ، وهي على مقربة من اقليم حوران تجلب منه حبوبها ، وعلى أميال يسيرة من اقليم الجولان ترعى فيه ماشيتها ، وليست فاكهة الساحل اللبناني أو خضراوات غور الأردن عنها بعيدة المنال .

ولكن هذه الفكرة العامة ، لاتغني عن ضرورة تحديد الظهير الزراعي للمدينة ، وتحري منطقة نفوذها المباشر ، ليتسنى لنا معرفة الاقليم الريفي الذي يخدمها ويقع ضمن مجال نفوذها ، فيمد المدينة بفائض منتجاته ويتزود منها بكل متطلباته وحاجاته .

---

(١) عبد الهادي قصاص ومحمود دهام — ص ٢٠١ .

وإذا تأملنا الخريطة التضاريسية للقطر السوري ، بدت لنا صعوبة تحديد منطقة النفوذ الحقيقية لمدينة دمشق بصورة واضحة ، ومع ذلك يمكن رسم حدود جغرافية لمنطقة دمشق تستند الى حركة السكان المنتظمة بين هذه المنطقة والمدينة ، كما تعتمد على أعمالهم وفعالياتهم المشتركة ، ففي الغرب تشكل سلسلة جبال لبنان الشرقية حاجزاً مانعاً ، بينما يتفتح الشرق أمام المدينة ، نحو منطقة شبه صحراوية ، تشكل طلائع البادية الشامية فيما وراء العتيبة ، حداً طبيعياً لها .

واذا تمكنت دمشق من دفع نفوذها نحو الشمال حتى منطقة النبك ، خلال سلاسل القلمون ، فان القسم الأعلى المتجه نحو الشمال مرتبط عملياً وبصورة أوضح بمدينة حمص . أما في الجنوب فلا تشكل مرتفعات الكسوة عائقاً للمواصلات مع حوران وجبل العرب ، بل ان هاتين المنطقتين ، بالإضافة الى القنيطرة ، ليس لهما سوى قطب جاذبية وحيد ، هو دمشق . وان زيارة واحدة لأسواق دمشق ، وملاحظة أنواع الألبسة والأزياء المختلفة ، توضح الى أي مدى تقوم أسواق المدينة القديمة وأسواق الميدان بالتجارة مع الجنوب .

وعلى الرغم من قيام سلسلة جبال لبنان الشرقية بفصل دمشق عن المنطقة الغربية ، إلا أن دمشق تجد في وديانها مراكز الاصطياف والنزهة ، وهذا مانشهده في الطرق التالية :

أولاً — وادي بردى وسهل الزبداني .

ثانياً — وادي منين ويستمر حتى صيدنايا .

ثالثاً — الطريق المتفرعة عن طريق حلب ، والمؤدية الى القرى الآرامية كمعلولا وغيرها .

ومن هذا ، يتضح أن اقليم دمشق محدد نسبياً ، ولا يمتد ، عملياً ، امتداداً هاماً الا نحو الجنوب . ومع ذلك ، يمكن أن يتكون في عرعا قطب جاذبية في

الجنوب ، إلا أن ذلك يرتبط بامكانية ايجاد موارد جديدة للمياه لتنمية الزراعة ؛ ويلاحظ أن اقليم دمشق ، حسب هذا التحديد ، يضم المنطقة الجنوبية من سوريا، ويشتمل على معظم المساحات الواقعة ضمن محافظات درعا والسويداء والقنيطرة ، فضلًا عن محافظة دمشق . ويبدو أن هـــذه المنطقة الجنوبية من سوريا لا تمثل إقليماً تموينياً لمدينـة دمشق فحسب ، انما تمثل كذلك أهم مصادر الهجرة اليها ، (شكل ٤٣) .

ومن هذا الظهير الزراعي الكبير، تنتقل السلع التموينية الى مدينةدمشق عن طريق سبعة مداخل تموينية رئيسية ، يختص كل منهـا بخدمة منطقة معينة ، يمكن أن نجملها على النحو التالي :

اولا : المدخل الشمالي ، ومنه تمر معظم المواد التموينية المستوردة ، كالارز والسكر الخام، عن طريق اللاذقية ، والخضراوات والفواكه من المنطقة الوسطى والساحلية ، والالبان ومنتجاتهـــا من المنطقة الشمالية والشرقية ، والبطاطا والثوم من منطقة القلمون ، فضـلًا عن منتجات الغوطة الشمالية وفي طليعتها العنب والزيتون .

ثانيا : المداخل الشرقية ، وهي تشمل مداخل طرق ثلاث ، كفربطنا وخرابو وجرمانا ، تمر منها الخضر والفواكه والألبان ، قادمة من الغوطة الوسطى وأراضي المرج ، وتصب كلها في الكورنيش الشرقي لمدينة دمشق ، الأول بالقرب من باب توما ، والاثنان الآخران بالقرب من الباب الشرقي .

وهـذه المداخل الشرقية ، كما نرى ، تختص باستقبال الحاصيل الزراعية والحيوانية من منطقة تموينية محلية قريبة ، تنتهي حدودها الشرقية عنـد طلائع البادية الشامية فيما وراء بحيرة العتيبة .

ثالثا : المداخل الجنوبية ، وهي تشمل ايضاً مداخل طرق ثلاث ، قبر الست والكسوة والقنيطرة ، يختص الأول منها ، بخدمة المنطقة الجنوبية الغربية

من الغوطة ، وتمر منه نفس المنتجات التي شهدناها في المداخل الشرقية ، ويختص المدخل الثاني بخدمة بقية الاجزاء الجنوبية من ارض الغوطة ، كما يتلقى المحاصيل القادمة من محافظتي الجنوب ، واهمها الحبوب من حوران والعنب والتفاح من جبل العرب. وفضلاً عن هذا وذاك ، فهو يتصل بشرقي الاردن ويتسلم منه الخضراوات المبكرة وبعض أنواع الفاكهة ، أما المدخل الثالث ، فهو يتلقى المحاصيل القادمة من منطقة الجولان المشهورة بمراعيها وأشجارها المثمرة .

رابعا : المدخل الغربي ، وهو منطلق المدينة الى وادي بردى وسهل الزبداني ، اللذين يمونان المدينة بجزء من فاكهتها ، كما يرفده الطريق القادم من الغرب ، حاملاً الفاكهة اللبنانية الشهيرة ، وفي مقدمتها الحمضيات والموز .

وتختلف وسائل النقل باختلاف المسافة بين مراكز الانتاج وسوق الاستهلاك ، فهي تجري بواسطة سيارات النقل في المسافات البعيدة ، بينما تسهم الحيوانات في المسافات القريبة بنقل جزء كبير من الخضراوات والفواكه ، وخاصة في منطقة الغوطة التي ترسل معظم انتاجها فوق الطنابر وعلى ظهور الحيوانات .

وكثيراً ما يجري بيع المحاصيل الزراعية قبل جمعها ، فيلجأ اصحابها الى بيعها صفقة واحدة ، وذلك هربا من عمليات الجمع والفرز والتعبئة والنقل ، وتخلصاً من مسؤوليات الحراسة . وفي الضواحي التي تسودها البساتين ، ويشتغل أهلها في الزراعة لانتاج الخضر والفواكه ، كثيراً ما يحمل هؤلاء محاصيلهم بأنفسهم الى أسواق المدينة ، اذا كانت المدينة قريبة ، أو متاخمة لمنطقة عملهم ، ويقومون بدور الباعة المتجولين في أحياء دمشق على ظهور دوابهم ، لبيع محاصيلهم في اليوم الذي تجمع فيه أو الأيام القليلة التالية .

وقد تتم عملية التسويق بارسال المحصول الى بائع المفرق مباشرة دون وساطة الوكيل او السمسار ، ويكون ذلك أما باتفاق سابق بين الفلاح والبائع

أو عن طريق عرض هذه المنتجات على الباعة مباشرة . ولا يلجأ الى هذه الطريقة من البيع غالباً إلا أصحاب الحيازات الصغيرة ، حيث تسمح لهم ضآلة منتجاتهم بتصريفها على الباعة الصغار .

أما الباعة المتجولون ، الذين يدعون « بالشلـيفة » فهم يبيعون محاصيلهم من خضر وفاكهة على دوابهم ، ويتجولون بين الأحياء لبيعها الى المستهلك مباشرة ، وقد يحالف التوفيق هذا البائع المتجول احيانا ، فيبيع رزقه ويعود الى قريته بسرعة ، وقد يجانبه التوفيق فيقضي الساعات الطويلة بين الازقة والطرقات ، ربما امتدت به حتى وقت متأخر من النهار .

وهناك فريق منهم ايضاً ، يعرض بضاعته على أرصفة الطريق ، في اماكن خاصة ، اعتاد الناس ارتيادها لشراء خضراواتهم وفاكهتهم ، طمعاً في الحصول على المنتجات الطازجة الجيدة ، وبأسعار تقل نوعاً ما عن اسعار السوق .

وعندما تكون المسافة بعيدة بين البساتين والمدينة ، تحل هذه المنتوجات الزراعية في السوق الرئيسي في المدينة ، الذي يدعى بسوق الهال ، حيث يتلقاها بائعو الجملة لتصريفها . ويقع هذا السوق الكبير في وسط العاصمة ، غير بعيد عن ساحة الشهداء ، وهو يمثل المركز الرئيسي لجمع وتوزيع المحاصيل الزراعية من فواكه وخضراوات .

ويمكن تقسيم التجار الذين يعملون على تصريف المحصول الى عدة مجموعات ، لكل منها وظيفة معينة ، تعمل على تصريف المحصول ووصوله الى المستهلك وهم :

تجار الجملة ، وهم فئة من التجار لهم محلات خاصة في سوق الجملة الرئيسي ، ويقومون بتصريف المحاصيل اما لحسابهم ، وذلك بشراء المحصول من المنتج ثم بيعه ، وأما لحساب الفلاح مقابل عمولة معينة ، وفي هذه الحالة لا يشتري التاجر المحصول من الفلاح بل يقوم بعرض المحصول وتصريفه لحساب المنتج مقابل عمولة

معينة ، وهذه العمولة تقل في المحصول الأكثر تحملاً كالبطاطا والبصل ، وتزيد في الحاصلات السريعة التلف .

وهنالك الوسطاء ، ويسمون في اللغة الدارجة (السماسرة) ، وهم فئة من التجار تساعد تجار الجملة على تصريف المحصول ، فهم يحصلون على طلبات تجار المفرق ثم يعملون على تنفيذها ، فيبيعون ويشترون من تجار الجملة بالمساومة لقاء عمولة .

أما تجار المفرق (التجزئة) ، فيسمون باللغة الدارجة « الخضرية » ، وهم يشترون ما يحتاجون اليه يومياً من تجار الجملة او من السماسرة ، ليبيعونها في محلاتهم الخاصة المنتشرة في جميع انحاء المدينة الى المستهلكين .

وبالاضافة الى سوق الهال ، توجد اسواق محلية ، تنتشر في اماكن متفرقة في مدينة دمشق ، وخاصة في الأحياء البعيدة عن سوق الجملة الرئيسي ، واهم الأسواق نجدها في حي الشيخ محي الدين ومنطقة باب الجابية وجادة الامين ، وفي هذه الأسواق يطرح الفلاح بضاعته ، ويقوم ببيع منتجاته بنفسه الى الناس الذين يرتادون هذه الاسواق الثانوية بكثرة .

واذا كان سوق الهال يمثل المركز الرئيسي للمحاصيل الزراعية من فواكه وخضراوات ، فان سوق البزورية يمثـل كذلك المركز الرئيسي لتوزيع مختلف انواع البقالة الجافة ، بالاضافة الى المواد الغذائية الأخرى من سمن وزيوت وغيرها .

ويقع سوق البزورية في وسط المدينة القديمة ، الى الجنوب من الجامع الأموي الكبير ، يمتد من الشمال الى الجنوب ، وهو من الأسواق القديمة التي تصطف الحوانيت على جانبيه في دَوْر واحد فقط ، يظللها سقف اسطواني الشكل يقيها حر الصيف وبرد الشتاء .

ولاشك في ان المحلات التجارية في سوق البزورية لا تكفي لاستيعاب الكميات الكبيرة من البضائع التي يدخرها تجار الجملة ، ولذلك فانهم يلجؤون الى ايداع بضائعهم في المخازن الكبيرة التي يستأجرونها من الخانات القديمة ، والتي نشهد الكثير منها بالقرب من سوق البزورية ، ومن اهمها خان أسعد باشا .

الخضراوات :

تعتبر الخضراوات من اكثر المواد الغذائية أهمية ، لما تتضمنه من مواد عضوية ومعدنية ، كالنشويات والسكريات ، وما تقدمه للانسان من فيتامينات ضرورية تساعد على البقاء والنمو . ويأتي استهلاك الخضراوات في الدرجة الثانية بعد الخبز ، كما ان رخص ثمنها وسهولة زرعها وسرعة نضجها يشجع على زيادة العناية بها ، ويجعلها في المكانة الاولى بين ماتجود به الارض من خيرات وثمار .

تنضج معظم انواع الخضراوات في الفصل الحار من السنة ، فلا تظهر في الفصل البارد سوى اصناف محدودة قليلة ، اهمها الملفوف والقنبيط والسبانخ ، ويترتب على هذا ، توفر هـذه الاصناف من الخضر خلال اشهر قليلة من السنة تنحصر في الفصل الحار ، بينما تختفي من الاسواق في باقي اشهر السنة ، مما يؤدي الى زيادة الطلب عليها ويشجع على استيرادها من الدول المجاورة .

وتعد زراعة الخضر نوعاً من الزراعة الكثيفة التي تلائم ظروف البيئة الزراعية في غوطة دمشق ، اذ يستطيع هذا النوع من الزراعة ان يفيد من توافر الايدي العاملة والاسمدة البلدية والتربة الخصبة والمياه الوفيرة التي تحتاج اليها زراعة الخضر اثناء مواسمها الزراعية المختلفة ، كما ان اختلاف الحرارة الفصلية واليومية يساعد على تنوع انتاج الخضر .

ولا شك في ان نظام المناوبات الصيفية يحرم الخضر المزروعة من الري المنتظم في الاوقات المناسبة ، ولذلك تبقى الجهات القريبة من المدينة ، التي تتمتع

بعناوبات ري كافية لسد حاجة الخضر المختلفة من مياه الري ، هي اكثر الجهات انتاجاً وتخصصاً في زراعة الخضر .

إن نطاق الخضر آخذ في النمو والاتساع يوماً بعد يوم ، ليكون قادراً على تأمين حاجات المدينة التي يزداد سكانها ويرتفع استهلاكها ، وان فقدت هذه المنطقة المتخصصة بزراعة الخضراوات جزءاً هاماً من أراضيها الخصبة ، بسبب زحف الأحياء السكنية عليها وابتلاعها مساحات واسعة منها .

وقد اخذ الاهتمام بزراعة الخضر يزداد في جميع انحاء الغوطة ، وخاصة بعد تيسير سبل الاتصال مع المدينة وسهولة نقل المحاصيل الزراعية اليها بسرعة ، كما ساعد على انتشارها توفير الميـــاه بواسطة المضخات التي عم استخدامها في كل مكان ، بل انها جعلت من المرج نفسه أرضـــاً تسهم في تموين المدينة بجزء من خضراواتها ، ولا سيما البندورة التي اشتهر المرج بانتاج اجود انواعها .

وقد اختصت ارض الصالحية بانتاج معظم انواع الخضر ، وذلك لتخصص اهلها بهذه الزراعات منذ زمن بعيد ، فلهم في زراعتها وتنسيقها خبرة قديمة ودراية واسعة ؛ كذلك اكتسبت بعض القرى في الغوطة شهرة في اصناف معينة من هذه الخضر ، فالقنبيط مثلاً يجود في دوما وحرستا وكفرسوسة ، والملفوف والخس العادي تشتهر بها كفرسوسة دون غيرها .

ويتضمن الجدول (٥٨) تقديرات لانتاج الخضر الرئيسية التي تصل اسواق دمشق من مناطقها القريبة الواقعة ضمن محافظة دمشق ، كما يشتمل على الكميات التي ترد الى دمشق من خارج محافظتها ، سواء كانت من المحافظات السورية الاخرى ام البلدان المجاورة ، اما الاستهلاك السنوي فهو حاصل جمع هذين التقديرين معاً .

جدول (٥٨)

مقارنة بين انتاج الخضراوات الرئيسية واستيرادها واستهلاكها[1] (بالطن)
خلال عام واحد (من منتصف ١٩٦٤ الى منتصف ١٩٦٥)

النوع	الانتاج المحلي	الكمية المستوردة	الاستهلاك	مصادر التموين
البندورة	١٥١٩٩	١٠٧٨٠	٢٥٩٧٩	محلي (دوما) ـ درعا ـ البطيحة ـ اللاذقية ـ لبنان ـ الاردن .
البطاطا	٦٧٠٣	٤٤٦١	١١١٦٤	محلي (دوما ـ داريا) ـ الزبداني ـ يبرود المعرة ـ اللاذقية ـ لبنان ـ الاردن
الكوسا	٢٣٨٥	٢٤٦٨	٤٨٥٣	محلي (دوما) ـ حمص ـ جبلة ـ طرطوس ـ البطيحة ـ الأردن .
الباذنجان	٢٢٠٤	٤٥٢٧	٦٧٣١	محلي ـ لبنان ـ الاردن .
الفاصولياء	١٦٦١	٢٨٥٧	٤٥١٨	محلي ـ اللاذقية ـ البطيحة ـ حمص
القنبيط	٣٣٥٩	٧٤٤	٤١٠٣	محلي (دوما) ـ الاردن .
الملفوف	١٥٩٤	٦٨٠	٢٢٧٤	محلي (دوما) ـ القنيطرة .
الفول	١٥٦٤	١٩٦٤	٣٥٢٨	محلي (يبرود) ـ طرطوس ـ اللاذقية .
السبانخ[2]	١،٦٧٠،٠٠٠	—	١،٦٧٠،٠٠٠	محلي .
البصل	١٢٢٨	٢٦٥٩	٣٨٨٧	محلي ـ حمص ـ حوران ـ تركيا ـ المتحدة
الثوم	١٠٦١	٥٦٩	١٦٣٠	محلي (الكسوة ويبرود)

---

(١) عن دائرة الخضار والفواكه في وزارة التموين .
(٢) بالجرزة .

ان دراسة الأرقام الواردة في الجدول السابق ، تظهر نقصاً واضحاً في كميات الخضر اللازمة لسد الحاجة المحلية ، ولذا تلجأ المدينة الى استيراد باقي حاجتها من هذه الأصناف من بعض المحافظات السورية والدول المجاورة، لتلافي النقص الناجم عن عدم كفاية انتاجها المحلي ، الا أن هذا الاعتماد الكبير على الاستيراد يؤثر على الأسعار، كما انه لايمكّن من تحقيق التوازن الواجب توفره بين الكميات المطروحة في الأسواق وتلك التي يحتاجها الاستهلاك من جهة ثانية ، وخاصة في الأوقات التي تقل فيها هذه الكميات في مناطق انتاجها .

ومما تجدر الاشارة اليه ، ان القول بعدم كفاية الانتاج المحلي للاستهلاك، انما يفصح عن هذه النسبة في غير مواسم الانتاج ، فكثيراً ما تعطي المواسم مردوداً يفيض عن الحاجة، ويؤول بالتالي الى تراكم رصيد كبير من الكميات التي لاتجد أسواقاً لتصريفها ، هذا بالاضافة الى أن اسواق دمشق التي تستورد بعض احتياجاتها ، كثيراً ما تعمد الى تصدير كميات محدودة منها الى المحافظات الاخرى أو أسواق البلدان المجاورة .

أما فيما يختص بالاستهلاك ، فيمكن القول بأنه طالما كان الاستهلاك قائماً طوال العام ، في حين أن الانتاج محدود بفترة زمنية معينة ، أو بفصل معين من فصول السنة ، فان الانتاج يكون غير كاف لحاجات الاستهلاك بهذا المعنى ، وبذلك يكون موجباً للاستيراد في الفصول التي ينقطع فيها نزول هذا الصنف الى الاسواق ؛ ولا شك في أن وفرة هذه المحاصيل ونضجها في فترات متقاربة لا يساعد على استهلاكها كلها ؛ فيصدر قسم منها ويحفظ القسم الآخر .

ومن العسير جداً تقدير الاستهلاك السنوي للخضراوات ، لارتباط استهلاكها بمقدار توفرها خلال السنة ، فبعض الخضراوات يكاد تيارها لاينقطع طوال السنة ، بسبب توفرها في البلاد المجاورة وسهولة نقلها الى مسافات بعيدة

ورخص أسعارها ، بالاضافة الى اهميتها بين العناصر الغذائية ، كالبندورة والباذنجان والبصل والفاصوليا والبطاطا ، أما باقي الخضر فهي تُستهلك ضمن فترة محدودة من السنة ، لاتتعدى فترة وجودها في السوق كالبامياء والملوخية والفول الاخضر .

وفي مدينة دمشق ، قلما تستهلك جميع المحاصيل القادمة اليها بسبب وفرتها ، ولذلك يُلجأ عادة الى حفظ الفائض منها عن حاجة الأسواق في مستودعات خاصة ، ثم تُمد الأسواق بهذه المحاصيل على فترة طويلة من الزمن ، وبذلك يمكن التحكم في الأسعار لحد كبير ومنعها من الهبوط .

وقلما تحفظ الخضراوات في دمشق ، لرغبة المواطنين في المدينة في شراء الخضر الطازجة وتفضيلها على الخضر المبرّدة ، وكذلك لعدم تحمل الخضراوات الرطوبة العالية التي تحفظ فيها الفواكه ، فلا يمكن حفظها اكثر من شهر ، واذا تعدت ذلك فانها تذبل أو تنمو عليها الفطور بسبب تعفنّ الخضر ، بعكس الفواكه التي يمكن حفظها ما يقرب من ثمانية اشهر ، هذا بالاضافة الى ان انخفاض أسعار الخضر لايشجع على حفظها ، لاسيما وانه يمكن تأمينها تباعاً من الأردن ولبنان بسبب ميزاتها المناخية .

ومن مقارنة أرقام الاستهلاك في مدينة دمشق مع بقية المناطق السورية ، نلاحظ أن هذه المدينة تتمتع بمعدل استهلاكي عال من الخضر ، وذلك بسبب اتساع الرقعة الزراعية المخصصة فيها لانتاج هذه الأصناف ، وارتفاع مستوى المعيشة فيها ، كما أن قرب هذه المنطقة من لبنان والاردن يهيىء لها وضعاً يؤمن لها احتياجاتها من أغلب أصناف الخضراوات والفواكه ، بخلاف المناطق النائية التي تبقى بمعزل عن هذا الامتياز .

ولا شك في أن هذه الامور تؤثر في الأسعار بشكل واضح ، ويمكن

التأكد من ذلك بمقارنة اسعار بعض اصناف الخضر والفواكه المعروضة في أسواق دمشق بمثيلاتها من الأصناف المعروضة في أسواق المحافظات الاخرى .

ويلاحظ ان استيراد الخضراوات يكاد يقتصر حالياً على دولتين مجاورتين، هما لبنان والاردن ، فساحل لبنان بمناخه المعتدل الدفي، وغور الاردن بمناخه الحار الرطب ، قد ساعدا على تصدير منتجاتهما الى أسواق دمشق في وقت تكون فيه في أشد الحاجة الى هذه الخضراوات .

فالاردن مثلاً يبدأ بزراعـــة الخضر بعد انقضاء موجة الحر في آب (اغسطس) ، وترد السوق بعد ثلاثة أشهر ، أي في الوقت الذي تكون فيه أسواق دمشق على وشك النضوب ، فيصل منها الباذنجان العجمي والملفوف والقنبيط بالدرجة الاولى ، ثم الفاصولياء بالدرجة الثانية .

ولا يغربن عن البال في هذا المجال ، ان جودة الموسم في القطر السوري ، يستتبعه غالباً، ولكن ليس بالضرورة ، جودة المواسم أيضاً في البلدان المجاورة ، وخاصة في لبنان والاردن بسبب خضوعها لظروف مناخية واحدة تؤدي الى النتائج ذاتها .

ولا بد لنا أن نذكر دور منطقتي الساحل السوري والبطيحـــة ، اللتين تزودان دمشق ببعض محاصيلها المبكرة كالبندورة والكوسا والخيار وغيرها ، وذلك بسبب وقوع الاولى على ساحل البحر المتوسط ، وانخفاض الثانية عن مستوى سطح البحر ، وتمتعها بمناخ شبه مداري ، مما يجعل محاصيلها أسرع نضجاً وظهوراً في الأسواق من محاصيل المناطق السورية الاخرى .

ويتضح من دراسة الجدول السابق ، أن البندورة تحتل مركز الصدارة بين الخضر المستهلكة في دمشق ، بسبب اقبال مختلف فئات الشعب على استهلاكها ، وكثرة استعمالاتها الغذائية ، اذ تبلغ الكمية المستهلكة منها اكثر من ٢٥ الف

طن ، وهذا يزيد على ضعف الكمية المستهلكة من أي نوع من أنواع الخضر الأخرى ، تحصل المدينة على ثلاثة اخماس هذه الكمية من انتاجها المحلي ، وتؤمن الباقي من المحافظات الاخرى والدول المجاورة .

وتعتبر دوما أهم مناطق التموين القريب لاسواق دمشق بمادة البندورة ، حيث تزودها بمعظم حاجتها خـــلال الفترة الواقعة ما بين تموز وتشرين الأول (يوليو واكتوبر) ، كما تتلقى قسما آخر من حاجتها من البطيحة ودرعا واللاذقية ، وهذا فضلا عما تستورده من البندورة من الدول العربية المجاورة ولا سيما لبنان (من زحلة) والاردن .

وتحتل البطاطا المركز الثاني في أهميتها بعد البندورة ، بين أنواع الخضر المستهلكة في دمشق ، إذ تبلغ الكمية المستهلكة منها اكثر من ١١ الف طن ، تحصل المدينة على ثلاثة اخماس حاجتها تقريباً من انتاجها المحلي ، وتتلقى الباقي من المحافظات الاخرى والدول المجاورة .

وتمثل دوما وداريا والزبداني والقلمون أهم مناطق التموين القريب بمادة البطاطا ، حيث تزودها بمعظم حاجتهـــا خلال شهري آب وايلول (اغسطس وسبتمر) ، وتتلقى دمشق قسما من حاجتها من المعرّة وجبلة واللاذقية ، حيث تصلها البطاطـا الشتوية من اللاذقية خلال شهري نيسان وأيار (ابريل ومايو) ، والبطاطـا الصيفية خلال أشهر تموز وآب وايلول (يوليو واغسطس وسبتمبر) ، كما تستورد قسما آخر من البطاطـا من الدول المجاورة ،مثل لبنان (ولا سيما زحلة وطرابلس) والاردن والعربية المتحدة .

ويأتي الكوسا والباذنجان في المركز الثالث ، اذ تبلغ الكمية المستهلكة منها في دمشق على الترتيب ٧٠٠٠ ، ٦٨٨٠ طن تقريبا ، تحصل المدينة على ثلث حاجتها من الباذنجان من انتاجها المحلي ،وتتلقى الباقي من المحافظات الاخرى والدول

المجاورة ، بينما تتساوى نسبة ما تحصل عليه المدينة من الكوسا من انتاجها المحلي وما تتلقاه من خارج محافظتها .

وتعتبر الغوطة اهم مناطق التموين القريب لمدينة دمشق بالكوسا والباذنجان ، اما باقي حاجتها فيمكن ان تؤمنها من حمص وجبلة والبطيحة وطرطوس واللاذقية ، كما تستورد قسما آخر من الدول المجاورة (الاردن ولبنان) .

اما بقية انواع الخضراوات ، فشأنها شأن اغلب اصناف الخضر ، تكون في بدء موسمها غير كافية للاستهلاك ، مما يستدعي تأمين الكميات اللازمة لهذا الاستهلاك عن طريق جلبها من المحافظات الاخرى او الدول العربية المجاورة .

ويلاحظ من دراسة مواعيد ظهور الخضراوات المختلفة في المحافظات السورية ، ان هذه المواعيد متقاربة فيما بينها الى حد ما ، ولذا نجد ان احتياجات المحافظات هي ذاتها تقريبا ، هذا باستثناء منطقتي البطيحة وتل شهاب اللتين تزودان اسواق دمشق ببعض حاجياتها من الخضر والفواكه المبكرة ، بسبب ارتفاع الحرارة فيها .

ونظرا لظهور الخضراوات في الاسواق بشكل موسمي ، فاننا نلاحظ وجود نوعين من الازمات التي تصيب الخضراوات :

اولا : ازمات فيض انتاج ، تقع دائما في مواسم انتاج هذه الاصناف ، اذ يفوق الانتاج المحلي حاجات الاستهلاك ، مما يؤدي الى طرح كميات كبيرة منها في الاسواق باسعار بخسة ، بسبب ضعف التسويق الخارجي في تصريف المنتجات الزراعية .

ثانيا : ازمات فقدان لمواد الخضراوات وارتفاع واضح في اسعارها ، وهي تلاحظ في كل عام في اعقاب توقف الانتاج المحلي الذي يمتاز ، كما سبق

القول ، بانه انتاج موسمي ، مما يؤدي الى ارتفـاع الاسعار بسبب الاعتماد على الاستيراد كليا .

وقد حاولت وزارة التموين معـــالجة ازمات فيض الانتاج ، بالزام شركات الكونسروة بشراء حاجاتها من المواد الاولية ضمن فـترات الانتاج الموسمي الزراعي في سوريا ، وعدم شراء حاجياتها من الاسواق الخارجية الا في حال عدم كفاية الانتاج المحلي ، وذلك حفاظـا على مصلحة المزارع السوري ومستوى الاسعار .

ويمكن التخفيف من ازمات فقـدان الخضراوات وارتفاع اسعارها في غير مواسمها ، عن طريق زيادة الاراضي المخصصة لزراعة الخضراوات في المناطق الشديدة الحرارة في البلاد، كمنطقتي البطيحة وتل شهاب ، هـذا بالاضافة الى حفظ الفائض من المحصول في مخازن التبريد لتأمين حـاجة السكان طوال العام ، دون اللجوء الى الاستيراد من الدول المجاورة وبأسعار مرتفعة .

اما تأمين الخضر اللازمة لهذه الافواه الجديدة ، فيمكن تحقيقه بالتوسع الافقي في المساحات المخصصة لزراعة الخضر في المناطق القريبة من المدينة ،لتأمين حاجة المستهلكين اليومية ، هذا من جهة ، وبالتوسع الرأسي عن طريق استعمال البذور الجيدة واستخدام الاسمدة والآلات الحديثة ، والاستفادة من ارشادات المؤسسات الزراعية وتوجيهاتها من جهة اخرى .

الفواكه :

اشتهرت بساتين دمشق منذ القديم بثمارها واشجارها ، فقد روى البدري في كتابه نزهة الانام في محاسن الشام « انـــه كان بغوطة دمشق اشجار تحمل الواحدة منها اربع فواكه كالمشمش والخوخ (البرقوق) والتفاح والكمثرى

وبها ما يحمل الثلاثة واقلهن اللونين من الفاكهة » (١) ، وما يزال هذا موجوداالى يومنا هذا ، فالكرمة الواحدة تطرح العنب الابيض والاسود والاحمر ، وبوادي النيربين اشجار توت تطرح التوت الابيض والاسود .

ويظهر ان الانواع التي نشهدها اليوم من اشجار الفاكهة ، لم يكن حالها بالامس ، فهناك ثمار قد اندثرت ولم يبق منها الا ما يدل عليها ، كما هي حال اشجار اللوز الذي اقتلعت معظم اشجاره ، واشجار النخيل الذي اختفت معالمه من ارض الغوطة ، واشجار الحمضيات التي كانت اكثر انتشارا في الماضي ، وخاصة في البيوت العربية القديمة بدمشق، والتي قلما كانت تخلو احداها من شجرة او شجرتين (٢) .

وزراعة اشجار الفاكهة من اكثر انواع الزراعة ربحا ، وذلك لان الطلب على الفواكه في ازدياد مستمر بسبب نمو عدد سكان العاصمة المطرد ، كما ان اسعار الفاكهة المرتفعة تغري المزارعين على العناية بها . وقد كانت المساحة المزروعة بالاشجار المثمرة في الغوطة قبل فترة الجفاف التي حلت بين ١٩٥٤ - ١٩٦٠ ، تشغل ما يزيد على نصف المساحة العامة للغوطة ، ضمن حدودها الادارية ، ولكن رقعتها انكمشت في اعقاب فترة الجفاف وخسرت ما يقرب من ثلث مساحتها .

ومناخ دمشق ، يلائم محاصيل البحر المتوسط ، كالزيتون والكروم والرمان ، الا ان وفرة المياه توجه الزراعة الى محاصيل شجرية اخرى تتطلب الرطوبة الدائمة كالمشمش والجوز ، اما شتاؤها القاسي ، فهو يحول دون زراعة الحمضيات والنخيل .

---

(١) ص ٣٣ .

(٢) Cuinet, V., Syrie, Liban et Palestine, Géographie administrative, fasc. , 3, Paris, 1898, P. 322.

جدول (٥٩)

مقارنة بين انتاج الفواكه الرئيسية واستيرادها واستهلاكها (بالطن)
خلال عام واحد (من منتصف ١٩٦٤ الى منتصف ١٩٦٥)

النوع	الانتاج	الكمية المستوردة	الاستهلاك	مصادر التموين
المشمش	١٨٢٠	١٩٨	٢٠١٨	محلي
العنب	١٢٨٦	١٢٧٠	٢٥٥٦	محلي (دوما وداريا) البطيحة ـ جبل العرب
التفاح	٤٩٣٠	٤٠٣٧	٨٩٦٧	محلي (زبداني) حمص ـ لبنان
الدراق	٢٥٢٠	٩٥	٢٦١٥	محلي ـ لبنان ـ الاردن
البرتقال	—	٧٢٠١	٧٢٠١	البطيحة ـ لبنان ـ الاردن
الموز	—	٣٨٨٢	٣٨٨٢	لبنان ـ الاردن
البطيخ الاحمر	—	٢١٥٦٧	٢١٥٦٧	محلي ـ حماه ـ حلب ـ الاردن ـ العربية المتحدة

ويتضح من دراسة الجدول السابق ، ان البطيخ الاخضر يحتل مركز الصدارة في وزنه بين الفواكه المستهلكة في دمشق ، بسبب رخصه واقبال مختلف فئات الشعب على استهلاكه ، اذ تقدر الكمية المباعة منه بنحو ٢١٫٥٠٠ طن ، وهذا يزيد على ضعف الكمية المستهلكة من اي نوع من انواع الفواكه الاخرى.

يظهر البطيخ الاخضر في اسواق دمشق، منذ مطلع شهر حزيران (يونيو) ويستمر حتى نهاية شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ، فتصل شحناته الاولى من الاردن والعربية المتحدة ، وتستمر حتى ظهور الانتاج المحلي في شهر آب (اغسطس) ،

حيث تحصل منه دمشق على قسم صغير من استهلاكها ، كما يصلها القسم الاكبر من محافظتي حماه وحلب في الشمال .

ويحتل التفاح المرتبة الثانية في وزنه بين الفواكه الرئيسية المستهلكة في دمشق ، اذ تبلغ الكمية المستهلكة منه ما يقرب من ٩٠٠٠ طن ، تحصل المدينة على اكثر من نصف هذه الكمية من انتاجها المحلي (٥٥٪) ، بينما يصلها معظم بقية استهلاكها من لبنان .

وتعتبر الغوطة والزبداني اهم مناطق التموين القريب لاسواق دمشق بالتفاح ، اذ تنضج الاصناف المبكرة منها منذ اوائل تموز (يوليو) ، ثم تتتابع الاصناف الاخرى حتى فصل الخريف . ولكن يلاحظ ان التفاح لا يختفي من اسواق دمشق طيلة اشهر السنة ، وهذا يرجع الى حفظ كميات كبيرة منه في مستودعات التبريد خلال موسم انتاجه ، وطرحها في الاسواق على مدار السنة .

ويأتي البرتقال في المرتبة الثالثة بين الفواكه المستهلكة ، اذ تبلغ الكمية المستهلكة منه في دمشق اكثر من ٧٠٠٠ طن ، تستوردها المدينة كلها تقريبا من لبنان والاردن ، باستثناء كميات محدودة تصلها من اراضي البطيحة الحارة ، شأنه في ذلك شأن الموز الذي تستهلك المدينة منه نحو ٣٩٠٠ طن ، تستوردها كلها ايضا من خارج القطر السوري .

ولا شك في ان هذا الاعتماد الكلي على الاستيراد في تأمين هذين الصنفين من الفاكهة الرئيسية ، يجعل توفرهما في الاسواق مرتبطا بالظروف السياسية مع البلاد المصدرة ، ويمكن تخفيف هذه المشكلة والازمات الناتجة عنها ، عن طريق زيادة الاراضي المخصصة لزراعة هذين الصنفين في اراضي البطيحة والساحل السوري .

وتختلف هذه الصورة تماما بالنسبة للدراق ، اذ تحصل المدينة على معظم استهلاكها من انتاجها المحلي ، وخاصة من غوطتها القريبة ، بينما يصلها الجزء الباقي

من جارتها لبنان . ويبلغ مجموع استهلاك المدينة من الدراق نحو ٢٦٠٠ طن ، تظهر ثماره في الاسواق عادة منذ شهر تموز (يوليو) وتستمر حتى ايلول (سبتمبر) .

اما العنب ، فيعتبر من الحاصلات الزراعية القديمة في منطقة دمشق ، وهي تمون المدينة باكثر من نصف استهلاكها من هذا الصنف من الفاكهة ، ولا سيما دوما وداريا اللتان تزرعان افخر اصناف العنب واجودها ، وتتلقى دمشق الاصناف المبكرة منها من البطيحة والأصناف المتأخرة من جبل العرب . ويبلغ مجموع استهلاك المدينة من العنب اكثر من ٢٥٠٠ طن ، تتدفق على الاسواق منذ عيد الصليب في ٢٣ ايلول (سبتمبر) ، حتى اوائل شهر كانون الاول (ديسمبر) .

واخيرا يأتي دور المشمش ، الذي تشتهر به دمشق وغوطتها منذ القديم ، وهذه الشهرة لم تكتسبها لسعة انتشاره فيها فحسب بل لجودة ثمره وتعدد انواعه . وهو يشكل مورد رزق لكثير من المزارعين ، واساس تجارة واسعة وصناعة متنوعة في دمشق ، فموسم المشمش قصير الاجل بالنسبة لغيره من مواسم الفاكهة الاخرى ، ولذا يلجأ المزارعون الى حفظ المحصول الزائد عن الاستهلاك المحلي من المشمش عن طريق تحويله الى ثلاثة انواع من المنتجات الصناعية وهي ، القمر الدين والنقوع والمربيات . ويبلغ مجموع ما تستهلكه المدينة من المشمش نحو ٢٠٠٠ طن ، يصل معظمها من غوطتها القريبة ؛ ويلاحظ ان فترة ظهوره في الاسواق قصيرة لا تزيد على الشهرين ، اذ يبدأ قطافه في شهر حزيران (يونيو) وينتهي في اوائل شهر آب (اغسطس) .

يتبين مما تقدم ، ان الفواكه المحلية ، تكاد تتركز معظم محاصيلها الرئيسية في الفصل الحار من السنة ، وذلك بسبب مناخ منطقة دمشق ، الذي يتصف بارتفاع حرارته خلال الصيف وشدة برودته اثناء الشتاء .

واذا كان استيراد الخضر يأتي في معظمه من الاردن ، ولا سيما تلك التي تصدر في غير مواسمها في سوريا – كما لاحظنا في بحث الخضر – فان لبنان يكاد ينحصر تصديره الى سوريا بالفواكه ، اذ تهبط ثمار لبنان اسواق دمشق منذ منتصف ايلول (سبتمبر) تقريبا ، وتستمر في تغذية الاسواق طيلة الفصل البارد، ويساعدها على ذلك مدخراتها الكبيرة في مخازن التبريد .

* * *

وهناك انواع اخرى من المحاصيل الشجرية الرئيسية ، كالزيتون والليمون لا يمكن بحثها مع الخضراوات او ادراجها مع الفواكه ، رغم اهميتها الغذائية والتموينية على حد سواء .

فالزيتون شجرة مباركة ، يرجع انتشارها في غوطة دمشق الى عهد بعيد جداً ، وتعتبر ثمارها من المواد الغذائية الرئيسية التي يعتمد عليها السكان في غذائهم ومؤونتهم ، كما يعد زيتها من العناصر الغذائية والصناعية . تنضج ثمارها عادة خلال النصف الثاني من شهر تشرين الاول (اكتوبر) ، وتقدر الكمية المستهلكة منها في مدينة دمشق بحوالي ٥٠٠ طن ، تحصل المدينة على أكثر من ٨٠ ٪ من هذه الكمية من منطقتها التموينية القريبة ، ولا سيما الغوطة ، أما باقي استهلاكها فيصل من صافيتا وطرطوس وتدمر والبطيحة ، كما هو واضح في الجدول (٦٠) .

أما الليمون ، فهو كثير الفائدة جم الاستعمال ، يكاد يقتصر انتاجه على المنطقة الساحلية ؛ إلا أن انتاجه محدود (حوالي ١٠٠٠ طن) ، لا يكفي لسد حاجات الاستهلاك المحلي في القطر السوري ، مما يدفع الى استيراده من الدول المجاورة (لبنان والاردن) ، وهذا ما يؤدي الى ارتفاع أسعاره عن أسعار بلد المنشأ في بدء مواسم انتاجه ونهايتها .

جدول (٦٠)

مقارنة بين انتاج الليمون والزيتون واستيرادهما واستهلاكهما (بالطن)

خلال عام واحد من منتصف ١٩٦٤ الى منتصف ١٩٦٥

النوع	الانتاج	الكمية المستوردة	الاستهلاك	مصادر التموين
الزيتون	٤٠٣،٠٠٠	٩٦،٠٠٠	٤٩٩،٠٠٠	محلي ـ صافيتا ـ طرطوس تدمر ـ البطيحة .
الليمون	—	٤،٩٤٥	٤،٩٤٥	لبنان ـ الاردن .

ويمتد موسم الليمون اعتباراً من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) حتى شهر آذار (مارس) سواء كان ذلك بالنسبة للانتاج المحلي أو المستورد ؛ وتبلغ كمية الليمون التي تستهلكها دمشق نحو ٥٠٠٠ طن ، تستورد معظمها من لبنان والأردن .

* * *

ويتبين من دراسة الامكانيات المتوفرة لخزن الخضر والفواكه في مستودعات التبريد في دمشق ، ان الأحجام المخصصة لهذا الغرض تزيد على عشرة آلاف متر مكعب ، تقوم بها خمس شركات هي : الشركة الحديثة للتبريد المساهمة المغفلة (٤٠٠٠ م٣ تقريباً) ، والشركة السورية للصناعة والزراعة المساهمة المغفلة (٤٠٠٠ م٣ تقريباً) والشركة التجارية للصناعة والتبريد (٥٠٠م٣ تتضاعف ثلاث أو أربع مرات خلال اشهر الخريف والشتاء بعد فراغ مخزونها من الجبن والبيض) وشركة الكونسروة والصناعات الزراعية (٥٧٨ م٣) ، وشركة التبريد والمخابز الفنية السورية المساهمة المغفلة .

وتستقبل هذه الشركات مختلف أنواع الفواكه في مواسم انتاجها، وتحفظها في مستودعاتها لفترات تختلف باختلاف انواعها، فيبدأ ورود التفاح والكمثرى مثلاً منذ اواخر شهر آب (أغسطس) ، بينما يبدأ تخزين الحمضيات في أوائل شهر آذار (مارس) . وقد تبقى بعض هذه الفواكه في المستودعات فترة طويلة تستمر نحو خمسة أشهر ، كما هي الحال في السفرجل ، وقد يقصر المقام في البعض الآخر ، كالدراق الذي لا يمكن حفظه أكثر من شهر ونصف الشهر .

ويلاحظ ان شركات التبريد في دمشق تقتصر على تخزين الفواكه فقط دون الخضراوات ، ما عدا البطاطا ، وذلك لعدم توفر الامكانيات الفنية في مصانعها ، مما يؤثر بدوره على الاستهلاك ، على اعتبار ان انتاج الخضار والفواكه في سوريا في معظمه موسمي، ينقطع عن الورود الى الأسواق بمجرد انتهائه ؛ ومن هنا كان من الضروري زيادة الاهتمام بمستودعات التبريد وزيادة قدرتها على استيعاب كميات أكبر وأنواع أكثر .

ولا شك في أن حفظ أصناف الخضر والفواكه المنتجة محلياً خلال موسمها، وإخراجها الى الأسواق وطرحها على المستهلكين باسعار مجزية خلال فصول توقف الانتاج ، يؤدي الى توفر المواد اللازمة للاستهلاك ، ويحول دون ارتفاع الأسعار وتجاوزها الحدود المعقولة، كما يساعد على حماية المزارع والمستهلك على السواء ، هذا بالاضافة إلى تخفيف عملية الاستيراد من خارج البلاد .

الحبوب الغذائية :

تحتل الحبوب الغذائية مكانة الصدارة بين المواد التموينية ، لأنها عماد حياة الانسان المعيشية ، ولذا توجه وزارة التموين اهتماماً خاصاً لتوفيرها بصورة دائمة . وسوف يقتصر حديثنا على القمح والأرز ، لأنهما يمثلان أكثر الحبوب الغذائية أهمية واستهلاكاً .

القمـــح :

يبلغ متوسط ما يستهلكه الفرد من دقيق القمح في مدينـة دمشق ٣٧٢ كيلو غراماً في السنة ، وهذا يعني ان المدينـة تستهلك أكثر من ٢٣٠ طن من دقيق القمح (١٩٦٤) . ومعظم الدقيق المستهلك في دمشق من النوع الأبيض ، إذ يمثل وحده ٥٩ ٪ من مجموع الدقيق المستهلك في المدينـة ؛ وإلى جانب ذلك يوجد الدقيق الأسمر (٢٣ ٪) والدقيق الموحّد (١٨ ٪) . ويبـدو ان وزارة التموين جادة الآن في تعميم الدقيق الموحد على جميـع أفران المدينة .

ولا شك في أن هذه الكمية المستهلكة من القمـح يمكن توفيرها من محافظة دمشق نفسها ، فالقطر السوري عموماً ، بلد منتج ومصدر للقمـح ، وقلما تشكل مادة القمح ازمات تموينية ، رغم ماتتعرض له مواسم القمـح من تقلبات .

وفي دمشق ست مطاحن آلية ، تستطيـع توفير الدقيق اللازم لمدينـة دمشق ، وتوزعه على مخابز المدينة الـــتي يبلغ عددها حوالي ٤٠٠ مخبز[١] ، تبلـغ نسبة التنانير فيها ٤٥٪ من مجموع المخابز ، والباقي من الافران العادية المعروفة .

الأرز :

يشكل الارز مادة غذائية رئيسية في تموين المدينة ، بينما يقل اهتمام الريف بمثل هذا النوع من الغذاء ، لانصراف ابنائه الى مادة البرغل المنتجة من القمح . وقد كان القطر السوري ، فيما مضى ، ينتج الارز بكميات تكفي لسد حاجة ثلثي الاستهلاك المحلي ، فقد وصل انتاج الارز الى ١٩٠٠٠ طن في سنة ١٩٥٤ ، ولكنه هبط بعد ذلك بسرعة ، حتى اصبح محصوله محدوداً لايزيد على

---

(١) ٣٩٥ مخبزاً في عام ١٩٦٥ باستثناء جوبر .

١٢٠٠ طن في السنة ، تسهم محافظة دمشق وحدها بثلث هذه الكمية تقريباً .

ويرجع انصراف الناس عن زراعة الارز، الى تجفيف الاراضي في منطقتي الغاب والجزيرة وتحويلها الى زراعات اخرى ، وانتشار مرض الملاريا في المناطق التي تكثر فيها زراعته بسبب المستنقعات الدائمة ، مما أدى الى منع زراعة الارز في بعض مناطق الحدود (الجولان) من قبل القيادة العامة للجيش والقوات المسلحة .

ويبلغ معدل الاستهلاك السنوي للشخص في مدينة دمشق ١٤٫٩٤ كيلو غراماً [١] ، وهذا يعني ان الاستهلاك السنوي لمدينة دمشق كلها يبلغ نحو ٩٢٥٠ طن (١٩٦٤) ، او مايعادل ربع الاستهلاك السنوي للقطر السوري كله .

جدول (٦١)

الاستهلاك الشهري للأرز في محافظة دمشق خلال عامي ١٩٦٣ و ١٩٦٤ [٢]

السنة	كانون الثاني	شباط	آذار	نيسان	أيار	حزيران	تموز
١٩٦٣	١٫١١٢٫٠٠٠	٨٧٦٫٥٠٠	٤٠٨٫٠٠٠	٧١٦٫٥٠٠	٨٩٤٫٠٠٠	١٫٠٤٧٫٠٠٠	٧٥٤٫٥٥٠
١٩٦٤	٦٠٤٫١٨٧	٧١٢٫٨٥٠	٦١٢٫٣٣٧	٣٨٩٫٤٤١	٥٦٢٫٥٠٠	٦٨٧٫٥٠٠	٦١٣٫٠٠٠

السنة	آب	ايلول	تشرين اول	تشرين ثاني	كانون أول	المعدل الشهري
١٩٦٣	٥٥٨٫٠٠٠	٤٥٠٫٠٠٠	٥٧٦٫٠٠٠	٩٥١٫٠٢٢	٥٦٥٫٨٥٠	٧٥٩٫١١٨
١٩٦٤	٥١٨٫٥٠٠	٥١٥٫٩٠٠	٥٢٥٫٠٠٠	٨٤٣٫٥٠٠	٩٨٧٫٤٧٥	٦٣١٫٠١٥

---

(١) مديرية المواد الغذائية في وزارة التموين .

(٢) عن مكتب الحبوب .

ويبدو من دراسة الجدول السابق ، ان الاستهلاك الشهري للأرز ينخفض الى الحد الأدنى خلال فصل الربيع ، وخاصة في شهر آذار (مارس) ، وذلك بسبب ظهور بعض الخضراوات التي لاتتطلب الارز معها ، بينما يزداد استهلاك الارز في فصل الشتاء لكثرة استخدامه مع الخضراوات الشتوية والبقول الجافة . ويلاحظ ارتفاع استهلاك الارز مع زيادة السكان اثناء مواسم الاصطياف ، كما يتزايد اقبال الناس على شراء الارز في شهر رمضان واثناء المناسبات الدينية والاعياد .

ولم تشهد البلاد ازمات تموينية في مادة الارز ، سوى بعض الازمات المفتعلة ، كما حدث فيأواخر تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٦٣ ، عقب ازمة السكر المعروفة وقتئذ ، فقد سرت بعض الشائعات حول فقدان الارز من الأسواق ، واقبل الناس على شراء المزيد من الارز ، حتى نفدت كميات الارز المتوفرة لدى التجار بدمشق ، فبادرت وزارة التموين بطرح الارز للبيع في الأسواق بكميات غير محدودة حتى قضت على الأزمة المفتعلة في مهدها ، فباع المكتب في دمشق وملحقاتها ١٢٩٥ طناً من الارز في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٦٣ ، بينما هبطت مبيعات المكتب في دمشق الى ٥٦٥ طناً في شهر كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٦٣ ، أي هبطت بمقدار النصف تقريباً .

وتلجأ وزارة التموين الى سد حاجة البلاد من الأرز عن طريق الاستيراد من الدول المنتجة للأرز ، وخاصة من الجمهورية العربية المتحدة والولايات المتحدة والصين واسبانيا وغيرها (١) . ولا شك في أن أفضل فترات التعاقد على الاستيراد هي مواسم الحصاد في البلاد المنتجة ، حيث تكون الاسعار منخفضة .

---

(١) اصبح استيراد الارز محصوراً بشركة الاستيراد والتصدير منذ ١٩٦٥/٢/٢٨ .

وفي القطر السوري ، يظهر المحصول الجديد في الأسواق في موسم الخريف (ايلول – سبتمبر) من كل عام ؛ ويعتبر الارز السوري من النوع الجيد ، يُقبل الناس على شرائه بكثرة رغم ارتفاع اسعاره عن الانواع الأخرى المستوردة ، ولذلك ينبغي دراسة التوسع في زراعته مع وزارة الزراعة ، وخاصة من الناحية الاقتصادية والصحية .

السكر :

يعتبر السكر من أهم الأغذية لتوليد القدرة في جسم الانسان ، وقد كانت البلاد ، فيما مضى ، تعتمد كلياً على الاستيراد الخارجي وذلك حتى عام ١٩٤٦ ، عندما انشأت شركة مصنع السكر والمنتجات الزراعية مصنعها في حمص ، وبلغ انتاجه اكثر من ٥٠ الف طن من السكر في عام ١٩٦٤ .

جدول (٦٢)

مساحة الشوندر (بالدونم) وانتاجه (بالطن) وكمية السكر المكررة والمباعة في عدرا من ١٩٦١ – ١٩٦٤

السنة	المساحة المزروعة	المحصول	انتاج السكر من الشوندر	انتاج السكر من السكر الخام المستورد	مجموع انتاج السكر	الكمية المباعة في دمشق
١٩٦٠	–	–	٣٦٧١	١٩٥٣٢	٢٣٢٠٣	–
١٩٦١	١٣٩٦٤	٣٦٨٦٣	٣٩٩٩	٢٠٧٤٢	٢٥٠٧٣	٢٦٩١٨
١٩٦٢	٨٤٥٠	١٧٤٣٩	١٨٢٠	٣١٠٥٥	٣٢٨٧٥	٢٧٦٥٠
١٩٦٣	٧١١١	١٦٤٥٩	١٦٠٣	٢٥٠٦٨	٢٦٦٣١	٢٩٩٩٦
١٩٦٤	١٨٩٤٣	٤٩٩١٧	١٩٦٣	٢١٩٥٣	٢٧٩١٦	٢٧٧٦٢

(١) تقرير مجلس الادارة عن اعمال الشركة – عام ١٩٦٤ .

ومنذ بضع سنوات فقط ، انشىء مصنع آخر في دمشق (في عدرا) ، افتتح في عام ١٩٥٩ ، وبلغ انتاجه نحو نصف انتاج المصنع الكبير في حمص ، كما هو واضح في الجدول (٦٢) .

ويتضح من الجدول السابق ، ان محصول الشوندر قد تذبذب صعوداً وهبوطاً تبعاً لاختلاف المساحة المزروعة ومواسم الامطار ؛ فقد بلغ محصول الشوندر في عام ١٩٦٤ اقصاه ، ووصل الى ثلاثة امثال محصول السنة السابقة ، وذلك بسبب زيادة المساحة المزروعة زيادة كبيرة .

وعلى الرغم من الأرباح الوفيرة التي تدرها هذه الزراعة ، فمن الملاحظ ان مساحتها قلت كثيراً في السنتين السابقتين بسبب إحجام بعض المزارعين عن زراعة الشوندر ، بحجة قسوة الشروط التي تفرضها شركة السكر على المنتجين ، اذ أن زراعة شوندر السكر في محافظة دمشق تجري حسب اتفاقات تعقدها الشركة مع الزراع ، تحدد فيها المساحات المزروعة باسعار نقدية مسبقة .

وقد بدأ انتاج السكر في مصنع عدرا منذ عام ١٩٥٩ بحوالي ٥٠٠٠ طن من السكر ، استخرج نصفها تقريباً من الشوندر ، والباقي من تكرير السكر الخام المستورد ، وذلك لتوفير العمل للمصنع طيلة أيام السنة ، فلا يقتصر عمله على موسم الشوندر فحسب .

وتختلف نسبة السكر المستخرج من الشوندر من عام لآخر ، وذلك تبعاً لجودة المحصول أو رداءته ، فقد ارتفعت هذه النسبة الى ٢١٪ من مجموع انتاج السكر في عام ١٩٦٤ ، بينما انخفضت الى ٥٪ تقريباً من مجموع انتاج السكر في عام ١٩٦٢ .

ومن مقارنة الانتاج الاجمالي للسكر في مصنع السكر في عدرا مع الكميات المستهلكة في محافظة دمشق ، يتبين ان انتاج هذا المصنع قادر على سد حاجة هذه المحافظة من السكر ؛ فقد بلغ انتاجه الكلي ٢٧٫٩١٦ طن في عام ١٩٦٤ ، وهي كمية قريبة من الكمية المستهلكة من السكر في العام نفسه .

ومن الطبيعي ، ان يقوم مصنع عدرا بتزويد المحافظات الجنوبية بالسكر ، الى جانب محافظة دمشق ؛ الا ان موقع هذه المحافظات بجوار المملكة الاردنية ، التي يباع فيها السكر الأجنبي باسعار رخيصة ، يشجع على تهريب هذه المادة من الأردن الى محافظتي درعا والسويداء ، يدل على ذلك انخفاض استهلاكهما بالنسبة للمحافظات الأخرى ، بينما يلاحظ ارتفاع نسبة الاستهلاك فيهما في فترات الأزمات وتوقف اعمال التهريب من الأردن ، كما هي الحال في ازمة عام ١٩٦٣ .

جدول (٦٣)

استهلاك السكر في محافظات دمشق ودرعا والسويداء والقطر السوري (بالطن)[١]

السنة	دمشق		درعا		السويداء		القطر السوري	
	الكمية	٪	الكمية	٪	الكمية	٪	الكمية	٪
١٩٦١	٢٦٩١٨	٣٧,٠	١٨١٢	٢,٥	٩١٤	١,٢	٧٢٦٣٠	١٠٠
١٩٦٢	٢٧٩٥٠	٣٦,٥	٧٤٨	٠,٩	٦٢٠	٠,٨	٧٥٣٠٦	١٠٠
١٩٦٣	٢٩٩٩٦	٣٥,٧	٢٢١١	٢,٦	١١٧٢	١,٤	٨٣٩١١	١٠٠
١٩٦٤	٢٧٧٦٢	٣٤,٠	١٩٢٦	٢,٣	١٠٦٦	١,٣	٧٥٣٠٦	١٠٠

ويتبين من الجدول السابق ، ان محافظة دمشق تستهلك وحدها مايزيد على ثلث ما يستهلك في القطر السوري كله ، فقد بلغت نسبة ما استهلكته من السكر في عام ١٩٦١ : ٣٧٪ من الاستهلاك الاجمالي في سوريا ، ولكن هذه النسبة آخذة في الانخفاض تدريجياً ، وهذا لايرجع الى انخفاض الكمية المستهلكة ، فهي في ازدياد مطرد ، انما يعود الى زيادة الكميات المستهلكة في المحافظات الأخرى تبعاً لازدياد عدد السكان وارتفاع المستوى المعيشي في تلك المحافظات .

---

(١) عن شركة صنع السكر والمنتجات الزراعية .

يدل على ذلك ارتفاع الاستهلاك الاجمالي في القطر السوري كله . أما الارتفاع المفاجىء في نسب الاستهلاك في عام ١٩٦٣ ، فهو يرتبط بأزمة السكر العالمية التي حدثت في ذلك العام ، والتي دفعت المستهلكين الى تموين انفسهم بكميات كبيرة ، خوفاً من فقدان السكر وارتفاع اسعاره .

جدول (٦٤)

استهلاك السكر في محافظة دمشق خلال أشهر عام ١٩٦٤

الشهر	كانون الثاني	شباط	آذار	نيسان	أيار	حزيران	تموز	آب	أيلول	تشرين الأول	تشرين الثاني	كانون الأول	السنة
الكمية	١٩٣٥	٢٢٥٦	١٨٨٧	١٨٢٣	٢٥١٣	٢٩٠١	٢٨٨٤	٢٣٢٦	٢١٦١	٢٣٠٠	٢٢٨٧	٢٥٨٤	٢٧٧٦٢
٪	٦٫٩	٨٫١	٦٫٥	٦٫٦	٩٫٠	١٠٫٤	١٠٫٤	٨٫٤	٧٫٨	٨٫٣	٨٫٣	٩٫٣	١٠٠

ان توزيع استهلاك السكر على أشهر السنة المختلفة ، يظهر ان الاستهلاك يرتفع في فترتين من السنة ، احداهما تبدأ في آذار (مارس) وتبلغ اقصاها في شهر ايار وحزيران (مايو ويونيو) ، والثانية تبدأ في ايلول (سبتمبر) ،وترتفع حتى تبلغ اقصاها في كانون الأول (ديسمبر) ، ثم تعود الى الهبوط تدريجياً . ويرجع ارتفاع الاستهلاك في الفترة الأولى الى استخدام السكر في عمل المربيات ، بينما يرجع ارتفاعه في الفترة الثانية الى ازدياد تناول الشاي في فصل الشتاء البارد ، بالاضافة الى المواسم والاعياد التي صادفت في السنين الاخيرة في فصل الشتاء ايضاً . واما انخفاض استهلاك السكر في فصل الصيف عموماً فيعود الى توفر الفواكه ، وخاصة في أشهر حزيران وتموز وآب (يونيه ويوليو واغسطس) ، جدول (٦٤) .

ومما تقدم ، يلاحظ ان دراسة انتاج السكر وتموينه ، كانت على مستوى المحافظة كلها ، لعدم توفر احصائيات تفصيلية على مستوى المدينة ، إلا أن دراسة تكاليف المعيشة التي اجرتها مديرية الاحصاء والتعداد في مدينة دمشق في عام ١٩٦١ – ١٩٦٢[١] ، تبين ان متوسط استهلاك الفرد في هذه المدينة يبلغ ١٨،٦٦ كيلو غراماً في السنة ، وعلى هذا الاساس ، يكون استهلاك مدينة دمشق نحو ١٠،١٦٧ طناً في السنة نفسها ، وهو ما يعادل ٤٥٪ من مجموع استهلاك محافظة دمشق كلها .

ومجمل القول ، ان استهلاك السكر في ازدياد مطرد ، بسبب الازدياد المتواصل في عدد السكان ، والارتفاع المستمر في مستوى المعيشة ، وهذا يتطلب زيادة الطاقة الانتاجية لمصنع عدرا ، ورفع نسبة انتاج السكر المستخرج من الشوندر ، وذلك عن طريق تشجيع زراعة الشوندر ، فهو محصول مربح فضلاً عن أن زراعته واجب تقتضيه المصلحة العامة ، لتكون البلاد في مأمن من الأزمات التي تتعرض لها هذه المادة الغذائية الرئيسية .

اللحوم :

تأتي لحوم الاغنام في المرتبة الأولى بين أنواع اللحوم التي يستهلكها المواطنون في دمشق ، كما ان الاغنام تشكل الجزء الاكبر من الثروة الحيوانية في القطر السوري ، إذ تمثل نحو ٨٠٪ من مجموع الثروة الحيوانية .

وقد بلغ مجموع المذبوحات في مدينة دمشق ٤٩٧،٢٣٢ ذبيحة في عام ١٩٦٥[٢] ، منها ٤٥٥،٦٢٩ غنم وخراف ؛ وهذه الكمية تمثل ٩١،٦٪ من مجموع باقي انواع اللحوم ، أما الماعز والجدي فلا يمثلان سوى ٧،٤٪ ، ثم البقر والعجول والابل وهي لاتزيد في مجموعها على ١٪ من جملة اللحوم .

---

(١) لم تنشر هذه الدراسة حتى كتابة هذا البحث .

(٢) مديرية المواد الغذائية في وزارة التموين .

ويمارس تربية الاغنام والاتجار بها عدد كبير من ابناء دمشق وغوطتها، فهي صناعة زراعية تقوم على تحويل الاعلاف والمراعي بواسطة الحيوانات الى منتجات حيوانية ، كما انها صناعة رابحة اذا ما هيئت لها مقوماتها ؛ فما تزال تربية الاغنام في القطر السوري قائمة على المراعي الطبيعية التي كان للتوسع الزراعي على حسابها اكبر الاثر في نقص الاعلاف من جهة ، ونقص في الانتاج الحيواني من جهة اخرى .

ويقدر عدد الاغنام في القطر السوري بما يقرب من ٥و٤ مليون رأس (عام ١٩٦٤) ، منها أكثر من ثلث مليون رأس في محافظة دمشق . ولكن هذا الرقم غير ثابت ، يخضع لطفرات مفاجئة من الزيادة والنقصان ، فأساليب تربية الاغنام لاتزال بدائية ، والاعداد الكبرى من الغنم يربيهـــا البدو خاصة وابناء القرى الفقيرة ، فاذا ما جادت الطبيعة بمائها في الاوقات المناسبة ،واقترن ذلك بطقس مناسب كان الموسم جيداً واعتبرت تلك السنة من سني الخير ، حيث يتكاثر عدد الأغنام وتتغذى السوق المحلية بحاجتها ، وعندها لا تكون البـــلاد بحاجة للاستيراد ، ولكن يبقى الاستيراد ضرورياً لتوفير كميات تغذي بها اسواق البلدان العربية المجاورة كالأردن ولبنان .

آما اذا شحت الأمطار وكان الطقس غير مُواتٍ ـ كالمواسم التي مرت على البلاد منذ عام ١٩٥٩ ، والتي ذهبت بقسم كبيرمن الثروةالحيوانية ـ تعرضت قطعان الأغنام للهلاك، وتكون البلاد بحاجة الى الاستيراد . ولا غرابة في ذلك اليوم ، اذ ان وسائل البدووالقرويين في وقاية تلك القطعان محدودة ، فلا زرائب تقيها صقيع الشتاء ، ولا آبار كافية تؤمن لهـا المياه زمن الجفاف ، ولا مدخر من الأعشاب يوفر لها الغذاء، اذ لاتنبت أعشاب المراعي الا في الربيع ، أما في باقي السنة ، فتعيش الأغنام على قليل من القوت ، وإن كانت أغنام القرى احسن حالاً من اغنام البادية ، اذ يقدم لهـــا القوت اثناء الشتاء، او ترسل الى مناطق الرعي الشتوي ، في الهضاب والسهول الساحلية .

يستورد القطر السوري الأغنام بشكل رئيسي من تركيا ، وان كان قد استورد في بعض السنين من العراق ايضاً ويوغوسلافيا ورومانيا . وقد يرتفع عـــدد الأغنام المستوردة الى نصف مليون تقريباً (٥٠٣،٤٣٦ رأساً في عام ١٩٦٣) ، ويهبط الى ما يقرب من مـائة الف في بعض السنوات (١١٧،٠٥٥ رأساً في عام ١٩٥٩) ، ويقدر متوسط الاستيراد السنوي بربع مليون رأس[1].

ويلاحظ ان القطر السوري لايستورد الأغنام فقط من أجل سد حاجة سكانه ، بل يستفيد من عملية الاستيراد هذه بغية إعادة تصدير قسم من الأغنام المستوردة ، بعد ان يقوم بتربيتها وتسمينها في مزارب حلب وحماه وحمص ودمشق . وتصدر هذه الأغنام الى البلدان العربية المجاورة ، وخاصة لبنان والاردن والسعودية والكويت بكميات تزيد أو تنقص حسب المواسم ، وبحسب التسهيلات الممنوحة للتجار الذين يستوردون الأغنام من تركيا . فقد يرتفع عدد الأغنام المصدرة الى أكثر من ثلث مليون رأس في بعض السنوات (٣٧٢،٦١٩ رأساً في عام ١٩٦٤) ، ويهبط العدد الى أقل من مائة الف رأس في سنوات أخرى (٧٩،٠٦٠ رأســـاً في عام ١٩٦١) ، ويقدر متوسط التصدير السنوي بربع مليون رأس تقريباً (٢٣٠،٠٠٠ رأس متوسط الفترة مابين ١٩٥٨ - ١٩٦٤) .

ويتبين من دراسة تكاليف المعيشة للأسرة ، التي أجرتها مديرية الإحصاء والتعداد في عام ١٩٦٢ ، ان متوسط مايستهلكه الفرد من اللحم في مدينة دمشق يبلغ ١١،٨٦ كيلو غراماً في السنة ، لايدخلها مايخص الفرد من لحم الدواجن ، وهذا مايعادل تقريباً الحد الأدنى المقرر دولياً من هذا البروتين (٣٣ غراماً للفرد الواحد يومياً) ، ولا شك في ان هذه الكميات تبدو ضئيلة جـــداً إذا قورنت

---

(١) ٢٦٥،٠٠٠ رأس متوسط الفترة ما بين ١٩٥٨ - ١٩٦٤ .

عثيلاتها في الولايات المتحدة (٧٤ كيلوغراماً في السنة) او انكلترا (٤٢ كيلوغراماً في السنة) .

ويستهلك لحم الغنم في جميع الأوقات ، ومن قبل الغالبية العظمى من السكان ، ويلاحظ ان مذبوحات الأغنـــام تنخفض عادة في أشهر الربع الثاني (موسم الإدرار والتوالد) من كل عام بصورة واضحة ، حيث تبلـــغ نهايتها الصغرى ؛ ويعوّض هذا الانخفاض بارتفاع كبير في ذبائح الخراف حيث تبلغ نهايتها العظمى في الربع المذكور ، وهي الفترة التي تعقب تكاثر الأغنام وتمون السوق المحلية بهذه الحملان ، ثم تقل مذبوحاتها خلال أشهر الربع الثالث والرابع ، كما تقل كثيراً في أشهر الربع الأول من كل عام .

ويرجع السبب في ارتفاع مذبوحات الخراف خلال فترة الربع الثاني ، الى ان رعاة الأغنام يعمدون الى التخلص من معظم الخراف ، ابتداء من شهر نيسان (ابريل) من كل عام ، ليستفيدوا من لبن أغنامهم الذي يتعذر الحصول عليه في حال بقاء الخراف بالقرب من أمهاتها . ومن الجدير بالذكر ، ان مواسم الولادات بالنسبة للأغنام تبدأ في القطر السوري اعتباراً من أوائل شهر آذار (مارس) ، وتمتد حتى أواخر حزيران « يونيه » من كل عام .

هذا في الوقت الذي تقل فيه أعداد مذبوحات الغنم خلال أشهر الربع الثاني ، أي خلال الفترة التي يزداد فيها الاقبال على استهلاك لحم الخراف نظراً لطراوته ، وبالتالي تكون مذبوحات الخراف كبيرة ، وذلك بسبب احتفاظ الرعاة بهذه الأغنام للاستفادة من منتجاتها اللبنية والصوفية ، ولذلك تقل أعدادها المعدة للذبح في هذه الفترة .

الألبان ومنتجاتها :

يعتبر اللبن من أفضل المواد الغذائية ، لاحتوائه على معظم العناصر المغذية

اللازمة لجسم الانسان ، إذ يمكن الاعتماد عليه كغذاء أساسي ولشهور طويلة ، دون ان يصاب الجسم بأدنى اضطراب أو نقص في التغذية . فالحليب غذاء جيد ورخيص بالنسبة لمحتوياته ، إذا ماقورن بغيره من المواد الغذائية ، فضلاً عن انه خلو من محاذير اللحم او البيض ، وهو في الوقت ذاته مصـــدر خطر على صحة الانسان في بعض الأوقات ، وذلك انه وسط صالح لنمو أكثر الجراثيم الناقلة للأمراض المختلفة ، ولذا فقد تنبهت الدول المتقدمة صحيا الى الأخطار التي تتعرض لها صحة المواطنين فيها بسبب الألبان الملوثة ، فعمدت الى إنشاء المعامل والمخابر لفحص اللبن وتعقيمه .

وقد أمسى انتاج اللبن واستهلاكه مقياساً دقيقاً لتقدم المستوى المعيشي للأمم ، ودلت الإحصائيات الواردة في النشرة الخاصة لدراسة تكاليف المعيشة للأسرة في مدينة دمشق لعام ١٩٥٧ ، وهي الدراسة المتوفرة حالياً ، ان متوسط استهلاك الفرد الشهري هو ١٫٥٩ كيلو غراماً ، وتختلف هذه الكمية المستهلكة بين منطقة وأخرى في مدينة دمشق على النحو الآتي :

جدول (٦٥)

معدل الاستهلاك الشهري من اللبن في أحياء دمشق المختلفة (بالكيلو غرام) [١]

المنطقة	الكمية	المنطقة	الكمية
الميدان وتوابعه	٠٫٩٢	باب توما والأمين	١٫٤٩
سوق ساروجه وتوابعه	١٫١٠	روضة وأبو رمانة	٣٫٤٧
الاكراد والشيخ محي الدين	١٫٤٩	الصالحية وتوابعها	٢٫٢٦
شارع بغداد وتوابعه	٢٫٥٠	مدينة دمشق	١٫٥٩

(١) دراسة تكاليف المعيشة للاسرة في مدينة دمشق لعام ١٩٥٧ — منشورات وزارة التخطيط — ص ١٢

ومن دراسة الجدول السابق ، يتضح ان استهلاك الفرد الشهري من اللبن يزداد بشكل واضح في مناطق الروضة وأبي رمانة وشارع بغداد والصالحية، وهي تضم الأحياء التي يتمتع أبناؤها بمستوى معيشي مرتفع ، بينما يقل استهلاك الفرد من اللبن عن المعدل الاجمالي لمدينة دمشق (وهو ١٫٥٩ كيلو غراماً) في الاحياء الفقيرة ، كما هي الحال في منطقة الميدان وسوق ساروجة وتوابعه ، ويقترب استهلاك الفرد من المعدل الاجمالي تقريباً في مناطق باب توما والشيخ محيي الدين .

ان مايستهلكه الشخص الواحد في مدينة دمشق يقدر بنحو ٥٣ غراماً في اليوم الواحد ، وهي كمية قليلة جداً إذا ماقورنت بمثيلاتها في بعض الدول الاوروبية ، فيصل استهلاك الفرد الواحد من اللبن في فنلندا مثلا الى ١٨ مثلا أو أكثر على معدل استهلاك الفرد في مدينة دمشق .

وتتزود مدينة دمشق ، في الوقت الحاضر ، من الألبان التي توفرها بساتين دمشق والقرى المجاورة ، فتمدها بنحو ٤٥ الف ليتر من اللبن في اليوم الواحد ، وهي كمية كافية لسد حاجات المواطنين ، إلا ان هذا ناجم عن إحجام كثير من المواطنين عن شرب اللبن بسبب عدم ثقتهم بجودته ونقائه ، ويستدل على ذلك بكثرة استهلاك الألبان المجففة والمركزة ، الأمر الذي يؤكد لنا إمكانية زيادة الاستهلاك لو توفرت العناية والنظافة في إنتاجه وتوزيعه .

ولا شك في ان الثروة الحيوانية هي المصدر الأول في إنتاج اللبن ، فلا تكاد تخلو مزرعة من مزارع الغوطة من حيوان اللبن كالبقرة أو الماعز أو الأغنام ، إذ تعتبر منتجات الألبان المحصول النقدي الرئيسي في بعض المزارع . ويتوقف إنتاج الألبان ومنتجاتها ، على عدد حيوانات اللبن من ناحية ، وعلى نوع الحيوانات من ناحية أخرى ، كما يتأثر بنوع الغذاء وكميته ، وبمدى استخدام الحيوان في أغراض أخرى غير اللبن .

ويأتي البقر في مقدمـــة حيوانات اللبن ، إذ لايخلو منه حقل تقريباً ، والبقر البلدي من عرق أصيل يربى لاستخدامه في الأعمال الزراعية والاستفادة من لبنه ، ويتراوح ماتنتجه البقرة الواحدة من ٣٦٦٠ - ٤٨٠٠ ليتر في السنة ، بينما يتراوح ماتحلبه البقرة الواحـــدة من بقر الفريزيان من ٧٥٠٠-٨٠٠٠ ليتر في السنة . وهذا الضعف في الانتاج لايرجع كله الى الحيوان نفسه، بل يعود في معظمه الى الطريقة التي يعامل بها من حيث التغذية والرعاية الصحية ووضعه في الزراعة ،فقد ألقي عليه عبء فلاحة الأرض وخدمتها، حتى أصبح الغرض الأصلي من تربيته لدى الفلاح الصغير الذي يملك القسم الأعظم منه ، هو العمل الزراعي وليس انتاج اللبن ، مما أدى الى انخفاض المنتجات الحيوانية ، فتشغيل البقرات الحلوب يقلل من لبنها ، وخاصة اذا كان العمل شاقاً والأغذية غير كافية. وهذا فضلاً عن سوء حال الزرائب التي تبعد كثيراً عن الأوصاف العامية الحديثة، وكل هذا يقتضي ان نعود بتربية الابقار الى الغرض الاصلي منها وهو انتاج اللبن، وان نخفف عنها استغلالها في العمل الزراعي بزيادة استعمال الآلات الزراعية الحديثة على نطاق واسع .

ويربو عدد الأبقار في الغوطة على ٩٠٠٠ رأس ، يقرب عدد الاناث الحلوب منها من النصف ، يتركز معظمها في مجموعة القرى القريبة من دمشق وهي داريا وكفرسوسة ويلدا ودوما ، ثم عربين وجرمانا والمليحة .

وتربى الأغنام كذلك ، في مختلف انحاء الغوطة ، وتشاهد في القرى القريبة من المدينة والبعيدة عنها على السواء ، فهي لا تكلف الفلاح جهداً ولاتأخذ منه وقتاً . ويختلف مقدار اللبن الذي تدره النعجة حسب علفها ونوعها ، ويقدر متوسط ما تعطيه في اليوم الواحد نحو كيلوغرام واحد لمدة أربعة أشهر أو خمسة ، وعدد الغنم في الغوطة قليل لا يزيد على ٨٥٠٠ رأس ، تأتي داريا ودوما وزبدين في مقدمة القرى التي تعنى بتربيتها ، ثم يليها حرستا والحمدية .

أما ماعز الغوطة، فهو كالبقر البلدي من عرق أصيل، مشهور بكثرة دره، ويبلغ متوسط ما تدره المعز البلدية في الغوطة يومياً نحو كيلو غرامين ، ويدوم حليبا من ٨ - ٩ أشهر في السنة . وقد تناقص عدد الماعز كثيراً بعد عام ١٩٤٢ على أثر مرسوم يمنع تربية الماعز الجبلي في معظم قرى الغوطة بسبب الاضرار التي تلحقها بالثروة الشجرية ، واستثنى المرسوم من ذلك الماعز البلدي . ويقدر عدد الماعز في الغوطة بحوالي ٨٠٠٠ رأس ، يتركز معظمها في دوما والقدم وداريا وحرستا وصحنايا وسبينة الصغيرة والاشرفية .

وعلى العموم ، يجهل الفلاح كل ما يتعلق بتربية الحيوانات حسب اصول معينة ، متخصصة في انتاج اللحم او اللبن او الصوف او العمل ، فالحيوان عند الفلاح يجمع بين هذا كله . ومع ذلك فان الغوطة لا تقدم الى المدينة سوى اللبن فقط ، أما المنتجات الحيوانية الأخرى من لحوم وجلود وأصواف وغيرها، فلا تقدم منها شيئاً يستحق الذكر ، بل إن الأغنام التي تستهلك في دمشق لا تعيش عموماً في جو الغوطة الظليل الرطب ، وما يوجد فيها فهو ذو اقامة مؤقتة ريثما يدخل المسلخ .

(جدول ٦٦)

تطور انتاج الألبان ومنتجاتها في منطقة دمشق (بالطون) (١).

السنة	١٩٥٦	١٩٥٧	١٩٥٨	١٩٥٩	١٩٦٠	١٩٦١	١٩٦٢	١٩٦٣	١٩٦٤	١٩٦٥
اللبن	٣٠٥٠٠	٣١٠٠٠	٣٠٠٠٠	٣٠٠٠٠	٨٥٠٠	١٠٠٠٠	١٠٥٠٠	٢٧٧٩٤	١٠٠٠٠	١١٤٠٠
السمن	١٥	١٩	١٥	١٥	٣	٦	٧	٧٦	١٦	١٦
الجبن	١١	١٥	١٥	١٥	٣	٥	٦	٤٦٥	٩١	٩١
الزبدة	٣٦	٣٨	٣٠	٣٠	٦	٩	١٠	١١٣	٨٩	٨٩

(١) عن مديرية الاقتصاد الزراعي والاحصاء في وزارة الزراعة .

ويتضح من الجدول السابق ، ان الانتاج المحلي من الالبان ومنتجاتها، قد هبط بشكل واضح بعد عام ١٩٥٩ بسبب رداءة الأحوال المناخية ، ثم قفز فجأة في عام ١٩٦٣ الى أكثر من سبع وعشرين ضعفاً ، على أثر الموسم المعطاء الذي شهدته البلاد في ذالك العام ، ومع ذالك فان هذه الأرقام الاحصائية لا يمكن الوثوق بصحتها مطلقاً ، ولعل تقديرات الانتاج في عامي ١٩٦٤ - ١٩٦٥ أقرب الى الصحة من غيرها .

ولاشك في أن تدهور الانتاج المحلي من الألبان ، وتحول جزء كبير منه الى مشتقات لبنية أخرى كالسمن والجبن والزبدة ، بالاضافة الى ازدياد كمية الاستهلاك بسبب تزايد عدد السكان ، كل ذلك قد أدى الى وجود عجز ظاهر في الانتاج المحلي من اللبن السائل عن سد حاجة الاستهلاك ، واصبح اللجوء الى استيراد اللبن المجفف والمركز أمراً لابد منه لتعويض النقص .

ومما يجدر ذكره ، ان وزارة التموين قد اتخذت قراراً في نهاية عام ١٩٦٤ [١] ، يقضي بمنع استيراد اللبن المجفف المسحوب إلا بعد تلوينه بمواد ملونة غير مضرة بالصحة العامة، وقد ظهر اثر هذا القرار في انخفاض الكميات المستوردة من اللبن المجفف المسحوب في عام ١٩٦٥ ، بمقدار ٤٠٠ طن تقريباً عن العام السابق ، وهذا يعني أن هذه الكميات كانت تدخل في صناعة الالبان ومشتقاتها كالجبن واللبن وغيرها ، واصبح في امكان المستهلكين الاطمئنان أكثر من السابق لما يتناولونه من اللبن ومنتجاته .

وفي المقابل ، تضاعفت الكميات المستوردة من اللبن الكامل الدسم خلال عام ١٩٦٥ بالنسبة لعام ١٩٦٤ ، وهذه نتيجة طبيعية لمنع استيراد اللبن

---

(١) القرار رقم ٩٣٧ بتاريخ ١٧/١٢/١٩٦٤ .

المسحوب ، ولا ريب ان ازدياد الكميات المستوردة من هذا اللبن يعوض النقص الحاصل في انتاج اللبن الطازج، كما يوفر بعض كميات من اللبن الطازج لصناعة منتجات اللبن الأخرى كالجبن والسمن والزبدة وغيرها .

ولابد من الاشارة ، الى ان وجود مادة اللبن الطازج في بعض المدن السورية عموماً ، لا يعني توفر هذه المادة في الأسواق بشكل دائم ، بل أن طرق التوزيع والتسويق والدورة التموينية المحلية باعتمادها ، في بعض مناطق الانتاج، على تصنيع كمية الحليب المنتجة كلها الى مشتقات لبنية ، لتأمين حاجة السوق من الجبن الابيض والزبدة والسمن مثلا ، تساعد كثيراً على توفير كمية اللبن السائل الطازج للاستهلاك الفردي في بعض المدن والمناطق الاخرى ، كما هي الحال في مناطق البادية التي تصنع السمن العربي ، وتؤمن هذه المادة لاسواق دمشق ، بينما تكون دمشق قد وفرت مادة اللبن الخام للاستهلاك الفردي اليومي.

وقد دلت الاحصائيات التي قامت بها وزارة الزراعة في مطلع عام ١٩٦٠، لحصر عدد الابقار الشامية المستوطنة في الغوطتين ، والتي لاتشمل ، في الواقع ، كل الابقار التي يرد انتاجها لمدينة دمشق ، على ان عدد الابقار الحلوب يبلغ نحو ٥٦٠٠ رأس ، مما يدل دلالة قاطعة على ان الانتاج اليومي من اللبن لهذه الابقار يبلغ نحو ٥٠ طنا . فلو اضفنا الى هذه الكمية قدرا مماثلا تنتجه الاغنام والماعز خلال فصلي الربيع والصيف ، موزعة في قرى الغوطة وما يحيط بها حتى حدود جديدة يابوس في الغرب والرمدان في الشرق والكسوة في الجنوب والتل في الشمال ، والتي يرد نصفها الى دمشق بشكل ألبان ، لادركنا ان كامل الانتاج للابقار والاغنام والماعز الذي يرد الى دمشق يوميا يبلغ نحو ٧٥ طنا ، هذا مع العلم بان هذه الكمية تهبط الى النصف عند حلول فصل الخريف .

السمن العربي :

لقد واكبت صناعة الالبان في مدينة دمشق خاصة ، والقطر السوري عامة ، جميع الصناعات المعروفة فيها منذ اقدم الازمان ، وساعد على نشؤ هذه الصناعة توفر المراعي واليد الصناعية التي استمدت خبرتها عبر السنين ؛ والدليل على ذلك ان السمن البلدي والجبن المنتجان في هذا البلد يحملان شهرة واسعة في الاقطار المجاورة والبلاد الاجنبية ، على الرغم من ان صناعة الالبان في هذه البلاد لاتزال تعتمد على طرق بدائية متوارثة . ورغم المحن التي اصيبت بهـا الثروة الحيوانية في سوريا ، فلاتزال صناعة الالبان تقف على قدميها تؤمن حاجة السوق المحلية ، وتغذي السوق الخارجية في سني الخير .

ان صناعة السمن العربي توفر حاجة السوق المحلية من هذه المادة ، وتصدر الفائض الى الاسواق المجاورة في المواسم الجيدة . ولاشك في ان رداءة المواسم تؤثر تأثيرا كبيرا في هذه الصناعة التي يعتبر حليب الغنم المادة الاولية الوحيدة اللازمة لها. اما مراكز انتاج السمن العربي فهي موزعة في مناطق دير الزور وحماه والقنيطرة وحوران والبادية ، وتعرف الانواع المنتجة من هذه المراكز بالاسماء التالية : السمن الديري ، السمن الحديدي ، السمن القبلي ، السمن الشرقي . ويعتبر السمن الديري من اجود انواع السمن العربي ، ولا يضاهيه في هذا المضمار سوى سمن قبائل الحديديين في محافظة حماه بسبب ماتحويه أراضيهم من نباتات قاسية تجعل السمن صافيا وذو رائحة ذكية وطعم مستطاب.

ويتضح من الجدول (٦٧) ، ان انتاج السمن في القطر السوري عرضة للزيادة والنقصان بسبب تأثره الشديد بالتقلبات المناخية التي تنتاب البلاد ، ففي مواسم الخير يسد الانتاج حاجة الاستهلاك ويأخذ الفائض طريقه الى الاسواق الخارجية ، كما هي الحال في سنوات ١٩٥٧ ، ١٩٥٨ ، ١٩٥٩ ، اما في

سنوات الشح والجفاف فيقصر الانتاج عن سد حاجة الاسواق الداخلية وتلجأ الدولة الى الاستيراد من الخارج لتغطية النقص ، وهذا ما حدث منذ عام ١٩٦١ والعام الذي تلاه .

جدول (٦٧)

مقارنة بين انتاج السمن الحيواني واستهلاكه واستيراده وتصديره في القطر السوري [1]

السنة	١٩٥٧	١٩٥٨	١٩٥٩	١٩٦٠	١٩٦١	١٩٦٢	١٩٦٣	١٩٦٤
الانتاج	٩١١٦	٥٧٤٩	٣١٨٥	٢٠٧٢	٢٥٤٢	٥٧٦٦	١٦٣٢٥	١٢٨٧٦
الاستيراد	—	—	—	—	١٢٤	٩٩	٢٩٧	٣١٥
التصدير	١٤٨١	٧٧٧	٣١٢	—	—	—	٦٣٣	٣٨٨
الاستهلاك	٧٦٣٥	٤٩٧٢	٢٩٧٣	٢٠٧٢	٢٦٦٦	٥٨٦٥	١٥٩٨٩	١٢٨٠٣

والخلاصة ، ان انتاج السمن يخضع لعامل أساسي وهو المطر ، ويؤذيه الصقيع بعد ظهور الربيع في المروج والبوادي،فالمناخ اذن يلعب الدورالرئيسي في التحكم بانتاج السمن وتوفره ؛ وهذا لا يعني زوال الدور الذي تلعبه وزارة التموين فيتوفير هذه المادة للمستهلكين،ويكون ذلكبمنعتصدير السمن في مواسمه فقط ، علماً بأن المواسم تبدأ في مطلع آذار (مارس) وتنتهي في أواخر حزيران (يونيو) ، وان يبدأ السماح بتصدير المادة اعتباراً من أول تموز (يوليو) وحتى نهاية شباط (فبراير) من كل عام ، وان يبقى باب الاستيراد مفتوحاً على مدار السنة ؛ فمنع التصدير في المواسم يتيح الفرصة امام السوق المحلية من تجـــار ومستهلكين ليموِّنوا أنفسهم من هذه المادة بأرخص الاسعار .

---

(١) مديرية المواد الغذائية في وزارة التموين .

وتجدر الاشارة هنا الى أن الكمية الباقية في الاسواق بعد انتهاء الموسم هي الفائض الحقيقي الذي يمكن السماح بتصديره . أما بقاء باب الاستيراد مفتوحاً فيعتبر بمثابة صمام الامان الذي يجنب البلاد التعرض لازمات نقص السمن أو ارتفاع أسعاره مهما كانت حالة الموسم .

ولا شك في أن تطور صناعة السمن النباتي والمارغرين بأنواعه ورخص أسعارها وميل المواطنين الى استهلاكها ، قد أثر الى حد بعيد على استهلاك السمن الحيواني تأثيراً مبـــاشراً . ان توفر السمن المستورد الحيواني المَنْشأ ، ووجود السمن النبـاتي (زيت بذر قطن مُهَدرج) والمارغرين يجعلنا نطمئن الى مستقبل صناعة السمن العربي في البلاد ، التي ستسد حاجة السوق المحلية وتصدر الفائض الى خارج البلاد .

الجبن الابيض :

يعتبر الجبن الأبيض من منتجات الألبان الرئيسية بعد السمن العربي ، وهو من الصناعات القديمة التي اشتهر بها القطر السوري . يستهلك في جميع الأوقات من قبل الغالبية العظمى من سكان المدينة ، ولا سيما الطبقات الفقيرة منها ، ذلك أن الطبقـــات الموسرة قد تعوض عنه بالزبدة والبيض ، وانواع الجبن الفاخرة ، كالجبن الحلّوم أو المضفور أو القشقوان .

تبدأ مواسم انتاج الجبن الأبيض في القطر السوري اعتباراً من اوائل آذار (مارس) وتمتد حتى اواخر حزيران (يونيه) من كل عام ، وبذلك تمتد المواسم مدة أربعة اشهر تقريباً ، تشهد الأسواق فيها أنواعاً عديدة من الجبن ، تختلف اسماؤها باختلاف مصادرها ، وأهمها الافراوي (من ضواحي دمشق) والحموي (من حماه) والمنبجي (من منبج) والعكاوي (من الغاب وجسر الشغور)

والحلو (من عرب البادية) والعزيزي (من اعزاز وعفرين) والمضفور (من المعرة) والاسطنبولي (من حماه وجسر الشغور) ، هـــذا بالاضافة الى جبن الضَّرْف وجبن القريش والجبن الصناعي .

وينتج الجبن الأبيض في جميع محافظات القطر السوري ، ولكن بكميات متفاوتة ، تختلف تبعاً لعدد المواشي الحلوب ومساحة المراعي الموجودة في المحافظة. ويتغير هذا الانتاج المحلي صعوداً وهبوطاً حسب المواسم التي تمر على البلاد ، وقد بلغ الحد الأعلى للانتاج خلال الثماني سنوات الماضية ٢٩،٣٥٠ طناً في سنة ١٩٦٣ ، والحد الأدنى ٤٢٠١ طن في سنة ١٩٦٠ ، والواقع ان الجبن يتأثر بنفس العوامل التي يتأثر بها انتاج السمن وغيره من منتجات الالبان .

يبلغ معدل الاستهلاك الفردي من الجبن ٣،٥٨ كيلو غراماً في السنة(١) ، وهذا يعني ان مدينة دمشق تستهلك نحو ٢٠١٥ طناً من الجبن البلدي في السنة (١٩٦٤) ، وهـــذه الكمية يوفرها الانتاج المحلي ، ولم يسبق ان عانى القطر السوري أية ازمة بالنسبة لهذه المادة . ويعتبر القطر منتجاً للجبن ومصدرا له في سني الخير ، فقد صدرت البلاد من الجبن الأبيض ١٦٨٦ طناً في سنة ١٩٥٧ ، ولكن هذه الكمية المصدرة تدنت الى ٣٧٥ طناً فقط في سنة ١٩٦٣ ، والاسباب ، كما هي معروفة ، سوء المواسم وتدني اعداد المواشي الحلوب .

ويتدارك القطر السوري قسما من احتياجاته من الجبن الأبيض عن طريق الاستيراد ، وذلك على سبيل التنويع ، ولكن هذه الكميات المستوردة منه قليلة جداً بالنسبة للانتاج المحلي . وقد بلغ الحد الأعلى ٣٨١ طناً سنة ١٩٥٧ ، والحد الأدنى ٤ طن فقط في سنة ١٩٥٨ . واكثر الأنواع التي يستوردها القطر هي من نوع الجبن الأبيض المطبوخ من دواتي هنغاريا وبلغاريا ، ولا شك في أن القطر

---

(١) دراسة عن تكاليف المعيشة للاسرة في مدينة دمشق لعام ١٩٦٢ – غير منشورة .

السوري يستطيع الاستغناء نهائياً عن استيراد الجبن الأبيض ، وخاصة بعد تقييد تصديره .

الزُبد :

يصرف قسم من اللبن الرائب في صناعة الزبد ، وبالتالي فهو يتأثر بالموسم الزراعي بشكل عام ، فالانتاج معرض للهبوط في السنين التي تتسم بالجفاف ، وللارتفاع في سني الخير .

جدول (٦٨)

تطور انتاج الزبد واستهلاكه واستيراده وتصديره (بالكيلو غرام)[١]

السنة	الانتاج المحلي	الكميات المستوردة	الكميات المصدرة	الكميات المستهلكة
١٩٥٧	٨٥٦،٠٠٠	٦٤،٤٣١	٦،٢٧٤	٨٥٧،٦٥٧
١٩٥٨	٥٨٨،٠٠٠	١٠٦،٤١٠	١٦،٢٠٠	٦٤٨،٢١٠
١٩٥٩	٤٢٠،٠٠٠	٨٠،٧١٣	١،٥٦٣	٤٩٩،١٥٠
١٩٦٠	٤١٩،٠٠٠	٢٠١،٢١٤	—	٦٢٥،٢١٤
١٩٦١	٤٩٥،٦٠٠	٥٠٦،٥٧٥	—	١،٠٠٢،١٧٥
١٩٦٢	٤٣٨،٥٠٠	٥٢٥،٨٧٨	—	٩٦٤،٣٧٨
١٩٦٣	٢،٤٧١،١٩٠	٦٧١،٧٧٦	١،٨٣٦	٣،١٤١،١٣٠

(١) مديرية المواد الغذائية في وزارة التموين .

ومن هذا الجدول ، يتبين ان الانتاج المحلي بلغ ٨٥٦٫٠٠٠ طن في عام ١٩٥٧ ، ثم اخذ الانتاج في الانخفاض حتى بلغ النصف في عـــام ١٩٦٠ ، وبعد ذلك اتجه نحو الارتفاع حتى بلغ ٢٫٤٧١٫١٩٠ طناً في عـام ١٩٦٣ ، وهي كمية تزيد على ستة أمثال انتاج الزبد في عام ١٩٦٠ .

أما الكميات المستوردة فهي في ارتفاع مستمر ، إذ بلغت في سنـــة ١٩٦٣ عشرة أضعاف ما كانت عليه في سنة ١٩٥٧ ؛ بينما تناقصت الكميات المصدرة ، وانعدمت في بعض السنوات . وكل ذلك يدل على ان الانتاج المحلي يقل عن حاجة السوق المحلية ، ولذا يلجأ القطر لتدارك هذا النقص عن طريق الاستيراد ، وخاصة من بولندا والدنمرك وهولندا وغيرها .

ومن الطبيعي ان يزداد استهلاك الزبد شتاء ويقل صيفاً ، وذلك تبعاً لاقبال المواطنين عليها في الفصل البارد لحاجتهم الى المواد الدسمة .

* * *

الباب السابع

تخطيط مدينة دمشق

تمهيد ـ تخطيط المدينة ـ التوسع والاسكان ـ تنظيم مداخل المدينة ومواصلاتها الرئيسية ـ تجميع وزارات الدولة ومؤسساتها ـ محطة الحجاز والخطوط الحديدية ـ مطار دمشق الدولي ـ جامعة دمشق ـ مشروع تنظيم بردى في داخل المدينة ـ مشروعات تزويد المدينة بالمياه ـ نقل المقابر ـ تخطيط الغوطة .

تمهيد

كان ديوان الحسبة في القرن الماضي يتولى من المدينة كل ماله صلة بالبناء والطرق والصحة وغيرها ، ثم انتقلت هذه المهمة بعد ذلك الى البلديات حتى انشاء دائرة التنظيم في عام ١٩٢٩ ، وأول مخطط تنظيمي عام وضع لمدينة دمشق كان في عام ١٩٣٧ ، قام بوضعه المهندسان الفرنسيان دانجه وايكوشار ؛ وقد استند مخطط المدينة يومئذ الى مبدأ تخطيط المدن المتبع في مطلع هذا القرن ، وهو عبارة عن شبكة شوارع رئيسية ،تصل ساحات مختلفة الشكل بميادين دائرية او مضلعة ذات اشكال هندسية منتظمة ، وشبكة شوارع ثانوية اقل اهمية من الأولى ، تصل بين الشوارع الرئيسية . وهي مبادىء طبقت في الماضي على مدن فرنسا ، وعرفت بحركة « المدينة الجميلة » كما هو الحال بمخطط « هوسمان » لمدينة باريس ،الذي أحدث الشوارع العريضة الكبرى وغيرها من الشوارع والساحات الواسعة المعروفة . ولم يكن هذا التخطيط سوى رد فعل ناتج عن الشوارع والازقة الضيقة والملتوية الموجودة بكثرة في ذلك العصر .

وهكذا طبق الفرنسيون في عام ١٩٣٧ ، وعلى نطاق ضيق ، مبادىء التخطيط المعروفة لديهم منذ عهد هوسمان ونابليون الثالث على تخطيط وتنظيم بعض المدن السورية ، وكانوا على مايظهر يمرون بمراحل تجربة في بلادنا ، انتهوا منها الى اخطاء كثيرة وتخطيط قديم بعيد كل البعد عن مبدأ « المدينة الخضراء »

الذي كان منتشراً في اوائل القرن العشرين في انكلترا وامريكا وغالبية دول العالم المتمدن [١]

وفيما يلي اهم الملاحظات التي ابداها الدكتور منير البارودي [٢] على مخطط دمشق عام ١٩٣٧ :

أولاً : قلة الحدائق والملاعب وكثرة الشوارع والساحات ، حتى ان نسبة مساحة مايترك للأملاك العامة قد يبلغ في بعض المناطق ٤٠ أو ٥٠٪ تقريباً من المساحات المنظمة .

ثانياً : طغيان البناء على البساتين واستبدال مناطق خضراء من غوطة دمشق بأبنية جرداء من الاسمنت والحجر ، مما أثر على مناخ المدينة ودرجة الرطوبة فيها والصحة العامة للسكان .

ثالثاً : عدم تخصيص اسواق محلية في بعض المناطق ، مما أدى الى استعمال المرائب كمخازن ودكاكين وحرف ، وبالتالي أدى ذلك الى تشويه المناطق السكنية وازعاج السكان .

رابعاً : ان مدينة دمشق الواقعة في سفح جبل قاسيون ، المطل على بساتين الغوطة ذات المناظر الخلابة ، قد حُرمت ابنيتها من امكانية الاطلال على هذه المناظر الجميلة ، كما كان من الواجب ان تحدد ارتفاعات الأبنية بشكل لاتحجب المناظر ، بعضها عن بعض .

خامساً : واخيراً فان بعض الاشكال الغريبة التي ادخلت في تخطيط

---

(١) الدكتور منير البارودي–تطور تخطيط المدن في الجمهورية العربية السورية– مهرجان اسبوع العلم الثالث – الكتاب الرابع – المجلس الاعلى للعلوم – ص ٤٢ – ٤٤ .

(٢) المصدر السابق .

بعض المناطق لاتدل على تطور حديث في هـذا المضمار ، فنرى في منطقة مثلا ، حدائق صغيرة بشكل الكلاوي ، وبالقرب منها قطع بشكل البقلاوة وغيرها ، مما يذكرنا بمائدة شرقية معدّة في بلد عربي من قبل طبّاخ اجنبي .

وقد شعرت دمشق في اعقاب الحرب الثانية بأن مخططها العـام لم يعد يفي بحاجات مجتمعها المتطور ومستلزماته ، فقامت باجراء اضافات وتعديلات متتالية على هذا المخطط ، تمخض عنها احداث مناطق التنظيم والتجميل ؛ غـير ان تنفيذ هذه المناطق التنظيمية والتجميلية المتفرقة هنا وهناك ، قد اسفر عن وجود تفكك في اوصالها ، وتكشف عن فقدان الارتباطات الصحيحة بين مختلف مواقعها ، واظهر نقصاً فادحاً في المرافق والمستلزمات الحضرية الواجب توفرها في كل منطقه .

اما سبب هذه العيوب فكان ناجمـــاً عن قيام الاجهزة الفنية المتعاقبة في امانة العاصمة ،بدراسة كل منطقة منها بصورة ارتجالية منفردة ، وخلال فواصل زمنية متفاوتة ، دون ان تجمعها خطة موحدة الجوانب والاهداف ، تنبثق عن المتطلبات الواعية الجديدة لمجتمع المدينة الآخذ بالتطور والنمو في مختلف اوجه نشاطها في الحياة .

وهناك برزت الحاجة من جديد الى ايجاد مخطط تنظيمي عام المدينة ، يستجيب لرغبات الجيل الجديد في عصره الجديد . فبدأت المحاولة الاولى عام ١٩٥٧ لاعداد المخطط العام المطلوب ، عن طريق التعاقد مع شركة اجنبية ، ولكن هذه المحاولة لم تصل الى الغاية المنشودة .

وفي عام ١٩٦٣ اعيدت المحاولة مع المهندس الفرنسي ميشيل ايكوشار ، وتم التعاقد معه في شهر نيسان (ابريـل) من عام ١٩٦٤ على اعداد المخطط المنشود لمدينة دمشق وضاحيتها القريبة ، وذلك خلال اربع مراحل تنتهي في مطلع عام ١٩٦٧ .

وقد حرص المخطط التنظيمي الجديد ،على المحافظة على المنطقة الخضراء ، وركز التوسع على المناطق الجرداء من المدينة ؛ كما اهتم بصيانة الطابع التاريخي المدينة كحفاظه على المنطقة الخضراء ، لما لمخلفات التاريخ من حرمة وقداسة وجمال ومردود سياحي كبير .

تخطيط المدينة :

بقدر ماتكون المدينة الكبيرة متلائمة مع طبوغرافيـة الموضع الذي قامت عليه ، ومع جغرافية البلد وتاريخه ، يصعب اقتراح تخطيط لهـــا ، لانه ينبغي حينئذ ايجاد تخطيط جديد يحل محل تلاؤم المدينة القديمة . ودمشق في مقدمة المدن التي ينطبق عليها مثل هذا الوصف ؛ فهي تحتل موقعاً هيـأه الانسان بتوزيع مياه الري منذ آلاف السنين ، كما ان تاريخها العام قـد رسم حدودها وجعلها مليئة بأغنى الأوابد الأثرية التي عرفها الشرق .

ومن جهة اخرى ، فان عـدد السكان الذي يزداد بسرعة كبيرة ، والحضارة الآلية التي تتقدم يوماً بعد يوم ، تحتاج الى تنظيمات جديدة تتلاءم مع المتطلبات الجديدة للانسان ، وخاصة في المدن المؤهلة للحضارة الآلية .

وفي دمشق نجد انفسنا امام مدينة تظهر غير طبيعية للوهلة الاولى ،فهي تتطلب الاحتفاظ بعظمة المدينة التي خلفتها العصور الغابرة ، كما تريد ان تنظر الى مشكلة ازدياد السكان المستمر بعين الاعتبار ؛ ولا بد لجميع الدراسات الـــتي تعنى بتخطيط المدينة ان تهتم بهذه الأمور الأساسية وتحاول التوفيق بينهـا .

ويلاحظ أن ابناء دمشق انفسهم يجهلون القيمة الفنية والتاريخية المتمثلين بمجموعة هـذه الابنية الفريدة في نوعها ، والتي عرفت عظمة الرومان وترف القرن الثاني عشر ، بالاضافة الى رشاقة الابنية العربيـة ومتانتهـا في القرن الثامن عشر .

وقد وُصفت قلعة صلاح الدين الموجودة في دمشق بأنها تساوي متحف اللوفر في باريس (١) ، واكثر من هذا يقال بالنسبة للجامع الأموي الكبير والابنية الايوبية الموجودة في الأكراد ، فلا بد من الاهتمام بهذه الآثار التي ترفع من قيمة هذه المدينة ، وذلك بادخالها ضمن حياتها الخاصة ، لا كقطع أثرية فحسب ، ولكن كجزء حي من الأمة .

فالمنطقة الواقعة بين القسم الشمالي من سوق مدحت باشا (الديكومانوس) وبين القسم الغربي من شارع باب توما (الكاردو) ، تتضمن آثاراً وابنية من كل العصور ، يونانية ورومانية وبيزنطية واموية وايوبية ومملوكية وتركية ، ويمكن ان نتبين اهمية هذه المنطقة التاريخية بما يأتي :

اكتشفت اثناء تقوية أساسات قصر العظم (من القرن الثامن عشر) بجرة من الفسيفساء المصنوع من معجون الزجاج ، تعود الى قصر تنكز (القرن الرابع عشر) الواقع تحت قصر العظم ؛ ولو تابعنا الحفر في هذا المكان لعثرنا على قصر الخضراء ، وهو قصر الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، والذي نعرف من النصوص التاريخية ،انه بُني جنوبي الجامع الأموي وكان متصلاً به ،ولو تابعنا الحفر أيضاً لعثرنا على السور الجنوبي للمعبد القديم ، ولو تعمقنا اكثر من ذلك ،لعثرنا على أبنية ملوك دمشق في عصر التوراة !..

ولا يزال أثر مخطط المدينة الهلنستية (اليونانية) ظاهراً في هذا الحي بكامله ، حيث نشهد تخطيط العصور الوسطى للأزقة التي تحتفظ بمعالم أساسات المعابد والمسارح وقواعد الأعمدة الضخمة التي تقطّع المدينة الى مستطيلات . اما مدينة القرون الوسطى فلا تزال ماثلة أمام أعيننا بأزقتها المتعرجة وخاناتها وتربها ومارستاناتها ، وهي في فوضى لم تنقص من سحرها وجمالها .

ومع هذا فان أجمل الأبنية في ذلك العصر ، وهو العصر الذهبي للعمارة

---

(١) Ecochard , (1964) . Op . cit . P . 2 - I - 2

الاسلامية ، هي القلعة الواسعة التي تضم قصر صلاح الدين الأيوبي الذي لايزال ماثلا ، وبشكل جدارها الحد الشمالي الغربي للمدينة القديمة ، ويجهل وجودهاأبناء المدينة القاطنون على بعد أمتار منها ، إذ ان أبراجها وأسوارها قد اختفت خلف الدكاكين التي التصقت بها .

انهذه المنطقة القديمة من المدينة،مازالت الى اليوم ،هي مركزدمشق ، ومازالت تحيط بها الأسوار الرومانية والحصون القديمة ؛ وما زالت حركة المرور — كما كان الحال في العصور السابقة — تخترق بوابات المدينة . ونحن نعلم ان جميع العوامل التي صنعت شهرة دمشق وعظمتها ومجدت ماضيها وثبتت بقاءها، تتجمع في هذا الشكل الرباعي الذي لاتزيد مساحته على بضعة هكتارات . وقد كان منذ ألفي سنة تقريباً القلب النابض لمدينة ملكية ومركزاً جليلا للعبادة ؛ والحدث النادر جداً في تاريخ المدن ، هو ان هذا القلب بالنسبة لدمشق ، مازال حياً الى يومنا هذا ، إذ لم تفارقه حيويته الاقتصادية ومجالسه الشعبية وإقامة الصلوات فيه .

ولكن هذا التراث الحضاري في المنطقة القديمة من المدينة بدأ يتقلص ويتلاشى،وتزول منه أسباب الحياة،بسبب عدم تلاؤمه مع المتطلبات الحديثةللحياة العصرية،كما ان هذهالمراكزالتاريخية بدأت تفقد معظم سكانها النازحين نحوالمناطق الحديثة التي أحاطت بها من كل جانب . ولعل فكرة التلاؤم هذه هي إحدى الوسائل الأساسية لإحياء هذه المنطقة ، إذ لابد من تزويدها بمختلف متطلبات العصر الحاضر ، وفي طليعتها وسائل النقل الحديثة ، إذ ان الحياةلايمكن انتدب فيها إلا عن طريق الشرايين اللازمة ، لجعل قلب هذه المدينة يتصل بأطرافها (١) .

ان إحياء المدينة القديمة يتطلب تنظيماً يؤمن وصول السيارات الى الأبنية

---

(١) عدنان المفتي—التنظيمات الادارية وأثرها في حماية الأبنية والمراكز التاريخية— مجلة الحوليات الأثرية السورية — المجلد ١٤ — ١٩٦٤ — ص ١٨١ .

الأثرية، والشاحنات الى جميع المستودعات الموجودة فيها دون أية صعوبة ، على ان تبقى حركة المشاة في جميع الأسواق وحول الأبنية الأثرية سهلة ميسورة ، كما ان توزيع الشوارع الحديثة والساحات العامة ومواقف السيارات ، يجب ان يسمح باظهار المباني الأثرية أو ملامح تخطيطها الرئيسية .

وإذا انتقلنا الى المناطق الجديدة من المدينة ، نشهد خليطاً من نظم التخطيط المختلفة ، فقد أخذت دمشق عن النظام الفرنسي هندسة الميادين الواسعة والشوارع العريضة ، للحيلولة دون حوادث السير الطارئة والحد من أضرارها قدر الإمكان ، كما هي الحال في عرنوس والصالحية والشهداء ؛ كما أخذت عن النظام الأمريكي فصل منطقة الأعمال عن منطقة السكن ، كما هي الحال في الحريقة والسنجقدار اللتين اختصتا باعمال التجارة والبيع ، بينما اختصت ابو رمانة والمزرعة والقصور بدور السكن ؛ وقد تجتمع الوظيفتان في منطقة واحـــدة ، كما هي الحال في جادة الصالحية ، حيث تشتمل على المحلات التجارية ودور السكن في وقت واحد .

وكذلك اخذت المدينة عن النظام الالماني ، فصل مناطق العمل والانتاج الصناعي عن الاسواق ودور السكن ونقلها الى خارج المدينة ، وهذا ماحدث فعلا في اواخر عام ١٩٥١ ، حين نقلت معظم المصانع الى القابون والقدم وزقاق الجن وباب شرقي وغيرها .

وقد لاحظنا في فصل سابق ، ان عدد سكان دمشق قد تضاعف خلال ١٥ عاما ، وهذا لايعني ان مساحتها قد تضاعفت ايضا ، بل ازدادت كثافة السكان في الاحياء الفقيرة ؛ وفضلا عن ذلك ، فان حركة السير في ايامنا هذه ، تخلق في المنطقة المركزية سدودا حقيقية سوف تزداد كثافتها في السنوات المقبلة ، وهذا يتطلب دمج حركة السير الداخلية في المدينة مع شبكة المواصلات الدولية ذاتها . ولابد للمخطط ان يحسب طرق المواصلات الدولية التي تفرضها زيادة حركة المرور حسابها للمستقبل ، وان كان من الممكن تأجيل انشائها في الوقت

الحاضر لعدم الحاجة الملحة اليها ، الا ان تجاهلها وعدم التفكير بها حاليا ، يجعل البلد مسؤولا في المستقبل عن اقصاء هذه الشبكات التي تنمو وتزدهر بسرعة كبيرة [١] .

وهكذا نرى ، انه من الواجب اعادة النظر في تنظيم المدينة ومرافقها ، وتوسيع احيائها ودمج العاصمة مع البلاد كلها .

التوسع والاسكان :

لقد تبين من تحليل الوضع الحالي للسكان ، في الدراسة الديموغرافية السابقة ، ان سكان دمشق يتزايدون بمعدل ٤٪ سنويا ، وهو معدل كبير جدا ، سيجعلهم يبلغون اكثر من ضعفي عددهم الحالي بعد عشرين عاما ؛ اذ يحتمل ان يصل عددهم الى حوالي مليون وثلث المليون في سنة ١٩٨٤ .

فمدينة دمشق ، اذن ، في حاجة كبيرة الى عدد كبير من المساكن ، يستطيع ان يستوعب نحو مليون وثلث المليون نسمة ، وهو العدد الذي يحتمل ان يصل اليه سكان دمشق بعد عشرين عاما . فاذا تُرك الاسكان والتعمير دون سياسة اوتخطيط ، فانه من المتوقع ان يواصل العمران زحفه نحو الاراضي الزراعية التي تحيط بالمدينة من معظم اطرافها ، والتي تقوم بوظيفة هامة للمدينة ذاتها ، وهي تموين سكانها بحاجتهم من المواد الغذائية ، لاسيما المواد السريعة التلف التي ينبغي الا يستغرق نقلها الى المدينة وقتا طويلا ، كالخضراوات والفواكه والالبان .

ومن الواضح ان العمران اذا ترك وشأنه ، سيتجه في اتجاه غير سليم من وجهة النظر الاقتصادية ، فلابد اذن ان يُحال دون امتداد المدينة في هذا الاتجاه، ويمكن اعتبار الحد الحالي للكتلة السكنية لمدينة دمشق اقصى مايمكن ان تصل اليه المباني ، وذلك بأن يحظر منذ الآن اعطاء تراخيص بالبناء خارج هذا الحد .

---

(١) Ecochard, (1964), Op.cit., P.2-I-2.

اما الاختيار النهائي للطريقة التي سيجري عليها استثمار الاراضي افقيا او رأسياً ، فيجب ان يتم نتيجة دراسات مفصلة ، فالمنطقة السكنية التي تتكون من مساكن تشغل كلا منها اسرة واحدة وتشتمل على افنية داخلية ، لاتحتاج الى شبكة كبيرة من الطرقات ، واذا خفضنا الكثافة الحالية للسكان فان الشوارع الموجودة قد تفي فعلا بالغرض .

اما المنطقة المكونة من « ابراج سكنية » اومن مساكن يشغل كلا منها اكثر من اسرة واحدة ، فان كثافة المرور تزداد فيها ، مما يستلزم وجود طرق اوسع وتسهيلات اكبر ، خاصة اذا كنا نريد زيادة كثافة السكان

والان ، هل نأخذ بالاتساع الافقي او الاتساع الرأسي ؟ ان مشكلة الاختيار النهائي لدرجة الكثافة المنشودة يجب ان تحل وفقا للتكوين الاجتماعي للسكان ، ويجب ألا تحل هذه المشكلة بناء على اعتبارات هندسية اوجمالية فحسب ، بل يجب ان نأخذ في اعتبارنا الامكانيات الاقتصادية للمدينة ولسكانها ، حتى لاتظل مشروعات الاصلاح في مرحلة التخطيط الى الابد ، وتظل قابعة في الادراج لاتخرج الى النور .

كما يجب ألا ننسى ان زيادة عدد الطوابق في كل منزل ، يعني زيادة مساحة الارض الخالية وزيادة مساحة المتنزهات العامة ، مما يزيد في تكاليف العناية بالمدينة ، وهذا مالا تستطيع دمشق ان تتحمله ، ولذلك يجب الا تخرج مناطق المتنزهات العامة (المناطق الخضراء) التي ننشئها عن الحد المعقول .

ان المناطق التجارية والاسواق في المدينة القديمة لها طابعها الذي يتناسب مع طابع المناطق السكنية ، واذا اردنا الابقاء على هذا التوازن فاننا يجب ان نأخذه بعين الاعتبار . ان تحويل منطقة سكنية مجاورة للاسواق الى منطقة تجارية

قد تجعل حركة المرور مستحيلة ، وبالتالي تصبح شبكة الطرق المؤدية الى المدينة القديمة عديمة الجدوى .

* * *

تبلغ مساحة الكتلة السكنية الحالية في مدينة دمشق ، بما فيها الطرق والمساحات الخالية نحو ٢٠٠٠ هكتار ، وبذلك يكون متوسط الكثافة ٢٧٥ شخصاً في الهكتار . واذا افترضنا انشاء ابنية اكثر عدداً في طوابقها في المناطق الحديثة ، فان ذلك يتطلب ، كما اشرنا سابقاً ، زيادة العناية بحركة السير واماكن وقوف السيارات والخدمات العامة ، ولذلك يمكننا ان نتخذ من الرقم ٢٥٠ شخصاً في الهكتار اساساً مناسباً من اجل التوسع (١) .

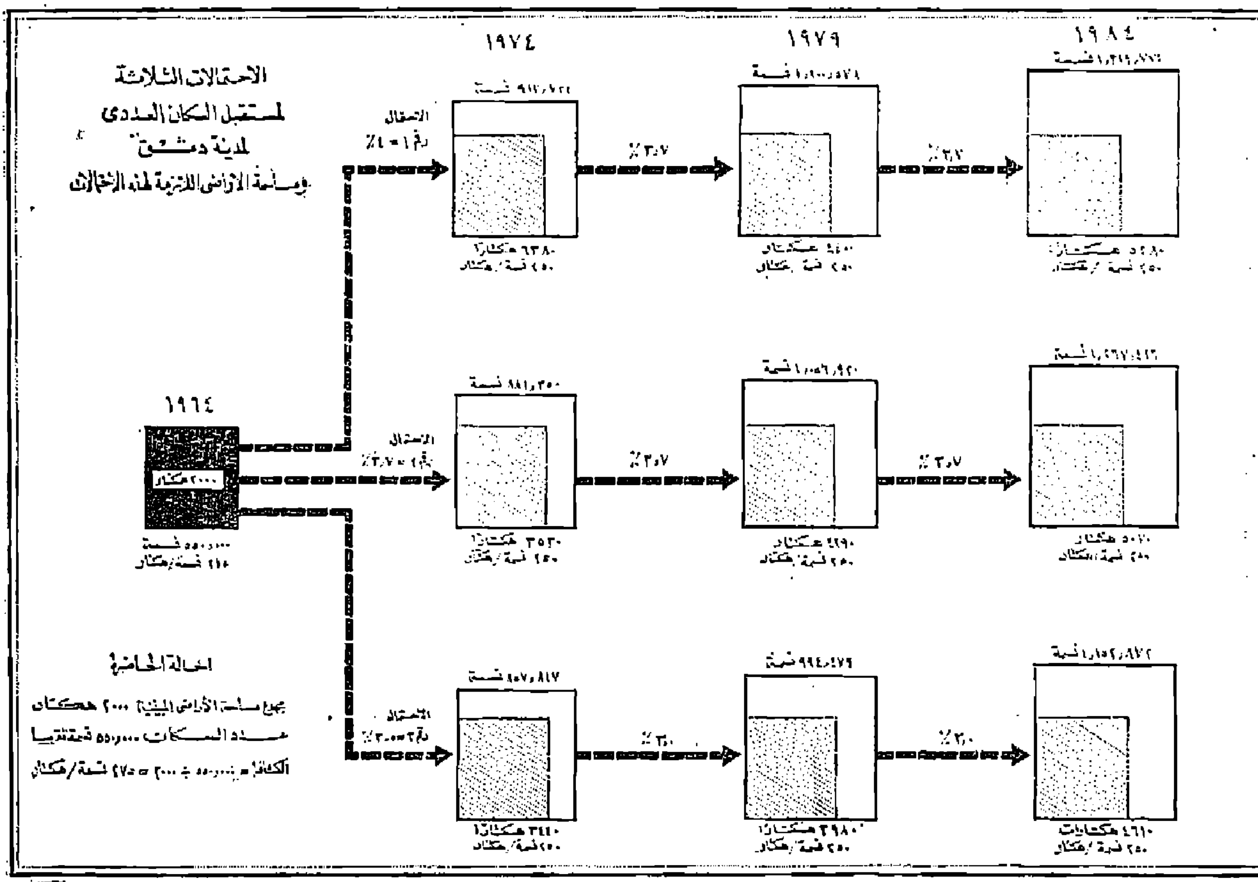
واذا طبقنا هذه الكثافة على تقديرات سكان دمشق ، خلال العشرين سنة القادمة ، فانه ينبغي علينا تأمين ٢٦١٠ هكتارات بالنسبة للتقدير الأدنى ، و ٣٢٨٠ هكتاراً بالنسبة للتقدير الأقصى ؛ وهذا يعني انه يجب علينا مضاعفة مساحة المدينة في التقدير الادنى على الاقل ومضاعفتها ثلاث مرات في التقدير الاقصى (شكل ٧٢) .

وبناء على هذه الدراسة السابقة ، نرى انه يجب على مخطّط المدينة ان يلائم بين المساحات الواجب توفيرها والشبكة العامة للمواصلات ، حتى يوفر لمدينة المستقبل جسما ينبض بالحياة ، ولذلك ينبغي ان تتلاءم هذه المساحات وهذه الشبكات مع الاتجاه العام لتخطيط المدينة .

واذا القينا نظرة على الخريطة التضاريسية العامة ، نلاحظ ان المدينة القديمة واقعة عند مخرج الوادي ، أي مخرج اقنية الري ، كما أن نمو المدينة لم يكن

(١) Ecochard , (1964) , Op . cit . , P. - 2 - I - 2 .

شكل (٧٢)



مركزيا ، انما كان بين المدينة القديمة والجبل ، واحيانا على الجبل نفسه ، وهناك حالة شاذة واحدة تبدو في النمو الخطي الذي حصل في الميدان ، فقد تطور هذا الحي من المدينة على طول الطريق الذاهب الى الحج .

ويرى السيد ايكوشار انه من اجل مقتضيات المدينة الضرورية وتطورها الملائم ، ينبغي ان تتابع دمشق غوها وهي متكئة دائما على الجبل ، كما يجب أن تستفيد من الغوطة الغنية والجميلة ، والتي تجلب بامتدادها ضمن المدينة الظل والرطوبة الضروريتين لتحسين مناخ دمشق خلال فصل الصيف المعروف بشدة جفافه وارتفاع حرارته (١) .

---

(١) Ibid., P. 2 - I - 10.

ان العوامل التاريخية او الطبيعية التي كانت سبباً في نشأة دمشق وغوطتها تجعلها في طليعة المدن التي تساعد على تطبيق اكثر المخططات ملاءمة من الناحية المدنية المعاصرة، رغم كونها اقدم عاصمة في العالم على قيد الحياة . ويشير الشكل (٧٣) الى المخطط العام للتوسع ، والذي يراعي امتداد المدينة وتداخلها ضمن منطقة الغوطة وبالعكس ، محاولاً الحد من التوسع على حساب الغوطتين الى الحد الادنى اللازم ، لربط مناطق التوسع الحالية بعضها ببعض ، ضمن حدود التخطيط المقترحة في المخطط العام .

أما الفكرة القائلة بتوسع المدينة في سهل الصحراء[1] ، فهي غير ملائمة لعدة أسباب ، أهمها أن الحي الصحراوي الذي يغطي مساحة ٨٣٠ هكتاراً سيكون عبارة عن مدينة صغيرة تابعة لدمشق ، تستوعب حوالي ٢٠٠ الف نسمة ، اذا كان متوسط الكثافة فيها ٢٥٠ شخصاً في الهكتار . وهذه المدينة التابعة ، ستكون قريبة وبعيدة في الوقت نفسه ، بعيدة جداً لانها تنفصل عن دمشق انفصالاً تاماً بجبل عنتر ، وبالتالي ينبغي عليها ان تحيا حياة مستقلة، وقريبة جداً ، اذ انه في حالة انشاء مدينة تابعة ، يجب انشاؤها في منطقة تبعد ٥٠ كم عن دمشق على الأقل ، وهذه المنطقة لا يتحقق فيها مثل هذا الشرط[2] .

واذا رجعنا الى الشكل (٧٤) ، نلاحظ انه من الممكن توفر المساحة اللازمة لتوسيع المدينة حسب التقدير الاقصى (٣٢٠٠ هكتار) دون أي تشويه للمدينة ، بل انه يؤدي الى تحسين طابعها ، وذلك بادخال الغوطة الخضراء ضمن المناطق الجديدة .

---

(١) يقع الى الشمال من الحرمون ، ويتألف من وهدة واسعة جرداء محجرة ، خالية من السكان والمياه ، ما عدا بعض الينابيع الهامشية التي تسمح بقيام تجمعات بشرية صغيرة .

(٢) Ecochard, (1964), Op. cit. ,p. 2 — I — 19 .

ومعظم المساحات التوسعية اللازمة تتوفر ، اما في مناطق تنظيمية لم تعمر بعد ، واما في مناطق توسعية تبدأ من ضاحيــة برزة حتى شرقي المزة في في الجنوب الغربي ، وهــذه التوسعات تساير منحدر الجبل ، لترتبط بين طرفي الطريق المحيطي الكبير الذي يلتف حول المدينة الحالية . ولا شك في ان تزويد هذه المناطق بما يلزمها من المرافق العامة ، وموقعها في نجوة من الرياح ، ورخص أثمانها ، اذا ماقورنت بالأراضي الموجودة في المدينة ذاتها ، من العوامل التي تساعد على اجتذاب العمران اليها بسرعة .

اما وجود المطار الحالي في منطقة المزة ، فانه يضع أمامنابعض الصعوبات إلا أنه في حال إنشاء المطار الجديد سوف يفقد مطار المزة أهميته كمطار مدني بعد ان يصبح مطاراً عسكرياً ، فهو يتصف ببعض المساوىء من حيث صلاحيتـه للملاحة الجوية من جهة ، ومن جهة أخرى يشكل منطقة ضجيج كبيرة بالنسبة الى المساكن القريبة منه ، بسبب الطائرات العسكرية التي تطير بسرعة تفوق سرعة الصوت .

ومن الصعب الآن التفكير بترك هذا المطار ، وذلك اذا أخذنا بعين بعين الاعتبار الأموال التي صرفت لبناء الرواق والمهابط .ويمكن من جهة اخرى، ان نؤكد بأن استخدام أرض المطار للبنــاء في المستقبل لن يؤدي الى تغطية تكاليف المطار فحسب ، إنما الى توفير مرابح كبيرة تسمح ببناء مطار عسكري حديث في منطقة الصحراء (١) .

مشاريع الاسكان :

تعتبر مشاريع الإسكان من أهم الأعمال التي تتطلب الحلول السريعة لتفريج أزمة السكن ، تلك الضائقة التي بدأت بوادرها مع نهاية الحرب العالمية الثانية ، واتخذت طابعاً حاداً شديد الخطورة على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية .

(١) Ibid., p .2 - I - 13 .

وقد كان إنشاء المساكن بعد الحرب العالمية الثانية سائراً بمعدل هائل، بسبب الزيادة الكبيرة في الدخل وانتعاش المنطقة ، واستمر تزايد المساكن نتيجة لتوفير الاحتياجات السكنية من أجل الازواج الحديثين الذين نبذوا الطريقة التقليدية للحياة مع آبائهم ، بالإضافة الى الأرباح الكبيرة التي تحققت لتجار البناء من أعمال البناء . وقد أنشيء أكثر هذه الوحدات السكنية من قبل القطاع الخاص حتى عام ١٩٥٣ ، حين بدأت الحكومة ببناء عدد محدود من الوحدات السكنية العامة .

إلا ان هذه الجهود الفردية التي نشطت لبناء العمارات السكنية في مختلف المناطق المنظمة بدمشق ، كانت ذات أثر محدود في تفريج أزمة السكن ، إذ ان غلاء الأرض وبالتالي ارتفاع أثمان الدور المبنية ومن ثم غلاء أجورها ، لم يسمح بالاستفادة منها إلا لطبقة محدودة من الشعب ، وهي الطبقة التي تساعدها إمكانياتها المادية على شراء هذه البيوت أو استئجارها بأسعار مرتفعة .

ومع ان معدل الدخل السنوي للأسرة الدمشقية هو أعلى من مثيله لدى العائلات السورية في المدن الأخرى ، فان حوالي ٦٥٪ من مجموع سكان دمشق لايتمكنون من امتلاك بيت بدون الاعتماد على أموال أخرى بالاضافه الى دخلهم المنتظم ، إذ ان تكلفة الايجار مرتفعة، تصل الى معدل يتراوح بين ٢٠ - ٣٠ ٪ من مجموع الدخل السنوي للعائلة (١) .

لقد بدأ السكن في دمشق بالبيت العربي القديم ، الذي يشكل وحدة سكنية مستقلة، تضم عائلة واحدة تتناهى غالباً في الكبر بحيث تضم الجد و الأبناء والأحفاد وذويهم وأزواجهم ، أي تضم الأصول والفروع كافة ، حيث يهيمن على المجتمع نظام السيطرة الأبوية ، فكانت المنازل تبعاً لهذا النظام كبيرة واسعة تتيح إيواء

---

(١) Zakaria , T . T . , A Housing program for Damascus , Syria , Michigan , 1963 , p . 91 - 92 .

عدد كبير من الأفراد . ثم بدأ التطور الاجتماعي ، وتحللت العائلة الكبيرة الى عدة عائلات صغيرة تنشد كل منها داراً مفردة تتمتع فيها بالاستقلال ، وكان من نتيجـــة ذلك « ضائقة السكن » التي أخلت بالتوازن بين عدد المساكن المتوفرة وبين عدد العائلات .

وفي مطلع الحرب العالمية الثانية ، بدأت الهجرة الواسعة الى دمشق ، وارتفع مستوى المعيشة ، فأدى ذلك الى إضافة عامل جديد على الضائقة المذكورة يزيد في تأزمها واستشرائها ، وأصبح من الصعب جداً تأمين السكن للجميع باسلوب البيت العربي القديم ، وكان لابد من إنشاء الأبنية السكنية الجماعية، والتي كانت في البداية تتألف من ثلاثة أو أربعة طوابق بما فيها القبو ، ويتألف كل طابق ، في غالب الأحوال ، من وحدة سكنية واحدة .

وكان التنظيم في السنوات السابقة ، يولي اهتمامه وعنايته بتأمين الأراضي اللازمة لمباني الطبقتين الغنية وفوق المتوسطة ، وكان هذا التنظيم يجري على حساب الأراضي المشجرة المستثمرة زراعياً ، وهي مرتفعة الثمن ، لأنها تقع في فجوات المدينة قريباً من العمران . واذا ماأضفنا الى غلاء الأراضي ، في الأصل ، طمع أصحابها في جني الأرباح الفاحشة من وراء تنظيم أراضيهم وبيعها ، فاننا نجد في النتيجة ان أسعار أراضي البناء وصلت في دمشق الى أرقام خيالية قلما نجد لها مثيلاً في بلدان العالم الأخرى .

ونتيجة لذلك ، كان الفقراء بحكم وضعهم المادي ، يلجأون الى البساتين المجاورة للمدينة والخاضعة للتنظيم ، ويشترون منها اجزاء صغيرة يشيدون عليها بيوتهم بشكل مخالف لأنظمة البناء ، وكانت الجهات المختصة ، رغم مكافحتها لتشييد هذه البيوت ، تجد نفسها نتيجة الأمر الواقع ، غير قادرة على إغفال احتياجاتها الصحية والعمرانية الضرورية ، فكانت تنشىء لها في كثير من الأحيان الأسيقة

والطرق وتمدها بالنور والمياه . وقد أدى هذا الوضع السيء الى نشوء مستعمرات كثيرة مبعثرة حول مدينة دمشق ، لاتتفق مبـــانيها وطرقاتها مع المقتضيات العمرانية والفنية ولا تتأمن فيها الشروط الصحية ، وتقف في النهاية حجر عثرة في وجه التنظيمات الجديدة .

ولا شك في أن العامل الرئيسي لهذه الأزمة هو غلاء المساكن ثمناً وإيجاراً ، وهذا يرجع الى ان عدد المساكن المبنية لايوازي الاحتياجات السكنية ، وان مابني عمليـــاً تكون تكاليفه مرتفعة بسبب غلاء الأرض التي تشيد عليها المساكن .

وتدل الإحصاءات الرسمية ان ١٠٤٨٦ وحدة سكنية ، بنيت في مدينة دمشق خلال الفترة مابـــين ١٩٥٦ - ١٩٦٠ ، أنشأت منها بلدية دمشق ٢٤٨٦ وحدة سكنية [1] ، أي ان المعدل السنوي خلال هذه السنوات الخمس كان حوالي ٢٢٥٠ وحدة سكنية أو مايعادل ٢ر٧٪ من العدد الإجمالي لعائلات دمشق ، بينما كان المعدل السنوي لتزايد السكان نحو ٣ر٧٪ ، وهذا يدل على قلة عدد الوحدات السكنية التي تشكل مشكلة خطيرة في المدينة بشكل مستمر .

وفي سنة ١٩٦١ كان عدد الوحدات السكنية الاجمالي ، المبني من القطاع العام والخاص هو ٢٣٥٨ ، في حين ان الحاجة كانت حوالي ٧٠٠٠ ، وكذلك الحال في سنة ١٩٦٢ ، فقد وُجد ان عدد الوحدات السكنية كان يقل نحو ٨٤٠٠ عن عدد العائلات ، مما يدل على وجود حاجة ماسة الى مساكن اضافية .

كل ذلك ، قد ادى الى ارتفاع معدل ثمن الوحدة السكنية الى ثلاثة او اربعة امثال ما كانت عليه منذ عشرين سنة مضت ، لان المستويات الاقتصادية لمعظم السكان لم تمكن من استملاك او استئجار بيت لائق ، وخاصة في الاماكن السكنية الحديثة .

---

(١) المجموعات الاحصائية للاعوام الواقعة مابين ١٩٥٦ - ١٩٦٠

ان اعمال القطاع العام والخاص في صناعة السكن قد جرت بمعدل ابطأ مما يجب ان يكون لكفاية احتياجات الحد الادنى ، وقد قدر الحد الادنى من الوحدات السكنية بحوالي ٧٨٠٠ وحدة سكنية تضاف سنويا من سنة ١٩٦٤ الى ١٩٧٥ ، وان تزال حوالي ١٤٤٠ وحدة سكنية مهدمة ومخربة خلال الفترة نفسها .[١]

وفي ضوء هذا الواقع ، فان الخطة الخمسية الثانية التي بدأ تنفيذها في اول عـــام ١٩٦٥ ، تكفلت بوضع حلول الازمة وطرق تنفيذها على النحو الاتي :

اولا ـ توجيه السكن الممتاز حتى لايستأثر بنسبة كبيرة من رؤوس الاموال الموظفة في عمليات الاسكان .

ثانيا ـ تنظيم قدر كاف من الاراضي بالسرعة الممكنة لابنية السكن الجديدة ، وطرحها للاستثمار باعداد كبيرة للحد من احتكارها

ثالثاً ـ تشجيع الجمعيات التعاونية السكنيةعن طريق اقراضها الأموال اللازمة ، وعن طريق تقديم المعونه الفنية لها .

رابعاً ـ تنظيم قدر كبير من الاراضي لبناء المساكن العادية والبسيطة عليها ، على اساس مراعاة عدمتكبير مساحات الاراضي ، والتقليل منالمساحات المخصصة للطرق دون الاخلال بالاسس التنظيمية والمتطلبات الصحية ، وإيجاد تصميات معمارية جديدة لهذه الأراضي،تأخذبعين الاعتبار الحد الأدنىالضروري لسكن العائلة بحسب افرادها .

وقد بادرت الدولة الى التفكير بحل الجزء الاكبر من المشكلة،عنطريق تأمين عدد كبير من المقاسم المعدة للبناء بالمساحات التي تكفل سكن الطبقات

---

(١) Zakaria , op. cit , p. 82 - 83 .

ذات الدخل الضعيف والمتوسط ، وبالاسعار التي تقع ضمن امكانياتها ، وخاصة امكانية الطبقة المتوسطة ذات الدخل المحدود. ولم يكن تأمين هذه المقاسم على حساب المناطق المشجرة في المدينة، نظراً لأن ذلك يتنافى مع السياسة الجديدة التي انتهجتها الوزارة بالابقاء على الغلالة الخضراء التي تحيط بمدينة دمشق ، إلا أن أسعار هذه الأراضي باهظة الثمن ولا تؤمن بالنتيجة خدمة الطبقات المحدودة الدخل خدمة فعالة مفيدة .

ان مدينة دمشق محاطة بمساحات واسعة جرداء لا تستغل زراعياً واثمانها رخيصة للغاية ، ويمكن تحقيق الأهداف المشار اليها آنفاً على حساب هذه الاراضي، وهي تقع في المزة وبرزة وفي سفح جبل قاسيون، ولذا بادرت الوزارة الى اصدار القرارات اللازمة لاستملاك أراضي برزة وأراضي جبل قاسيون لتحقيق الغايات الاسكانية عليها .

وقد سبق ان صدر في عام ١٩٥٣ مرسوم باستملاك أراضي المزة، لانشاء مساكن شعبية عليها، وتم بالفعل انشاء جزء من هذه المساكن ، يبلغ عددها ٤٤ وحدة سكنية . ولكن هذه الخطوة لم تكن من الاتساع بحيث تؤمن تفريج كل ضائقة السكن التي كانت ولا تزال تعانيها دمشق، فبادرت الوزارة الى ايقاظ هذا المشروع من جديد ، ودفعه خطوات جدية واسعة الى الامام ، ووجدت ان المساحة المستملكة لاتفي بكافة الأغراض الاسكانية لهذا المشروع ، فاصدرت قراراً بتوسيع رقعتها واستملاك أقصى حد من الأراضي اللازمة لها .

ان حل ازمة السكن بجملها لا يمكن الاقتصار بها على استملاك الاراضي الرخيصة وتقسيمها وبيعها للناس ، اذ ان هذه المقاسم لا يمكن الاستفادة منها مالم تؤمن مرافقها العامة، من طرق واسعة وحدائق و كهرباء وماء وابنية الخدمات العامة لها ، هذا بالاضافة الى أن الامكانيات المادية للطبقتين ذات الدخل الضعيف

والدخل المتوسط ، لاتساعدها على بناء المساكن على هذه الاراضي من قبلها ، لذلك يجب تنفيذ المرافق العامة لكل مشروع سكني تريد تحقيقه ، كما أنه يجب أن تساعد الطبقات الضعيفة الدخل باشادة المساكن الشعبية وبيعها لها بالتقسيط ، وهذا ما لجأت اليه الحكومة فعلاً ، وكانت اولى خطواتها تحقيق مشروع حي الميدان الجديد في الزاهرة .

مشروع الزاهرة في حي الميدان :

قام مشروع الزاهرة ، او الميدان الجديد ، في شرقي حي الميدان (الزفتية) وهو حي قديم تقطنه كثرة غالبة من الفقراء ومتوسطي الحال ، ولذلك فان هذا المشروع بحكم موقعه يحل قسماً كبيراً من المشكلة . وقد اعتمد بصورة رئيسية على استملاك مساحة من الاراضي الرخيصة الثمن ، التي نظمت تنظيماً فنياً يؤمن اكبر عدد من المقاسم الصغيرة التي تقع في متناول الفقراء والطبقة دون المتوسطة ، مع تأمين مرافقها الرئيسية من طرق وحدائق ومدارس ومساجد وغيرها .

وتبلغ مساحة الارض المستملكة نحو ١٣٠ ألف م٣ ، تشغل منها مقاسم البناء ٥٥ الف م٢ تقريبا ، أما المساحة الباقية ، فتخصص للمرافق العامة التي صممت في ابسط أشكالها وأكثرها اقتصاداً للتكاليف ، ويبلغ عدد الوحدات السكنية في هذا المشروع ٧٧٤ وحدة تضم نحو ٤٠٠٠ نسمة تقريباً ؛ وتتراوح مساحة كل من هذه المقاسم بين ٨١ – ١٢٥ م٢ ، ويشاد عليها مسكن يتألف من ثلاث الى خمس غرف .(١)

مشروع المساكن الشعبية في المزة :

تحظى منطقة المزة اليوم بعناية المسؤولين واهتمامهم ، وتتجه اليها انظارهم

---

(١) نذير بسمار – مشروع حي الميدان الجديد – منشورات مديرية مؤسسة الاسكان – ص ٥ .

آملين ان يحلوا مشكلة السكن المتزايدة على أرضها ، وكانت اول خطوة في هذا السبيل عندما ألحقت المنطقة بدمشق واصبحت كحي من أحيائهـــا وذلك عام ١٩٤٩، ثم اتبـع ذلك بوضع شارات الاستملاك على الاراضي المقترح تنظيمها منذ عام ١٩٥٣ .

يقوم مشروع المساكن الشعبية على ارض رملية قاحلة ، الى الجنوب من البلدة القديمة ، شرقي الطريق المتجهة الى القنيطرة ، وهو اول مشروع سكني يتحقق في سوريا . وقد وضع الحجر الأساسي في بنائه منذ شهر آب (اغسطس) ١٩٥٤، وقدمت مساكنه للمواطنين على دفعتين ، الأولى في أواخر عام ١٩٥٦ وعددها ٣٠٦ مساكن ، والثانية في أواخر عام ١٩٥٨ وعددها ١٠٨ مساكن ، حجزت لمن تهدم بيوتهم بسبب أعمال التنظيم في مدينة دمشق ، أما النصف الثـــاني من المشروع فقد وضع حجره الاساسي في تموز (يوليو) ١٩٥٩ .

وقد خصصت هذه المساكن لاصحاب الدخل المحدود من ابنـاء الشعب من موظفين وعمال ، وهي تتألف من عدة مجموعات تتحلق حول الحديقة والساحة العامة ، على شكل اطارين من الابنية ذات الاربع طوابق ، يطوقها اطار ثالث من الفيلات ، وتنفرج هذه الابنية عن حدائق ثانوية وفسحات واسعة . وقد نتج عن وجود هذه المنطقة السكنية المفاجىء ازمتين ما لبثتا أن زالتـا بفضل الجهود المبذولة ، وهما قضية التموين ومشكلة المواصلات .

مشروع دمشق الجديدة في المزة :

تقع دمشق الجديدة في الجنوب الغربي من مدينة دمشق ، وعلى جانبي طريق المطار . وتبلغ مساحتها حوالي ٣٤٧ هكتاراً ، موزعة الى مقاسم سكنية (١١٤ هكتاراً) وطرق وساحات (٥٤ هكتارا) وحدائق ومتنزهات (١٣ هكتاراً) واحراج تشغل الاراضي الوعرة والشديدة الانحدار (١١٦ هكتارا) .

وتتوزع ارض المدينة الجديدة الى مقاسم ، تختلف من حيث مساحتها ونظام البناء عليها ، بعضها على شكل عمارات ذات طوابق تتراوح بين ٤ و ١٤ طابقاً ، وبعضها الآخر من ذوات الاربعة طوابق ، مخصصة للسكن الشعبي الفقير ، ومنها ما كان على شكل فيلات . وهي تضم ١٦ مدرسة و ١٠ حدائق وملعب رياضي كبير ومستشفى حديث وخمسة جوامع وثمانية اسواق محلية ، عدا السوق المركزي الكبير الذي يقع في قلب المدينة الجديدة .

وقد تم حتى الان ، تخطيط الشوارع والساحات ، وتنظيم مدرجات الاحراج على المرتفعات ، وبني ٢٤٨ وحدة سكنية انجزت على دفعات ، كان آخرها في نهاية عام ١٩٦٣ ، بيعت للمواطنين بالتقسيط ، بشروط تتفق مع امكانياتهم المادية ، كما تم بناء سوق محلي لتغذيتها بالحاجيات الضرورية . اما المراحل الباقية ، فتشتمل على بقية المقاسم المخصصة السكنية من ذات الستة طوابق حتى الاربعة عشر طابقاً ، وعددها ١٣١ عمارة تستوعب ٤٤٧٥ وحدة سكنية(١) .

مشروع برزة :

عند مخرج نهر منين ، تشكل الرواسب النهرية مروحة فيضية ، تنحدر تدريجياً نحو الجنوب ، حتى قاعدتها التي يطوقها نهر يزيد . وقد كانت هذه المنطقة فيما مضى ، ارضاً زراعية مروية ، تحصل على حاجاتها من المياه من نهر منين ، ولاتزال المصاطب الحالية تشهد على عمليات الري السابقة .

ولكن سنوات الجفاف المتوالية التي شهدتها هذه المنطقة ، ادت الى تناقص تصريف المياه في نهر منين ، وبالتالي الى تحول معظم هذه المنطقة الخضراء فيما بين قرية برزة وحي الاكراد ، الى ارض قاحلة جرداء ، تتجه اليها الانظار كمنطقة للتوسع العمراني المنتظر .

---

(١) نذير بسار – مشروع دمشق الجديدة – منشورات مديرية مؤسسة الاسكان – ص ٥ و ٦ .

وقد اقترح المخطط التنظيمي لمدينة دمشق ، انشاء طريق جبلي كبير يخترق هذه المنطقة ويصل مابين المهاجرين والاكراد وضاحية برزة . ويبدو ان العوامل الباطنية (التكتونية) قد حددت بوضوح معالم هذا الطريق الجبلي ، وذلك عن طريق الكسر الكبير الذي يمتد من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ، عبر الاحياء السكنية التي قامت على طريق منطقة الكسر وفي داخلها ، مما ادى الى انهيار عدد كبير من المساكن فوق اصحابها ، ولاشك في ان انشاء هذا الطريق سوف يبعث الحياة والحركة في هذه الاعشاش السكنية الفقيرة ، ويضع حداً لامتداد العمران على هذه السفوح الجبلية الخطرة[1] .

والمشروع السكني في برزة ، شبيه بمشروع المزة في هدفه وتنظيمه . وقد كلفت « شركة اونباك » للتخطيط والتنظيم ، بدراسة هذه المنطقة لانشاء مساكن تستوعب مايقرب من ٣٠٠٠٠ نسمة ، انجز منها ١٢٧٢ مقسماً شعبياً ، ولايزال العمل جارياً لاستكمال المقاسم الاخرى .

تنظيم مداخل المدينة ومواصلاتها الرئيسية :

قبل ان نستعرض مداخل مدينة دمشق ونحاول دراسة تخطيطها ، يجمل بنا ان نشير الى خطوط المواصلات الرئيسية التي تربط دمشق ببقية انحاء القطر السوري والعالم الخارجي .

لقد تبين من دراسة العلاقات المكانية لمدينة دمشق ، أهمية الدور الذي تلعبه دمشق في المواصلات العالمية بين قارات العالم القديم ، كما دلت الدراسات السابقة ايضاً على اهمية دورها في المحاور التي اعدتها وزارة التخطيط على مستوى القطر السوري . ومن خلال هذه الشبكة الاقليمية والعالمية تظهر مدينة دمشق ، بصورة عامة ، كنقطة مرور كبيرة الاهمية يتقاطع فيها عدد كبير من الطرق المحلية ، وتنطلق منها الخطوط الدولية في اتجاهات مختلفة .

(١) Ecochard, (1966), Op. cit p. II - C - 21

فمن الناحية المحلية ، تقع مدينة دمشق على الخط الشمالي ـ الجنوبي ، الذي يربط حلب وحماه وحمص بجنوب سوريا « جبل العرب وحوران » ، ومن دمشق ايضاً ، تتجه الطرق نحو الغرب الى الحدود اللبنانية .

وهذه المجموعة من الطرق تندمج مع المحاور الدولية الهامة وهي :

بيروت ـ دمشق ـ بغداد عن طريق ابي الشامات .

وبيروت ـ دمشق ـ بغداد عن طريق درعا .

وهناك الخط الاوربي ــ الافريقي الكبير ،الذي يتصل بطريق حلب ــ حمص في الشمال ؛ ودمشق درعا في الجنوب ، وقد يصل الى الخليج العربي (الكويت) .

ولاشك في ان ايجاد الحلول المناسبة لمسألة المحاور الدولية ، تحل مسألة المواصلات الداخلية في منطقة دمشق بصورة آلية ، فمن دراسة المرتفعات المجاورة لمدينة دمشق ، نرى انه لايوجد اي عائق من اجل فتح طريق عريض (اوتوستراد) نحو الجنوب ؛ اما العقبات التي تعترض الطريق المتجه الى الشمال فهي ثانوية ، سوف تجعلنا نبتعد عن المرتفعات الاخيرة للسلسلة الشرقية .

ويظهر من الوهلة الاولى ، ان الصعوبات الكثيرة سوف تواجهنا في الغرب للوصول الى بيروت ، فمن الواضح ، ان الممر الضيق الحالي في وادي نهر بردى ، والذي يحتوي على مجرى النهر وفروعه الستة ، بالاضافة الى الخط الحديدي ، لايمكنه ان يتحمل توسيع طريق السيارات الذي يخترقه ، كما ان المنعطفات الكثيرة التي تتخلله تتنافى مع انظمة الطرق الدولية . وعلاوة على ذلك ، فان منطقة وادي بردى تشكل متنزهاً لسكان دمشق ، ومجاورة هذا الطريق الدولي لهذا المتنزه غير مناسب ، وهذا ماحدا بوزارة الشؤون البلدية والقروية ايجاد ممر آخر عبر الصحراء ، ينتهي الى دمشق عن طريق المزة .

ولا شك في ان هـذا الطريق سهل نسبياً من الديماس حتى الصحراء ، فاجتياز الصحراء لن يخلق أية متاعب ، واذا اعترضها بعض المشاكل الفنية في جبل عنتر ، فيمكن اجتيازه بانحدارات لاتتجاوز ٥٪ ، ومنعطفات تتراوح انصاف أقطارها بين ٦٠٠ - ٧٠٠ متر . وعند وصول هذا المحور الهام الشرقي - الغربي الى منطقة دمشق ، يمكن ان يمر بطريق المزة الجديد (الأوتوستراد) الذي يصل بين ميناء دمشق الجوي وساحة الأمويين [١] .

ومن الممكن ان يستمر هذا الطريق على طول الحدود الشرقية للمدينة ، عبر البساتين حتى يصل الى طريقي بغداد وحلب ، وعلى طول المسافة المشار اليها، يمكن ان يتفرع عنه عـــدد من الطرق التي تتدرج بدورها تحت الأنواع الثلاثة الآتية :

الطرق الدولية نحو درعا والقنيطرة .
والطرق الاقليمية نحو صيدنايا والغوطة .
والطرق المحلية نحو مداخل المدينة المختلفة .

ويظهر من الشكل (٧٣) ، الذي يبين هذه الطرق الرئيسية مع تفرعاتها، الطريق الذي يؤدي الى المطار الجديد في جنوبي شرقي دمشق . والواقـــع ان المطار في حضارتنا الحديثة ، هو المدخل الحقيقي للبلاد ، ولذلك ينبغي على الطريق الآتي من المطار ان يتصل بجميع طرق البلاد ، وبمختلف المناطق البعيدة عن المدينة ، كما انه ينبغي ألا يمثل هذا الطريق قيمة توزيعية فحسب ، انما يتطلب قيمة جمالية تسمح للقادم الى دمشق ان يأخذ فكرة صحيحة وجميلة عن اهمية العاصمة الشرقية حينما يحل .

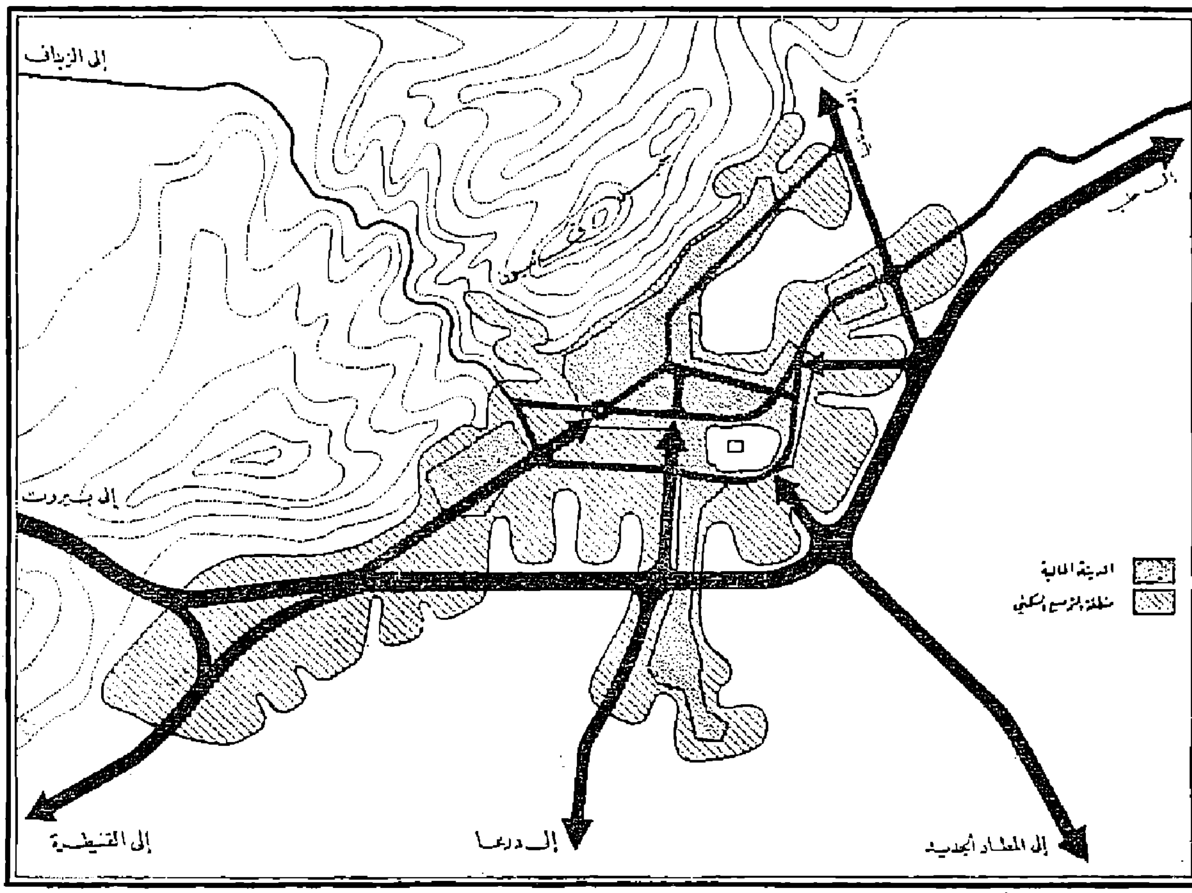
ولاشك في ان تقريب خط الاوتوستراد من المدينة ، يساعد على الوصول

---

(١) Ecochard, (1964) Op. cit. p. 2 - 1 — 4.

شكل (٧٣)

المداخل الرئيسية لمدينة دمشق (حسب مشروع ايكوشار)



الى مختلف انحائها ، كما يؤمن مواصلات مباشرة وسريعة بين احياء المدينة البعيدة عن بعضها . وهذا يتطلب عدم مرور الطريق في جنوب المدينة (في الميدان الفوقاني) ، انما في منتصف المسافة بين الميدان الفوقاني والميدان التحتاني ، في المكان الذي يخلو من الابنية الحديثة ، وحيث يكون حي الميدان في اضيق نقاطه .

* * *

ومن هذا العرض السريع لخطوط المواصلات ومشروعاتها المقترحة ، يتضح ان دمشق مازالت الحاضرة القوية النابضة بالحياة ، تطل على العالم الخارجي وتتصل

به بشبكة من الطرق تشع من جهاتها الاربع ، فتقرب بها البعيد وتنساب على صعيدها الحضارات وتتبادل بواسطتها الخيرات ، ويمكن ان نجمل مداخل مدينة دمشق فيمايلي :

المدخل الغربي - ان مدخل دمشق الغربي ،الذي يمتد على طول نهر بردى في الوادي المؤدي الى المدينة ، هو طريق خلاب للغاية ، تكتنفه النضارة والخضرة والهواء العليل وخرير المياه . وهذه المظاهر الطبيعية تزداد اهميتها لو امكن استكمالها بالاماكن الاثرية ، كالاضرحة التي ترافقها مطاحن ترجع الى القرن الرابع عشر ، وكالقصر الذي كان مقاما على ضفة بردى في ارض المرج ، والذي اختفى منذ عدة اجيال ، واماكن استقبال الحجاج الملحقة بالجوامع ، كتكية السلطان سليم والسليمانية .

ولما كانت الحكومة السورية وامانة العاصمة تقدران اهمية هذه المنطقة وقيمتها التي تتجاوز حدود سوريا كثيرا ، فقد قامتا منذ امد بعيد بتنظيم هذا الوادي الموصل الى العاصمة ، وذلك بازالة المراثب التي كانت تشوه منظر مدخل المدينة ، واقامة حدائق جميلة جدا على ضفتي الوادي ، وانشاء بعض المباني الهامة مثل ثانوية جودة الهاشمي ووزارة الدفاع ومتحف دمشق .

ويقول ايكوشار في معرض الحديث عن هذا المدخل « انه لا يعرف مدينة في العالم ذات مدخل بمثل هذا الجمال »[1] وهذا المحور الشرقي -الغربي الكبير المؤدي الى المدينة ،تصب فيه حركة السير القادمة من المزة عند ساحة الامويين ، ويشكل الجزء الواقع بين ساحة الامويين وساحة الشهداء منطقة التوزيع الرئيسية الى كافة أحياء المدينة ، لاسيما وان هذه المنطقة تمثل أكثر أنحاء المدينة قرباً من مركزها بالنسبة لجميع الاحياء (شكل ٧٣) .

---

(١) Ecochard , (1964) , Op. cit . , P. 2 - VI - 1.

ولا يخفى أن هذا الجزء من المدينة يمثل موطن الاستقبال في مدينة دمشق وهو يتألف من شارع شكري القوتلي ومركز المدينة الذي يضم شوارع ٢٩ أيار وبور سعيد وسعد الله الجابري والنصر ودار الحكومة وساحة الشهداء، حيث تنتشر الفنادق ومراكز الأعمال .

والواقع ، ان هذا القسم المذكور ، هو أقرب للمدينه القديمة منه للمدينة الجديدة المشيدة على سفوح قاسيون وروابي المزة ، وهذا الوضع سيمكن اذن من اقامة قلب للمدينة في هذه المنطقة ، حيث تستقر الادارات والابنية الرسمية، التي تمثلها الوزارات الموجودة في العاصمة حالياً .

ولا شك في أن مثل هذا التعديل ، يقتضي اعادة النظر بمنطقة المعرض الحالي ، الذي - على الرغم من حيويته التي تبلغ اقصاها خلال شهر من السنة ، وخلقه نشاطاً لامثيل له في هذه المنطقة كلها - يبقيها خلال احد عشر شهراً ، خالية خاوية على شكل ورشة تلد معرضاً كل عام ، كما هي حال المعارض وقت توقفها ، فهي مدينة خلقت سنة لتعيش شهراً .

ويمكن لهذه المنطقة ان تستوعب مجموعة من الوزارات تتخذ مكاتبها في الابنية المخصصة للجامعة حاليـاً ، والواقعة على المصطبة المشرفة على اجنحة المعرض الحالي ، مع ترك حدائق واسعة بين بردى وابنية الوزارات . وهذا الحل لن يكلف الدولة كثيراً ، لأن تكاليف انشاء الوزارات تغطيها نفقات أجور مبانيها المبعثرة في كافة انحاء المدينة خلال بضع سنوات ، كما اننا لن نخسر ، من جهة اخرى ، أياً من ابنية الجامعة عن طريق استخدامها على الشكل المبين .

وتبقى بعد ذلك مشكلة المعرض ؟

عندما انشىء المعرض كان في خارج المدينة ، وقد اسهم ايجاده في تشجيع انشاء شارع الجلاء (ابي رمانة) وسرعة اعماره ، وسوف يكون الوضع نفسه الآن ، فيما اذا نقل المعرض الى منطقة كيوان على امتداد ارضه الحالية ، حيث يساعد على انشاء حي جديد من شارع الجلاء .

ومن محاسن هذا الموقع ، انه لن يكون بعيداً عن زوار المعرض ، الذين سيجدونه في موضع محاذ للموضع الاول تماماً ، كما انه يمكن اخفاؤه بسهولة اكثر من جهة ثانية ، في منطقة خضراء طيلة مدة اغلاقه .

المدخل الشمالي :

وهو يؤمن اتصال المدينة بمعظم انحاء القطر السوري : حمص حيث تقوم مصفاة البترول ومصنع الاسمدة ، وحماه منطقة المشاريع والسدود ، وحلب مركز الصناعة وعاصمة الشمال ، واللاذقية ميناء سوريا ومنفذها الى البحر المتوسط ، والجزيرة منبع الثروة القومية ومشاريع الزراعة الواسعة وموطن سد الفرات المرتقب ، وكل هذه المناطق تتصل بدمشق العاصمة في نقطة واحدة هي مدخلها الشمالي .

ولعل ابرز المشاكل الرئيسية في هذا المدخل الهام هو المرور عبر المنطقة الصناعية الرئيسية للمدينة في منطقة القابون ، حيث يواجه حركة السير المحلي القائم في المنطقة الصناعية ، وهي على نوعين : سير الشاحنات التي تدخل المصانع وتخرج منها ، لنقل البضائع وسير العمال والموظفين الذين يخرجون من مصانعهم ويعودون اليها بالمئات سائرين على أقدامهم أو راكبين على دراجاتهم ، وهذه الانواع العديدة من السير انما تستخدم في الواقع طريقاً واحداً لايزيد عرضه على ٢٥ متراً ، وينشأ عن ذلك ارتباك في السير ، ويعرض سلامة الناس للخطر .

وعندما يصل المدخل الشمالي الى ساحة جسر تورا ، يرفده الطريق القادم من ناحيتي القابون وبرزة ، تضم الاولى اكبر المعسكرات الموجودة في ظاهر المدينة ، كما تشتمل الثانية على اكثر المقالع التي تمون المدينة بمعظم حاجتها من الحجارة والحصى والرمال التي تنقل الى المدينة باستمرار .

وبعد ساحة جسر تورا ، يدخل الى الشارع الوحيد المؤدي منها الى المدينة ، وقد اصبح هذا الشارع ، وعرضه خمسون متراً ، معداً للسكن ، الى ان يصل الى ساحة العباسيين . وهنا تجد السيارة امامها ثلاث طرق : شارع الكورنيش [1] وشارع حلب وشارع القصور ، وسواء اخذت السيارة هذا الطريق او ذاك ، فهي تمر في شوارع سكنية لاتصلح لأن تكون شريانات للسير ، وانما هي صالحة للارتباط الداخلي بين مختلف احياء المدينة ، اذ ان مرور السيارات القادمة من الخارج ضمن هذه المنطقة السكنية يعرض السير للارتباك والمنطقة للقلق والازعاج .

وقد توخى المخطط التنظيمي الجديد لمدينة دمشق ، ايجاد الحلول لمشكلة المرور في المدخل الشمالي ، عن طريق انشاء اتوستراد جديد يطوق المدينة من الشرق والجنوب ، يتصل بطريق حلب الكبير في شمال الغوطة ، ويتجه نحو الجنوب الغربي ماراً بالاطراف الشرقية لضاحية جوبر ، ثم يتقاطع مع طريق المطار الجديد عند نقطة تبعد نحو كيلو متر ونصف عن الباب الشرقي للمدينة القديمة ، وبعد ذلك يتجه الاتوستراد نحو الغرب ، قاطعاً حي الميدان في منتصفه تقريباً ، وموازيا شارع فلسطين الحالي حتى جنوب دمشق الجديدة في المزة ، حيث يلتقي هنالك بالاتوستراد القادم من بيروت المزمع انشاؤه في المخطط التنظيمي الجديد .

---

(١) عرضه ثلاثون متراً ، وهو لايحمل من هذه الصفة الا الاسم ، لانه اصبح شارعاً سكنياً وصناعياً .

ان وجود مثل هذا الاوتوستراد الجديد ، سوف يؤمن حركة الشاحنات التي تستهدف خارج المدينة (ترانزيت) ، دون الحاجة الى المرور بداخلها ؛ وعن هذا الاوتوستراد يتفرع نوعان من الطرق ، احدهما ينطلق بعيداً عن المدينة بواسطة طرق وطنية أو دولية ، واخرى تلج داخل المدينة بواسطة طرق محلية .

المدخل الجنوبي :

وهو صلة دمشق بمحافظتي درعا والسويداء ، ونقطة ارتباطها بالاردن الشقيق . يخترق هذا الطريق المنطقة الصناعية الجديدة في جنوبي القدم ، ثم ضاحية القدم ذاتها ، فالميدان الجديد مابين بستان الثريا ومستشفى المجتهد ؛ وعند ساحة المجتهد يتصل بالكورنيش الشرقي والكورنيش الغربي القديمين ، ويسلك الى قلب المدينة طريقاً متعرجة مليئة بمحلات تصليح السيارات ، حتى يصل الى شارع النصر بالقرب من مبنى الهاتف .

ان مشاكل هذا المدخل مماثلة الى حد بعيد لمشاكل المدخل الشمالي ، من حيث المرور ضمن المناطق الصناعية والسكنية ، وان مايزيد الموضوع تعقيداً وجود الخط الحديدي والمحطة الرئيسية للخط الحجازي في القدم ؛ ويترتب على هذا كله تعرض السكان لحوادث الدهس على طول الطريق في منطقتي الميدان وضاحية القدم ، وحركة المرور الشديدة في طريق زقاق الجن ، مابين ساحة المجتهد والاطفاء وشارع النصر ، والمشاكل التي يعانيها شارع النصر في الاصل ، باعتباره محطة نهائية مركزية كبرى لخطوط النقل الداخلي .

وقد وضع المخطط التنظيمي الجديد للمدينة ، حداً نهائياً لهذه المشكلة ايضاً ، عندما جعل من الاوتوستراد الجديد مصباً اماميا للمدينة ، يتلقى جميع القادمين من الجنوب ، ويتولى توزيعهم بحسب اتجاهاتهم ، سواء كان ذلك الى

داخل المدينة اوخارجها . فمن اراد الوصول الى داخل المدينة يمكنه ان يلجها عن طريق ساحة الجمارك ، ومنها الى ساحة الامويين ، ثم الى شارع شكري القوتلي مستقبلاً المدينة من افضل مداخلها ، ومجنباً السكان والسير مشاكل المرور ، كما يساعد المسافر للوصول مباشرة لهدفه في مركز المدينة .

وأخيراً ، تجدر الاشارة الى أن هذا الاوتوستراد المشار اليـــه ، يعتبر شطراً من الطريق الوطني والدولي ، الذي يخترق البلاد طولا ، لانه يصل المحافظات الشمالية والغربية بالعاصمـــة والمحافظات الجنوبية ، فضلا عن أنه طريق لما وراء حدود البلاد ، سواء من جهة الشمال أو من جهة الجنوب ، وقد سعى مخطط هذا الاوتوستراد إلى الاحتفاظ بخصائصه كطريق تمارس عليه سرعات تصل الى ١٢٠ كم / ساعة ؛ أما المدينة فقد ربطت به بواسطة شريانات ذات طابع نصف مدني ، تمارس عليها سرعات تصل الى ١٠٠ كم / ساعة ، وهي :

أولاً – طريق المطار الجديد ، الذي يتصل بالاوتوستراد المذكور في نقطة تقع خارج أراضي مدينة دمشق .

ثانياً – طريق الجنوب ، الذي وضع مخططـــه الى الغرب من طريق الكسوة الحالي .

ثالثاً – طريق الاوتوستراد الغربي ، الذي اقترح بديلا عن طريق الوادي السياحي لنهر بردى ، والذي يتصل بالاوتوستراد المذكور سابقاً في نقطة تقع شمالي المعضمية خارج حدود المدينة .

ان حركة النقل في داخل مدينة دمشق أضحت شديدة جداً ، وهذا لا يرجع الى تركز معظم الأجهزة السياسية والادارية والاقتصادية والثقافية في المدينـة كعاصمة للبلاد فحسب ، انما يتعلق بالتضخم السكاني الكبير الذي اوشك أن يجعل

عدد سكان المدينة نحو ثلاثة أرباع المليون نسمة ، أو ما يعادل سبع سكان القطر السوري ، الامر الذي يتطلب عزل حركة النقل الخارجي والدولي عن حركة النقل المحلي في المدينة ، والتخفيف الى أقصى حد ، من اختراق أحياء المدينة السكنية والتجارية المكتظة بالناس ، وذلك عن طريق الاوتوستراد المذكور .

ولا شك في أن عدد الحوادث اليومية التي تسجلها شرطة السير ، تدل على مدى خطورة هذه المشكلة ، وتهيب بالاسراع في تنفيذ هذا الاوتوستراد الحيوي الكبير ، لتوفير الوقت وتخفيض النفقات ، وتخفيف حوادث السير الناتجة عن حركة النقل بين لبنان والاردن عبر دمشق ، بالاضافة الى حركة النقل العسكري.

تجميع وزارات الدولة ومؤسساتها :

يرجع الشعور بالحاجة الى إعادة تنظيم وزارات الدولة وتجميع اداراتها المختلفة ، حسب أهميتها ووظيفتها ، الى زمن بعيد ، سواء كان من قبل الحكومة أو الشعب .

ولا شك في أن فكرة تجميع المباني الحكومية ، هي أفضل طريقة لتسهيل العمل الوظيفي للادارات الحكومية المختلفة ، وخاصة بالنسبة الى زبائنها، مما يساعد على حفظ الوقت وتوفير الجهد وتقليل النفقات .

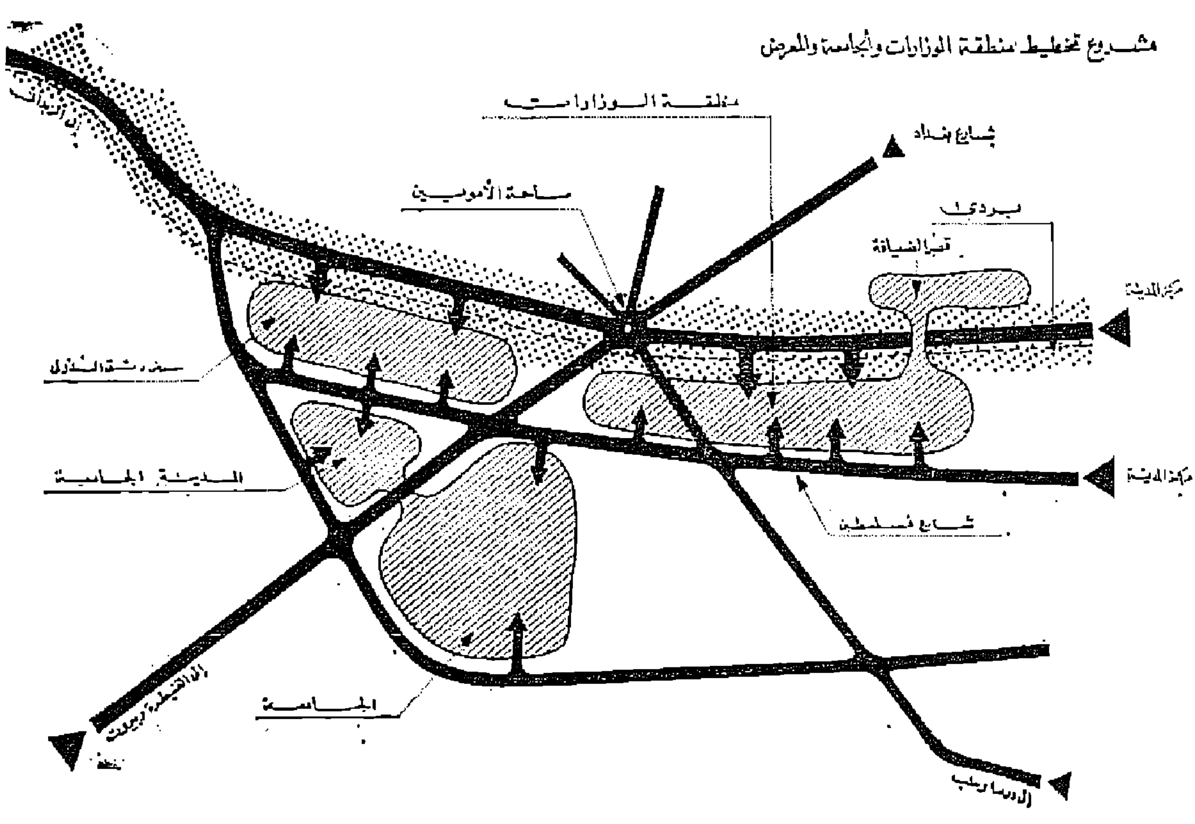
يبلغ عدد المباني الحكومية والمؤسسات العامة الموجودة حالياً في مدينة دمشق ٧٩ مبنى ، باستثناء مراكز الشرطة والمراكز العسكرية . واذا صرفنا النظر عن بعض المباني الحكومية الحديثة ، كوزارة المالية والمصرف المركزي ووزارة العدل ووزارة الدفاع، فان القسم الاكبر من هذه المباني مبعثر في جميع انحاء المدينة ، يكون حيثما تتوفر الابنية المناسبة والايجارات المقبولة .

ومنذ خمسة عشر عاماً تقريباً ، بدأ الحديث عن ضرورة تمركز هذه الوظيفة في وسط المدينة ، كساحة الشهداء أو بالقرب منها ، الا ان عدم كفاية

الأرض وطابع التزاحم في هذه المنطقة ، قد دفع معظم المباني الحكومية الجديدة للبحث عن مواضع ملائمة في اجزاء اخرى من المدينة ، دون أية خطة مرسومة ، تنظر الى وظائف الوزارات المختلفة بعين الاعتبار ، وعلاقات كل منها بالاخرى ، وكذلك علاقاتهـــا مع الناس ؛ وكانت النتيجة وجود نمط عشوائي تتعقد فعاليته باستمرار .

وهذا الوضع لايأتلف مطلقاً مع المتطلبات اللازمـــة لحسن سير أعمال الوزارات ، عدا ما يسببه ذلك من ضياع الكثير من الوقت في الاتصالات اليومية ضمن الوزارات نفسها ، ومع غيرها من الوزارات ، ولا ننسى كذلك النفقات الباهظة التي تتكبدها الدولة في دفع اجور المباني المذكورة . ومن البديهي أن لاتتوفر الصفة التمثيلية اللازمة في معظم هذه المباني ، ولا تتوفر فيها اماكن الوقوف والمرائب الضرورية .

شكل (٧٤)



وقد اقترح ايكوشار[1] ان تكون أرض المعرض ، معرض دمشق الدولي ، منطقة الوزارات المقبلة ، في المخطط التنظيمي الجديد لمدينة دمشق ، كما هو واضح في الشكل (٧٤) ، حيث يطل على نهر بردى والشارع الممتد من ساحة الأمويين حتى وسط المدينة ،واذا أضفنا اليه الحديقة العامة والمنطقة الخضراء الممتدة على طول بردى ، يمكن ، عندئذ ، لهـــذه الوزارات أن تشكل منظراً فريداً من نوعه في دمشق ، وربما في سورية كلها .

ويمكن تنظيم الاتصال بين هذه المنطقة ومجموعة المباني ذات الصفة التمثيلية ، التي تضم قصر الضيافة ووزارة الخارجية ، الواقعة على الضفة الاخرى من النهر ، بالاضافة الى بقية الوزارات المزمع انشاؤها . ويمكن لهذه المنطقة ان تنفتح على شارع فلسطين بواسطة عدة منافذ ، وذلك بعد أن ينال الشارع المذكور قسطاً اكبر من التنظيم ، اذ انه سيصبح – كما يلاحظ من تخطيط شبكة الطرق المقبلة في دمشق – احد الشوارع الهامة في هذه الشبكة ، حيث يمكن الوصول منه الى أي جزء من أجزاء المدينة أو شوارعها الرئيسية .

* * *

أما معرض دمشق الدولي ، فسوف يحتل منطقة البساتين الواقعة الى الغرب من الطريق الواصلة بين ساحة الأمويين وشارع فلسطين ، على الجانب الايمن من نهر بردى ، ويمكن اعطاء هـــذا المعرض الميزات التي ستنالها منطقة الوزارات نفسها ، وذلك بتأمين منفذين له ، أحدهما على طريق بيروت والآخر على شارع فلسطين .

---

(١) Ecochard, (1964) , Op. cit. , 2 – VI – 2 .

وبفضل هذه الشبكة الواسعة من الطرق وامكانية التوسع الكبيرة ، يمكن لمعرض دمشق الدولي أن يوسع أعماله الى الحد الأقصى خلال فترة نشاطه ، كما أنه ، عند اللزوم ، يمكن استعمال قسم من ساحة وقوف السيارات الخاصة في منطقة الوزارات ، من أجل المعرض خلال ساعات فراغها .

وقد اعدت المديرية العامة للمعرض مشروعاً جديداً يجري تنفيذه خلال أربع سنوات ، يهدف الى توسيع مدينة المعرض باضافة مساحة قدرها ٣٥ الف م٢ ، وذلك تلبية لحاجة الدول والشركات الى مزيد من المساحات اللازمة لاجنحتها ، كما تساعد على توسيع الحدائق والطرقات ، هذا بالاضافة الى اقامة مدخل رئيسي ضخم من الناحية الشمالية للمعرض[١] .

محطة الحجاز والخطوط الحديدية :

تلعب محطة الخط الحديدي دائماً دوراً مهماً في المكان الذي تنشأ فيه ، سواء في وضعه الطبوغرافي او في حركة السير ، فقرب المحطة تُبنى الفنادق وتقوم المخازن الكبيرة ، وهي تبعث على نشوء شارع يتجه نحوها هو شارع محطة الحجاز في دمشق ، الذي يعتبر من انشط شوارع المدينة ، وينتج عن ذلك ان وجود المحطة في قلب المدينة ، وما ينشأ عنها من حركة اضافية غير الحركة الاصلية ، يشكل مضايقة شديدة للسير ، لا سيما وان معظم الركاب الذين يحلّون في هذه المحطات من سكان الضواحي ، الذين يأتون الى مراكز اعمالهم كل يوم .

ويبدو ، غير منطقي ، ان يكون هذا المكان من المدينة موضع استقبال الركاب وتفرقهم في مختلف انحاء المدينة ، ومن الافضل أن يتم هذا التوزع والتفرق في اطراف المدينة نفسها بواسطة السيارات ؛ كما ان مرور القطار في المدينة يخلق

---

(١) يجري تنفيذ هذا المشروع بالتعاون مع الخبير العالمي في شؤون المعارض الدكتور « ارنست دوهنر » .

متاعب كثيرة للمدينة ، سواء في تعقيد المواصلات او في الضجيج والدخان الذي يزعج السكان .

ويلاحظ ان الخط الحديدي الحجازي يتقاطع في الوقت الحاضر ، مع الطرق الموجودة مراراً ، حتى في وسط المدينة . ولا شك في ان نقل محطة الحجاز الحالية يمكّن من اقامة شبكة خطوط حديدية جـــديدة لا تتقاطع مع الطرق العامة ، لاسيما وان محطة الحجاز الحالية لا يتوفر فيها مكان كاف لوقوف السيارات الصغيرة والكبيرة ، فنقل المحطة يؤمن تحسناً عظيماً ، سواء كان من ناحيـــة المواصلات ، او من ناحية تنظيم الحج .

فمن ناحية المواصلات ، يسمح بمـــد المحور الشمالي – الجنوبي الكبير ، الذي يصل بين ساحة ٢٩ ايار ومحطة الحجاز ، ومروره مكان المحطة الحالية . ولا شك في ان تحقيق مشروع خط حمص-دمشق،وربطه بالخط الحديدي الحجازي، سيؤمن حركة الحجاج الوافدين من تركيا والعراق وايران الى المدينة المنورة عبر دمشق ، كما يمكّن مجيء الحجاج من شمال افريقيـــا عن طريق ميناء بيروت واللاذقية ، لركوب القطار من مدينة دمشق ؛ وسوف يترتب على هذا كله تغيير التكوين العام للخط الحديدي وتجهيزه تجهيزاً جيداً .

أما من ناحية الحجاج الذين سيفدون باعداد كبيرة ، فلم تعد هذه المحطة تتناسب مع امكانيات الاستقبال والاقامة اللازمتين لجماهير المسلمين الذين يسارعون اليها في اوقات الحج . وقد اقترح المخطط التنظيمي الجديد المنطقة الواقعة ما بين الشارع المحيطي الحالي وبين الاوتوستراد المقترح لانشاء المحطة الجديدة ، بسبب توفر الامكانيات اللازمة لاقامة مجموعة ابنية كافية لاستقبال الحجيج من محطـة وفنادق وجوامع وغيرها (١) .

---

(١) Ecochard , (1964) , op. cit .1 - VI - 1 .

مطار دمشق :

ان التطورات الواسعة التي مر بها النقل الجوي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، قد غيرت من وسائل النقل الدولية بكاملها ، وقـــد صار الآن لأغلب عواصم العالم، مهما اختلفت اهمية بلادها، مطاراً أو اكثر لاستقبال اكبر طائرات النقل والركاب .

واصبحت مطارات العواصم الأبواب الرئيسية لدخول البلاد ، كما احتلت دوراً هاماً في النشاط الاقتصادي والصناعي فيها ، عن طريق تشغيل آلاف العمال والمهندسين وسائر الخدمات الاخرى التي تتفرع عنها، كالفنادق والمصارف والمطاعم والمخازن وسيارات النقل والركاب وغير ذلك ، مما ادى الى تزايد عدد شركات الطيران الوطنية والاجنبية وتنافسها بكافة وسائل الدعاية لتقـــدم جميع انواع التسهيلات الممكنة .

ومن الواضح ان مطار المزة الحالي بعيد عن التيار العالمي في الوقت الحاضر ، كما أن حركة الطيران فيه تميل نحو الهبوط ، ولا شك في أن ذلك يرجع الى عدم وجود مطار حديث تتحقق فيه الشروط الدولية ،سواء كان ذلك من حيث طول المهبط او من حيث التجهيزات الوقائية ؛ هذا بالاضافة الى وجود مطار حديث ، يقع على مسافة ١٢٠ كيلو متراً من دمشق ، وهو مطار بيروت الدولي ، الذي لا يمثل ممراً بين القارة الاوربية والاسيوية فحسب ، انما يمثل احد المراكز الهامة للشبكة الجوية في الشرق الاوسط ايضاً. واذا ذكرنا بعد ذلك، مركز لبنان بالنسبة للبلاد العربية والاوربية كبلد متقدم من الناحية التجارية ، علاوة على اهميته في السياحة والاصطياف ، ندرك الاسباب التي جعلت من مطار بيروت الدولي قطب الجاذبية الرئيسي لشركات الطيران الدولية والمحلية .

ومن مقارنة حركة الطيران بين مطاري بيروت ودمشق ، يتبين لنا الفرق الكبير بينهما ، وتدهور حركة الطيران في مطار دمشق بشكل

واضح . وبعد ان كانت دمشق مركز التموين والتزويد بالوقود بالنسبة لجميع الطائرات من الشرق الى الغرب وبالعكس ، ومركز الاشراف الفني على جميع اجزاء الطائرة ، اصبحت بيروت تحتل هذا المركز بسبب مطارها الكبير وتمركز الشركات الكبرى والمصالح الاجنبية فيها .

وبالاستناد الى النشرات التي تصدرها منظمة الطيران العالمية عن حركة المطارات عام ١٩٦١ في انحاء العالم، أجري الوسط الحسابي (بطريقة الانحرافات المختصرة) لـ ٩٩ مطاراً [١] ، فتبين انه يجب ان تهبط في المطار او تقلع منه ٢٠٨٠٠ طائرة في السنة ليكون المطار في مرتبة الوسط، وقد بلغت حركة مطار دمشق حسب احصائيات المديرية العامة للطيران المدني للعام نفسه ١٠٤٠٠ طائرة أي ان ترتيب المطار هو $\frac{٦٦}{٩٩}$ بين المطارات ، وان حركته اقل من المعدل الوسطي بمعدل ٥٠ ٪ [٢] .

ويمكن ان نرجع أسباب انخفاض الحركة الجوية في مطار دمشق الى العوامل الآتية :

أولاً : عدم صلاحية المطار الحالي لاستقبال الطائرات الحديثة ، بسبب ضعف تحمله للضغط أثناء الهبوط ،وعدم كفاية طول مهبطه اثناء الهبوط والاقلاع، وصعوبة اطالة مهبطه بسبب قربه من الجبال والمراكز العمرانية . وقد أوقفت ست شركات عالمية نشاطها في دمشق فعلاً ، بسبب عدم وجود مهبط صالح لاستقبال الطائرات النفاثة العابرة للقارات .

---

(١) محمد وحيد مسعود – مستقبل الطيران المدني في الجمهورية العربية السورية – بحث غير منشور (١٩٦٤) - ص ٦ و ٧ .

(٢) مع استبعاد مطارات الاتحاد السوفييتي والصين الشعبية وخمسة مطارات اخرى كبيرة .

ثانياً : اختلاط الحركة العسكرية والمدنيـة معاً في بعض الأحيان ، مما يعرقل حركة الطائرات المدنيـــة بسبب أفضليـة التحركات العسكرية في الهبوط والاقلاع .

ثالثاً : وجود الجبال على مقربة من المطار ، مما يعرقل حركة الطيران ويعيق ضابط برج المراقبة من استعمال كافة الجهات المحيطة بالمطار لتسهيل حركة الطيران وتأمين سلامته .

رابعاً : عدم تشجيـع التجارة الخارجية عن طريق النقل الجوي .

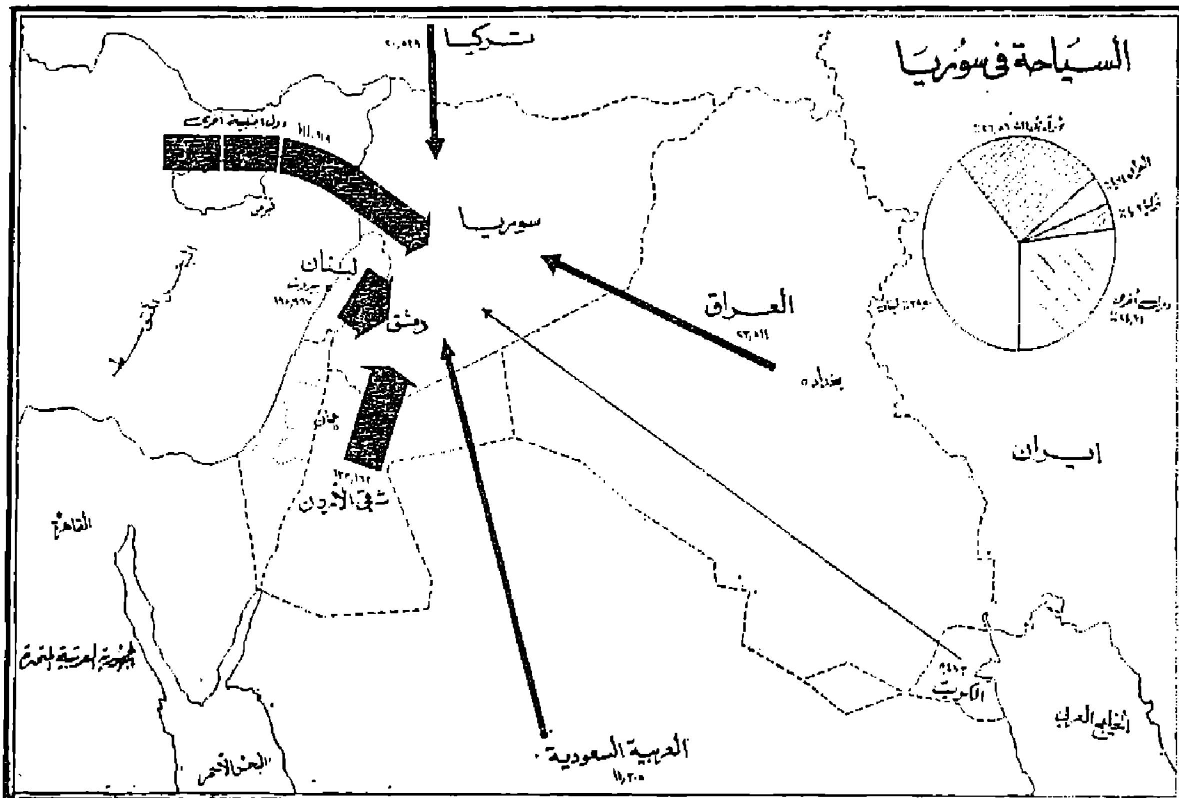
خامساً : فقدان التسهيلات في مواسم السياحة والاصطياف .

هذا بالاضافة الى ان معظم الطائرات أصبحت تحمل كميات كبيرة من الوقود ، تكفيها لقطع مسافات طويلة دون توقف ، بسبب وفرة الوقود الذي تحمله ، وشدة سرعتها التي كادت ان تخترق حجاب الصوت .

ويلاحظ ان نصف السوريين الذين يسافرون الى البـــلاد الأجنبية بالطائرات ، يذهبون أولاً الى بيروت بواسطة السيارات ، ثم يسافرون عن طريق مطار بيروت الدولي ؛ كما تدل احصائيات مديرية السياحة ان ٩٤٪ من السياح الأجانب غير العرب، يصلون من لبنان والاردن عن طريق البر غالباً ، وكذلك سياح البلاد العربية باستثناء لبنان (شكل ٧٥) .

ولا شك في ان انشاء مطار دمشق الدولي الجديد ، الذي يقع على بعد ١٦ كيلو متراً تقريباً الى الشرق من مدينـة دمشق ، سوف يشجع شركات الطيران الأجنبية على العودة الى دمشق ، لاتخاذها احدى قواعد الهبوط الهامة في الشرق الأوسط ، كما انه سوف يمكّن الحكومة السورية في المستقبل من اجبار شركات الطيران العالمية على هبوط قسم من طائراتها في دمشق ، يتناسب مع عدد الطائرات التي تحلق فوق الأراضي السورية ، مما يؤدي الى توفير حركة واسعة

شكل (٧٥)



عن المجموعة الاحصائية السورية لعام ١٩٦٢

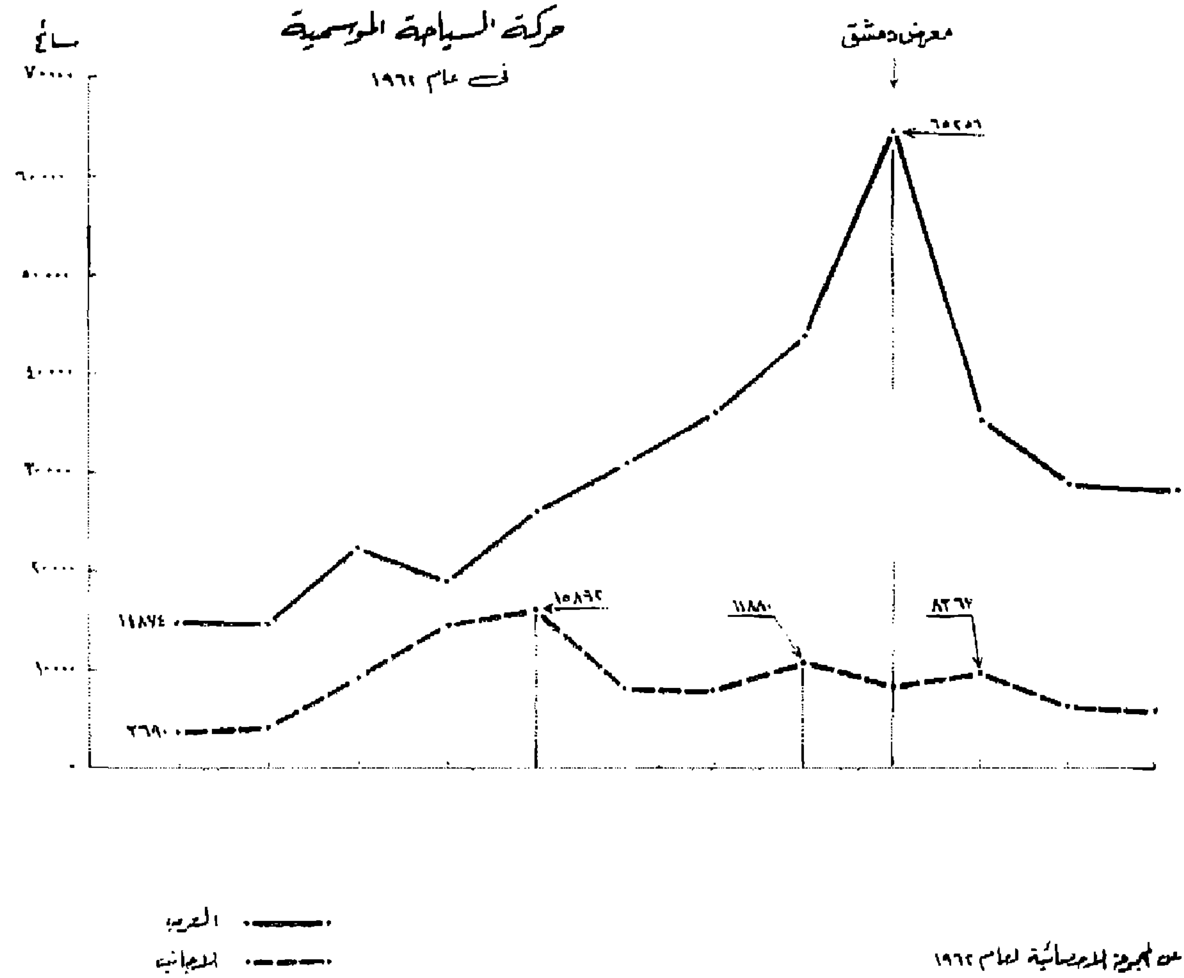
لمطار دمشق الجديد ، وتوجيه قسم من الوافدين الى سوريا بطريق الجو الى مطار دمشق .

وتجدر الاشارة الى ان هناك امكانية اخرى لقيام المطار الجديد في سهل الصحراء يمكن طرحها يوما ما ، فاذا أثبتت الدراسة التفصيلية للأحوال الجوية ملاءمة هذه المنطقة ، وان المرتفعات المحيطة بها لاتمنع من إشادة مثل هذا المطار الدولي الكبير ، فان ذلك الاتجاه يحفظ منطقة يمكن ارواؤها واستغلالها ،وذلك في حال أية توسعات جديدة في المستقبل ، كما يمكن أن توفر في الوقت نفسه نحو ١٦ كيلو متراً من الطريق الواسعة اللازمة لربط المطار الجديد بدمشق ، اذ أن الاوتوستراد المقرر انشاؤه بين دمشق وبيروت يمر بالقرب من مطار الصحراء .

أما حركة النقل المحلية ، فهي على خلاف ذلك ، فقد اخذت في التوسع ، اذ ان طول المسافة بين أجزاء البلاد المختلفة ، ولا سيما المسافة بين دمشق وحلب أو دمشق ودير الزور (المركز المقبل لمشروع الفرات) ، يسوّغ وجود حركة نقل محلية واسعة .

ومن دراسة الحركة الموسمية للركاب لعام ١٩٦٣ ، يتضح وجود قمتين في المنحنى البياني ، تقع الاولى في الشهر الخامس بسبب موسم الاصطياف ، وتقع الثانية في الشهر التاسع بسبب موسم معرض دمشق الدولي ، كما هو واضح في الجدول (٦٩) والشكل (٧٦) .

شكل (٧٦)



جدول (٦٩)

الحركة الموسمية للركاب المسافرين والقادمين الى مطار دمشق عام ١٩٦٣ (١)

الشهر	كانون الثاني	شباط	آذار	نيسان	مايس	حزيران	تموز
عدد الركاب	٦٤٥٣	٥٣٥٤	٥٩٦٢	١٢٤١٠	١٣٤٦٣	٩٩١٧	١٠٤٢٨
٪	٥،٥	٤،٦	٥،١	١٠،٦	١١،٥	٨،٥	٨،٩

الشهر	آب	ايلول	تشرين الاول	تشرين الثاني	كانون الاول	المجموع
عدد الركاب	١٠٣٢٧	٣٣٨٧	١٠٩٦١	٧٨٠١	١٠٦٣٧	١١٧١٠٠
٪	٨،٨	١١،٤	٩،٣	٦،٧	٩،١	١٠٠

والخلاصة ، ان سوريا من اغنى البلاد بآثارها التي تجتذب الكثير من السياح ، كما ان النشاط الاقتصادي لدولة يزيد عدد سكانها على الخمسة ملايين ، ومساحتها تربو على ١٨٥ الف كم٢ ، هي عوامل رئيسية في تبرير ايجاد مطار دولي ، يستقبل قسما كبيرا من السوريين والاجانب ؛ الا ان انشاء هذا المطار الدولي لن يكون الا احد العوامل الضرورية لتنشيط حركة المسافرين ، فلا بد من تنظيم الاتصال بين المطار والمدينة ، وكذلك مع بقية المدن الاخرى ، دون أن نغفل التنظيمات السياحية المختلفة ، وفي طليعتها الفنادق ، التي لا تهتم بالطبقة الميسورة فحسب ، انما تعنى بالطبقة المتوسطة ، التي تشكل اغلبية السياح .

جامعة دمشق :

تعتبر جامعة دمشق العمود الفقري في النشاط العلمي والفكري في القطر السوري ، بل ان نشاطها يمتد الى الاقطار العربية المجاورة . ويرجع تاريخ هذه

---

(١) المجموعة الاحصائية لعام ١٩٦٣ - ص ٢٣٣ .

الجامعة الى مطلع القرن العشرين ، ففي عام ١٩٠٣ انشيء معهد للطب في دمشق، ثم انشيء معهد للحقوق بعد نقله من بيروت عام ١٩١٤ ، واعيد تشكيل الجامعة بعد توقف يسير في آخر الحرب العالمية الاولى .

وفي عهد الاستقلال ، حققت الجامعة منذ عام ١٩٤٥ توسعاً مطرداً ونمواً واضحاً في فترة قصيرة ، فاستكملت كلياتها وزاد عدد طلابها ، ففي عام ١٩٤٦ احدثت كلية الهندسة في حلب ، كما انشئت في دمشق كليتا الآداب والعلوم والمعهد العالي للمعلمين (كلية التربية) ، ثم احدثت كلية الشريعة عام ١٩٥٤ ومعهد العلوم التجارية عام ١٩٥٦ ملحقاً بكلية الحقوق . ثم ظهرت عام ١٩٥٨ جامعة ثانية في البلاد هي جامعة حلب ، وجعلت نواتها كلية الهندسة مع انشاء كلية الحقوق .

وقد تطورت جامعة دمشق تطوراً سريعاً ، ولذلك فقد شغلت منشآتها القديمة جميع الاراضي التي وضعت تحت تصرفها دون مخطط تنظيمي سابق ، وكانت النتيجة ان اصبحنا امام تجمعات لا تتفق مع اي تنظيم معقول ، فلم تترك مجالاً لتوسعها ، أو لإقامة مراكز ابحاث علمية لا يمكن تجاهلها ، لأنها تشكل جزءاً لا يتجزأ من الجامعة .

وتشتمل جامعة دمشق حالياً على احدى عشرة كلية ومعهداً ، تتوزع اقسامها على النحو الآتي :

أولاً - أراضي ثكنة الحميدية القديمة : وهي تضم كليات الحقوق والآداب والعلوم والشريعة والتجارة والهندسة والتربية والصيدلة .

ثانياً - أراضي المستشفى : وهي تضم كلية الطب ودار التوليد وطب الأسنان .

ثالثاً – مناطق متفرقة في المدينة وغوطتها : وهي تضم كلية الفنون الجميلة وكلية الزراعة .

ومن الطبيعي ، ان تسعى الجامعة الى جمع الكليات والمعاهد العليا في مكان واحد ، وان تؤخذ صلات الكليات المختلفة بعضها بعين الاعتبار ، وخاصة في المباني الجديدة . ومن المنطقي طبعاً ان تجمع كلية الطب والاقسام التابعة لها مع المستشفى التطبيقي في منطقة واحدة ، وتكون كلية الهندسة وكلية التجارة بالقرب من كلية العلوم ، كما تتقارب كلية الحقوق والآداب من كلية الشريعة .

وهذا البرنامج يتطلب أرضاً خالية قرب دمشق ، تتراوح مساحتها بين ١٠٠ – ١٥٠ هكتاراً ؛ ولكن ذلك يبدو مستحيلاً إلا إذا قبلنا إبعاد الجامعة الى خارج المدينة بحوالي ٢٠ كيلو متراً . ولا شك في ان هـــذا الحل له بعض الحسنات ، إلا انه يبعد عن الجامعة بعض الطلاب الفقراء ، كما يؤدي الى إخلاء المباني العديدة التي أنشئت من أجل كليات الجامعة ومعاهدها .

وعلى كل حال ، لابد من مراعاة عدة امور عامة عند وضع أي مخطط تنظيمي للجامعة ، يأتي في مقدمتها تجميع الكليات جمعاً منطقياً في مكان قريب من مركز المدينة ، ويرتبط معه بمواصلات مباشرة ؛ ومن الطبيعي ان يأخذ المخطط بعين الاعتبار إمكانية التوسع في المستقبل ، وإدخال الجامعة ضمن المخطط التنظيمي العام للمدينة .

وقد اقترح ايكوشار بقاء كلية الهندسة في مكانها (شرقي المنطقة الحرة) وتجميع الكليات النظرية (الآداب والحقوق والتجارة والشريعة) مع كلية العلوم لتؤلف الجامعة ، ثم ربطها بالمدينة الجامعية ؛ أما كلية الصيدلة فيمكن ضمها الى كلية العلوم أو كلية الطب (١) .

---

(١) Ecochard , (1964) . op . cit ., p . 2 - V - 1.

جدول (٧٠)

توزيع طلاب جامعة دمشق حسب الكليات (عام ١٩٦٢)

الكلية	عدد الطلاب
الآداب	٦٥٦٤
الحقوق	٧٦١١
التجارة	٢٤١٥
الشريعة	٧٣١
العلوم	١٥١٠
المجموع	١٨٨٣١

يتضح من الجدول السابق ، ان عدد طلاب الجامعة بلغ ١٨٨٣١ طالباً[١] في عام ١٩٦٢ ، وهذا الرقم يبدو غريباً ، اذ ان البلاد المتقدمة جداً لاتزيد نسبة الطلاب الجامعيين فيها على ١٪ ، فاذا اعتبرنا ان جامعة دمشق تضم طلاب المحافظات الجنوبية (دمشق ودرعا والسويداء) ، فانه ينبغي ان يصل الحد الاقصى لعدد طلابها الجامعيين ١٣٫٥٠٠ طالب ، باعتبار ان عدد سكان هذه المحافظات الثلاث يبلغ ١٫٣٥٠٫٠٠٠ نسمة ، واذا اضفنا اليه محافظتي حمص وحماه يصبح عدد السكان ٢٫٢٥٠٫٠٠٠ نسمة ، وبالتالي يرتفع عدد الطلاب الى ٢٢٫٥٠٠ ، وهذا بغض النظر عن عدم التوازن بين طلاب العلوم والآداب ، حيث نجد عشرة طلاب من كليتي الاداب والحقوق مقابل طالب واحد في العلوم ، بينما ينبغي أن يكون عدد طلاب العلوم مساوياً لعدد طلاب الاقسام الاخرى مجتمعة ، اذا ماأريد الوصول الى تطوير البلاد تطويراً متناسقاً .

(١) هناك عدد كبير من الطلاب يدرسون في الجامعات الاجنبية خارج البلاد .

والخلاصة ، ان الجامعة التي توازن بين عدد طلابها وعدد سكان البـــلاد ينبغي ان تضم ٢٠٠٠٠ طالب ، نصفهم في الآداب والتجارة ونصفهم الآخر في العلوم .

وتكون المساحة اللازمة لطلاب الاداب والحقوق والتجارة ٤ × ١٠٠٠٠ = ٤٠٠٠٠ م٢

والى طلاب العـــلوم ١٢ × ١٠٠٠٠ = ١٢٠٠٠٠ م٢

وهذا يعني ان مساحة الابنية الحالية للجامعة تنقص اكثر من ١٠٠٠٠٠ م٢ .(١)

وتقدر المساحة اللازمة لهذه الجامعة خلال السنوات الخمسة عشر القادمة من ٧٠ – ٨٠ هكتاراً على الاقل ، ويمكن توفير هذه المساحة تجاه المدينة الجامعية (شكل ٧٤) ، كما يمكن تأمين الاتصال بينهما بانشاء عدة ممرات صغيرة تحت طريق القنيطرة ، الذي ستتجه اليه حركة النقل والمواصلات الاتية من بيروت(٢) .

وعلى الرغم من أهمية هذا المشروع وضرورته ، فسوف يأخذ مكانه بين المهملات ، ولن تبعث فيه الحياة الا في وقت متأخر ، وذلك بعد توسع المدينة حتى المنطقة الجامعية المقترحة ، وعندها فقط يبدأ البحث من جديد عن الاراضي اللازمة للجامعة .

مشروع تنظيم بردى في داخل مدينة دمشق :

يهدف هذا المشروع الى درء خطر الفيضانات التي تتعرض لها مدينة دمشق بين حين وآخر ، كما يرمي الى تعديل النظام الحالي لتوزيع المياه ، عن طريق تبسيط الشبكة المائية وتطهيرها من مياه الاسيقة التي تصب فيها ضمن المدينة .

---

(١) تبلغ المساحة الحالية التي تشغلها كليات الاداب والحقوق والتجارة والشريعة والعلوم ٦٠٠٠٠ م٢ .

(٢) Ecochard, (1964) Op., cit., p. 2 - V - 2.

وقد وضعت مصلحة المياه ، منذ ربع قرن تقريباً ، عدة مشاريع لحماية المدينة من خطر الفيضانات ، ولكنها اهملت وحفظت كغيرها من المشاريع الاخرى في ملفات الوزارة ، الا ان الحاجة الملحة لوضع مخطط تنظيمي لمدينة دمشق في الوقت الحاضر ، قد بعثت الحياة في هذه المشاريع وغيرها ، لاعادة النظر فيها واختيار الاصلح منها .

ومن المعروف ان حدوث الفيضانات في نهر بردى ، ترجع في معظمها الى تشكل السيول الجارفة على سفوح المرتفعات الواقعة داخل حوض النهر خلال فصل الامطار ؛ ولذا فقد اتجهت الانظار الى تخفيف شدة الفيضانات عن طريق السيطرة على هذه السيول والتحكم في نظام جريانها . واهم المشاريع التي وضعت لتعديل هذا النظام السيلي هي :

اولاً ـ اقامة السدود امام السيول[1] : يرمي هذا المشروع الى تخفيف وطأة السيول باقامة السدود امام السيول الرئيسية ، بالقرب من مصباتها على نهر بردى ؛ وذلك لحجز تسعة اعشار مياه الفيضانات تقريباً . وبما أن مياه الفيضانات في نهر بردى ناشئة عن هذه السيول ، فانه يمكن تخفيفها والسيطرة عليها عن طريق التحكم بهذه السيول[2].

ولكن التكاليف التي تتطلبها هذه السدود المقترحة لا تتناسب مع الفوائد المترتبة عليها ، فاقامة هذه السدود تحتاج الى دراسات اولية طويلة ، تتضمن بنية المنطقة وتربتها فضلاً عن امطارها ونظام جريان المياه فيها ، كما ان مياه السيول تحمل كميات كبيرة من الطمي والرمل والحصى تتجمع امام السدود ، وتنقص

---

(١) تقدم بهذا المشروع رئيس مصلحة المياه المنطقة الجنوبية بتاريخ ١/٣/١٩٤٠ و ١/٥/١٩٤٠

(٢) فيليب اسود ـ المشروع البدائي لتنظيم بردى ـ الترجمة العربية ـ ص ٢٦

بالتالي حجم مخزونها ، مما يتطلب تطهيرها سنوياً وصيانة بنائها دوماً . واذا ذكرنا ان الفيضانات الهامة لا تحدث في مدينة دمشق سوى مرة في كل عشر سنوات ، ادركنا السبب في ادراج هذا المشروع في ملفات النسيان .

ثانياً ـ اعادة تشجير الجبال : هناك مشروع آخر ، يرى في اعادة تشجير الجبال الحل الافضل لمعالجة النظام السيلي لنهر بردى ، بل يجد ان جميع المشاريع الأخرى ليست سوى انواع من التحايل لمواجهة مساوىء هذا النظام دون ان يكون في امكانها القضاء على هذه المساوىء او التخفيف منها .

وقد سبق الحديث ، بأن الطبقة الجوفية الحاملة للمياه ، تتألف من صخور منفذة قادرة على تخزين كميات كبيرة من المياه ، ولذا فان هذا النظام السيلي لا يرجع الى طبيعة هذه الصخور ، انما يرتبط بانعدام الغطاء النباتي في الدرجة الاولى ، فالكتل الجبلية التي تكتنف الوادي من جانبيه تطل عليه بسفوح عارية ، على وجه العموم ، ولا تكسوها اية نباتات ، باستثناء الاراضي المجاورة للمناطق المأهولة ، وهذه الاراضي الجرداء تصبح صلبة تحت تأثير الشمس ، وتشكل قشرة صلبة قليلة النفاذية ، سريعة التشبع بالمياه ، وينتج عن ذلك قلة المياه المترشحة ، ووفرة المياه التي تأخذ طريقها الى الشعاب والوديان ، وهذه المياه السيلية لا تصادف في طريقها اية عقبات ، فتشتد سرعتها ويزداد حجمها ، فتخرب الاراضي وتجرف تربتها ، وتتجمع في النهاية في وديان سيلية رئيسية لا تلبث ان تتحول في بضع ساعات الى سيل عارم تصعب مقاومته .

ولا شك في ان تشجير الجبال يعتبر الحل المفضل لمعالجة النظام السيلي لنهر بردى وتنظيم تصريفه ، وتخفيف شدة فيضاناته ، كما تزيد نسبة المياه المترشحة التي تغذي طبقة المياه الجوفية ، وتؤدي الى زيادة تصريف الينابيع والانهار ، وتسمح بالتالي بتوسيع رقعة المساحات المزروعة عما هي عليه اليوم .

الا ان التكاليف الكثيرة والجهود الكبيرة التي تتطلبها مشاريع السيطرة على النظام السيلي ، قد صرفت الانظار عنها نحو مشروع جديد يرمي الى تخزين مياه بردى ، والاستفادة من مياه الفيضانات الشتوية خلال فصل الصيف ، وهو ماسيأتي ذكره مفصلا عند البحث عن مشروع تزويد المدينة بالمياه .

* * *

اما في داخل مدينة دمشق ، فقد اتجه المشروع الى توسيع مجرى نهر بردى ، وتعميقه بحيث يستوعب اكبر تصريف ممكن في وقت الفيضان ، وهذا يتطلب توسيع المجاري الضيقة والغاء معظم المطاحن القائمة عليها ، وانشاء قناة صغيرة تتلقف مياه الصيف القليلة وتقضي على تشكيل الرواسب الطمية والنباتات المائية في مجاري الانهار .

ويتضمن هذا المشروع ايضا ، انشاء شبكة اقنية كافية لصرف المياه الجوفية القريبة من السطح ، بشكل يؤمن تغذية النهر من هذه المياه ويزيد تصريفه ، كما يشتمل على تطهير بردى من مياه الاسيقة ، عن طريق جمعها في اقنية رئيسية ، وسوقها الى احواض التصفية قبل اعادتها الى النهر .

وقد رأينا ، في دراسة نظام جريان المياه في نهر بردى ، ان طبقة المياه الجوفية داخل مدينة دمشق تكاد تلامس مجرى هذا النهر على طول مجراه ، ولذا فقد حرص المشروع على تعميق هذا المجرى ليحقق صرفا كاملا لها ، وانشاء قناة متوسطة في قاعه تستخدم في حصر المياه الصيفية القليلة ، وتؤمن لها سرعة كافية تحول دون تشكل الرواسب النهرية والنباتات المائية والروائح المضرة ، وتقلل الخسارة الناتجة عن التبخر .

ويترتب على هذا المشروع زيادة نسبة المياه التي تصل النهر من طبقة المياه الجوفية ، فحينما يبلغ متوسط التصريف الصيفي للنهر ١٣٢٥ ل / ثا عند ساحة

الشهداء (المرجة) ، تسهم المياه الجوفية بمايقرب من ٢٥٠ ل / ثا من هذا التصريف في الكيلو متر الواحد ، ولكن هذه المساهمة تزداد ، بعد تعميق المجرى ، الى ٨٣٨ ل / ثا اي مايعادل ٢ ، ٦٣ ٪ من تصريف النهر عند ساحة الشهداء . وعندما يهبط التصريف الصيفي للنهر الى ٦٠٠ ل / ثا (آب – ايلول) ، لاتسهم المياه الجوفية بأكثر من ٩٠ ل / ثا في الكيلو متر تقريباً ، وهذه المساهمة سوف تزداد بعد تعميق المجرى أيضاً ، حتى تصل الى ٣٨٢ ل/ثا ، اي مايعادل ٦٣،٦٪ من تصريف النهر عند ساحة الشهداء . [١]

اما مياه الاسيقة التي تصب في نهر بردى ، فيمكن ان يتم جمعها في مجرورين [٢] رئيسيين ينشآن على كلا ضفتي بردى ، يتبع المجرور الرئيسي الاول ضفة النهر الشمالية من شارع القوتلي حتى طريق الزبلطاني ، ومنه الى حوض التصفية ، ويحتوي هذا المجرور على فائضين ، الاول بين باب السلام وباب توما ، والثاني في ساحة باب توما ، يستخدمان في نقل جزء من مياه بردى الى المجرور في وقت الفضان .

ويقام المجرور الرئيسي الثاني على الضفة الجنوبية لنهر بردى ، فيتبعها من كيوان حتى باب السلام ، وهناك يمر تحت العقرباني ويواكبه من الشمال ، ثم يجتاز نهر بردي عند جسر الزبلطاني مارا فوقه ليصب بعد ذلك في مجرور الضفة الشمالية .

ومن الطبيعي ان يتضمن هذا التنظيم ، تعديل التوزيع الحالي لشبكة المياه ، لانه توزيع معقد جدا (شكل ٧٧) ، فضلا عن انه مناف لمبادىء الصحة والنظافة العامة ، لكثرة فتحات الأسيقة التي تصب مياهها الوسخة في هذا النهر الذي يخترق المدينة في وسطها تقريبا ؛ ويترتب على ذلك صدور الروائح

---

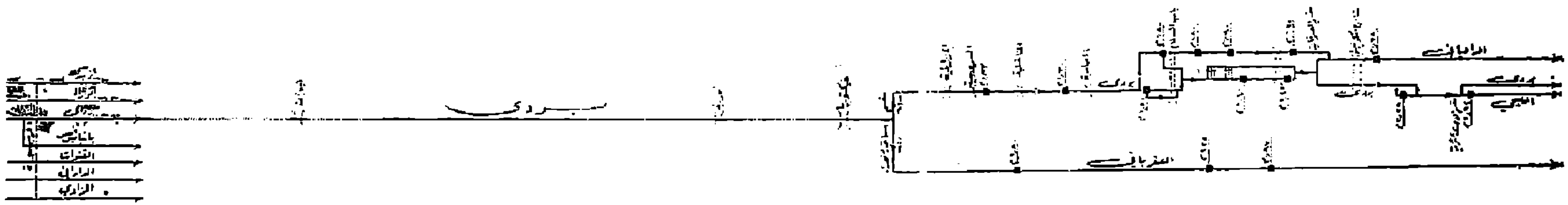
(١) المصدر السابق – ص ٥٩ و ٦٠ .

(٢) المجرور هو قناة جوفية كبيرة تجمع مياه الاسيقة .

شكل (٧٧)

مخطط تمثيلي بين التفرعات الرئيسية لنهر بردى

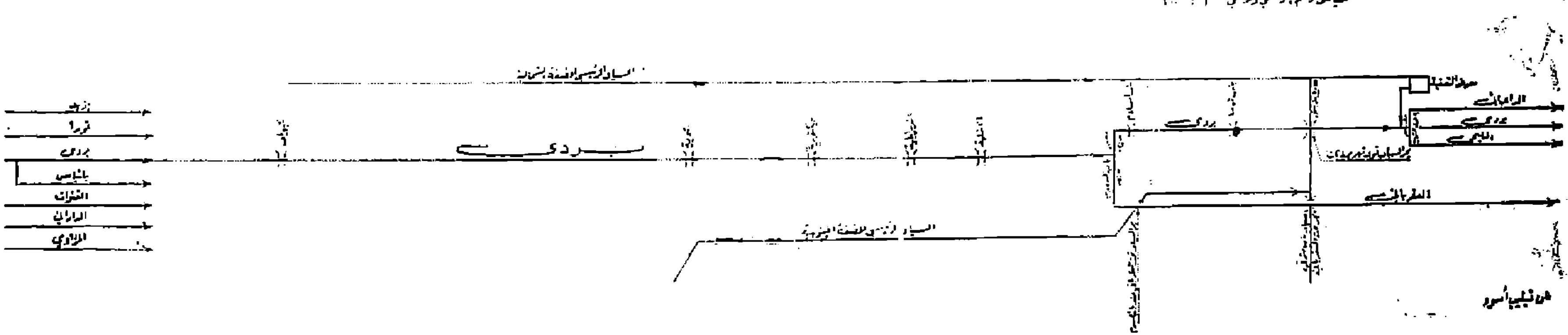
مقياس الرسم الرأسي والأفقي



شكل (٧٨)

مخطط تمثيلي لمشروع تنظيم بردى

مقياس الرسم الرأسي والأفقي



الضارة ، وسقاية الاراضي بمياه ملوثة تنقل الجراثيم الى الخضر المروية او المغسولة بمياه الانهار، كما ان هذه الشبكة الحالية للمياه تضر بمصالح المزارعين ، لانها تبسط المياه على مساحات واسعة جداً ، تزيد من ضياع المياه بالتبخر والترشح ، وبالتالي تنقص من تصريف المجاري المائية ونصيب المزارعين منها ، كما هي الحال في نهري العقرباني والداعياني ، اللذين يجريان على مستوى مرتفع بالنسبة لمنسوب المياه الجوفية ، حيث تقدر خسارة العقرباني بين ساحة الشهداء وطاحونة باب توما بحوالي ٤٨ ل / ثا ، فاذا كان التصريف الصيفي لنهر بردى عند مقسم ساحة الشهداء هو ٦٠٠ ل/ثا فان حصة العقرباني التي تبلغ ٢/٣ تصريف بردى عند نقطة التفرع تبلغ ٤٠٠ ل / ثا ، وبالتالي تكون خسارته في هذا الجزء من النهر ما يعادل ١٢ ٪ من تصريفه ؛ اما نهر الداعياني فتقدر خسارته بمايقرب من ٦٦ ل / ثا [١] .

ولذلك ، يقترح المشروع الحالي اعادة جمع نهري بردى والعقرباني في قناة واحدة حتى باب السلام ، حيث يعود العقرباني هناك الى مجراه الحالي محاذيا سور المدينة القديمة ، وعند نهاية باب السلام تتجمع كل الاقنية في واحدة منها حتى الاحد عشرية ، حيث ينشأ هناك مقسم جديد للداعياني والمليحي (شكل ٧٨) .

ولاشك في ان مشروع تجميع الاقنية الحالية في قناة واحدة مكشوفة ، يوفر الكثير من اعمال التنظيم ويسهل اعباء الصيانة والتنظيف ، وينقص نسبة المياه الضائعة بسبب التبخر والترشح ،بل انه يزيد في تصريف المياه الجارية في الانهار ، وخاصة في قناتي العقرباني والداعياني العلويتين على طول الجزء الجديد المشترك

(١) المصدر السابق – ص ٣٦.

بين مجراهما ، بانجلية لها طبقة المياه الجوفية من المياه ، التي يزداد تصريفها بصورة واضحة نتيجة توسيع المجرى وتعميقه .

اما مياه الاسيقة التي تصب في مياه الأنهار مباشرة ، فيجرى جمعها بمجرورين رئيسيين - كما سبق ان ذكرنا - وترسل الى احواض تصفية تقع خارج المدينة ، وذلك قبل اعادتها الى مجاري الانهار امام مقسم الاحدى عشرية .

وأخيرا ، فان هذا المشروع يؤمن مجرى مائياً يستوعب تصريفاً يبلغ ١٢٩ م ٣/ثا ، (١) . ويترك هامشاً يرتفع مايقرب من المتر (٩٥ر٠ م) عندمقسم ساحة الشهداء . ومع ذلك فان المجرى الجديد لايمكن ان يستوعب مياه الفيضانات العالية جداً ، ولذا فان المشروع المقترح لايستكمل خطته المرسومة وغايته المنشودة إلا بتحقيق السيطرة على النظام السيلي للنهر ، عن طريق إعادة تشجير المنحدرات الواقعة ضمن حوضه .

أما تعديل النظام الحالي لتوزيع شبكة المياه ، فقد يؤدي الى إثارة اصحاب الحقوق فيها ، ولكن هــذه الاعتراضات يمكن ان تتلاشى بعد إقناع هؤلاء المنتفعين بالمياه ، بأن هذا المشروع لن ينال من حقوقهم المشروعة ، بل انه سيؤدي الى زيادة تصريف المياه في مختلف الاقنية ، وكذلك فان تعميق المجرى سيعمل على افادة الاراضي المروية من نهر بردى عن طريق زيادة تصريفه ، كما ان تطهير مياهه هو تطهير لمياه الغوطة وزراعتها .

وبالاضافة الى ذلك ، فان المشروع يساعد على تخفيض منسوب المياه الجوفية التي تضر المباني والمنشآت الاثرية الهامة مثل التكية السليمانية والمتحف الحربي ، كما يظهر القيمة التاريخية الرائعة لقلعة دمشق وسورها القديم ، بعد كشف واجهتيها الشماليتين اللتين كانتا تختفيان ، في معظم اقسامها ، خلف المنازل القديمة المتزاحمة .

---

(١) وهو الحد الاقصى الذي وصل اليه تصريف النهر في فيضان ١٩٤٠ .

مشروع تزويد المدينة بالمياه :

ينبغي ان يقوم استغلال الثروة المائية ، على تخطيط طويل الاجل ، تؤخذ فيه بعين الاعتبار مختلف استعمالات هذه الثروة المائية ، كتأمين مياه الشرب والري والقوى المائية والصناعة وغيرها ، كما يدرس فيه استغلال المياه السطحية والجوفية بالتكامل . ومن البديهي ان لا تهمل في هذا التخطيط عوامل التزايد في عدد السكان ، وتزايد حاجة الفرد للماء والغذاء بصورة طردية مع التطور الراهن[1] .

وبما ان كميات المياه المتوفرة محدودة بالظروف الطبيعة ، فمن الطبيعي اذن ان يراعى في تخطيط استهلاك المياه ما يمكن ان توفره الطبيعة من هذه الثروة المائية . وقد وضعت مؤسسة مياه الفيجة خطة خمسية لاعوام ١٩٦٥ - ١٩٧٠ ، واعتمدت في تقديرها للاستهلاك السنوي للمياه في مدينة دمشق على افتراضين :

الاول : هو ازدياد الاستهلاك السنوي للفرد ازدياداً يتمشى مع ارتفاع مستوى المعيشة .

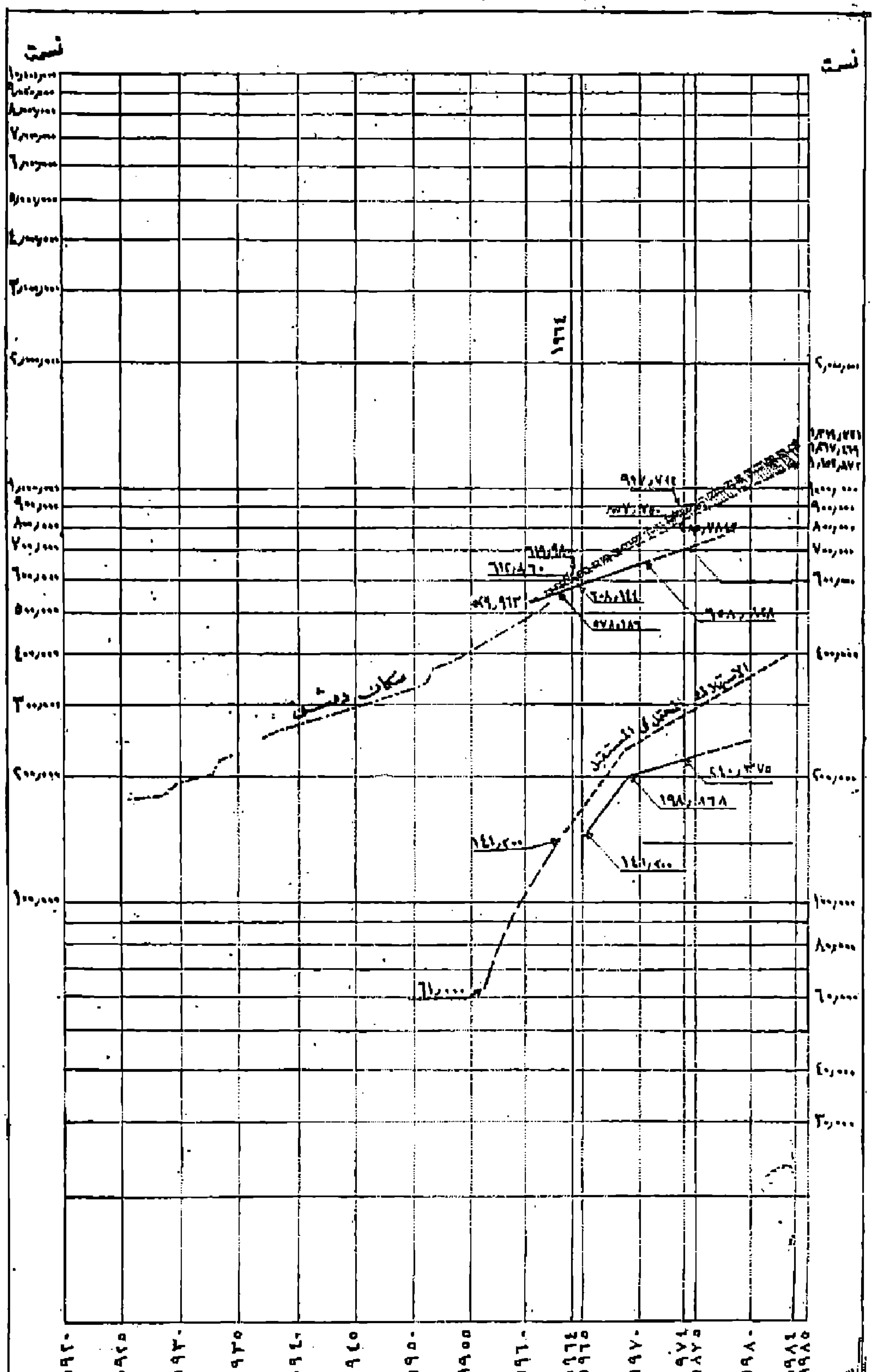
الثاني : هو ازدياد عدد السكان السنوي لمدينة دمشق بمعدل ٢٫٢ ٪ ، وهو معدل مأخوذ عن وزارة التخطيط ؛ بينما تبين الدراسة الديموغرافية ان معدل الزيادة السنوية في مدينة دمشق يتراوح بين ٣٫٥ - ٤ ٪ .

ويبدو من الشكل (٧٩) ان الطاقة القصوى لعين الفيجة قد تعجز قبل نهاية الخطة الخمسية عن تغطية حاجة الاستهلاك ، ولذلك يجب التفتيش عن موارد اخرى بالاضافة الى مورد عين الفيجة لتزويد مدينة دمشق بالمياه في المستقبل القريب .

---

(١) الدكتور شفيق الصفدي - مهرجان اسبوع العلم الرابع - الكتاب الرابع - المجلس الاعلى للعلوم - كانون الاول ١٩٦٣ - ص ١٤٧ .

شكل (٧٩) المياه اللازمة لمدينة دمشق



المصدر: مؤسسة مياه عين الفيجة

اما الموارد المائية التي تتطلع اليها الخطة الخمسية فهي تشتمل على مايأتي :

اولاً ـ نبع بردى .

ثانياً ـ نبع الاعوج في منطقة أم الشراطيط .

ثالثاً ـ المياه الجوفية في منطقة الغوطة .

وبالاضافة الى المصادر الثلاث، يمكن الاستفادة من مياه دمشق المستعملة، والتي تقدر بنحو ٥٠ ـ ٦٠ مليون م^{٣} في السنة (١) .

ويرى السيد فونتين ان يدرس موضوع المياه على نطاق اعم ، يشمل المدينة وغوطتها معاً ؛ فمدينة دمشق والغوطة ، في الواقع ، وحدة متكاملة من الناحية الهيدروجيولوجية ، وفي هذه المنطقة يمكن ان نعتمد على الموارد التالية :

١ ـ نبع الفيجة .

٢ ـ نبع بردى .

٣ ـ نبع الأعوج .

٤ ـ المياه الجوفية .

٥ ـ الأمطار .

٦ ـ المياه المتسربة من الاحواض الاخرى .

٧ ـ المياه المستعملة في مدينة دمشق .

اما الاستهلاك فيشتمل على ما يأتي :

١ ـ تزويد مدينة دمشق بالمياه .

٢ ـ تزويد سكان الغوطة وحيواناتها بالمياه .

٣ ـ ري الغوطة .

٤ ـ التبخر والرشح وغير ذلك .

---

(١) Ecochard. (1964) Op. cit., p. I - III - 1.

وفيما عدا ذلك لابد من مراعاة المشاكل التالية في منطقة دمشق وغوطتها، وهي المياه الجوفية التي مازال مستواها آخذاً في الانخفاض، وتنظيم الاستفادة من مياه الري في الغوطة واستغلالها في الزراعة على اكمل وجه.

فعلى اثر الجفاف الذي حل في عام ١٩٥٤، اخذ المزارعون في استخدام المياه الجوفية على نطاق واسع بواسطة المضخات، وذلك من أجل الري وأعمال الصناعة؛ وقد قدر الدكتور «بوردون» كمية المياه المستخرجة عام ١٩٥٩ بحوالي ٧٠ مليون م٣ بواسطة ٢٠٨٢ مضخة [١] كما لاحظ، من جهة اخرى، هبوط مستوى المياه الجوفية في مراكز المراقبة، وبلغ معدل هذا الهبوط متراً واحداً في السنة؛ ولذلك يصبح هذا الاستثمار للمياه الجوفية في الوقت الحاضر ضرباً من الاستنزاف.

أما فيما يتعلق بتنظيم الاستفادة من مياه الري، فيمكن الرجوع الى تقرير الخبراء السوفييت، الذي يشير الى امكانية استخدام مياه الري في الغوطة بشكل افضل، وهو يقدر ان ٧٠٪ من مساحة المنطقة المروية تهتم بالمحاصيل الشتوية، وهذه المحاصيل يمكن ان تختص بها الاراضي البعلية التي تعتمد على مياه الامطار [٢].

وقد اوضح فونتين في تقريره الذي قدمه في آذار ١٩٦٣، ان استهلاك المياه قد يزداد في غضون العشرين سنة الاتية على الشكل التالي:

مدينة دمشق (عدد السكان المتوقع ١مليون) = ٢٣٠,٠٠٠ – ٢٤٠,٠٠٠ م٣ في اليوم

سكان الغوطة (٢٠٠,٠٠٠ – ٣٠٠,٠٠٠ نسمة) = ٢٠,٠٠٠ – ٦٠,٠٠٠ م٣ في اليوم

المساحه المروية (٢٠,٠٠٠ – ٥٠,٠٠٠ هكتار) = ٨٥٠,٠٠٠ – ٢,٠٠٠,٠٠٠ م٣ باليوم

---

(١) Burdon, Op. cit., P. 2 — 3.

(٢) Ecochard, (1964), Op. cit., p. 1 — III — 1.

يتبين من هذا ، ان مجموع استهلاك المياه في دمشق وغوطتها سوف يصل الى ١١١٠٠٠٠٠ - ٢٣٠٠٠٠٠ م٣ في اليوم (عدا الحيوانات) ، اومايعادل ١٣ - ٢٧ م٣/ثا ، كما يقدر الاستهلاك السنوي بحوالي ٣٥٠٠٠٠٠٠٠م٣.

ومن اجل تغطية هذا الاستهلاك ، يقترح فونتين الاستفادة من مياه الفيضانات لنهري بردى والاعوج ، اذ تقدر مياه بردى السنوية بما يتراوح بين ٦٢٨١٠٠٠٠٠م٣ (١٩٤٤-١٩٤٥)و١٤١٤٠٠٠٠٠م٣(١٩٥٩-١٩٦٠)، ويقدر متوسط التصريف السنوي لمياه نهر بردى عند الهامة ٣٨٤٠٠٠٠٠٠ م٣ (١٩٣١ - ١٩٦٠) ، وهذه الكمية يمكن ان تسد حاجة الاستهلاك المقدرة في غضون العشرين سنة المقبلة . وهذا ماحدا بمؤسسة المشاريع الكبرى الى وضع مشروع جديد لري الغوطة ، وهو المشروع الذي درسه الخبراء السوفييت عام ١٩٦١ .

وقد اثبتت هذه الدراسة ، انه من الممكن الاستفادة في السنوات العادية من ١٤٣٦٠٠٠٠٠م٣ من مياه بردى والاعوج بعد سد جميع حاجات الري الحالية ، ولذلك لابد من اقامة خزان أو عدة خزانات (خزانات طويلة الاجل) لتنظيم مياه نهري بردى والاعوج ، اذا مااقتضت الحالة ذلك ، ولابد من انتقاء المحاصيل التي لاتحتاج الى مياه بردى في الشتاء ؛ وبناء على ذلك المشروع يصبح من الممكن ري المنطقة الحالية ، بل ويمكن أيضاً اضافة منطقة جديدة اليها تختلف مساحتها باختلاف نوع الخزان ، وتتراوح بين ٨٠٠٠ - ٢٠٠٠٠ هكتار(١) .

اما الحلول التي اقترحت لاقامة الخزان ، فيوضحها الشكل (٨٠) ، ويمكن تلخيصها فيما يلي :

---

(١) Technopromexport. Scheme of regulation of the Barada river flow , Moscow , 1961 , p . 67 - 68 .

شكل (٨٠)



عن تكنوميكسبورت ١٩٦١

الحل الاول : سد تخزيني في قرية العادلية ، تبلغ سعته القصوى ٢٦٠ ألف م٣ من المياه، يضاف اليه سدبارتفاع ٥و٣م على نهر بردى،بعد مصنع اسمنت دمر باتجاه مجرى النهر ؛ وتكون القناة مكشوفة وطولها ٢١ كيلو متراً .

الحل الثاني : سد تخزيني في قرية دير علي ، تبلغ سعته القصوى ١٧٠ ألف م٣ ، بالاضافة الى سد يقام على نهر بردى بارتفاع ٨ م ، قبل مصنع الاسمنت في الاتجاه المخالف لمجرى النهر ، مع نفق طوله ١و٦ كم وقناة طولها ٢٧ كيلو متراً .

الحل الثالث : يكون في واديبردى بحيث لا تغمر المياه نبع الفيجة، ويشتمل على خزانين مجموع سعتهما ١٣٠ ألف م٣ (١) .

ويتبين من دراسة مشروع الري الذي أعده الخبراء السوفييت ، انه لايتناولموضوع تزويد مدينةدمشقبالمياه،ولا موضوع الاستفادة من مياه دمشق المستعملة ؛ مع ان كمية المياه المتوفرة تسمح بالاستفادة من قسم من مياه بردى – التي سيُعمد الى تخزينها – لأجل سد النقص في حاجات الاستهلاك .

ويبدو أنه من الصعب الحصول على مثل هذه الكمية من المياه بوسائل اخرى ، كالضخ في منطقة دمشق ، كما انه على الخبراء المختصين وحدهم ان يبتوا في دقة هذه التقديرات وفي امكانية تحقيقها من الناحية الفنية . ولكن من الواضح ايضاً ، ان دراسات الخبير الفرنسي فونتين ودراسات الخبراء السوفييت متفقة حول أساس واحد ، وهو ضرورة الاستفادة من مياه الفيضانات الضائعة في نهر بردى .

---

(١) للتفاصيل يمكن الرجوع الى كتاب غوطة دمشق – للمؤلف ص ٢٢٦ – ٢٣٦ .

ويرى ايكوشار ان الحل الثالث قد تضمن أفضل المواضع المقترحة لاقامة الخزان ، ويرجع اختياره لهذا الحل الى عدة اسباب تتلخص فيما يلي :

أولاً : ان هذا الحل لا يؤذي شبكة الأقنية الموجودة حالياً في وادي بردى بين دمشق والهامة ، وهي أقنية ضعيفة من حيث البنية معقدة من حيث التخطيط ، عظيمة الأهمية من حيث القيمة التاريخية .

ثانياً : ان هذا الحل لا يؤذي ايضاً طريق السيارات الحالي .

ثالثاً : يبقى أهم قسم من وادي بردى - أي القسم الواقع ما بين دمشق والهامة - سليماً تماماً ، ويبقى متنزهاً وروضة نادرة لابناء دمشق .

رابعاً : ستشكل الخزانات المقترحة شبه بحيرات اصطناعية ؛ ومن الممكن انشاء مراكز اصطياف حولها ، كالمقاهي والمطاعم والملاعب والمسابح والموانىء الرياضية وأمثالها ، وهذه المرافق،بالاضافة الى متنزهات الوادي ما بين دمشق والهامة ، تشكل شبه حديقة مستطيلة متنوعة الامكانيات لمصلحة سكان مدينة دمشق .

نقل المقابر :

تقدر مساحة المقابر الحالية في مدينة دمشق بحوالي ٤٢ هكتاراً ، وهي تشغل مساحات واسعة من أراضي المدينة دون أية فائدة اقتصادية ، سواء كان ذلك في قلب المدينة بجوار الاحياء السكنية أو عند أطرافها ، وهي تسبب فساد الهواء وتلوثه ، فضلاً عن تشويه جمال المدينة ومنظرها .

ولما كان سكان المدينة في تزايد مستمر ، ورقعتها في اتساع دائم ، لذلك فقد أصبح أمر الاستفادةمن اراضي المقابر ونقلها الى خارج المدينة من المواضيع التي تشغل بال بعض المسؤولين ؛ علماً بأن المقابر الحالية موجودة في أمكنة كثيفة السكان ، وفي أمس الحاجة الى الحدائق العامة .

وكانت أمانة العاصمة قد اتفقت مبدئياً مع وزارة الأوقاف على التعاون لايجاد حل لمشكلة الدفن داخل المدينة ، ولكن هذه المحاولة قد توقفت بسبب الاختلاف حول اختيار المنطقة الملائمة للدفن . وقد تقدم أحد المواطنين باقتراح يتلخص بنقل هذه المقابر الى المنطقة الواسعة شرقي قبر الست (حوش الشعير وحوش قويل) أو الى المنطقة المجاورة للمقبرة الفرنسية على طريق المزة ، وكلتاهما من الأراضي الشحيحة المياه والقليلة الصلاحية للزراعة لارتفاع نسبة الملوحة فيها ، وهي بعيدة نسبياً عن المدينة ، فضلاً عن رخص أسعارها وملاءمتها من الناحية المناخية .

وهناك عدة اقتراحات أخرى ، لاختيار المكان المناسب لهذه المقابر ، منها اقتراح يرى نقل المقابر الى أرض حرستا الواقعة الى الشمال الشرقي من مدينة دمشق ، الا ان هذا الاقتراح يصطدم بمبدأ المحافظة على الأراضي الزراعية ، تلك الأراضي التي نحن في أمس الحاجة اليها في الوقت الحاضر .

وقد قدر ايكوشار مساحة الأرض اللازمة للمقابر بنحو ٢٥٠ هكتاراً ، وذلك بالنسبة لعدد السكان المتوقع في عام ١٩٨٤ ، واقترح ثلاثة أماكن لها ، يقع الاول في جنوب قرية عرطوز،الى الشرق من الطريق الذاهب الى القنيطرة؛ والثاني في حوش قويل الى الجنوب الشرقي من قرية قبر الست ، والثالث الى الجنوب الشرقي من قرية التل الواقعة الى الشمال الشرقي من دمشق[١] .

تخطيط الغوطة :

ان تخطيط الغوطة يجب ان يقوم على أساس تنظيمها كحوض للخضر والفاكهة والألبان لمدينة دمشق ، وهذا يتطلب دراسة تنظيم شبكة الري

(١) ميشيل ايكوشار وجيوجي بانشويا – المشروع الابتدائي للمخطط العام لمدينة دمشق – الترجمة العربية – حزيران ١٩٦٥ - ص ٥٣ .

والاستفادة من نفايات المدينة وتنظيم المواصلات والتسويق ، بالاضافة لتنظيم اماكن التسلية واللهو .

وقد سبق الحديث عن تنظيم شبكة الري وتحليل المشاريع المائية المعقدة حالياً لدى مؤسسة المشاريع الكبرى أثناء بحث مشروعات تزويد المدينة بالمياه، وأشرنا فيه الى ضرورة الاستفادة من مياه دمشق المستعملة للزراعة بعد ادخالها الى أحواض التصفية ، كما ذكرنا ضرورة اعادة تنظيمها على شكل أفضل ، عن طريق تغطيتها لحفظ مياهها من التبخر ، وتبطينها بالاسمنت لمنعها من التسرب ، واستخدام طريقة الرش للاقتصاد في السقاية .

كما تجدر الاشارة الى ان الطبقة الجوفية تشكل ، دون شك ، أفضل حوض لتخزين المياه ، حيث تكون في منجى من التبخر ، واذا كان استخدام المضخات يرفع من تكاليف الانتاج ، ولا يسمح بمراقبة استغلال المياه الجوفية ، ويعرضها لخطورة النفاد ، فيمكن استبدال المضخات بمحطات عامة للضخ في الحقول تعمل على الطاقة الكهربائية، وسوف يتيح مشروع سد الفرات الحصول عليها في المستقبل بثمن بخس جداً ؛ وفي هذه الحال يمكن اعطاء كل مجموعة من الحقول من محطة ضخ كهربائية واحدة .

وتتطلب زراعة الغوطة الكثيفة تنظيم الاستفادة من نفايات المدينة ، بسبب حاجتها الدائمة الى مواد الإخصاب ، وخاصة من الأسمدة العضوية ، وهذا ما يفسر ارتفاع اثمانها ، فقمامات المدينة توفر للاراضي التي تزرع البقول حاجتها من الاسمدة . ولكن عادة جمع هذه القمامات بصورة فردية لا يمكن أن تستمر على هذه الحال ، ولا بد لمدينة دمشق أن تنشيء مصنعاً لنفايات المدينة .

ان مدينة دمشق تطرح ٢٠٠ طن من القمامة كل يوم ، يجري جمعها من المنازل والطرقات العامة ، وتنقل الى خارج المدينة حيث تفرش وتردم بالتراب .

ومن الواضح ان مثل هذه الكمية يبلغ حجمها نحو ١٥٠ الف م٣ ، وتحتاج لمساحة ٥٠ الف م٢ سنوياً . وهذه الأرقام بحد ذاتها توضح ضخامة المشكلة ؛ وتجعلنـــا نتساءل : كيف تستطيع أمانة العاصمة أن تجد كل سنة المساحات اللازمة لاستيعاب القمامة ؟ .

وقد اتجهت النية الى اقامة مصنع لتحويل القمامة الى سماد ، وقدمت العروض من أكبر الشركات الاجنبية ، الا انه تبين عدم صلاحية المشروع من ناحية كلفة الانتاج ، كما ان تسويق السماد الناتج عن هذا المصنع ليس سهلا في هذه المنطقة ، ولا بد من نقله مسافات كبيرة، تجعل كلفة النقل عبئاً على سعر الكلفة، الأمر الذي يستحيل معه مضاربة الأسمدة الكيماوية المركزة السائد استعمالها في سوريا .

وهناك مشروع آخر يتصل بمشروع القمامة ، وهو معالجة مياه الاسيقة ؛ فالمواد الجامدة التي ستنتج عن معالجة مياه الاسيقة، اذا ما اختلطت بالقمامة وعولجت معالجة خاصة ، تصبح قابلة لانتاج سماد افضل قد يكون قابلا للتسويق باسعار مناسبة . ودراسة مشروع المعالجة المشتركة للقمامة ومياه الاسيقة وانتاج السماد سيجري غالباً خلال العام الحالي .

ومن جهة اخرى ، تدرس امانة العاصمة مشروعاً آخر يرمي الى ردم القمامة في الحدائق العامة والاحراج، وتتلخص عناصر هذا المشروع باختيار مقالب للقمامة تجري فوقها زراعة الحدائق والأحراج، ويتم بذلك استصلاح بعض الأراضي من جهة ، وتزويد المدينة والضواحي بالحدائق والأحراج اللازمة لها من جهـــة اخرى ، كما تتخلص المدينة من القمامة بطريقة اقتصادية وصحية وبسيطة ؛ وان الدراسات التفصيلية التي ستجري خلال العام ستبين مدى نجاح هـــذه الطريقة وصلاحيتها (١) .

---

(١) Ecochard . (1964) . Op. cit., p .1 -VIII - 2.

ويشكل موضوع التسويق الزراعي قضية أكثر تعقيداً ؛ فالتسويق يسير في اتجاهين ، الاول نحو دمشق والآخر نحو خارج البلاد ؛ ولا شك في ان دمشق ، مع زيادة عدد سكانها وارتفاع مستوى المعيشة فيها ، وكذلك السوق الاجنبية للاسباب نفسها ، بالاضافة الى تسيير الخط الحجازي ، سوف تستوعب هذه المحاصيل الزراعية كلها .

غير ان الغوطة ليست المنطقة الوحيدة التي تسعى الى تصريف فواكهها وخضراواتها ، اذ ان المنافسة الدولية ستكون - بلا شك - قوية جداً ؛ وهذا مايبرر ضرورة تنظيم التسويق وزيادة الاهتمام به . ولا بد أن يتم هذا الإعداد عن طريق انشاء مركز في دمشق لانتقاء المحاصيل الملائمة للتصدير واعدادها ، يمكن الوصول اليه عن طريق السيارات ، كما يمكن ربطه بالخط الحديدي الحجازي ؛ ويمكن أن تديره تعاونيات تتيح للفلاحين الاستغناء عن الوسطاء والسماسرة ، كما يؤمن تصريف المنتجات الزراعية الى الخارج .

وتعمل الى جانب هذا المركز الرئيسي ، مراكز ثانوية تقوم بدورها بجمع حاصلات الفلاحين ضمن دائرة تمتد من ٦ - ٨ كيلو مترات ، فتُصنف فيها الخضر والفواكه وترسل الى مختلف الجهات ؛ يوضع افضلها ضمن اقفاص ترسل الى المركز الرئيسي لشحنها الى الخارج ، بينما ترسل الانواع المتوسطة منها الى الباعة الدمشقيين مباشرة ، او الى التعاونيات الاستهلاكية ، كما ترسل بعض الخضر والفاكهة الى مصانع الكونسروة والمربيات ؛ أما النفايات فترسل لتغذية الحيوانات .

ويمكن أن يضاف الى هذه المراكز الثانوية للتجميع ، مصانع لرب البندورة والقمر الدين ، حيث تعمل ضمن شروط فنية وصحية مرضية ، وذلك لامتصاص الفائض من المحصولات وتوسيع الاسواق . كما ان مدينة دمشق الكبيرة تستوعب انشاء مصنعين او ثلاثة للالبان والجبن ، علاوة على المصنع الحالي ، تجمع

البانها عن طريق ثلاثة مراكز او اربعة تتوزع في انحاء الغوطة . وكذلك الحال فيما يتعلق باللحوم والطيور ، اذ يستحسن اقامة مسلخين او ثلاثة للحوم ، يمكن الوصول اليها بسهولة ، لتخفيف الازدحام في العاصمة .

ان ازالة المركزية التي يمكن تحقيقها على هذا الشكل ، قد يكون لها فضل توفير عدد من المهن الى ابناء الغوطة ، وبالتالي الى تقدمها وازدهارها ، كما يفيد في احلال التوازن الذي ننشده بين الريف والمدينة .

ويبدو من دراسة شبكة المواصلات انها قطعت شوطاً لا بأس به من حيث تأمين الاتصال بين المدينة من ناحية ،وقراها المختلفة من ناحية اخرى ؛ وان كانت هذه الطرقات المزفتة منها ضيقة في معظمها ، لا تكفي لمرور سيارتين في آن واحد الا بكل صعوبة .

أما تنظيم التسلية واللهو في الغوطة لقضاء العطلة الاسبوعية ، فيقتضي التفريق بين الدمشقيين الموسرين من جهة ، والمستخدمين والعمال من جهة اخرى، فالأولون يقيمون فيها المباني ، أما الآخرون فلا يقضون في الحقول سوى بضع ساعات فحسب . ويمكن اقامة الفنادق والاماكن اللازمة لاقامة المخيمات لأجل هؤلاء الآخرين في قرى الغوطة الرئيسية ، فيأتون اليها على الدراجات والسيارات كل يوم جمعة ، حاملين بعض الموارد الاضافية وشيئاً من الحيوية الى ضاحية دمشق الخضراء .

وما تقدم ، يؤكد لنا الحقيقة التي وردت في مقدمة هذا الكتاب ، وهي ان المدينة والغوطة يشكلان معاً اقتصاداً متكاملا، وانه لا تنظيم للغوطة بصورة مستقلة عن تنظيم دمشق ، ولا بد من دراسة مخططها التنظيمي معاً ؛ فالمحافظة على سحر هذه الضاحية الخضراء الشاعرية وجمالها حول العاصمة ليس امراً سهلا ، كما يبدو ، اذا اخذنا عدد سكانها ومستوى معيشتهم بعين الاعتبار .

المراجع والفهارس

المصادر والمراجع العربية

ابراهيم رزقانة وزملاؤه اسس الجغرافيا الطبيعية – الجزء الثاني (الجغرافيا المناخية) – القاهرة ١٩٥٤ .

ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق – بيروت ١٩٠٨ .

ابن بطوطة رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار) – المطبعة الازهرية بمصر ١٩٢٨ .

ابن جبير رحلة ابن جبير – طبعة ليدن ١٩٠٧ .

ابن طولون الصالحي القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية – مطبوعات مكتب الدراسات في دمشق – ١٩٤٩ .

« « « الشمعة المضية في اخبار القلعة الدمشقية – دمشق ١٣٤٨ هـ .

ابن عبد الهادي الاعانات على معرفة الخانات – نشره حبيب الزيات في الخزانة الشرقية – الجزء الثاني – المطبعة الكاثوليكية – بيروت ١٩٤٦ .

« « « ثمار المقاصد في تاريخ المساجد – تحقيق اسعد طلس – بيروت ١٩٤٣ .

ابن عساكر تاريخ مدينة دمشق – تحقيق صلاح الدين المنجد – دمشق ١٩٥١ – ١٩٥٤ .

ابو البقاء الدمشقي نزهة الانام في محاسن الشام – القاهرة ١٣٤١ هـ .

ابوالفرج العش	الدور الاثرية الخاصة في دمشق ـ مجلة الحوليات الاثرية السورية ـ المجلد الثالث ـ ١٩٥٣ .
احمد وصفي زكريا	الريف السوري ـ الجزء الثاني ـ دمشق ١٩٥٧ .
الادريسي	نزهة المشتاق في ذكر الامصار والاقطاروالبلدان والجزر والمدائن والآفاق .
البستاني	دائرة المعارف ـ المجلد الثامن ـ بيروت ١٨٨٤ .
البلاذري	فتوح البلدان ـ تحقيق وشرح عبد الله انيس وعمر انيس الطباع ـ دار النشر للجامعيين ـ بيروت ١٩٥٧ .
العمري	مسالك الابصار في ممالك الامصار تحقيق احمد زكي باشا . مصر ١٩٢٤ .
القلقشندي	صبح الاعشى ـ الجزء الرابع ـ القاهرة ١٩١٤ .
المقدسي	احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ـ ليدن ١٩٠٦ .
بشير زهدي	مملكة دمشق الآرامية ـ مجلة الحوليات الاثرية ـ المجلد الثامن والتاسع ـ ١٩٥٨ ، ١٩٥٩ .
جان خوري	الثروة المائية الجوفية في حوض دمشق ـ محفوظات مديرية الري في وزارة الاشغال العامة ـ دمشق ١٩٦١ .
جمال حمدان	جغرافية المدن ـ القاهرة ١٩٦٠ .
» »	المدينة العربية ـ مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ـ ١٩٦٤ .
دائرةالمعارف الاسلامية	المجلد التاسع ـ العدد الاول .
سلوى دهمان	تموين مدينة دمشق بمياه الشرب ـ بحث غير منشور ـ دمشق ١٩٥٨ .

شركة سوكريا	تقرير أولي حول امكانيات تحسين استثمار نبع عين الفيجة – مترجمة الى العربية – آب ١٩٦٥ .
شفيق الصفدي	مصادر اضافية لتأمين مياه الشرب لمدينة دمشق – من محفوظات مديرية الري في وزارة الاشغال العامة – ١٩٦٠ .
« «	نتائج اعمال السبر في حوض دمشق للتحري عن المياه الجوفية – من محفوظات مديرية الري في وزارة الاشغال العامة – ١٩٦٠ .
« «	تقرير عن منسوب المياه الجوفية – من محفوظات مديرية الري في وزارة الاشغال العامة – ١٩٦٠ .
صبحي المظلوم	الثروة المائية في سوريا – المؤتمر الثالث للمهندسين العرب – دمشق ١٩٤٧ .
صلاح الدين المنجد	دمشق القديمة – مطبوعات مديرية الاثار القديمة دمشق ١٩٤٥ .
« « «	مسجد دمشق – دمشق ١٩٤٨ .
« « «	خطط دمشق – بيروت ١٩٤٩ .
« « «	حمامات دمشق – مجلة المشرق – تموز ، ايلول ١٩٤٧ .
عبد الجبار الخولاني	تاريخ داريا جزءان – بعناية سعيد الافغاني – دمشق ١٩٥٠ .
عبد القادر ريحاوي	تاريخ دمشق العمراني – مجلة الحوليات الاثرية السورية – المجلد ١٤ – دمشق ١٩٦٤ .
عبد الكريم غرايبه	سورية في القرن التاسع عشر مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية – القاهرة ١٩٦١ – ١٩٦٢ .

عزة النص	احوال السكان في العالم العربي - مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية - القاهرة ١٩٥٥ •
» »	جغرافية السكان في سوريا - محاضرات غير مطبوعة •
علي الحسني	تاريخ سوريا الاقتصادي - دمشق ١٣٤٢ ﻫ •
علي الصالحي	الحلل السندسية في تاريخ الصالحية - تحقيق محمد احمد دهمان .
علي الطنطاوي	دمشق - صور من جمالها وعبر من نضالها - الطبعة الاولى - ١٩٥٩ .
علي بن محمد الرّبَعي	فضائل الشام دمشق - تحقيق صلاح الدين المنجد .
عيسوي ودابيزابر	حركة السكان والضغط السكاني في الاردن ولبنان وسوريا - مجلة معونة ملبانك التذكارية - المجلد ٢٩ - تشرين الأول ١٩٥١
فيليب اسود	المشروع البدائي لتنظيم بردى - مترجم الى العربية .
فيليب حتي	تاريخ سوريا وفلسطين - جزءان - ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق - الطبعة الثانية - بيروت ١٩٥٧ .
محمد احمد دهمان	جبل قاسيون - دمشق ١٩٤٦ .
محمد اديب الحصني	منتخبات التواريخ لدمشق - ثلاثة اجزاء - دمشق ١٩٢٧ .
محمد السيد ايوب	المياه الباطنية في سوريا - المؤتمر الثالث للمهندسين العرب - ايلول ١٩٤٧ •

محمد السيد غلاب ومحمد صبحي عبد الحكيم : السكان « ديموغرافيا وجغرافيا » القاهرة ١٩٦٢ .

محمد سعيد القاسمي	قاموس الصناعات الشامية - الجزء الاول - تحقيق ظافر القاسمي •

محمد صبحي عبد الحكيم مدينة الاسكندرية - ١٩٥٨ .
محمد كرد علي خطط الشام - الجزء الرابع والخامس - دمشق ١٩٢٥ .
» » » دمشق مدينة السحر والشعر - سلسلة اقرأ (١٦) - القاهرة ١٩٤٤ .
» » » غوطة دمشق - الطبعة الثانية - دمشق ١٩٥٢ .
محمد وحيد مسعود مستقبل الطيران المدني في الجمهورية العربية السورية - بحث غير منشور - ١٩٦٤
محمد ياسين الحموي دمشق في العصر الأيوبي - دمشق ١٩٤٧ .
مديرية الاحصاء والتعداد (في وزارة التخطيط) احصاء القوة العاملة بالعيّنة لعام ١٩٦١ - ١٩٦٢ .
» » » (في وزارة التخطيط) التعداد العام للسكان لعام ١٩٦٠ لجميع المدن والمحافظات السورية .
» » » (في وزارة التخطيط) دراسة تكاليف المعيشة للأسرة في دمشق لعام ١٩٥٧ .
» » » (في وزارة التخطيط) نتائج عملية حصر المؤسسات في الجمهورية العربية السورية لعام ١٩٦٠ .
مصطفى الشهابي البقول - دمشق ١٩٢٧ .
مكتب الوثائق السورية والعربية - دراسات في الاقتصاد السوري - دمشق ١٩٥٨ .
ممدوح زركلي وفؤاد مالك - التوسع العمراني لمدينة دمشق - مجلة المهندس العربي - أيار ١٩٦٣ .

منظمة الاونيسكو الدولية دمشق ـ مجلة الحوليات الأثرية السورية ـ المجلد الثالث ـ الجزء الأول والثاني ـ ١٩٥٣ .

ميشيل ايكوشار وجيوجي بانشويا ـ المشروع الابتدائي المخطط التنظيمي العام لمدينة دمشق ـ الترجمة العربية ـ ١٩ حزيران ١٩٦٥ .

نعمان القساطلي الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ـ المطبعة الامريكية ـ بيروت ١٨٧٩ .

« « حسر اللثام عن نكبات الشام ـ مصر ١٨٩٥ .

ياقوت الحموي معجم البلدان ـ دار صادر ودار بيروت ـ ١٩٥٥ .

ويتمر فيري البيت البورجوازي العربي في سوريا ـ تعريب عدنان البني ـ مجلة الحوليات الأثرية ـ المجلد الثامن والتاسع ـ ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ .

المصادر والمراجع الاجنبية

Baedeker (K.), Palestin and Syria, Leipzig, 1876, 5 th, ed. 1912 .

Bagh (A. S.), L'industrie â Damas (entre 1928 - 1958), Damas, 1961 .

Bardet (G.), L'Urbanisme, (Que sais - je?), Paris,1955.

Bechara (E.), Le regime des eaux en Syrie (Extr. de l'Egypte Contemp. T. XII, Cairo, 1921 .

Birot (P.), et Dresch (J.), La Méditerranée et le Moyen Orient (coll. Orbis, Paris, 1956) .

Blanchard (R.), L'Asie Occidentale, Géographie Univer - selle, t. VIII, Paris, 1930 .

Bonné (A.), Economic development of the Middle East, London, 1954 .

Brunhes (J.), La géographie humaine, Paris 1943 .

Burdon (D. J.), The groundwater resources of the Damas - cus basin, a preliminary report, Damascus 24 May, 1959 .

Cahen (Cl.), Mouvements populuires et autonomisme urbain dans l'Asie Musulmane du Moyen Age, dans Arabica, V (1958), 225 - 250 , VI (1959) , 25 - 26 , 233 - 265 .

Carle (G.), L'Hydraulique agricole et industrielle en Syrie, Paris, 1923 .

Chehabe-Ed-Dine (S.), Géographie humaine de Beyrouth, Bey - routh, 1960 .

Clerget (M.), De quelques caractères communs et distin- ctifs des villes arabes dans l'Orient Médi-

eval (Bulletin de la société royale de géographie d'Egypte, Tome XVIII, 1934).

Combier (Ch.), La climatologie de la Syrie et du Liban, Revue de géog. Phys. et de géol. dynam, vol. 4, fasc. 4, 1933 .

Combier (Ch.), Aperçu sur les climats de la Syrie et du Liban, avec carte au 1/000,000 des pluies et vents, Beyrouth, 1945 .

Cornish (V.), The great capitals, London, 1923 .

Cressey (G. B.), Crossroads, 1960 .

Greswell (K. A. C.), Early Muhammedan Architecture, Oxford, 1932 .

Cuinet (V.), Syrie, Liban et Palestine, Géographie Administrative, fasc. 3, Paris, 1898 .

Danger (R.), Danger (R.), Danger (P.), et Ecochard (M.), Damas, Rapport d'enquête monographique sur la ville, Damas, 1936, dactylographié ,

De Lablache (V.), Principles of human geography, London. 1959 .

Demangeon (A.), Problèmes de géographie humaine, Paris 1952 .

Dickinson (R. E.), City, Region and regionalism, 1947 .

Dubertret (L.), Aperçu de géographie physique sur le Liban, L'anti - Liban et la Damascène, Notes et Mémoires, T. IV, 1945 - 1948 .

Dubertret (L.), L'hydrologie et aperçu sur l'hydrographie de la Syrie et du Liban dans leur relations avec la géologie, (Revue de géographie physique et de géologie dynamique, 1933)

Dubertret et Weulersse , Manuel de géographie, Syrie, Liban et Proche-Orient, Première Partie, Beyrouth, 1940 .

Dupont - Sommaire, Les Araméens, l'Orient Ancien illustré, Paris 1949 .

Dussaud (R.), Le temple de Jupiter Damascénien et ses transformations aux époques chrétienne et musulmane, (dans Syrie, 1922) .

Dussaud (R.), Topographie historique de la Syrie antique et médiévale, Paris, 1927 .

Ecochard(M.), Banshoya (G.),Ville de Damas, Etape definitive. 2 Juillet, 1966 .

Ecochard(M.),Banshoya(G.),Ville de Damas,Etudes préliminaires au plan d'urbanisme, Damas, 20 Octobre, 1964 .

Ecochard(M.),et le Cœur (C.),Les bains de Damas,Beyrouth,1942.

Eddé (J.), Géographie, Liban-Syrie, 5ème édition, Beyrouth 1941.

Fawcett (C. B.), The position of some capital cities, Geog. teacher, 1917-1918.

Fedden (R.), Syria, An historical appreciation, London, 1955 .

Fink (H. S.), The role of Damascus in the history of the Crusades, dans MW, XLIX (1959) .

Fish (W. B.), Premières notes sur la météorologie de la Syrie et du Liban, Notes et Mémoires, Tome IV.

Fontaine (M.), Ville de Damas, alimetation en eau, rapport, Mars, 1963 .

Frolow (M. V.), Régime des sels dissous dans les eaux de rivières de la région de Damas, (CR. Ac. Sc; 25 Juillet 1932).

Garrett (J.), The site of Damascus, Ceography, 1936.

Gaudefroy - Demombynes (M.), La Syrie à l'époque des Mamelouks, Paris, 1923.

George (P.), Précis de géographie urbaine, Paris, 1961.

Gibbs (J.), Urban research methods, New York, 1961.

Gottmann (J.), Contributions récentes à la géographie humaine du Levant, An. de géog. XLVI, 1937.

Haddad (G.), Damas et la Syrie du Sud, Damas, 1952.

Hamidé (A. R.), La ville d'Alep, Etude de géogrephie urbaine, Paris, 1959.

Hartmann (R.), Art. (Damas) dans l'Encyc. de l'Islam, tome I, Paris, 1913.

Heyd (W.), Histoire du commerce du Levant au Moyen Age, (2e éd. Leipzig, 1923).

Huzayyin (S.), Les villes septentrionales de l'Orient Arabe, leur distribution géographique, C.R. du cong. int. de géog. de Varsovie, T. III, 1934.

Jalabert, Art. Damas, dans dict. d'Archéol. chrétienne et de liturgie.

Jamil (R.), Damas, Palmyre, Baalbek, (Les guides verts) Damas, 1949.

Jefferson (M.), Law of the Primate City, Geog. Rev. April 1939.

Khatib (A. B.), Les projets d'irrigation dans la province

Syrienne, B.D.S.A., Damas, Mars 1960, renéotypé.

Lammens (H.), La Syrie, précis historique, Beyrouth, 1921.

Lavedan (P.), Géographie des villes, nouvelle édition, Paris, 1959.

Mayer (H. M.), and Kohn (C. F.), Readings in urban geography, Chicago, second impression, 1960.

Mazloum (S.), De la variabilité des pluis dans le bassin oriental de la méditerranée, Publications de l'école Française d'ingénieurs, № 5, Beyrouth, 1944.

Moussley (N.), Le problème de l'eau en Syrie, Lyon, 1951.

Nations - Unies, Annuaire démographique, 1963.

Nations - Unies, Annuaire statiques, 1962.

Nouss (I.), La population de la République Syrienne, Thèse de doct. ès - Lettres. dact., Paris, 1951.

Perdersen, Art. Masdjid, dans Encycl. de l'Islam.

Ponikarov (V. P.), The geological map of Syria, scale, 1:200,000, sheet, 1- 37 - VII, Damascus, Explanatory notes (Text), Moscow, 1963.

Ponikarov (V. P.), Explanatory notes to the geomorphological map of Syria, scale 1:500,000, Moscow, 1962.

Porter (J. L.), Five years in Damascus, two volumes, London, 1855.

Sadek (D.), The morphology of Damascus, (Bulletin de la Société de géographie d'Egypte, tome XXVIII, 1955).

Sauvaget (J.), Le plan antique de Damas, dans Syrie, T.

XXVI, 1949.

Sauvaget (J.), L'Architecture Musulmane en Syrie, (Revue des arts Asiatiques, 1934).

Sauvaget (J.), Les monuments historiques de Damas, Beyrouth, 1932.

Sauvaget (J.), Esquisse d'une histoire de la ville de Damas, (R.E.I. année 1934, Cahier IV), Paris, 1935.

Sauvaire (H.), Description de Damas, J. As., 3e série, III-VII 1894-1896. Index général par E. Ouèchek, P.I.F.D. 1954.

Smailes (A. E.), The geography of towns, London 1953.

Sorre (M.), Les fondements de la géographie humaine, Paris, 1952.

Stamp (L. D.), Applied geography, A pelican book, 1961.

Technopromexport, Scheme of regulation of the Barada river flow, Moscow, 1961.

Thoumin (R.), Géographie humaine de la Syrie Centrale, Tours, 1936.

Thoumin (R.), La maison Syrienne, (Documents d'études Orientales, tome II, Paris, 1932).

Thoumin (R.), Deux quartiers de Damas, Akrad et Bab Mucalla, (Bull. d'Etudes Orientales de l'inst. Fr. de Damas, T. I., 1931).

Thoumin (R.), Notes sur l'aménagement et la distribution des eaux à Damas et dans sa Ghouta, (Bulletin d'études Orientales, tome, IV, année 1934).

Tresse (R.), L'irrigation dans la Ghouta de Damas,

(R.E.I.) tome III, 1929 .

Van Liere (W. J.), The soil associations of the basin of Damascus and surroundings, report, 1953 .

Van Liere (W. J.), Observations on the Quaternary of Syria, Publication of the General Directorate of Antiquities and Meseums in the Syrian Arab Republic , 1960-1961 .

Weulersse (J.), Les primauté des cités dans l'èconomie Syrienne, 1938 .

Weulersse (J.), Damas, Ètude de l'évolution urbaine, Bull. Ass. Géog. Fr. 1936 .

Weulersse (J.), Paysans de Syrie et du Proche- Orient, éd. 8, 1946.

Woolley (L.), Syria as the gateway between East and West, Geog. Jour. CVII (1946) .

Zakaria (T. T.), A housing program for Damascus, Syria, A Thesis submitted to Michigan State University, 1963 .

Ziadeh (N. A.), Urban life in Syria under the early Mamalucs, Beirut, 1953 .

فهرس الأشكال

الشكل	الصفحة
٣٩ ـ تزايد السكان في مدينة دمشق في فترات متساوية	٢١٣
٤٠ ـ تطور نسبة المواليد والوفيات والزيادة الطبيعية في دمشق	٢٢٣
٤١ ـ توزيع المتزوجين والمتزوجات حسب فئات الأعمار في مدينة دمشق	٢٤٥
٤٢ ـ مصادر سكان دمشق	٢٤٧
٤٣ ـ مصادر الهجرة الى دمشق من المناطق المجاورة	٢٥٣
٤٤ ـ توزيع المهاجرين السوريين الى دمشق بحسب مصادرهم	٢٥٤
٤٥ ـ الهجرة الداخلية الى مدينة دمشق	٢٥٥
٤٦ ـ توزيع سكان دمشق حسب فئات الاعمار والنوع	٢٦٢
٤٧ ـ التوزيع العددي لسكان دمشق في عام ١٩٢٢	٢٩١
٤٨ ـ التوزيع العددي لسكان دمشق في عام ١٩٦٠	٢٩٣
٤٩ ـ توزيع كثافة السكان في دمشق عام ١٩٣٧	٢٩٥
٥٠ ـ توزيع كثافة السكان في دمشق عام ١٩٦٠ (بطريقة التظليل)	٣٠٠
٥١ ـ توزيع كثافة السكان في دمشق عام ١٩٦٠ (بطريقة التجسيم)	٣٠١
٥٢ ـ توزيع كثافة المساكن في دمشق عام ١٩٦٠	٣٠٣
٥٣ ـ توزيع درجة التزاحم في دمشق عام ١٩٦٠	٣٠٨
٥٤ ـ تركيب المدينة في عام ١٩٣٧	٣٢٣
٥٥ ـ اسعار الاراضي في مدينة دمشق	٣٢٧
٥٦ ـ البيت العربي في دمشق	٣٨٧
٥٧ ـ نماذج من البيت الكردي في دمشق	٣٩٣
٥٨ ـ حركة السير الداخلية في مدينة دمشق	٤١٥
٥٩ ـ حركة المرور بين دمشق والغوطة	٤٣٠
٦٠ ـ استغلال الارض في غوطة دمشق	٤٣٩

الشكل	الصفحة
٦١ ـ موقع دمشق بالنسبة لسوريا	٤٥١
٦٢ ـ كثافة السكان في سوريا حسب المنطقة	٤٥٦
٦٣ ـ الاستقطاب والتدرج المدني	٤٥٧
٦٤ ـ الوظيفة التجارية في المدن السورية	٤٦١
٦٥ ـ أهمية دمشق من الناحية الطبية	٤٦٣
٦٦ ـ النشاط الصناعي والحرفي في المدن السورية	٤٦٤
٦٧ ـ المؤسسات الصناعية في مدينة دمشق حسب الفروع وفئات العمال	٤٦٦
٦٨ ـ نصيب دمشق من المشتغلين في الصناعات الرئيسية	٤٦٨
٦٩ ـ مقارنة بين دمشق وحلب من حيث التركيب المهني للسكان	٤٧٢
٧٠ ـ مقاسم المياه في دمشق والغوطة	٤٨٥
٧١ ـ مياه الجاري في مدينة دمشق	٤٨٩
٧٢ ـ الاحتمالات الثلاثة لمستقبل السكان العددي لمدينة دمشق ومساحة الاراضي اللازمة لها	٥٨٧
٧٣ ـ المداخل الرئيسية لمدينة دمشق	٦٠١
٧٤ ـ مشروع تخطيط منطقة الوزارات والجامعة والمعرض	٦٠٩
٧٥ ـ السياحة في سوريا	٦١٦
٧٦ ـ حركة السياحة الموسمية في عام ١٩٦٢	٦١٧
٧٧ ـ مخطط تمثيلي بين التفرعات الرئيسية لنهر بردى	٦٢٧
٧٨ ـ مخطط تمثيلي لمشروع تنظيم بردى	٦٢٧
٧٩ ـ المياه اللازمة لمدينة دمشق	٦٣١
٨٠ ـ مشروع تنظيم بردى ـ الاعوج	٦٣٥

فهرس الكتاب

الصفحة

الصفحة

الصفحة

١٥٠٠ / ١١ / ١٩٦٩

منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي

دمشق - ١٩٦٩